تحت الرعاية السامية لصاحب الجلالة الملك محمد السادس

المعرض المغاربي للكتاب

آداب مغاربية

LETTRES DU MAGHREB

لنعبر عن الشباب، لنكتب الأمل

وقائع المعرض

وجدة، من 21 إلى 24 شتنبر 2017

تحت الرعاية السامية لصاحب الجلالة الملك محمد السادس

« ... واعتبارا للارتباط الوثيق بين قضايا الشباب وإشكالية النمو والاستثمار والتشغيل فإن معالجة أوضاعهم تحتاج إلى ابتكار مبادرات ومشاريع ملموسة تحرر طاقاتهم وتوفر لهم الشغل والدخل القار وتضمن لهم الاستقرار وتمكنهم من المساهمة البناءة في تنمية الوطن...»

مقتطف من الخطاب الملكي السامي في افتتاح
الدورة الأولى من السنة التشريعية الثانية من الولاية التشريعية العاشرة

آداب مغاربية، معرض للكتب

لقي المعرض المغاربي للكتاب، «آداب مغاربية»، بالنسبة لدورته الأولى، نجاحا لم يكن في الحسبان، حيث تجاوز كل توقعاتنا وملئنا غبطة وسرورا : أكثر من أربعين ألف زائر متعطش للقراءة، والمعرفة وللالتقاء مع الآخرين، وأزيد من مائتي مثقف متلهف لتبادل الأفكار حول المواضيع المقترحة، وحوالي عشرين ناشر من الأقطار المغاربية وإفريقيا وأوروبا، حققوا هنا مبيعات جيدة وشرعوا في العديد من مشاريع التعاون لتنمية قطاع الكتاب ببلداننا.
بإضفاء رعايته السامية على المعرض المغاربي للكتاب ، فإن صاحب الجلالة الملك محمد السادس، نصره الله، يُؤكد مجددا لنخبه ومثقفيه تعلقه بالمغرب الكبير وإيمانه بمستقبله.
لقد شعرنا بجد، بفضاء معرض، بذكاءات المغرب الكبير، الذي يفتخر ويتبنى... والذي يستكشف طريقا جديدا لمستقبله.
إن الكتابات والخطابات، وما شعرنا به كما البديهيات، وأعمال المؤرخين، والأنتروبولوجيين، وعلماء الآثار، وعلماء الاجتماع... وأنا بالضرورة نسيت آخرين... كلها تتجه نحو التأكيد على عناصر القرب، وأوجه التشابه والمكونات الثقافية المشتركة للبلدان المغاربية. ويمكن أن نضيف إليها العديد من المشاكل المشتركة التي ينبغي مواجهتها، ولكن أيضا مؤهلات علينا أن نستكشفها مجتمعين.
إن المغرب الكبير كما تم تصوره بمراكش سنة 1989 خلق آمالا كبيرة. وهو ما زال يحكمنا اليوم. حقا، كان هناك جيل آخر من المسيرين، وسياقات أخرى جيوستراتيجية... لكن الآمال تبقى نفسها، عالقة في الأذهان والقلوب، بعيدا عن كل المخططات السياسوية.
أجل، المغرب الكبير الغير السياسي موجود، وهو حي، مبدع وطموح... وهو ينتظر ويأمل.

الأمل المغاربي

أجل، «الأمل» تبقى الكلمة المفتاح بالنسبة لهذا المغرب الكبير الذي نتقاسمه. أمل فقده البعض، الذين تغريهم مغادرة المنطقة نحو وجهات أخرى خارجها... ولكن ينزعون فورا إلى إعادة التفكير فيها بهدوء انطلاقا من مناطق خارجية قلما تكون مناسبة. أمل أصيب بخيبات غالبا جراء جمود الوضع، وغياب الأفق، وتعزيز غير طبيعي للحدود التي تصمم كعوائق، وجدران... ويبدو في نهاية الأمر أن أمل المغرب الكبير يتحول إلى وهم.
إن الأمل المغاربي يتضمن السلام، والانفتاح، وتلاقيا أخويا بدون غرض نفعي، ولكن أيضا مطمحا لحياة أفضل قد يشجعها مغرب كبير اقتصادي ذو حدود مفتوحة.

أمل تفتح شخصي أيضا، وكرامة ورفاهية، وحرية متزايدة ومعيقات أقل، وتسامحات جديدة... أمل كبرياء لمغرب كبير يصبح كيانا قويا بفضل إبداعاته المشتركة. أمل قوة ثقافية ترتقي ويُعترف بها عالميا بقيمتها الحقيقية، لتمثل أداة للإشعاع تثمن الإبداع الأكيد لفنانينا بالأمس واليوم، بغض النظر عن تخصصهم وليس فقط الأدب والكتاب موضوع اهتمامنا هنا.
المغرب الكبير الثقافي الذي يخرج من السرية، والذي يتحدث بصوت عال وقوي مع الثقافات الأخرى بالعالم، طبعا هذا ليس مجرد حلم ! بل إنه أمل واقعي إذ لا يتعلق الأمر في النهاية إلا برفع الواقع المتصور إلى واقع فعلي.

شباب المغرب الكبير

أجل، يمثل شبابنا في نفس الوقت ثروة مطلقة وانشغالا دائما: انشغال إدماجهم في مجتمعاتنا وليس فقط من الزاوية المهنية. فإلى جانب الصعوبات الاقتصادية، وإلى ضرورة مراجعة نماذجنا التنموية لجعلها شاملة وأكثر نجاعة، يضاف ضغط النماذج الخارجية التي تنقلها مئات القنوات.
ماذا يحمل هذا النوع من النداءات الداعية لتبني ثقافات غير ثقافاتنا ؟
إذا كانت وسائط الاتصال «التقليدية» تبث بالأساس نماذج غربية، فإن الأنترنيت يضع رهن الإشارة «عروضا» اديولوجية متعددة وأحيانا مقرفة، إن لم تكن ببساطة متطرفة وعنيفة.
ليس هناك ما يدعو للاستغراب إن تأثرت مجتمعاتنا بكل ذلك. خاصة وأن واقعة موجودة، جزء منها اليوم أسطوري، مفادها المهاجر الذي انطلق من لا شيء ويعود إلى البلد وقد حقق ثروة هامة، حامل لحداثة على ما يبدو مثمرة لكونها أكسبته وضعا ظاهريا جديدا.
فهل يكون مثالا لنجاح طال انتظاره وتراجع اليوم إلى حالة حرمان ؟
تظهر موائدنا المستديرة حول مواضيع الهجرة والحدود بوضوح كل ذلك وتُقاطِع أفكار المثقفين، والملاحظين المطلعين، حول الجوانب الأكثر بروزا لهذه الإشكالية.

ما يقال مغاربيا

نقول غالبا : «... هذا الأمر يكلمني !»
إذاً، ماذا يقول المغرب الكبير لشبابه وماذا يقول الشباب عن مغربهم الكبير؟ نحن نعرف ذلك بواسطة شبكات التواصل الاجتماعية أكثر مما نعرفه عبر وسائط الإعلام. فخارج الأنترنيت، يتحدث شبابنا قليلا في وسائط الإعلام التقليدية، وينشرون قليلا، وليست لهم خطابات مسموعة بعيدا عن جماهيرهم المباشرة. وحسب ما يقال، يبدو أن الكثير من الظواهر قد تمت الإحاطة بها والتحكم فيها وفهمها لأنه تم تقديرها محاسبيا...

إلا أن مجتمعاتنا ليست أرقاما. فهي تستمع وتعبر. والشباب جزء نشيط من المجتمع المدني، ومصدره ومستقبله أيضا.
إذاً، ماذا يقول شبابنا عن نفسه ؟ أين وكيف يختار أن «يعبر عن نفسه»؟ إنه يعبر عن نفسه بطرق وأشكال مختلفة. وهكذا، فهم يتخذون شكل انتاجات أدبية، إذا قبلنا فكرة أن هذه الانتاجات قد تكون غير تقليدية: الراب، الهيب الهوب، والإلقاء المرتجل... وهي أشكال عصرية، مغناة أو ملقاة، لتعبيرات تكلم الشباب كثيرا. وهي تحكي عموما شكلا من اليأس وطرق التخلص منه. ومنها الهجرة، والعديد من المشاركين في الموائد المستديرة الذين يعبرون عن رأيهم هنا، يظهرون إلى أي حد يعتبر هذا الحل غير ذي جدوى في عصرنا هذا. أدهى من ذلك، فهي تعرض الحياة للخطر وتصدم مباشرة إرادة بلدان الاستقبال التي لم تعد بالضبط ترغب في استمرار هذه الوضعية، لكونها تسعى لكي يكون نموها شاملا للسكان المقيمين سابقا.
منذ فترة طويلة، عبر فنانون قادمون من الأقطار المغاربية، من سينمائيين، وتشكيليين وموسيقيين وكاتبي كلمات، عن يأسهم من النفي بإبداعات مؤثرة تعبر ربما أفضل من كل الكتابات. وهذا «القول» الذي يثير غالبا الإعجاب هناك، هو معروف وواسع التعليق هنا كما يفسر ذلك المشاركون في الموائد المستديرة. ورغم كل المآسي، وكل الأخطار، يظل «إغواء الغرب» كبيرا لدى شبابنا، على حد قول أندري مالرو.
والدلائل ذات الطابع الاقتصادي غير كافية لوحدها لتفسير أسباب هذا التنويم المغناطيسي. وتدل النقاشات على الإحساس بمكان آخر أسطوري الذي يعبر عن فشل المجتمعات المغاربية على اقتراح مستقبل مشرق وجذاب لجزء مهم من شبابنا. هل هذا الشعور يوجد فقط بالمنطقة المغاربية ؟ لا أظن ذلك... فقد أصبح ينتمي لعالم اليوم.

ماذا يكتب مغاربيا

إن أقطارنا تعي أهمية الكتاب في الاقتصاد الجديد للمعرفة. كما تقدر أيضا مكانة الخيال والخلق في الدينامية التي ينبغي إرساؤها لنقل صورة بلداننا عبر العالم. لكن كل بلد يستنتج خلاصاته، والسياسات التي تنبع عنها هي بالتالي متفردة وتفتقر لأهداف مشتركة، رغم الآمال المعقودة عليها.
إن متوسط ثمن الكتاب هو أحد النتائج. إنه مؤشر هام، من بين مؤشرات مهمة أخرى، على مستوى الولوجية للكتاب. فبالمغرب، مثلا، لا يتجاوز هذا المؤشر إلا بقليل نصف مثيله بتونس ويبلغ حوالي ثلثي مثيله بالجزائر[1]. والدعم المعزز الذي يقدم للنشر قد يكون هو السبب.
في الواقع، تدعم أقطارنا كل دور نشرها الوطنية، ولكن دون حد أدنى من الانسجام في السياسات، ولا طبعا أهداف مشتركة. إن النشر المشترك بين الأقطار المغاربية نادر جدا والتعريف بكاتب مغاربي ببلد مغاربي آخر غير بلده ليس أمرا شائعا.

بواسطة جائزة الرواية العربية، يأمل منظمو المعرض فتح نافذة عبر الأقطار، ولو أن الإطار أوسع من الإطار المغاربي. يتعلق الأمر بإظهار ما تقدمه تظاهرة ترتكز على جمهور لا يترك مؤلفينا تحت رحمة الرغبة الحصرية للناشرين والنقاد الدوليين.
للتذكير، 18% من الكتب الصادرة بالمغرب1)) حصلت على دعم عند نشرها في فترة 2016-2017 وأكثر من 800 3 عنوان تم نشره، مقابل 300 3 عنوان سنة من قبل. ويخفي هذا الانتعاش النسبي مع ذلك نقط ضعف لأن الإبداعات الأدبية لا تمثل إلا أقل من ربع العناوين، وهي نسبة قليلة لتكوين وتشجيع أدب وطني مبدع يظهر للعالم مخيال ومواهب كُتابنا. إضافة إلى ذلك، فإن أقل من كاتب من خمسة هم من النساء، في حين أن موائدنا المستديرة، وخاصة منها المكرسة للكاتبات، تؤكد علو كعبهن. ويبقى أيضا أن زهاء ربع الكتب تنشر على نفقة المؤلف.
أما نقطة الضعف الأخيرة فتكمن في كون زهاء ثلاث كتب من أربعة تركز حصريا على المغرب، وهي منشورة بالأساس بالعربية، وهو أمر لا يناقش، لكن دون أية ترجمة. حقا من المتفق عليه أن وضعا أو قصة محلية قد تأخذ طابعا كونيا والكثير من المؤلفين استطاعوا اكتساب هذا المستوى، غير أنه ينبغي أن توزع في أماكن أخرى. أجل، لا يمكن أن نطمح إلى العالمية بدون وجود منظومة فعالة للترجمة.
إن الترويج للإبداع والخيال المغاربي خارج النطاقات الوطنية هو دون شك هدف «آداب مغاربية»، المعرض المغاربي للكتاب. ولإنتاجاتنا الأدبية عمق تاريخي ببلداننا وفهرس المعرض يذكر بذلك ويوضحه بحق. فبعد نصف قرن من الاستقلال، يبقى قراؤها وجمهور مبدعينا دون قيمنا المعترف بها، تلك القيم التي تبرزها إبداعاتنا وكُتابنا. ينبغي على إنتاجاتنا المكتوبة أن تشع. إنها حاجة حيوية، حتى ولو لم ينظر إليها إلا نادرا كأمر مستعجل. والاعتراف الدولي سيجعلنا كلنا نحظى بإنصات واستماع أفضل وأكبر... ونكون أقوى مجتمعين.

القراءة تُحرر

إن الواقع المحسوس عندنا، وواقع الآخرين والأماكن الأخرى، وحقيقة المشاعر، والحرمان بأشكاله، والخيبات، وحقيقة الماضي، والحاضر وأحيانا واقع المستقبل الذي يتراءى، ومخيال الـ «هُنا» ومخيال الـ «هناك»، والأحلام كما الكوابيس، والأمل والشباب أيضا... كل شيء يدوَّن في الكتب.
الكتب تحكي، تصف وتخبر. الكتاب يتحدث عن المشاعر التي تتضافر مع الوقائع الموضوعية. والكتابة تحرر الكاتب مما لا يقال حول العالم. وهي تمنحه مساحة من الحرية لا توفرها المقاربات المحاسبية. والكتابة تعبر في نفس الوقت عن الآلام والأفراح.

الكتابة تُذكر، وتُظهر، وتعيد وضع الحقائق في حياة النساء والرجال التي غالبا ما تكون قد عايشتها.
الكتابة تترك المكان للتعبير عن الوجدان وثقافة كل واحد. وهي تحرر الكلام، وتمكن من العودة للوراء وكذا من التقاسم، وتُحَسس، وتعيد وضع سياقات، وترجع الأوضاع إلى حجمها الطبيعي، وتعيد الفرد إلى مركز الاهتمامات. الكتابة تبوح بشيء في روح الكاتب والأرواح المختلفة التي صاحبت معيشه المسترجع.
إن معرضا مغاربيا للكتاب ليس فقط تظاهرة مكرسة لتطوير النشر بالأقطار المغاربية وللالتقاء مع الكُتاب، ولو كان ذلك مهما. حقا، ذلك مهم، لكن معرضا من هذا النوع يظهر ويرتقي بالمحتويات التي تهمنا بشدة، والتي، في مكان آخر، قد تكون ثانوية، بل وحتى تافهة. ورغم كونها موجزة، فإن الإحصائيات التي وردت في نهاية المؤلف تسجل التوجهات الأولى، الأكثر بساطة، والتي هي بالنسبة لنا مشجعة جدا.

في هذا المؤلف، القلب والعقل يتحدثان في نفس الوقت والاثنين يُستمع إليهما، يُفَسران وتتم مناقشتهما وتكريمهما ويُقرآن على هذا النحو. وما يمنحه هذا المعرض إنما هي آمالنا ومكتسباتنا كمغاربيين. نأمل أن يستطيع كتابنا وناشرونا بدورهم أن يقدموا هذه الخطابات المتعددة للقراء الذين سيجدون فيها تعبيرا عن أرواح طيبة ينبغي تقاسمها.
وانطلاقا من هذه الصيحة النابعة من القلب، أدعوكم أخويا السنة المقبلة للدورة الثانية من «آداب مغاربية».

محمد امباركي
رئيس معرض «آداب مغاربية»

(1) تقرير 2016 - 2017 لمؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود حول وضعية النشر بالمغرب (آداب، علوم إنسانية واجتماعية).

مع إصـدارات ORIENTAL.MA

تـسـاهـم وكـالـة جـهـة الـشـرق
فـــي تـكـويـن وتـداول الـمـعـرفـة

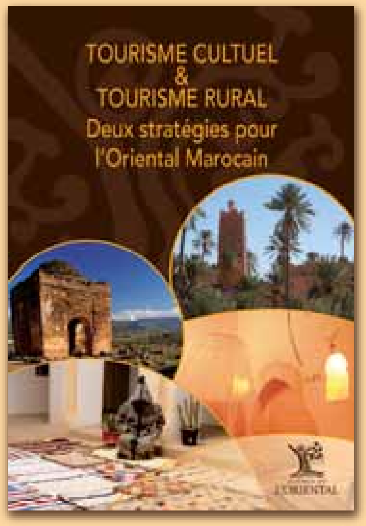

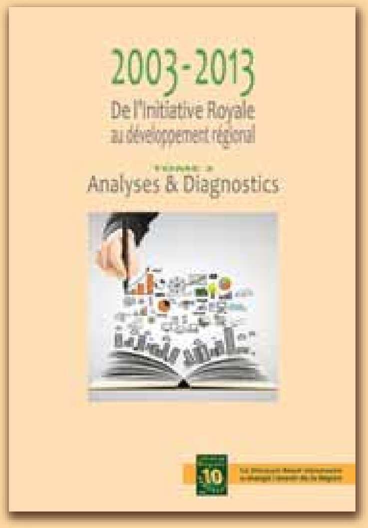

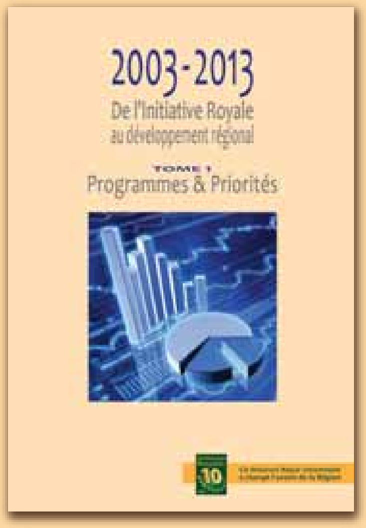

آخر الإصدارات في سلسلة دراسات

تنبيه

يستعيد هذا المؤلَف ما تم تداوله في مجموع الموائد المستديرة والعروض التي قدمت في مختلف القاعات المعدة لهذه الغاية بمسرح محمد السادس بوجدة، خلال الدورة الأولى للمعرض المغاربي للكتاب لشتنبر 2017. وبهذه المناسبة، تم تسجيل كل التدخلات، سواء منها الصادرة عن المتدخلين الرسميين الذين يتحدثون انطلاقا من المنصة أو التي تتعلق بأسئلة وآراء المشاركين المتواجدين بالقاعة.

لقد تم تدوين هذه التسجيلات بكل عناية. إلا أن لهذه الطريقة حدودا ينبغي الإشارة إليها. وهكذا، فإن بعض التصريحات، وخاصة منها ما لم يستطع الميكروفون التقاطها أو التي التقطت بصعوبة بحيث لم يكن بالإمكان تدوين بعض التدخلات أو بعض مقاطع التدخلات أو تم ذلك بصورة غير جيدة.

كما أن التدخلات تم نقلها هنا باللغة الفرنسية، وقد تكون قد جرت بلغات أخرى. هذا الأمر يتوافق والانفتاح التقليدي لجهة الشرق على ثقافات عديدة قريبة طعمت الشخصية الثقافية الجهوية، ولكن أيضا مع الهيمنة الطبيعية للغة العربية في تعبير المثقفين المغاربيين، وكذا مع الممارسة القائمة على مستوى بعض المجالات الترابية أو أيضا لشراكات دولية دفعت شركاء أجانب غير فرنكوفونيين للتعبير. هذه التعددية في لغات التعبير، تُعَد مصدر ثراء يعكس غنى جهة الشرق وبشكل أوسع غنى المنطقة المغاربية. لكنها تمثل أيضا خطرا على مستوى الاستعادة الجيدة لفكر المتدخلين، لأن الترجمة تؤدي احيانا لبعض الفوارق البسيطة في المعنى وإلى معنى مختلف في بعض الأحيان رغم كفاءة وجهود المترجمين.

فالنزاهة الأدبية تحتم إخبار القارئ بأن بعض الاختلافات الممكنة قد حصلت، ولو أن المسؤولين عن النشر بذلوا ما في وسعهم لتجنبها، أو أن بعض الكلمات التي نطقت لم يتم تدوينها. لذا، فإنه من الضروري بالنسبة للساهرين على هذه الدورة التأكيد على أن كل تقصير محتمل من هذا النوع هو طبعا غير مقصود، بل بالعكس تماما، بذلت كل الجهود للتقيد بكل أمانة بالتدخلات التي تمت. وبالرغم من هذه المجازفة، فقد بدا لنا أساسيا أن نتقاسم مع الجمهور كل الثراء الذي احتوت عليه التدخلات والنقاشات.

اللجنة المكلفة بالنشر

الفهرس

تمهيد 5

توطئة 11

الجزء الأول : أبرز المداخلات التي عرفتها الموائد المستديرة 15

الشباب المغاربي : العيش هنا أو الحلم بالهناك ؟ 17

شباب المغرب الكبير : بحث منجز بشراكة مع الاتحاد الأوروبي 28

الهجرة، أسطورة العودة 36

الكتابة ضد الجدران 46

الهجرة والكتابة 56

الكتابة والإبداع في السنغال 63

كتابات أمازيغية (المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية) 73

تجربة الحدود، بين الحقيقة والخيال 85

مغرب اليوم 95

أدب الشباب المغاربي : واقع الحال، الرهانات والآفاق 106

قراءات قصصية 115

أن تكون مهاجرا في المغرب 127

الشباب والهجرة نحو اسبانيا : وجهات نظر - مؤسسة الثقافات الثلاث (اسبانيا) 139

النشر المشترك المغاربي 151

في معنى أن تكون إفريقيا اليوم 158

تجارب في الكتابة النسائية 171

وساطة أدب الشباب : تنشيط القراءة - قراءة المتعة، الحكاية - الاستغلال الديداكتيكي 186

الجائزة العالمية للرواية العربية 194

الخصوصيات الثقافية : عامل من عوامل التنمية ؟ 204

تكريم لفاطمة المرنيسي وآسيا جبار 217

تكريم لمحمد أركون
ومحمد عابد الجابري :
مقاربات الجمع 230

العيش معا 245

الثقافات والهجرة 254

مكانة الرسم التوضيحي
في أدب الشباب :
ماذا عن الرسم التوضيحي
للشباب المغاربي 260

دور المثقف 271

ورشة تكوين :
محاضرة حكواتية،
رهانات الحكايات التقليدية
في عصر الحداثة 286

تمثيلية المغرب
في المعارض الدولية للكتاب 298

ذاكرات يهود شرق المغرب 305

تقديم الكتاب الجميل
«الشرق المغربي :
قرون من فن الطبخ اليهودي» 313

ورشات الكتابة
كيف نكتب رواية
أو قصة قصيرة 325

الجزء الثاني : برنامج
الأنشطة اليـــومي 338

الجزء الثالث :
تقرير حول الأنشطة 343

ORIENTAL.MA Beaux Livres

سحر التراث؛
وقناعتنا بأنه إستثنائي.

www.oriental.ma

وكالة
جهة الشرق

أبرز المداخلات
التي عرفتها الموائد المستديرة

ORIENTAL.MA Beaux Livres

سـحـر الـتـراث؛
وقـنـاعـتـنـا بأنـه إسـتـثـنـائي.

www.oriental.ma

وكالة
جهة الشرق

الشباب المغاربي : العيش هنا أو الحلم بالهناك ؟

رئيس الجلسة : محمد امباركي

المشاركون : إدريس اليزمي، نعيمة ياحي (الجزائر- فرنسا)، جامع بيدا، العربي امرابط، الصديق معنينو، نزار بن سعد

فضاء : ليوبولد سيدار سنكور

التاريخ : يوم الجمعة 22 شتنبر 2017

الساعة : 09 : 30 - 11 : 00

موجز مداخلات المائدة المستديرة

شارك العديد من المفكرين والمؤلفين والباحثين في هذه المائدة المستديرة التي أدارها محمد امباركي، المدير العام لوكالة جهة الشرق وكذا بصفته رئيس المعرض المغاربي للكتاب بوجدة. ومن بينهم : إدريس اليزمي، رئيس المجلس الوطني لحقوق الإنسان، العربي امرابط، باحث متخصص في قضايا الهجرة، إلى جانب نعيمة ياحي، مؤرخة وباحثة فرنسية-جزائرية.

خلال هذا اللقاء، سعى المشاركون للتطرق لظاهرة الهجرة من زوايا مختلفة، لتحديد أبعادها الثقافية والفنية والاجتماعية، والبحث عن الأسباب التي تدفع الشباب إلى عبور البحر الأبيض المتوسط للوصول إلى الضفة الأخرى.

كما حاولوا كشف خيوط ظاهرة الهجرة، وهي ظاهرة قديمة جدا، لتوضيح جوانب هذا الحلم الذي يداعب الشباب أحيانا ويحدد مدى شرعيته ومقدار القدرة على إنتاجه. بعد تسليط الضوء على إبداع الشباب المغاربيين، لاسيما المساهمات المتعددة للفنانين المغاربيين في المهجر في القرن الماضي، في مختلف التخصصات الفنية، حيث قال إدريس اليزمي أنه لا يجب الحكم على الهجرة دائما بطريقة سلبية، ولكن يجب النظر إليها على أنها فرصة «لاكتشاف الآخر، واكتشاف ثقافة أخرى، وجه آخر وحب الآخر».

من جهتها، ناقشت نعيمة ياحي ظاهرة الهجرة في علاقتها بالموسيقى، موضحة كيف أن «الراب» و«الهيب هوب» أدوات لقياس الأحلام وخيبات الأمل. إضافة إلى أن «الراب» يعبر أحيانًا عن استياء الشباب من الظروف الاجتماعية وغياب الآفاق في المنطقة المغاربية.
من جانبه اعتبر السيد العربي امرابط أن الشباب يختلفون عن بعضهم البعض في طموحاتهم وأحلامهم، لاسيما حسب مؤشر السن والبيئة الاجتماعية التي ترعرعوا فيها. في نفس الإطار، تحدث عن أنجع السبل لتحقيق المشاريع الشخصية، مشيرا إلى أن الظروف تغيرت، حيث أن فرص العمل التي يحلم بها الشباب اليوم لم تعد متاحة للجميع إذ تقتصر على ذوي المهارات والمؤهلات العالية.
خلال هذا الاجتماع، تناولت بعض المداخلات قضايا بناء منطقة مغاربية موحدة والدور الذي يمكن أن تلعبه النخبة المثقفة في تحقيق هذا الطموح الجماعي للشباب المغاربي من خلال الإبداع والإنتاج الخلاق.

محمد امباركي

أرحب بكم جميعا. كما تعلمون في كل المعارض، يسعد المثقفون بلقاء بعضهم البعض وقضاء أمسيات ممتعة معا، مليئة بنقاش شيق، وغالبا ما تنتهي في ساعة متأخرة من الليل. لذلك أنا أعتذر منكم لأن البرنامج بدأ منذ الساعات الأولى للصباح، لكن المواضيع جيدة ومثيرة للاهتمام، حيث أن غايتنا الأولى هي الاستفادة أكبر قدر ممكن من كفاءاتكم العالية، وكيف لا ونحن نتشرف بحضور خبراء من مستوى عالي، أولئك الذين أحببنا كتاباتهم وتفاعلنا معها، وأيضا أولئك الذين نقدر فيهم شجاعة التعبير عن بعض الأشياء. ينعقد هذا المعرض تحت شعار «لنعبر عن الشباب، لنكتب الأمل» وبالنسبة لي، حدث من هذا النوع يجب أن يشكل دائما جزءا لا يتجزأ من المعيش اليومي للجهة التي تستضيفه.

لعل من بين أهداف هذه الندوات إخبار وتوعية الساكنة والمثقفين والطلاب الذين يحضرون للاستماع إليكم.

في الواقع، لقد فكرنا في البداية في تسمية هذا الموضوع «الشباب والهجرة»، لأن جهتنا قدمت لوحدها ما يقرب من ثلث أعداد المهاجرين المغاربة. وأثناء اجتماع موسع خصص لتدارس مجموعة من الأفكار مع مسؤولي الجهة، أعطيت قراءات مختلفة لهذا العنوان. وبالنسبة لنا، عنوان «الشباب والهجرة»، كان بمثابة وصف واقع موضوعي للمنطقة المغاربية، التي «تصدر» الشباب وتجعل بذلك البحر الأبيض المتوسط مقبرة لذات الشباب. بيدا أن هناك حقيقة أخرى تطالعنا، وهي أن حلم الشباب يتجلى في البحث عن مكان آخر لتحقيق الذات، غالباً ما يكون مثالياً للغاية.

بعد المناقشة، اعتبرت أغلبية المداخلات أن هذا العنوان غامض شيئا ما، حيث يمكن أن يؤول كما لو كنا نحث الشباب على التفكير في الهجرة والرحيل كأفق وحيد لتحقيق طموحاته. لكن، ليس هذا ما نبتغيه لشبابنا، وأخطر ما في الأمر هو أن يفهمه الشباب بهذا المعنى، لذلك قررنا دعوة أبرز المسؤولين عن سياسة الهجرة ومغاربة العالم، أي على المستوى الحكومي والسياسي، الوزير، المجلس الوطني لحقوق الإنسان الذي يواجه هذه المشاكل من جميع الجهات، بالإضافة إلى الخبراء المغاربيين الذين سيحظون بفرصة التعبير عن مختلف أرائهم ومواقفهم حول هذا الموضوع. وحول هذه المائدة، كنا قد برمجنا تدخل السيد عبد الكريم بنعتيق، الوزير المغربي المكلف بالهجرة، لكنه اعتذر عن الحضور في حين يحضر معنا السيد إدريس اليزمي، الذي عودنا دائما على الحضور لمناقشة مختلف القضايا، وهو أحد بناة المصداقية الحقيقية، كما يحضر معنا السيد امرابط، أستاذ «بجامعة محمد الأول» بمدينة وجدة، الذي تميز بمساره المهني كعامل لصاحب الجلالة بوزارة الداخلية، حيث اشتغل على حل العديد من المشاكل بين العائلات، الموجودة في الجانب الآخر، وتلك المقيمة هنا. يبقى فقط أن أقدم لكم السيدة نعيمة ياحي (جزائرية-فرنسية) وأعتقد أن السيد إدريس سيقوم بذلك.

إدريس اليزمي

أتذكر عندما كنت مديرا لمعرض أقيم بعنوان «أجيال، قرن من التاريخ الثقافي المغاربي في فرنسا»، والذي تضمن عرض موقع إلكتروني وطني حول تاريخ الهجرة، قامت السيدة نعيمة بجرد للمصادر العامة والخاصة حول تاريخ الأجانب في فرنسا : لقد قامت بجرد إحصائي لكل الأرشيف. وهكذا، أعطت نعيمة قيمة مميزة لتطور تاريخ الأجانب في فرنسا : التاريخ الثقافي للأجانب في فرنسا. وبشكل عام، عندما نتحدث عن الهجرة، نفكر دائما في المعاناة والبؤس، إلخ.

وفي الواقع ، نجهل الكثير بخصوص البعد الثقافي لتاريخ الهجرات. وهكذا، وضعت نعيمة بالفعل أسس هذه المقاربة حيث يظهر التاريخ الثقافي بجلاء.

محمد امباركي

هذا مهم للغاية. في هذه المرحلة، أود أن أقول إن موضوعنا قد تم تناوله من عدة زوايا. ومن ثمة فإن الحياة الصعبة للمهاجرين وصعوباتهم في الاندماج في المجتمعات الأجنبية تعتبر امتدادًا لمناقشة أسباب الرحيل. كل هذه المشاكل، نميل إلى تحليلها من خلال نظرة الآخر، رؤية شمال البحر الأبيض المتوسط. لكن لدينا أيضًا رؤية من وجهة نظر الجنوب والتي لا تعالج المشاكل بنفس الطريقة. ربما كان الجانب الأول من النقاش، يتجاوز التاريخ، والثقافة، نحو فهم ما يجعل الشباب يحلم بعبور البحر الأبيض المتوسط، ربما بحثا عن بيئة أكثر انفتاحا وأكثر قابلية لتحقيق أحلامهم.

نعيمة ياحي

شكراً للجنة المنظمة على هذه الدعوة وشكراً أيضا على ترحيبكم. أذكر في هذا الصدد بأن السيد إدريس كان أحد أولئك الذين ساهموا في إبراز موضوع تاريخ الهجرة كمحور بحث، من خلال كل ما قدمه كمناضل وباحث ومثقف. وفي الواقع، إنني جد مهتمة بهذا الموضوع. لكنني تساءلت كيف سأكون موضوعية عند مناقشة هذه القضية، لأنني أولا، أنحدر من عائلة جزائرية هاجرت إلى فرنسا، تعيش على الضفة الأخرى من البحر الأبيض المتوسط ، والتي يطلب منها تقديم رؤية ليس فقط من وجهة نظرها كمؤرخة بل أيضا كشابة مغاربية حول طموحات شبابنا هنا، من خلال تفكيرها حول شكل من أشكال الحكي الأدبي الذي يستهوي الشباب، وهو «الراب»، «الهيب هوب»، وهو لون غنائي يعبر اليوم عن الكثير من طموحات الشباب في المنطقة المغاربية. للقيام بذلك، سوف ألخص هذه النظرة التاريخية. لقد قمت بتحليل أغنية المنفى «غربة»، والتي كانت لونا موسيقيا سجل نجاحا باهرا، في المهجر كما في البلدان الأصلية، وحينما نعتمد على تحليل سجلات حقوق التأليف والنشر في فرنسا - SACEM، جمعية حقوق النشر الفرنسية التي كانت مسؤولة عن تدبير حقوق الفنانين المنحدرين من المنطقة المغاربية - نجد متنا موسيقيا يعبر عن تطور المخيال المرتبط بالمنفى. إذا قمنا بتحليل الفترة من الستينيات إلى اليوم - فقد مر للتو تاريخ الذكرى السنوية الخمسين لاتفاقية اليد العاملة بين فرنسا والمغرب، كما أن هذه الفترة ذات دلالة أيضًا في بلدان الهجرة الأخرى من قبيل الجزائر وتونس وتركيا عندما يتعلق الأمر بفرنسا - يمكننا أن نفهم أن لدينا نوعا من السبق في تحليل أغاني الزمن الماضي كما أغاني الزمن المعاصر. قد نلاحظ استمرار الرغبة في الرحيل للخارج من أجل حياة أفضل، وكذلك قدرة الفنانين على التعبير عن تطلعات الشباب ، التي يسجلونها الآن في «الهيب هوب» و«الراب». كما تعبر هذه الأغاني عن يأس المجتمعات، لاسيما - إذا صح القول - «ما بعد الثورات العربية»، إذ تنقل هذه التطلعات بشكل أقوى أكثر من صوت الشارع وبوقع أكبر من خلال «الهيب هوب» و«الراب». يمكن أن نقدم بعض الأمثلة على فنانين من البلدان المغاربية الثلاثة ،لدينا مجموعة أشكين الرائدة، أما بالنسبة للجزائر لدينا، MDS، ولطفي، وفنانين شباب مثل عمر السهيلي المعروف باسمه الفني ديزي دروس و «ديدجي كاي» بالنسبة للمغرب، والذين يعبرون عن واقع أحياء الدار البيضاء تقريبا على الطريقة الأمريكية. لدينا أيضا على سبيل المثال حمزاوي مدامي. كما حقق «الكافون» نجاحًا كبيرًا سنة 2013 مع أغنية «حماني»، التي تؤرخ لحيّ «ريانا» في تونس، والتي تقول :

«قـاعدين نعيشو كي الزّبلة في بوبيلا
ما نقــوم بكري ما نعرف منقالة
ما نقوم بكري نقري ممّـا هــوني خنقـة برشـا غمّة ...
فاتك كلام جيب كلام .. في الظليمة ما فمّـا سلام
لمتني كي ما فمّـا ملام .. الرّاس مدنكس ديما قدّام
بطبيعتو الدّورو في جيـبي ما خذاش لهف
بطبيعتو صغري كبري تعدّى شيخة مخّي خرف

بطبيعتو راسي زنزن كـمّل عزّي روّح لف طبيعتو راسي زنزن».
ترسم هذه الأغنية لوحة على شاكلة أسلوب «إميل زولا»، حيث تثير قضايا البطالة، والإجرام، والمخدرات، وفقدان الأمل بالنسبة لشريحة من الشباب الذي قد ينجرف مع دعوات الثورات التي يزرعها اليأس. ولقد عرفت هذه الأغنية انتشارا كبيرًا في أوساط الشباب لأنها تعبر عن ظروفهم المعيشية. و في الوقت نفسه ، تتناول موضوع الأخوة في الأحياء الشعبية - بيد أنها ليست أغنية ذات دلالة سياسية محضة - ولكن الأمر مختلف عن «ولد الكنز»، مغني «الراب» التونسي الذي واجه مشاكل مع العدالة بسبب أغنيته الملتزمة، و لكن الأغنية نفسها تعبر عن الواقع الاجتماعي. وعلى نفس المنوال ، لدينا بالطبع مغني الراب «الشايفين» مع «واش كاين مايدار»، و«Small» و«Houpi»، شابان من مدينة أسفي يغنيان «الراب»، لكن بإيقاع فيه نوع من العدوانية والأمل. هل يجب أن نبقى في بلادنا ، التي تخيب آمالنا أحيانا ولا تلبي تطلعاتنا ، أم علينا الرحيل إلى مكان آخر ؟ هذا المكان الآخر هو أحيانا فرنسا وكندا والولايات المتحدة وألمانيا وإيطاليا . في الواقع لقد غنى بعض رواد «الراي» في التسعينيات «يالبابور يا مون أمور»، حيث حققوا نجاحات كبيرة في التسجيلات، على أي حال في أي مكان آخر، «حراكة»، تحذوهم مغامرة الرحيل وأحيانًا يفقدون حياتهم في البحر الأبيض المتوسط. واليوم ، عاد آخرون من حلم المنفى وخيارات من سبقوهم إلى ذلك : على سبيل المثال، الجزائري دحماني رشيد، مع «يا رايح وين مسافر»، وغيرهم من فناني المنفى، الذي عبروا عن مدى صعوبة معاناة سراب المنفى. كما أذكر هنا مجموعة «أفريكا جينغل» وبعض المغنيين الجزائريين الشباب، مثل «سوكين»، الذي يصف في أغنيته «دنيا»، الفشل والبطالة في فرنسا : يلتقي بفتاة أحلامه، لكنها لا تريد أن تتزوج رجلا من بني جلدتها لأنه لا يتوفر على وثائق الإقامة. يتعذر عليه الحصول على عمل وعلى مسكن لأنه بدون أوراق إقامة. ثم يسقط في الجنوح، لكنه دائما يعبر لنا عن فخره وعشقه لبلاده، حتى لو كان مفلسا وحتى دون تحقيق أحلامه. لذا، فهم ينتقدون الفشل و يحذرون من مخاطر العيش في المهجر على منوال المغنيين السابقين في مرحلة ما بعد الاستقلال، سواء أولئك الذين هاجروا عبر الطرق القانونية بحثا عن شغل أو لأسباب اقتصادية وسياسية، وكذا أولئك الذين اختاروا المنفى والغربة في سنوات التسعينات دون التمكن من تسوية وضعيتهم، ومؤخرا الشباب الذي يهاجر في ظروف سيئة. هكذا، نلاحظ دور الأغنية الشعبية ، بما في ذلك «الهيب هوب» الذي يعرف انتشارا مهما في المنطقة المغاربية ،والذي يسجل نجاحات كبيرة، تتجاوز الحدود الوطنية، لأنه في فرنسا اليوم، يقع الاختيار على مغنيي «الراب» المغاربيين من بين كل الألوان الموسيقية التي يتم الاستماع إليها، حيث يقدم هذا اللون الغنائي وصفا تحليليا للواقع المجتمعي ويعبر عن مرارة المنفى والاغتراب الذي يظل سرابا صعب المنال كما تحمل هذه الأغاني في ثنايا كلماتها إشارة للتحديات الهجرة التي قد يواجهها هذا الشاب الذي يطمح إلى حياة أفضل.

محمد امباركي

شكرا لك نعيمة بخصوص هذه الرؤية. لا أدري كيف يتم مقاربة هذا لأمر في المغرب. السيد جامع بيدا، بصفتك مدير الأرشيف، هل تتم أرشفة الموسيقى أيضًا.

جامع بيدا

نعم ، نقوم بذلك عبر كل الوسائط الممكنة.

محمد امباركي

الزاوية التي تمت من خلالها مقاربة هذا الموضوع مثيرة جدا للاهتمام. إنها تعبر عن حساسية عميقة، وخصوصا في وفي المنطقة المغاربية كانت لدينا دائمًا مثل هذه الحساسية، كما في أيام «الجواز الأخضر».
لو كان عندي، ماذا كنت سأفعل ؟

جامع بيدا

عادة، يجب أن يكون الإنتاج الموسيقي موضوعًا للإيداع القانوني: وتمتلك المكتبة الوطنية للمملكة المغربية المهارات اللازمة لأرشفة كل هذا.

محمد امباركي

أعطي الكلمة الآن للسيد إدريس الذي يتوفر على نظرة متعددة الأوجه ورؤية متعددة الأبعاد حول هذا الموضوع.

إدريس اليزمي

أما بالنسبة للأغنية المغاربية، توجد مجموعة من الأغاني مسجلة في ثلاثة أقراص مدمجة بعنوان «غربة»، وهي بمثابة رحلة في أغاني الاغتراب. وفي الواقع ، عندما نشتغل على هذه المادة والتي هي أغنية المهجر والغربة في القرن العشرين، وبالضبط في سنة 1920، فإن نفس الملاحظة تنطبق على الأدب المغاربي الناطق بالفرنسية. وأيضا على المصادر الأخرى، مثل الشعر أو الفنون التشكيلية، لأن الرسامين المغاربيين في القرن العشرين عاشوا بداياتهم بباريس، ونفس الأمر بالنسبة للسينمائيين المغاربيين، وما إلى ذلك. في كثير من الأحيان - وهو أمر مفهوم - عندما نتحدث عن الهجرة والتنقل بين فرنسا وأوروبا بشكل عام، والمنطقة المغاربية ، وأبعاد المعاناة، والمآسي، وهو أمر حقيقي. هناك أيضا بعدا لم ينل حقه من الاهتمام وهو الإبداع. عندما نتحدث عن الشباب، نتحدث عن شريحة من الشباب المغاربي التي رحلت عن بلدانها ولكن أبدعت في مجالات ثقافية عدة. شريحة ساهمت بحق في الثقافة والحركات المغاربية في القرن العشرين. يظهر أن العواصم الاستعمارية القديمة قد تقبلت جزء من الاختلاف الموجود فيها، الإسلام، الأمازيغية، العروبة. لكن سؤالاً آخر يطرح نفسه، وهو أن نقبل بدورنا بجزء من اختلاف الآخر، أي أن العلاقة الاستعمارية قد أثرت تجربتنا، جعلتنا ننفتح على العالم. ولنأخذ على سبيل المثال مسار الحاج بلعيد : مغني سوس الكبير، في 1931-1933، يغني في «بانتين» (ملاحظة : شرق باريس) في محطة مترو الأنفاق. أما السلاوي، فقد وصل إلى مرسيليا سنة 1940 ؛ وسنه لا يتجاوز 18-19 سنة. هذه الحركية تستمر اليوم، عبر «الهيب هوب»، «الراب»، والمغني المشهور بالمغرب، «مسلم» مثال واضح على ذلك. يجب أن نقبل جزء من المأساة والمعاناة في حركية الشباب. لكن في نفس الوقت يجب أن نرى فيها إمكانات إبداعية مهمة، لأن التنقل والحركية البشرية نعمة وليس نقمة.

بالنسبة للشباب، يعتبرونها دائما نقمة، خاصة عندما يدركون مدى صعوبة تحقيق طموحاتهم هنا، وبأن الأمور لا تسير على ما يرام في المهجر أيضا. وحدهم رجال الأعمال يرحلون. غالباً ما أعطي مثالاً بشابة مغربية، قروية وأمية، تقرر أن تكسب عيشها بنفسها وتقوم بتحليل منطقي لمعرفة أي وجهة تختار : إلى إسبانيا أو تركيا أو تونس ؟ لقد وفرت وجمعت المال ؛ كان لديها الشجاعة للعبور، مما يجعل منها مقاولة (ولكن بدون أوراق، إذن جانحة في وضعية غير قانونية). الحديث عن الشباب المغاربي اليوم هو في صلب الحديث عن المنطقة المغاربية أي المجتمعات المغاربية. هذا ما قمنا بتقديمه كتحليل عام أولي في الكتاب الذي صدر سنة 2008، «موعد الحضارات»، وهو عمل ديموغرافي تاريخي. ماذا يوضح هذا الكتاب، على سبيل المثال أعمال محمد الصغير جنجار في المغرب ؟ ما هي التطورات الرئيسية التي تحدث أمام أعيننا، ونحن نعيش في المنطقة المغاربية ، مع بعض المتغيرات التي تختلف قليلا، في تونس بالدرجة الأولى، ثم في المغرب والجزائر الآن ؟ إنه انتقال ديمغرافي يحدث بسرعة مذهلة. فالمغاربة، على سبيل المثال، كانون ينجبون 7.2 طفل لكل امرأة قبل 40 سنة، واليوم فقط نسبة 2.1. نحن نعيش طفرة في نسبة المواليد بكل من بالمغرب، والجزائر وتونس. لدينا الآلاف من الشباب المغاربة في سن الرشد. هذه هي الثورة الأولى.

أما الثورة الثانية، فتتجلى في تعميم التعليم و دمقرطة المدرسة ، إلا أن النظام المدرسي المغاربي يمر من أزمة عميقة لكنه في الوقت ذاته أصبح أكثر ديمقراطية : أعداد متزايدة من الشباب تستفيد منه وخاصة الفتيات.

أما الثورة الثالثة، وهي في طور الحدوث، ولا تقل أهمية عن سابقاتها. أسميها ثورة ناعمة وصامتة : إنها حركة التمدن الهائلة. إذ كان المغرب بلدا قرويا منذ 40 عامًا ؛ ونحن اليوم بلغنا 65% في المناطق الحضرية، ولازالت هذه الوتيرة في تسارع مضطرد.

في حين أن الثورة الرابعة هي الرابط الذي يجمع 19 مليون مغربي اليوم على الإنترنت، إذ أن مجتمعاتنا في الأساس هي مجتمعات شابة، حضرية، ومثقفة أكثر فأكثر، كما أنها أكثر انفتاحا على العالم، حيث تعتبر ضواحي باريس اليوم حقيقة حية يمكن لشاب جزائري أو مغربي أو تونسي أن يحس بها. وتبرز هذه الثورة الحقيقية أن مجتمعاتنا أصبحت بشكل متزايد مجتمعات فردانية حيث تعبر عن طموح الفرد وتطلعه إلى الحداثة والانتقالية، ولعل هذه الأخيرة هي محور موضوع الحداثة. إذا الهجرة بالنسبة لي، ليست درامية على الإطلاق، بل على العكس من ذلك تعتبر نوعا ما فرصة مواتية. من الواضح أن الجدل السياسي والتعامل الإعلامي بسبب بروز ظواهر مثل الإرهاب، تجعل الأمر سيئاً - نقول مثلا «مشكلة الهجرة» - لكن في الحقيقة ليست مشكلة، في الأساس.

من الضروري أن نقولها ونكررها، من اللازم الترحيب بشكل فعال بالأجانب في المغرب وهذا هو الرهان الذي لم نربحه بالكامل بعد - أن نهاجر عند الآخر وأن نرحب بذلك الآخر، وأشكال التعبير الجديدة عن الإنسانية، أن نذهب لاكتشاف الآخر، أن نذهب إلى اكتشاف ثقافة أخرى، وجوه أخرى، التعبير للآخرين عن المحبة، وفي الوقت نفسه استقبال هذه المحبة.

محمد امباركي

هناك إشكالية يجب حلها : أن نتجاوز العقدة الاستعمارية. صحيح، من حيث الخطاب تمكنا من تجاوزها، ولكن. في الواقع، ربما لم يتم حلها بالكامل. ما قاله السيد إدريس قبل لحظات عن التبادلات التي نتجت عن الاستعمار، وما دمرته وما قدمته، يحث على التفكير.

واضح أنه في المغرب، قدم الاستعمار الكثير من الإضافات على المستوى القروي وأيضا على المستوى الجمالي، لكنه دمر العلاقات الاجتماعية و توازن انتشار السكان على جميع التراب الوطني. وفي الجزائر، نلاحظ نفس الإشكالية لأن الاستعمار استمر لمدة 130 سنة، مما عرض المجتمع الجزائري لويلات التفكك. أما في تونس، فالمشكلة من نوع آخر، وفي ليبيا وموريتانيا المشكل مختلف.

العربي امرابط

أنا مهاجر سابق واشتغلت على موضوع الهجرة، بصفتي أستاذ في جامعة وجدة، أنا شخص طموح وحالم أيضا وأحاول كتابة قصائد باللغة العربية، حيث كانت أول كتاباتي هي «بعض من كلام». سأحاول أن أكون واقعيا ومتفائلا قدر المستطاع، فبالنسبة لي، هناك مبدأ في الحياة هو مبدأ التناقض (ثنائية التكافؤ) البشري : كل أمر له جانب إيجابي وآخر سلبي، ويختلف ذلك من شخص لآخر. ويتجسد ذلك في الشباب، فما هو تعريف كلمة الشباب إذن ؟ لقد عرف العديد من علماء الاجتماع هذا المفهوم، لأن شابا من أسرة عاملة ليس هو ذلك الشاب ابن أسرة ميسورة، على الأقل ليست نفس الفئة العمرية. ومن تم، فالحلم يمر عبر مراحل مبكرة، ولا تشكل كلها نفس الحلم، ولحسن الحظ فهذه الأحلام ليست تلك التي نراها في المنام وإنما هي تلك المرتبطة بتحقيق مشروع حياة أو بناء مستقبل. ويبقى السن المعيار الأكثر استعمالا لتعريف كلمة الشباب، غير أن المؤسسات لا تتفق مع هذا الطرح ؛ وعموما، فإن السن هو ذلك الذي يتراوح بين 18 و35 سنة، كما تؤخذ الفئة العمرية من 25 إلى 35 سنة، بعين الاعتبار ؛ الأمر ليس نهائيا أو منتهيا مع ازدياد أمد الحياة والدراسة والتكوين والمشاريع، وإلى ما والى ذلك. في المغرب مثلا، خلال السنوات الأولى التي تلت الاستقلال، أعتقد أن السن الأقصى لولوج الوظيفة العمومية كان هو 30 أو 31 سنة، لا أتذكر جيدا، ثم انتقل فيما بعد إلى سن 35، ثم انتقل إلى 45 سنة، ويكثر اليوم الحديث عن إلغاء هذا الحد، ومن هنا نستنتج أن تعريف كلمة شباب مفهوم حيوي وديناميكي يتطور باستمرار. تأخذ المؤسسات الدولية الفئة العمرية من 15 إلى 24 سنة بعين الاعتبار، ولكن في التقارير الأخيرة نجده يتروح بين 19 و28 سنة ؛ أم بالنسبة لمنظمة الأمم المتحدة فيصل السن إلى 25 سنة، والحال نفسه بالنسبة لمنظمة اليونسكو التي تحاول تبني نفس هذا المعيار تقريبا، ولكن تعتمد في النهاية دائما المعايير الوطنية التي تختلف بطبيعة الحال من مجتمع إلى مجتمع.

بالنسبة لي، وأود لو يُدرج سن أقل. عندما يسأل المعلمون تلاميذهم عما يريدون أن يصبحوا عندما يكبرون، فإنهم يهيؤون ويوجهون عقول الشباب بعض الشئ لهذا المنحى. أتذكر أنه قبل سن 18، كان جيلي يحلم بالحياة، ويرتبط حلم الحياة والعيش بشكل مختلف، أساسا، بالعمل، وكانت حياتنا العملية تستغرق أكثر من أنصاف أوقاتنا، وكنا نعمل ثمان ساعات فقط، لأنه كان يجب لدينا بعض التحضيرات والاستعدادات، الخ. إنه العمل، بالمعنى الواسع، (العمل مقابل أجر وريادة الأعمال)، الذي يحدد الوضع الاجتماعي، ما أسميته آنفا المراحل المبكرة، وينتج الأفراد والفئات الاجتماعية. ليست للشباب والفئات المختلفة نفس الأحلام، كما لا تتحقق أحلامهم بنفس الطريقة، لأن ذلك يتطلب رؤية واسعة شاملة، لأن الأمر يتعلق بعالم بأكمله، لاسيما وأن هناك تمددًا، كما هو الحال بالنسبة للكون مع الاضطرابات التي تحدث اليوم وتتزايد.

وأؤكد أن كل شيء يجب أن يعاد التفكير فيه، ولكي أكون متفائلاً، على الرغم من كل ما قلته، لأنه يمكن للمرء أن يكون فقيراً وأن يكون لديه أحلام سعيدة، كما يُمكنه أيضا تحقيقها بالمثابرة والإرادة والتخطيط، وإلا يجب أن ننكر مفهوم الحرية الفردية. تأتي هذه الصعوبات من العديد من العوامل. أولا، لأننا نشهد تغيرًا مناخيًا وهذا له آثار على جميع المجتمعات. ثانيا، التغير الديمغرافي الملحوظ، بل وهناك ثورة ثالثة معرفية، ففي البلدان المتقدمة حيث يرغب البعض في الهجرة والرحيل طلبا لمستوى معيشي أفضل، ستكون حظوظ الحصول على عمل ضعيفة بالنسبة للأشخاص غير المؤهلين، ومن تم رغبة هذه الدول في إيقاف الهجرة. وفي نفس الوقت، يُفتح الطريق أمام الهجرة المنظمة، وهو الأمر الذي يعرف بدوره تراجعا، لأننا، حسب ما يُخبروننا، لا نملك المؤهلات اللازمة لذلك، ولذا يتعين علينا العمل من أجل ذلك، ويجب على الشباب الاستعداد إذا اختاروا الهجرة، لأن هناك العديد من الطرق من أجل الحد من الهجرة السرية.

أنا لا أتكلم عن تأشيرات وشرطة الحدود...، أقول أنه في زماننا هذا، إذا كنت ترغب في الهجرة، يجب أن تتسلح بالعلم والمعرفة والتكوين والانفتاح على كل شيء، بما في ذلك تعلم اللغات، فبعض البلدان يشكل لها التغيير الديموغرافي عائقا وتستقبل اليوم العديد من الأجانب.

في الولايات المتحدة مثلا، نصف علماء الفيزياء ليسوا أمريكيين. يجب علينا اليوم إحداث لجنة للتفكير في مستقبل العمل، بهدف حل هذه المشكلة : لا نستطيع تعليم الجميع هذه المهارات العالية، لكن يجب علينا توفير فرص عمل كريمة للجميع، لن نكون قادرين على القيام بذلك في الوضع الحالي،حيث الضروري إحداث لجان وطنية ومغاربية وعربية، من أجل معالجة الموضوع.

محمد امباركي

أشكر السيد نزار بن سعد الذي انضم إلينا، وهو ممثل وزير الثقافة التونسي الذي لم يتمكن من الحضور شخصيا، وتفضل بإرسال مستشاره. ولكم الكلمة.

الصديق معنينو

أود أن أهنئك على معرض الكتاب وعلى الافتتاح الكبير وحضور شخصيات كبيرة، ثانيا هذا المعرض معرض مغاربي، ولكن أود أيضا أن أعبر عن أسفي لاستمرار إغلاق الحدود. المغرب الكبير يشكل أيضا حلما، بينما مازالت الحدود مغلقة. الملاحظة الثالثة هو أن الشباب يرحل إلى الشمال لماذا لا يكون هناك تبادل بين هذه البلدان، حيث المغربي يذهب إلى تونس والجزائري إلى المغرب هذا حلم مغاربي هنا في المغرب نعرف أبناء عدد من العائلات الجزائرية كانوا وزراء ومستشارين مثل المعمري وعلي يعتة... إذا هذا حلم لا يجب أن نقطع معه ويجب أن نقترب من الواقع، إلا أنه في الوقت الذي نتحاور فيه كمثقفين لا يجب أن نصنع عالما افتراضيا يستحيل تجسيده على أرض الواقع.

رئيس قسم الجغرافيا

تفقد الدول المصدرة للهجرة إمكانات بشرية من شأنها أن تساهم في التنمية، كما يُمكن أن تُعطل مسار تنميتها، وفي الوقت الذي تعاني هذه الدول من نزيف الهجرة، بالمقابل يصبح المهاجرون حلا ديموغرافيا بالنسبة للبلدان المتقدمة المستقبلة للمهاجرين، و التي تعاني أساسا من عجز ديموغرافي. ويجب أن تتفق هذه البلدان بخصوص هذه المسألة، لأنهم بحاجة إلى قوة بشرية من أجل مستقبل جيد، ونحن بحاجة إلى التحرر من هذا الفائض الديموغرافي، الذي سيزداد في المستقبل. كل شخص لديه الحق في الحلم، الحلم مهم في البلدان المتخلفة. ألا يمكننا تخيل مشروع محلي حول كل الأحلام ؟ الجميع يحلم بتحقيق هذا المشروع بالخارج، حتى الأشخاص المؤهلين الذين يذهبون إلى أوروبا.

نعيمة ياحي

في فرنسا، كانت هناك نقاشات عديدة حول أزمة الهجرة، فقد تحدثنا عن أزمة الاستقبال لأن الأعداد منخفضة للغاية في فرنسا مقارنة بواقع التدفقات بين بلدان الجنوب.

تحدثنا عن مواجهة «أنصار العولمة» (نحن نطلق عليهم هذا الإسم) ضد «الوطنيين»، وهلم جرا. ولكن كانت هناك دائما علاقة تبادلية : هناك احتياجات من جهة، وفائض من جهة أخرى، فالعلاقة قائمة إذن.
إن البلدان المستقبلة هي اليوم أيضا بلدان مصدرة للهجرة ولم تعد تربطنا نفس العلاقة لأن الصورة تغيرت وتطورت، كما ذكر السيد إدريس في وقت سابق. لم نعد نتحدث عن الدول المجاورة التي تبعد بساعة أو ساعتين عبر الطائرة، نحن على أبواب أوروبا. غير أنه وفي بعض الأحيان، وحتى في المغرب، مقارنة بأوروبا، نتحدث عن بوابة محورية، وهو مصطلح تمت إعارته من مفردات شبكة تكنولوجيا المعلومات ! فالأمر يتعلق هنا بسلع تجارية محورها البشر. وهكذا، فإن الآفة التي ذكرها السيد إدريس منذ لحظة قد غيرت الصور التي في مخيالنا، والشأن نفسه بالبلدان الغربية، بما أنني فرنسية، أعترف أنه لدينا هذه التمثلات عن ميزان القوى بين الشمال والجنوب، والآراء العامة هي مليئة بهذه التصورات. وفي الواقع، نحن بعيدون عن الحقيقة الديموغرافية وعن التفكير في مجال الفرص وإمكانيات هؤلاء الشباب. في أي عمر تقف مرحلة الشباب ؟ في الجزائر مثلا، لا يزال الشاب شابا طالما لم يتزوج، ويمكن أن يستمر ذلك لفترة طويلة. وفي الجزائر دائما، يمكن أن يرتفع معدل الخصوبة إلى ثلاثة أطفال لكل امرأة، مما يعني أن احتمال الهجرة وارد دائما. ولقد أعلنا مؤخرا عن تيسير عملية منح التأشيرات السياحية للجزائريين ويبدو أننا بعيدون عن تدفقات تلك الأعداد من الشباب الجزائريين الذين يفرون إلى مكان مختلف. لم يعد الشباب يعبر البحر إلى فرنسا أي بالدارجة «يحرق»، حقيقة أنا لا أعرف جيدا الأوضاع الداخلية وقضايا الحدود على مستوى المغرب الكبير. من الواضح أن حلم المغرب الكبير مسألة مثيرة للاهتمام، ويجب أن نتساءل أيضا عن موضوع الحركية بين البلدان، وعن إمكانية التنقل في كلا الاتجاهين. الهجرة هي بعض من الموت، لكنها ليست أمرا سلبيا تمامًا: ذلك الموت الصغير هو الإبداع الذي تحدث عنه السيد إدريس في وقت سابق، وربما يكون اليوم أيضًا بمثابة مرآة لمجتمعاتنا المطلة على ضفتي البحر الأبيض المتوسط. ومن الضروري فهم الدوافع والآمال التي تحمل هذه الرغبات، إلى جانب كونها غير مادية في بعض الأحيان، ولكنها متجلية في استيراد النماذج الثقافية والمعايير العالمية.
أعتقد أيضًا أنه يجب علينا التحلي بالصبر في طرح الأسئلة عليهم.

العربي امرابط

لا شيء يتحقق في المغرب الكبير في المستقبل المنظور، فمنذ زمن طويل لم يُوافق الخطاب الواقع في شيء، فالأنشطة السياسية والاقتصادية وغيرها ليست موجهة نحو بناء مغرب كبير. أقول لرئيس قسم الجغرافيا، فيما يتعلق باليد العاملة، أن طبيعة العمل تتغير، سوف تكون لدينا مع مرور الوقت يد عاملة غير مؤهلة، مع ما نشهده من تطور التكنولوجيا اليوم، لن نحتاج إلى المزيد من عمال الصرافة ولا لمزيد من العمال لزرع الأشجار ...، لم يبق لشبابنا اليوم سوى العمل بجد وكد، والتسلح بالعلم والمعرفة ليتمكن من مسايرة حاضره وبلوغ مستقبله. بالنسبة لسؤال السيد معنينو في المغرب الكبير بالنسبة للمستقبل المنظور، لا شيء مستحيل. منذ مدة كان هناك خطاب سائد لا يطابق الواقع بتاتا. يعني أن القرارات السياسية والاقتصادية، وما إلى غير ذلك لا تتجه مطلقا إلى بناء مغرب كبير.

مداخلة

بصفتي أستاذة في الجامعة ومواطنة مغربية أيضا، كثيرا ما كنت أسمع كلمة «الحلم». نحن لا نشجع شبابنا على التفكير في الهجرة.

مداخلة

أتمنى أن يُنظم منتدى حول الهجرة للشباب في جميع مناطق المغرب ؛ وخاصة بالنسبة لأولئك الذين يعتقدون أن الهجرة حلم، يجب أن نوضح لهم أن هذا الحلم قد يصبح في بعض الأحيان جحيما.

مداخلة

إجمالا، المجتمعات المغاربية لا تنتج الأحلام، الأمر ليس بالسهل في بلداننا، لكننا قادرون على وضع رؤية وتحقيق غاية اسمها «المغرب الكبير». لكننا في بلدان المغرب الكبير اليوم لا نناقش هذا الأمر. الحال هناك أسوأ بكثير، إنه هروب وهجرة غير شرعية، وأعتقد أن هذا اللقاء هو بذرة صغيرة تُزرع لعلنا نجني ثمارها مستقبلا.

نزار بن سعد

نرى أن الشباب المغاربي يعاني حقا من الإهمال، لذا علينا أن نعرف كيف نشجع الحلم، أي كيف نستجيب للتطلعات العميقة والفورية.

إدريس اليزمي

لقد تغير المغرب الكبير، وفي الحقيقة، يجب أن يمر التفكير والعمل عبر الطريق الإفريقي، كما يُمكن أن يمر عبر علاقات أخرى مع أوروبا. توجد مشاريع على مستوى البحر الأبيض المتوسط، من جهة، وعلى مستوى الجوار من جهة أخرى . هناك نوعان من التوقعات الجيوسياسية في تحول ويجب التضحية بعالم من أجل بناء عالم آخر.

فالحديث عن الشباب يعني الحديث عن الوقت الحاضر، هناك الملايين من الشباب الذين لا مكان لهم ويجب دمجهم على جميع المستويات، عن طريق التكوين وتوفير العمل والرياضة والثقافة ... التفكير في موضوع الشباب يعني التفكير في مشروعنا السياسي ونحتاج للتفكير سياسياً لكي نحلم، أقول أن دور الدولة هو دمج جميع مواطنيها.

العربي امرابط

هناك الكثير من الكتابات عن الهجرة منذ زمن طويل. كان الحديث دائما عن الهجرة بين الشمال والجنوب. ولم نتكلم في المستقبل المنظور عن الحلم، وإنما سنسعى إلى أن نكون واقعيين قدر الإمكان، ما أراه في بلادنا لا يشير بتاتا إلى بناء مغرب كبير ولا حتى إلى السعي لإيجاد حلول بدعم من مؤسسة الاتحاد الأوروبي، أو من خلال الاتحاد الأفريقي، باستثناء إذا كانت هناك ثورة سياسية.

نعيمة ياحي

لقد كتب بعض الشباب من المغرب الكبير مجموعة من الأغاني الجميلة التي لاقت نجاحا كبيرا، وقد تم تسجيل الكثير منها في باريس حيث أن بلاد المهجر غالبا ما كانت تساهم في اللقاء بين البلدان المغاربية. وقد تكون عودة الجيل المستقبلي لبلاده أفضل من سابقيه (نتحدث هنا عن أسطورة العودة). إن استقرار أطفال المهاجرين أمر واقع، والحركية على مستوى الجانبين وعلى مستوى جميع الجوانب أمر ممكن بالنسبة للشباب المغاربي.

محمد امباركي

أعتقد أن المغرب العربي موجود، وأنه سيعيش وسيفرض نفسه. بالتأكيد، تبدو شعلة المغرب الكبير منطفئة من الناحية السياسية، أي نعم، لكن لماذا ؟ لأن الدولة القومية نفذت مهمتها وكان هدفها بالضبط هو القضاء على الحسابات السياسية، لكن المثقفين ليس لديهم حدود فكرية، لأن لديهم تطلعات وأحلام، فالكل يحلم بفكرة معينة، وعلم النفس يؤكد ذلك، وبالتالي، فإن الحلم موجود يحيا ويعيش فينا، ولو أن ذلك صعب التحقق في وقتنا الحاضر وفي لحظة مظلمة بالنسبة لتاريخنا المغاربي. المغرب الكبير ليس واقعا جديدا، والدليل على ذلك ما كتبه الطاهر بن جلون عن الهجرة، وكذا ليلى سليماني.

شباب المغرب الكبير : بحث منجز بشراكة مع الاتحاد الأوروبي

رئيس الجلسة : نور الدين بوصفيحة

المشاركون : زكريا القادري، سكينة بوراوي (تونس)
نصر الدين حمودة (الجزائر)

فضاء : محمد عابد الجابري

التاريخ : يوم الجمعة 22 شتنبر 2017

الساعة : 09 : 30 - 11 : 00

موجز مداخلات المائدة المستديرة

عرف هذا اللقاء مناقشة وتعليق حول نتائج الدراسة التي أجريت على مدى ثلاث سنوات خصت بالأساس الشباب المنحدرين من خمسة بلدان عربية تقع جنوب البحر الأبيض المتوسط ويتعلق الأمر بكل من المغرب والجزائر وتونس ومصر ولبنان.

لهذا الغرض، تمت تعبئة مجموعة من الفاعلين وأجريت العديد من المداخلات (2 000 شاب مستجوب لكل بلد، أي عينة تقدر بحوالي 10 000 شاب في المجموع). ولقد انخرطت فيه مؤسسات من مستوى عالي تعنى بالبحث والدراسة في كلتا ضفتي منطقة البحر الأبيض المتوسط.

يحمل المشروع اسم الصحوة (النهضة)، تحت شعار «شباب المغرب العربي الكبير»، وهو مشروع ممول من طرف الاتحاد الأوروبي، ولقد مكن من إنجاز الدراسات التي على أساسها تم استثمار وتدبير الاستمارات التي وزعت على الشباب ذكورا وإناثا على حد سواء. تركزت المقابلات على العديد من الجوانب المختلفة لحياة الشباب: كالتعليم والشغل والأنشطة (السياسية والجمعوية والثقافية...).

إن القاسم المشترك بين الذكور والإناث معا في جميع البلدان، هو الشعور بالإقصاء خاصة عندما يتعلق الأمر بولوج سوق الشغل، إذ لم يتمكن العديد من المتمدرسين الشباب من ولوج الجامعات أو إنهاء مسارهم الدراسي فحسب، بل لا يسهل توفرهم على دبلوم الحصول على شغل.
إن الشابات اللائي لم يتحسن معدل إدماجهن في الأنشطة الاقتصادية، يعدن إلى كنف الأسرة، في حين يجد الذكور أنفسهم في الشوارع والمقاهي. يقضي الجنسان معظم أوقاتهم في التعارف وتبادل الصداقات بدل البحث عن فرص الشغل التي تبدو إلى حد ما غير مضمونة.
إن غالبية الشباب الذي لم يتمكن من التعلم أو التدريب على الشغل، يتخبط في حالة من الفوضى وغياب الانضباط، وصار يفكر في الهجرة في ظل تنامي القطاع غير الرسمي.
وتجدر الإشارة، إلى أنه بغض النظر عن وضعية كل شخص، فإن شباب اليوم لا يعير اهتماما كبيرا للقراءة بالمقارنة مع الأجيال السابقة، وتزداد هذه الوضعية سوءا بتوالي السنوات.

نور الدين بوصفيحة

بالنسبة للنسخة الأولى من المعرض المغاربي للكتاب لهذه السنة، أود أن أشكر المنظمين وأن أطمأنهم بالتزامنا وبإيماننا وبتعاوننا الوثيق. ولهذا حرصت على حضور هذه المائدة، للتعبير عن متمنياتنا الحارة وللترحيب الخاص بضيوفنا الوافدين علينا من البلدان الشقيقة، والمحملين بخبرات تهم قضية أساسية ألا وهي قضية «الشباب المغاربي»، كوعد منهم وجب الوفاء به. شكرا للسيد نصر الدين حمودة وللسيد زكريا قديري على التضحية بوقتهما الثمين للتواجد معنا. أود كمنسق أن أطلعكم على مدى تقديري واقتناعي بأهمية الدراسة المنجزة بالشراكة مع الاتحاد الأوروبي في شأن مختلف القضايا ذات الاهتمام المشترك: كالتعليم والشغل والصحة ومسألة النوع وكذا السياسة التعليمية المتبعة في منطقتنا المغاربية، لاستعراض ما تم تحقيقه ووضع المقترحات المناسبة، وبالتالي اقتراح مجموعة من التوصيات والتوجيهات من أجل رفع مستوى مشاركة الشباب في التنمية وضمان حقوقهم. لقد تحملت مهمة تنشيط هذا اللقاء، وأولى أولوياتي هي احترام الوقت المخصص، إنه قليل بالنظر الى حجم الموضوع. وبالتالي فكل مشترك له عشرون دقيقة وبإمكانه أن يتفاعل مع الجمهور. دون إطالة أعطي الكلمة الآن للسيد نصر الدين حمودة الذي شرفنا من الجزائر، ليحدثنا عن تجربته وعن الدراسة الاستقصائية التي أجريت في بلده.

نصر الدين حمودة

أشكر المنظمين على الدعوة، أغتنم الفرصة للحديث عن هذا العمل الذي استغرق ثلاث سنوات، بالشراكة مع البلدان العربية المتوسطية الخمسة وعدد من المؤسسات. ويتوقف هذا المشروع في الواقع على تقديم طلب للعروض إلى الاتحاد الأوروبي سنة 2013 من أجل إنجاز هذه الدراسة البالغة الأهمية. ويضم هذا المشروع عدة بلدان : 15 مؤسسة بالضبط موزعة على الدول الخمس (المغرب والجزائر وتونس ومصر ولبنان)، وأكثر من 800 مركز من مراكز البحث ومعاهد أكاديمية أوروبية، بالإضافة إلى منظمتين اثنتين، وقد رصدت له ميزانية تقدر بأكثر من 3 ملايين أورو على مدى 39 إلى 40 شهرا. وعلى الرغم من أن المشروع يدخل في إطار البحث العلمي، إلا أن مجاله التطبيقي يستهدف المجال السياسي والاجتماعي.
أخص بالذكر هنا الشركاء الرئيسين «سيغلوب» من برشلونة و «أنيما» من فرنسا و«كوثر» من تونس، فهي للأسف غير متواجدة معنا اليوم لانشغالها بإنجاز الأبحاث بالجزائر، بالإضافة إلى عدد من المؤسسات الأوروبية، والمدرسة العليا للتجارة والتسيير من المغرب وجامعة الشرق الأوسط التقنية من تركيا، ومركز «فيروندي» للبحث حول الشباب، والجامعة الأمريكية ببيروت وجامعة ليفربول من إنكلترا، وجامعات من اسبانيا ومن ايطاليا ... وتلاحظون أن هذه الشراكات الحقيقية والمتعددة الثقافات تهدف إلى إظهار حقيقة ما يحدث، وتحديد مفاهيم التحولات الجارية حاليا في البلدان الواقعة جنوب البحر الأبيض المتوسط. وبالتالي فالأمر يتعلق باستثمار لفهم مواقف الشباب بهدف رسم خريطة اجتماعية وثقافية تروم المقارنة لتوثيق أنشطة الشباب، وبالتالي دراستها كشريحة مستقلة كما وكيفا، ويهدف الجانب الكمي إلى مساعدة الصغار منهم في كل بلد، أما الجانب الكيفي فيخص المقابلات.
وجدير بالذكر أن المشروع يهم الجوانب التالية : القراءة والتعليم والشغل والاندماج الاجتماعي والمشاركة السياسية ومفهوم الثقافة والقيم والأبعاد المتعلقة بالنوع والهجرة وحرية التنقل على الصعيد الدولي والسياسات العامة والتعاون الدولي. وكما تلاحظون فهذا يعطينا فكرة عن اتساع نطاق العمل، ويمكن عمليا إتباع نفس النهج في كل البلدان. ونقوم أيضا بعدة لقاءات لعرض نتائج هذه الأبحاث في كل جوانبها الكمية والكيفية المتعلقة بالنتائج الرئيسية.

وبالنظر إلى أن شريحة الشباب في الجزائر تمثل أكثر من ربع السكان. فإن دراستها تعني الاهتمام بأزيد من عشرة ملايين نسمة. لنتصور حجم هذه الشريحة. على العموم لقد بينت النتائج الرئيسية أن هناك أوجه تشابه بين البلدان الخمسة، أما الاختلاف فهو حاصل بين بلدان المغرب العربي ونظرائهم في الشرق الأوسط حسب الجوانب التي تطرقنا إليها سالفا. وتصبح أوجه التشابه كبيرة في هذه المجتمعات عندما يتعلق الأمر بوضعية الشابات. وتفيد النتائج أن القاسم المشترك بين البلدان الخمسة هو تحسن نسبة التمدرس، وكذا استمرار ظاهرة الإقصاء من الولوج إلى سوق الشغل. وفيما يخص الجزائر، يمكن القول إن حالها شبيه بجميع بلدان المغرب العربي. والواقع يقتضي عدم الاعتماد على التحليل الشامل، بحيث أن هناك تباينا كبيرا داخل شريحة الشباب نفسها، في حين أن ما يقرب من ثلث هذه الفئة العمرية لا يزال يتابع الدراسة، والثلث الآخر تم إدماجه في سوق الشغل فعليا، أما الثلث المتبقي فهو يشكل بيت القصيد (ثلاثة ملايين ونصف شاب وشابة في الجزائر). وعندما نفصل بين الشبان والشابات فالأمر يزداد سوءا في أوساط الشابات. ويعد هذا بمثابة نداء موجه إلى الفعاليات السياسية لتغيير الصورة النمطية تجاه الشباب واعتماد رؤية جديدة تعنى بهذه الفئة التي تتوفر على إمكانات غير مستغلة لحد الآن. وتفيد الأرقام الرئيسية كذلك على أن الثلثين من أولئك الذين تم إدماجهم في سوق الشغل، يشتغلون في قطاعات غير منظمة دونما حماية اجتماعية، ويزاولون أشغالا محفوفة بالمخاطر.

ومن ناحية أخرى، لقد سجل في قطاع التعليم، أن ثلث الشابات هن من يصلن إلى المستوى الجامعي حاليا، ولا يصله في صفوف الشبان سوى أقل من الربع فقط. فالمشكل المتعلق بالجيل الجديد يتجلى في أن التحسن المسجل على المستوى التعليمي لم تواكبه مبادرات أخرى موازية، مما يجعل أن غالبية الأطفال (90 في المائة) الذين يعيشون مع أسرهم يستمرون في هذه الحالة إضافة إلى تأخر سن الزواج. ومع تعميق التحليل يمكن استنتاج وجود أشكال عديدة من الإقصاء : الإقصاء أولا من التعليم أو ما يصطلح عليه بالهدر المدرسي المبكر الذي يؤثر سلبا على المسار الدراسي للشباب، إناثا وذكورا وبالنسبة للإناث فالإقصاء المبكر يعني العودة إلى حضن الأسرة ومعه يتوقف كل شيء، وهذا يعني كذلك الإقصاء من الفضاء العام ... أما فيما يخص الذكور، فالإقصاء يبدأ بشكل مبكر مع النظام التربوي. المعنيون بالإقصاء هم أطفال يعيشون في وضعية هشاشة بالعالم القروي مؤداه تراكم عدد المعاقين. وقد يجد الشباب المنحدرين من هذه الأوساط صعوبة في الإندماج في سوق الشغل بل قد تطول فترة البطالة لديهم.

ويسجل بأن السياسات العمومية لا تعالج مسألة الهدر المدرسي مبكرا وتكتفي بفتح مدارس للمنقطعين بمثابة الفرصة الثانية، وكذا مسار التأهيل المهني، ليتبين فيما بعد أن هذه الحلول لا تفي بالغرض لعدم قدرتها على إدماج جميع الذين شملهم الهدر المدرسي والذين لم يتمكنوا من الحصول على شواهد.

وتستهدف سياسات أنظمة التشغيل أساسا، وبشكل كبير، الحاصلين على دبلوم، وبشكل أكبر خريجي مراكز التكوين المهني والجامعات، بحيث أن وكالات التشغيل لا تقوم بجرد الذين شملهم الإقصاء المبكر، وتكتفي بجرد الحاصلين على الشواهد وخريجي الجامعات. إن أهمية الدراسة التي نحن بصددها تتجلى في إبراز جميع المشاكل، وطرح التساؤل الصحيح، من قبيل : هل تستهدف السياسات المتبعة جميع مكونات العينة موضوع الدراسة ؟ وهنا يمكن ملاحظة أمور كثيرة. كما تم إجراء مقارنة بين بلدان المغرب العربي الأربعة خصت فيما يخص البعد الترفيهي. وتبين هنا أن الإقصاء شمل الإناث كما الذكور، ولا يحتويهم سوى فضاء المقاهي والشوارع، باستثناء بعض الأنشطة القليلة جدا.

وتقتصر الأنشطة الثقافية والترفيهية عادة على المناقشة التي تدور بين الأصدقاء وارتياد المقاهي وهذا النوع من النشاط يعد أساسيا بالنسبة للذكور. أما مشاهدة التلفاز فتظل من اختصاص الإناث. ويلاحظ هنا أيضا أن الشباب في جميع هذه البلدان، بما فيهم الطلاب، لا يتعاطون للقراءة إلا بمعدل قليل أي بمعدل ساعة واحدة أسبوعيا، كما يقضون وقتا طويلا في المناقشة مع الأصدقاء، ويغفلون البحث عن الشغل. ويمكن التعرض إلى جوانب وأبعاد أخرى كذلك.

بالإضافة إلى ذلك، يلاحظ أن السياسة لا تدخل في اهتمامات الشباب: 12% فقط هم من يتابعون التطورات السياسية، وبالكاد ينخرط الثلث في الحركات الجمعوية سواء ذات الطابع المدني أو الثقافي أو السياسي. من الواضح أن هناك عددا قليلا جدا من الأنشطة. لهذا فإن شاب واحد من بين أربعة يرغب في الهجرة. ونظرا للظروف التي يعرفها سوق الشغل، بدأت الرغبة في الهجرة لدى الجامعيين تزداد، فالأمر لا يعدو أن يكون هجرة تقليدية تخص القرويين فقط، بل أصبح الأمر يخص الحضريين خاصة الشباب المتعلمين. وتزداد النسبة لدى الإناث مقارنة مع الذكور لما يتعلق الأمر بالتعليم العالي.

نور الدين بوصفيحة

شكرا جزيلا على هذا التوضيح. أعطي الكلمة الآن لزميلي زكرياء قديري للحديث عن هذه الدراسة المتعلقة بالمغرب.

زكريا القادري

أشكر المنظمين شكرا جزيلا على دعوتهم لنا للحضور. ولن أعود إلى المشروع على النحو الذي أوضحه السيد نصر الدين حمودة. لقد هم المشروع، في حالة المغرب، إجراء دراسة كمية على 000 2 من الشباب، لأن فلسفة المشروع تقتضي استهداف 000 2 شاب لكل بلد لبلوغ ما قدره 000 10 شاب كحد أدنى ضروري يهم المستجوبين من البلدان الخمسة.

إن فكرة الدراسة الاستقصائية الكمية لا تعني فقط الرجوع إلى الأرقام، بل تعني أيضا مقارنتها بالتوازي مع الدراسة الاستقصائية النوعية التي تعتمد على الخيارات المختلفة للبلدان. بالنسبة لنا لقد قمنا باختيار ثلاثة محاور رئيسة. وبموازاة مع الدراسة الاستقصائية الكمية، تركز جهدنا بشكل كبير على الشغل كمحور رئيسي : فاشتغل الفريق المكون من السادة: إدريس ونيكول وكارولين والصقلي، أكثر على محور المقاولين الشباب، وكثيرا أيضا على محور ثالث: الشباب في عالم الأعمال الزراعية تكلفت به السيدة فاطمة آيت موس. هذه إلى حد ما لغة فريقنا، والتي سوف تنعكس أيضا على منهجية عملنا.

الحديث عن الدراسة في شقها الكمي، وهذا يعني أنه يتعين اختيار هذه الفئة من الشباب الذين ستشملهم الدراسة. أي هل سنهتم بهذه الفئة من الناحية الاجتماعية ؟ ويمكن أن نصادف رجلا عمره 38 سنة يعتبر نفسه شابا، هل سيتم إحصاؤه أم لا ؟ وبعد استشارة زميلنا السيد نصر الدين حمودة، أكد هذا الأخير التركيز على الفئة العمرية من 15 إلى 29 سنة ؛ هذا فيما يخص الدراسة الاستقصائية الكمية. أما في الشق النوعي فقد ذهبنا إلى البحث عن هذه الفئة العمرية عبر أشخاص تم التعرف عليهم ربما بواسطة آبائهم في بلدانهم، الشيء الذي يعتبر عنصرا هاما وجبت الإشارة إليه من حيث المنهجية.

إن الدراسة الاستقصائية الكمية، كما أشار إليها السيد نصر الدين حمودة، تهم التعليم والسياسة وما إلى ذلك. بحبكة فنية تعنى أكثر بالتطلعات والممارسات: ماذا يقوم به الشباب اليوم من حيث الممارسة؟ ما هي تطلعاتهم على الصعيد الثقافي والسياسي والرياضي من حيث الشغل ؟ لا أستطيع استعراض كل هذا، سأكتفي باختيار بعض الملامح لإغناء النقاش فقط.

أود أن أبدأ بالتعليم وهو عنصر أساسي. لقد دلت الدراسة على أن الشباب اليوم يتميزون كثيرا عن آبائهم والشباب يعرفون - استنادا إلى دراسات أخرى موازية-أنهم أكثر تعلما من آبائهم. ومن جهة أخرى، حوالي 46% من الآباء المستجوبين لم يتابعوا قط دراستهم، وفي المقابل أغلبية الطلاب والشباب تمكنوا من متابعة الدراسة. لندخل أكثر في التفاصيل: في الأخير، من تكون هذه الظروف الدراسية ؟ وما هي الكيفية التي تتابع بها الدراسة ؟ وهنا نجد أن متابعة الدراسة لا تعني الحصول على دبلوم، لأن في النهاية قليلون جدا هم الطلاب المتخرجون من الجامعات وفي حوزتهم شواهد، قليلون أيضا من يصلون إلى المستوى الجامعي، ويتخرجون بشواهد، في حين أن 22% يريدون الوصول إلى هذا المستوى.

لكن الحقيقة لا تواكب هذا، ما يفسر على أي حال أساسية التعليم، وهنا أيضا، نتوافق مع ما جاءت به الدراسة الخاصة بالجزائر وتونس، عن هذا الفرق بين الحضري والقروي : أرقام بمعدلات التمدرس الهزيلة ومعدلات الهدر المدرسي المرتفعة.
ومن المهم أيضا تحليل الأرقام من حيث المصادر الاجتماعية من أجل فهم سبب الفشل، حيث أن 9% يغادرون الدراسة لبعد المدرسة و11% لأن الآباء في حاجة إلى المساعدة من طرف الأبناء. وهذه أسباب هيكلية حرجة غير مرتبطة بالدراسة نفسها، ولكنها تعكس إلى حد ما الوضع الذي يتخبط فيه التعليم. وفى جميع الحالات، فالأمر يتعلق بأرقام مؤكدة. أما النقطة المرتبطة بشكل وثيق بالتعليم، والتي تعكس أيضا نقاط أخرى، فهي مسألة الهياكل الاجتماعية، بمعنى الإحصاءات الاجتماعية.
على سبيل المثال، فإن 80% من المستجوبين يعيشون مع أبويهم معا أو أحدها؛ وفى كل الأحوال، فإنهم يصرحون أنهم مقيمون دائمون في منازلهم، وإن كانوا يتابعون الدراسة في أماكن أخرى، أو يعيشون في أحياء جامعية أو في مدن أخرى. «يعيشون مع الآباء» نحن إذن بصدد حالات تظل فيها الأسرة مهمة.
وتبقى الهياكل الاجتماعية ذات أهمية. وهناك تساؤلا حقيقيا مفاده بأن الشباب قليل الارتباط اليوم كثيرا بالأسرة، بينما على أرض الواقع الحال ليس كذلك : من حيث السكن ودعم الاستقرار والزواج وعودة الهياكل الاجتماعية التقليدية.
أما النقطة الثانية فتهم خصائص هذا الجيل، فهو جيل يتعاون بشكل متزايد، وهذا لا أقوله بشكل شخصي وإنما تبينه مختلف الدراسات والإحصائيات. وتجدر الإشارة أيضا إلى أنه جيل أكثر تواصلية يستفيد من وسائل تكنولوجيا الإعلام والاتصال المتاحة في المجال الحضري في الوقت الذي يسجل نقص لهذه الوسائل في المجال القروي. لذلك فإن فكرة الربط ليست هدفا في حد ذاته، ولكن منذ عقد من الزمن، تمت الإشارة إليه لأنه الاستخدام الذي يهمنا على الأقل مقارنة مع الأرقام المغربية. وبالتالي فإن السؤال هو: ماذا يفعل الشباب ؟ ويمكن إعطاء بعض الأرقام : حوالي 57% يتواصلون يوميا من أجل الدردشة، 2 في المائة من أجل ولوج الشبكات الاجتماعية، بما في ذلك الحصول على المعلومات وللتحدث أيضا، ولكن في نفس الوقت، 34 في المائة لا يتواصلون على شبكة الانترنت إطلاقا، للبحث عن عمل مثلا. وهذا ما يدعو إلى طرح تساؤلات في نفس الوقت.
أما المحور الثالث الذي أود أن أشاطركم إياه هو قضية التشغيل. إن أهم الخصائص التي انتهت إليها الدراسة المغاربية ودراستنا الاستقصائية النوعية في المغرب، وهذا تقرير مخيف جدا حول الطابع غير الرسمي لمحور الشباب والتشغيل. هذا التوجه يؤكد أهمية عدد من الشباب الذين يسعون لولوج سوق الشغل. ماذا نقصد بغير رسمي ؟
وبالنسبة للمغرب، 18% من الشباب الذين تتراوح أعمارهم ما بين 15 و29 سنة، لم يكن لهم نشاط، ولكن يجب تقسيم المجموعة أيضا إلى فئات، لأنه لما يقل السن عن 24 سنة فنحن غالبا بصدد فئة الطلاب وبعد 24 سنة، فقد أصبحنا بالفعل في أول اتصال بسوق الشغل الرسمي.
هذا العدد يؤكد أن هناك 30% من الشباب الذين يشتغلون لأول مرة، في حين أن أعمارهم تتراوح بين 11 و15 سنة، و44% منهم يشرعون في الشغل لديهم بين 16 و20 سنة، الشيء مما يوضح الطابع المبكر للتشغيل.إن الدارسات الجديدة، الصادرة عن المندوبية السامية للتخطيط تعكس أيضا هذه الأبعاد من حيث تزايد الطبقة النشيطة وتناقص عدد الشباب النشيطين.
وفى الوقت نفسه، يشكل هذا الأمر تحديا لأنه إذا ما صادفنا طلابا لاسيما في العالم القروي يشتغلون بشكل موسمي، معناه أن لا أحد ولج إلى سوق الشغل. إن مسألة الأنشطة غير الرسمية تعتبر مهمة لأنها تحيلنا على قضايا التأمين أثناء الشغل، ونشير هنا إلى أن فقط 16% من الذين يشتغلون، يتوفرون على عقد محدود الأمد على سبيل المثال، أكثر من 75% لا يتوفرون على أي ضمان اجتماعي، دون أن ننسى بالطبع المطرودين، الثلث منهم لا يشتغل ولا يدرس.

عندما سئل الشباب لمعرفة مدى استعدادهم للعمل في غضون أسبوعين : 20% منهم وافقوا ، رغم أن ظروف العمل سيئة وشاقة وبعيدة. هذه القابلية للعمل هامة جدا إذ تدلنا على الوضع الهامشي والهشاشة : أين هؤلاء الباحثين عن العمل ؟

44 في المائة منهم غير مبالين، دون تفضيل شغل على آخر. وكما يقال : «لي جات مزيانة» إذن فإن أول عمل يأتي هو خير.

في نفس الاتجاه، تتضح أيضا من هذه الطريقة في تدبر الشباب أنفسهم طبيعة الأنشطة، وعلى سبيل المثال فإن 60% منهم ينال دعم الأسرة : ولهذا أكرر أيضا على العلاقة المتينة التي تفرزها البنيات الاجتماعية.

نصر الدين حمودة

وفي الجزائر اليوم ما يقارب ثلث الطلبة أحد أبائهم يصنف في خانة الأمية أو كلاهما. هناك بالفعل «أثر الأسرة»، لأنه إذا لم يكن وراء الشاب تضامن مؤسساتي، فهناك الأسرة : إذا لم يكن هناك عمل فالأسرة سوف تساعد. إذ قد تتأخر الاستقلالية على مستوى السكن بسبب ضعف الاستقلالية المادية بسبب البطالة أو ضعف مدخول الشغل، وإن كان الشغل غير رسمي : فإن الأسرة تظل هي الحل. وحتى بالنسبة للهجرة، فمساعدة الأسرة مطلوبة إن داخل البلد أو خارجه.

نور الدين بوصفيحة

هل من سؤال حول التجربة الجزائرية ؟

إدريس

زكرياء القادري استعرض الدراسة في شأن تساؤل معرفي أساسي تم طرحه من طرف السيد نور الدين بوصفيحة : كيف يتم التعامل مع الطلب الدولي ؟ نحن أمام مسألة ليست بالهينة : إنها مسألة جوهرية. منذ القرن التاسع عشر، وبسبب مركزية تصور المعرفة، قمنا بقتل القدرة الذاتية على إنتاج المعرفة بالمعرفة نفسها : كيف لنا أن نتطرق إلى إنتاج المعرفة عن المعرفة نفسها، مع الحفاظ على الانفتاح ؟

كيف يمكن التبادل في ظل هذا الاشتراط ؟ هنا ناقش السيد نصر الدين حمودة بشكل مستفيض ضرورة وضوح المرجعيات، وأهداف الدراسة، وهذا أمر جوهري : ما هي قضايا الدراسة الاستقصائية ؟ ما هي المنهجية، ولماذا ؟ لماذا نقوم بالخلط بين ما هو كمي وما هو كيفي أو نوعي؟ ماهي اللغة المعتمدة في العمل ؟

كيف نستعين بالدارجة عندما تقتضي ضرورة التفصيل ذلك ؟ إن الغوص في تفاصيل اللغة يبدأ انطلاقا من مسألة البحث، وهذا يتطلب جهدا كبيرا. وللأسف، في الوقت الحاضر -وهذا ما قد تقتضيه الدراسة-نحن لا نتوفر على استقلالية الموارد : الأموال تأتي من المساعدات الدولية. هذا ليس سببا في أن يكون على حساب التطلعات. وبطبيعة الحال، لا يمكن أن لا نقوم بالرد عليها فحسب، بل يجب أن نكون واعين بها.

مداخلة

لقد تم خلال سنة 2014، انجاز عمل جد مهم، في شأن المشاركة الاقتصادية المتعلقة بالنوع. وتم استنتاج أن مستوى النشاط النسائي منخفض جدا، الشيء الذي أكده فيما بعد المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي، كما أكدته أيضا نتائج الإحصاء. هل تم استنساخ النتيجة ذاتها من قبل الدراسة ؟ وما هو معدل مشاركة الشباب، لاسيما الشابات في النشاط الاقتصادي ؟ وهل لهن أدوارا مختلفة مقارنة بين المغرب والجزائر ؟ هل تم تناول «الحياة الجنسية» في الدراسة ؟

نصر الدين حمودة

بالنسبة للبلدان الخمسة، تظل الخاصية المشتركة هي انخفاض معدل النشاط، وضعف الاندماج في سوق الشغل، بغض النظر عن المستوى الدراسي. وهنا تتغير الأمور ببطء عمليا، ونلاحظ أنه عندما يطرح السؤال عن تدخل الدول لتحسين وضعية المرأة الشابة ذات الثمانية عشر ربيعا، ينبغي أن تعمل الدولة أكثر لصالح الإدماج، ومن ناحية أخرى، هناك الشبان الذين لا يرون الأمور من نفس الزاوية. وكان من الممكن التفكير في أن الزواج قد يبعد المرأة عن سوق الشغل، ولكن في الواقع لم تندمج المرأة حتى قبل ذلك. النساء الوحيدات المندمجات هن اللائي كانت السياسية فعالة بالنسبة لهن في الجزائر، يتعلق الأمر بخريجات الجامعة الحاصلات على دبلوم : أكثر من ثلاثة أرباع اللائي تابعن الدراسة يتجهن نحو سوق الشغل.

نور الدين بوصفيحة

شكرا جزيلا لكم جميعا والشكر موصول إلى زملائي الحاضرين في هذه المائدة. وأدعوكم إلى منصتنا حيث نقدم عدد خاص لمجلة بشأن نفس الموضوع، ثم لحضور مراسيم توقيع كتاب السيد عبد الواحد الراضي.

رئيس الجلسة : فتحي بن سلامة (تونس - فرنسا)
المشاركون : عادل الجزولي، جليل بناني
فضاء : إدمون عمران المالح
التاريخ : يوم الجمعة 22 شتنبر 2017
الساعة : 09 : 30 - 11 : 00

موجز مداخلات المائدة المستديرة

شاركت ثلة من المفكرين في عقد مائدة مستديرة حول موضوع «الهجرة، أسطورة العودة». وقد أكد المشاركون في هذه الندوة أن الهجرة هي ظاهرة أساسية للإنسانية منذ القدم وبكل أرجاء المعمور ؛ فهي تشمل تحركات الناس من مختلف الأعمار والأعراق والإثنيات والجنسيات والمستويات الفكرية والاقتصادية والتخصصات المهنية.
تكمن أسبابها الرئيسية في نظرة المهاجرين للظروف المادية أو الاقتصادية أو الأمنية أو الصحية أو السياسية أو الاجتماعية لبلدانهم الأم. وقد تم عرض الدراسة التي أجريت في أربعة بلدان مغاربية، بالإضافة إلى لبنان، من طرف مجموعة من الباحثين من مختلف مجالات وتخصصات العلوم الإنسانية، والذين ناقشوا جل الأبعاد البيئية والاقتصادية والسياسية والقانونية لمختلف المجتمعات والثقافات.

وقد سلطت عروض المشاركين الضوء على الفرق بين المهاجرين الطوعيين الباحثين عن مستقبل أفضل والمهاجرين الفارين من الحرب أو القمع : وهؤلاء يعتبرون لاجئين، افتقدوا حماية دولهم الأصلية، وفي معظم الأوقات لم يعد لهم أمل في العودة، مما يجعلهم رهينة للصفة التي يرغب البلد المضيف منحهم إياها. وبالتالي، فإن الرغبة في النجاح والاستقرار ببلد المهجر يحذو اللاجئين والمهاجرين في ظل استبعاد فرضية العودة، تتعزز بشكل كبير. وقد كانت الهجرة الكلاسيكية تستحضر دائما قرار العودة إلى البلد الأم، إذ غالبا ما تبقى في مخيلة المهاجر صورة راسخة عن بلده وقت مغادرته، وتبعث فيه الأمل والإرادة في النجاح في البلد المضيف، غير أنها تؤجج فيه أيضا الحنين إلى وطنه.

غير أنه عند العودة، تصطدم هذه الصورة بالواقع، والذي غالبا ما يتغير بشكل كبير في غضون فترة الغياب : أولئك الذين يعودون إلى بلدانهم الأصلية يعانون من هذا التحول ؛ وفي معظم الحالات، يصبح الاندماج شيئا ما معقدا في بلدان الاستضافة، وخاصة بالنسبة للأطفال، حيث تصبح العودة مستعصية بالنسبة لهم. لذا، كيفما كان القرار، فذلك يجعل للعودة بعدا أسطوريا كما هو الحال مع الملك أوديسيوس في ملحمة الأوديسة. وتصبح عموما المواجهة بين الأسطورة والواقع مثل تجارب فردية باستنتاجات متغيرة جدا. وتجدر الإشارة إلى أن العينات المدروسة شملت المتقاعدين والشباب الباحثين عن تحسين مستواهم الاجتماعي.

وعلى أية حال، فإن الأسلاك الشائكة لم تمنع الهجرة أبداً، بل على العكس من ذلك، كبحت فقط وعرقلت انسيابية الذهاب والإياب، مما سبب تراكم المهاجرين في المجتمعات المضيفة وإنتاج أشخاص خارجين عن القانون.

فتحي بن سلامة

إن لحضوري هنا فرحتان، الأولى بوجودي في مدينة وجدة والثانية بانطلاق فعاليات هذا المعرض الأول، باعتباره الخطوة الأولى للحوار بين بلدان الجنوب ودول الشمال. لكن كيف يمكن التحاور بوجود قواعد مختلفة ؟ لقد كتب الخطيبي عن الحوار وأكد بوجوب تواجد شخصين مختلفين حتى يمكن إجراءه.

لقد تم تكليفي بالإشراف على هذه الندوة، وعندما قرأت موضوعها، تساءلت عما سأقوله. أشغل حاليا منصب مدير مركز أبحاث في تونس يحمل اسم - دراسات مغاربية وفرنكوفونية، وساطة ثقافية - وبالصدفة فإن آخر كتاب تم نشره من طرف المركز يسمى «Ponts et Passerelles» (جسور وممرات). وقد فكرت قبل أن أبدأ هل من الأجدر عرض هذا العمل في هذا العالم الذي لا تزال تشيد فيه الجدران، ونتساءل عن جدوى الجسور والممرات ؟

فعلى مر العصور، كنا نرغب دائما في مواجهة المخاطر، وعبور الأنهار والسيول، والمجازفة في البحار ... فهل سيصبح هذا الماضي في خبر كان ؟ إن الجغرافيا من جهتها لا تزال تمنح إمكانيات المغامرة، حيث لا يمكن فصل بناء وهدم الجسور عن نشاط الوعي البشري. واستنادا لقول المهندس الجزائري سعيد، الذي قاد بشجاعة معركة بين اللامبالاة والنجاح، فإن الأمر يتطلب الكثير من الأيادي والقوة لبناء جسر أو هدمه. فهو يعلم أن التاريخ لا يملك قلبا، وأن الروايات لم تعد في الكتب، وأن ممرا أو جسرا هو مجرد رواية حب. ماذا يتعين علينا قوله لأولئك الذين يفرضون الأسلاك الشائكة أو ما زالوا يشيدون الجدران ؟

وعلى الرغم من كل هذا، فلا يمكن منع عبور الكلمات، فالمهندس - كشاعر ورسام وفنان وإن كان صانع الماضي والمستقبل، وأصبح أساس الحداثة - فهو فقط يحفر ويشيد لإعادة الخيال للحياة، والتقسيم للمجال الحضري، والطموح للضفة الأخرى ... بهذه الطريقة أكون قد قدمت كتاب «جسور وممرات» في هذا العالم المليء بالجدران.

شاهدت هذا الصباح تقريراً تلفزياً عن طريقة الاحتفال بالطلاق بين الهند وباكستان، وحفل إغلاق الأبواب: إنه أمر لا يصدق، نعيش في 2017 وما زلنا نحتفل بالجدران، والحدود، وبالتفرقة والطلاق. وقد ركز المصور على ذلك الباب وتتبع الحفل كاملاً. إذن كيف يمكن تصور الذهاب والإياب ؟

إننا نعيش حقا في عالم دائم التغير والحركة. فمثلا، تحكي إحدى الروايات الإيطالية الشهيرة قصة هجرة شخصيتها الرئيسية إلى تونس، عندما كان الإيطاليون يتوجهون إلى تونس للبحث عن عمل.

على أية حال، يسرني أن يكون معي، خلال هذه الندوة، محلل نفسي وعالم اجتماع. شكرا لكم جميعا على وجودكم هنا. السيد عادل جزولي، عالم الاجتماع ورئيس قسم الأبحاث والاستشراف في المندوبية العامة للمساواة المجالية في فرنسا، وباحث مشارك في دار العلوم الإنسانية بباريس، ومؤلف العديد من الكتب حول الهجرة والضواحي الشعبية. لك الكلمة السيد جزولي.

عادل الجزولي

عند حديثنا عن العودة، فإننا نستحضر الكثير من المعاني، ونربط عادة كلمة «عودة» بكلمة «أسطورة». وقد مرت أربعون سنة على طرح هذا السؤال ؛ بل وقبل ذلك، فهناك مثال على المغادرة والرحيل وعلاقة كل ذلك بأسطورة العودة، وذلك في ملحمة الأوديسة. إذ يعتبر الملك أوديسيوس المثال النموذجي لهذه الظاهرة: فهو رحل وترك بلده وزوجته بينيلوبي، واستمر سفره عشرين عاما بحثا عن أرض أخرى. غير أنه بمجرد وصوله إلى مكان آخر، كان همه الوحيد هو العودة من حيث أتى. ثم عاد ولم يلبث سوى ثلاثة أيام حتى غادر مرة أخرى. هذا يطرح سؤالا بسيطا للغاية : إلى ماذا يحن الإنسان ؟

عندما نتحدث عن الذهاب والإياب، فإننا نكتشف في هذه الظاهرة، حنينا وشوقا. لمسنا هذا الحنين في الجيل الأول من المهاجرين : حيث استقروا أحيانا لما يزيد عن أربعين سنة في أوروبا، في فرنسا وبلجيكا وهولندا ... ولطالما حلموا بالعودة إلى بلدهم الأم. ولكن مع مرور السنين على رحيلهم لم يجدوا بلدهم الأصلي كما تركوه.
عندما نغادر مكانا ما، نتوق للعودة له لأننا تركنا شخصا ما - حيث ترتبط أسطورة العودة بفرضية توقف الوقت - ونذهب لعالم آخر، ثم عند العودة إلى موطننا نعتقد أنه بقي ثابتا. غير أن العالم في حركية دائمة، وعند عودتنا إلى قريتنا الأصلية نجدها أصبحت مدينة، ولم يعد حينا كما كان عليه، ولم تعد عائلتنا كما عاهدناها سابقا؛ ولم يعد الناس يتعرفون على بعضهم البعض. وبالتالي نجد تناقضا في جميع شهادات العمال الذين قضوا فترة طويلة في الخارج. كانت الشهادات واضحة جدا في هذا الموضوع وكذا فيما يتعلق بحنينهم وشوقهم. فعلى الرغم من أنهم متعلقون بالمغادرة أو العودة، إلا أنهم أصبحوا أكثر «اعتدالا» بسبب العائلة والأطفال والأحفاد ، وأصبح التعلق بهم أقوى.
يتعين أخذ مسألة أسطورة العودة في تجلياتها الواقعية : فلا يمكن اعتبارها حدث عبثي، وإلا فلن نفكر أبدا في مغادرة موطننا أو نغادره فقط في حالة حرب، أو إذا تم طردنا مثل ما يعيشه مسلمو بورما وآخرون ممن يُقال لهم إنهم لن يعودوا. بل وحتى في ظل هذه الظروف، فهناك حنين العودة إلى الوطن الأم.
لذلك لا أحد يرغب في مغادرة المكان الذي يعيش فيه، أو المكان الذي تتواجد فيه عائلته، أو المكان الذي نسج فيه علاقات اجتماعية، من دون أن تكون لديه هذه الفكرة التي يمكن أن نسميها أسطورة، أي أسطورة العودة، لأن الأمر يختلف عندما نغادر مكانا مع فكرة الإقامة الدائمة بمكان آخر. عندما تم دفع يهود أوروبا الوسطى للهجرة من بلادهم في ظل النازية، كانوا يعلمون أنها مغادرة نهائية دون عودة، لذا قاموا بتحويل كل طاقتهم وجهدهم للاندماج في المجتمعات المضيفة. فبعد إدراكهم لاستحالة العودة، تعطلت الأسطورة وعملوا جاهدين على التأقلم والاندماج في المجتمعات المضيفة لهم، كفرنسا، وبلجيكا و في أماكن أخرى.
ولكن بشكل عام، فإن أكثر ظواهر الهجرة كلاسيكية في العالم كانت ولا تزال تحيى على أمل العودة، لأننا ببساطة لا نغادر موطننا من أجل متعة الهجرة، ولكن لأننا بحاجة إلى عمل أو للدراسة أو للحرية. نحن نتحدث عن أسباب سياسية واقتصادية وعلمية وأسباب مختلفة ومتنوعة، تصب كلها في فكرة أننا نغادر من أجل التعلم، أو تحسين الوضع المادي للعودة بعد ذلك إلى البلد الأصلي...
فكل ظواهر الهجرة تتبع نفس النموذج، وهو مخطط كلاسيكي تم إتباعه خلال السنوات الأخيرة. غير أن تكاثر الجدران في العالم ما انفك يتزايد بشكل مطرد، ووظيفتها هي إيقاف المهاجرين النازحين، إلا أنها في الواقع توقف أيضا العائدين.
وهكذا، فعندما كانت فقط الحدود المكسيكية الأمريكية، فقد كان يسجل مرور 11 مليون شخص بشكل منتظم، وبنوع من الانسيابية. لذا فنحن أمام سياسة عمومية، أمريكية على وجه الخصوص، يطبعها غباء اجتماعي، لأنه على العكس فعندما تكون الحدود غير محكمة، فهي تسهل عمليات الذهاب والإياب، وتبقي على أسطورة العودة. حتى في فرنسا كانت الأمور تسير على ما يرام إلى غاية سنة 1976، عندما كان دخول وخروج المهاجرين، المغاربيين على وجه الخصوص، سهلا نسبيا. أتذكر أنني رافقت بعض الأعضاء في إطار جمعوي. كانوا قد غادروا بلادهم، وبعد شهر تحصلوا على عمل، ولبثوا لمدة ثلاث سنوات ثم عادوا لمدة ستة أشهر: كانت هنالك انسيابية معينة.
وفي سنة 1976، توقفت الهجرة العاملة : أو بالأحرى تم منعها ؛ ولكن بقيت الهجرة العائلية. هكذا، وبدلاً من أن يستمر الناس في التنقل، ذهاباً وإياباً دون عوائق، توقفت هذه الهجرة الانسيابية. فماذا حدث ؟ لقد تم تشييد جدار رمزي : فبدأ أولئك الذين كانوا في البلدان المضيفة يتساءلون : «إذا غادرت، فلا يمكنني العودة». بالإضافة إلى ذلك، فقد تم إنتاج الاستقرار النهائي في فرنسا عبر التجمعات العائلية : من سنة 1976 إلى غاية 1986، وصل مليون ومائتي ألف «ملتحق بالعائلة» إلى فرنسا، من بينهم ستمائة ألف مغاربي. ولقد تمت الإشادة بهذه المبادرة، التي تسعى لتجميع العائلة واستقرارها : لكن ماذا عن أسطورة العودة ؟

ما زال الآباء يؤمنون بأسطورة العودة. كان ذلك في أوائل الثمانينيات في فرنسا وفي جميع أنحاء أوروبا، الأحزاب السياسية والنقابات والمواطن الأصلية ... يتحدث الكل عن العودة كاحتمال قائم. حتى في مدارس البلدان المضيفة كانت دروس اللغة العربية تلقن للأطفال من أجل تسهيل عودتهم إلى بلدهم الأم، ولكن من الواضح، أنه منذ اللحظة التي نتجذر في بلد المهجر، بالإضافة إلى أنه عندما يكبر الأطفال ويذهبون إلى المدارس الفرنسية تصبح العودة مستعصية، وتصير بذلك أسطورة. ولا تملك الأسطورة وظيفة تشغيلية : بل لها وظيفة نفسية. وقد جعلتهم أسطورة عودة الوالدين يستقرون لكل هذه السنوات، وساعدتهم على الاستمرار. في مرحلة ما، سيقولون «نحن في وطننا»، وفي داخلهم، لن يقصدوا فرنسا، بل مكان آخر، فالحنين يبقى دائما إلى الوطن الأصلي. حتى بالنسبة للأولاد، فمثلا خلال الفترة ما بين 1979-1980، توجه الشباب إلى السياسة، واتخذوا توجها ثوريا، وشرعت بعض الحركات في تجنيد كل من تشبع بروح ثورية لمواجهة الرأسمالية... وأحد أهم عناصر عدم سقوط الشباب في العنف السياسي هو أسطورة العودة الوظيفية بداخلنا. لقد أجريت مقابلات معهم وكلهم عبروا عن رغبتهم في العودة. من هنا نستشف جوانب مختلفة لهذه الأسطورة التي تذكر بمؤسسها الملك أوديسيوس. في الواقع، لا نعرف سبب هذا الحنين أو متى يولد، ويمكن أن يتغير من لحظة لأخرى، نتيجة ظهور الكثير من الآثار اليومية في مجالات السياسة والحياة الاجتماعية. نعتقد أنه في يوم من الأيام سنعود إلى وطننا الأم. إنه حنين نجده في العمل، وهو إحساس غير ثابت، يمر عبر كل واحد منا، ولكن أيضا عبر المجموعات الاجتماعية والأجيال، بطرق مختلفة.

فتحي بن سلامة

أمامنا رجل راكم تجربة ميدانية، شخص عاش الانسيابية التي كانت في الماضي واستنتج أنها أضحت محدودة، بالنظر إلى الصور المعروضة للشباب يوميا على شبكات التواصل الاجتماعية. يقال لهم أن عليهم المغادرة، لكن عندما يرغبون في ذلك، لا يجدون أمامهم سوى الجدران. حيثما تبنى الجدران، تفقد الانسيابية بمنع العودة. وكلما تعطل التاريخ، فإن الأسطورة هي الملاذ، لاستعادة الشباب واستغلالهم. أولئك الذين يريدون الرحيل، عليهم اقتناء تذكرة رحلة ذهابا وإيابا لأن العديد من البلدان أضحت تفرض ذلك. هل يمكن إيجاد دول تمنح تأشيرة بتذكرة الذهاب فقط ؟ مع المداخلة الثانية، سننتقل من علم الاجتماع الميداني إلى مجال آخر، وهو مجال التحليل والطب النفسي، حيث يهتم المتخصصون في هذا المجال بالضفة الأخرى، لأننا أمام ظاهرة تمتد على ضفتين. فهم يعرفون متى يتم التهجير والطرد، ومتى يتعين الاختباء، ومتى يكون الحلم بالهجرة إلى الخارج أو متى يتم المنع. بطبيعة الحال كان الملك أوديسيوس يرغب في البقاء : كان يمكث في مدينة جربة، وكانت هنالك حوريات البحر، لكن بينيلوبي كانت على الضفة الأخرى، وفي كل مرة، يعود إليها، ويقول أنه لن يتركها قط ولكنه لا يفي بوعده. من هنا نستنتج أن الإنسان محكوم بالتنقل والحركة. المحلل النفسي جليل بناني من مدينة الرباط، ومدير أبحاث ومؤلف العديد من الكتب، آخرها : «Un si long chemin» (طريق جد طويل). هل يرى الأمور من زاويته بشكل مختلف ؟

جليل بناني

إنني سعيد بهذه الفرصة التي سمحت لي بأن أكون إلى جانب السادة بن سلامة وجازولي في هذه البلدة الحدودية، ونكتشف مع عالم الاجتماع ملاحظاته التي قدمها لنا حول التكون والتطور الاجتماعي.

بداية، أود أن أروي لكم قصة شخصية. لدينا جميعاً أصدقاء يعيشون خارج مواطنهم، أو في المهجر، ولا ينوون العودة إلى البلاد. كانت لدي صديقة في المهجر لأسباب سياسية، حيث فرت من المغرب لتستقر في فرنسا واشتغلت هنالك. وقد دعوتها إلى مؤتمر قمت بتنظيمه. لم تكن ترغب في العودة، إلا أنها كانت سعيدة جدا لحضور هذا المؤتمر والاعتراف بما أصبحت عليه حاليا : لم تعد ذلك الشخص الذي غادر، بل شخصا راكم تجربة وخبرة تم الاعتراف بها في فرنسا، وكذا في المغرب ودول أخرى.

حققت عودة رسمية ومعترفًا بها، وتساءلت في خطابها السابق عما إذا كان من الممكن العودة إلى المغرب. اعتقدت أنها كانت فرصة جيدة لعودتها في إطار مهني. لكن في الواقع، وعلى الرغم من أنها كانت سعيدة ومتأثرة للغاية وأعدت أوراقها إلا أنها بقيت في فرنسا ولم تحضر.

من الجانب التطبيقي والنظري لم تكن هناك حدود ولا حواجز ولكن حياتها كلها كانت في فرنسا ولم ترغب في العودة. من هنا يمكنني القول: واقتباسا لكلام السيد عادل عندما ترحل لسنوات أو لعقود، فإن البلد يتغير، وحتى من الجانب النفسي، فإن الأمور تتغير : فالشخص الذي عاش بعيدا لفترة طويلة يكتسب بالضرورة هوية أخرى، ولكن دون التخلي عن هويته الأولى، لأن التنازل عنها يمكن أن يؤدي إلى الموت: أي عدم التخلي عن الهوية الأصلية بل تقبلها واكتساب هوية أخرى.

إن المغربي الذي يندمج في لغة أخرى وثقافة أخرى، لم يعد ذلك المغربي الذي غادر في الماضي، ولهذا فإن العودة لم تعد مجرد عودة للبلاد: إنها أيضاً عودة إلى الذات حيث تغيرت أمور كثيرة. يستحضرني مثال آخر، يرتبط مباشرة بممارستي وبما قمت به مؤخرًا في كتابي الذي ذكرتم، والعديد من الأمور المشتركة التي ناقشتها مع السيد عادل، كل ذلك جعلني أتذكر سنوات الثمانينات وما واكبها من هجرات، ولكن أيضا شهدت هذه الحقبة ترحيلات قسرية. ما زلت أتذكر الناس الذين شاهدتهم يعانون في الخارج. لم يعودوا بتاتا أولئك الأشخاص الذين رحلوا، وكانوا معوزين، كما أنهم لا يستطيعون أبدا العودة إلى بلدهم بهذا الشكل. عندما اشتغلت لاحقا في المغرب، رأيت أولئك الذين غادروا بهمة قوية وعادوا ضعفاء ومكسورين: لم يفقدوا فقط «عزة النفس»، بل حتى على المستوى العائلي، لم يتقبلوا عودتهم. وبحيث أن العودة لا رجعة فيها، فإني أتحسر على عدم منحهم الأمل في الذهاب والإياب مرة أخرى، وهذا ما جعلني أتساءل عن كل هذه الأمور. وهذا هو موضوع كتابي الأول (وهو كذلك الأخير)، لأنني ركزت فيه على المهاجرين، إذ طلبت مني المفوضية السامية لشؤون اللاجئين أن أشتغل مع اللاجئين في المغرب، وهو ما جعلني أتذكر حالتي عندما كنت بنفسي كذلك مهاجرا في فرنسا، وبدأت في الاستماع إلى هؤلاء اللاجئين الذين يأتون إلى المغرب. في نظري، قضية اللاجئين هي من قضايا الساعة، وقد دفعتني إلى التفكير في عدة إشكاليات متعلقة بها.

في هذا السياق، يعتبر اللاجئون نوعا من المهاجرين، غير أنهم على عكس هؤلاء، لا يستطيعون العودة إلى بلدانهم. يمكن للمهاجر الانتقال ذهابًا وإيابًا، ويبقى دائما على أمل العودة. أما اللاجئ، فلا يمكنه عموما العودة، وهذا يؤثر بشكل كبير من الناحية القانونية والاجتماعية والسياسية والنفسية أيضًا. فعلى المستوى الاجتماعي، فإن اللاجئ، وعلى عكس المهاجر، يفقد دفاع بلده الأصلي عنه، حيث لم يُعترف به أصلا عند مغادرته، بينما يظل المهاجر تحت حماية بلده الأصلي. فعلى سبيل المثال، إذا واجهت مغربي بعض المشاكل في فرنسا أو في هولندا، فيمكن للدولة المغربية أن تتدخل، ولكن بالنسبة للاجئ فالأمر خلاف ذلك.

وقد اشتد هذا التغيير واحتد، لدرجة أنني اشتغلت كثيرا على القضايا المتعلقة بتداخل الثقافات - لم أعد أتكلم عن القضايا المشتركة بين الثقافات، بالنسبة لي هو مصطلح مجرد - أما اليوم فأنا أتحدث عن تفاعل الثقافات أو التثاقف، وهذا بالضبط هو المر والجسر، حيث ننتقل من مكان إلى آخر، أو من حالة ثابتة إلى حالة أخرى، دون العودة إلى الحالة السابقة، لذا فانا أفضل الحديث عن المثاقفة.

من جانب لآخر، انصب اهتمامي على مسألة الأسطورة. لنأخذ مثلا حالة السوريين اليوم في المغرب. في هذا المثال نجد مسألة الحالة الفردية التي تعتبر مهمة جدا. حيث أن هنالك العديد من الحالات العامة، دون الغلو في التعميم. فقد كنت مع بعض السوريين في مدينة أزرو، وكانوا عمالا حقيقيين وليسوا أشخاصاً في وضعية مزرية، إذ لديهم ممتلكاتهم ومنازلهم ومقاولاتهم. استقروا بكل دهاء في مدن متوسطة، وفضلوها عن المدن الكبرى. إن الشخص الذي أتحدث عنه هو رجل ستيني، وصل للمغرب واستقر به وتزوج بمغربية واقتنى شقة وجلب عائلته (ابنه، وصهره ...). سألته يوما عن العودة : «هل تفكر في العودة إلى سوريا ؟»، فأجاب: «لا»، لا أعتقد ذلك، فسوريا لم تعد للسوريين. وعلى أية حال، فأنا هنا في المغرب وهو بلدي». لقد أدهشني بإجابته، إذ كنت أعتقد أنه بالنسبة للمهاجرين الأكبر سناً، تظل جذورهم في موطنهم.

لكن في هذه الحالة لعب التثاقف دورا مهما (فهو متزوج من مغربية) وهذا البعد يصبح أكثر تأثيرا داخل صفوف اللاجئين، الذين يستبعدون العودة ولا يوجد أي خيار آخر أمامهم. فنجد من بينهم من ينجح ومن يفشل. إن كلمة «الحنين» تدل على الكثير من المعاني: في العامية المغربية هناك كلمة «الوحش».
ثم طرحت نفس السؤال على صهره، فأجابني : «بمجرد انتهاء الحرب، سأعود إلى سوريا». لقد تفاجأت حقا، لأنني اعتقدت أن الأكبر سنا سيرغب بالعودة وأن الشاب هو من سيود البقاء والعيش هنا. في الواقع، كان الشاب كله ثقة في المستقبل في حين فقد المسن كل أمل في الحاضر والمستقبل.
أتفق تماما أن في المهجر هنالك حتما جزء من الذات نتركه في موطننا، ودائما ما نفقد شيئا ما في المهجر. في الواقع، تتطور الأمور بشكل مختلف تمامًا: يكون المهجر مرغوبا وقسريا في الآن ذاته، زد على ذلك ما يعاش في الحياة اليومية. بكل بساطة، قد يكون الشخص مضطرا لمغادرة بلاده، وبعد ذلك، ومع تغير ظروف الحياة، هناك العديد من الإنجازات الناجحة والمفاجآت التي تحتفظ بها الحياة، لأنه في المعيش اليومي، كما يقول زملائي المحللون النفسيون، الإنسان محكوم بغرائزه.
ما يدهشني في قصص النجاح هاته هو أن أرى أناسا يهاجرون، مثل قصة شاب قادم من رواندا، كان شاهدا على الحرب وعلى اغتيال والديه، واستطاع أن يتجاوز كل تلك المآسي وأصبح اليوم يقرأ، ويستمع إلى الموسيقى ويطمح في أن يصبح مغنيا : إنها بعض الحالات التي تتفوق فيها غريزة الحياة على غريزة الموت. إن حقده وكراهيته لكل ما دمر حياة والديه سخرها كقوة يضعها في خدمة الحياة، وهذا شيء مدهش للغاية بالنسبة للحياة. ما أود توضيحه هو أن هذه القصص الناجحة ليست حتمية، وإنما في بعض الحالات يمكن للمعاناة أن تتحول إلى نجاح ومفاجآت في الحياة.

عادل الجزولي

في الميكانيك، تتولد ظاهرة عن أخرى. وعلى العكس من ذلك، ففي علم الاجتماع، الوظيفة الاجتماعية تنطوي على وظائف اجتماعية أخرى. إذ يحاول علم الاجتماع الحصول على رؤية، نبيلة قدر الإمكان، في الأنثروبولوجيا وفي التحليل النفسي.

فتحي بن سلامة

إنه حوار مثير للاهتمام بين المحلل النفسي وعالم الاجتماع. لقد سجلت العديد من النقاط، على سبيل المثال: الفرق بين المهاجر واللاجئ، واختيار مصطلح آخر غير التداخل الثقافي، والأمثلة الملموسة للسوريين المرغمين على المغادرة، الرحيل... أو على العودة إلى تونس التي استضافت أفواج المهاجرين ومن الجانب الآخر أوروبا التي حصنت نفسها...
في الواقع، إن الشخص الذي يرحل يصير مغاير تماما عن الشخص الذي عاد. في تونس مثلا، أُجبرت الأسطورة على إحداث قطيعة مع «قرار منحرف»: سمح القانون التونسي للعمال عند عودتهم من المهجر بشراء سيارة بلوحة معينة تحمل رمز FCR. لكن الشارع لم يفوت فرصة السخرية من بعضهم الذين كانوا من قبل يتمكنون من الذهاب والعودة، ثم فقدوا هذه الحرية. إلا أن القانون ألغى هذه اللوحة التمييزية.
في المداخلة الأولى، قدم السيد جازولي، عالم الاجتماع والمتخصص في ظاهرة الهجرة - والذي يتعين قراءة مؤلفاته - زاوية نظر أخرى: وهي الانسيابية.
أما السيد جليل فلديه قراءة أخرى، وهي المتعلقة بالجدران، حيث بين أن العودة في بعض الأحيان تبوء بالفشل. إن الشخص الذي يطلب منه العودة إلى بلده، فهو يعود إلى مكان لم يعد يعرفه ؛ يرغب في الاستثمار وتتم عرقلته، ويطلب منه أن يدفع ليستقر ولينجح، وفي نظره أن هذا الأمر غير معقول، ويريد العودة إن كانت ممكنة. وبالتالي، فإن هذه القوانين فشلت، وكلما أردنا وقف تدفق المهاجرين نخطئ. أما الآن فالكلمة للحضور.

حورية عبد الواحد

أنا محللة نفسية وأعيش في مدينة باريس. تابعت باهتمام كبير كلا المتدخلين، واللذان كملا بعضهما. إذا أخذنا السيد جليل، فقد تحدث عن ظاهرة الهجرة وظاهرة اللاجئين؛ بين الظاهرتين نجد الأفراد والمواضيع أيضا، كل على طريقته. أستحضر مثال مهاجر عمل لفترة طويلة في مصانع تالبوت (Talbot) في فرنسا. وفي أحد الأيام، تعرض لحادث في العمل وأصيب بصدمة، حيث أصبح مكتئبًا وغير قادر على العمل. رفض أصحاب المصنع الاعتراف بهذه الصدمة، فلجأ إلى القضاء. بعد ذلك، تلقى شيكًا من الخدمة الاجتماعية من أجل مساعدته، فتنقل إلى مقرهم وأخذ الشيك ومزقه. لم يكن يرغب في التعويض المالي، بل بالاعتراف. ونجد بالفعل مسألة دين الدولة المضيفة اتجاه الشخص الذي يأتي للاستقرار. كنت أفكر في نفس الوقت في رواية الطيب صالح، «موسم الهجرة إلى الشمال»، وهو مؤلف رائع. هناك سؤال واحد يربط المداخلتين : هل العودة ممكنة ؟ لقد اكتسب في الماضي هوية من الغرب. فمنح الهوية هو بمثابة حكاية ألف ليلة وليلة الشرقية في بلاد غربية، ولكن عندما يعود الشخص للبلد، يجد نفسه أمام طريق مسدود. حتى اللاجئون يفكرون في العودة، على الرغم من ظروف مواطنهم الأصلية الكارثية، لأن بلاد المهجر مرتبطة دائما بالحنين. هل تمنع الحدود المغلقة ما يسمى «عبقرية اللامكان» (Génie du non-lieu) ؟ لأننا نجد الحزن في المهجر ونجد تراكم الهويات والثقافات. كل هذه الأمور تشكل شيء لا يمثل الهوية الأصلية، شيء غير ثابت وفي تحول دائم.

رحيم

إن موضوع العودة مثير جدا للاهتمام. أما النقطة الثانية المثيرة للاهتمام هي المتقاعدين، أي الجيل الأول وحتى الثاني. لقد تحدثتم عن الجدار، لدينا مثال قريب، هنا في وجدة، على طول الحدود، من السعيدية إلى فكيك، هناك جدار شائك وخندق لمنع العبور بين البلدين. هناك تقرير مهم جدا تحت عنوان: «دفن أسطورة العودة لدى النساء المغربيات».

مداخلة

أشكر منظمي هذا المعرض. أنا من مواليد وجدة ووالداي مهاجران. كنت في فرنسا، وعدت حاليا إلى وجدة. ذكرني «جسور وممرات» في «حدود الحالات المحدودة». تحدث الدكتور جازولي عن أسطورة العودة، وهي حنين إلى الماضي، وتحدث السيد جليل عن اللاجئين، لكن لم يتطرقا إلى موضوع الألم. سببت لي الهجرة من أجل الدراسة ألما كبيرا ؛ وحتى عند عودتي إلى وجدة كانت مؤلمة... انطلاقا من المعاينة، فإننا نلاحظ يوميا إغلاق الحدود. نحن بحاجة أيضا إلى انسيابية نفسية، فالعديد من الأشخاص يعانون من الاكتئاب الشديد. يعبر الأشخاص عن حزنهم في أمكنتهم. أما من تم تهجيره، فإن شخصا آخر هو من سيحزن عليه. نعيش في ثقافة الكراهية التي ولدت وترعرت منذ أربعين عاما. لذلك، تتفاقم «المعاناة والألم» المرتبطة بالسياسة والفكر . لا يجب أن ننسى المغاربة «الذي رحلوا تعسفيا» من الجزائر... أتحدث عن معاناة إنسانية حقيقية. لقد ماتت عمتي في الجزائر العاصمة وكان علينا خوض رحلة طويلة من وجدة إلى الدار البيضاء ومن ثم إلى الجزائر العاصمة، في حين أن الحدود مجاورة ... يجب علينا أن نركز على الفكر، وعلى سر التاريخ على المستوى النفسي والسياسي، والبحث عن الحقيقة لأنها موجودة. إن هذا المعرض يقدم علاجا مفيدا جدا.

حسناء صحراوي

أدير مجلة تحمل اسم «سلامة»، تم تأسيسها في فرنسا سنة 1995، ونناقش هذه المواضيع في أقسامنا الاجتماعية والثقافية. أنا من أصل جزائري، هاجرت إلى فرنسا سنة 1975، وأتنقل بين باريس والجزائر، لدي ابنتان ولا يمثل ذلك لي أي مشكلة لأنني حافظت على جذوري وتقاليدي، وربيت بناتي على نفس النهج، أي الأصالة والمعاصرة.

في فرنسا، كان الحديث في الماضي عن المهاجرين، والآن عن اللاجئين والمهاجرين، وما إلى ذلك. ما الفرق بينهم ؟ إن الشباب على حق : فهم لا يعرفون بلدهم الأصلي، وما يحسون به هو أنهم مرفوضون بهذا البلد أيضا. هذه مشكلة كبيرة، والتي تعتبر سياسية لأن هذه التجمعات البشرية لا تعمل على تنظيم نفسها سياسيا لتفرض مطالبها. يمكننا أن نساعد بعضنا بعضاً من خلال المشاركة السياسية والانخراط بالمجتمع لأننا أمام معركة سياسية يومية... إن هؤلاء الشباب «المرفوضين» يشكلون هدفا سائغا لبعض المجموعات المتطرفة التي تجندهم وتجعل منهم قنابل موقوتة قابلة للانفجار في أي وقت.

أستاذ الأدب

ترمز أسطورة العودة إلى الملك أوديسيوس. لكن هناك أيضا جاسون الذي تولى السلطة بعد وفاة والده. هنا يمكن القول أنه من أجل العودة، يجب أن تكون إما قاتلا أو مقتولا...

جليل بناني

هناك دائما فقدان للأمل وحزن في المهجر. أتحدث عن انفصال، لأنه في هذا الحزن، هناك دائما صدمة لها آثار مختلفة بحسب الشخص. يمكن أن يؤدي هذا الانفصال إلى اكتشاف جديد : إذا كنا في منفى لا نتحدث بلغته، نكون منفصلين، وبفضل هذا الانفصال سنقوم بعدة اكتشافات. إذا بقي الإنسان دائمًا في مواطنه الأصلية، فإنه لا يمكنه الاكتشاف: وهنا يمكن الحديث عن المهجر. إن الإنسان بطبعه مبتكر، ويخوض في مغامرة الاكتشاف، وكذا البناء، لإعادة الأمور لحياته.إن الهوية ليست بمفهوم في علم التحليل النفسي، بل هي مجرد شيء غير ثابت... حتى لو كان اللاجئ لا يزال يفكر في العودة، فهناك طرق مختلفة للتفكير في هذا الأمر. حيث يمكن التفكير في الأمر كواقع، محبط حتمًا، يمكن أن يدخل صاحبه في حالة اكتئاب. هناك أيضا عودة خيالية، وهي رمزية. بالنسبة للسيدة المحللة النفسية، من المهم أن يحتفظ الشخص بالهوية، التي تعتبر همزة وصل مع الأصل، ولكن على أن تبقى على المستوى الرمزي. على سبيل المثال يمكن للمهاجر في ظل معاناته أن يدخل في حالة من الاكتئاب. أنا أتحدث عن الجسد باعتباره آخر مكان للعيش بداخله، ولكن عندما يتكلم المحلل النفسي عن هذا الأمر، فهو اعتراف ضمني به ويمكن تشبيهه بالعش الذي يحتضن الحنين إلى الماضي. من المهم أن يظل الأمر على هذا الشكل، في الواقع المعيش بالطبع، حيث يستطيع اللاجئ والمهاجر على حد السواء الرجوع لتجديد الروح، ولكن في نفس الوقت عدم نسيان الحاضر.
بالنسبة إلى موضوع الشباب، فقد أثرته حيث تم دعوتي لمناقشة موضوع تمرير الذاكرة، لأن شباب اليوم هم شباب الهجرة ويواجهون هذه المسألة. وعندما يتم التمرير فإنه ليس بسبب عدم عيش الشخص في موطن والديه الأصلي. إنه الأمر الأساسي، لأنه عند فقدان تمرير الذاكرة و الثقافة يحدث خلل في الهوية...
بشأن مسألة المهجر، فقد اقتبست هذه المفردة من الحالات التي أتابعها. قبل ذلك، كان الحديث كثيرا عن الهجرة، ولكن مفردة المهجر تتداول أكثر على مستوى التحليل النفسي الداخلي، لأن الهجرة تشير إلى الحركة - من مكان إلى آخر - وهي في الوقت نفسه مفهوم جغرافي ونفسي. على أية حال، استمعت إلى الحالات التي أتابعها وهم يتحدثون عن المهجر، ويمكن القول أنها اعتبارات ذاتية، لأنه حتى عند حديث أحدهم، فيتعين دائمًا الرجوع إلى ماضي الفرد. هناك ظاهرة الهجرة بشكل عام، ثم نجد المسارات التي دائما ما تكون مختلفة.

عادل الجزولي

يمكن اعتبار أسطورة العودة صورة جريئة نسبيا. يجب أن تؤخذ هذه الجرأة بعين الاعتبار لأنه من وقت لآخر نحس بالحنين والحب والشوق. يساعد الحنين دائما على بقاء الأمل الذي نحتاجه جميعًا للعيش، كل على طريقته الخاصة : فالحنين مجرد وظيفة رمزية لها معنى فردي.

حول مسألة المنفى، قال الشاعر التركي الذي أمضى نصف حياته في السجن في أزمير، حين الإفراج عنه إنه نُفي حتى في بلده. بالنسبة لنا نحن علماء الاجتماع ، الأمر بسيط: الهجرة والسكان جزء لا يتجزأ من التاريخ .هذه هي الطريقة التي يتحرك بها العالم إلى الأمام وكل الأسلاك الشائكة والحدود تعتبر عديمة الفائدة.

بالنسبة للشباب، نحن في الجيل الثالث. يمكننا فقط أن نقول أنه في الوقت الذي تم إدماج الشباب منذ ثلاثين عامًا، فإن شباب الجيل الثالث لم يعودوا فرنسيين مثل والديهم وأجدادهم. معظمهم يغادرون المدرسة دون دبلوم، وبدون عمل ، وبدون مسكن، وهذه مشكلة. مئات الآلاف من الشباب يغادرون إلى لندن والولايات المتحدة وكندا...

البلد الذي سيهاجرون إليه لم يعد فرنسا كما كان حال آبائهم وأجدادهم: إنهم يذهبون للعمل في أماكن أخرى ويشعرون إذن بالحنين لفرنسا وليس للجزائر وليس للمغرب... إنها ظاهرة كبيرة. اليوم، يقدر هؤلاء المهاجرون الشباب في لندن بحوالي خمسة وعشرين في لندن والذين قد يتخذون قرار العودة من دونه إلى فرنسا بعد ذلك. لذا يتعين علينا تدبير هذه العودة وإعادة بناء العلاقات الاجتماعية وليس العلاقات المؤدية إلى الانتحار.

فتحي بنسلامة

أشكرك جزيل الشكر السادة عادل جزولي وجليل بناني. وشكرا لمدينة وجدة، المدينة المنفتحة.

رئيس الجلسة : منير سرحاني
المشاركون : زياد خداش، منير سرحاني، عيسى مخلوف، ماحي بينبين، الحسين الطنجاوي، عبد الرحمن بوعلي
فضاء : آسيا جبار
التاريخ : يوم الجمعة 22 شتنبر 2017
الساعة : 09 : 30 - 11 : 00

موجز مداخلات المائدة المستديرة

تندرج هذه المائدة المستديرة، المنعقدة بفضاء آسيا جبار والتي اختير لها كعنوان «الكتابة ضد الجدران»، ضمن فعاليات معرض الكتاب «آداب مغاربية» في دورته الأولى. وقد نشط هذه الجلسة الفكرية ثلة من المفكرين والباحثين.

وقد بين الأستاذ زياد خداش كيف أن جدار الفصل العنصري الإسرائيلي فوق الأراضي الفلسطينية لم يفرض نظام فصل «أبرتايد» جغرافي وفقط، بل أربك وشوش علاقة الفلسطينيين بمحيطهم المادي والإنساني، مما حكم عليهم بالعيش في عالم ممزق تحت المراقبة وفي عزلة. من جانبه، ناقش الفنان التشكيلي والكاتب «ماحي بينبين» واقع حال الكتابة والكتاب في البيئة التي تسودها عقلية الرقابة، مبينا من خلال بعض كتاباته قدرة الخيال على إسقاط هذا الجدار.

أما الحسين الطنجاوي وعبد الرحمن بوعلي فقد ناقشا قضية الحدود بين البلدان المغاربية موضحين الآثار السلبية لاستمرار غلق الحدود المغربية-الجزائية وبناء المزيد من الجدران على الجانبين. كما أكد المتدخلان أن الجدران الحدودية ليست دائما جدران إسمنتية مادية فقط، بل منها ما تكون لبناتها اجتماعية أو ثقافية أو نفسية.

اتسع النقاش واستفاض لما تطرق المتدخلان إلى مفهوم الجدران اللامادية القائمة بين الدول والأفراد على حد سواء، وبينا أنها تمهد لقيام جدران إسمنتية على أرض الواقع.
في السياق ذاته، بين المتدخلان أن الجدران الإسمنتية أقل بكثير من نظيرتها الرمزية التي لا تعد ولا تحصى.
وقد أجمع المتدخلون في الختام على أن ادعاء امتلاك ناصية الحقيقة ما هو إلا جدار لامادي آخر، حجارته التعصب ورفض الحوار والكراهية.

منير سرحاني

سنفتتح هذه المائدة المستديرة بمداخلات عيسى مخلوف وزياد خداش وحسن أبوزيد وحرز الله بوزيد والحسين الطنجاوي وعبد الرحمن بوعلي وماحي بينبين. وأنا على يقين أن السادة المتدخلين بجعبتهم الكثير ليتقاسموه معنا حول هذا الموضوع. تمتاز تيمة «الكتابة ضد الجدران» بتشعبها واختلاف أبعادها، إذ من الممكن أن نعطيها تأويلات عدة : فالكتابة مظهر من مظاهر مقاومة الجدران وإسقاطها بهدف التواصل مع من يقف على الجانب الأخرى.وقد ساهم ضيوفنا الأعزاء في مقاربة التيمة المذكورة عبر الكتابة، كل بحسب طبيعة الكتابة التي يمارسها.

الكتابة ضد الجدران الفاصلة هي كتابة تكسر الحواجز، وسيكون من المفيد أن يشاركنا كل واحد من السادة المتدخلين التصور الذي يمارس في إطاره هذا النوع من الكتابة المقاومة.

وكما أشار الناقد المغربي عبد الله بيضا، كنا سنطرح تيمة «الحدود» للنقاش، لولا أن حساسيتها وخصوصياتها التي قد تضفي بعدا سياسيا على النقاش حالت دون ذلك. فوقع اختيارنا على موضوع مقاومة جدران الفصل والتفرقة المادية والرمزية في كل زمان بالكتابة.

السؤال المحوري الذي انطلقنا منه هو كالتالي : كيف نكتب لنقاوم ونسقط كل جدران الفصل والتفرقة سواء كانت رمزية أو حقيقة ؟ وقد دعونا ثلة من الأدباء والشعراء والروائيين والمبدعين ممن لهم تجارب ثقافية وحضارية تغني النقاش. من هؤلاء زياد خداش، الذي سيعرض تجربته مع جدار فصل الإسرائيلي خاصة أنه يقطن على مقربة منه، والشاعر اللبناني عيسى مخلوف المقيم بفرنسا حيث يعمل في «راديو الشرق» والروائي والناقد عبد الله بيضا والروائي والرسام الكبير ماحي بينبين وابن وجدة الغني عن كل تعريف حسين بوعلي، ثم أخيرا وليس آخرا عبد الرحمن بوعلي. دون أن أطيل عليكم أكثر، أعطي الكلمة للأستاذ زياد خداش.

زياد خداش

شكرا لكم الأستاذ سرحاني. سأحدثكم في مداخلتي عن الجدار الأشهر من نوعه في عالمنا المعاصر: جدار الفصل العنصري الإسرائيلي. لكن سأبدأ بأول جدار صادفته في حياتي وهو جدار المدرسة الابتدائية داخل المخيم، كان عاليا يمنع التلاميذ من رؤية الطيور والأشجار، لكنه لم يمنعني قط وأصدقائي المجانين من توصيل رسائلنا الغرامية للفتيات الجميلات بمدرسة البنات المجاورة، أو رمي منازل المستعمرين القريبة بالحجارة. جدران كثيرة كانت في حياتي بعد جدار المدرسة، منها جدار المخيم العسكري وجدار بيتي الذي كان يفصلني عن جيراني. وربما الجدار الوحيد الذي أحببته في حياتي هو سور القدس الذي بناه العثمانيون في عهد السلطان سليمان القانوني. فلطالما أعتبره نافذة مفتوحة على تاريخ القدس المليء بالحب والمذابح والبطولات والانتصارات. جدار عظيم آخر سد طريقي، بل سد طريق جيل كامل من الكتاب الفلسطينيين سنوات التسعينات وحرمهم من اكتشاف فضاءات لغوية أخرى لممارسة الكتابة، هو جدار خطاب ودعاية ولغة المستعمر في حقنا. فمثلا ما يسمونه «الجدار الفاصل» نسميه «جدار القتل والنهب».

قال المستعمر للعالم أن بناء الجدار يحفظ للناس أمنهم وحياتهم، فصحنا نحن أنه الهلاك المهين. لقد أرادوا به الحماية لكن التاريخ جعله قلقًا وانشغالا لهم. ظن ملوك الظلام أنه حاجز لا يمكن للشمس تخطيه، فأضاءه أطفالنا بألف شمس، وظهر الحق وزهق الباطل. إنهم يحتقروننا ويقتلون فينا الرغبة و السعي إلى حياة كريمة. يريدون لنا حياة كالحلقة المفرغة، ويريدوننا مذعورين ومسكونين على الدوام برعب الحرب والموت الوشيك.

كل هذا لمحو ذاكرة الفلسطيني الحالم حسب زعمهم بإبادة الشعب اليهودي، بحيث يستسلم ويخضع للأمر الواقع. لقد سمينا هذا النهج الإسرائيلي «الحل القاتل»، لأنه يثير غضب الضحية التي هي أصلا مسلوبة الأرض ويدفعها للمقاومة بحماسة كبيرة وبإبداع أكبر. لقد تمكن من اختراق الجدار اللعين فتعلم الطالب والتلميذ، وتاجر التاجر وتم الوصال للعاشق وقاوم المقاوم. لقد جعلناه أحيانا لوحة ننفس فيها الغضب والأحزان وأحيانا أخرى رسالة مفتوحة تخاطب العالم والذات وبناة الجدار الجناة. هذه بعض أشكال مقاومة الفلسطيني للجدران في أفق إسقاطها. خلق ثغرات التحرر وفتح نوافذ الحياة في هذا الجدار الشيطاني هم يسكننا بالليل والنهار. وفي المحصلة نجد أن قصص كثيرة بحلوها ومرها مازالت إلى اليوم تقاوم جدار الفصل والنهب كقصة صديقي أيمن العاشق الولهان.
في يوم من الأيام، اتصل بي أيمن فقال باكيا «*زياد، إنهم يحاولون تقسيم قلبي لنصفين، كيف يجرؤون*؟» لم أفهم قصده فاستفسرته «*ماذا تقصد يا أيمن* ؟» فأخبرني أن الصهاينة شرعوا في بناء جدار يقسم قريته إلى قسمين قصد تأمين طريق يستخدمه المستوطنون، وأن منزل حبيبته لمياء سيكون على الطرف الأخر من الجدار. حاولت عبثا تهدئته بكلمات شاعرية فقلت له : «*لا تحزن، الحب أقوى من الجدران، وسوف ينتصر*». فرد قائلا «*من فضلك ذع عنك الشعر فلن يفيد، أريد حلا واقعيا*»... وللأسف لم نجد هذا الحل الواقعي. لقد أمضي المستعمر إرادته وقسم القرية بالجدار فقسم قلبي أيمن ولمياء. لقد أصبح الوصال والحب في أرضي مشروطا بقرار من المحتل وصار الوصال إلكترونيا لا غير، لكن الأمل لم يمت أبدا.
برغم كل ما يحمله من معان ودلالات تشوه صورة إسرائيل في العالم بأسره، فالجدار له قيمة استراتيجية عند القيادة العسكرية والسياسية بإسرائيل، إذ يساعدهم على احتلال المكان والسيطرة عليه وعلى من يشغله بقصد فصل الحاضر عن الماضي وقتل روح التحرر.
لقد وظفت المخابرات الإسرائيلية الجدار في سياسة فرق تسد بين المسلمين والمسيحيين والسومريين والشركس. ربما يقومون عبر هذا الجدار بتقسيم فضاءات جغرافية وخلق أخرى جديدة بتسميات غامضة ومزورة، ويظل الهدف منها جميعها طمس اسم وجغرافيا حقيقة واحدة هي فلسطين.
غزة، الضفة، عرب 48، النقب، الأغوار، الجليل... هذه كلها هويات وتسميات وتقسيمات جغرافية مزورة تريد أن تنسي المكان أصله واسمه الحقيقي. على هذه الأرض، لا حق لك في الذكريات وأي شيء يحرمك هذا الحق أفضل من جدار بارد أصم، هذا هو لسان حال المستعمر.
لقد مُنع الفلسطينيون من التلاقي والتجمع : فاجتماعهم يثير جنون الكيان الصهيوني الذي نجح فعلا في محو جزء مهم من ماضينا خلال السنوات الستين الأخيرة، في تناقض تام مع خطاب المظلومية الذي يروج له مستغلا المحرقة. إن العقل الذي بنى الجدار قد راهن على خلق هويات صغيرة مثل الضفة والنقب، إلخ.
هنا التحدي الواجب رفعه من قبل الشعب الفلسطيني : مقاومة الجدران الفاصلة وحفظ الذاكرة.
إنهم يريدون جغرافيا بتسميات أخرى، مناطق ريفية وحضرية ولاجئون ونازحون... إنهم يريدون الحد من الانتماء واللهجات وأساليب الحياة والعلاقات والزيجات والمشتريات وأنواع الملابس. إنهم يبحثون عن واقع قانوني خاص لكل قطعة أرض يفككونها. لقد خطط الكيان الصهيوني لثلاثة تصنيفات في اتفاقية أوسلو - المناطق (أ) و (ب) و (ج) - لكل منها نظام سياسي وقانوني واجتماعي خاص... وبالتالي نجد أنفسنا أمام أربعة أنواع من التقسيمات : أمنية ومكانية ولغوية وقانونية. تستمر الدولة الإسرائيلية في هذا المسار ولا تعجبوا مستقبلا لرؤية مستجدات في نفس الاتجاه.
الإسرائيليون مهووسون بتسريع الزمن في حياتهم الخاصة : تقليص زمن المعاناة وزمن السفر وزمن الوصول إلى العمل، وزمن الحرب. في الحقيقة، هذا الهوس شمل كل شيء. أما حياة الفلسطيني عندهم فلابد أن تبطئ أو تجمد ولا توجد أي وسيلة قد تحقق لهم هذا الهدف أفضل من الحواجز وجدران الفصل بين المدن والقرى، ونقاط تفتيش بين التقسيمات الجغرافية التي أوجدوها، لإعطائها طابعا استعماريًا.

إنهم يحلمون باليوم الذي تتوقف في حركة الزمن على الجانب الآخر من الجدار. كل من زار فلسطين يعرف أن الفصل يشمل سرعة الإنترنيت : الإنترنيت الفلسطيني بسرعة السلحفاة ويسبب المعاناة والإنترنيت الإسرائيلي بسرعة الضوء ويسهل الحياة.

لا أريد فقط إدانة إسرائيل وإنما أسائل أيضا القوانين والمواثيق الدولية التي تنص على أن الولوج إلى الإنترنت حق إنساني. فهل من المقبول أن نجد في نفس المكان أناس يسهل الإنترنت حياتهم، بينما يعاني أناس من شبكة الإنترنت يسبب بطؤه الجلطات أكثر مما يسهل الحياة. أليس هذا نوع من الترحيل الناعم الذي يتغاضى عنه المجتمع الدولي كغيره من تجاوزات إسرائيل السافرة ؟ ما ذكرته للتو قد يبدو غير مألوف في الخطاب الفلسطيني. أنا على وعي بهذا المعطى. هدفنا من هذه المداخلة المساهمة قدر الإمكان في تجديد روح التضامن العربي وفضح المستعمر المغتصب أمام العالم.

منير سرحاني

شكراً للأستاذ خداش على هذه المداخلة التي بين فيها أن مفهوم الجدار في الواقع الفلسطيني غالبا ما يحيل على المعاناة في تجلياتها القانونية واللغوية لمناقشة هذا الموضوع أعطي الكلمة للسادة الحضور من أجل توسيع النقاش. والبداية ستكون مع الأستاذ عيسى مخلوف.

عيسى مخلوف

شكرا لكم ؛ حرصا على الوقت، سأكون مختصرا قدر المستطاع. سأتحدث عن الجدران اللامادية التي لا يستلزم بناؤها حجارة ولا إسمنتا. إنها جدران تنتصب بين البلدان والأفراد بما في ذلك أفراد الأسرة الواحدة. هذه الجدران اللامادية تمهد لقيام جدران مادية وتبرر وجودها.

من أشهر الجدران التي عرفها التاريخ جدار برلين القديم وجدار الفصل العنصري الإسرائيلي، الذي ناقشه الأستاذ زياد خداش. وإذا كانت الجدران المادية محدودة العدد فإن نظيرتها اللامادية على عكس ذلك تماما، لا تعد ولا تحصى. مثال هذه الجدران اللامادية ذلك الذي شيده قرار بريطانيا بالخروج من الاتحاد الأوربي. هذا الكلام ينطبق على الهويات المنغلقة التي تحصر حامليها في ثقافتهم الأصلية وتراثهم البيولوجي الضيق مهما اتسع. الكراهية أيضاً جدار يمحو خصوصية الآخر ويخرجه من دائرة الإنسانية لتبرير استبعاده والقضاء عليه. فالإنسان بطبعه يبحث لنفسه دائما عن خصم يغلبه ويثبت ذاته أمامه، حتى وإن كان من وحي الخيال. إن الخائف المذعور من الآخر في الشرق كما في الغرب يرى في هذا الآخر تهديدا للقمة عيشه واستقرار «قبيلته».

ينفي عالم البيولوجيا الحائز على جائزة نوبل في الطب فرانسوا جاكو أن تكون المصلحة الخاصة العادية هي وحدها التي تدفع الأفراد نحو الصراع، مبينا أن أمراض التعصب والنرجسية وادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة تلعب دورا كبيرا أيضا، فكل جرائم التاريخ كان للتعصب دور في وقوعها.
أداة أخرى تبني هذه الجدران اللامادية هي اللغة وما ينتجه الأفراد داخلها من خطابات لطالما لعبت خلال مراحل تاريخية مفصلية دور أداة للحشد وتكريس عقلية «نحن» مقابل «هم». عند البعض، أن يكون المجتمع في حالة خوف دائم فذلك أمر مطمئن. نعم أيها السادة، حالة الحرب مثلا عند هؤلاء فيها طمأنينة أكثر من حالة السلم. كل جدار فاصل فيه إقصاء وسَجن. ويؤكد بعض علماء الاجتماع بهذا الخصوص أن من أول ما شيده الإنسان السجون. هذا العنف والسيطرة تجسده كذلك الجدران اللامادية لاستغلال الإنسان لأخيه وقارنها بالعلاقة النفعية البحتة مع الحيوانات ؛ تجد هذه العلاقات الفاسدة تفسيرها في عجزنا عن ربط الاتصال والحوار والسعي إلى فهم وتفهم الآخر. إن تطور وسائل الاتصال الحديثة وانتشارها على نطاق واسع لا يعني أن التواصل يحدث بالفعل. ومثال ذلك من الولايات المتحدة الأمريكية، حيث الشعب الأمريكي أقل الشعوب اطلاعا على ما يجرى في العالم رغم أنه يستعمل أحدث وسائل التواصل الممكنة وبقوة. بهذا المنطق قد تصبح وسائل الاتصال هي الأخرى جدران تبلد وتدجن أفراد المجتمع إذا استغلتها جهة معينة كالسلطة للتضليل وتزوير الحقائق وفرض خطاب معين دون غيره. جدار لا مادي آخر يجب التنبيه إليه، وربما هو الأخطر على الإطلاق، هو ذلك الذي يستهدف الإدراك والروح الإبداعية في عصر العولمة. تراجع الوعي والروح الإبداعية لا ينعكس على الاقتصاد فقط، بل يشمل ميادين شتى. كما توجد أنظمة بيئية وأنواع نباتية وحيوانية مهددة بالانقراض فهناك مخلوقات ذات طبيعة فكرية وجمالية مهددة بالانقراض أيضًا. كما أن مجالات الإبداع التي كانت أساسية في الثقافة العالمية لعدة قرون تم تهميشها لأنها لم تعد مسايرة للعصر، حسب البعض. ينعكس هذا الوضع أيضًا على التعليم : فالعالم يشهد تراجعا في مجال العلوم الإنسانية والآداب في المدارس والجامعات، لاسيما في الغرب حيث لطالما كانت لها مكانتها الخاصة. جدار لا مادي أخير أريد الإشارة إليه هو ذلك السور العظيم بين الشمال والجنوب والذي ما فتئ يسمك ويعلو بسبب كل تلك الجدران المشار إليها وعوامل أخرى أبرزها الفقر والتخلف والتعصب الديني والقومي والتطرف. وإذا لم نحدث توازنا بين النزعة الإنسانية من جهة، ومتطلبات الاقتصاد والتطور التقني والتكنولوجي من جهة أخرى، فلن تكون الأمور على ما يرام. سنفرغ مبادئ كالمساواة والحرية والعدالة من مضمونها، وسندخل دوامة من الصدامات والصراعات اللامتناهية ؟ نحن أحوج ما يكون اليوم لمراجعة الأساسيات، فقد أصبحت بعض المصطلحات - إذا استخدمناها في سياقات معينة - مرادفات للسذاجة ومدعاة للسخرية، مثل «الفلسفة» أو «الحب». فالحب مثلا بمعناه العام لا ينفصل عن قيم نبيلة كالمودة والتعاطف ونصرة المستضعف. نحتاج هذه القيم بشدة لنتشارك هذا العالم معا لا أن نقسمه. إننا بربطنا المفاهيم بمعانيها من جديد نعيد أرواحنا إلى أجسادها.

منير سرحاني

شكرا للأستاذ عيسى مخلوف الذي ناقش في مداخلته فكرة الجدران المادية مقابل الجدران اللامادية، وبين أن الثانية عكس الأولى لا تعد و لا تحصى، مقدما لنا جملة من الأمثلة.
من ناحية أخرى، بين الأستاذ مخلوف ارتباط جدران الفصل اللامادية بقضايا كالهوية والقناعات والأفكار والصور النمطية وعلاقات القوى بين الأفراد والدعاية. كما أكد أن هذه الجدران توسع الفجوة بين الشمال والجنوب وتخلق لدى الفرد شعورا بالغربة، ما يترتب عنه فقدان الأشياء والمفاهيم والقيم لمعانيها.
والآن أعطي الكلمة للأستاذ «ماحي بينبين» الذي يقاوم جدران الفصل بطرق مختلفة منها الرسم وكتابة وترجمة النصوص الأدبية. فقط قبل أن أترك له الكلمة سأقرأ عليكم مقطعا من روايته الأخيرة «مجنون الملك» الناجحة يقول فيه «*تجاوز الجدار، وادعُنا إلى ما وراء جدران قصر الحسن الثاني*».

ماحي بينبين

موضوعنا اليوم فيه مزيج أخاذ من الروعة والجنون... مثلي تماما. نجد ضمن فئة الكتاب الملتزمين بالمغرب كما في أي مكان آخر من يختار المواجهة المفتوحة والمباشرة في معالجته للقضايا المطروحة، حتى أن منهم من قضى سنوات في السجن أو اختفى قسريا.بعض الكتاب الآخرين، فضلوا أن يكونوا ماكرين، وسأشرح لكم ما أعنيه : على سبيل المثال، حتى سنة 1992 لم يكن بالإمكان الحديث عن معتقل تزممارت السيئ الذكر حيث قضى أخي 18 سنة من العذاب والويلات. لكنني كتبت رواية ألفت أحداثها وخلقت شخصياتها لتنقل موقفي من المعتقل والاختفاء القسري. تدور أحداث القصة حول أم تنتظر عودة ابنها الذي غاب عنها قسرا فقط لأنه في يوم من الأيام كان بالمكان الخطأ في الزمن الخطأ. قصة كهذه تعكس حالة أمي التي كانت تترقب عودة ابنها في أي لحظة فتترك له حصته من الطعام في كل يوم، حتى أن حصته في بعض الأحيان كانت نصف الطاجين. لقد عشت تجربة انتظار الغائب وكتبت حولها. وقد يرى البعض أن القصة التي ذكرت ما هي إلا قصة والدتي مع الفقدان. خاصة أن أمي لم تفقد ولدها فقط بل ثديها أيضا بسبب المرض الخبيث. في الرواية تفقد الأم أيضا ولدها وثديها فتصبح عودة الإبن عندها تعني عودة كل ما ضاع منها، حتى ثديها المبتور المستأصل. في الحقيقة، كثير من الإبداعات ما كانت ستخرج للوجود لولا هذه الجدران التي تفرض علينا الصمت وتضع لنا الخطوط الحمراء.

في رواية أخرى، أردت أن أحكي عن تعسف القصر، لأننا كنا خائفين لفترة طويلة جداً في هذا البلد. كنا نحدث بعضنا همسا في المقاهي. لقد تم إرعابنا وترهيبنا لفترة طويلة جدا، لذلك أردت أن أحكي عن القصر مباشرة سنة 1993 و 1994. ومع ذلك، لم أجازف بأسلوب مباشر. الحل الذي كان أمامي هو الاستعانة برمزية الجدار مرة أخرى. كتبت قصتي حول طفلين : الأول يصير شاعر، والثاني يدخل قصر «الكلاوي» حيث يكبر ليصبح رجل سلطة. وفي النهاية يقتل رجل السلطة الشاعر. كان هذا الأدب في بداية التسعينات غنيا وقويا بقدر الصعوبات والمحرمات الكثيرة حينها. يحب أخي التزممارتي زيارتي في ورشة الرسم الخاصة بي. ولربما في هذا المعطى ما يفسر أن جل لوحاتي لها صلة بموضوع الاحتجاز وسلب الحرية. في مرة من المرات، نظر إلي وآثار المعتقل اللعين بادية في كل تفاصيله فقال : «*أنا غادرت تزممارت، أما أنت فلا...*». الآن بعد أن أصبح لدينا المزيد من الحرية، كتبت «مجنون الملك»، التي لقيت نجاحا كبيرا.

منير سرحاني

شكرا للأستاذ «ماحي بينبين» الذي حدثنا عن الأدب الملتزم خلال سنوات الرصاص والسبل التي سلكها المبدعون في تلك الحقبة للتعبير عن مواقفهم دون الوقوع في يد السجان. وأشار ماحي إلى أن الحظر والرقابة يثريان ويغذيان الإبداع، لدرجة أن الكاتب قد يتعلق في بعض الأحيان بهذا الحظر، لأنه يعطيه المادة الخام لإنتاجه الأدبي. وفي هذا السياق، أشار المتدخل إلى عدة نصوص لجأ فيها هو شخصيا إلى الأسلوب غير المباشر. الآن، أعطي الكلمة لصديق عزيز آخر هو الأستاذ الحسين الطنجاوي.

الحسين الطنجاوي

سأعمل في مداخلتي على تعمق الأفكار التي طرحها الأستاذ ماحي بينبين، بالسعي في بيان الدور المهم التي تلعبه الخطوط الحمراء والطابوهات في تحفيز الحس الإبداعي المقاوم والمعارض العلاقة بين الممنوعات والإبداع تمر بثلاث مراحل أولها فهم و إدراك الواقع وشروطه، ثم الانغلاق والانعزال عن هذا الواقع قبل العودة والتعبير عن النفس بكل الوسائل الممكنة. تختلف أشكال التعبير المترتبة عن حالة الحبس والقمع بحسب ظروف كل معبر عن ذاته ؛ ماحي بينبين على سبيل المثال عبر عن نفسه من خلال الرسم والكتابة. أرى أن السادة المتدخلين قد أحاطوا بموضوع جدران الفصل والقمع، وإذا أمكنني ذلك، أود أن أقول بعض الكلمات بخصوص جدران الفصل المادية، مادمنا ملتئمين بمدينة تقع على حدود مغلقة بجدران ومتاريس وأسلاك شوكية.

هذا مثال واضح لجدران الفصل التي تأثر في عيش الناس اليومي. في مثل هذه الحالات يميل الناس للتقوقع وقطع الاتصال بالآخر أو حتى وأد أحلام قديمة كحلم المغرب الكبير.

هكذا، كانت الأسوار في ماضي المنطقة المغاربية تحمل قيمة الأمان وقيم حسنة أخرى، لكنها اليوم كسور الصين العظيم أصبح لها قيمة أثرية فقط. أما الجدران المشيدة اليوم في كل عالمنا العربي وليس المغرب الكبير فقط فلها قيمة سلبية كجدار الفصل العنصري على الأراضي الفلسطينية.
في بلادنا اليوم، يمكن أن نقيس نبض الشارع بعدد الحواجز والأسلاك الشائكة التي تقيمها السلطة. كلما رأيت الحواجز والأسلاك تتكاثر، اعلم أن منسوب الوعي و التطلع إلى الحرية يرتفع. جزء كبير من مصير كل فرد ومجتمع يتوقف على مدى مقاومة الجدران الكثيرة في الحياة. القرار بيدك، لكن القرار السليم هو أن تحاصر حصارك... فلا مفر. المثير للاهتمام هو أن هذه الجدران الحدودية كانت مدعاة فخر عند من شيدها. فقد تفننوا في بث قيم العزل والفصل ونبذ الآخر. والأمثلة على ذلك كثيرة في كل أنحاء العالم، نذكر منها جدار الحدود الأمريكية-المكسيكية والمغربية-الجزائرية.

منير سرحاني

نشكر الأستاذ الطنجاوي الذي تطرق إلى موضوع الجدران المادية التي تقسم الجغرافيا. أعطي الكلمة الآن للباحث والشاعر عبد الرحمن بوعلي، الذي ترجم عدة كتب يتعلق آخرها بمسألة الحدود.

عبد الرحمن بوعلي

شكرا، في الحقيقة، أحاط المتدخلون قبلي بكل النقاط المهمة في الموضوع المناقش. لذا سأحاول التوسع في جملة من الأفكار التي تم طرحها. ناقش بعض المتدخلين كزياد خداش تيمة الجدران المادية واللامادية، بينما ركز آخرون كعيسى مخلوف على مظهر واحد فقط لهذه الجدران. أما أنا فسأتحدث عن الجدران كمكون أساسي للإبداع تتمة لما جاء به الأستاذ ماحي بينبين.
أبدأ في بيان أهمية الجدار في إثارة الحس الإبداعي من خلال تجربتي الشخصية، في مرة من المرات وبينما أنا منعزل في عالمي أراقص الكلمات وأنظمها في قصيدة شعرية في بيتي بالصحراء، ترامت إلى مسامعي أصوات فرحة، مبتهجة بمناسبة سارة بالجوار. هذه الأصوات شدتني وجعلتني أتخيل ما يقع على الطرف الأخر من الجدار. يحدث لي مثل هذا مرارا. وربما لولا ذلك لما حركت خيالي ولما بدأت أي قصيدة فضلا عن أن أتمكن من أن أنهيها.

على سبيل المثال، وتتمة لما قيل، الحدود المغلقة مع جارتنا الجزائر تثير في حسي الإبداع. كيف ذلك، قد يقول البعض ؟ تعيش أختي في قرية على الطرف الآخر، وفي كتابتي أتخيل كيف تعيش هذه الأخت خلف الحدود ولا تستطيع الحركة بحرية. علاقتي مع الحدود والجدران قديمة تتشكل من صور عديدة مازالت تطبع ذاكرتي وتحت حسي الإبداعي. أتذكر الأسلاك الشائكة والأضواء الكاشفة والمقاومين في الجبال يقاومون المستعمر، جدار الفصل الأكبر بينهم وبين حريتهم في ذلك الوقت. وأتذكر صرخات المجاهدين المتألمة. ولعل استيعاب وفهم العالم والإبداع بفضل الجدران وكل المحرمات يجعلنا نبدع. فلولا الجدران، ما وجدت قصائد وروايات ومسرحيات كثيرة. هذا هو موقفي الشخصي الذي قد أذهب به أبعد من ذلك فأقول أن المبدع يحس بهذه الجدران، لاسيما الشاعر الذي يشتغل على اللغة أكثر من غيره. في بداية عصر النهضة كان الروائي والقصاص المبتدأ يُنصح بمخالطة المجتمع. وهنا نتذكر مبدعين كثر خالطوا مجتمعاتهم فقاوموا جدران كثيرة وعكسوا ذلك في إنتاجياتهم كفريديريك كارسيا لوركا ومحمود درويش. يدخل الكاتب ساحات معاركه الكثيرة حاملا سيف اللغة. المجتمع جدار، وكذلك هي العادات والتقاليد، والكاتب العظيم أمام الكاتب الشاب جدار، وكذلك هي السلطة. تحدث الأستاذ خداش عن التجربة الفلسطينية وجدرانها المادية واللامادية الكثيرة. الكتابة النسائية هي الأخرى تعد كتابة مقاومة للجدران. لقد أبدع كتاب عرب كثر في مواجهة الجدران المادية و اللامادية وربما اليوم بمقدورنا الحديث عن أدب عربي ملتزم بمقاومة الجدران وإسقاطها يستمد روحه الإبداعية وقوته من هذه الجدران في حد ذاتها.

منير سرحاني

شكرا. أكد الأستاذ المتدخل استنادًا إلى تجربته الشخصية العلاقة الجدلية بين جدران الفصل والإبداع، حيث يصبح الإبداع أكبر كلما ارتفعت الجدران، خاصة عند الشاعر الأكثر حساسية للمكان من الروائي. نفتح الآن باب المداخلات لتبادل وجهات النظر.

مداخلة

اسمحوا لي أن أسهب قليلاً في الحديث عن مفهوم الجدار المادي الذي أعرفه جيداً. في الواقع، ما قاله الأستاذ زياد يعطي انطباعا أن القضية ليست فقط قضية جدار فاصل عدواني، بل أيضا جدار خلق نوعًين مختلفين من الحياة على كل جانب وزاد المتغطرس غطرسة. صحيح أن هناك مقاومة من الداخل، لكنها مقرونة بشعور اليأس، لأن مقاومة الجدار وإسقاطه ليست بالأمر الهين أبدا : فنحن نتكلم عن جدار غير عادي خطط له وجهز بحيث يظل قائما. قد تكون هناك أنواع أخرى من الجدران لم يتم التطرق إليها خلال هذه الجلسة، ربما جدران تبنيها الذات أمام نفسها. فيما يخص الكتابة الإبداعية، يقضي الكاتب جزءاً من حياته وهو يقاتل ضد جدار الممنوع، وجدران كثيرة شيدت في حياته منذ الصغر حول الجمال والقبح والممكن والممنوع... شأنه في ذلك شأن الفرد العادي. غير أن المبدع واع بذاته وعالمه ويقاوم بالكتابة.
شخصيا، أعيش أنا وعائلتي على الحدود المغربية-الجزائرية التي باتت كلها أسلاكا شائكة على الجانب المغربي و خنادق عميقة على الجانب الجزائري. إنه أمر مشين حقًا أننا في شمال إفريقيا نبتعد عن بعضنا البعض كل يوم أكثر.

ماحي بينبين

اسمح لي أستاذ بوعلي أن أخالفك الرأي. فأنا لا أرى أن الروائي أقل تفاعل وحساسية بالمكان مقارنة بالشاعر. فقد أبدع روائيون أعمالا بعيدا عن المكان الذي ينتسبون إليه، ومن ذلك رواية «الأمل» التي تسافر بنا عبر أوروبا وأمريكا وأفريقيا، وكتاب «ميدان المسارات» حيث يأخذنا الروائي شاتوين بروس إلى موسكو وأستراليا وموريتانيا والسودان قبل أن يعود بنا إلى أحد مطاعم لندن.

بالتالي، فإن الكاتب لا يحصره مكان محدد. فهو إنسان أينما كان كما هو الموت دائما موت في كل مكان وكذلك المشاعر والأحاسيس البشرية والألوان والثقافة واللغة. شاهدت مؤخرا فيلما مكسيكيا رائعا يناقش موضوع الجدران اللامادية ويحكي قصة خمسة عشر شاباً يريدون الهجرة صوب الولايات المتحدة. وليصلوا إلى السيارة التي من المقرر أن تأخذهم يجب أن يقطعوا مسافة معينة. المشكل أن رجلا معه كلب بدأ يقتلهم واحدا تلو الآخر. وكان يصرخ قائلاً - بينما يسلخهم - أن هذا البلد بلده وأنهم ممنوعون من دخوله... الجدران التي تحدثتم عنها لا تناقش في أعمال شعرية يمكن إذاعتها عبر السينما أو الرواية.

منير سرحاني

شكرا على طرح هذا الموضوع المتقدم جداً مقارنة بما يناقش في العالم العربي. تمت الإشارة إلى موضوع الكتابة النسائية وما عانته المرأة المبدعة في سبيل إثبات ذاتها وإسقاط جدار الكبت وكسر حاجز الصمت في مجتمعنا. وقد أظهرت جملة من المداخلات المهمة أن لكل كاتب سور خاص به يقاومه.
نقطة مهمة يجب أن نتنبه إليها تتعلق بالتطور الإبستيمولوجي الكبير الذي عرفته لغة مقاومة الجدار. وهذا أمر جيد لأن إسقاط الجدار يتطلب توفر كتابات إبداعية مختارة وتطورا إبيستيمولوجيا يساير حركية القضايا والتحديات المطروحة أمام الذات والمجتمع. كما أشار إلي ذلك الأستاذ عيسى، أتمنى أن تكون هناك مبادرة لتجميع مختارات الرواية العربية باللغة الفرنسية والعربية حول تيمة الجدران كخطوة في هذا الاتجاه.

انتصار

أولا، سعيدة بالحضور والمشاركة معكم. سؤالي موجه للسيد بينبين، الذي تعجبني مواقفه وكتاباته إلا أني ألاحظ فيها ميلا إلى الانتقاص من المجتمع. فهل هذا موضوعك المفضل وثقافتك اليومية، أم أنها وسيلة تعتمدها فقط من أجل تشريح الوضع ومعالجته في كتاباتك ؟

ماحي بينبين

أولا، أرى أن الشاعر مطالب أكثر من غيره بعلب دور محوري في قضايا من هذا النوع. وقد يكون الروائي بعيدًا عن ذلك بعض الشيء، هنا أتفق. للإجابة على سؤالك أستاذة، أقول إن كاتب الجنوب ينغمس في محاولة تشخيص الأمراض ومعالجتها، ومن هنا يأتي الانطباع بأنه لا يرى إلا عيوب المجتمع ويقصد الإساءة إلي أفراده. هنا حيث نعيش، ليس لدينا الكثير من الوقت للنظر في كل شيء بتمعن... فأنا مثلا أكتب عن المخدرات والإرهاب والهجرة غير الشرعية... لدينا الكثير من المشاكل وعلينا أن نناقش جميعها. تحدث صديقي واسيني عن هذه الطابوهات والممنوعات كجدار يجب إسقاطه في العالم العربي والإسلامي على وجه الخصوص. باختصار، لا توجد فكرة واحدة أو دين واحد أو حقيقة واحدة : هناك أفكار وحقائق وأديان. هذه النقطة ذات أهمية قصوى لإنهاء العنف.
فيما يخص الجدار، للأسف، تم تجاهل هذا الموضوع في الأدب والفنون الفلسطينية الأخرى منذ عام 2002 لم يتم التعامل مع موضوع الجدار بطريقة فنية ناجحة. وما تم إنتاجه هو أقرب ما يكون إلى الدعاية التي تبثها بيانات الأحزاب أو البيانات الصحفية . ننتظر من المبدع الفلسطيني معالجة مسألة الجدار من زاوية إنسانية وفلسفية على نطاق واسع من منطلقات فنية بحتة وبدون حسابات سياسية ضيقة.

رئيس الجلسة : بوصفيحة
المشاركون : واسيني الأعرج (الجزائر)، حسونة المصباحي (تونس)، نعيمة لهبيل التجموعتي، عبد الله ولد محمدي (موريتانيا)
فضاء : ليوبولد سيدار سنگور
التاريخ : يوم الجمعة 22 شتنبر 2017
الساعة : 11 : 15 - 12 : 30

موجز مداخلات المائدة المستديرة

يرتبط موضوع هذه المائدة المستديرة بواقع معيش : فمند عقود مضت هاجر كتاب مغاربيون نحو فرنسا حيث لاقت بعض أعمالهم نجاحا كبيرا بالمغرب الكبير وأوروبا. وسواء أكانت هذه الهجرة بقرار شخصي أو نتيجة ظروف قاهرة، فالأكيد أن المهاجر يعيش ازدواجية هوياتية وحالة من التمزق بين «الأرض الأم» و«أرض الإقامة» يصعب مهما خلق توازن بين «هنا» و«هناك». وأول قرار صعب يتخذه الكاتب المهاجر يهم لغة الكتابة.

وبعد ذلك، يقرر الكاتب المهاجر كغيره من المهاجرين بصعوبة بالغة بخصوص مكان الإقامة الرئيسي، بيئة العمل، حياة الأسرة، العلاقات مع المحيط المهني... ويرفع تحدي الحفاظ على الاتصال مع الأصول دون وقف الديناميكية التي خلقها بشق الأنفس.
قصص هؤلاء الفنانين المغتربين هي امتداد لموجات هجرة قديمة بدأت تنضاف إليها مؤخرا موجات هجرة من دول كفلسطين. بعد الهجرة، لا تحظى معارف ومهارات «الآخر» القادم إلينا بالتقدير اللازم. الكاتب والمبدع عموما هو «آخر» لا يُنظر إليه دائماً على أنه عدو، لكن مهاراته وثقافته نادراً ما تُقدّر في المجتمع المضيف. وهذا نجده حتى في المجتمع الواحد. فأهل فاس القدامى مثلا لا يرحبون بالقادمين من البوادي كما سنرى.

ضيفتنا من الجزائر بينت أن رفض وتبخيس الآخر واقع معيش حتى بالجزائر، وتورد لنا مثال المدينة العتيقة بالجزائر العاصمة، حيث استقر القبايليون في السنوات الأخيرة.
يبدو أن الكتاب المغتربين متفقون في نهاية المطاف على أن المنفى الحقيقي هو الكتابة والنص الذي يغوصون فيه بحثا عن عبارات وصور تترجم أفكار ومشاعر وعواطف نابعة منهم ومن محيطهم.

نعيمة لهبيل

سعيدة بالحضور معكم في المعرض، خاصة أنه ينظم بالجهة التي أنتمي إليها. عندما عُرضت على المشاركة في المائدة المستديرة قبلت على الفور حتى قبل أعرف الموضوع. لقد عملت كثيرا على قضايا كإعادة تأهيل المجال الحضري، والتراث، خاصة بالمدينة العتيقة بفاس، وقد لاحظت مرارا قيام علاقة واحدة ورئيسية بين سكان فاس تلخص في عبارة «من منا الأصيل ومن الوافد». سجلت أيضا وجود تمثلات ذهنية راسخة ومرسخة بالية لا فائدة منها. بعضكم الآن يتساءل ماذا قصدت بهذا الكلام، وهذا تساؤل مشروع سأجيب عليه.

كما تعلمون جميعا، غادر أغلب سكان فاس الأصليين المدينة بين 1960 و1965. مقابل ذلك، استقبلت المدينة موجات هجرة من الضواحي، وهذا ما يفسر هيمنة المهاجرين على البنية السكانية للمدينة. لقد لاحظت أن حوارات من تبقى من أهل فاس الأوائل تتمحور حول المهاجرين الذين بحسبهم غزوا المدينة ودمروها بجهلهم وعدم كفاءتهم. إنهم قوم لا حرفة لهم ولا صلة لهم بالحضارة، هكذا يرى أهل فاس المهاجرين.

عندما ننظر إلى هذه العلاقة من زاوية نظر المهاجرين نجد في الآن ذاته إعجاب كبيرا بثقافة أهل فاس ورفض لهذه الثقافة. فما السبب في ذلك ؟

لقد أتيحت لي فرصة الاشتغال ضمن فريق كبير مهمته وضع خريطة للفقر داخل المدينة العتيقة بفاس. سؤال واحد ظل يتكرر مع كل فرد استجوبناه : أين ولدت ؟ كانت الإجابة غالبا ما تكون باللغة العربية، على الشكل التالي : «ولدت بولاد عيشة وتربيت بفاس»، «*ولدت بأوطاط الحاج وتربيت بفاس*». كنت أسأل زملائي في الفريق كم مستجوبا ركز على أنه تربى بفاس، فيكون الجواب أن الجميع فعل. لم أكن أجد تفسيرا لذلك سوى أن المهاجرين ربوا أبنائهم على شاكلة أهل فاس الأوائل، رغم ما يعرف عن تربية أهل فاس من كونها تتسم ببعض العنف، ليتملكوا المكان والثقافة ويزول من أنفسهم هم وأبناءهم أي شعور بالدونية والنقص. يخاطب المهاجر نفسه قائلا : «*حتى ولو ولدت بمكان آخر، فقد تربيت هنا ويمكنني أن أكون فاسي حقيقي*». لا بد أن حالة الرفض والخيبة كانت كبيرة ومؤلمة وعنيفة. في كل نقاشاتي مع المثقفين في المؤتمرات والحلقات الدراسية بخصوص هذه القضية، كنت أتوصل إلى نفس الخلاصة : السبب فيما عاشه المهاجرون من رفض وخيبة وشعور بالدونية ليس حركة الأفراد المستمرة وعدم استقرارهم مددا طويلة، فقد بين لي البحث والإحصائيات أن ثلاثة أرباع المهاجرين في التسعينات استقروا بفاس لمدد تتراوح بين 30 إلى 35 سنة دون أن يتم تقبلهم واستيعابهم من قبل الآخرين.

النقطة المهمة الثانية التي شدت انتباهي بفاس هي الكثافة السكانية العالية وكثرة المنازل الأثرية الآيلة للسقوط وعلاقة الساكن الفقير بالمسكون الهش. وهذه نقطة مهمة حاولت قد المستطاع إلقاء الضوء عليها والتنبيه إليها كلما أتيحت لي الفرصة. المنازل التي هوت بفاس كانت مهجورة، أما التي صمدت فهي تلك التي يسكنها الفقراء. أكثر من ذلك، لاحظت أنه حتى في البيوت المكتظة، هناك قانون مثير ونظام صارم ينظم علاقة الساكن بالمسكون : لا تتوفر أموال للصيانة وإعادة البناء، لكن لا يحق لك سكب الماء على الأرضية لأنه سيتسرب إلي داخل الجدران وينخرها. بعض العائلات ليس لها الحق في استخدام أداة دق الحبوب «المهراس» لتجنب الاهتزازات والتشققات، أما البعض الآخر فليس له الحق في ممارسة بعض الألعاب داخل البناية. هذا يدل على وجود فهم جيد جدا لماهية التراث وقيمته. لكن هذا الالتزام بحفظ تراث فاس لا يهتم به أحد. الكل في فاس لا يهتم سوى بشيء واحد : من منا المهاجر الدخيل ومن منا ابن فاس الأصيل. هذا يبين لنا بالملموس أن هناك عقليات منفتحة وعقليات منغلقة وإقصائية تحتقر الآخر. وعلى العموم، فجل أسئلة العقلية المنغلقة الموجهة للأخر هي أسئلة إقصائية.

كنت في كثير من الأحيان أتلقى أسئلة من قبيل : أنت فاسية أم بركانية ؟ فاسية أم شلحة ؟... فأشعر أني مطالبة بالاختيار! أنا شخصياً، أعيش في هذه المدينة وأعمل بها منذ وقت بعيد ولا يهمني أن أعرف أصول ساكنيها بقدر ما يهمني أن أعرف أنهم يريدون الحفاظ على المدينة وتراثها ونتعايش جميعا دون إقصاء أو حقد.

واسيني الأعرج

أولا، أشكر منظمي المعرض على الدعوة الكريمة، خاصة أننا بوجدة العزيزة على قلبي. لقد نشأت في حدود هذه المنطقة لذا أشعر أني قريب جداً وأن الحواجز قد تلاشت كلما تعلق الأمر بوجدة.
بصراحة، عندما يتعلق الأمر بموضوع الهجرة، أشعر ببعض القلق. ما أصل هذا القلق ؟ قد يسأل بعضكم. لقد أتاحت الهجرة فرصة للتبادل مع العالم المتقدم والاستفادة منه. لكننا أحيانًا نجد أنفسنا في مواقف مأساوية يكون فيها الآخر عدوًا أو خصما. وهنا تصبح الأمور معقدة.
دائما ما أقول إن الهجرة هي في المقام الأول قرار شخصي. من معاني أنواع الهجرة الممكنة الهجرة داخل الكتب. عندما أقرأ نصًا و «أغرق فيه» فأنا مهاجر و«سجين» في هذا النص. لما أقرأ، تداعب خيالي الأصوات والناس والروائح والألوان... وهذا تماما ما أكده الأستاذ الذي قال أنه قرأ كتبا عديدة بين دفتيها بوابات كبيرة مفتوحة على العالم. الهجرة موضوع آني دائما يستفزنا ويدعونا إلى النقاش. وفي آخر المطاف، أنا نتاج عائلة أندلسية مطرودة مهاجرة. أنا ابن تاريخ وسمته الهجرة من الأندلس إلى غرناطة ثم الجزائر. لما بلغ والدي سن السادس عشرة هاجر إلى فرنسا للعمل، كغيره من الشباب آنذاك. لكنه عرف امرأة أصبحت مهمة في حياته ووجد نفسه في حركة نقابية يسارية. تتغير الأمور تدريجيا، يعود أبي ملبيا نداء الوطن للتحرر فيموت شهيدا.
لهذا فموضوع الهجرة له دلالات عميقة عندي كما عند كثيرين ممن لهم تجارب مشابهة. تضعنا الهجرة على مفترقات الطرق ولذا فهي خطرة للغاية. وقد وقف آلاف الجزائريين والمغاربة على مفترقات الطرق واختاروا اختيارات تركت آثارها فيهم. إذا كان المهاجر فنانًا أو رسامًا أو روائيًا على سبيل نجد في إبداعاته ما يحكي معاناته مع الهجرة. كل مهاجر عنده أسبابه الخاصة التي على أساسها اتخذ قراره. أنا شخصيا هاجرت هربا من ويلات الإرهاب وبعد أن لم يعد لأحلامي الحق في الحياة.
قبل اتخاذ قرار الهجرة، كان الإرهاب والعنف قد أصبحا جزءاً من حياتنا اليومية. معاناة أخرى عاشها الإنسان الجزائري هي ضياع الأحلام في أرض لم تعد تنبث إلا الكوابيس. لا حل سوى الهرب ولو إلى حين؛ هاجرت إلى وجدة عبر الحدود ومنها إلى طنجة ثم الدار البيضاء. لقد مورس على الإنسان الجزائري عنف ممنهج دفع كثيرين للرحيل، بينما حاول البعض إيجاد بدائل تبعته على الاستمرار في الحياة. لكن البديل الحقيقي الوحيد الممكن حينها هو الهجرة.
لا أعرف ما إذا كنا نبحث عن أعذار لإراحة ضمائرنا. لكن لدي شعور بأنني شخصيا هاجرت لأعانق حريتي في التعبير بالكتابة. لقد عبرت عند ذلك قبل المنفى وبعده. والدليل أنني كتبت في بلاد المهجر ضعفي ما كتبت في بلادي. لهذا أعتقد أن بعض المفاهيم واللغات والمصطلحات تضعنا أمام إحراج يجب أن نقاومه حتى نحقق لأنفسنا السلام الداخلي والوضوح من الذات.
في البدء هاجرت أنا وأسرتي بفكرة العودة بعد ستة أشهر ثم أصبحت سنة كاملة. وجدت وظيفة وأصبحت السنة ثلاث سنوات. اشتعل رأسي شيبا وتقدمت في السن. وشيئًا فشيئًا، اتسعت الفجوة وأصبحت فكرة العودة بعيدة. العودة إلى أين ؟ وماذا عن مستقبل الأبناء؟ الهجرة هي بشكل أو بآخر قطع للعلاقة بالوطن الأم. وهنا يأتي السؤال الكبير : ما الذي يمكن للأدب فعله في هذه الحالة ؟ اتخذت قرارات صعبة كثيرة منها الكتابة الفرنسية. لم أفكر مرة واحدة في الترجمة. مع الوقت، وجدت نفسي أعيش بباريس. وهكذا كما لاحظتم ولا شك ينغمس المهاجر في حياة جديدة ويتبدل فيه الكثير.

نعيمة لهبيل

لقد كان محبا للفرنسية وكان في المنفى في عام 1953 بباريس حيث كافح من أجل استقلال المغرب. أعتقد أنه شيء رائع جدًا بل و راقي أيضا. قال: «أحب فرنسا وأحب المغرب». كان من الشجاعة قول ذلك في عام 1953، لأنه وفجأة، أصبح لديه الكثير من الصعوبات مع القوميين المغاربة، الذين يسألون : «*كيف يمكنك أن تقول أنني أحب فرنسا* ؟». واجه الكثير من الصعوبات مع الفرنسيين الذين كانوا يدللونه من قبل كضابط. فيجيب: أستطيع أن أكون قومياً تماماً لكن هذا لا يمنعني من أن أقول أني «*أحب فرنسا فقد علمتني وزرعت في قيماً سامية، خاصةً الحرية. ولهذا السبب أنا الآن أقاتل من أجل حرية وطني. لأن هذا تراثي، إنه ملكي وأنا مغربي*». أسمح لنفسي أن أحييه وأقول له أنني أنا أيضا أريد أن أحس أني بركانية ووجدية، وفاسية ورباطية حيث نشأت وصفريوية حيث ولدت.

رئيس الجلسة

شكراً أستاذة نعيمة على هذه الشهادة الجميلة. نجاحنا في تحقيق العيش المشترك والحوار هو فعلا بر أمان لنا جميعا في هذا الوطن المشترك. هذه المداخلة الرائعة بخصوص تراث فاس يمكن تعميمها لتشمل مدن تراثية كثيرة بالمغرب كالرباط حيث كما قلتم للتو يهتم المهاجرون الفقراء بحفظ المنازل. لم تعد المنازل كما كانت فقد زالت الفسيفساء وأشياء أخرى كانت تعطيها رونقها، لكنها على كل حال مازالت قائمة ؛ والفضل في ذلك للمهاجرين الفقراء الذي يسكنونها. والآن أعطي الكلمة للحضور من أجل التفاعل وإغناء النقاش.

حسينة حاج صحراوي

شكرا جزيلا على فرصة المشاركة معكم، أعمل كمديرة بمجلة «سلامة» بالجزائر. أولا أريد أن أنوه بالمحتوى المهم جدا الذي عرض أمامنا، وأقول أني أتفق معه تماما. المثير للاهتمام، أن الوضع نفسه صحيح بالنسبة لمدن الجزائر العتيقة. فمثلا قصبة الجزائر العاصمة استقبلت مهاجرين من مناطق القبائل وبسكرة و الجنوب. الكثير من الناس لا يعرفون ذلك ويضنون - كما نسمع في أغلب الأحيان - أنهم من سكان القصبة الأصليين، لكن في الحقيقة هم مهاجرون نجحوا في تملك المكان وثقافته وأضافوا إليه.

سكان القصبة المهاجرون عندنا أيضا مهتمون ومرتبطون ببيوتهم العتيقة وتراثهم، خاصة بعد إدراج القصبة كموقع للتراث العالمي من قبل اليونسكو. عندما تلقوا الدعم رمموا هذا التراث الجميل الذي يتميز بخصائص معمارية فريدة.

هؤلاء المهاجرون باتوا الأوصياء الحقيقيين على القصبة والمدينة ككل. تحدثتم عن الهجرة والمهاجرين ، هذا ليس أمرا جديدًا يعود لـ 20 أو 30 عامًا... إنها مشكلة أقدم من ذلك، لقد قدم شخص يتعامل مع المهاجرين الجزائريين في فرنسا ورقة رائعة عنهم يعود تاريخها لأكثر من مائة عام !

أتفق مع الأستاذ واسيني الأعرج فيما قال: الهجرة قرار شخصي، و لكل أسبابه. موضوع الهجرة يطرح نفسه في كل زمان ومكان، ومن الضروري التعامل معه والاستفادة منه. فقد تخلق الهجرة حياة فكرية وتبادلا ثقافيا غاية في الأهمية. قبل الختام أريد أتوجه بالحديث إلى الأستاذ حسونة. لقد تأثرت كثيرا بمداخلتكم، تأثرت حقا بهذه اللغة التي تكتب بها، هذه اللغة الأبوية الواجب نشرها وترجمتها لأن الشباب يحاولون أن يقرؤوا ويفهموا من هم ومن أين جاؤوا. أنا أتفق معكم تماما :الجذور والتقاليد ، مهمة جدا للإنسان. كالشجرة تماما، فالشجرة دون جذور شجرة ميتة.

مداخلة من لبنان

أجيب السيد الأعرج عن القطيعة مع البلد والتي غالبا يعاني منها الكتاب والفنانون والمبدعون بشكل عام. هناك نسبة كبيرة من العرب الذين يهاجرون إلى الخارج، حيث تبدأ الهجرة والمعاناة.

بالأمس، أخبرت السيد المصباحي أنني أحيانا أحتشم عند السفر من أي دولة أوروبية أو غربية في اتجاه أي دولة عربية. أشعر أنني أسافر عبر الزمن إلى بلدان تعاني من مشاكل وهموم من عصر آخر. وانطلاقا من هذا الواقع أشعر أن الكتاب العرب المهاجرين يعيشون شيئًا من الاكتفاء الذاتي لتصبح الكتابة بالنسبة لهم هي الوطن البديل أو كما يقول المسرحي الفرنسي : «الكلمات أفضل مما أنا فيه» شكرا.

حموتي

هل يمكننا وصف الهجرة دون حدود ؟ أو هل الهجرة ضرورية للكتابة ؟ أعتقد أنه يمكن للمرء أن يكتب حتى وإن بقي في بلده. الهجرة هي في المقام الأول عبارة عن ذهاب وإياب نتحمل مسؤوليته. هناك بعد نستخلصه من هذه التجربة، لكن الهجرة ليست دائمًا ممكنة.

إيهاب بوعبدلاوي

أنا مدرس وباحث، ومثل نعيمة عدت إلى وجدة. في بعض الأحيان تكون العودة علاجا، وأحياناً متعة، وأحياناً وجهة نظر... وهكذا ، فإن كلمة «هجرة» تعني الذهاب للعيش في مكان آخر. في بعض الأحيان نحن غرباء في وطننا... بدون هذه الهجرة ما كان لنا أن نلتقي اليوم. فعلى سبيل المثال، في عالم الحيوانات وعالم النباتات، كان هناك العديد من النزوح والتنقل وفقا للتغيرات المناخية. غير أنه في الماضي لم تكن هنالك حدود، وكانت بعض الحرية في الزمان والمكان.

مداخلة

هل أصاب أدب شمال إفريقيا، المكتوب باللغة الفرنسية، الهجرة السرية بخيبة أمل ؟ أنا أشير إلى كتاب سالم هلال : «لن تعبر المضيق».

مداخلة

يقول الأستاذ الأعرج أن الهجرة ليست دائما مأساوية أو مؤلمة. أكيد أن في بعدها الاجتماعي أو الاقتصادي هناك إشراقه معينة من ناحية أو من أخرى. ولكن في البعد السياسي للهجرة، نجد دائما البعد المظلم، مثلا نذكر رسام الكاريكاتير الفلسطيني ناجي العلي، الذي أخذته الهجرة بفعل سياسات معينة. وأستغل هذه اللحظة لنؤكد تضامننا مع الشعب الفلسطيني.

بالنسبة لبعض الحالات بالمغرب، نذكر الأساتذة اللعبي، والسرفاتي، والمهدي بن بركة... والذين كان لهجرتهم وقع مؤلم. ما هو البعد الأممي في هذا المجال ؟

الأستاذ حسونة

أنا سعيد بوجود الشاعر الكبير عيسى مخلوف بيننا. لقد عاش في الأرجنتين ونيويورك وباريس وألف العديد من الإبداعات في مجال الثقافة والترجمة، لأنه يتكلم عدة لغات. وبصفة عامة فالتاريخ حافل بهجرات. ففي القرن العشرين، عاش كتاب كبار في المهجر وألفوا قصصا رائعة جدا. والبعض منهم غادر بلاده ولم يعد إليها. إن الجانب المأساوي في المنفى عبر عنه الكاتب الألماني الكبير، الذي توفي سنة 2002 في حادثة سير. لقد كتب : «المهاجرون هم أشخاص ينتقلون طواعية أو قسرا، في سن معينة، والذين ينتهي بهم الأمر إما مجانين أو في مصحات للأمراض العقلية أو ينتحرون». إنه من أجمل الكتب التي قرأتها. تذكرت صديقي محمد شكري، الذي اقتلع من قريته بسبب المجاعة في الريف، وبدأ يكتب حياته في طنجة. حكى لي أحد الأصدقاء أن شكري قبل وفاته بفترة قليلة عاد إلى قريته التي غاب عنها طوال عمره ووقف أمام باب البيت الذي ولد فيه وأجهش بالبكاء.

واسيني الأعرج

في الجزائر، عندما نتحدث عن القصبة، يشار إلى الأتراك، وهذا ليس صحيحا، لأن الأندلسيون هم من شيدوا القصبة.

للإجابة على المداخلة الأخرى، أتحدث عن الجانب الدرامي للهجرة، وأرى أن العديد من الكتاب المغاربة - أو المغاربيين - يتحدثون عن هذا الجانب. ثم هناك الجانب الوطني. لكل منه خصوصياته الخاصة، لكن المشكلة الكبرى هي تشكيل المذاق ليعجب الآخر من خلال أدوات الاتصال. لهذا، أصبحت الهجرة قضية معقدة، لا سيما في المجال الأدبي والفني.

نعيمة لهبيل

بالفعل، إن للهجرة بعدًا فرديًا، وهو بعد إما مفروض أو اختياري. إذا فكرنا بالهجرة بشكل عام وعلى المدى البعيد، فإننا نستنتج في النهاية، حسب المؤرخين وعلماء الأنثروبولوجيا، أنه لم تعش أي مجتمعات تقريبا في القطب منذ بداية البشرية.

إن المجتمعات التي اضطرت إبان الحروب أو حالات معينة، إلى الاندثار، قد تراجعت في الواقع. إذن، بالنسبة للكاتب، فإن مصدر الإلهام هو الهجرة: فالمجتمعات تضطر إلى الانفتاح. عندما ننفتح على العالم ينتعش الإلهام، لذلك فالهجرة هي في الأصل مورد، لكنها تصبح بعد ذلك مشكلة. إن السؤال الذي استعصى على الإنسانية هو هذا التناقض بين الحاجة إلى الانفتاح من أجل إثراء الذات وتنميتها، والإبداع والمشاكل الناجمة عن هذا الانفتاح.

رئيس الجلسة

في الواقع، يظل الإبداع والمسرح والقراءة العالم الوحيد بدون حدود. فنحن نسافر بدون جواز سفر، بدون قيود ولا حدود... أشكر كل المتدخلين.

الكتابة والإبداع في السنغال

رئيس الجلسة : عمر الصاغي

المشاركون : مريمة نضووي (السنغال)، بوريس بوبكار ديوب (السنغال)، بوعزة بنعاشر، جون بيير إيلون مباصي (الكامرون)

فضاء : محمد عابد الجابري

التاريخ : يوم الجمعة 22 شتنبر 2017

الساعة : 11 : 15 - 12 : 30

موجز مداخلات المائدة المستديرة

إن استمرار العلاقات الثقافية والاقتصادية وعمقها بين المملكة المغربية وجمهورية السنغال أضحيا جزءا من تاريخ البلدين. فبمناسبة الحضور المميز للسنغال كضيف شرف لهذا المعرض المغاربي للكتاب بوجدة، استضاف المسرح الكبير محمد السادس مائدة مستديرة حول موضوع الإنتاج الأدبي لهذا البلد الشقيق، القراءة في السنغال وآليات تطويرها، ووضع المؤلفين والناشرين في هذا البلد، علاوة على سبل الإثراء المتبادل بين الأدب المغربي ونظيره السنغالي.

وتعكس مشاركة السنغال في المعرض متانة الروابط الثقافية بين السنغال والمغرب على وجه الخصوص، ومع المنطقة المغاربية على نطاق أوسع، بالإضافة إلى دينامية الأدب السنغالي والمغاربي.
كما أنها تسلط الضوء على وجود جالية مغربية مهمة ونشيطة في السنغال ونظيرتها السنغالية بالمغرب، كما يكرس قوة ونوعية الإنتاج الأدبي والفكري السنغالي.
وقد أجمع المشاركون في هذه المائدة المستديرة أن الأدب السنغالي لا يزال مجهولا إلى حد كبير في شمال أفريقيا، لاسيما في المغرب، وأن تكثيف العلاقات مع الناشرين المغاربة - بما في ذلك إمكانية تنفيذ شراكات في النشر – من شأنه توفير المؤلفات السنغالية في متناول القراء المغاربيين وخاصة المغاربة.

إن المعرض هو مبادرة تستحق الثناء لأنه يعزز العلاقات بين البلدان الأفريقية وواقع العيش المشترك بهذه القارة، وفقا لمبدأ الانفتاح على الآخر، علما أن الأسئلة والقضايا التي أثيرت غالبا ما تكون هي نفسها في شمال القارة مثل جنوبها. على سبيل المثال، فإن المواضيع المتعلقة بالأدب أو باختيار اللغة هي انشغالات مشتركة.
من جانب آخر، أكد المشاركون على أهمية دور المغرب في نشر قيم الإسلام على أساس مبادئ الاعتدال والتسامح والتضامن. وأعرب العديد من المفكرين والكتاب والمفكرين السنغاليين عن فرحتهم لحضورهم في هذه المناسبة بالمملكة المغربية، وخاصة للمشاركة في هذا المعرض المغاربي الأول للكتاب.

مريمة نضووي (السنغال)

أشكر المنظمين على اختيار السنغال كضيف شرف لهذه النسخة الأولى للمعرض، الذي يهدف إلى فتح أبواب الثقافة والفكر والنقد أمام الشباب، عبر برنامج شامل للإفادة والاستفادة.
أما بالنسبة لموضوعنا، فالكتابة هي نقل الواقع، ولكنها إبداع أيضا، و«بيع للأحلام»، ولقاء الكتاب والصحفيين.
إن السنغال هو بلد الإبداع الثقافي. من منا لا يعرف المغني الشهير يوسو ندور، والنحات عصمان سو، والكتاب سنغور وماريامابا والشيخ حميدو كين.
من يكتب في السنغال ؟ الرجال ومؤخرا ازداد عدد الكاتبات، بعضهن عصاميات، مثل مارسي بلين، والبعض الآخر أستاذات جامعيات مثل بندا موبو أو أدوماسو. هناك نساء قانون مثل مام باسين نيانغ أو مايمونة كين، وكذا مصرفيات بالأبناك مثل نافيساتو نيانغ ديالو، ومساعدات اجتماعيات مثل مام سيك موبيه، وهنالك ربات بيوت اللواتي شرعن بالكتابة ليقدمن تجاربهن للعالم وللتفكير في مجتمعاتهن. بعضهن شاعرات يبعن الأحلام، وبعضهن يشغلن مهنا أدبية أو غيرها ؛ منهن الناشطات أو المتقاعدات ...
بأي لغة يكتبون ؟ لأن الكتابة هي مغامرة انفرادية والوحدة في إفريقيا ليست دائما سهلة. غالباً ما يكتب الرجال والنساء باللغة الفرنسية لأن السنغال بلد فرنكوفوني، لكنهم يكتبون أيضاً باللغة العربية، وخاصة النصوص الدينية. كما يكتبون باللغات المحلية، مثل الولوف والفولانية والسيرين وماندينكا.
كيف يكتبن ؟ تأخذ الكاتبات السنغاليات الوقت الكافي، لأن الكتابة تتطلب الوقت وشيئا من العزلة. عندما يكون الشخص موظفا أو رب - ربة أسرة، فهو لا يملك الكثير من الوقت، لأننا في بلد يقدس التنشئة الاجتماعية، وتطغى مسؤولية الأسرة على الفرد، حيث يتعين عليه حضور كل المناسبات الاجتماعية والأسرية الكثيرة، وذلك لتفادي أن يلقب الشخص المتغيب بـ «طوبا». وطوبا هو الذي ألف العادات الغربية، وتغيرت طبيعته الأصلية. أمام كل هذه الظروف، يتعين على الكاتب بالسنغال أن يجد الوقت للتركيز على الكتابة. أما نحن معشر الكاتبات السنغاليات، فنحاول قدر الإمكان سرقة وقت الكتابة من الوقت المخصص لتدليل الزوج. وهذا أمر مهم لأننا في بلد يسود فيه تعدد الزوجات. كما نسرق بعض الوقت من الوقت الذي نخصصه لرعاية أطفالنا، لذلك فبالنسبة لنا فهو وقت ثمين جدا.
ما هو مصدر الإلهام لهذه الكاتبات الإلهام ؟ كل المواضيع صالحة عندنا في السنغال، بما في ذلك مواضيع هذا المعرض، كالهجرة على سبيل المثال. عندنا في السنغال، فإن مواضيع الكتابة تهم الشباب، والهجرة القروية وصعوبة التأقلم بالمدينة، والعولمة ... كل شيء صالح للكتابة. لذلك فنحن نكتب عن الحياة والمجتمع والدين والهجرة وصراع الأجيال والسياسة... للإشارة فإن وزير الثقافة السنغالي الحالي، الذي تولى منصبه بالأمس، هو صحفي وكتب العديد من المعاهدات والاتفاقيات السياسية.
كما أننا نكتب الروايات - وأنا شخصيا روائية - في مجالات متعددة كالمسرح والشعر وأدب الأطفال والقصص والحكايات التي استمدت من الأدب الشفوي. أنا شخصيا اشتغلت في أطروحتي في الدراسات العليا عن الأدب الشفهي لقبائل «ليبو»، إحدى المجموعات العرقية في السنغال. فالأدب الشفهي يغذي كثيرا أدبياتنا الحالية.
هناك العديد من الصور الأدبية بلغتنا الوطنية في الأدب الشفوي. بالطبع، هناك العديد من الحكايات والأساطير، خاصة أساطير تأسيس القرى، ولكن نجد أيضا الأغاني، لأننا في السنغال نغني في جميع المناسبات : بمناسبة الولادة، عند وشم لثة التلاميذ، بطبيعة الحال في حفلات الزفاف وحتى الميت نغني له باستحضار نسبه. في الواقع، نحن نغني لأسلافه ليأخذوه إلى مثواه الأخير، على الرغم من أن الإسلام عندنا يحاول إلغاء هذا الأدب الشفوي التقليدي الذي يحتفي بالمتوفى كما كان يفعل الفراعنة القدامى والثقافات الأخرى.

نحن نكتب لقرائنا المحليين وتساعدنا في ذلك مديرية الكتاب والقراءة، التي يحضر معنا في هذه القاعة ممثل مميز عنها. وهو أحد أركان هذه المديرية التابعة لوزارة الثقافة، التي اشتغل بها لمدة عشرين سنة وهو يمثل هنا مدير الكتاب ووزير الثقافة. وتجدر الإشارة إلى أن هذه المديرية تتوفر على ميزانية مهمة جدا لتشجيع النشر، وهو أمر لافت لأنه لا يتوفر أي من البلدان التي تحيط بنا بميزانية مثلها.
كما نرى، فإن المرافق تم تشييدها، خاصة لطبع الكتب والقراءة ولتشجيع ظهور المؤلفين وطباعة أعمالهم، علاوة على الترويج لها، لاسيما من خلال «معرض الكتاب الدولي والمواد التعليمية» (FILDAK)، الذي ينظم كل سنتين في داكار. بالنسبة لنسخة 2017، ستكون في شهر نونبر القادم ونحن ندعو العالم بأسره. للإشارة فقد كان المغرب ضيف الشرف نسخة 2013. يحضر لهذا المعرض عارضون من جميع البلدان، كما يكون مناسبة لتوقيع الكتب وتنظيم المؤتمرات ، إلخ.
تلعب طباعة ونشر الكتب دورًا حيويًا، إذ تسمح بوجود حوالي تسعين مكتبة عمومية لكل تلاميذ المدارس والذين يحبون القراءة، تمنحهم إمكانية قراءة الكتب المنشورة في السنغال وأماكن أخرى، لأن أي مؤلف يؤلف يمنح لكل هذه المكتبات. هناك أيضاً جائزة مهمة سنوية للأدب بالسنغال لمكافأة أفضل عمل أدبي، وكذا جائزة للناشرين، إلخ.
إذن لمن نكتب ؟ إننا نكتب للجميع، لأن المكتبات العمومية تسمح للجميع بالقراءة. كما أن مشاركتنا في المعارض الدولية - الدار البيضاء، تونس، فرانكفورت، ووجدة حاليا - تشجع على توزيع الكتب وترجمتها.
من جانب آخر، تمت مناقشة، خلال هذا المعرض، موضوع «الكتابة على الجدران»، ولكن اللغة هي بدورها عبارة عن جدار كبير، يصعب أحيانًا عبوره. بسبب اللغة أعتقد أن القراءة غالبا ما تسير في اتجاه واحد، إذ نقرأ في السنغال للكُتّاب المغاربيين، لكنني لا أظن أنه يوجد أشخاص في المغرب العربي يقرؤون للكتاب السنغاليين. لعل غالبية القراء هنا، يقرؤون باللغة العربية، وهذا يتطلب ترجمة كتاب جنوب الصحراء. حسب علمي، فإن بعض الناشرين المغاربة هم بصدد إعداد مشاريع مع مؤلفين سنغاليين في هذا الصدد.
تجدر الإشارة إلى أن الكتاب السنغاليين لا يستطيعون بعد الاعتماد على قلمهم كمصدر رزق. أظن أنه لو بقيت الكاتبة «مارياما با» على القيد الحياة لكانت الوحيدة التي يمكن استثناؤها من هذه القاعدة، وذلك بفضل ترجمة أعمالها إلى العديد من اللغات، وربما يمكن ذلك استثناء الشيخ حميدو كين، بفضل كتابه «مغامرة غامضة» (Aventure ambigüe). من جانب آخر، نحن جد سعداء أن المؤلفون بالسنغال لا يتم سجنهم، حيث لا يخضع المؤلف للرقابة، ولديه حرية كبيرة في الكتابة. كما أن هنالك صحف كثيرة معارضة لا تخضع كذلك للرقابة. لذا، يمكن القول أن السنغال هي «جنة الكتابة» أو على وشك أن تصبح كذلك في المستقبل القريب.

بوعزة بنعاشر

تحياتي الأخوية لأصدقائنا السنغاليين ولجميع الحاضرين. قدمت السيدة مارياما ندوي للتو صورة هامة للجغرافيا الثقافية في السنغال، حيث أشارت إلى أحد أعمدة الفكر السنغالي، ليوبولد سيدار سنغور. إذ كان له الفضل في تلقين مبادئ ازدواجية البعد في الأدب والفكر والفنون السنغالية من خلال بعدها القاري والعالمي. لذا فإن السؤال هو المساهمة في توضيح موضوع «الكتابة والإبداع في السنغال»، الذي يشير إلى الجرح الوجودي و الجرح المعرفي، وإلى الاعتداءات - المتعددة الأبعاد - التي عانت منها السنغال وإفريقيا عموما. فمن خلال مختلف الاعتداءات التي عاشتها إفريقيا والسنغال، خلال أربعة قرون على الأقل، وربما ثمانية، تأسس الوعي الأسود.
ما هو الوعي الأسود ؟ يعود تاريخ الاعتداءات المذكورة إلى سنة 1492، مع «اكتشاف العالم الجديد»، القارة الأمريكية، أي اكتشاف اختلاف جذري، أو اختلاف كوني أو اختلاف فوضية الكون (chaosmique)، اقتباسا لقول فيليكس جاتاري (Félix Guattari).

هذا التباين هو في حد ذاته تغيير، حيث شهدت السنغال، واستطرادا إفريقيا السوداء، هذه الاعتداءات، فتم أولا ترحيل إخواننا السنغاليين وإخواننا الأفارقة إلى القارة الأمريكية.
عندما نذكر السنغال وإفريقيا، فإننا نستحضر بالضرورة ترحيل أسلافنا، الذي أنتج على المستوى الخطابي والسردي والفنون عامة «شيء ما» في أمريكا، الذي سمح فيما بعد ما بظهور جنة الكتابة. لا حاجة في تعريفها هنا، ولكن بشكل سريع، فهي قيم العالم الأسود. هذا العالم الأسود الذي يعد نتيجة التقارب الجدلي السريع لأربعة أبعاد على الأقل: أولا إفريقيا ثم القارة الأمريكية والكاريبي، ثم بالطبع أوروبا وخامسا العالم الإسلامي. إذن، من المستحيل تقديم السنغال دون الإشارة إلى هذه العوالم الخمسة. وكيف يمكن كذلك تقديم السنغال دون ذكر مؤلفيها ؟
لقد ذكرت سنغور، لكن هناك مؤلفين سنغاليين آخرين ممن استنتجوا هذه الروابط دفعة واحدة. أو بعبارة أخرى، سيكون من التناقض التفكير في إفريقيا دون التفكير فيها من خلال القارة الأمريكية السوداء، ودون التفكير فيها من خلال المفهوم المدمر للعبودية، وتجارة العبيد عبر المحيط الأطلسي؛ فكيف يمكن التفكير في «فلسفة التنوير» التي لم تتخذ قط موقفا تحريريا جازما فيما يتعلق بتجارة العبيد ؟
للإشارة، فقد ركز سنغور على وجه الخصوص على ضرورة التفكير في إفريقيا والسنغال انطلاقا من المحيط الأطلسي، أي من الأطلسي الأسود. في هذا الصدد، أذكر كتاب المؤلف البريطاني بول غيلروي «المحيط الأطلسي الأسود» (The Black Atlantic)، الذي ترجم سنة 2013 وصدر من طرف دار النشر أمستردام في باريس.
ما هو «المحيط الأطلسي الأسود» ؟ هو قارة أخرى، هو القارة العميقة، التي هي بمثابة مقبرة تقبع فيها بقايا خطاب أو جسد أو حلم مستحيل، حلم بناء مكان مثالي أو كما كتب السنغالي فيلوين سار «إفريقيا مثالية» (afrotopia)، ولكن إفريقيا مثالية في المنفى.
وأي منفى ؟ إفريقيا مثالية منفية في العمق الدفين، مع الموتى المدفونين في عمق الأطلسي الأسود، وفي المزارع والمناجم الأمريكية، والتي بفضلها، أو بسببها، تم تطوير نوع من الأعمال الخيرية القاتلة من قبل الراهب بارتولومي دي لاس كاساس. بعد انقراض القوى العاملة من الهنود الحمر، تمكن بارتولومي من جلب القوى العاملة الإفريقية السوداء، والتي سببت في زعزعة الاستقرار وتدمير كل البنى التحتية الاجتماعية والقواعد الوجودية المختارة من الخيال الأفريقي. إن التفكير في السنغال هو التفكير في إفريقيا، والعكس صحيح، فالتفكير في إفريقيا هو التفكير في السنغال، ولكن هو التفكير أيضا في العالم من خلال السؤال المطروح علينا.
ولكن كيف يمكننا التفكير في العالم انطلاقا من السنغال والتفكير في السنغال انطلاقا من العالم؟ لهذا السبب اقتبست مجاز الأطلسي الأسود، وإذا توجب الإشارة إلى نقطة أخرى، فهي السؤال عن العلاقة الأخرى؟ وكيف يمكننا أن نرث من التاريخ والخيال والفكر أو ما يسمى بالمعمارية الجغرافية الإفريقية، بل وتجاوز هذا الإرث ؟ : هل يمكننا أن نتجاوز الزنوجة عند سنغور وغيره، وبأي معنى وأي اتجاه ؟ وكيف يمكن إعادة التفكير، أو إعادة التعريف، أو إعادة صياغة الإشكالية، أو إعادة اختيار الموضوع ليصبح عالميًا ؟ من خلال مثلا مساهمة في أشغال «أوراش الأعمال الفكرية» لشتنبر- أكتوبر 2016 في داكار، والتي نُشرت أعمالها تحت عنوان «كتابة إفريقيا العالم» بدار النشر فيليب ري في باريس، و نشرت أيضا في داكار.
بعبارة أخرى : ما هو إسهام هذه الرؤية الجديدة، وهذا التعبير عن الفكر الأسود، في كل ما ورثناه من الشخصيات الأدبية والفكرية الأفريقية مثل سنغور ؟ في هذا الصدد، أود أن أشير بالخصوص إلى إسهام فيلوين سار في عملين على الأقل من إنتاجه، والتي يبدو لي أنها تحدد وجهة نظر مستقبلية لإفريقيا، باعتبارها المكان الذي تطرح فيه مسألة العدالة المعرفية. في هذا السياق، يتعين علينا، على سبيل المثال، تفكيك خطاب الكاميروني أشيل مبيمبي، بخصوص ما أسماها «المكتبة الاستعمارية»، وريثة العبودية والتمييز العرقي الأسود.

كيف ذلك ؟ إن تفكيك «المكتبة الاستعمارية» يتطلب استحضار ما أطلق عليه فيلوين سار «العدالة المعرفية»، بمعنى إدراك أن تاريخ أفريقيا وهيكلة الوعي الإفريقي يرتبطان ببعدين أساسين وهما: الوحدة الأفريقية ومزدوجة التفكير في إفريقيا انطلاقا من العالم وفي العالم انطلاقا من إفريقيا.
من الممكن فعلا التفكير في العالم انطلاقا من أفريقيا، لأنها لم تشارك أبدا في أعمال إبادة جماعية. لم تستعمر القارة الأمريكية، ولا أوربا ولا آسيا، ورغم ذلك فإن الوجود العالمي لإفريقيا واضح جدا. إذن فالفكر والثقافة السنغالية، على الأقل من خلال الكاتب الكبير سنغور، يدعونا إلى التفكير وكتابة العالم من خلال النزعة الإنسانية المتكاملة والاحتفال بالتنوع الثقافي.

عمر الصاغي

أشار السيد بنعاشر أنه من أجل التغلب على الجروح القديمة، يتعين إعادة صياغة إشكالية، عبر التفكير في موقع السنغال داخل الفضاء الأدبي الفرنسي. على مستوى الخرائط الجغرافية، نلاحظ أن العالم الفرنكوفوني يبدأ من بلجيكا وصولا إلى جمهورية الكونغو الديمقراطية، مع بعض الانعراجات الجانبية نحو جنوب شرق آسيا والكيبيك، ولكن في الأساس هو خط عمودي من بروكسل إلى كينشاسا. إذا بحثنا داخل هذا الفضاء عن المركز الديموغرافي وكذا الجغرافي، أعتقد أنه يتموقع في داكار. توجد كتلة شمال السنغال تضم مائة وخمسين مليون فرنكوفوني، بين مغاربيين وفرنسيين وبلجيكيين. وفي الجنوب نجد تقريبا نفس العدد بين غرب إفريقيا وخليج غينيا ووسط إفريقيا.
هل نعيش اليوم في عالم يفكر في السنغال والمغرب والفيتنام والكيبيك، بالنفس الطريقة التي يفكر بها في ضواحي باريس، أو على الأقل في اثنين أو ثلاثة مناطق بالعاصمة الباريسية التي تتمركز فيها دور النشر، والأكاديمية الفرنسية، وجميع المؤسسات التي شيدت في القرون الماضية لتشكل ركائز الثقافة الفرنكوفونية ؟ أليس من المرجح أن لا يكون مقر عاصمة الأدب والثقافة باللغة الفرنسية في الدار البيضاء أو أكادير أو وجدة، بل في داكار أو باماكو ؟

أمادو لي

شكرا على كل هذه التوضيحات. في الواقع، لدينا مشكلة كبيرة في الجنوب، وهي مسألة الوقت. باعتبارنا «مجتمع مستهلك للوقت»، فهذا يعطل بشكل كبير سيرورة تأليف كتاب. بصفتي مثقف، أجد صعوبة كبير في الإبداع. السيدة مارياما، شغلت منصب مسؤولة عن المكتبة، ويمكنها أن تشهد على أزمة القراء. فنحن نكتب بالفرنسية والعربية وبلغات أخرى، لكن المشكل يظل عند مسألة تفشي الأمية بين السنغاليين.
هناك مشاكل لغوية بشكل عام، ومشاكل في اللغة الفرنسية التي قدمت ثلة من المؤلفين العظماء، ولكن الجمهور يعاني بالأساس من مشكلة اللغة وصعوبة الوصول إلى الكتاب بسبب ضعف الموارد المالية. في السنغال مثلا، وكما أشارت إلى ذلك السيدة مريمة، أنه قبل بضع سنوات هناك بعض المؤلفين دخلوا مغامرة على كتابة الحكايات، إلا أن الكتب لم تصدر بسبب قلة الطلب لدى المكتبات. لماذا؟ لأن هناك ضغوطات وإن بشكل ودي أو ضغوط أخرى...
بالنسبة لمداخلة السيد بنعاشر، أتساءل عن كيفية تجنب الوحدة الأفريقية؟ هل نتحدث عن الزنوجة ؟ لقد مهدت الطريق لتجاوزها. إن زنوجة سنغور ليست مجرد انطواء على الذات، بل هي انفتاح. فهي تأكيد للهوية، وليس انغلاق عليها، وهي تهدف إلى المساعدة في الانفتاح على هويات أخرى وعلى العالم بأسره.
أما بشأن عاصمة الفرنكوفونية : لم لا في الزيير (الاسم القديم لجمهورية الكونغو الديموقراطية)، التي تعتبر أول دولة ناطقة بالفرنسية ؟ ولكن أي جزء من الزيير يتحدث بالفرنسية ؟ وفي فرنسا، من يهتم بالفرانكفونية ؟

بن صالحة

نحن متواجدون حاليا في وجدة، وأود أن يكون الحوار مع المتخصصين والمؤلفين والقراء من جميع الجنسيات، وبدلالات أخرى، متسلحا بالأمل، دون الخوف من تجاوز مفهوم ما أو الرجوع إليه، كمفهوم الزنوجة مثلا. لقد سئمنا من التركيز على ما أصابنا.

إننا نشاهد ونسمع ونقرأ ونعيش في عالم متوحش، والمطلوب من الفنانين والمثقفين والكتاب، هو الإبداع والابتكار والاختراع، والرجوع إلى هذا التاريخ. وبحسب رأيي، فالمطلوب هو معاينة ما تم القيام به وتقييم المرحلة. على أية حال، إذا كانت الحياة عبارة عن كتابات نقرأها، فنحن نعلم أننا سنجد جملا بين قوسين وبين مزدوجتين وبين علامات الاقتباس. باستعمالنا اللغة الفرنسية، فنحن بصدد البحث عن نفس آخر يمكننا من الصمود في هذا العالم، فلنتوقف عن الحديث عن هذه اللغة الفرنسية. كان شخص إيطالي حاضر رفقة «عبد الوهاب» و«محمد ديب» وكتاب أفارقة سود، وأخذ الطباشير وكتب عبارة عظيمة، التي أقتبسها اليوم في المغرب : «من ما زالت له الجرأة للتحدث باللغة الفرنسية ؟».

مداخلة

إن التأليف المغاربي يشمل المرأة كذلك، ولقد عانينا أيضا في الفترة الاستعمارية، ولكننا حاليا نعيش في عالم آخر يتسم بروح المشاركة التي منحت الأمل للجيل الجديد، عبر الإبداع في الفنون والاتصال الدولي والديمقراطية المشاركة... للحديث عن بدل من الشمال، لنأخذ مثالا مقاطعة الكيبيك في كندا: عانت هذه المقاطعة من المقاطعات الكندية الناطقة بالإنجليزية، ولكن، باستثناء بعض النقاط غير المقبولة، تمكنت الكيبيك من الوصول إلى مستوى جيد من التنمية. يتعين علينا دراسة تطور أربعة أجيال لمعاينة التقدم الحاصل، وكيف تمكنوا من تجاوز الحدود، واعتمدوا على مراجعة الأمور للعثور على مفتاح التنمية البشرية.

أمادو لي

إن الإنتاج الأدبي في السنغال هو واحد من أقدم وأقوى إنتاجات إفريقيا السوداء الناطقة بالفرنسية، حيث ظهر في القرن التاسع، وقد حقق الكثير من النجاح. أشارت السيدة ماريياما، بكل تواضع، إلى أنها شغلت لبعض الوقت منصب مديرة الكتاب والقراءة، ولكنها في الحقيقة شكلت جزء من هذا الجيل القوي من المؤلفين الذين حملوا شعلة النشر بعد الاستقلال ومارسوا التعبير الأنثوي. في الواقع، في الماضي لم تكن الكتابات خاضعة للرقابة، بل كان الكل يكتب ويقرأ أيضا و كانت الدولة السنغالية تسمح بمضاعفة المنشورات، وكذا بمتابعة تدريبات وتكوينات. في الواقع، قدم الأستاذ عدة معطيات بالأرقام، لكنها أرقام ضعيفة، لأنه ربما اختلطت عليه مع المعطيات التي تخص السينما. حيث تم دعم ميزانية المركز السينمائي للسماح بالحصول على كتابات من قبل المؤلفين السنغاليين لضمان الإنتاج الوطني.

مريمة نضووي

تقدمت بطلب لرئيس الدولة لزيادة في هذه الميزانية، قصد الحصول على إمكانية نشر وترويج الكتاب على نطاق واسع، عبر تمويل كلي لنشر الكتاب أو على الأقل تمويل ثلاثة أرباع التكاليف أو نصفها. وتساعد هذه الإجراءات من تخفيض سعر البيع ويجعلها في متناول الكل ؛ فغالبية القراء هم تلاميذ وطلاب. كما أن إستراتيجية نشر وترويج الكتاب تسعى أيضا إلى توصيله إلى القرى النائية وإلى تشييد صالات للقراءة تمنح للأطفال إمكانية مطالعة الكتاب بدل أن يتكبد مصاريف النقل صوب المدينة لقراءته.

في هذا الصدد، كتب أحد زملائنا، الأستاذ «سانغاري»، كتابا أشار فيه أن ما يحتويه القرآن الكريم هو بمثابة قصة قديمة حقيقية وأن الناس ظنوا أنه الإسلام الحقيقي ؛ حيث كان يقصد أن القرآن الكريم لم يأتِ من عند الله تحديدا، بل مستوحى من العصور القديمة.

بمجرد دخول بضع نسخ من هذا الكتاب إلى السنغال، خلق جدلا كبيرا، مما استلزم توفير حماية لمؤلفه لأن السنغال كذلك لا يخلو من بعض المتعصبين الذين أدانوا الأستاذ سانغاري تعسفا وتعصبا دون الاطلاع على الكتاب، وللإشارة، ففي السنغال، البلد الذي يصدر فيه أكثر من مائة كتاب سنويا منذ عدة عقود، نجد كتابا أو كتابين يتم منعهم، بسبب تضمنهم إهانات أو ألفاظ غير لائقة، وهذا أمر مؤسف ولكننا لا نزال في مجتمع تطبعه الحشمة. تحدثنا عن هذا المجتمع، الذي تسحرني فيه الكلمة، ولكن هناك مصدر آخر وروح أخرى في الأدب. لقد تحدث السيد بوعزة عن الزنوجة ؛ بطبيعة الحال تبقى الزنوجة أمرا أساسيا، لكنني أود طمأنته أن الأجيال الحالية تجاوزت هذا التاريخ من العبودية، بحيث تبنينا اللغة الفرنسية كلغة رسمية، دون أية عقدة تجاه الغربيين، بل على العكس من ذلك، فلدينا كذلك بعض الأفكار الجاهزة والسلبية عنهم. غير أنه بالنسبة للعبودية، فقد كانوا أقوى منا وتمكنوا من التلاعب ببعض السود الخونة الذين باعوا إخوانهم.
من جانب آخر، لقد استطعنا التغلب على جراح العبودية، واستطعنا الاستحواذ على اللغة الفرنسية، بل صوغها البعض منا حسب رغبته. وتظهر عناوين الأعمال الأدبية الحالية أننا لم نعد نركز على الزنوجة، لأن «سيزير» وسنغور» ظل كلاهما أوفياء في الحديث عنها. في الواقع، قبل الكتابة، كان هناك تبادل بفضل الهجرة من مختلف الأماكن من الصحراء : فقد كانت بمثابة احتفال بثقافاتنا وتعاون مشترك بين إفريقيا بيضاء وأخرى سوداء، وبين إفريقيا فركوفونية وأخرى ناطقة بالعربية أو الإنجليزية. وها نحن الآن نسجل حضورنا في المعارض والمؤتمرات الأفريقية الكبيرة ونكتب على الجدران، وتكتب النساء ويبدع لمؤلفون من جانبهم لهدم هذه الجدران. وكما يقال فالقلم هو سلاح الغزو والفتوحات.

بوعزة بنعاشر

يبدو أن البعض يعتقدون أن الزنوجة فكرة تقادمت، لكنني لن أجادل في هذه النقطة. لقد أشرت إلى أن الوعي الثقافي السنغالي، والوعي الإفريقي عموما، لا يمكن تصوره دون الحديث عن الأمريكيين السود، وعن العبودية و«فلسفة التنوير». وقد قصدت بذلك أنه لا يمكننا التفكير في إفريقيا دون إعادة التفكير في الزنوجة، ويؤيدني في ذلك كتاب المهجر، خاصة بأمريكا الشمالية وأمريكا الإفريقية؛ فعلى سبيل المثال، الكاتب «لوسيوس أوتلاو» في مقالته «الفلسفة الأفريقية» (African philosophy)، التي نشرت في موسوعة ستانفورد للفلسفة سنة 2010، والمفكر الأمريكي الإفريقي الكبير» لويس جوردون» في كتابه «مقدمة للفلسفة الإفريقية» (An introduction to an africana philosophy) في دار النشر التابعة لجامعة كامبريدج.
وهذا يعني أن هناك استحضار جدلي ونظري ومعرفي، للمفهوم «الذي وصف بالمتقادم» للزنوجة. كيف تمت استعادة هذا المفهوم؟ كانت هنالك لقاءات بين أفارقة إفريقيا وأولئك الذين يطلق عليهم «المنحدرين من أصل أفريقي»، أي الأمريكيون والأوربيون والآسيويون السود المقيمون بالمهجر. ثم أصبح مفهوم الزنوجة كنموذج ذكي، يعبر عن تبعية الإنسان الأسود، مشروعا سياسيا ضخما ومشروعا جماليا عبر الأطلسي، لكنه تميز بدورانه وعدم ثباته: وهذا يعني أن الجغرافيا الثقافية المفاهيمية للوحدة الإفريقية تحتم ضمنيا إعادة اكتشاف الزنوجة.

عمر الصاغي

إن الكتابات الأدبية، سواء من الجنوب أو المغرب العربي أو غرب أفريقيا، تستمد من المجتمعات التي كانت لفترة طويلة شفهية. إذ بسبب انتشار الأمية، اعتمدت مجتمعاتنا بشكل كبير على الرواية الشفهية لتواتر الكلمات التي تتسم بالطابع الثقافي. إن هذه النقطة مهمة جدا، وهي ليس موضوع النقاش اليوم، ولكن لنتأمل في حالة السنغال مثلا، والتي على الرغم من كثرة اللغات بها وانتشار الأمية، فهذا لم يمنع من ظهور تقليد الاستماع للكلمات، ليس فقط للكلمات التقنية، ولكن أيضا الحكايات والملاحم ، إلخ. إن الأدب الشفهي هو بعد آخر للأدب، والذي اختفى في أوروبا الغربية منذ عصر النهضة، ونلاحظه ولو بشكل جزئي في المنطقة المغاربية : لا ترتبط العلاقة مع الأدب بالكتابة فقط، فهناك أدبيات شفهية مهمة، تعتبر مقدسة للغاية.

أما بالنسبة للفرانكفونية، على عكس الأنجلوساكسونية، فهي لم تنجح أبداً في إنتاج كتاب معروفين خارج فرنسا. ولقد تم الإشارة إلى ذلك، وأعتقد أن السبب مرتبط بشكل مباشر بالطريقة التي استخدمت بها اللغة الفرنسية من قبل الدولة المركزية الفرنسية لبناء نفسه ا: لكي يتم الاعتراف بكاتب كبير يشترط أن يكون فرنسيًا، لأن فرنسا هي بلد اللغة الفرنسية.

لا نحتاج إلى الذهاب إلى إفريقيا أو المغرب الكبير أو فيتنام للتفكير في الأمر. يكفي التفكير في كتاب باللغة الفرنسية من بلدان بلجيكا أو سويسرا الذين «استولت» عليهم الدولة الفرنسية. على سبيل المثال، الكاتبة البلجيكية «مارغريت يورسنار»، أو الكاتب «جون جاك روسو»، الذي كان سويسريا، يعتبران تعسفا كتابا فرنسيين. أما في الأدب الإنجليزي، فنجد اليوم العديد من الكتاب الرائعين من الهند أو نيجيريا أو جنوب إفريقيا. إنه تقليد قديم يعود إلى ما قبل الاستعمار : الكتاب الأيرلنديون كتبوا باللغة الإنجليزية ولم يعتبروا أبداً إنجليز. وللإشارة فهذا التمييز بين اللغة والدولة موجود أيضا في إسبانيا. إذ أن الكتاب الكبار الناطقين بالإسبانية هم من أمريكا اللاتينية. أما في فرنسا، فقد تم تقديس اللغة الفرنسية لدرجة اعتبارها أحد أعمدة الدولة الفرنسية، مما جعل من الصعب الاعتراف بالكاتب السنغالي: فإما أن يكون فرنسي - سنغالي، وإلا فهو لن يعتبر كاتبا عظيما لأنه لا يمكن الكتابة بالفرنسية دون أن تكون فرنسيا. بالفعل، هذه إشكالية حيث من اللازم الحصول على الجنسية الفرنسية لشغل منصب عمدة أو موظف حكومي في فرنسا. وتعد أيضا هذه النقطة محورية في مفهوم الأدب باللغة الفرنسية.

مداخلة

إجمالا، نحن نتحدث عن نموذج سياسي، وهذه الأدوات هي مهمة للتغيير الديمقراطي. ففي الديمقراطيات التقليدية، تم تجاوز التأخير الديمقراطي بفضل الكتاب ومشاركة الناس في الحياة الثقافية من خلال القراءة على وجه الخصوص. هنا نطرح السؤال على السنغال: من هم القراء المستهدفون من الكتابات الحالية ؟ وإلى أي مدى يمكن اعتبار القراءة فرصة للتغيير الحقيقي في المجتمع السنغالي ؟

علاوة على ذلك، فنحن نعيش في فترة انتقالية أصبح الكتاب فيها متجاوزا وسيتفاقم الوضع مع العالم الرقمي. إذن في هذا السياق الجديد، ما هي فرص الكتاب السنغاليين ؟

مداخلة

تحدثنا عن الجدران، التي ساهمت في ميلاد قصة جديدة، مثل قصة جدار برلين الذي أنتج جيلًا جديدًا، وقدم علمًا إنسانيًا جديدًا، ألا وهو الاقتصاد الاجتماعي.

حيث يوفر هذا الاقتصاد أملاً جديداً للتواصل والتعبير بشكل أفضل في السوق الاقتصادي العالمي، لإعطاء المزيد من الأهمية للإنسان الفاعل من دون قيود على فكره.

مريمة نضووي

نلاحظ أنه من أجل أن يتم الاعتراف بمؤلف ما ككاتب عليه أن يكون فرنسيا. في جميع الأحوال لقد استطعنا أن نبدع، وتم إقرار جوائز لمكافأة الكتاب في جميع أنحاء إفريقيا الفرنكوفونية، وازداد عدد النسخ المطبوعة، وترجمت العديد من المؤلفات وتكاثر عدد القراء. فمثلا في الغابون، تم إقرار جائزة فانسون (Prix Vincent)، وفي ساحل العاج أطلقت جائزة أفضل رواية فرنكوفونية أطلق عليها اسم جائزة العاج (Prix d'Ivoire)، وفي مالي هنالك جائزة أفضل رواية نسائية، وكذا الجائزة الكبرى لرئيس دولة السنغال، وأيضا في موريتانيا وغينيا... لذلك سوف يتم الاستغناء عن الجوائز الفرنسية المرموقة، ولن ينتظر المؤلفون الأفارقة إصدار مؤلفاتهم في فرنسا : لنتولى اكتفاءنا الذاتي، وننظم الفضاء الذي نعيش فيه، ونشارك في معارض الكتب، حيث نتوفر على شراكات مميزة مع المغرب على سبيل المثال، وستسمح الترجمة بزيادة عدد القراء.

إذا بالنسبة للقراء المستهدفين، ما الذي تغير بالنسبة لبلداننا ؟

إننا لا نكتب فقط للسنغاليين، بل نكتب للجميع، لأننا عندما نقرأ فهذا يجعلنا نكتب. فعندما كنا صغارا، اكتشفنا العالم من خلال القراءة وهذا ما جعلنا نحب الكتابة. كما أننا نرغب في التعريف بالسنغال في جميع أنحاء العالم من خلال كتاباتنا، لأننا نكتب عن بلادنا وعن مجتمعنا وعن «الأنا» الإفريقية السوداء.

من جانب آخر، أعتقد أن الموجة الرقمية في صالحنا. سواء تمت قراءة مؤلفاتنا على الكتب الورقية أو الرقمية فالأمر سيان، بل وقد يزيد عدد قرائنا عبر العالم الرقمي. ففي السنغال مثلا، لدينا نادي نسائي على الإنترنت،يسمى «نادي السيدات» (ladies club)، الذي يقرأ حاليا إحدى رواياتي. كما أنه عند عودتي، سأكون على اتصال مع القراء في جميع أنحاء العالم الذين اقتنوا هذه الرواية في الموقع التجاري الإلكتروني «أمازون» وسأناقش معهم الرواية. لذلك، أعتقد أن النسخة الرقمية لا تنافس النسخة الورقية، بل تكملها، وأن الكتاب الورقي لن يندثر أبدا.

بوعزة بنعاشر

عندي فقط بعض الإضافات بعد مداخلة صديقتي مارياما. أريد فقط أن أثير انتباه الجامعة المغربية، وجامعات شمال إفريقيا عموما، من المغرب إلى مصر، بخصوص ضرورة إدماج ما يطلق عليه «كتابات افريكانا» (les écrits Africana) في المناهج الجامعية والبرامج العلمية الثقافية.

وحتى الاتحاد الأفريقي قرر إضافة منطقة سادسة إلى المناطق الخمس التي تم تشكيلها سابقاً - أفريقيا وشمال أفريقيا وغرب إفريقيا وشرق إفريقيا ووسط أفريقيا وأفريقيا الجنوبية - والتي يطلق عليها «الأمريكتان السوداء» «Amériques noires».

وعلى سبيل المثال هل كان من الممكن تصور مساهمة بلد مثل المغرب من وجهة نظر أكاديمية ثقافية في هذه «الكتابات الأفريكانية» إذا ما تم تجاهلها ؟ لماذا نتحدث عن مصطلح بلاك أفريكانا (Black Africana) ؟ هل من أجل أن يشمل مفهوم المناطق الست ؟

سيكون من الرائع دراسة وتحليل الأعمال والأفكار الأفريكانية، وهذا ما يتعين على الجميع القيام به.

رئيس الجلسة : بلقاسم الجطاري
المشاركون : أحمد بوكوس، فاطمة بوخريص، إدريس أزدود
فضاء : إدمون عمران المالح
التاريخ : يوم الجمعة 22 شتنبر 2017
الساعة : 11 : 15 - 12 : 30

موجز مداخلات المائدة المستديرة

المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية مؤسسة مغربية أحدثت من طرف جلالة الملك محمد السادس تحت رعايته السامية. وهي نابعة من الوعي بأهمية اللغة والثقافة الأمازيغية وكذا بفضل نضال المجتمع المدني منذ الاستقلال حتى سنة تأسيسها في 2001.

ثم أضحى النهوض باللغة الأمازيغية من المهام المنوطة بالمعهد، عبر هدف مزدوج يسعى بالأساس إلى وضع قاعدة مشتركة واحدة لجميع اللهجات الحاضرة في المغرب وكذا إلى اعتماد حروف مرسومة لكتابة اللغة. إن الاعتراف بالثقافة واللغة الأمازيغية جعل هذه العملية ضرورية وحاسمة من أجل ضمان التفاهم بين مختلف لهجات الأقاليم المعنية في جميع أنحاء المملكة. حيث قام الأستاذ بوكوس، خلال هذا اللقاء، بتوضيح المراحل التي مر منها اختيار حروف تيفيناغ، وفسر سبب اختياره بدلاً من الحروف اللاتينية أو العربية.

أكدت العروض والمناقشات حول هذه المائدة المستديرة على أن معرض الكتاب «رسائل المغرب» يشكل فرصة مواتية للمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية لعرض إنجازاته الكبرى، وخاصة من حيث الإصدار والتوزيع وتشجيع النشر باللغة الأمازيغية من خلال مجموعة من المبادرات والتدابير التشجيعية. في هذا الصدد، ساهم المعهد منذ إنشائه في إصدار حوالي 300 كتاب ومؤلف في العديد من مجالات المعرفة والأدب.

كما ناقش المشاركون في هذا اللقاء عدة مواضيع هامة أخرى تتعلق بشكل خاص بالتدابير التي ساعدت على إدراج اللغة الأمازيغية داخل الإنتاج الأدبي المغربي :

- كيف تم جعلها مشتركة وموحدة ؟
- كيف تم الانتقال من الشفوي إلى الكتابي في الأدب الأمازيغي ؟

من جانب آخر، عبر المتدخلون عن قلقهم الشديد إزاء إشكالية تعليم اللغة والكتابة الأمازيغية التي تحد من انتشارها على نطاق واسع.

أما فيما يتعلق بمستقبل اللغة الأمازيغية في التعليم العالي، فقد تساءل المشاركون في هذه المائدة المستديرة عن الماجستير وأعربوا عن رغبتهم في رؤية أقسام اللغة الأمازيغية، ليس فقط في مدن أكادير وفاس ووجدة، ولكن في جميع الجامعات المغربية، لأنها لغة متجذرة في تاريخ المملكة المغربية.

وبخصوص استراتيجية المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، ينتظر اتخاذ تدابير تحفيزية من أجل النهوض باللغة الأمازيغية، عبر الاعتماد على تكنولوجيا المعلومات والاتصال، وكذلك تشجيع الكتاب والمؤلفين الأمازيغ.

بلقاسم الجطاري

ما هي الإجراءات والعمليات التي اعتمدت تدوين الحروف ؟ ما هي الاستنتاجات التي يمكن استخلاصها بشأن آفاق الثقافة الأمازيغية ؟ في هذا الصدد، سيناقش السيد إدريس أزدود إشكالية الإنتاج الأدبي الأمازيغي، وسيربطه بالطبع بالمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، ويوضح الصعوبات والتوقعات لهذا الإنتاج. وسنعطي الكلمة للأستاذة فاطمة الزهراء التي ستتحدثنا، بصفتها رئيسة مكتبة المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية عن إشكالية نشر وإصدار كتابات الثقافة الأمازيغية في المغرب.

بمساهمة الأساتذة الباحثين سنحاول البحث في الثقافة الأمازيغية، وسنحاول ما أمكن أن نوضح للحضور كيف تندمج هذه الثقافة على المستوى الدراسي في المدارس والثانويات والجامعات المغربية وأيضا في اللغة على مستوى العلمي الأكاديمي الذي هو في حاجة إلى التطوير. في هذا الإطار أدعو السيد أحمد بوكوس وهو بطبيعة الحال غني عن التعريف، فليتفضل مشكورا.

أحمد بوكوس

بما أن الجمهور هنا متعدد اللغات، فسأتحدث بالفرنسية، وباللغة العربية وربما باللغة الأمازيغية. بداية، أود بالنيابة عن المعهد أن أتقدم بالشكر لصديقنا ومدير دار نشر، السيد عبد القادر الرتناني، الذي ساهم في إصدار منشوراتنا. شكراً جزيلاً لجميع أصدقائنا الحاضرين هنا. كما أجدد بالغ شكري للسيد امباركي. ستخصص هذه المائدة المستديرة لمناقشة أهم الإنجازات المتعلقة بالثقافة الأمازيغية في مجال النشر والإصدار. لكن بداية دعوني أعرف بالمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية.

يعتبر المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية مؤسسة عمومية أنشأها جلالة الملك سنة 2001 بعد مسار نضالي قاده المجتمع المدني منذ الستينيات حتى 2001. وبطبيعة الحال، كان إضفاء الطابع الرسمي على اللغة الأمازيغية والاعتراف بالثقافة الأمازيغية بمثابة تتويج لكل هذا المسار النضالي.

من جانب آخر، سوف أتحدث قليلاً عن تجربة تطوير اللغة الأمازيغية واعتماد تيفيناغ كحرف رسمي. إذن، لماذا ينبغي تطوير الأمازيغية ؟ كما تعلمون جميعًا، فقد قدم صديقي الأستاذ الجطاري توضيحا رائعا : فهو يتحدث تريفيت، وأنا أتحدث تشلحيت، ويتحدث السيد أزود بأمازيغية وسط المغرب. كل هذه اللهجات تقدم فضاء لغويا متنوعا وفي بعض الأحيان فهما متبادلا بين المتحدثين من الشمال والجنوب والوسط والشمال الشرقي والجنوب الشرقي. ولكنه في نفس الوقت يطرح عدة مشاكل. في هذا السياق، ارتأى المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية أنه يتوجب بذل الجهد لإحداث لغة تفاهم متبادل باعتماد على قاعدة بيانات اللهجات الإقليمية والمحلية.

لم يكن هذا الإجراء بالأمر السهل، لكن لحسن الحظ، استفدنا من العديد من التجارب حول العالم. حيث كانت هنالك مجتمعات غير متجانسة لغوياً. وفي الواقع، لا توجد دولة تتكون من مجتمع لغوي واحد فقط، وحتى في المجتمعات الأحادية اللغة، نجد اختلافات بين اللهجات الاجتماعية للطبقات العليا ولهجات الآخرين. إذن، فالاختلاف وعدم التجانس والفروق اللغوية موجودة حول العالم، وهي ليست فقط خصوصياتنا.

وتجدر الإشارة إلى أن العديد من البلدان قررت تنظيم وتطوير فضاءها اللغوي لضمان التفاهم المتبادل بين المتحدثين في مختلف الجهات، أو حتى المناطق المختلفة والبعيدة. هذا هو حالنا في المغرب. إذن ماذا قررنا ؟ لم نقم بتطوير لهجة معينة لتصبح لغة وطنية موحدة وطنية، وهو ما حدث في بعض البلدان. نحن، قلنا : يجب أن نأخذ الأصوات والكلمات والبنيات الخاصة بمختلف اللهجات. ومن الضروري أن تترك جانبا كل ما من شأنه أن يزعج الفهم المشترك داخل هذه المجتمعات الفرعية.

إذن كيف نحقق ذلك ؟ لقد قمنا إذن بدراسة ذات طابع لساني، ووقفنا على الأعمال الموجودة، ولحسن الحظ، كانت قد أجريت الكثير من الدراسات خلال الفترة الاستعمارية - بعضها يعود إلى القرن التاسع ولكن معظم الأعمال تمت في عهد الحماية في القرن العشرين - وتشمل التراكيب، بناء الجملة، مع العديد من عمليات النقل، وكذا القواميس، والتي يرجع تاريخها إلى هذه الفترة. وفي الحقيقة هذا مكسب مهم. ولعل كل أنجز خلال الفترة الاستعمارية يخدمنا اليوم ويخدم ثقافتنا : لقد اعتمدنا على هذه القاعدة. بالطبع، لقد قمنا أيضًا باستثمار جميع الأبحاث الأكاديمية التي أجريت بعد الاستقلال، والتي طبعت فترة السبعينات، وشهدت ظهور مدرسة لسانية مغربية خاصة. وفي إطار هذه المدرسة، قام بعض الباحثين الأمازيغ أيضًا ببعض الأعمال المهمة. وهكذا، عرفنا بوجود كل هذه الأعمال، قمنا بالاحتفاظ بكل هو ملائم والتخلي عن ما هو أقل أهمية، كما وضعنا جانبا كل ما قد يعطل الفهم المشترك، أي كل ما لا يصلح حقيقة كوحدة مميزة وبوظيفة مميزة على مستوى التواصل ، وبعد كل هذا، شرعنا في تطوير المعاجم والقواميس. كما اشتغلنا أيضا على النحو، ولاسيما على مستوى القواعد التركيبية في اللهجات.
لا توجد اختلافات كثيرة، ولكن بعض الظواهر القليلة والخاصة : لقد احتفظنا بقواعد النحو المشتركة لجميع اللهجات. وبالإضافة إلى المعاجم والقواميس المتخصصة، لدينا الآن قاموس عام للغة الأمازيغية. إذن لماذا نفضل القواميس المتخصصة والمعاجم، أي المصطلحية ؟ لأنه من الواضح أن معجم الأمازيغية بكامله وعلى مستوى مختلف اللهجات أيضا، فقير جدا، إن لم نقل فيه نقائص فيما يتعلق بالمصطلحات التقنية : ليس لدينا كلمة لنقول هذا أو ذلك في اللغة التقنية، ومئات، وبل الآلاف من الأشياء الأخرى التي ليس لدينا قاعدة معجمية في لغتنا للتعبير عنها. لذلك علينا إنشاء وخلق كلمات جديدة لهذا الغرض. يمكننا أيضا أن نسلك نهجا مختلفا : أي بناء المصطلحات والمفردات اللغوية بطريقة مرتجلة، وهذا هو ما كنا نقوم في الإطار الجمعوي منذ سنة 1970 وواصلنا هذا العمل حتى التسعينات. يمكن القول أن هذه التجربة أعطت ما أعطته ومكنت من إعطاء دفعة أولى للمجال. ومنذ سنة 2001، أتيحت لنا فرصة الاشتغال في بنية تتوفر على خدمات لوجستية، وموارد بشرية، ووسائل مالية، وهو أمر في غاية الأهمية. لذلك انكببنا على العمل.
توجد داخل هذه المؤسسة عدة مراكز أبحاث، بما في ذلك مركز التهيئة والتطوير اللغوي، والذي يلعب دورًا رئيسيًا في بناء المصطلحات. كما تتوفر المؤسسة أيضًا على مركز للدراسات الثقافية، وأشكال التعبير الثقافي والفني الأدبي. سيتحدث السيد إدريس عن ذلك بالتفصيل لأنه ترأس هذا المركز لمدة ثماني سنوات.
لقد عملنا أيضا على تطبيق تكنولوجيات المعلومات والاتصالات الجديدة، و عمل بالغ الأهمية، وأود أن أقول أن هذا العمل حاسم في عالم اليوم. نعلم جميعًا، مع أصدقائنا مديري نشر الطبعة الورقية، أن النشر الرقمي أصبح أقوى وسيلة على وجه الأرض : الإنترنت والمحرك الرائد في المجال الرقمي «غوغل» يعتبر أقوى مصدر في العالم للحصول على المعلومات، وتقديمها، ونشرها. لذلك، من الضروري أيضًا نقل اللغة والثقافة الأمازيغية بهذه الوسائل المتميزة. من حسن حظنا أن يكون لدينا في هذا المركز مهندسو حاسوب على وجه التحديد، خريجي المدرسة المحمدية للمهندسين بالرباط، أفضل وأكبر المؤسسات في المجال. ولقد قام هؤلاء المهندسين بعمل استثنائي، لاسيما تصميم لوحة مفاتيح باللغة الأمازيغية. يبدو اليوم الأمر عادي، أن نكون قادرين على وضع الأصابع على لوحة المفاتيح، وتكفي نقرة واحدة للحصول على المعلومات على الشاشة. يمكن الكتابة باللغة الأمازيغية - ولكن لم يكن من السهل على الإطلاق إنشاء لوحة مفاتيح بالأمازيغية. لكتابة هذه اللغة، واجهتنا على الفور مشكلة الحرف : هل سنكتب الأمازيغية بالحروف العربية أو اللاتينية أو تيفيناغ ؟ لقد أجرينا عدة دراسات تقنية، أولاً وقبل كل شيء، للاختيار بين الحروف الثلاثة. كان لا بد من أخذ بعين الاعتبار عدد من المعايير، بما في ذلك التطابق والملاءمة بين «الكرافيمات» و«الفونيمات»، حيث لا يمكن استخدام حروف غير قادرة على التعبير ونقل أصوات اللغة، ومن ثم، إذا أخذنا هذا القرار، فإن الأمور ستتعقد، لأننا أدى حتما سنكون مضطرين إلى خلق حروف جديدة لم توجد من قبل، مثلا : رمزا تضاف إليه رموز أخرى، وهو ما سيعقد الأمور لأنه ليس من السهل تحقيق كل هذا على مستوى لوحة المفاتيح.

هذا ما كان سيحدث مع الكتابة العربية أو الكتابة اللاتينية. الكتابة العربية تطرح بعض المشاكل، بما في ذلك مشكلة كتابة بعض الأصوات الغائبة عن نظام اللغة العربية. على سبيل المثال، كيف تكتب حرف «زاي» المؤكد ؟ في حالة الأبجدية الصوتية الدولية ، لدينا رموز محددة جدًا ، نضع نقطة لحرف «الزاي»، أي يجب بالضرورة إضافة علامة إضافية وهي مشكلة تقنية يجب حلها على مستوى حروف تيفيناغ.

لدينا حرف يسمح بطريقة طبيعية بكتابة الامتدادات التي لا توجد لا في نظام الحروف العربي ولا في الأبجدية اللاتينية. عندما نعيد قراءة نصوص القرن التاسع أو القرن العشرين التي تم جمعها خلال الفترة الاستعمارية ، يكون من الصعب في بعض الأحيان فك شفرتها لأنه غالباً ما يكون لكل كاتب نظامه الخاص في كتابة اللغة الأمازيغية.

جدير بالذكر أنه لم يكن لدينا، منذ فترة طويلة ، نظام ترميز معياري موحد للجميع ، يعتمده الكتاب والقراء على حد سواء. لأولئك الذين يقرؤون. وهي في الواقع صعوبة إضافية. ومن الواضح أن هناك اعتبارات أخرى غير تقنية تماما، لأن حرف تيفيناغ مرتبط بالعمق التاريخي للأمازيغ والأمازيغية، ومرتبط أيضاً بهويتهم ، لذا من الطبيعي اختيار حرف مرتبط بهذه الثقافة، بهذا التاريخ، بهذا الأدب وبهذه اللغة. لقد اخترنا الكتابة بحرف تيفيناغ وهذا الخيار يطرح مشاكل للعديد من الناس.

في الواقع، فئة الكبار هي التي تعاني من هذه المشكلة ، لأننا لم نتعلمها في المدرسة، ولكن بالنسبة لأطفالنا، لديهم الآن فرصة مواتية لتعلم اللغة الأمازيغية، لاسيما وأن عددهم في المغرب يقارب نصف مليون تلميذ بالتعليم الابتدائي. لهذا فأطفالنا لن يجدوا أدنى صعوبة، ولن تكون عندهم أية أيديولوجية مسبقة عن الأمر، إنها الحقيقة. ولقد أجرينا عدة دراسات كما قام بها المجلس الأعلى للتعليم أيضا، حيث أظهرت هذه الدراسات أن أطفالنا يتعلمون بسرعة هذه الأبجدية. أما بالنسبة لنا نحن، فهذه قصة أخرى، لأنه لدينا العديد من المشاكل في ذلك، ولكن نستطيع تجاوز هذه الصعوبات والمعيقات، إذا قمنا بممارسة هذه اللغة لمدة خمسة عشر دقيقة كل يوم في الأسبوع.

ولهذا، يجب علينا تطوير الكتب المدرسية والبرامج الإلكترونية وكذلك الرسومات التفاعلية. باستعمال هذه الوسائل المتطورة فالأكيد أننا لن نواجه أية صعوبة في تحقيق ذلك. حاولت أن أقدم أهم إنجازات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغيّة. والمتعلقة أساسا بتصميم قواعد الكتب المدرسية وأيضا الكتب الأدبية والثقافية. هذه الإنجازات لها جوانب إيجابية وأخرى سلبية. أتمنى أن نتمكن من مناقشة كل هذه الجوانب وكذا الصعوبات التي واجهتنا.

بلقاسم الجطاري

أتوجه بجزيل الشكر للأستاذ بوكوس، عميد المعهد الملكي للثقافة الأمازيغيّة، على كل هذه المعلومات القيّمة بشأن الوضع الراهن الذي تعيشه الثقافة الأمازيغيّة. والآن أعطي الكلمة للأستاذة الباحثة فاطمة بوخريص بصفتها المسؤولة عن المكتبة الأمازيغيّة للمعهد، والتي ستتوقف عند مجموعة من الإصدارات الأدبية الأمازيغية. أمرر إليها الكلمة.

فاطمة بوخريص

سأقرّبكم من سياسة النشر المعتمدة من طرف المعهد والتي توجد في صلب اهتماماته. فمنذ نشأته إلى الآن، تجاوزت إصداراته ثلاثمائة عنوان في مجالات متنوعة ذات صلة باللغة الأمازيغية. وسأتحدث عن هذا الموضوع، من خلال التركيز على ثلاثة محاور جوهرية. المحور الأول يخصّ حصيلة إنجازات المعهد، ثم سأتطرق بعدها للحديث عن الكتاب الأمازيغي وإشعاعه، وأخيراً سأتحدث عن سياسة دعم الكُتّاب الأمازيغيين. وتضمّ إصدارات المعهد مؤلفات إبداعيّة، كما تشمل أيضاً كتب ووثائق تهم البحث الأكاديمي والعلمي وكتب تربويّة وغيرها من الأعمال الجامعيّة بما في ذلك الأطروحات.

نظراً لطبيعة المعهد وتوجُّهه، نجد أنه أصدر ما يزيد عن مائة وعشرين عملا في الأدب والفنون، يليه خمسون إصداراً في مجال اللغة، ثم أربعة وأربعين كتابا في مجال التربية والتعليم، وأخيراً ثلاثة وأربعون مؤلفا في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، بعضها مترجَم عن لغات أخرى. تتوزع هذه الإصدارات حسب اللغات، وهذا يعني أن الكتب باللغة الأمازيغية التي لدينا تشكل نسبة 40% من مجموع إصدارات المعهد، تليها الكتب باللغة العربيّة التي تشكّل نسبة 30%، وتأتي بعدهما الكتب باللغة الفرنسية والإنجليزيّة والإسبانيّة. ويتم تصنيف هذه الإصدارات ضمن مجموعات، بحيث لدينا مجموعة خاصة بالدراسات والأبحاث، ومجموعة للقواميس والمعاجم، وكذلك مجموعة مكرّسة للإبداعات والحوامل التربويّة وكذا السّير الذاتية، ورأت هذه الإصدارات النور بين سنتي 2003 و2017. فيما يتعلق بالمحور الثاني، أردت القول أن المعهد يقوم بالمشاركة في عدة أنشطة ثقافية إشعاعية على طول السنة بحيث أنه يقوم بالتعريف بالكتاب الأمازيغي عن طريق المشاركة في المعارض الدولية للنشر والكتاب، ويُشارك كذلك في المعارض الوطنية والجهويّة التي تُنظّم في عدة مدن مغربية، ويقوم بتبادل المنشورات مع المؤسسات الدولية والوطنية، بالإضافة إلى أنه يقوم باحتضان مجموعة من المؤتمرات والمنتديات، وبعقد جلسات قراءة في كتب عن اللغة والثقافة الأمازيغيّة.

مروراً إلى المحور الثالث، وهو المحور المخصص لسياسة تشجيع الكتاب والمؤلفين في حقل اللغة والثقافة الأمازيغيّة عن طريق عدد من البرامج. أولا، هناك برنامج لدعم الكاتب الأمازيغي يليه برنامج تنظيم جائزة الثقافة الأمازيغيّة، إلى جانب مشاريع تعاقد مع الكتاب والمؤلفين الأمازيغ وغيرها... كما أعد المعهد برامج أخرى تُعنى بتكريم الشعراء والكتاب، وكذا توفير إقامات مخصصة لفائدة الفنانين والمبدعين والتي سيتطرّقُ إليها السيد أزدود لاحقاً، كما هناك أيضاً تعاقدات مع باحثين وكُتاب من خارج المعهد وكذا برامج دعم للجمعيّات. يمكنكم أن تطّلعوا هنا على أحدث إصدارات المعهد، وكما هو معلوم، فكل مركز يقوم بنشر عدد من الكتب، ففي عام 2017 مثلا، قام المعهد بنشر اثنا عشر إصداراً سيُعرض حصريّاً بمناسبة المعرض المغاربي للكتاب، ويتوفر المعهد أيضاً على نسخ من هذه الإصدارات.

بلقاسم الجطّاري

نُحيّي فيكم هذا الحمَاس ونقدّر مجهوداتكم المبذولة في سبيل تنظيم المكتبة التابعة للمعهد، وكل ما تسخّرونهُ لفائدة طلاب شعبة الدراسات الأمازيغيّة قصد تسهيل عمليّة ولوجهم إلى هذه المكتبة وكافّة أشكال الدعم التي تسهرون على تقديمهم إيّاها. والآن، أعطي الكلمة للدكتور الموقّر إدريس أزدود للحديث عن إصدارات اللغة الأمازيغيّة، ولكن قبل ذلك، اسمحوا لي أن أعطيكم لمحة عامّة عن مسيرته العلمية. شغل الأستاذ إدريس منصب مدير مركز الدراسات الفنيّة والتعابير الأدبية والإنتاج السمعي البصري من سنة 2007 إلى حدود سنة 2016.

من بين مؤلفاته : قاموس البربر - فرنسي، الإبداع الأمازيغي وإشكاليّة النص، ألغاز أمازيغيّة، ألف مكان أمازيغيّ، المسرح الأمازيغي بين الجذور والممارسة وغيرها... أدعكم معه الآن ليحدّثكم عن النهوض باللغة الأمازيغيّة وعلاقته بالعمليّة اللغويّة بالمغرب.

إدريس أزدود

إنه لمن الصعب عليّ، نظراً لمعرفتي المحدودة باللغة العربيّة، أن أبلي بلاءً أفضل من العرض السابق. لقد تخرّجتُ من قسم اللغة والأدب الفرنسي، لذلك، وكما قال عني زملائي والأستاذ بوكوس، كان لي حقاً الشرف أن أترأس مركز الدراسات الأدبيّة والفنية والسمعيّة البصريّة لمدة ثماني سنوات، لكن وعلى الرغم من أنني لم أعد أشغل هذا المنصب منذ عام ونصف تقريباً، إلا أنه وقع عليّ الاختيار بحكم تجربتي أن أتحدث إليكم اليوم عن الإنتاج الأدبي للمعهد وعموماً عن موضوع هذا المعرض «كتابات أمازيغيّة»، وبصفة خاصّة عن الأدب في البُلدان المغاربيّة.

فكما ترون، الأمر مرتبط بالأدب بصفة عامّة. وبالنسبة لي، يرتبطُ الأدب ارتباطاً وثيقاً باللغة، وعند ذكرهما معاً، علينا ذكرُ الثقافة أيضاً. إذاً فهذه ثُلاثيّة تربطها علاقة جدليّة، وتعتمد خصائص إحداها على خصائص الأخرى، كما تتأثر وظيفة إحداها بوظيفة الأخرى، وبالتالي فإن ثلاثية اللغة - الأدب - الثقافة تجمعها علاقة نظام، كما أنها مرتبطة بالضرورة بالتراث وهذا نظراً لأنها تنبع من الماضي وتمتدّ إلى ما يعايشُه الناس اليوم. فالأدب واللغة والثقافة الأمازيغيّة تعود إلى التراث، ولكنها موجودة في تجربة اليوم وأيضاً في خيال من يتقنون هذه اللغة.

بهذا، نحن نكون في علاقة مع الماضي والحاضر والمستقبل في آن واحد. فخيال اليوم يعبّد لنا طريق الغد. كما تطفو الأهميّة البالغة لهذه الثلاثية إذا ما تأمل المرء خِطابات جلالة الملك المتعلّقة بالتراث غير المادي، والتي نجد أنه يقدّرُ فيها ثقافتنا ولغتنا ومدى ترابُطهما. وعلى الرغم من أن هذه الحقيقة تعدّ عامّة إلى حد ما لأنها تميّزُ لغات العالم قاطبة، فإن ترابُط هذه الثلاثيّة قد لعب، بصفة خاصّة، دوراً بطوليّاً في المعهد الملكي للثقافة الأمازيغيّة، بحيث كما جاء على لسان عميد المعهد، أسهمت في تنميق اللغة أو بالأحرى إعدادها لتتخذ صبغة اللغة المكتوبة بعد أن كانت لغة شفويّة ليس إلّا. ولكن، لم تكتمل هذه العمليّة بعد بالرغم من أن المعهد يحتفي اليوم بمرور خمس عشرة سنة على تأسيسه، نظراً لأن عمليّة تأهيل لغة كانت شفويّة منذ الأزل لتصير مكتوبة بين ليلة وضحاها تتطلّبُ مزيداً من الوقت. نحن لم نبلغ بعد حتى منتصف الطريق، لا زلنا نحبوا حبوَ الأطفال في هذا الاتجاه ونحن مطالبون بمضاعفة جهودنا في هذا الأمر. فالمدارس مثلا لم تلتزم كلّها بتدريس اللغة الأمازيغيّة، وستظل الكتابة بمثابة معركة تخاض بشكل يوميّ قصد إعادة تأهيل هذه اللغة ونقلها من المستوى الشفوي إلى الكتابة.

إنها لعمليّة تهم الأمس واليوم والغد على حد سواء، عمليّةٌ رهينة بالنتائج التي سيتم الوصول إليها عن طريق التخطيط اللغوي الفعال. فنحن عندما نرغب في الانتقال من المستوى الشفهي إلى الكتابي، يلزمُنا على الأقل إضفاء تحسينات على طريقة كتابة اللغة، والمعهد متعطّش لبلوغ هذا المستوى. والمركز الذي كنت أترأسه، بدوره، يُسهمُ بفعاليّة في هذا الأمر.

وبالتالي، فالمعهد يقوم بطرح مناقصات للمهتمّين بالثقافة الأمازيغيّة، بما فيهم الأكاديميين والعديد من طلّاب الدكتوراه والباحثين والناشطين والمُدافعين عن اللغة الأمازيغيّة المهتمّين بهذه النَّقلة من الشفوي إلى الكتابي. وبفضل دعوات المساهمة، أصبح المعهد يضمُّ الآلاف المؤلفة من النصوص.

قد تخونني ذاكرتي ولكن بناءً على الإحصاء الذي تمّ إجراؤه في المركز سنة 2007، فقد تم تسجيل أزيَد من مائتي ألف بيت شعري، وهذا أمرٌ لا يستهانُ به خلال هذه المدّة الزمنية القصيرة. فالفنانون المتخصصون في الأعمال الشفويّة، يبعثون إلينا بإنتاجاتهم منسوخة على طريقتهم، وكنا نقبل جميع هذه النسخ في البداية، بما فيها المنتَجة أو المكتوبة باللغة العربيّة.

ثم بعد ذلك، أخذنا نطلُب من الناس اعتماد تيفيناغ فحسب لأننا اقتنعنا أنه مثلما يمكن لأولئك الذين يتقنون الكتابة بالأبجدية اللاتينية أن يكتبوا باللغة الفرنسية بالرغم من أنه لا تجمعهما جامعة، إذاً فالأمر مجرد نسخ صوتي يمكن إسقاطها على اللغة الأمازيغيّة. فنحن إذاً نكتب بالحروف اللاتينيّة بقدر ما يمكننا بنقرة واحدة التحويل إلى تيفيناغ والعكس صحيح. فعلماء الحاسوب يعملون حالياً على إمكانيّة نقل وتحويل النص العربي إلى حَرف تيفيناغ، الشيء الذي سيؤتي أكله لأنه سيفتح باب مشاركة الجميع على مصراعيه. فنحن عندما طلبنا من الناس اعتماد الحرف الأمازيغي، قال البعض إنهم لا يتقنون هذه الكتابة بعد، وبالمُقابل، أقرّ عميد المعهد أن تعلّم تيفيناغ يستلزمُ ثلاثة أيّام فحسب، يتم تقسيمها إلى خمس عشرة دقيقة في اليوم، وفي غضون أسبوع، يصبح الأمر أكثر سهولة من ذي قبل. فمادمنا معتادين على الكتابة باللاتينيّة، فهذه إذاً هي ورقتنا الرابحة للانتقال بشكل مرن إلى الكتابة بتيفيناغ.

صحيح أن بعض الفنانين يبعثون إلينا بإنتاجاتهم، ولكن الأمر غير كافٍ لأننا لا زلنا بحاجة إلى المزيد، أي نحتاجُ إلى تخزين المزيد إذا ما أردنا اللحاق بالرّكب. وعلى فكرة، فنحن نقوم بتنظيم رحلات ميدانيّة في حالة ما إذا بلَغَنا أن فنّاناً طاعناً في السن ليس بوسعه التنقل أو ليس بمقدوره تحمّل تكاليف النسخ، ونرسل إليه باحثاً إلى حيث هو ونقوم باسترجاع جزء من إنتاجه عن طريق التعاقد، لأننا لا نستطيعُ استرجاع إنتاجات الفنانين جميعِها، خاصة المنتجين النشيطين. وفي حالة لم تسمح الظروف بإنجاز هذه المُهمّة دفعة واحدة، نقوم باسترداد قطع من خمس عشرة إلى عشرين قصيدة شعريّة، وبعضاً من الأحاجي والأمثال...

والشيء بالشيء يُذكر، ففي عام 2007، استطعنا ضمّ أزيد من ثمانين ألف نصٍّ قصير من الأدب والأحاجي والأمثال والعبارات المسكوكة. ونقوم بجمع كل هذه النماذج ومن ثمّ ندمجها في قاعدة بيانات الحاسوب، ويخضع بعض منها لمعالجة فوريّة من قبل الباحثين، وإذا أثار انتباههم موضوع معيّن، تتمّ ترجمتهُ وتوزيعه، بينما يتم تصنيف الباقي في قاعدة البيانات وجعله في متناول الباحثين الذين يرغبون في الحصول على هذه المجموعات دون تكبّد عناء السفر. طبعاً، الطلاب والباحثون المتواجدون بالرباط ونواحيها هم الأوفر حظاً في الاستفادة من هذه الكتب نظراً لعامل القُرب.

وكجزء من مهام المعهد، قمنا كذلك بالعمل على اللغة الاصطلاحية، أي الأدب. لقد كان من الضروري تسليط الضوء على بعض من لغات الإبداع، فعلى سبيل المثال، تطرّقنا إلى الأنواع الأدبيّة التقليدية وإلى الحديثة منها، نذكر منها «آدليس نتسكلا» وهو كتابُ من مختارات الأدب الأمازيغي، يستهدفُ بالخصوص الأساتذة الجامعيين وكذا أساتذة الثانوي والإعدادي. هذا الكتاب يجمعُ بين دفّتيه باقةً من النصوص المنتقاة من مختلف الأنواع الأدبيّة المتعارف عليها، التقليديّة منها والمعاصرة.

وفي إطار أنشطتنا المُعتادة، نحاولُ البقاء على اتصال بالباحثين المُهتمّين بالأمازيغيّة عن طريق تنظيم لقاءات تدور حول الأدب، نسعى من خلالها أن نُحيي فيهم حس النقد الأدبي الذي بات خامداً.

جديرٌ بالذكر أنه قد تمّ عقد اجتماعات في سبيل هذا الأمر. فنحن جميعاً نعي أهمّية الدور الذي يلعبُهُ النقد الأدبي في المُحاكاة والقفز إلى مرحلة الكتابة النوعيّة، فالعديد من فنّانينا يقومون بإنتاج يمكن وصفه بالساذج والغريزي، وعندما تتم ترجمة أعمالهم في إطار اصطلاحيّ خاضع للنقد والتحليل الأدبي، يكتسب العمل بُعداً أعمق. هنا إذاً يظهر دور النقد، ولكن يبدو أنه أمامنا الكثير للقيام به.

فعلى سبيل المثال، أثناء عمليّة الفصل بين الأنواع الأدبيّة التقليدية والحديثة، نميّز أنواعاً مختلفة للشعر، وهنا نقصد الأنواع المتعارف عليها مسبقاً، وفي زمننا هذا، نجد أنفسنا أمام عدد ضئيل جداً من الإنتاجات الشعريّة القديمة، بحيث حلّ محلّها الشعر الحُر الذي لا يخضع لأحكام الصدر والعجُز والقافية وغيرها. شعرٌ أشبه ما يكون في تركيزه الشعر الياباني. وهذا يعود بطبيعة الحال لجُملة من المؤثرات، ولكن الحس النقدي لم يرقَ بعدُ لتقييم هذه الأنواع الأدبيّة الحديثة. والشيء بالشيء يُذكر، فعلى ذكر الأدب، يُستلزم الإشارة إلى سائر التوجهات الجديدة التي يتبناها المعهد، والتي من بينها الجُهود المبذولة في سبيل بزوغ الرواية الأمازيغيّة، والتي تُعدّ تجربة جديدة في الكتابة بهذا اللغة.

بالفعل، لدينا مجموعة من القصص والروايات والكثير من النصوص المسرحيّة، أي نصوصاً مكتوبة وجاهزة للعمل المسرحي والسينمائي أيضاً، وهذه محاولات جديدة في الكتابة الأمازيغيّة والتي من خلالها يُمكن فتح آفاق شاسعة للكتابة في مجال الأدب والفن الأمازيغي. وعليه، فإن أمامنا الكثير للقيام به في هذا المَجال أيضاً. وللإشارة فحسب، ولا أقول هذا لأتغنّى بمدح زملائي، ولكن لقد تمّ إصدار مائة وعشرين عنواناً من أصل ثلاثمائة إنتاج أدبي للمعهد، كما قُدّر سابقاً. اثنان وعشرون من هذه الإصدارات يخُصّ الدراسات والأبحاث، عشرة منها يخصّ الندوات والحلقات الدراسيّة، وثلاثة منها عبارة عن نصوصٍ ووثائق، وثلاثة أخرى ترجمات، وهذا ما يعادل نصف إنتاجات المركز في مجال الأدب. ويُخصّصُ أقل من النصف بقليل للتجميع والإبداعات، أي الإنتاجات الشعريّة عامّة. أمّا بخصوص أدب الأطفال، فلدينا أربعة كتب فحسب وأنا أشهدُ أن هذا عدد قليل، إلى جانب أربعة دلائل كتيّبات، معها أربعة كتب في مجال الفن والقصص المصوّرة. أمّا فيما يخص وسائط الإعلام المتعدّدة، فقد قمنا بإنتاج خمس أقراص مدمجة لفائدة الأطفال، منها أغاني لفنانين معروفين للكبار. كما قدّمنا أيضاً ثلاث وثلاثين دقيقة من الأفلام الوثائقيّة تحكي عن شخصيّات فنيّة أمازيغيّة لامعة، والتي تمّ عرضها على القناة الثانية منذ سنوات.

بلقاسم الجطاري

نشكر الأستاذ أزدود على مشاطرتنا تأملاته، وعلى مشاركتنا هذه المعلومات التي تهم إصدارات المعهد. أهنئّكم كذلك على الجهود التي تبذلونها في مجال البحث العلمي بخصوص الثقافة الأمازيغيّة. والآن، اسمحوا لي أعزائي، عزيزاتي مُستضيفي هذا المعرض، أن أعلن عن فتح النقاش حول ما طرحه أساتذتنا الموقرون خلال مداخلاتهم المُثرية. لكُم الكلمة.

مداخلة

لدي اقتراح. حقيقةُ، لقد لفتت انتباهي هذه المجموعة من المحفوظات، ونظراً لأنها تحت خطر الإتلاف، أقترح أن يضع المعهد هذه المجموعة في أرشيف المغرب. فبهذا، سيكون في استطاعة الباحثين الاستفادة من تلك المادة الخام بعينها وليس الكتب والأقراص المدمجة التي تلخصها فحسب. أعتقد أن هذه المجموعة قد أنشئت بالطريقة السمعية البصريّة، إذاً فسيكون بمقدور الباحثين الاطّلاع على شهادات من خلال شاشات عرض وخوذات. رأيتهم يفعلون هذا بواشنطن، حيث يقوم الباحثون بالاطّلاع على الشهادات، ويَا لهُ من أمر هائل، بحيث ستكون هناك مساحة خاصّة بكل من المعهد وأرشيف المغرب.

محمد امباركي

أنا مندهش للغاية أمام هذه الحكمة والفطنة التي يتمتعُ بها أطر المعهد. وأنتم على علم بأنّنا كنا بصدد إدماج أو بالأحرى الشروع في تدابير تهم مختلف الأجيال، وعليه فإنه كان من الضروري فرض رؤية معيّنة عن الأمازيغ في المجتمع وفي قطاع التعليم، وكل هذا بحافظ جدلي سياسي من شأنه التشكيك في النهج الجوهري. لذلك، فأنا منبهر لأنكم تجاهدون في سبيل إنقاذ هذه اللغة وتعيدون صناعتها وأنتم بهذا تبثون الحياة في تصور جديد. وتساؤلي هو إذا كانت هناك ما تسمى بالأمازيغيّة المغاربيّة فهل هذا يعني أنها موجودة كذلك عند القبائليين بالجزائر ؟ وهل هناك وجه للمقارنة بين اللغة الكتالونية واللغة الأمازيغيّة من حيث بناء جامعة ولغة ؟ وهل توجد مراكز أخرى تعمل في هذا الاتجاه؟ وفي حال كان الغير يتّبعون نهجاً مختلفاً، فما هو الإجراء الذي ينبغي اتخاذهُ في سبيل توحيد هذا النهج ما دام الاثنين ينبعان من نفس الإشكال ؟

مداخلة

لعل جملة من التساؤلات تتبادر إلى ذهن كل باحث يرغب في تعلّم أي لغة في مستواها هذا.

وبالفعل، بخصوص اللغة الأمازيغيّة، يمكن طرح مجموعة من الأسئلة من قبيل : هل هناك علاقة مصاحبة بين الكتابة والهوية في نظر الشعب، وهذا يعني أن المجتمع الفرنسي، مثلا، لا يمكن أن نقرن به صبغة الفرنسيّة إلا إذا كانت تعتمد في كتابتها على اللغة الفرنسية، كما هو الشأن بالنسبة للمجتمع الإيراني مثلا، فلا يمكن لهذا الأخير أن يطلق عليه إيرانياً إلا إذا كان يعتمد هذه اللغة في الكتابة. وهنا تجدر الإشارة إلى أن اللغة الإيرانيّة تكتب بالأبجديّة العربيّة. فهل يا ترى يوجد عامل داخلي أو علاقة منطقية تربط الكتابة باللغة ؟

إذاً، ألا ترون أن هناك خطر يتربّصُ بخصوصيّات اللغة الأمازيغيّة لاسيما وأنها لا تزال في بداية إنتاج معاجم متخصصة ؟ ونحن على علم تماما بأنه من أجل بلوغ الثروة المعجمية المتخصصة المرجُوّة، يجب تبنّي إمّا عوامل داخليّة أي العناصر الداخليّة للغة الأمازيغيّة مع الرجوع إلى الجذور المشتركة أو بالانفتاح على لغات أخرى. فما هي إذاً الاستراتيجية التي يتبنّاها المعهد في إطار التلاقح مع لغات المصدر ؟ وما هي اللغة المصدر التي يمكن اعتمادها من أجل توسيع نطاق ومجال المصطلحات ؟

وأخيراً، لاحظنا أنه هناك اختلافات كبرى بالمغرب على مستوى المناطق التي تتحدث الأمازيغيّة : فهناك تاريفيت وتامازيغت وتاشلحيت. فما هي إذاً الوصفة السحريّة التي تضمن لهاته المتغيّرات الثلاث البقاء مستقلّة دون التخبّط ببعضها البعض ودون تشكيل إحداها أي خطر في استبعاد أو إقصاء الأخرى ؟ وهل الطبيعة الشفويّة لهذه المتغيّرات هي التي سمحت لتنوعها بتغلغل كل واحدة منها في حيّز جغرافي مختلف، أم أن العزلة الجغرافيّة لهذه المناطق هي المسؤولة عن ذلك ؟

مداخلة

ألا تعتقدون أنه ينبغي، بالدرجة الأولى، تسخير جهود المعهد لفائدة الأجيال القادمة ؟ وأنا بهذا أقصد العمل المكثف مع فئة الأطفال وذلك عن طريق تخصيص جوائز وهدايا بغرض الترويج ونشر اللغة الأمازيغيّة في صفوفهم؟ فلمَ لا يتم توشيح الأطفال الموهوبين في هذا المجَال، أو مثلا تنظيم دورات تكوين لغوي ميداني لفائدة المهتمِين منهم كما يتم تنظيمها بالنسبة للغة الإنجليزيّة ؟ فكما أشرتم، الأطفال يتعلّمون بشكل أسرع من البالغين الذين تستغرق عمليّة التعلم لديهم وقتاً أطول. إذاً، قد يكون لنا مستقبلا واعداً في مجال تعميم اللغة الأمازيغيّة إذا ما تمّ زرع الاهتمام بها في نفوس الصغار.

مداخلة

أتقدّم بجزيل الشكر للقائمين على تنظيم هذا المعرض، وبعد، فإنني أرى أن الشق الأصعب من المهمّة يكمن في المنظومة التعليميّة التي تبدو غير مؤهلة تماماً. وقد يتساءل المرء عن سبب هذا الاستهتار في بذل الجهود من أجل إدماج اللغة الأمازيغية في المدارس، هل يعود الأمر للمؤسسة نفسها أم للمعهد أم لمعايير أخرى خارجة عن سيطرة جميع هذه الجهات المعنيّة ؟

وأيضاً، عندما يتم ترجيح احتمال دون الآخر، فإن هذا الاختيار يكون على حساب احتمالات أخرى، ومنه فإنه يجب التوقف عند الفرق بين نتائج هذه الاختيارات والتساؤل حول فاعليتها السياسية نظراً لتواجد هذا الاختيار داخل رقعة الرؤية السياسية.

فمثلا، إذا ما تمّ تفضيل تيفيناغ، يتعدّى هذا المشكل طبيعته التقنية ويتفاقم أكثر من ذلك بكثير. لذلك، فأنا أراها مسألة سياسية. فكما رأينا، توجد مشاكل حتى على مستوى المتغيّرات الثلاث : تيفيناغ، تامازيغت وتاشلحيت.

فإذا انتقلنا من وجدة ومررنا بفكيك وصولاً إلى الحسيمة، سنلحظُ تبايُناً صارخاً بين الأمازيغية المُستعملة في كل منطقة ومن ثمّ يصبح التواصل عملية مستعصيّة، لأنه ينصح بقضاء بعض من الوقت في أحضان بني يزناسن للتعوّد والتأقلم مع اختلاف اللهجة، كما قد يضطر المرء للتفكير في الخيارات الموجودة في قلب العمل الأكاديمي، ومن الواضح أنه لم تسخّر أي جهود في سبيل تحقيق هذه الغاية.

مداخلة

لدي سؤال فيما يخص الآمال والآفاق. صحيح أنه سيتم إصدار قانونين قريبا إن شاء الله بعدما يصادق عليهما البرلمان ولكن ماهي تطلعاتكم ؟ لاحظنا أن الأمازيغية قد أحرزت تقدّماً بالفعل ولكن بعد مُضيّ خمس سنوات أخذت تتراجع. إذاً، هل من شأن هذه القوانين أن تعيد ذلك التقدم في اللغة الأمازيغية وفي المنظومة التربوية وفي التكوين إلى غير ذلك ؟ وإذا ما تمّ تفعيل هذه القوانين، هل سنشاهدُ يوماً تكون فيه اللافتات الإشهاريّة تضمّ اللغة العربية والأمازيغية معاً بصفتهما لغتين رسميتين باعتبار أن صاحب الجلالة صادق على تيفيناغ ؟ وكيف لنا أن ندمج تيفيناغ مع الإلكترونيات والقيام بفيديوهات للمبتدئين والبالغين لنعطيهم فيها دروساً لتعلّم اللغة الأمازيغية ؟ وشكراً.

مداخلة

أود الثناء وتثمين العمل الرائع الذي يؤدّيه المعهد الملكي للثقافة الأمازيغيّة وعلى الإنجازات التي تمّ تحقيقها رغماً عن المصاعب التي تواجهونها. أشكر الباحثين التابعين للمعهد فرداً فرداً على ما يقومون به، وأود فقط، بما أننا متواجدون بمعرض ذي صبغة مغاربيّة، أن أسأل ما إن كانت هناك آراء مغاربيّة حول تيفيناغ، وأن أسأل كذلك عمّا إذا كان هناك بصيص أمل في أن يقع اختيار موحّد للمغرب العربي على تيفيناغ. فجيراننا المغاربيّون أبانوا عن حسّ إبداعيّ مميّز، وسيكون من المذهل ترجمة أعمالهم باستعمال تيفيناغ.
أمّ سؤالي الثاني، فهو أشبه ما يكون بالاعتراف بحقيقة مُرّة. نحن نستقبلُ عدداً غفيراً من الطلّاب المهتمّين بالتسجيل في صفوف الماجستير بالدراسات الأمازيغيّة، وهذه فكرة هائلة لو لم تكُن هناك مشاكل تصيب الهيكل التعليمي بأكمله. صحيحٌ أنني اتعاطف جداً مع هؤلاء الطلاب، وكلّما تلقيتُ ملفاً للتسجيل بماجستير اللغة الأمازيغيّة، تعتريني الرغبة في قَبوله، ولكنني سرعان ما أتذكّر الشروط التي تلزمني بفعل العكس. فنحن إذاً نحتاجُ أولاً إلى إنشاء بنية بحثيّة ثريّة لصالح هاته الفئة الشابّة التي قد تعود على المعهد بالنفع في وقت لاحق.

مداخلة

ستتضمّن مداخلتي ثلاث نقاط : النقطة الأولى تتعلق بالنشر للكتابة الأمازيغية. نحن نعلم، بطبيعة الحال، أن الثقافة الأمازيغية تبذل مجهوداً أكاديميّاً جبّاراً لا يمكن إلا تقديره، ولكن المُلاحَظ هو أن طبع الكتاب الأمازيغي ونشره في المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية يكاد يكوناً غائباً في رفوف المكتبات الوطنيّة والمحليّة. لهذا فأنا أتساءل عن تواجُد إستراتيجية يعتمدها المعهد في مجال النشر من أجل مضاعفة حظوظ تواجد الكتاب الأمازيغي في المكتبات والخزانات المحلية؟ لأن هذه المسألة من الممكن أن تضمن الحضور القوي للكتاب الأمازيغي في المكتبات.
النقطة الثانية متعلقة بحرف تيفيناغ أو الحرف العربي أو الحرف اللاتيني. فمن خلال نبض الشارع، ومن خلال الالتقاء مع مجموعة من الناس الذين يتحدثون اللغة العربية بطلاقة ولديهم رغبة في تعلم اللغة الأمازيغية والتعرف على الثقافة الأمازيغية، يشتكُون من أن حرف تيفيناغ لا يضمن لهم هذه المسألة، وبالتالي فهل يمكن أن نعتبر الحرف اللاتيني أو الحرف العربي إلى جانب تيفيناغ يُعبّران عن الهويّة ويسهمان في نشر الثقافة الأمازيغية وفي التعريف بها بشكل أفضل ؟
أمّا النقطة الثالثة والأخيرة فهي متعلقة بالثقافة الأمازيغية أو باللغة الأمازيغية الأخرى المنتشرة في المغرب والتي هي شبه غائبة في البحث الأكاديمي عند الأساتذة الباحثين داخل المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، بحيث أنها سائدة أساساً بجهة الشرق كالمناطق المحيطة بوجدة وجرادة ومنطقة بني يزناسن ومنطقة فكيك، فهذه بالفعل كلها قبائل أمازيغية، ولكن لغتهم الأمازيغية التي يتكلمون بها لم تُكتب بها أيّة بحوث لتعرفنا بها وبثقافة ناطقيها.

نحن في جمعية ثمود نقوم مثلا بأنشطة ترمي إلى التعريف بالثقافة الأمازيغية في القبائل، ولكن نظراً للإمكانيات المادية المحدودة، لم نستطع تحقيق جميع أهدافنا وبالتالي لما لا يولي المعهد اهتماماً لهذه المناطق التي هي تعتبر مركزا للغة الأمازيغيّة ؟

مداخلة

لدي ثلاثة تعقيبات. الأول يهم الجهة المنظمة. هذا المعرض ككُل لا يعبّر عن موضوعه البتّة، بحيث أننا نجد فيه كل شيء ماعدا الكتاب. عندما نتجول في أروقة هذا المعرض، نجد أن الكتاب غائب، وبما أنه يوجد كل شيء هنا ما عداه، كان الأجدر بهم تسميتُه باسم آخر.

ثانياً، في جهة الشرق، لدينا مشكل عويص يتمثلُ في تواجُد حاكم للمدينة يضمر الكراهية لكل ما هو أمازيغي، وبالتالي فنحن نعاني في إطار التشجيع أو الإبداع أو الرسم لما هو أمازيغي، وهذا الوضع يهدّد بالقضاء على كل ما يحمل صبغة أمازيغيّة بالمنطقة.

ثالثاً، كان من الممكن الإلقاء باللوم على المعهد لو لم يكُن مشكل اللغة الأمازيغية مشكل ذو طابع سياسي. فالمعهد الملكي الأمازيغي ليس بيده حيلة، ونحن على علم بأن الأساتذة يقومون بمجهود كبير على المستوى العلمي. وهنا، أتوجه بالشكر للأساتذة الباحثين في المعهد على المجهودات الجبّارة التي يقومون بها، وهي مجهودات تفوق طاقتهم، ولكن مع الأسف، عندما يصل الأمر إلى التطبيق، ننزل إلى حلبة المواجهة مع عراقيل ذات طابع سياسي.

فاطمة بوخريص

سأحاول الإجابة عن السؤال المتعلق بإمكانية توزيع الكتاب الأمازيغي وأسس منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية. فكما قلت في مداخلتي، فإن المعهد الملكي يلعبُ دورا رياديا في مجال النشر منذ تأسيسه، وذلك عن طريق التعريف بالكتاب الأمازيغي ونشره في ربوع المملكة عن طريق المشاركة في معارض وطنية وجهوية، وعن عن طريق تبنّي عدة برامج من شأنها تقريب هذا الكتاب من القراء والباحثين. وفعلا، يجب الاعتراف أن هناك إشكالية في التوزيع، وهذا الأمر رهينٌ بعدة عوامل المعهد ليس إلا واحداً منها. وحتى في مجالات أخرى، نصدمُ بمشكل التوزيع، لكن المعهد موالي لهذه المسألة، ونحن نحاول ما أمكن من خلال إستراتيجية النشر أن نقوم بإجراءات مدنية من أجل ضمان توزيع الكتاب الأمازيغي في عدة مدن مغربية. وشكراً.

رئيس الجلسة : زهر الدين الطيّبي
المشاركون : ادريس كسيكس، منير سرحاني، عبد الله بيضا، علي بنمخلوف
فضاء : آسيا جبار
التاريخ : يوم الجمعة 22 شتنبر 2017
الساعة : 11 : 15 - 12 : 30

موجز مداخلات المائدة المستديرة

ترأس زهر الدين الطيّبي، مدير «الحدث الشرقي» الأسبوعيّة، هذه المائدة المستديرة إلى جانب ثلّة من المثقفين والمؤلفين الشغوفين بهذا الموضوع، بما فيهم ذ. منير سرحاني، وادريس كسيكس وعلي بنمخلوف... كما شهدت هذه المائدة مشاركة الكاتب العام لولاية وجدة السيد عبد الرزاق كورجي وغيره من كبار الكتاب والمُفكّرين.

لعلّ أهم ما أعرب عنه المشاركون في البداية هو أن الحدود السياسيّة لم تُفرَض في أذهان شعوب المنطقة المغاربيّة على الرغم من تصنيفها كواقع جُغرافيّ سياسي وإقليمي لعقود عديدة، ويعود هذا لكون هذه الحدود ناتجة عن ظروف وأحداث تاريخيّة خاصة والتي ليس من شأنها تغيير إرادة الشعوب وتقاربهم المتجذر الذي يقوم على أساس مجموعة من الأبعاد المشتركة، ولاسيما الثقافية منها.

لكن في الوقت ذاته، تمّ تعزيز الحدود السياسية النفسية الخياليّة، إذ أضحت اليوم اختلافات المزاج والسلوكيّات والتقاليد واللهجات حواجز عالقة في الذاكرة الشعبيّة، على المستوى الفردي وفي علم النفس الجماعي أيضاً.

إن معظم عمليّات التبادُل التي صاحَبَت هذه الملاحظات ركّزت على العلاقة التي تربط ما بين الخيال والحقيقة والأدب، ولإضفاء بصمة خاصة على أعمالهم، قام الكتاب بدور تكميلي لما قام به المؤرخون الذين ينطلقون في كتاباتهم من وقائع مثبتة ومؤكدة عن مصادر موثوقة. إذ يكتبون عن الماضي قصد إضاءة المستقبل، حتى وإن وضع المؤرخ تلك الوقائع في قالبه الشخصي، يظل أكثر ارتباطاً بالواقعيّة من الكاتب، بحيث أن هذا الأخير يغلب عليه طابعُ الذاتيّة والكتابة من أجل المتعة.

انطلاقاً من الأمثلة التي أدلوا بها عن إنتاجهم الأدبي الخاص، فإن الكُتاب يعطون أنفسهم الحق في «الغش» في سرد الوقائع، واختلاق المواقف واللجوء إلى «الكذب» أثناء حديثهم عن «وقائع» غير مؤكدة، وإلى «سرقة» بعض المواقف وتكليلها برؤيتهم الخاصّة لكي يصنعوا منها «وقائع» جديدة. إذاً في عبارة مقتضبة، يقوم الكاتب بخلط الحقيقة بالخيال ونسجهما في عمل روائيّ جديد.

إن تبايُن المعنى الحقيقي للتعابير والكلمات من لغة إلى أخرى، على اعتبار أن اللغة هي المادة الخام للكاتب، يجعل الأدب الذي تحملُه بين طيّاتها يتجاوز ضيق معناها، وذلك لأن الخيال يُضيفُ إلى الواقع حمولات معيّنة من المعاني حسَب كل ثقافة.

ادريس كسيكس

نحن لا نفعل شيئاً سوى أننا نحفظ الكلمات عن ظهر قلب. قد يعتقد البعض أن سلاحنا الأوحدُ هو الخيال، ولكنني أرى أننا محرومون بالفعل من الحُلم بأريحية ولاسيما في مجتمعاتنا. فنحن نواجه فيها ككُتّاب القسوة والظلم وتعنيف الأحلام. كيف لي مثلا أن أتعَامل مع الكلمات كمنفذ للهروب من الواقع أمام ضرورة التعبير عن هذا الواقع في الآن نفسه ؟ هذه هي الإشكالية التي تُطرح أمامنا أثناء الكتابة وأنا شخصيّاً أعتقد أن إشكالية الواقع والخيال تنشأ عندما يحاول المرء مواجهة التاريخ متسلّحاً بالأدب - بشكل ملموس- لأن الكاتب يواجه هذا الوضع إمّا عندما يكُون بصدد كتابة رواية اجتماعيّة أو عندما يعملُ على الأفلام الوثائقيّة الدرامية. أمّا عندما نتأمل الخيط الرفيع بين التاريخ والأدب، فاسمحوا لي أن أحيل إلى اختلافين أساسيين بين هذين الأخيرين. يهتمّ المؤرخون بالمعرفة باعتبار أن شغلهم الشاغل هو نقل ما يعرفونه عن الماضي بهدف إيضاح المستقبل. إذاً فهم لا يروون قصصاً فحسب كما هو الشأن بالنسبة لرواة القصص وإنّمَا حكيُهم نسترشد به طريقنا إلى المستقبل.

أمّا الكُتاب، فيولون اهتماماً بليغاً للمُتعة الأدبيّة وفي الآن ذاته للتعبير عن شهاداتهم وآرائهم الشخصيّة، في حين أن المؤرخ يجد نفسه في عمليّة تحري صحّة الوقائع من جهة وما تفرضُه عليه مخيّلتهُ من جهة أخرى.

كما أن الكاتب الذي يعمل على إنتاج القصص، تجده مليّاً يواجه مسألة المعقوليّة. فكونُ هذه القصص موثقة لا يجعلها بالضرورة حقيقية أو ذات أهمّية، ولكن ما يجعلها كذلك حقاً هو طريقة حبكِها وتشكيلها كتابَةً. شخصيّاً، هذه النقطة بالذات هي التي قضت مضجعي منذ زمن بعيد في معادلة التاريخ والأدب.

أمُر الآن إلى الاستدلال بطريقة كتابة رواية «مضيق ابن رشد» والتي سأرويها بشكل مقتضب على مسامعكُم، وستدركون حينئذ ما الذي يمكن أن يحدُث عندما يحاولُ المرء أن يتطرّق إلى إشكالية الحدود بين الواقع والخيال.

نحن الآن في سنة 1985، وأنا تلميذ في السنة الأخيرة بثانوية مولاي عبد الله بالدار البيضاء. بلغنَا نبأ اختفاء ذ. نور الدين، أستاذ مادة الفلسفة الماركسي، بين ليلة وضحاها جراء تعرضه لاختطاف في سيّارة «فولس فاكن» بيضاء كنّا نراها تمُر بجوار الثانويّة أحياناً. وتزامن مع اختفائه الفترة التي صدر فيها قرار التخلّي عن تدريس الفلسفة بالثانوي واستبدالها بتلقين الفكر الإسلامي. فصار بذلك الاختفاء مزدوجا، اختفاء مادة الفلسفة وأستاذها معاً. هل ترون كم يظل الجانب الحقيقيّ من القصّة عالقاً بالذاكرة ؟ نحن نقوم بتشكيله في قالبنا الخاص وتقديمه فحسب.

لم أتوقع يوماً أنني سأكتب يوماً عن ابن رشد (أفيروس)، ولكن في سنة 2014، وبالتحديد عندما قام المعهد الفرنسيّ بتنظيم نشاط فلسفيّ جميل، وجدتُ نفسي أتأمل الشبّان وهم يتوسّطون ساحة المكتبة الوطنيّة ويناقشون ما جاء به ابن رشد من مفاهيم حول وجود الله وحول أزليّة العالم وغيرها... كانوا يخوضون تلك النقاشات بكل حريّة، فلا خوفُ عليهم ما داموا في رحاب المكتبة، حيثُ لا سلطات تلاحقهم. كنت أشعر وأنا أتأمّلهم أن صورة أستاذ الفلسفة التي غادرتني منذ سنة 1985 قد عادت إليّ لبرهة وأمسكت بيدّي إلى عالم الكتابة. اسمحوا لي أن أضيف شيئاً بعد وأكون بذلك قد أنهَيت. عندما بدأت بالكتابة، اصطدمتُ بصعوبة الكتابة في موضوع فلسفي تاريخي، لأنه كان عليّ العودة بالزمن إلى القرن الثاني عشر وأن أطّلعَ على كل ما كتبه ابن رشد وكل ما كُتِب عنه أيضاً إلخ. لهذا الغرض، خضت غمار كتب التاريخ لكي أفهم فلسفة ابن رشد، وأجبرت على الغش في مواضع معيّنة، فما الكاتب في المقام الأوّل إلاّ مخادعاً، وهذا أمر لا هروب منهُ مع وجود المؤثرات التاريخيّة خاصّة في الأعمال الخياليّة. وهذا لم يطرأ منّي لغاية الكذب في حد ذاتها، وإنّما من أجل جعل العمل قريباً من حقيقة أكون أنا صانعها.

اسمحوا لي أن أستدلّ بمثالين. من الذائع أن ابن رشد، في خطبه التي كان يلقيها بمسجد قرطبة الكبير، كان يقتبسُ كثيراً من المتنبي. واكتشفتُ كذلك من خلال كتاباته السياسيّة انه كان مدافعاً شرساً عن المساواة بين الجنسين وكان سبّاقاً لهذا قبل غيره من الفلاسفة. وبالموازاة مع هذا، اكتشفتُ أن الشاعرة المتحررة ذات الأصول الأندلسيّة حفصة الركونية والتي عاشت في نفس حقبة ابن رشد تشاطره نفس التصوّرات. فشرعت حينئذٍ في البحث عمّا إذا كان قد جمعهما لقاء من قبل فلم أجد إثباتاً على ذلك، وعلى إثر ذلك، كنت أشعر أن شيئاً ما في التاريخ يدفعني لتزوير الحقائق، ففي الوقت الذي عَيّن فيه يعقوب المنصور ابن رشد طبيباً بدلا من ابن طفيل، تزامن ذلك مع دعوة حفصة للقدوم لتعليم اللغة العربية والشعر للأمراء. وانطلاقا من هذا، قمت بافتعال حوار تضمّنهُ كتابي بين الشاعرة وابن رشد والذي جرى في رحاب حدائق قصر مراكش، فتبادلا أطراف الحديث حول المتنبي مُتَسائلَين حول ماهية أن يكون المرء أديباً أو فيلسوفاً بتعيين من السلطان ولكن دون أن يستعبدهُ، أي أن يظلّ روحاً مستقلّة على طريقتها الخاصة. هنا إذاً تكمنُ الإشكاليّة، اسمحوا لي بأن أعيد الكرّة وأقول إن المسألة ليست مسألة مصداقيّة، وإنما مسألة معقولية، وليست مسألة معرفة وإنما مسألة متعة. آخر ما أريد قوله بخصوص هذه النقطة هو أننا نستمتع بما نقوم به، ولكن علينا في الآن ذاته أن نشهد على شيء ما. فأثناء مراقبتي لأولئك الشباب، أتذكر أن الذهول تمكّن مني في تلك اللحظات، وفيما بعد تلقيتُ على الفايسبوك دعوة من مجموعة شباب يطمح في تأسيس نادي المعتزلة الجدد (Néo-Mouatazilite)، وبالفعل أنشأنا هذا النادي ولكن ممّن كانت البادرة ؟ لقد أتت من أستاذة مادة الفلسفة حالياً وتلميذة شاطرتني مقاعد حجرة الدرس مع أستاذ الفلسفة ذاك سابقاً.

زهر الدين الطيّبي

نشكرك على تقاسمك معنا هذه الشهادة الخاصة بك كجزء من موضوعنا. سأتقدّم الآن بطرح سؤال مباشر ومن ثمّ إعطاء المساحة لأصدقائنا كي يجيبوا عليه. السؤال لك، عزيزي منير سرحاني. في هذا السياق المتعلّق بالحدود بين الخيال والواقع، يتحدّث زميلنا إدريس عن عنف الحقيقة ومحاولة الهروب من الواقع، فماذا يمكننا القول بهذا الصدد إذا ما أسقطناه على ما نعيشه بالمغرب ؟

منير سرحاني

بالأحرى هناك استخدام لكلمة حقيقة تصبّ في معنى الواقع والتاريخ المثبت. وأعتقد أن الكاتب غير مسؤول عن البحث عن التنقيب عن الحقيقة لأنه يبقى مخادعاً ماهراً لأن ما يقوم به يشبه عمل غيره من الفنانين، ويقوم بعملية رشح الحقائق التاريخية والاجتماعيّة بشكل عام وكل ما يحيط بنا بشكل خاص ويعصره جيّداً ليأتي إلينا بتجربة حيّة جديدة. فالكاتب إذاً يدلي بشهادته الشخصيّة كما يراها هو من منظوره الشخصي. في هذا الإطار، أستحضرُ أعمالا كبيرة لروائيين لامعين من قبيل دون كيشوت، وروايات فلوبير ولاسيما رواية مدام بوفاري... ولكن المهم في هذه الأعمَال أنها تعالج كذلك إشكاليّة الحدود بين الواقع والخيال في الأدب، وأعتقد أنه هنا تكمن صعوبة تحويل ما هو واقعي وتعميمه ليصبح حقائق مُعاشة. فهو لاحظ إذاً أن لكُل شخصيّة قدوة خارجيّة تعدُّ كحلقة وصل بين الروايات. ولكن في حقيقة هذه الشخصيات، ثمّة نصيب من الغباء، لكونها حقيقة مزيّفة لا أكثر.

على سبيل المثال، غالباً ما نجد في الروايات التي فتَنَتنا شخصيّاتها البطوليّة قيماً أصيلة تناقضَ مثلا ما كانت تعيشه إيما بوفاري مع زوجها تشارلز، الرجل الغبيّ لدرجة مُحبِطة. وفي واقع متدهور مماثل، لا يقود إلا إلى الوهم والفشل، كان مآل دون كيشوت الفشل فعلا، كما انتهى الأمر بغيره بالانتحار. الفكرة التي أدافع عنها، ببساطة، هي أنه هذه الإشكالية بين الواقع والخيال هشّة للغاية لدرجة أنها قد تخدش العمل الأدبي. فأنا عندما قمتُ بكتابة روايتي الأولى، اعتمدتُ فيها على ذكريات الطفولة، وكانت القصة تدور حول فتاة يافعة تعرضت للاغتصاب من طرف والدها السلفي المتطرّف الذي كان يعاني من عقدة نفسيّة عاطفيّة إلخ.

صحيح أن هذه القصة غير واقعيّة وأن هذه الفتاة لا وجود لها، ولكنّها في الآن ذاته تجسّد نماذجاً من المجتمع وبالضبط آنذاك حيث كان تعرف المدينة التي أتيت منها صعوداً للسلفيين وذلك تحديداً في ثمانينات القرن الماضي وظلّت تلك المرحلة عالقة في ذاكرتي. فأنا قمتُ إذاً بالاعتماد على ما عايشتُهُ في فترة من فترات حياتي وأخيط به نصاً جديداً. إذاً، يمكننا القول أن هناك نصيب من الوقائع المعاشة، ولست متأكداً إن كان هذا التعبير ممكناً، وكلّ ما فعلته أنا يمكن أن نسمّيه إعطاء الواقع لمسة أسطوريّة مع إضفاء شيء من الجماليّة.

أنا أتفق مع إدريس في حديثه عن هدف «المتعة» أو ما يمكننا تسميتهُ «شهادة شخصيّة ذاتيّة» إن صح التعبير، ولكننا لا يمكننا إغفال أن الكتابة تخضع لاستراتيجية خاصة وأن العمل لابد وأن يُكتب بطريقة فنّية، فلا يمكننا التضحية بالأسلوب أو بالجانب الجمَالي في سبيل السرد الدقيق لقصة حدثت بالفعل. فأنا قد اطّلعتُ على دراسات أُجريَت على روايات «بالزاك» و«زولا» تتحرّى ما إن كانت الفنادق والعناوين التي يذكرونها موجودة بالفعل، ولكن ما الفائدة من معرفة هذا ؟ فالجانب الجمَالي يسودُ ليس فقط في الروايات التاريخية والاجتماعية فحسب، فنحن موجودون أيضاً في مكان ما في النص، كما أننا موجودون في مكان ما في الخيال.

زهر الدين الطيّبي

دائماً في إطار نفس الموضوع، سنمرّ إلى صديقنا الروائي عبد الله بيضا، واسمحوا لي أن أعطيكم نبذة عن أهم أعماله. من منشوراته «أصوات خير الدين» سنة 2007، وأصدر بعدها كتباً عن الأدب المغربي باللغة الفرنسيّة سنة 2011، ثم أصدر رواية «القفزة الأخيرة» سنة 2014. حصل على جائزة الأطلس الكبير ومن بعدها أصدر روايات أخرى.

عبد الله بيضا

سنتطرّق إلى تجربة الحدود وعلاقتها بالإبداع الفني والأدبي بشكل عام. وهنا، تطرح الإشكالية بين الواقع والخيال لأنه ولوهلة، يمكن للمرء أن يظن أن الأهم هو إعادة إنتاج الواقع وتقديم العصارة المُنمّقة للمشاهدين والقراء، ولكن أؤمن بأن هذا ليس شرطاً في الإبداع، وإنما الأساسي هو تلاعب الكاتب بالكلمات. فمثلما للرسام ألوان، فللكاتب كلمات بصرف النظر عن الواقع. فنحن نأخذ هذه المادة الخام، أي الكلمات، ونصنع بواسطتها عملا أدبيّاً مسترشدين في ذلك بالخيال وفي نفس الوقت مُستهدين بالواقع المُعاش. وهنا بالضبط يكمن لبّ الموضوع، فالكلمات التي نستعملها تحمل بالتأكيد نصيبها من الحقيقة نظراً لأنها مُعبّأة مسبقاً بالمعاني ولا يمكننا نحن اختراعها، ولكن من زاوية أخرى، يكمن الاختلاق بهدف إعطاء المعاني أبعاداً أخرى حتى لا نقع في تكرار ما تمّ القيام به من قبل، كأن نغيّر ترتيب الكلمات مثلا. وهنا تحضرني مقولة «لمحمد خير الدين» فيما معناها أن «الكلمة فخ إن وقعت في شراكها، لن تفلت منها أبدا». أما في بعض الأحيان، فتكون الكلمة على وجه التحديد من بين الذرائع أو الأمور التي تدعو للتأمّل، فالروايات مساحاتٌ للتدبّر أيضاً.

أما بخصوص روايتي الأخيرة «اسم كلب»، فما يسعني أن أقول عنها هو أنه عندما يسمع المرء عبارة «ابن كلب» لابد وأن يهتز في كيانه شيء ما، ولاحظتُ هذا كثيراً أثناء عرض الكتاب. رأيتُ نظرات الجمهور ولاحظتُ ردود أفعالهم كلّما تفوّهتُ بعبارة «ابن كلب» أو حتى «كلب». تهتزّ الخواطر عند سماع هذه الكلمة، هذا وبالرغم من أنها كلمة موجودة في الواقع وتحيل على شيء يوجد في الواقع، ولكن لم أولي هذا الأمر اهتماماً كبيراً. ما كان يهمّني هو العودة دائماً للوقوف عند الكلمة والتساؤل حول اللغة. لماذا هذه الكلمة تحمل هذا الوقع الذي يوحي بأنها إهانة عند سماعها ؟ يتضحُ أن هنالك رغبة في الاستفسار حول اللغة والتسمية وفي نفس الوقت حول التراث الذي ينتقل إلينا عبر الكلمات أيضاً. فكلمة «كلب» في مجتمعنا اكتَسَت تدريجيّاً معنى معيّناً يختلف عمّا تحيل إليه في الأساس.

هنا تتّسع الفجوة بين اللغة والواقع، وهي فجوة أساسُها الخيال، لأن الكلمة، سواء كلمة «كلب» أو غيرها، يوجد لها معنى لا أساس له من الواقع في أذهاننا. يمكننا القول إن هذا هو فخ الكلمات الذي تحدث عنه خير الدين، ولكن بالنسبة لي يمكن وصف هذا بالرغبة في مُساءلة التراث، لأنه في رواية «اسم كلب»، يتعلّقُ الأمر بشخصية اسمها إدريس ابن كلب. سينجب إدريس طفلا، وستتعقد الأمور مع زوجته ليندا التي كيف لها أن تقبل تبديل اسمها العائلي بهذا الاسم المحمّل بالمعاني الازدرائيّة، ثم يذهب إدريس لمصلحة السجل المدني مطالباً بإجراء تغيير اللقب إلا أنه طلب منه أولا إثبات أن امتلاكه لهذا الاسم يؤثر سلباً على حياته، ومن هنا تبدأ الحكاية وتبدأ رحلته في اكتشاف الكثير من دلالات هذه الكلمة الصغيرة في مجتمعات متعددة، معيداً بذلك النظر في الموروث الثقافي ومراجعته وهو متعطّش للوصول إلى حل أو تفسير، لتصبح في النهاية هذه المساءلة هي أهم ما في القصة، فليس المهم رفض هذا الموروث ولا حتى تغييره، بل المهم هو الوقوف عنده والاستفسار حوله.

زهر الدين الطيبي

أعطي الآن الكلمة للحضُور الكريم. يمكنكم توجيه أسئلتكُم إلى السيد إدريس كسيكس والسيد منير سرحاني الذي هو الآخر شاعر صدرت له ثلاثة دواوين شعريّة، كما يترجم للعديد من الشعراء المغاربة، ومن مقالاته : «الإسلام تحت خطر التفسير». لكم الكلمة أيّها الحضور الكريم.

مداخلة

هذا الوصف الذي أعطيتموه للكاتب «tricheur» يبقى اختياراً فحسب ما دامت المداخلات كلها ارتكزت على الحدود بين الحقيقة والخيال في مجال الإبدا ع الأدبي بصفة عامة أو من الجانب الفنّي. إن هذا لموضوع مهم، كما أنه قد أكل عليه الدهر وشرب. فكما قال البحتري : «أجمل الشعر أكذبه»، فالكاتب أو الشاعر أو المبدع بصفة عامة لا يمكن أن ينسج مؤلفه شعراً كان أم مسرحية أم رواية دون أن يعتمد على الواقع الذي يعيشه ودون أن يعتمد على الثقافة التي تنفس فيها وترعرع فيها، ودون أن يستحضر تفاصيل حياته اليومية التي يعيشها، وبالتالي فالأمر أشبهُ بالمخترع الذي يستطيع أن يرى العلاقة بين الأشياء التي لم يستطع الآخرون أن ينتبهوا إليها، فهنا تتمازج الحقيقة والخيال ولكن بطريقة ذكية فنية دقيقة تجعل منهُ مبدعاً.

مداخلة

لقد تساءلتُم حول العلاقة بين المؤرخ والكاتب من خلال الإشارة إلى مصداقيّة المؤرخ. أنا لستُ بمؤرخة، ولكنني أرى أن إشكالية الحقيقة والخيَال في كل الحالات تطرحُ على مستويين. فمثلا فيما يتعلّقُ بكتب التاريخ المدرسيّة، تختفي واحدة وتعوّضها أخرى، معناه أن المؤرخ أيضاً يبني ويعيد من جديد بناء التاريخ.

مداخلة

أردتُ بدايةً أن أعبّر لكم عن فخري واعتزازي بتواجد ثلاثة من كُتابي المفضّلين على المنصّة. ثم أردت أن أتحدث عن قوة الكلمة، فمعلوم أن وقع الكلمة ومعناها يتباين من اللغة العربية إلى لغات أخرى، وتتفاوت حدّته بين المؤنث والمذكّر. فمثلا، كلمة «كلبة» أسوء بكثير من كلمة «كلب» وهذه النقطة لها أهمّية بالغة في هذا الشأن.

زهر الدين الطيّبي

بما أننا نتحدّث عن الواقع، فأنا أرى أن الكتابة هي عمليّة تحويل وتفسير لهذا الواقع. وهذا الواقع قد ألمح فيه أنا ما لا تراهُ أنت.

لذا، فالخيالُ حاضرٌ بقوّة ما دامت هناك شخصيّة ابتدعها الكاتب وصنّفها في مكانة اجتماعيّة معيّنة وأظهر لنا منها ما أراد وحجب عنّا عنها ما حجَب. فالصبغة الذاتية للكاتب تبقى حاضرة وبقوّة هنا. وأنا حقّاً أتمنى لو أن هناك كاتبات نساء معنا ليشاركننا مواقفهن إزاء هذا الواقع وأساليبهم في تحويلهم له عندما يكتُبن. لذلك فمن الصعب الحديث عن الذاتية بطريقة جافّة، نظراً لأن هناك حياة برُمّتها متخفية في هيئة كلمات، ومع مشكل صعوبة فهمها، على النساء أن يعرفن كيفية تأويلها.

مداخلة

حسب فهمي، فرواية «مضيق أفيروس» هي رواية سياسية، أليس كذلك ؟ سؤالي هو، لماذا قد يلجأ المرء للرواية السياسية في حين أنه بإمكانه الدفاع عن توجهاته السياسية في مقال ؟

مداخلة

تتباين حّدة عبارة «ابن كلب» من لغة إلى أخرى. فنحن عندما نمُرّ من كلمة إلى مقابلها في لغة أخرى نلحظُ أن الترجمة لا تؤدي المعنى بشكل دقيق. إنه لمن المثير للاهتمام حقاً التمعّن في عملية الانتقال من اللغة الأم التي تقرن عبارة «ابن كلب» بالسبّ إلى اللغة الفرنسيّة قصد تلطيف الكلمة وجعلها تبدو لائقة عند استعمالها.

مداخلة

لقد أجبنَا عن هذه الأسئلة في كتاب من إشراف عبد الله بيضا، حيث طرح المؤلفان إشكالية كيفية الكتابة بين الواقع والخيال، وتحدّث كلاهُما عن الموضوع مع تدبّرهما في الجانب الخيالي في أي عمَل.

مداخلة

شكرا على هذه المداخلات القيّمة. إن هدفي بالأحرى هو القيام بتوضيح يتعلق بسكان الحدود الذين ينتابهم الحزن والكآبة والذين يتجاوزان الواقع والخيال، لأن هؤلاء السكان ليسوا إلا ضحايا مأساة يتحمل مسؤوليتها كلا الشعبين الشقيقين. إذ أن الحدود لا تزال مغلقة منذ عدة سنوات، ولا يتم فتحها إلا لفترات قصيرة، الأمر الذي يؤثر على كِلا الشعبين. ومن جهة أخرى، نجد أن الكاتب، أو أي شخص يعري هذه الحقيقة، وهذا ما يقوم به الكُتاب والناس الشرفاء والعلماء في عديد من البلدان، تتم محاسبتهم أو اعتقالهم. إنه لأمر يندى له الجبين، لأن العلماء والمفكرين هم أساس الدولة، وركيزة الشعب وأساس التنمية.

زهر الدين الطيبي

على أي، إنه لمن الصعب القيام بالترجمة عندما ننتقل من السياسة إلى الأدب، كما أن مناقشة هذا الإسقاط على أرض الواقع أمرٌ صعب أيضاً، وبالخصوص في جهة الشرق. وقد تحدثنا للتو عن مشكلة الحدود بين المغرب والجزائر، وهما بلدان شقيقان تربطهما الدماء واللغة والثقافة والتاريخ والجغرافيا... في حين أن هناك العديد من البلدان الأوروبية، رغم اختلافها في كثير من الأمور، تمكنت من الاتحاد. إننا نعاني معاً، لكن كُتّابنا حاولوا إعطاء دفعة جديدة بواسطة هذا الإبداع والأدب. اسمحوا لي الآن أن أمرر الكلمة للسيد عبد الله بيضا، وبعد ذلك يتفضل السيد منير سرحاني بأخذ الكلمة ومن بعده السيد ادريس كسيكس.

عبد الله بيضا

لقد تطرقنا إلى مسألة كون الكاتب مثله مثل الخائن، أو لص المواقف والحقائق وما إلى ذلك. إذ يمكن لهذا الأخير أن يبدلها أو يغيرها. كما أنه خائن، لأنه يفشي أسرار الآخرين، ويمكن القول أيضا أنه مثل بهلوان الحبال، لأنه كمن يلعب فوق حبل مشدود مُكوّن من عنصرين : واقعي من طرف وخيالي من الطرف الآخر.

لم أكن على دراية بهذا، لكن بعد أن فسر قاسم لاحقا الأمر بطريقته، تساءلت حول آلية العمل هذه، بدءاً من الواقع، إذ كلما توغلنا في القصة، ابتعدنا واقتربنا إلى الخيال. اعتقدت في البداية أننا ربما في حاجة إلى قاعدة أساسية من أجل خلق عالم رومانسي، ثمّ أخذت شخصية «سي عالم» بعضاً من مكونات حياتي الشخصية لتصبح بعد ذلك شخصية خيالية، وهنا كانت نقطة البداية.

مروراً إلى نقطة أخرى وهي متعلّقة بالإبداع أو المبدع، وبالتلقي أيضاً. إن الرؤية التي يمكن أن يكون لها حدود بين الواقع والخيال تكون متفاوتة جداً إذا كان الأمر يتعلق بالكاتب أو المتلقي. فبالنسبة للمتلقي، فأنه يأخُذُ النص بكل حمولته ومراجِعِه الثقافية ورؤيته الكاملة للعالم، وبالتالي يمكن له القيام بعملية الفرز في كل مرة. ومن جهة أخرى، تطرق إدريس إلى مفهوم آخر ذي أهمية كبيرة ألا وهو مفهوم المتعة. فعلى سبيل المثال لماذا كتابة رواية في موضوع معين ؟ ولماذا ليس مقالة اجتماعية ؟ لقد حصلت على نصيبي منذ أن قمت بنشر المقالات والروايات، واكتشفت أن المتعة أكثر في الخيال، أي في كتابة الخيال، وهو اكتشاف لا حدود له من أجل الكتابة، إذ بإمكانك التعبير بدون حدود أو قيود كما أنه يخول لك المتعة. أما بالنسبة للأسئلة الأخرى : كيف نكتب ؟ ماذا نكتب ؟ ما هو الموضوع المفضل للكتابة ؟ ما هو الواقعي أو الخيالي والعلاقة بينهما ؟ فإن بعض الكتاب المغاربة قد تطرقوا إليها، بالإضافة أن لكل شخص طريقته في التحدث عن هذه التجربة.

منير سرحاني

سأجيبك. صحيح أن الكاتب يعطي المعنى الأول للكتابة على غرار تفاصيل الحياة اليومية، لكن الكتابة هي فعل انفرادي يخوّل للكاتب هذه الإمكانية، إلى جانب قدرته على الابتعاد عما هو واقعي لبرهة من أجل إعادة كتابته، وأعتقد أنه في تلك اللحظة، ينتقل إلى مرحلة ودرجة آخرين، إلى درجة أنه يكسر الحدود بين الواقع والخيال بشكل نهائي. وهنا راودتني قصة النحات الذي أعجب كثيرا بأعماله الفنية. وهذا يدل على أنه وقع في فخ الخيال الذي باتَ يبدو كالواقع. ولا شك في أننا نميل إلى اعتبار الخيال على أنه كذب رومانسي، لنفترض أنها حقيقة تاريخية، لكن النقطة المشتركة، كما قلت سابقاً، والتي تغير كل شيء، هي الكتابة. وكما قال الأستاذ الشرايبي «كثرة الكلمات تبرز في الحد اللغوي للترجمة».

فنحن نقول مثلا بالفرنسية «ça me réchauffe le cœur» عندما نتلقى خبراً سعيداً، لكن في العربية نقول عكس ذلك تماما : «هذا الخبر أثلج صدري». إنها إذاً مسألة ثقافة، لهذا تستعصي ترجمتها كما هي لكونها لن تؤدّي المعنى في اللغة الفرنسية. لذلك، تذكرت حينها ابن رشد الذي اعتبر التقاليد المرفقة بنصوص الآخر المقدسة، عن الجزاء والعقاب، أنها مثل الاستعارات، بعيدة كل البعد عن البيانات الجغرافية والثقافية عمُوماً. وعلى سبيل المثال نذكُر نصّاً لنجيب محفوظ لا يمكن ترجمته لما يحمله من عبارات متكررة لكن ذات معنى مختلف. إنها تنطوي على قابلية ثقافية.

أعتقدُ أن هذه الحدود تكون غير مرئيّة أحياناً. لقد تحدثت «بوخريص» عن الكاتب كونه خائن وكذاب، بمعنى أنه يخلق الشخصيات، ونحن نصدّقُ أنها موجودة فعلا ونتحدث عنها بحُب...هناك إذاً عملية تعريف الذات ككاتب. وأنا أؤمن بها غيرة على نصوصنا، فعلى سبيل المثال، عندما كتبت روايتي الأولى، عشت في جو من الأصولية : أب يغتصب ابنته! هذا المشهد، وهذه مشكلة الكتابة بالفعل، كان يجب أن يكون مشهداً جمالياً لا إباحيّاً.

وعندما شرعت في كتابة روايتي الثانية بعنوان «Le Hangar»، كان الأمر مغايراً : إذ أن أحداث هذه الرواية كانت تحُوم حول شخص مصاب بجنون العظمة ومهووس بتجميع اللوحات الفنية وعشقه الجنُوني لها. حيث تختزل حياته في جمع الآلاف المؤلّفَة من اللوحات الفنية في مخزنه : إنها حالة مرَضيّة. بعدها مررت إلى شخصية أخرى ناسياً فاطمة الزهراء، الشخصية الأنثوية، التي عانيت معها وعانت معي. عندما وقعت على روايتي الأولى، أردت تلقي الأسئلة حول روايتي الثانية، لأنني تركتُها نفسيا. الآن أريد أن أنسى كلاهما حتى أتمكن من الشروع في عمل أدبي آخر جديد.

ادريس كسيكس

يتواجدُ هنا في الغرفة أربعة مُحللين نفسانيين... صراحة يجب على المرء ألا يكون واقعيا. إن السؤال المطروح اليوم ليس حول الاختلافات، لأننا لا نعاني منه. أما في الكتابة فنحن أمام بنية استطرادية، حتى وإن كنا نؤمن بالأدب الواقعي والتقديم الحقيقي، فإننا نظل دوما أمام هذه البنية. وعليه، لابد من تغيير هذا الوضع. فمن جهة أخرى، حتى المؤرخون، بصرف النظر عن أولئك الذين درسوا في مدرسة الحوليات، والذين يؤمنون بعلم التاريخ ويرغبون في فصل التاريخ عن الأدب، رجعوا إلى العلوم الاجتماعية بفضل الأنثروبولوجيا ليفهموا أن التاريخ نفسه بنية استطرادية. وهذا هو العنصر الأول والذي يكتسب أهمية كبيرة.

أما العنصر الثاني الذي ينضاف إلى تراثنا الثقافي هو ذلك العنصر الذي تحمله الأساطير في طياتها للأسف، والذي انتقل إلى الواقع. فعلى سبيل المثال، حاول أن تفسر لفقيه ما أن شخصية آدم هي شخصية مجازية، هيا حاول ذلك. سيتطلب منك ذلك وقتا طويلا. ولهذا، أعتقد أيضا أنه يجب علينا أن ندرك أننا خرجنا من السذاجة، على غرار اختلاف لا وجود له، وعلى عكس موروث من الأساطير التي نقلناها إلى الواقع. فتلك كانت نقطة البداية.

أما الأمر الثاني الذي أريد أن أحدثكم عنه وهو أن الكاتب لا يمكن له التظاهر بأي شيء. إننا نقوم بمحاولات الكتابة طوال الوقت وبشكل دائم، لكن المهم هو عندما نعمل على «الهنا» و«الآن»، وهذا لا يعني أننا لا نملك مرآة معاكسة. تحضرني هنا مقولة محبّبة لديّ لـ «والتر بنجامين» يقول فيها : «*يستحضر الكاتب التاريخ من أجل الإشارة إلى لحظات الخطر*»، أي أنه لا يستحضره من أجل أن يروي قصة ما، بل يستحضره لأن هناك لحظات خطر. شخصياً، إن تذكرت ابن رشد، فمن المحتمل أن ذلك أحالني إلى السؤال الذي طرحته صديقتي زكية. يقول المؤرخ «باتريك بوشيرون»، وهو ليس بمؤرّخ ولكنه شغوف بالأدب، «*لا يمكننا الهروب من قوة الكذبة الرومانسية المُغرية، التي لا يمكن ردعها*». إنها تغريني بدوري أنا أيضا، لأنني لا أسعى إلى كتابة نص سياسي، وإنما إلى نص شعريّ حول السياسة. هذا هو طموحي الصغير. ليس من المفروض علي أن أدافع عن قضية معينة، بل يجب أن أهمس في أذن القارئ : ليس لدي ما أكتبه حول السياسية، وهذا هو ادعائي الوحيد.

والآن، سأخبركم شيئا آخر، وهي طريقة أخرى لأقول لكم «لا تكونوا سُذجا»، لأننا نعيش اليوم في زمن «الحقيقة المزيفة»، و«الحقائق البديلة». زمنٌ يتم فيه صُنع الواقع بواسطة الصّورة. لا أدري من يسبق الآخر هل الصورة أم الواقع، لكننا بالكاد في تهافُت على سؤال من سيسبق الآخر : صنع الواقع أم الواقع نفسه، ولهذا عندما نجد أنفسنا في هذا الواقع، يجب أن نطرح السؤال الآتي : ماذا سنصنع ؟ ماذا سنكتب ؟ ربّما هذا هو المكان الذي تبحث فيه عما تحاول أن تشهد به على كل ما يخرج من هناك... ربما نعيش في مرحلة لتأسيس ثورة لا نقدر فيها على إدراك الخصوصيات والعموميات، بالإضافة إلى كوننا شاهدون على عصر حقيقي على محكّ الاندثار، ومتغير بسرعة مهولة. أعتقد أن هذا المفهوم موجود أيضاً.

أمّا فيما يتعلق بسُؤال المؤرخين والكتب المدرسية التاريخية، فنحن عندما نقرأ كتابا في التاريخ، نجد أنفسنا أمام قضايا السياسة الوطنية والأساطير، والبناء... وهذا شيء آخر. ومن جهة أخرى، أود الإشارة إلى قول الكاتب صسفيتلانا أليكسيفيتش»، الحائز على جائزة نوبل للأدب في عام 2015، والذي عمل في تشرنوبيل، «أدّعي رغبتي في نحت حقبة». إن ما لا يستطيع المؤرخون فعله هو فهم الأسباب والعواطف والعقلية والتجربة الإنسانية : هذا ما لا يستطيعُ المؤرخون فعله ؛ وهذا ما يمكن أن يدعي المرء أنه يقوم به في الأدب. كما تمّ طرح سؤال في غاية الأهمية وهو «*هل تعتبر كتابة النثر حول كوابيس القرن، تدنيسا للمقدسات* ؟»

يجب أن نصوّر الحقائق كما هي. كما أننا بحاجة إلى أدب يتجاوز الأدب. إنه الشاهد الذي يجب أن ينطق ولديك هناك جميع أعمال عبد الله الذي تحدث في وقت سابق عن هذا الترتيب. بحيث أنّ ما يقوم به الكاتب هو إعادة ترتيب الكلمات وإعادة ترتيب تمثلات الحقيقة. لقد اشتغل وجعل الناس يتكلمون، ثم بعدئذ جعل من الأدب حقيقة تجمع بين الكُل.

كنقطة أخيرة : أود أن أتقاسمها وإيّاكُم سراً يخص قضية المغرب والجزائر، والتي يقلقني شخصياً. فأنا أحلم بأن أنجز عملا مسرحيّاً وأن ألقي في حانة صغيرة، أو في متاهة، الروائيان ياسين ومحمد خير الدين وجعلهما يتحدثان عن بلديهما، ورغباتهما وعن الأدب كذلك. أرغب في أن تتبادل هاتان الشخصيتان البارزتان في الأدب أطراف الحديث على طاولة الإنسانية. فلابد من أن نضع الانتماءات جانباً ونفكر في الإنسان أولاً.

زهر الدين الطيّبي

في إطار إعادة بناء التاريخ وإسقاطه على المستقبل، وفي إطار إشكاليتنا، أشكركم وأشكر أيضاً إدريس كسيكس ومنير سرحاني وصديقي عبد الله بيضا.

رئيس الجلسة : عبد اللـه الترابي

المشاركون : محمد ندالي، يوسف أمين العلمي، محمد الناجي، موحى سواك، جليل بناني، ادريس الكراوي، رشيد خالص

فضاء : ليوبولد سيدار سنڭور

التاريخ : يوم الجمعة 22 شتنبر 2017

الساعة : 15 : 00 - 16 : 30

موجز مداخلات المائدة المستديرة

شارك ثلة من الأدباء والمفكرين والكتاب في مائدة مستديرة لمناقشة موضوع : الثقافة المغربية وتطورها عبر مختلف السياقات التاريخية : من مغرب الأمس إلى مغرب اليوم، حيث عرفت هذه المائدة نقاشا واسعاً وبناءً بحضور رجالات الفكر والأدب وكذلك بعض الشخصيات المهتمة بالموضوع، منهم ادريس الكراوي، محمد ندالي، يوسف أمين العلمي، محمد الناجي، موحى سواك ورشيد خالص، بالإضافة إلى الصحافي والكاتب عبد اللـه ترابي، المشرف على هذه المائدة المستديرة.

حسب مداخلات المشاركين، فإن مغاربة الأمس يحنون إلى ماضي ثقافتهم، كذلك الذي يحن لصورة ثابتة عالقة، لا تبرح أبدا مخيلته وذاكرته، يحتمي بها داخل بيئة قاسية تتنكر للتراث المغربي الأصلي الغني بثقافته. رغم أنه زاخر بالرموز الراسخة في عمق هذه الثقافة.

انطلاقا من هذا المعطى، كان من الطبيعي أن يظهر ارتباط المغاربة بأساليب التراث وأشكاله التقليدية كحقيقة مكتسبة تظل في الأخير طبيعية.
ولكن انطلاقا من تدخل أحد المشاركين، يظهر أن المغرب في الوقت الراهن يمنح فرصا مميزة للأجيال الجديدة التي تواجه تحديات إنتاجيات التكنولوجيات الحديثة من خلال ممارسات ثقافية أخرى، بدون صلة تذكر مع الثقافة المغربية الأصيلة. كما أضاف ذات المتدخل بأن هذه الأجيال تفضل ربما بشكل مبالغ فيه الأعمال الصادرة في أوروبا، سواء باللغة العربية أو اللغة الفرنسية.
فإما أن تجد هذه الأجيال في ثقافة أجدادها ما تستسيغه ذائقتها المعاصرة، فعندها تتبناه، وتساهم في إلباسه لبوس المعاصرة، وإما أن تستهجن هذه الثقافة فتزج بها في عداد الثقافات البائدة التي لا تقوى على المقاومة والمنافسة.

لقد أثبتت الحوارات المباشرة والنقاشات الجماعية المطولة، أن الثقافة المغربية لها أسس تليدة وجذور عميقة في الزمان والمكان أكسبتها حضورًا تاريخيًا يبرز عمق جذورها وديناميتها وأسسها التي اعتمدت عليها منذ قرون خلت. كما أن أصالتها قد تكون نابعة من قدرتها على دمج ومزج العديد من المكونات الثقافية المختلفة في المنطقة المتوسطية على مدى قرون. وقد أكد المشاركون على ضرورة الحفاظ على هذه الروح، والتي تتجسد في مجموعة من الأفكار والقيم والسلوكيات والممارسات سواء كانت إرادية أو عفوية، والتي قد يستشعرها المغاربة سواء في حاضرهم كما في مستقبلهم.
لقد أكدت المناقشات المباشرة والمباحثات الجماعية الطويلة أن الثقافة المغربية لها أسس عريقة وجذور عميقة في الزمان والمكان، مما أكسبها حضورًا تاريخيًا، يؤكد تجذرها وديناميتها وأسسها التي قامت عليها لقرون عدة. وتتجلى أصالتها وتفردها في قدرتها على دمج العديد من المكونات الثقافية المتوسطية المتكاملة على مدى القرون.
وأكد المشاركون على ضرورة الحفاظ عليها، أفكارا وقيما، ومواجهة الأساليب والسلوكيات والممارسات، الإرادية أو العفوية، التي قد تمس المغاربة حاضرا ومستقبلا.

منير سرحاني

سوف نعالج موضوع الساعة وهو «كيف أعيش في مغرب اليوم»، ليس من وجهة نظر سياسية ولكن من وجهة نظر تهمنا أكثر وهي البعد الثقافي، سنتحدث عن المغرب وحضوره في الأدب... وأعطي الكلمة إلى السيد موحا سواك.

موحى سواك

لنبدأ بالمغرب السياسي، ثم نذهب إلى المغرب الثقافي. حسناً، إنه موضوع مستفيض، لأنه لا يمكننا تلخيص المغرب في بضع دقائق، بالنظر إلى أوجهه المتعددة. وعموما لا أستطيع التحدث عن بلد بدون وثائق موضوعية، وخاصة عن بلد كالمغرب، بمعطياته المركبة والمتداخلة. لذا، ما سنناقشه هو مجموعة من الانطباعات والآراء.
أريد أن أقول إن المغرب اليوم هو أنا وأنت وهو، كل منا جزء من المغرب. لنحلل وضع المغرب من وجهة نظر الكاتب والمشاكل التي يعيشها الكاتب في المغرب، والتي ربما قد تحجب الرؤية عن المغرب. لأن نأخذ الجانب السياسي بشكل عام أو أن نعالج مشكلة سياسية، من منظور حزبي، ستكون ربما وجهة نظري إذا كنت أنتمي إلى حزب سياسي. ومن وجهة النظر الاقتصادية، كوني مدرس متقاعد، وأتحمل مصاريف ولدين عاطلين عن العمل، سيكون من الصعب جداً بالنسبة لي إعطاء صورة اقتصادية للمغرب.
لذا، فلا أستطيع قول أي شيء، على الرغم من أن الوضع الحالي في المغرب بالنسبة لجيلي يطرح الكثير من المشاكل، وكما لو أننا نحاول الرجوع إلى نهاية عهد الملك الراحل الحسن الثاني، أي أنها فترة عصيبة، فترة استقالت خلالها الأحزاب السياسية عن أداء أدوارها، في الوقت الذي كان يتعين عليها تأطير الأحداث السياسية. وانطلاقا من تجربتي على مستوى الجمعيات الثقافية، أرى أن الوضع كارثي.
عشت مع جيلي نشاطا ثقافيا كثيفا، وكان ذلك بالنسبة لي في قصر السوق، الرشيدية حاليا، وكان في هذه المدينة الصغيرة ثلاث نوادي سينمائية، ومجموعات مسرحية، وقاعة للسينما والتي كانت تقدم أحسن الأفلام، أما اليوم لا يوجد أي شيء في هذه المدينة على الإطلاق، وسوف لن أقدم صورة تشاؤمية عما يجري، لأنه في الواقع، ما أراه اليوم هو أن جودة الأنشطة الثقافية آخذة في الانهيار، ومن وجهة نظر سياسية، يظهر خلال الانتخابات أن العديد من الناس قد انسحبوا وسيتطلب الأمر تجديدا للأفكار للنقاش السياسي من أجل تحريك العجلة.

خالص رشيد

يبدو أن عنوان الموضوع خاطئ، أي نعم، لأنه السؤال ببساطة يتعلق بمغرب ثابت بينما هو في دينامية مستمرة. بالنسبة لي، يكاد يكون مستحيلاً تعريف بلد يتجاوزك، ولكن من باب تيسير الأمور، يمكننا التركيز على أنفسنا حتى لا نُصدر عليه أحكاما، وإنما لكي نحاول رسم معالمه. نحن لا نقوم بالتصوير الفوتوغرافي للبلد، مما يعني أننا لسنا بالضرورة في صورة حقيقية ودقيقة ولكن الأمر يتعلق ببساطة بالتصور والتمثل وفي نهاية المطاف بصورة مجازية. يمكننا تحديد بلد ما بلغته، لكن في المغرب نتحدث العربية والأمازيغية، كما نتحدث لغات متعددة، بالنظر إلى المناطق التي نتحدث بها الفرنسية أو الإسبانية أو الإنجليزية... وهذا التنوع اللغوي لا يمكنه وحده تعريف البلد.
يُمكننا أيضا تعريفه بالانتماء، غير أننا نلاحظ أننا مزيج من العرب والأمازيغ، مع انتماءات يهودية وإفريقية وأجنبية بالمعنى الإيجابي، كما يُمكن تعريفه بالحدود الرسمية، علما أننا نعلم أن المرء يمكنه السفر وهو باق في منزله، لقد أصبح العالم اليوم مفتوحا وتغيرت تلك الحدود، بل وقد عفا عليها الدهر.

لدينا اليوم مجتمعات مغربية في جميع أنحاء العالم، ومفهوم الحدود لا يصمد أمام هذه الرؤية الأحادية التي يمكن أن تتوقف عند تلك الحدود نفسها. لذا، أعتقد أن أفضل طريقة لتعريف بلد مثل بلدنا هو ببساطة تعريفه من خلال تنوعه ؛ المغرب هو ذلك المزيج والتنوع. لا يتعلق الأمر بكيان ذي حدود، وبما أنه لا يوجد شيء معتاد يمكن أن يعرف هذا البلد، فمن الأكيد أن رجاله ونسائه هم من يستطيعون تعريفه بشكل أفضل. إذا كان السؤال اليوم يتعلق بسكان البلد، وهويتهم، فأنا أفضل أن يتم ذلك بالنظر إلى السياق الذي نعيش فيه في الداخل، مع وجود أزمة اجتماعية عميقة جدًا، ومع الثورات التي قد تنطلق في وقت قريب، وكذلك على الصعيد العالمي، بالنظر إلى خطر الفكر الظلامي. ومن المهم جدا بالنسبة لي عدم تحديد الهوية، فأنا أفضل الهويات الانتقالية، لأن تحديد الهوية هو محاولة لتجميدها نهائياً، وهو هراء يشكل أكبر خطر لأن أطفال الهوية ببساطة يولد جيلا متعصبا للهوية، وكراهية الآخر والإهانة. نحن اليوم في مرحلة نتواجد خلالها في رقعة جذورها في قارة أفريقيا، ونتطلع أيضًا إلى أوروبا، وإلى الآخر، كما إلى آسيا وأمريكا، لأننا نتوفر على واجهتين بشريتين، و ليست هذه صورة مكانيَّة وجغرافية خفية على الإطلاق.

نحن نتطلع إلى الآخر وربما تكون طريقة لنعرف أنفسنا اليوم ككيان وطني. دعونا لا ننسى البعد الإنساني العالمي، لأن ما يجمعنا اليوم ، مغاربة أصلا أو اكتسابا أو أجانب في هذا البلد، هو حوار الثقافات المتساوية، غير أننا نرى في كل مكان في العالم تقريبًا مصادمات ومظاهر توتر، من جانب الغرب، ولكن أيضًا من جانب العالم الإسلامي، مع هذا الوهم المتمثل في الرغبة في استعادة مملكة عذراء وأسلمة العالم.

من الواضح أن مثل هذه الصورة لا تسمح بحوار هادئ، غير أنه، وكما تفضلت مها في وقت سابق، الأمر يتعلق بالعالم الغربي والعالم الإسلامي. ففي القرون الوسطى، كان هناك حوار وتبادل باطني وغامض، ولكن كانت هناك أيضا تبادلات صريحة وتعاون مخلص مع دول أخرى وهذا ما أنتج مغرب اليوم حيث نعيش وكما نعرفه اليوم، مغرب متسامح، مغرب يقبل تنوع مكوناته.

عن كل هذه الملاحظات التي قدمت، أريد أن أقول إن ما أتذكره لا يشكل وحدة متجانس وأنه يجب بذل جهد من جميع الجوانب داخل نفس الكيان الوطني. نحن لحد الآن رعايا ولسنا مواطنين. يجب أن نعمل في هذا الاتجاه لأننا نواجه فوارق يجب كبحها : أربعة آلاف أسرة تمتلك ثروة البلد غني بموارده، مما يخلق توترا بين مكوناته. في الواقع ، يجب أن نبذل جهداً للتقدم نحو توافق اجتماعي، سأقوم بتعريفه بكل بساطة : قد يكون من الضروري التصرف بتناغم مع الذات، أي بما يتوافق مع ما هو جميل وما هو قبيح. الكل جميل، وفي كل شخص جمال، ومن أجل الارتقاء أخلاقيا في علاقتنا مع الآخر، يجب علينا أن نُمضي فورا للعمل وأن نتوقف عن إلقاء الخطب. وبمجرد أن يبدأ المرء بإلقاء الخطب، يبدأ بإصدار أحكام على الآخر، وتظهر رغبة في التدخل في حياته وتوجيه مصيره، فتسوء الأمور. الاحترام الحقيقي هو ببساطة التوافق دون تأخير، والترحيب بالآخر، وببساطة عدم إبداء أي تعليق. الحياة ستكون أسهل بكثير على هذا النحو. أعتقد أن الثقافة عموما، و الأدب على وجه الخصوص، قد قامت بهذا العمل.لم تفعل بذلك بشكل يتطلب التأثير سلوك بعضنا البعض، ولكن قامت به وفقا لهويته الخاصة، وبحرية مطلقة. لدينا اليوم أدب يمثله الكثير من الناس بالطرق الأكثر تحررا، مثل بعض الكتاب على هذه المنصة، والبعض الآخر في القاعة، وما إلى ذلك. لدي قناعة تامة بأن اللعبة السياسية اليوم قد حُبكت، وقد تم الانتهاء منها، ومن أجل تغيير الإنسان على وجه التحديد، وإصلاح الرجل المغربي بمعنى الارتقاع الأخلاقي، يمكن للثقافة أن تلعب دورها تماما في هذا الصدد.

منير سرحاني

أردت أن أطمئن نفسي أولا، هل يُمكننا التحدث على الاستثناء أم لا ؟ هل يمكن للثقافة أن تنقذنا من عالم الاستثمار في السياسة ؟ السؤال الثالث : يتعلق بتصوير المغرب في الرواية، عند رشيد وموحا مثلا، نجد المغرب مصورا كفضاء، وكمكان للرحيل، فيما بعد نجد الشخصيات منفتحة على وجهات النظر الشاملة والإنسانية.

موحى سواك

لقد استمعت إلى ما قاله رشيد قبل قليل وأستطيع الإجابة عن بعض النقاط التي أثارها في مداخلته. لدي انطباع بأننا في المغرب في لحظة محورية في تاريخنا وهناك صراع بين التقاليد والحداثة، هو أمر بصدد الانتشار والتوسع. كان الحديث قبل قليل عن الأفكار الظلامية، ويشير هذا المصطلح عادة إلى أهل الدين. لكن الأمر لا يتعلق بالدين، إنها مسألة معطيات متجمعة وشاملة، إنها قضية ثقافة تريد البقاء في فضاء آمن : لا نريد أن نترك ما نعرفه وما نتمكن منه للذهاب إلى عالم لا نتحكم فيه، ولذلك نجد بعض التناقض في المغرب، نجد أشخاصًا يستخدمون الوسائل الحديثة والوسائل التكنولوجية المتقدمة، وفي الوقت نفسه لديهم عقلية متخلفة تمامًا.

هذا يظهر بشكل خاص على الإنترنت، عندما تقرأ تعليقات الناس، سواء تعلق الأمر بحقائق أو معلومات، وخاصة بظاهرة أصبحت حساسة في الوقت الراهن وهي قضية المرأة. فترى أنه كلما وقع حادث، يلوم البعض المرأة كما لو كانت النساء هن المسؤولات عما يحدث في المغرب من مصائب.

ولكن ما أعتقد أنه المصدر الحقيقي للأفكار الظلامية، هو عندما يتحدث شخص مغربي ليقول : «*حسنا، سأعطيك درسا*» ويبدأ شرح حديث أو آية قرآنية، لكنه في حقيقة الأمر يتكلم بأي كلام وفي غير تخصصه وتكوينه، قد يكون بناء أو خضارا أو فلاحًا، لكنه ينقل هذا الفكر الظلامي لأنه لا يمتلك أي مرجعية دينية، فتجد المتخصصين يقومون بأبحاث معمقة جدا حول بعض القضايا ولا يجدون حلولا، في حين يجرؤ أحدهم على إلقاء فتاوى. إن هذه الإديولوجية الظلامية تثير العديد من المشاكل من حيث الهوية، بدءا بالأحزاب السياسية، التي تريد القضاء على جميع الاختلافات الثقافية الموجودة في المغرب، لأسباب انتخابية وإيديولوجية. غير أنه، وكما قال رشيد، فإن الهويات الثقافية المغربية متعددة، خاصة الآن مع المغتربين في الخارج. هناك مغاربة يعيشون الآن باللغة الإنجليزية والألمانية والهولندية والإسبانية والكاتالونية ... وعلاوة على ذلك، مع التلفزيون والإنترنت لا يمكن أن يكون لديك هوية صرفة. ومن جهة أخرى، فإن أسطورة الهوية الخالصة هي نوع من الخبل أو الجنون لأن تاريخ المغرب يتكون من مزيج من الثقافات والتبادلات والحركات، ومحاولة فرض هوية واحدة، هو حقا كارثة.

فيما يتعلق بالتأليف، نلاحظ في الآونة الأخيرة، ظهور حركة تسعى إلى أن يصبح الأدب في المغرب عالميًا وشموليا، فإن هذا النوع من التفكير يزعجني شخصياً. ماذا يعني أدب عالمي وشمولي ؟

ماذا يحدث في قرية صغيرة في المغرب، ماذا يحدث للناس عندما تكتب رواية عن رعاة تيندرارا على سبيل المثال : ألا يشعر هؤلاء الناس بنفس الشيء عندما يكتب «تفاردوفسكي» عن قرية في سيبيريا ؟ أو عندما يكتب جون «شتاينبك» عن قرية في الولايات المتحدة ؟

لماذا أصبح أدب «شتاينبك» عالميًا ؟ لماذا أصبح أدب «تفاردوفسكي» عالميًا ؟ ولماذا لا يصبح أدبنا عالميا ؟ ليست هذه المشكلة إذن ؛ القضية قضية مال، وقضية دار النشر والإعلام. فالكثير من الكتب مكتوبة في الجزائر وتونس وليبيا والسنغال ومالي... لكننا لسنا على دراية لأن لدينا حدوداً ضيقة. عندما تذهب إلى السنغال، على سبيل المثال، أو إلى مالي أو موريتانيا، تجد الجذور الحقيقية للمغرب هناك، وهذا يعني أننا نتقاسم مجموعة من الأمور، من ثقافة ومعتقدات قديمة جداً نجدها في المغرب على وجه التحديد. إفريقيا قد تساعدنا على الذهاب إلى أبعد من ذلك.

نحن بحاجة إلى أوروبا من أجل التكنولوجيا، والأفكار الجديدة، لكن فيما يتعلق بالجذور، فنحن بحاجة إلى إفريقيا. أتساءل عما سأتحدث عنه عندما أذهب إلى قرية مغربية أو مدينة مغربية، فلن أتحدث بالطبع عن ليون أو تولوز أو باريس أو أي شيء، لكي يصبح الأدب الذي أكتبه عالميا. المخلوق المغربي يواجه مشاكل كونية مثله مثل الآخرين. عندما يتحدث «جون شتاينبك» عن غضب الفلاحين الذين ينتقلون من منطقة للعيش في منطقة أخرى، وهذا أمر يمكن أن يحدث لأي فلاح في العالم، لكننا لا نمتلك البنية التحتية التي ستجعل أدبنا وثقافتنا يكتسيان صبغة عالمية، لأنه لا يصل إلى الآخرين.

أذكر أنني كنت في مؤتمر مع مجموعة من المترجمين الألمان ولكي يقوم الألمان بترجمة عمل مغربي، سيكون من الضروري أولاً أن يختار الفرنسيون دار ترجمة هذا العمل حتى يتمكن الألمان بعد ذلك من ترجمة هذا الكتاب.

تحدثنا هذا الصباح عن مخلفات الاستعمار الفرنسي، فقلت : «*أتحداكم أن نجد إفريقي حاصل على جائزة نوبل*» في الكتابة باللغة الإنجليزية، فأعظم الكتاب الذين يكتبون باللغة الإسبانية ليسوا إسبانا : إنهم أرجنتينيون ومكسيكيون. وكبار الكتاب باللغة البرتغالية ليسوا برتغاليين، فهم برازيليون، وأعظم الكتاب الناطقين بالإنجليزية ليسوا إنجليزا، مثل رُشدي. فقد تجد نيجيريا أو يابانيا أو إيرانيا يكتب بالإنجليزية : كثير من الناس يكتبون بهذه اللغة وهو الجانب البراغماتي في البلدان الأنجلو سكسونية.

إذا كان أدبك صحيحا وسليما، فإنه سيُصبح عالميا. ومن جهة أخرى، بالنسبة للمغرب أو الدول الناطقة بالفرنسية التي تتبع فرنسا، فإنه يتعين عليك النهوض باكراً للنشر عند دور النشر مثل «كريمة»، أو حتى عند «لوسيان». وقد يكون من الضروري الحصول على الجنسية للولوج إلى هذا الحق، وهذا ليس هو الحال بالنسبة للأدب الإنجليزي، وهذا جزء مما يجري في الأدب.

خالص رشيد

المغرب حاضر في الأدب، بل أكثر من ذلك، لأن البحث عن هذا الحضور في ما هو مكتوب أو منشور، يهم الفكر والخيال. يمكننا التحدث بسرعة عن أجيال من الكتاب، لأن أدبنا ليس قديما جدًا، لقد بدأ منذ سبعين سنة مع جيل كان طموحه ومهمته الأساسية تأسيس الثقافة لأننا كنا في أعقاب الاستعمار وكان علينا القيام بهذا العمل. كان الأدب موجها إلى العلاقة مع الآخر، ذلك المستعمر القوي... ثم جاء الجيل الذي أسس لثقافة وطنية بالمعنى التقدمي. كان هناك جيل انتقالي حاول التخلص من هذه المواضيع التي تطبعها علاقة الصراع مع الآخر، وركز على الفرد لأن الفرد كان دائما مدمجا داخل المجموعة من طرف المجتمع. ولذلك كان من الضروري التوقيع على ولادة الفرد في الأدب وهذا هو الحال مع سرحان ومحي الدين على سبيل المثال.

إنه الجيل الجديد، وتُعتبر تيمة «الكتابة هنا والآن» بالنسبة له موضوعا رئيسيا، لأن الأمر لا يتعلق بالحركات، بل هي نزعة تتعلق بـالأنا وكل ما هو مرتبط بها، من عقل وجسد. وأجد في ذلك تنوعاً من الخيال غير العادي وتمثله النساء والرجال، مكتوب بلغات مختلفة وهذه لحظة مهمة يجب اغتنامها، لكن لا أحد يستطيع ذلك للأسف، لا البحث الأكاديمي ولا النقد من خلال وسائل الإعلام، لكن هؤلاء الكتاب يميلون إلى ما هو عالمي لأن كل ما هو محلي يكون تلقائيا وصرفا، وهذا هو توجه هذا الأدب.

إنها فترة انتقالية وسوف نرى ثمارها، أما الجهود البالغة الأهمية اليوم فلن يبذلها أولئك الذين ننتظر منهم إنجاز هذه المهمة، كالجامعة أو وسائل الإعلام الثقافية أو حتى الكتّاب. لذا، نكتب ونشرح ما نكتبه، حتى أصبح لدينا خطاب متضخم نحن في غنى عنه، ولعله يُشعر في بعض الأحيان بالغثيان.

سينتعش هذا الأدب بطريقة أو بأخرى، وإن لم يكن حيث أن المسميات ليست دقيقة. يمكن أن نجده في بعض البرامج مثل التي تم نشرها في هذا المعرض. أنا أتحدث فقط عن أولئك الذين يكتبون بالفرنسية. نحن لسنا كتّاب مغاربة فرنكوفونيين لأن ذلك في هذا الوقت سيعطي تأويلا سلبيا جدا.

ولدت في المغرب وجنسيتي مغربية، لكني أكتب باللغة الفرنسية، ويبدو لي أن فكرة الحديث عن الفرنكوفونية هي تسمية لها حمولة سياسية وليست بالضرورة حقيقية. ولا يقدم العامل الجغرافي أي تفسير، فأنا أكتب بالفرنسية، لكنني لا أشتغل بالضرورة على الفرنكوفونية، لأن لغتي تختلف عن لغة الكاتب الذي يعيش ويعمل في باريس. والفرنسية التي تستعمل في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى والمغرب والمغرب العربي عموما، ليست نفس الفرنسية التي يتحدث بها الناس في باريس. ومن الواضح أن نكون حذرين جداً لأن هذه التسميات ستبعدك إلى الهامش الجغرافي. أنت تكتب بالفرنسية لكنك مغربي، هو أدب مغربى مغاربي، هو فقط أدب مكتوب باللغة الفرنسية وهذا كل شيء.

أنا لست مغربيا عندما أكون في الجزائر العاصمة، أو عندما أكون في جنيف : فأنا كاتب سياحي. هذا الشكل من الانتعاش يعني ببساطة أن الآخر لديه موقف ورأي، وأنه يتقن الآلة بشكل جيد، وكذا الإصدار والنشر، لأنه يُمكننا أن نصنع كاتبًا في باريس ونتجاهل ببساطة موهبة رائعة، وهذا هو الحال بالنسبة للعديد من الكتاب الذين تم رفض نشر أعمالهم قبل أن يتم تكريمهم بجائزة نوبل. نحن نكتب، ولكن ليس بالضرورة للنشر على نطاق واسع أو من أجل جوائز أدبية، حتى أننا لا نكتب لإرضاء ذواتنا، ولكن نكتب من أجل الضرورة. يمكنك الاستمتاع بأعمال كتاب كما لو أنك تتجنب طفلاً، لكن الكتابة يجب أن تجيب عن سؤال وهو : ماذا يكتب الكاتب ؟ أيكتب عن حياته ؟ في حين يمكن للمرء فقط أن يعيش حياته بدلاً من أن يكتبها، أي أن يتذوقها في كل لحظة، دون أن يُمضي ليال ينقش حياته بقلم يشبه الإبرة، كما لو أنه يثبت عمودا. يمكن للمرء أن يعيشها بدافع ومتعة، بلحظاتها وأوقاتها السعيدة أو المريرة. فلما المعاناة والألم ؟

إذا كانت هناك فجوة بين بلد وبين الكتابة في هذا البلد، مثل الفجوة بين الحياة وقصة الحياة، فيجب أن نكون ببساطة على علم بها ثم نعبر عنها. نحن نقوم بذلك بشكل واضح بطرق مختلفة لأن لدينا حساسيات مختلفة من الخيال ونعبر عن بلدنا، الكل يُمثل بلده وكيانه في ما يكتب. كيف تذكر المغرب في كتاب ؟ قد أتحدث عن ذلك بطريقة أعمق وأكثر تفصيلا. ولكي نعطي مثالا وحتى لا نبقى في ما هو عام، لأننا مطالبون في أعمالنا بالتأليف والكتابة عن المغرب. فقد نشرت قبل سنتين ونصف أول رواية بعنوان «عندما قرر آدم أن يعيش»، وهو شخصية ساذجة، وذات روح بسيطة، وقد كان جنديا، وشاء القدر أن يعمل هذا الجندي على الحدود مع الجزائر، وكان يُعتقد أنه مات، لكنه في الحقيقة كان مختطفا، ثم هرب بعد ذلك وعاد إلى المغرب، غير أنه خلال تلك الفترة تم التصريح بوفاته، وسيقضي بعد ذلك عشرون عاما يبحث عن هويته، عشرة منها في عهد الحسن الثاني وعشرة أخرى في العهد الجديد، وهو يقول «*أنا موجود، هل يمكنكم الاعتراف بذلك* ؟». ولقد أردت وصف وضع الفرد المغربي، الذي مازال في مرتبة «رعية» كما سبق وذكرت، ويريد أن يكون مواطنا متمتعا بحقوقه المدنية، وأول هذه الحقوق هو الحق في الحياة، غير أنه لا يستطيع للأسف. ولكي أروي هذه القصة، اخترت الاشتغال على الفكاهة بدلا من الدراما. وبما أنه ساذج، والقصة تبدأ سنة 1989 و وتتزامن مع بناء مسجد الحسن الثاني في الدار البيضاء، ويعلم المغاربة أننا في تلك الفترة كنا مضطرين لدفع المساهمة، وساهمت الشركات بملايين السنتيمات، وكانت مجبرة على ذلك، بينما لا يتوفر آدم على هوية أو بطاقة وطنية، تم اصطياده من طرف «المقدم»، ممثل السلطة، وقال له : «*يجب أن تساهم في هذا العمل الكبير*»، ويجيب : «*ليس لدي إسم، الدولة لا تعترف بي*»، ثم يقول الآخر : «*سأسجل المساهمة باسمك*»، ثم يدفع مائة درهم وهو يشعر بالسعادة. يذهب بعد ذلك لمقابلة «القايد»، ممثل السلطة أيضا، ويقول له : «*أنا هو، وأنا موجود*»، ليتم تعنيفه وإلقاؤه في الشارع.

ستتكرر حكايته هذه لمدة عشرين سنة، عندها سيُقرر الذهاب لمقابلة الجنرال بالجيش الملكي، وسوف يُسجن لمدة تسعة أشهر بالأركان العامة. ليعود من جديد ويُقابل الوزير الأول آنذاك السيد اليوسفي (بعد الانتقال الديمقراطي)، ليعطي التعليمات بالسماح له بتسوية وضعيته. لكنه يدرك جيدا أن اليساريين في ذلك الوقت هم أكثر ملكية من الملك، سيستطيع، عن طريق الرشوة، أن يحصل على الموافقة من أجل مقابلة الملك الحسن الثاني، ثم تقررت الزيارة يوم الجمعة، وها هو يستعد، ويحلق ذقنه، ثم يعبر من سلا إلى الرباط، ويتزامن موعد المقابلة مع يوم وفاة الملك الحسن الثاني... هذا فقط الجزء الأول من الرواية، سأتركم تكتشفون الجزء الثاني.
وأنا أروي لكم قصة آدم، لم أكن أريد إطلاقا أن أصف المغرب من خلال هذه الشخصية، وإنما أردت أن أحكي مصير هذا الشخص والمغرب تدخل في القصة. طرق الرجل أبواب مؤسسات كبيرة، من أجل حل مشكلته، فالتجأ إلى المؤسسة العسكرية والإدارة المغربية والقصر الملكي، حيث تؤخذ القرارات، ولكنه لم يحصل على شيء إطلاقا. فما سيكون مصير هذا الرجل إلا أن يستقطبه الإسلاميون. وهذا هو السبب الذي جعلني أصور المغرب بهذا الشكل، خاصة وأننا نعيش اليوم المشهد نفسه.
لقد ركز الكل، منذ قليل، على مسألة البعد الثقافي وتأثيره غلى العقل والروح المغربية، وهو أمر مهم بالنسبة لتاريخ المغرب إذا أردنا سرده على مدى سبعين سنة مضت. لقد كان المغرب يعيش في تناغم مع جميع مجتمعاته. من الناحية الأخلاقية، كان المغاربة متميزون. كان لديهم علاقات عائلية واجتماعية، والتي كانت دائما موضع تقدير وإشادة. فلماذا هذا التراجع الذي نشهده اليوم ؟
الأمر بسيط جداً، لقد دمر الملك الحسن الثاني الأحزاب اليسارية، ودمر الشباب المغربي لمجرد أنه كان لا يثق بهم. كان يعتقد أن هذا القرار «الضعيف» سيكون مجديا، لكنه نتيجة سياسة تقوم بقمع الفلسفة واستبدالها بالفكر الإسلامي، وتنتج ببساطة جيشًا من الإسلاميين الذين يمارسون العنف إلى حد كبير. نحن نعيش اليوم أزمة عميقة جدا. المغرب يصدر الجهاديين إلى سوريا والعراق، وإلى جميع أنحاء العالم، لذلك نتساءل : لماذا ؟
على المستوى الداخلي، نحن نعيش في أزمة خطيرة والخطر بديهي. ومن أجل مواجهة هذا الفكر، يجب علينا أن نؤمن بتأثير الثقافة، ولكن إذا قمنا بإجراء مقارنة صغيرة في أي مدينة في المغرب، سوف نلاحظ اختلالا صارخًا بين إنتاجنا الفكري والخيالي مقارنة مع الإنتاج الدائم للمملكة العربية السعودية والشرق الأوسط عموما. شخصياً، لا أطلب أن تسود الديمقراطية لأن قرارات ستتخذ على مستوى عال. وإنما هي دينامية اجتماعية ويجب أن تصنع نفسها بنفسها لأنه يجب أن يكون هناك مدى بين ممثليها وبين هؤلاء أصحاب الفكر الظلامي. ولكن يجب علينا أن نحارب، ولو رمزيا، الكتب المدرسية التي تُصور المرأة بشكل مهين.
بالنسبة لي، كتاب ألفه كاتب مثل محمد فتاح، فاز بأكبر جائزة في المغرب، وهو «لا مامونيا» «La Mamounia»، صدر سنة 2011، ولكن في الوقت نفسه تجد كتبًا تروج للكراهية والعنف وتُشيد بشخصيات العادية، تتداول في الشوارع بجوار المساجد... لكن يمكننا إنقاذ هذا الجيل والثقافة وحدها قادرة على القيام بهذه المهمة.

موحا سواك

على مستوى الأدب والثقافة، يرى بعض المدرسين في المغرب الأدب الوحيد ذلك الذي يدرس في فرنسا، بحيث إذا سألت الأكاديميين المغاربة أو أساتذة التعليم الثانوي أو الصحفيين، عن الكتاب المغاربة، سيذكرون الأشخاص الذين نشروا في فرنسا، إذ أن مرجعهم في المغرب، في المقام الأول، هم الكتاب الذين يعيشون وينشرون في فرنسا، وليس الكتاب المغاربة الذين يكتبون بالفرنسية والعربية.
إحدى مشكلاتنا الثقافية في المغرب هي عدم بروز الكثير من الأدب الشعبي باللغة الدارجة والأمازيغية، لأن هذه الثقافة لم تُدون. ومع ذلك، لعبت هذه الثقافة دوراً كبيراً في النصوص الضخمة، أفكر في الأشخاص الذين يستمعون لي وللأشعار باللغة الأمازيغية. إلا أن هذا الجزء كله لا يعتبر أمرا مهما، فقط أولئك الذين يكتبون بالفرنسية أو العربية يعتبرون كتابا ومؤلفين. ويجب استعادة كل هذا الجزء من الثقافة المغربية التي هي على وشك أن تختفي. أصبح اهتمام المغاربة بالمسلسلات يزداد أكثر فأكثر، وهي ثقافة التلفزيون وخاصة الإنترنت.

أمينة

يجب الوصول إلى الأدب العالمي، لكن، في كثير من الأحيان، عندما نأخذ كتبا لمؤلفين مغاربة، تأخذنا القراءة تلقائيا إلى الحمام أو إلى السوق، وهذا، بكل صراحة، أمر ممل. هل نكتب للمغاربة أو للأجانب من أجل تشجيع الغرائبية والفلكلور ؟ هذا ما يزعجني أحيانا في الأدب المغربي.

مداخلة

شكراً لكم على هذا النقاش الشيق حول المغرب و الأدب المغربي. أتفق مع كثير من الأمور التي أثيرت من طرف بعض المتدخلين، لكن أعتقد أن ما سأقوله سيغضب موحا. بالحديث عن عالمية الأدب، قلت أنه يجب أن يكون هناك قرى صغيرة إلى غير ذلك، وهذا يعني أنه يُمككنا أن نصل إلى العالمية انطلاقا من تلك المنطقة المحلية، ولكن المشكلة ليست في معرفة ما إذا كان يجب الانطلاق من المنطقة، وإنما تكمن المشكلة في كيفية تعاملنا مع هذه المنطقة، أي هل يوجد خيال أو صورة تعزز هذه المنطقة ؟ أم هل ننهج معها مقاربة صحفية ؟ وهذا ما يزعجني عندما أقرأ الكثير من الأدب المغربي وأحيانا أشعر بالاشمئزاز.

لم أعد أستطيع التمييز بين أخبار التلفزيون حول ما يحدث في المغرب، وما ينشر لنا على الأنترنيت. لم يعد هناك فرق بين ما هو وهمي وما هو حقيقي. وقد جرت هذا الصباح نقاشات مهمة، تحدث فيها صديقنا كسيكس عن ذلك، وقال أن هناك القصة وكيفية تناول القصة والتي هي قصة الرواية، لكن للأسف، نجد أن العديد من الكتاب يفشلون في هذا الأمر، وهذا ما يزعجني ويُزعج أمينة أيضًا. في بعض الأحيان أبدأ رواية مغربية وأقول مع نفسي أنني أعرف ما سيحدث فيما بعد. لقد سئمنا من هذه المواضيع التي تتكرر، وأصبح لدينا العشرات من الروايات التي تحدثت عن مواضيع الساعة، كالإرهاب مثلا.

يمكننا تناول موضوع الإرهاب بشكل مختلف، وأتمنى التخلص من هذا الثقل في الأدب المغربي، كما أحب أن يُفسح المجال لأصدقائنا في بلدان افريقيا جنوب الصحراء ؛ أحب الأدب الذي تنتجه بلدان افريقيا جنوب الصحراء، إنه يُهدئ نفسي عندما يتناول أشياء مهمة جدا.

مداخلة

شكرا طبعا تيمة «المغرب اليوم» هي برنامج مكثف وشامل من أجل الوقوف على الوضع برمته، أنتم كتّاب مؤلفون وتكتبون الأدب الخاص بكم وهذا ليس بالأمر الهين. وبما أنكم قدمتم صورة سوداء قاتمة عن الأدب المغربي، مع قليل من الأمل، لدي سؤالين، الأول هو : ما هو الوضع الصحي الحالي للإنتاج الأدبي المغربي وذلك سيُساعدنا شيئا ما على رؤية «المغرب اليوم»، والسؤال الثاني مرتبط دائماً بوضع المغرب، وهو : ما هو الإسهام الذي يُمكن أن يُقدمه الأدب ؟

مداخلة

لدي فقط بعض التعليقات، فقد أعجبني ما قلته عن التفرد أو الخصوصية، لأن الكاتب، قبل كل شيء، هو الشخص الذي يعبر عن قوة المستجد وقوة الصورة الخيالية الذي يرسمها. أنا فرنسية وأعيش في المغرب منذ ثلاثين سنة. قرأت الكثير من أعمال الأدب المغاربي وأحس بالفرق عندما يتحدث عن العالمية، وأحس بالفرق عندما يقوم الكاتب بخلق عالم شخصي ضيق جدا. إنني أنتظر هذه القوة الخلاقة والإبداعية التي ستروق لنا ثقافياً وجغرافيا وتاريخياً.

كما أنني أبحث عن ذلك الجهد الفكري الذي سيُحفز هذا النوع من الحركة الإبداعية. بالنسبة لي، من خلال هذا، يمكننا الوصول إلى العالمية وليست العالمية التجاريَّة التي لا مستقبل لها. يجب أن نصل إلى العالمية، تلك العالمية التي تتولد عن هذه القوة الإبداعية وهذه القوة تقتصر على الكاتب الذي لديه قيم.

مداخلة

يتعلق سؤالي الأول بعنوان المائدة المستديرة. كما يعلم الجميع، لا يمكننا الخروج عن إطار الزمن، فنحن إما في الماضي أو الحاضر أو المستقبل. المشكل هو أننا لا نعرف في أي من الأزمنة الثلاثة يوجد ما أسميتموه في العنوان «مغرب اليوم».

سؤالي الثاني الموجه للأستاذ رشيد متعلق بمسألة فقدان الهوية التي تهم في الحقيقة الإنسانية جمعاء. فلو قال كل فرد «أنا إنسان وأنتمي لهذا الكوكب»، لما عانينا من آفات عدة أولها العنصرية والتسلط على من نعتبره أجنبي. نحن عندما نقول عبارات من قبيل «أنا مغربي» أو «أنا جزائري» أو «أنا فرنسي»، فنحن ولا ريب ننثر بدور العنصرية في أخصب أرض.

مداخلة

أنا بدوري أوجه سؤالي للأستاذ رشيد الذي قال إن من الأفضل للإنسان أن يعيش حياته بكل تفاصيلها بدل كتابتها ؛ ولكن ماذا لو كان هذا الإنسان قادرا على الخروج من ذاته لحظة الكتابة. شخصيا لا أومن بإمكانية تحقق هذا ؛ ففي نهاية الأمر، يبقى الإنسان كلا لا يتجزأ وذات تنشد إثبات ذاتها أمام ذاتها وأمام المجتمع.

موحى سواك

جوابا على السؤال الأول، ما قدمت أمامكم هو بكل بساطة رصد للواقع. وهنا سأحكي لكم قصة خطرت ببالي الساعة ؛ اقترح علي صديق بفرنسا عرض مسودة إحدى رواياتي على دور النشر هناك، ففعلت ؛ بعدها تلقيت رسالة يقول كاتبها أن بطل روايتي يقتل أمه لا أباه معتبرا ذلك خروجا عن المألوف في الأدب المغاربي حيث يقتل البطل عادة أباه لا أمه. الشاهد هنا أن كتاباتنا منمطة. كتابنا مطالبون بتفادي أسلوب الصحافة والتقارير، لكن هذا لا يحدث دائما. والنتيجة هي كتابات غير مفهومة سواء على مستوى اللغة أو الفكرة أو غيرها من المكونات الأساسية في أي عمل أدبي. غالبية الناس لم يولدوا ليكونوا كتابا، فبالأحرى أن يصبحوا كتابا مبدعين. دور النشر المغربية التي بدأت العمل سنة 1980 لا تقوم هي الأخرى بعمل جيد رغم كل جهود التحديث والعصرنة. في الحالة الطبيعية، يقرأ الناشر النص مرارا قبل تقديم ملاحظاته. أما عندنا، فالكاتب هو من يبحث عن من يقرأ له نصه آملا أن يتلقى ملاحظات تُجود نصه. لحسن الحظ، بدأت الأمور تتحسن بعض الشيء. لكن بلا شك هذا المعطى ساهم في تفشي الصور النَمطية في الإنتاجات الأدبية المغاربية في الفترة السابقة.

السؤال الثاني حول وضعية الأدب المغربي. نعم هناك مشكل في تمكن الكتاب من أدوات الكتابة على نحو يضمن لمؤلفاتهم قدرتها على شد الانتباه. شخصيا، سألت نفسي بخصوص الجمهور الذي أستهدفه بكتاباتي، فوجدتني أكتب لمن كان له عهد بالمدرسة وتوفرت لديه الإمكانات المادية ؛ وفي الحقيقة انتقدت لهذا السبب.

البعض يقول أن من لا رغبة له في القراءة لن يشتري الكتب، لكن ماذا عن الذين لا يشترون الكتب بسبب انعدام الرغبة بل لضعف الإمكانات المادية. سواء اعترفنا بذلك أم لم نعترف، نحن نكتب للنخبة التي تتخذ القرارات. لكننا نريد تغيير الواقع بحيث نرى الجميع يقرأ.
ملاحظة أخرى مهمة في هذا الباب هي أن معظم الكتاب لا يكتبون لأجيالهم بقدر ما يكتبون للتاريخ. لكن هذا التوجه غير سليم، لأن الكتابة الجيدة ستخلد والكتابة الرديئة ستموت على الرفوف بغض النظر عن أي شيء آخر. وإن كان في الكتابة الأدبية الرديئة من خير يذكر فهو منحنا فرصة الوقوف على الفوارق بين النص الجيد والنص الرديء.

خالص رشيد

شكرا أستاذ موحى على سعة صدركم. سأحاول بدوري التفاعل مع بعض الأسئلة المطروحة. أحد المتدخلين طرح سؤال مهم مرتبط بسلسلة إنتاج الكتاب بالمغرب قال فيه «ماذا يمكن أن يقدم الأدب للمغرب ؟» وأنا أعكس السؤال فأقول «ماذا يمكن أن يقدم المغرب للأدب ؟». شخصيا أرى أن لدى مغرب اليوم الكثير ليقدمه للأدب.
سلسلة الإنتاج التي أشرت إليها هي مربط الفرس فيما يعانيه الكتاب بالمغرب، كيف ذلك ؟ تقدم لجنة مختصة منذ سنوات دعما للمشاريع المقدمة إليها ؛ ربما يكون الدعم المقدم ضعيفا لكنه يبقى مجهودا محمودا. لكن في مسائل أخرى كتوزيع الكتب، هناك مشكل كبير من تجلياته مثلا صعوبة الحصول على كتب فكرية مغربية ؛ وهذا يحز في النفس. إذا تكلمنا بلغة الأرقام التي لا تكذب، نجد أن المغربي لا يقرأ أكثر من دقيقتين في السنة ولا ينفق على الثقافة والكتب سوى درهما ونصف في السنة، بينما ينفق في المقاهي والكماليات أكثر من ذلك بكثير. ولكن إذا تحرينا الإنصاف، فلا يمكننا تحميل المسؤولية كاملة للمواطن الذي يتفاعل إيجابيا جدا مع تظاهرات ثقافية وأدبية كهذا المعرض. في نظري، الكتاب الذين لا ينزلون من بروجهم العاجية هم أيضا مسؤولون.
تتحمل الدولة هي الأخرى قسطا من المسؤولية : عليها الدفع في اتجاه خلق حياة ثقافية حقيقة وفتح نقاش وطني موسع حولها. تحقيق أمر كهذا سيعني تحقيق أحلام كثيرة تراود المبدعين المغاربة. وقد سارت الدولة خطوات في هذا الاتجاه، وإن كان ذلك بضغط مورس عليها، لما فتحت باب النقاش حول قضايا بالغة الأهمية كقضية الثقافة واللغة الأمازيغية التي أضحت لغة رسمية دستوريا.
دائما تحت الضغط، فتحت الدولة نقاشا وطنيا حول قضايا المرأة كانت نتيجته تحسن أوضاع المرأة المغربية. فعلا أنجزنا الكثير، لكن مازال ينتظرنا ما هو أكثر. فقد فشلت الدولة والمبدعون المغاربة في تحقيق أي شيء يذكر على مستوى الثقافة، رغم توفر الإرادة اللازمة. أيها الحضور الكريم، إن الثقافة حاجة مغروسة فينا كحاجة الشراب والطعام. لقد أكل الإنسان وشرب بيد وكتب وخط الجدران باليد الأخرى منذ العصور الغابرة لأن كليهما حاجة لا غنى له عنها.

مداخلة

ناقشنا قضايا كثيرة مهمة متعلقة بالكتابة كالموضوع والإشكالية، لكننا لم نسلط الضوء على ظروف إنتاج الكتاب. السؤال المهم بغض النظر عن تيمة المؤلَف هو سؤال «كيف» ؛ أي كيف ننتج نصا يشد انتباه العالم. بالنسبة إلى الترجمة ؛ نحن، كما أشرتم، ببلد جوهره التنوع والانفتاح. ورغم أن الترجمة هي أحد أنجع سبل حفظ وتقوية هذا التنوع والانفتاح، فنحن لم نحقق فيها هي الأخرى نتائج مهمة.
كيف نتحدث عن الثقافة وجسور الترجمة غير ممتدة، وكيف نتحدث عن الثقافة في مجتمع مكوناته لا حوار ولا تواصل حقيقي بينها. نحن مطالبون إذا ببذل جهد كبير على مستوى الترجمة إن نحن فعلا أردنا ردم الهوة بين مكونات الثقافة المغربية من جهة وبين هذه الأخيرة وباقي ثقافات العالم من جهة أخرى.

رئيس الجلسة : حسن إد ابراهيم
المشاركون : نادية السالمي، رؤوف الكراي (تونس) الصحرواي هادف
فضاء : محمد عابد الجابري
التاريخ : يوم الجمعة 22 شتنبر 2017
الساعة : 15 : 00 - 16 : 30

موجز مداخلات المائدة المستديرة

التئم حول هذه المائدة المستديرة ثلة من الأدباء المغاربيين الذين يخاطبون الشباب في كتاباتهم.

وقد أجمع المتدخلون على ضرورة أن يتخطى أدب الشباب المغاربي ما يحول دون تطوره من معوقات، مبرزين خصائصه اللغوية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية والدور المهم الذي قد يطلع به في العالم العربي في حالة تلقيه الدعم اللازم.

أجمع المشاركون كذلك على أن تجارب المغرب وتونس والجزائر بخصوص أدب الشباب هي بشكل عام تجارب إيجابية، حيث حضرت الإرادة واتُخِذت قرارات مهمة.

نريد أن نصل بأدب الشباب عندنا إلى ما حققته أوروباً. التجربة اللبنانية أثبتت لنا بالملموس أن ذلك ممكن.

الجزائر بدورها أثبتت لنا إمكانية تحقيق هذا الحلم بعد أن أطلقت خطة وطنية هدفها الرفع من شأن المطالعة وإدراجها في برامج التعليم من المدرسة حتى الجامعة.
رغم كل الصعوبات، لطالما كان أدب الشباب بالمغرب الكبير مسايرا لنبض الحياة في بيئته ومتفاعلا مع كل المؤثرات الثقافية الواردة علينا من ثقافات أخرى بحكم سياقات تاريخية بصمت تاريخ المنطقة.

ارتباطا بهذا الأدب، أحدثت التطورات التي شهدها العالم العربي ككل قطيعة لدى الشباب. كثير من الشباب المغاربي بات مستعربا بعدما كانت بلدان المغرب الكبير تُنتقَد على كونها أكثر قربا إلى أوروبا منه إلى المشرق، خاصة في المجال الثقافي. هذا البعد عن المشرق يرى فيه البعض تفسيرا لحالة العزلة التي عرفها أدب الشباب بالمغرب الكبير.
لقد تمزق الأدب المغاربي وضاع بين المشرق وأوربا وانقسم على نفسه.
انتهى النقاش بطرح سؤالين اثنين : هل من الممكن توفر إرادة سياسية توحد المغرب الكبير ثقافيا وتضع الأدب المغاربي على السكة الصحيحة ؟ هل سيبقى الأدب المغاربي تائها ومنقسما على ذاته رغم كل ما يتوفر له من أسباب النجاح والوحدة التاريخية والجغرافية واللغوية ؟

حسن ايد ابراهيم

أولا، أشكر المنظمين وأهنئهم على منحنا فرصة مناقشة تيمة بأهمية أدب الشباب المغاربي، الذي أرى في مناقشته تكريما لشبابنا. في نظري، يجب أن يكون أدب الشباب بالمغرب الكبير في قلب اهتمامات صناعة الطباعة والنشر. بدأ هذا اللون الأدبي يؤكد تواجده في الساحة شيئا فشيا بفضل مجهودات مهنييه على قلتهم. حتى الآن، لم يتحول أدب الشباب بالمغرب والجزائر وتونس إلى صناعة متخصصة ناضجة وكاملة الأركان، رغم كل المبادرات الفردية والمجهودات المبذولة. لكن البلدان الثلاثة تتشارك مجموعة من الهموم والقضايا تساعد على تشكل أدب مغاربي موحد. أملي هو أن نقدم بعض الإجابات في مائدتنا المستديرة التي تستضيف الأستاذة نادية السالمي من المغرب والأستاذ رؤوف كراي من تونس.

أسست نادية دار للنشر سنة 1999 ؛ وهي مناضلة في سبيل تعميم القراءة عبر مجموعة من المبادرات داخل قطاع الطباعة والنشر وجمعيات المجتمع المدني مثل «Un monde est né pour tous». كما أسست مجموعة فيسبوكية هدفها رفع منسوب الوعي الثقافي والسياسي سمتها «لكم الكلمة» (vous avez la parole). تُنشِط الأستاذة أمينة أيضا مجموعة من الورشات للكبار بالرباط وتشرف على مبادرة أسمتها «نقرأ لنكبر» (Lire pour grandir).

أما رؤوف فهو فنان تشكيلي ورسام وأستاذ لمادة الرسم بتونس وعضو في اللجنة المنظمة لمعرض كتاب الطفل بصفاقس التونسية. عرض أعماله بعدة معارض دولية وساهم كرسام في إنجاز مجموعة من الكتب التصويرية بتونس وفرنسا. نال سنة 2012 جائزة «كتابي» لأفضل كتاب عربي. على هذا الأساس، سيكون من المفيد جدا الاستماع إلى رأيه. وبما أن أدب الشباب مازال حديثا في صناعة الطبع والنشر، فقد ارتأيت أن أبدأ بالسؤال التالي : ماذا نقصد بصناعة الطباعة والنشر مختصة في أدب الشباب ؟

نادية السالمي

أدب الشباب هو لون إبداعي مازلنا نلصق بها صفة الجدة رغم مرور عشرين سنة على بدايته. هذا معناه أننا متأخرون بعض الشيء، ولأسباب مختلفة، في توفير كتب أدب الشباب المحلية التي تخاطب القارئ المغربي وتستجيب لاحتياجاته في مكتباتنا، جنبا إلى جنب مع كتب أدب الشباب المستوردة. الكتب المستوردة تعني ثقافة مستوردة، لكن توفير كتب محلية سيحقق التوازن بين مؤثرات الثقافة المحلية والثقافات الأخرى لدى شبابنا. ليس من الحكمة أن نحدث طفلا لم يغادر المغرب يوما عن «برج إيفيل» أو «بابا نويل» أو غير ذلك من الأشياء التي تنتمي لبيئته، لأن تفاعله سيكون محدود.

عرف أدب الشباب المغربي في بداياته نجاحا كبيرا بسبب حالة الفراغ المهول التي كانت قبل مجيئه. كناشرة، اشتغلت في تلك الفترة على مجموعة كبيرة من العناوين، ثلاثة منها بقلم إدريس الشرايبي. لسنا قراء للنص بقدر ما نحن قراء للصورة، كما أن لدينا تراثا شفهيا كبيرا ؛ هذا هو واقعنا. تغيير هذا الواقع بحيث تصبح للنص مكانة محورية لن يتم بين عشية وضحاها. وعليه فنحن مطالبون ببذل المزيد من الجهد، لأن طباعة الكتب وتوفيرها على رفوف المكتبات ليست كل شيء. المكتبات لا تبيع الكتب التي لا تحقق لها أرباحا مهمة، ولهذا نفعل كل ما بوسعنا لتكون الأسعار ملائمة لذوي الدخل المحدود. إلا أن توفير الكتب لم يكن كافيا، وتبين أن إجراءات أخرى أصبحت ضرورية لخلق أو جدب القارئ وإثارة اهتمامه. في البلدان التي سبقتنا، يزرع في الأطفال حب الكتاب من الصغر ويصير ترددهم على المكتبات جزءا لا يتجزأ من حياتهم اليومية، في حين أن الوضع عكس ذلك ببلدنا، فهنا يجب أخذ الكتاب والذهاب به نحو الطفل، والقيام بجولات بالمدارس على غرار ما تقوم به أمينة.

نحن أيضا ناشطات، فلا نكتفي بصنع الكتب، بل نقوم بكل ما من شأنه أن يجذب القراء نحوها. أنشطتنا متعددة، لكنها تبقى غير كافية. تشتغل عدة جمعيات أيضا على الكتاب والقراءة، لكن أعمالها تبقى خجولة. الكتاب مع الأسف، لا يمثل للجمعيات أولوية لكونها تتطور في قطاعات أخرى، فما العمل ؟

أسستُ نشاطا أصبح معروفا حاليا في بلدان أخرى باسم «لنقرأ حتى نكبر» ويشمل حصص مطالعة مجانية لفائدة الأطفال من مختلف الأعمار بالمكتبة الوطنية للمملكة يوم الأحد. يحضر الأطفال رفقة آبائهم ونجتمع كعائلة بحضور كتّاب وفنانين وكوميديين. ويقوم الكبار أيضا بإعداد اجتماعات أدبية مرة في الشهر في مقاهي أدبية تعرف حضور مبدعين كبار. وتوجد أيضا مجموعات على الفيسبوك.

أحد هذه المجموعة الفيسبوكية المحدثة بمناسبة الانتخابات الأخيرة تمنح الآن آلاف المغاربة فرصة التعبير عن آرائهم. وقد اقتنع كثير من أعضاءها بضرورة التصويت، حتى أن بعضهم تكبد عناء السفر فقط للإدلاء بصوته. ومازالت المجموعة إلى اليوم تنشط الحياة السياسية والثقافية قدر المستطاع.

حسن إد ابراهيم

نشكركم على هذه التوضيحات، جاء في مداخلتكم أننا متأخرون ومطالبون ببذل مجهودات أكبر على مستوى الأنشطة المنظمة ونشر طبعات خاصة للشباب، على شاكلة ما تقوم به أمينة العلوي الهاشمي. شخصيا، كنت أعتقد أنه تم إنجاز الكثير من أجل الشباب المغاربي على المستوى الرسمي منذ بداية التسعينات في كل المجالات، بما في ذلك مجال الكتاب. عندنا كتاب اشتغلوا على كتاب الطفل وتركوا لنا إرثا عظيما كالكاتب الكبير العروسي معطاوي، الذي ترك إنتاجات عديدة في هذا الباب منذ ستينيات القرن الماضي تجاوز صيتها الحدود. ونحن سعداء بتواجد إبن صفاقس التونسية الرسام والكاتب رؤوف كراي الذي سيعيننا ولا شك على فهم أعمق للموضوع المناقش.

السيدة الصحراوي هادف

يمكن فعلا شراء الكتب بسهولة بفضل مواقع التواصل بالجزائر، ومع ذلك تقوم العديد من الجمعيات، خاصة النسوية منها، بعمل كبير على أرض الواقع. كما أن المعارض السنوية تضاعفت. شخصيا أشارك منذ تسع عشرة سنة في المعرض الدولي للنشر والكتاب بالجزائر، وهذا ساعدني في ملاحظة تتطور علاقة الشباب والأطفال بالكتاب. ويمكنني القول أن نسبة الإقبال على المطالعة سجلت تطورا ملحوظا في كل المناطق، وخصوصا بالعاصمة.

تجدر الإشارة إلى أن المناطق الداخلية للبلاد ليست مهملة. إذ توفر الكتب بجميع الأسعار سواء للأطفال أو الشباب أو حتى الراشدين الذين لا يملكون الإمكانيات لشرائها بفضل الاتفاقات المبرمة مع ناشرين محليين يوفرون بموجبها كتب تنشر بفرنسا أو بلدان أخرى، وهذا الحل يخفض ثمن الكتاب. فمثلا، بالجزائر التي أملك معلومات أكثر بخصوصها، قد يبلغ سعر الكتاب ألف دينار أو خمسمائة دينار أو ستمائة دينار... كما أن السيدة ناجم التي لم تستطع الانضمام إلينا أسست المهرجان الدولي للقصة المصورة وتنظم أنشطة لفائدة الأطفال الذين يبدون اهتماما بدورهم. بالنسبة إلي، فقد بدأ نضالنا الذي دام عشرين عاما يعطي ثماره.

لزرع حب القراءة والكتاب في الأطفال، نبرمج لهم حصص للقراءة منذ الأقسام الابتدائية، وهذا نوع من التنشيط بالغ الأهمية. مؤخرا بدأنا نلاحظ بالجزائر انتشار مكتبات متنقلة أصبح لها زبناؤها واكتسبت أهمية كبيرة. وهناك عدد لا بأس به من المبادرات والأنشطة المرتبطة بالكتاب ؛ فمثلا بـ «تيزي أوزو» الغنية ثقافيا، أنشأ شاب رائع مقهى أدبي يقصده القراء.

كانت الكتب قليلة في البداية تم ارتفع عددها شيء فشيئا. ما ينقصنا بشكل كبير هو برامج أدبية وثقافية رصينة ضمن شبكة برامج الإذاعة والتلفزة ودعم دور الطباعة والنشر فالعملية مكلفة جدا. هناك أيضا جمعيات تقوم بأنشطة في هذا الصدد كشراء الكتب وتقدمها كهدايا.

حسن إد ابراهيم

شكرا للأستاذة الصحراوي التي أطلعتنا على واقع الكتاب بالجزائر. وأشير هنا إلى أن السيدة ناجم تشارك في المعرض الدولي للقصة المصورة الذي نجح في استقطاب مبدعين كثر ككتاب السيناريو والرسامين منذ دورته الأولى بالجزائر العاصمة وبات موعدا ثقافيا قارا يستمد أهميته من مركزية الصورة في عالمنا المعاصر. والآن أعطي الكلمة للأستاذ رؤوف كراي الذي حل ضيفا علينا من تونس الخضراء.

رؤوف الكراي

في الحقيقة أنا في موقف لا أحسد عليه، فمن أين أبدأ وعن ماذا أحدثكم بالتحديد ؟ كتب الأطفال المصورة ! صحيح أنني أتعامل مع كتب الأطفال، لكن هذا التعامل لا يتعدى قراءة بعض القصص للصغار. وفي رأيي الشخصي، كان من الأجدر أن نناقش الأعمال الأدبية الموجهة للأطفال دون رسوم. وكلامي هنا لا ينفي حقيقة أن الرسوم لغة بحد ذاتها يجب أخذها بعين الاعتبار في السياسة التربوية. على كلٍ، سأحاول التوفيق بين موقفي الشخصي وواجب الالتزام بمناقشة الموضوع.

أريد أن أحدثكم قليلا عن التجربة التي راكمتها تونس فيما يتعلق بالأطفال والشباب في محاولة لإتمام الصورة التي رسمها المتدخلون قبلي عن واقع الشباب والكتاب بالمغرب الكبير. إن الإشكالية الحالية هي وضعية المغرب الكبير وسط العالم العربي، لأن هذا الأخير قد نسينا كليا إلى الحد الذي تولدت معه قطيعة تدفعنا اليوم إلى أن نسأل أنفسنا : هل ننتمي حقا للعالم العربي ؟

لقد استبعدنا المشرق العربي كما لو كان المغرب الكبير ينتمي للقارة الأوروبية. ولدت في خمسينات القرن الماضي وعاصرت الاحتلال، وهذا كان له بالغ التأثير في تجربتي الحياتية. بعد الاستقلال توالت الثورات التي كانت علينا خريفا، على الأقل بتونس. سأحاول أن أعطي فكرة عن أدب الشباب والقصص المرسومة ببلادي، مع بيان المجهودات المبذولة لدعم الشباب وهذا النوع من الكتب. كانت الرغبة في تطوير قطاع الطباعة والنشر خلال الخمسينات والسبعينات قوية لدى كل مكونات المجتمع. تعددت المحاولات رغم الصعوبات، إذ اتبعت المدارس مناهج رائعة في التربية وانفتاح الشباب على القراءة، وكانت المكتبات المتنقلة الرائعة تبلغ أبعد القرى والمداشر. لكننا تراجعنا وفقدنا كل شيء وهذا محزن فعلا. لكن أهم ما ميز تجربة تونس في هذا الباب هو تنظيمها أول معرض عربي متخصص في الكتاب الموجه للشباب والأطفال بمدينة صفاقس قبل أزيد من ثلاثين سنة مضت. عندما أرجع بالذكريات وأتأمل حال الكتاب في مغربنا الكبير اليوم أحس بغصة في قلبي. هذا هو واقعنا الذي نسعى إلى تغييره. وللأسف لا يحدوني أمل كبير في تحسن وضعية الكتاب بالمغرب الكبير في المستقبل القريب في ظل الشروط الذاتي والموضوعية القائمة حالية.

أتساءل عموما ما إذا كانت هناك إرادة سياسية حقيقية لمواجهة هذا الوضع ومحاولة توحيد دول المغرب الكبير والعالم العربي ككل في رؤية واحدة هدفها إرساء هذا المشروع على أسس صلبة ومتينة. وهنا أطرح السؤال التالي : هل توجد فعلا إرادة سياسية جدية لإرساء مبادرة إستراتيجية واضحة المعالم حول مستقبل الكتاب عموما، وكتاب الطفل بالخصوص ؟

حسن إد ابراهيم

المشكل الحقيقي هو توزيع الكتاب سواء بالمغرب أو الجزائر أو تونس. فالإشكالية عموما متعلقة بكون أدب الشباب ومنذ بداياته مرتبط بالسياسة.

أدب الشباب في بعض الدول العربية يحمل في ثناياه أطروحات عميقة على أساس أن كل تغيير يبدأ بالشباب. هذا لا يجب أن يمنعنا من تعزيز مكانة الأدب على المستوى المحلي والإقليمي والمغاربي والمؤسساتي.

نادية السالمي

محزن أن نقول أن كل شيء أسود، ولكن نعزي أنفسنا بالقول أنه على الأقل لدينا كتابات موجهة للأطفال للشباب لم يكن لها أثر قبل عشرين سنة فقط. دعونا نكن متفائلين، فقد سلكنا طريقا طويلا وحققنا أشياء جميلة وتمكنا من جذب قراء جدد وعززنا الرغبة في القراءة عند الأطفال - ليس كلهم لكن أغلبهم - وأنتجنا كتب قيمة نطبع بعضها عندنا إلخ. المجتمع الذي ليست لديه سلطة القرار السياسي ؛ وعليه فالمناضلون يجتهدون دون دعم. يجب وضع سياسة حقيقية للكتاب تجيب على أسئلة كثيرة : كيف نريد أن نرى بلدنا وما الذي نستطيع إنجازه فعليا ؟ هل يرغب الناس في القراءة أم لا ؟ وهل نريد أن تتطور العقليات أم لا ؟ هذه هي الأسئلة التي تتعين الإجابة عليها قبل أي شيء آخر. إننا نسبح في الاتجاه المعاكس وهذا مرهق، حتى أني في مرات فكرت في الاستسلام ؛ لكن الأمل يعود مع إشراقة كل يوم جديد. أنا فخورة بما أنجزته وما سأنجزه بعد ولا أنوي التوقف بتاتا.

باتت المكتبات والعديد من المدارس اليوم تتوفر على كتب وتبرمج حصص للمطالعة وهذا تطور كبير ولا ريب. أكثر من ذلك كتبنا معروفة بعدد من البلدان، خاصة فرنسا التي نزورها ونتعامل معها أكثر مما نتعامل مع العالم العربي. فيما يتعلق بخط تحرير هذه الكتب، فأنا شخصيا لا يهمني غياب أو حضور عناصر كالقومية أو العرقية في الكتب التي يقرأها الطفل المغربي بقدر ما يهمني أن نمكنه من كتاب يتحدث عن بيئته. فما الفائدة من نشر كتب تتحدث عن عالم لا ينتمي له الطفل المغربي ؟ لو أمكنني فعل ذلك لما ترددت لحظة واحدة. نصف ساكنة المغرب أطفال وشباب، فما الذي قدمناه لهم ؟ الدولة المغربية لا تحرك ساكنا في سبيل رفع شأن القراءة، خاصة بالمدارس.

ليس لدينا مكتبات خاصة بالأطفال، وإن وجدت فلا يكاد أحد يعرفها. تدشينات وزارة التعليم بعدد أيام السنة، لكنها بدون جدوى. فما هي إذن أفضل طريقة نحبب بها القراءة للطفل في ظل هذه الظروف ؟ أولا، يجب أن نتفق على أن القدرة الشرائية للمغاربة في الحضيض ولا تترك لهم رفاهية اقتناء الكتب، حتى الرخيص منها والمستعمل.

أشتغل قدر ما أستطيع على التراث الشفهي المغربي الذي أعتبره كنزا كبيرا، خاصة وأن الأجيال المغربية التي تحمل هذا الكنز بدأت ترحل، فكيف نخلد ونتوارث هذه القصص والأساطير إذا لم نسجلها. لكن تسجيل هذا التراث هدف كبير لن نبلغه بمبادرات ومجهودات فردية أو حتى جماعية ؛ الأمر يتطلب إرادة سياسية تؤمن بأهمية هذا المشروع.

أعتقد أن مستوى التعليم انخفض تدريجيا بعد التعريب. فقد أغلقنا الأبواب على الغرب وهذا مأساوي بالنسبة لي. واليوم يريد البعض أن نغلق الباب على الشرق باقتراح اللغة العامية. قد نعيش دون الإطلاع على الثقافات الأخرى من حولنا، لكن من دون شك انفتاحنا عليها نفعه أكبر من ضره.

يجب أن نعلم الناس تكوين مكتباتهم الخاصة التي يكون فيه الكتاب المغربي محاطا بكتب من القارات الخمس كلها. يفترض أن نبدأ من المدرسة. المشكل أن المدارس ليست بها مكتبات والمعلمون يتحججون بضعف الإمكانيات. في نظري، أكثر ما ينقصنا هو الإرادة والإبداع وليس الإمكانيات ؛ أتذكر أن المعلم كان يطلب منا إحضار كتاب لا يتعدى سعره خمسة دراهم لتشكيل مكتبة نسيرها بالتناوب. مشروع صغير كهذا لا يتطلب إمكانيات كبيرة وإنجازه متوقف على إرادتنا فقط.
أحيانا كنت أجد كتبا في مكتبات المدارس المغربية، لكن لا أحد يلمسها ؛ وهذا مشكل آخر يتوجب العمل عليه في مرحلة لاحقة بعد توفير الكتب.

حسن إد ابراهيم

شكرا للأستاذة نادية التي دعتنا إلى التفاؤل بمستقبل أفضل للكتاب والطفولة المغاربية، وبينت أهمية حفظ التراث بتدوينه ثم تقديمه للأطفال والشباب في أبهى حلة. من أبرز غايات أدب الشباب وكتاب الطفل حسب المتدخلة مساعدة الأجيال الصاعدة على الوعي بذاتها وتكوين شخصيتها. أعطي الكلمة للسيدة الصحراوي.

السيدة الصحراوي هادف

كما قالت نادية، لسنا متشائمين البتة. مثلا في جزائر العشرية السوداء دُمر كل شيء وعانى المواطن الجزائري إنسانيا وجسديا ونفسيا... لكن الجمعيات، خاصة النسوية منها، قامت بعمل جبار بعدما فرضت على الدولة توكيلها أمر رعاية الشباب وإعادة تأهيله. أليس في مثل هذا ما يبعث على الأمل، بلى هو ذلك. اليوم نحن مطالبون بتكرار نفس التجربة وتطويرها لأنقاد شبابنا، علما أن 70% من ساكنة البلاد هم شباب تتراوح أعمارهم بين 18 و30 سنة، وهذا رقم كبير جدا.
يجب أن نساعدهم على القيام بأشياء مفيدة، وهذا أمر صعب جدا في أيامنا المليئة بالإغراءات والأخطار. ومما لا شك فيه أن للأسرة دور أساسي في تعويد الطفل على قراءة الكتب والقصص بشكل يومي. المسؤولية جماعية تتشاركها الدولة والأسرة والمجتمع المدني.
تستفيد دور النشر بالجزائر من تسهيلات مهمة تساعد على تطور القطاع، فالورق مدعوم والضريبة على القيمة المضافة لا تتعدى 7% وإن لم نستطع التطور والتقدم رغم كل ما سبق ذكره، فهذا يعني أن الإرادة والرغبة غائبة تماما. فلنحاول إذن. الشباب يجب أن تمنح له فرصة التفاعل مع أكثر من لغة لأن في ذلك غنى لغوي وثقافي. يتهم أناس كثر بكتب الرسم والشعر والتاريخ والقضايا الاجتماعية والفن، وهي تحقق رواجا حقيقيا. بينما يهتم أشخاص آخرون بالكتب المصورة. لكلٍ اهتماماته والمهم هو أن الجميع يقرأ.

رؤوف الكراي

لست متشائما بالنسبة لتونس لكنني قلق وأثور على ما نعيشه لكونه لا يتماشى مع تطور عالم وكتب الأطفال.

أمينة الهاشمي العلوي

طوال العشرين سنة الماضية وإلى اليوم، ليس لدينا بالمغرب ناشرون مختصون في كتاب الطفل سوى ناشرتين اثنتين، وإليهما يعود الفضل في أن لدينا كتب تخاطب الشباب والأطفال. لقد حققتا نتائج مهمة بقوة الإرادة، حيث لا تتلقيان من وزارة التربية الوطنية سوى مساعدات ضعيفة وغير كافية. هنا لابد أن نقول بكل وضوح أن وزارة التربية الوطنية هي عقبة حقيقة في طريقنا. حقيقة أخرى يجب تأكيدها هي غياب تكوينات تهتم بكتاب الطفل. لن تقوم لأدب الشباب قائمة مادامت مدارس الفنون الجميلة لا توفر تكوينا في الرسم التوضيحي وغياب نقد أدبي مختص وورشات أدبية متخصصة. أتفق تماما مع ما قالته الأستاذة نادية ؛ يجب أن ننفتح على الغرب وعلى الشرق أيضا ونمد جسور التواصل، والكتب خير جسر يصل بعضنا بالبعض الآخر.

لقد تجرأت على الذهاب إلى البلدان العربية – زرت الشارقة بدعوة كريمة - والآن يمكنني القول أن لي عائلة هناك، حيث وجدت أدب شباب متفتح يرى الجميع أسرة واحدة يفيد بعض أفرادها من البعض الآخر.
لقد تواصلت مع منظمي هذا المعرض الرائع فكرة إحداث جائزة خاصة بأدب الشباب فتبنوها بفرح. هذا أمر رائع، لكن الأدب المغربي في هذا الباب يكاد يكون منعدما. ينقصنا الكثير ؛ فلا نكاد نجد أي رسامين مغاربة أو مغاربيين يشتغلون على القصص المصورة. لكن كلنا أمل أن تتحسن الأحوال، ونحن اليوم نستغل هذه المناسبة لتنظيم ورشات هدفها تكوين مؤلفين ورسامين ينتجون لنا قصصا مصورة تتنافس على هذه الجائزة.

روزالبا باليرميتي

أحيي كل المناضلات والمناضلين بالعالم العربي في سبيل خلق أدب للشباب والأطفال. أما إذا تحدثنا عن وضعية هذا الأدب بفرنسا، فمن الواضح أنه عرف تطورا كبيرا بفضل مناضلين ورواد مثلكم. كلنا نناضل من أجل تحقيق الهدف، لكن الفرق الرئيسي يتعلق بوجود إرادة سياسية حقيقية تتوخى دعم القطاع بجدية من عدمه. ففرنسا توفرت الإرادة السياسية ولعب المجتمع المدني دورا مهما فكانت النتيجة خلق مكتبات ممولة من قبل الإدارات. ذكرتم كذلك المكتبات المتنقلة التي تجوب العالم القروي لتقريب المسافة بين الأطفال والشباب والكتاب، هذا تماما ما قصدت ؛ يجب أن لا ننتظر من الدولة القيام كل شيء.
توجد أيضا مكتبات محلية، وقد وقفنا على العديد من المكتبات البلدية الرائعة بعدد من المدن المغربية. أما فيما يخص تكوين مهنيين يخلقون لنا أدب شبابي، أعتقد أن الوزارة مطالبة بدعم كل المتدخلين في هذه الصناعة من ناشرين ورسامين ومؤلفين ومكتبات... .في الحقيقة نحن محظوظون في فرنسا حيث تخصص جوائز مهمة للكتاب تشكل دعما مهما للغاية. للأسف الأمور هنا مازالت صعبة، والدليل أنني مرة قصدت الجنوب المغربي وتواصلت مع مهني الكتاب حتى نشتغل معا على تقريب الكتاب من الطفل ؛ الكل رحب بالفكرة، لكن اتضح أن جلب الكتب من فرنسا أمر معقد. كان علي اللجوء إلى ناشرين فرنسيين لجلب هذه الكتب. ما أريد أن أقول هو أن صناعة الطبع والنشر بالمغرب يلزمها الإصلاح.

مونة، لبنانية

أشكركم على الاستضافة. بصراحة لم نكن في المشرق العربي مطالعين بشكل كافي على ما يجري بالمغرب الكبير قبل زيارة أمينة لأبوظبي. فمثلا لم نكن نعرف مدى اهتمام المغرب بالأدب الموجه للطفل. كلنا متفقون على أن لا فائدة في التشاؤم وانتظار كل شيء من الدولة. بل على العكس، علينا أن نبادر ونعمل الكثير كمجتمع مدني. في لبنان، بذلنا مجهودات جبارة حيث عمل رسامون وكتاب من داخل ورشات عمل كثيرة على خلق علاقة طيبة بين شباب وأطفال لبنان والقراءة. وقد بدؤوا بأبسط الإمكانيات.
أشارت أمينة إلى أهمية خلق جوائز تشجع مبدعي كتاب الطفل، وأنا أتفق معها تماما. هذا الصباح، استفاد التلاميذ من ورشات للكتابة والرسم أعطتهم فرصة التعبير عن ذواتهم والفرح، وقد كانت تجربة رائعة رحب بنا الأطفال من خلالها في عالمهم الجميل. بدوري، سيرت ورشة عمل وكان الأمر رائعا. في البداية، كان الأطفال متوترون لكن هذا التوتر تلاشى وحلت مكانه الابتسامات المشرقة شيئا فشيئا. هذا التوتر أصله التربية التي تلقوها. ولذلك نقول إن التربية هي الأهم، الورشات ينبغي أن تشمل الأطفال بالمدارس وليس فقط مهنيي القطاع المختصين. هذا سيشجعهم على القراءة والرسم أكثر.

السيدة الصحراوي هادف

هذه السنة، أتحنا للأطفال فرصة ممارسة الرسم بعدد من المدارس، فكانت النتائج مبهرة، حتى أننا خصصنا لها معرضا خاصا كان أول من زاره أولياء الأمور. كانت التجربة أكثر من ناجحة.

مداخلة

أسمع اليوم أشياء أدهشتني : قيل أننا بدون مكتبات... وهذا عير صحيح ؛ وقيل أننا بدون رسامين... وهذا أيضا غير صحيح أيضا. كيف يصح هذا الكلام ونحن نتوفر على رسامين شباب مقصيين لا نعطيهم فرصتهم. أنا هنا أتحدث عن المغرب ككل لا المدن الكبرى فقط كالرباط والدار البيضاء ومراكش : اخرجوا من مكاتبكم ومدنكم وابحثوا عن هؤلاء الرسامين المؤلفين المدفونين بكل جهات المغرب. وشخصيا أعرف الكثير من هؤلاء الشباب. الورشات المنظمة بمناسبة هذا المعرض قد تخرج لنا شبان مبدعين علينا دعمهم.

سمر

أود التحدث عن العمل الرائع الذي تقوم به جمعية «السبيل» اللبنانية في إنشاء المكتبات بكل ربوع لبنان. تتلقى الجمعية مساعدات مهمة من جهات عديدة، وتحصل على فضاءات تحولها إلى مكتبات. وهذا تشجيع يذكر فيشكر. تسهر الجمعية أيضا على تنظيم دورات تدريبية حول أساليب التعامل مع كتاب الطفل وتحبيب القراءة لهذا الأخير. في نفس السياق، تنظم الجمعية جلسات يستمع خلالها الأطفال للقصص.

وليد

أنا كاتب ورسام من مصر. شاركت في قافلة ثقافية من تنظيم المعهد الفرنسي بتطوان بشراكة مع مجموعة مدارس الهلالي بطنجة. كانت مهمة القافلة، التي حطت رحالها بمدارس صغيرة مكونة من فصل أو فصلين، طرق الأبواب وخلق شيء من حب الكتاب. لم تكن الكتابة أو الرسم هدفنا الأساسي، بل تمكين التلاميذ من التحليق عاليا ورؤية العالم وفهمه.

نادية السالمي

نحن لا نعمل من داخل مكاتبنا فقط بل نتواصل مع الناس في الميدان. أما بخصوص المكتبات الحضرية، وتحديدا مكتبات الأحياء، فعددها غير كافي. فلا يعقل أن مدينة كالرباط بها ثلاث مكتبات أحياء فقط. شخصيا لا أعرف أن لدينا رسامين توضيحيين، وهنا يجب التفريق بين الرسم التوضيحي والرسم عموما. أنا كناشرة، طلبت من عدة رسامين العمل معي لكنهم يرفضون. أتعرفون لماذا ؟ لأن اشتغالهم في الفن التشكيلي يحقق لهم دخلا كبيرا يعجز الكتاب عن تحقيقه. إنها مسألة صعبة.

رئيسة الجلسة : السعدية سلايلي

المشاركون : نعيمة لهبيل، أنيس الرافعي، عبد النبي دشين، لطيفة باقا، محمد المرابطي، بديعة بنمراح، زياد خداش، سامح درويش

فضاء : إدمون عمران المالح

التاريخ : يوم الجمعة 22 شتنبر 2017

الساعة : 15 : 00 - 16 : 30

موجز مداخلات المائدة المستديرة

شارك في هذه المائدة المستديرة كل من زياد خداش، محمد المرابطي، السعدية سلايلي، بديعة بنمراح، لطيفة باقا، أنيس الرافعي وعبد النبي دشين من خلال قراءة مقتطفات من قصص قصيرة بصمت مسارهم الأدبي.

طرحت مديرة الحوار سؤالا واحدا على كل ضيف بهدف خلق نقاش. وقد حرص المنظمون على أن تشمل هذه المائدة المستديرة مجموعة كتاب فيها التنوع على مستوى الهوية والسن والنوع وطبيعة المواضيع المناقشة في الكتابة. كان ضيف شرف هذه المائدة المستديرة الكاتب الفلسطيني المشهور زياد خداش الذي قرأ مقتطفا من إحدى قصصه القصيرة المتمحورة جميعها حول موضوع روح الأماكن وسكان فلسطين. كما تحدث عن طريقة عمله ببلده كأستاذ للإبداعات المكتوبة.

قبل الحديث عن نصها بعنوان «ليس لدي هدف» بدأت لطيفة باقا بنشيد صورت فيه عشقها وسعيها للحرية ورفضها الاسترقاق والخضوع لأن حرية الفعل والاختيار عندها هي جوهر الحياة.

من جانبه، قدم أنيس الرافعي نصا بعنوان «الاعتراض والرد» وضح من خلاله كيف استطاع رجل عادي أن يصنع من الاستعراض الموسيقي عملا وحياة وأن يثبت ذاته بعد وقت طويل من العمل.

أكد عبد النبي دشين أن الكاتب مكلف بتمرير رسالة تعرب عن ما يشغل ذهنه لكي لا يسقط في الحذف والنسيان ؛ إذ تعمل الكتابة على تبيان الجمال والسعادة في نكسات الحياة.

أما محمد المرابطي فقد بين أن الكتاب غالبا ما يواجهون مشكل الخوض في الكتابة وعدم القدرة على الوصول إلى النهاية، لأن نظرتهم يمكن أن تتغير بسرعة خلال الكتابة وأن يؤدي ذلك إلى نص بلا قيمة، مما يجبرهم على العودة إلى نقطة البداية لتوضيح نظرتهم الشاملة للمشروع والتأكد من أن له التزاما محددا اتجاه قضية معينة.

عرفت هذه المائدة المستديرة أيضا مشاركة الشاعر والكاتب الفلسطيني سامح درويش وهو من محبي شعر «الهايكو».

السعدية سلايلي

تتشرف مدينة وجدة وجهة الشرق عموما باحتضان تظاهرة ثقافية بهذا الزخم الأدبي الكبير. وأنا بدوري لي عظيم الشرف أن أسير هذه الجلسة التي أريد بدأها بتقديم نبذة مقتضبة عن كل متدخل. كنت قد أنجزت بحثا بهذا الخصوص، لكنني للأسف نسيت أن أحضره معي. هذا لن يضر جلستنا في شي، بل على العكس من ذلك. كلامي سيكون عفويا نابع من القلب في هذه الجلسات الأدبية الأخوية. كل واحد من السادة المتدخلين سيناقش ويجيب على الأسئلة التي سأطرح. سنبدأ بالكاتبة الفرنكوفونية نعيمة لهبيل التي اختارت لها القرعة السؤال التالي : ما هو النص الذي تمنيتي أن تكتبيه ولم تكتبيه بعد ؟

نعيمة لهبيل

أفكر في كتابة سيرتي الذاتية منذ وقت طويل، وقد شرعت في ذلك لكنني لم أكمل الكتابة، لكون المسألة تتطلب شجاعة كبيرة. صعب جدا أن يتحدث المرء عن نفسه وعن عائلته. الأمر صعب جدا لأن حياتك وذكرياتك لا تخصك أنت فقط بل تخص آخرين أيضا. وغالبا هذا الآخر لا يريد مشاركة حياته الخاصة.

السعدية سلايلي

شكرا، والآن نمر للنصوص التي قمت باختيارها لنا.

نعيمة لهبيل

قبل أن أقرأ المقتطف المأخوذ من كتاب «الإدمان على فاس»، المتوفر بمكتبات المغرب منذ الأمس والصادر قبل سنة من الآن بباريس، أود أن أضعكم في السياق. يتعلق الأمر بثلاث قصص قصيرة تدور أحداثها بمدينة فاس كنت قد كتبتها في غمرة تأليف رواية جديدة حول المدينة العتيقة. الشخصية البطلة في القصة الأولى هي جار إحدى بطلات الرواية المذكورة. خرج هذا الجار من الرواية ولم يرد مفارقتي. أنا بدوري تقربت من هذه الشخصية وأردت أن أعرف عنها المزيد. فكنت كلما عجزت عن مواصلة الكتابة أتسلى بالتعرف أكثر على تلك الشخصية، فكانت قصة قصيرة بعنوان«داروين». القصة الثانية بعنوان «الإدمان على فاس» حول شابة أحبت فاس فأحبتها فاس. القصة الثالثة بعنوان «ابن الزنا» فتحكي حياة إنسان. «الإدمان على فاس» هي نص مستوحى من مذكرة الكاتبة أنايس نين التي عرفت لاحقا أنها أقامت في خمسينيات القرن الماضي بفاس العتيقة بدعوة من الباشا المقري. كانت كاتبة وعارضة أزياء جميلة جدا ؛ وقد كتبت صفحات رائعة على المدينة العتيقة. من بين شخصيات «الإدمان على فاس» شابة تدعى أنايس تريد زيارة الأماكن التي مرت منها في وقت مضى كحمام وساحة الصفارين... أنايس القصة هي أنايس الواقع. لماذا تعتبرين فاس نوعا من الإدمان ؟ قد يسأل البعض. جواب ذلك في عند أنايس التي كانت تعاني الاكتئاب. اكتئاب هذه الشابة خف بعد ثلاثة أو أربعة أشهر من وصولها للمدينة العتيقة. وقد كتبت في مذكراتها تقول إن طوبوغرافيا المدينة المتميزة بالالتواء والتعقيد الشديد بأماكنها المرتفعة والمنخفضة والمنيرة والمظلمة كانت بمثابة مرآة لنفسيتها، فقد انفصلت عن نفسها وعن كآبتها أيضا، وبذلك تعافت مباشرة بعد انتهاء مدة إقامتها بالمدينة العتيقة.

فكرة إعادة صياغة هذه الوضعية الإنسانية في قصة قصيرة سيكون أمرا جملا، خاصة أن نفسية الشخصية الرئيسية للقصة القصيرة الثانية مكتئبة المقطع الأول سيكون من قصة الجار الذي يسكن بالمدينة العتيقة رفقة زوجته الحامل التي تريد المغادرة. أكثر ما يعكر صفو الحياة بفاس القديمة هو حطام المنازل، فرائحته كريهة ويساهم هذا في سقوط المنازل المجاورة شيء فشيء... البطل يحمل على عاتقة إزالة هذا الحطام.

«لم تكن هذه السنة ممطرة كذلك، ولن تنتج أشجار الزيتون التي تملكها أمه ببني سعدن سوى كمية أقل عن السنوات الماضية من الزيتون والزيت. وخلال العودة (وبما أنه ارتدى هذا الصباح جلبابه الصوفي)، توقف قرب مسجد القرويين للانضمام إلى صلاة الجماعة وقضاء صلاة الاستسقاء والدعاء من أجله ومن أجل عائلته ومن أجل الحطام، ليتم تخليصهم منه، ومن أجل المولود القادم، لكن لماذا سيدعو الله ؟ هل سيدعوه لتلد كوثر قريبا جدا ؟ ولكي تكف عن مضايقته ؟ لقد قضت الليلة وهي تتقلب في السرير، لابد أنها تنام بعد ظهر كل يوم. تقول أن الطفل بارد وأنه جائع، لقد أصبح حاليا يكره هذه الكلمة، فقد كان يتطلع لقدوم الطفل وإعطائه اسما. أشعل النور وسخن الحليب على الموقد الصغير المتواجد عند سفح السرير. قال له الطبيب أنه يلزمها والطفل على الأقل لتر ونصف من الحليب يوميا، وبعد ذلك قام يوسف لإطفاء النور. بعد أن خلد للنوم ثانية وسحب بطانية سميكة عليه، ودون إشعار بدأت زوجته بالبكاء، بدموع صامتة، وضع يوسف رأسه تحت الوسادة (بما أنني لم أسمع شيء فهو غير موجود)، لكن الدموع الصامتة أصبحت شهقات صاخبة، يعلو صوتها أكثر فأكثر (الأم والجيران يسمعونها على الجانب الأخر من الجدار إذن فهي حقيقية)، مستسلما ألقى يوسف بالبطانية الحنونة ومر من الغرفة المتجمدة، فقد كان مفتاح الضوء بالجهة الأخرى في الأعلى على يمين الباب الكبير الخشبي.»

سأقرأ مقتطفا قصيرا آخر من القصة القصيرة «ابن الزنا»، الشخصية البطلة لا اسم لها والكل يدعوها «السيد». نفهم من القصة أن أم البطل كانت تعمل كطباخة داخل رياض فخم، وأن صاحب البيت اغتصبها لتجد نفسها حاملا بولد لم يعترف به والده لأنه ابن زنا. تمر الأيام ويهاجر الولد المنبوذ إلى حيث يكون ثروة قبل العودة. الولد المنبوذ الغني الآن قادر على شراء هذا الرياض. وقد اشتراه فعلا وطلب أن يجهزه لإقامة حفل، وهنا بالضبط تبدأ القصة القصيرة.

«يعج الرياض بالناس والهمس ويخفق وتهمس الثريات وتحلق المرآة المهاجرة من البندقية نحو السماء المليئة بالنجوم وتعكس القمر الدائري الفضي لتدعوه أيضا إلى الحفل. الضيوف فيأكلون العناقيد بالتوالي وأفواههم مفتوحة مارين من القاعات الكبيرة، وقاعدين على الزرابي الناعمة. أما الخدم فكأنهم راقصون أشباح، يزيحون المقاعد ويملئون الكؤوس ويفرغون منافض السجائر. السيد رشيق، ويلبس جلبابا أبيض وشباشب في تناسق للألوان. الوصول إلى السيد صعب المنال ؛ مرت السهرة وهو يومأ برأسه يتلقى بطاقات العمل ويصافح أيادي الجميع، حتى أيادي أبناء الباشاوات الذين يقفون مذهولين والغيرة والعجرفة تملئ قلوبهم ويشربون الشمبانيا الكلاسيكية بشراهة كما لو كانت لبنا. يضحك كل من في البيت ملء الأشداق. وحتى ساعة متأخرة... متأخرة جدا كان لم يكن الرياض قد لفظ آخر الضيوف قبل الإغلاق.
بعد رحيل آخر ضيف، قال السيد لسعيد : لا تذهب ؛ لقد كان قرار تحويل المطبخ بالحمام قرار رائع، هيا فلنذهب. خلع السيد ثيابه بصمت ولف نفسه في منشفة وأعطى واحدة لسعيد ثم دخل غرفة إضاءتها خافتة. جلس على بلاطة الرخام الساخنة وأدار ظهره إلى الجدار وأغمض عينيه وتنهد. يمد له سعيد الجالس بجانبه قنينة الماء وكوبا مليئا بالصابون الأسود ويضع له وسادة وراء ظهره، إلخ.»

سأقرأ مقتطفا صغيرا آخر، ويتعلق الأمر هنا بلقاء سعيد. يكلف السيد «سعيد» الذي عاش والسيد الطفل قبل سنوات في الطابق السفلي حيث كانت والدة السيد تعمل كطباخة- كلفه بإعادة تأهيل هذا الرياض. لقد شاءت الأقدار أن يلتقيا من جديد بعد ثلاثين سنة. بينما بقي سعيد هنا كون السيد ثروة في مكان آخر ؛ وقد كان اللقاء بينهما في مؤخرة هذا المطبخ بالمكان الذي نام فيه على السجادة مهترئ. تدور أحداث القصة في هذا المكان حيث التقيا.

«أجل، السيد يبكي، إذ يحس من شدة المعاناة وكأن جدعا كبيرا جافا من الخشب عالق في حنجرته ويمنعه من الكلام. نزل الكلمات والدموع من شفتيه كبلسم جاف وغير صالح للاستعمال. إذ يتذكر السيد أمه وفراش «الحلفة» الخشنة الذي كانا ينامان عليه في المطبخ المظلم المتسخ بعد تقديم الطعام بالطابق العلوي وغسل الأواني وبعد أن تتمكن أمه من الاستلقاء أخيرا. فالغضب حاضر ولم يتغير. يتخيل سعيد الكلمات، ويسمع الوحدة والغضب ويرى الأيادي الخشنة كألواح الخبز، ويحس سعيد أن الحرارة تحرق جوفه، إذ يتصاعد البخار وتقترب جدران الحمام من بعضها محيطة بالسيد وتأرجحه مثل ذراع غريب يفيض بحنان الأم، لأن جدران الحمام بهذه المدينة العتيقة ذات الألف عام، تهمس في الأذان المنهكة موسيقى عذبة وتصب رحيق الغفران في قلوب الرجال الجاهزين للولادة من جديد.

يشعر سعيد أن الدموع تحرق عينيه الجافتين منذ زمن طويل، فتسيل وتروي شفتيه المشقوقتين كالأرض المتعطشة بالخارج والمنتظرة لمطر صار متكبرا وشحيحا. يتنفس السيد ببطء وعمق، فينفتح صدره وينكشف ألمه المطمور بداخله منذ زمن بعيد، مثل جسد غريب وشرير فيتوسع ويصعد إلى السماء. ينهض الرجلان ويجففان جسديهما ثم يخرجان من الحمام. طلع النهار، يدخل الهواء البهو النقي من القبة المفتوحة، فيهمس السيد: أحس بأنني خفيف، خفيف وحاضر. سعيد أرجوك، جهز لي حقيبة سفري لأنني سأسافر اليوم.»

السعدية سلايلي

واجب الضيافة يحتم علي أن أجدد الترحيب بضيفنا العزيز الأستاذ خداش. المطلع على أعمال الأستاذ يلحظ تردد فكرة مفادها أننا عندما نكون برام الله، فهناك أكثر من سبب يدفعنا للبكاء. حسن، سؤالي إليك أستاذ هو كالتالي: لو لم تكن من رام الله فمن أي بقعة من العالم كنت تتمنى أن تكون؟

زياد خداش[1]

«طوال عشرين عاما وأنا أرى شخصا اسمه مفيد في طريقه إلى رام الله، من رام الله العليا حاملا كيسين من البندورة والبطاطا. كان فارع الطول منحنيا قليلا وكان يرتدي سترة رمادية مطأطأ إلى الأرض، كنت أقول في نفسي وابتسامة خفيفة تعلو محياي «أنا وأنت يا مفيد نطارد بعضنا». كنت كلما رأيته ألقيت إليه التحية «مرحبا مفيد» فيردها قائلا «أهلا أستاذ صلاح» كان يظن أن اسمي صلاح. ذكرته باسمي حتى كل متني فامتنعت مادام كل ما نحتاجه هو تحية برأس متعب وكلام مغمغم. لا أتذكر كيف ومتى كان لقاؤنا الأول، هو من الأشخاص المعتادين الذي أمر عليهم كل يوم دون أن أفكر فيه، تماما مثل مروري يوميا بعمارة حنانية الفراز، ولا اعرف حتى الآن مهنته، وأين يسكن، وما بلده الأصلي وإن كان لاجئا، وهل هو متزوج أم لا، لم اشعر بفضول لمعرفة كل ذلك، لم يشعرني هو بأهمية معرفة أي شيء، رجل مرئي يعود إلى بيته في وقت محدد، يلقي علي تحية ويمضي في طريقه، مفيد بالنسبة لي كان يشبه كيسين من الخضروات وشخصا يعود في الخامسة مساءا إلى البيت، وهي ساعة أضبط بها وقتي و تحركاتي، وأتذكر مواعيدي المتأخرة، رأيته مرة فتذكرت أن الساعة صارت الخامسة، فضربت الأرض بقدمي لأن موعدا متأخرا مع صديق قد فاتني، إحساس غريب صار ملازما لي كلما رأيت مفيد في الآونة الأخيرة، ربما لأنني أشاهد هذه الأيام فيلم حياتي بكل ما فيه من محطات خيبة، ومرافئ متعة، شيء مفاجئ يدعوني إلى محبة مفيد وإلى احترامه وانتظاره، والاعتذار له، وسؤاله عن أي شيء، وحين اختفى مفيد فجأة من شوارع رام الله، ومن الساعة الخامسة، ومن مساء المدينة، ارتج شيء ما بداخلي، منذ ستة أشهر لم اعد أرى مفيد، شيء في داخلي تشوش، انكسر، اختل، كان مفيد يشبه شارع حسبة أوحي المصايف أو مكتبة الجعبة أو فلافل عبده أو مقهى الانشراح أو... كان مفيد رام الله، كان أنا، رافق تحولاتي الجسدية، وشهد على انقلاب الأدبين، ورأى انكسار قلبي ووطني، كان صديقاتي وبيوتي القديمة وسندوتشاتي وكتبي، لم أعد أراه، سألت صديقي الذي يعمل في محل أزهار، آه قصدك عبد اللطيف؟

لا، ليس عبد اللطيف قلت لك اسمه مفيد، يا عزيزي الشخص الذي يمر كل يوم أمامي في نفس الساعة التي ذكرتها بقامة منحنية اسمه عبد اللطيف، أنا متأكد، إذن لم يكن اسمه مفيد، كان هو الآخر يشعر بكسر في تصحيح اسمه لي، كنت لحظة ضجر له مثلما كان لي، عام كامل بلا مفيد، اختفت رام الله، استيقظ بداخلي شعور غريب، بأني لم أعرف رام الله، كنت كسولا في معرفتها، أو ربما كانت هي ضجرت من معرفتي، كما كنت أنا ومفيد كسولين وضجرين من معرفة اسمينا الحقيقيين، ولا أدري كيف خطر ببالي عوني صاحب محل الأزهار، صديقي الحميم، زميلي في الجامعة، رفيقي في النضال، ما الذي يؤكد أن اسمه عوني ؟ شكرا.»

السعدية سلايلي

لطيفة باقا، لم تولد وفي فمها ملعقة من ذهب، كان عليها أن تستعير الكلمات لتمشي حافية في اتجاه تحقيق ذاتها، سألت سؤالا، ما الذي نفعله ؟ فنالت عليه جائزة، ربما كانت تعيش حياة أخرى مختلفة، وتطرح أسئلة عن مآلها. أدخلها فضولها غرفة فيرجينيا وولف وخرجت بمجموعة قصصية. أستاذة لطيفة، لو لم تكوني كاتبة فماذا كنت ستكونين ؟

لطيفة باقا

ربما كنت سأكون خياطة طرازة... مساء الخير، سعيدة جدا بوجودي بينكم وزيارة وجدة وجهة الشرق عموما لأول مرة، أشكر جميع الحضور الذين سهروا على هذا اللقاء. اخترت لكم نصا من مجموعتي القصصية الأخيرة أتمنى أن لا يصيبكم طوله بالملل، هذا أنسب نص وجدته فأغلب نصوصي طويلة يفترض أن تقرأ فرديا. لكن كما يقال المناسبة شرط، لذا سأعمل ما في وسعي. عنوان النص «*إلى أين تتجه هذه الحافلة*». وكجميع نصوص المجموعة القصصية «*غرفة فيرجينيا وولف*»، افتتح القصة بعبارة أو مقولة ذات دلالة معينة.[1]

«ليس لدي هدف معين، لا أعرف ربط الدقائق بالدقائق، ولا الساعات بالساعات، وإذابتها بقوة طبيعية لكي أركب الكتلة الممتلئة غير المجزئة التي تطلقون عليها اسم الحياة. «للمرة الثالثة خلال الأسبوع نفسه، سأصادف «دنيا» في الأحلام. لقد كان حلما بالألوان. لقد فهمت ذلك عندما رأيت امرأة ترتدي ثوبا بنفسجيا، صوتها كصوت أمي، كانت تتحرك أمامي. ولقد أيقنت ذلك حينما شاهدت طفلة تنحني من أجل التقاط مصاصة صفراء سقطت منها على الأرض. وفي تلك اللحظة بالذات، ضرب كتفي المكشوف كتف دنيا المكشوف أيضا فشعرت بتلك الرعشة القوية التي أعرفها. نظرت إلي بوجهها الجميل المستدير دونما ابتسامة ثم واصلت طريقها. لقد كنا في حينا القديم، حي طفولتي. لقد تتبعتها بنظراتي بينما هي تبتعد. كانت تبدو مسالمة في جلباب أسود بدون أكمام مزين بسفيفة حمراء. لقد عرفت بأنها دنيا قبل عام من إصابتها بانهيار عصبي، وبعد عام من زواجها من عبد الحق السني أستاذنا في مادة الرياضيات. في الوقت الذي كانت تقبل فيه على الزواج، كنت أتراسل حينها بوتيرة رسالة في الأسبوع مع س.س والذي سوف يحبني فيما بعد، كنت قد حصلت على عنوانه عن طريق برنامج صداقة يذاع في الراديو عند منتصف الليل، عبر أثير الترانزستور الذي كنت أسحبه من تحت مخدة والدي بعدما أتأكد أنه يغط في نوم عميق. إنها دنيا ما قبل الزواج، بينما أنا لم أتغير بعد استقالتي من الوظيفة العمومية، وبعد انتهاء القيود التنظيمية اللعينة، وبعد إصابتي بعرق النسا. كم كان من الممتع لقاء دنيا الماضي ومقابلتها في المستقبل : إنها الفرصة الوحيدة المتبقية لنا في هذه الحياة من أجل أن نعود أصدقاء كما كنا من قبل. ويظل الحلم المجال الوحيد الذي يسمح لنا بالقفز على عنصر الزمن وعلى التقلبات الشخصية السخيفة. نحن الآن في زمنين مريحين ومناسبين لكلتينا. «دنيا» ما قبل الزواج، فتاة شابة مرحة، وأنا بعد توقف حياتي الملتبسة بعد التحرر من عبودية العمل، صرت هادئة ومسالمة. صحيح أنها كانت ثرثارة ولم تكن تسمح لي بنبس كلمة واحدة في سيل لفظها الذي لا ينضب.

وبالرغم من ذلك كانت صديقتي، وكنا كلتينا نحب المسرح وكارل ماركس. كنا نتوجه مساء كل سبت إلى مقر منظمتنا السرية في نهاية الشارع الكبير، الذي كانت تطلق عليه أمي «شوفوني»، من أجل التخطيط لقلب النظام. وعلى ما يبدو أن بعض الشابات كن سعيدات. فقد كن يتجملن ويخرجن في الليل بمشية استعراضية متثاقلة ذهابا وإيابا، مجسدين بذلك الشعار الوطني «لي زربو ماتو». هن اخترن البقاء على قيد الحياة أطول وقت ممكن لكي تظل إمكانية اصطياد عريس حاضرة إلى الأبد. كان شارع «شوفوني» أكبر نادي قمار لحياتهن. عندما يأتي المساء تنتشر رائحة الجنس في المدينة فيعج الشارع بأجمل الفتيان والفتيات. تتداخل الأجساد الملتهبة بالرغبات الدفينة، وتتبادل النظرات، فتلامس الأكتاف الخواصر. ابتسامات وأنصاف كلمات متبادلة فتغرق القلوب في حزن ممزوج بالرغبة، يكون نارا مشتعلة في بدايته لتتلاشى بعد حين.

أنا ودنيا كنا نمشي بسرعة حيث لم نكن من عشاق شارع «شوفوني». بنات الحي كن ينظرن إلينا باستنكار وغضب، لأننا كنا مثل ولدين لم يكملا نموهما بعد. لم نكن نملك أحمر شفاه وردي من النوع الذي يضفي طابع البراءة. كان شعري مجعدا كشعر «آنجيلا ديفيس»، في حين كان شعر دنيا مقصوصا على شكل سنبلة ناضجة في حقل منسي. هذا ما كان لدينا، لم نكن نخفي شيئا من مفاتننا كما أننا لم نكشفها أبدا من أجل «صيد» بعضهم على غرار ما كانت تفعله الأخريات. ففي حينا، كانت الفتيات تغطين شعرهن عند بلوغهن سن المراهقة فيصبح الشعر نوعا من السر تحافظ عليه، إذ تحرص على ألا تكشفه إلى حين زواجها بغية إثارة الخطيب، ذلك الذي يطرق باب والديها طالبا يدها، إلى ذلك الذي يأخذها كهبة دون نقصان، لأن الخداع في أمور مماثلة مرفوض قطعا. كن يرتدين الجلباب ويخرجن «لربما» أنا ودنيا لم نكن ننتمي لفصيلة «لربما»، كنا نستعجل الوصول لمقر الحزب قبل انتهاء الاجتماع.

سناء، أختها الفاسقة، كانت تردد بابتسامة ماكرة على خلفية شغفنا بالكتب أنتما الاثنتان، مجنونتات، أقسم على أن أي رجل كيفما كان شكله ورائحته، لن يحتاج لأكثر من قصيدة يلقيها على مسامعكن لاستدراجكن سويا كالخرفان إلى فراشه !

دنيا ما قبل الزواج صارت فجأة دنيا ما بعد سن اليأس. تمسكني من يدي ثم تقبلني على شفتاي فأحس بتلك الرعشة مجددا. أجلس على مقعد في محطة وقوف الحافلة، ذلك المقعد نفسه الذي كنا نجلس عليه في حافلات مخربة ومكتظة ومتأخرة. تنظر سليمة أمامها، أحيطها علما بمعرفتي بكسر مؤخرة أختها : اكتشفت في الحمام أن أختك الفاسقة سناء تعاني من تشوه في مؤخرتها على شكل انبعاج جانبي عميق. التفتت إلي فتوقفت عن الكلام. كنت سأخبرها في حقيقة الأمر أنني ربطت هذا التشوه بممارستها للدعارة، أو لتعرضها ربما لاغتصاب أو اعتداء. فتحت عيناها الجميلتان الواسعتان والفاتنتان وأردفت باحمرار : «أعلم أنك تعرفين، ولكن ما تجهلينه أنها كانت ضحية لخطأ ممرضة لعينة حقنتها في مؤخرتها عندما كانت طفلة، مما نجم عنه التهاب خطير تحول إلى عدوى في مؤخرتها. فبعد خضوعها للعلاج، تركت هذه العدوى ثقبا عميقا في مؤخرة أختي». سكتت لبرهة، ثم أضافت : «كانت ما تزال صغيرة، بريئة جدا ولم يكن يتوقع أحد أن تصبح بائعة هوى». فكرت سريعا في محاولة مني لإيجاد جانب إيجابي للأمر، فقلت : «لقد صنع لها هذا التشوه صيتا بين زبنائها في جميع أرجاء المدينة وخارجها. ومما لا شك فيه أن السر أصبح جليا بل وصار دعابة. إنها زيادة في الإثارة تحرك حتما فضول البعض وتدفع الكثير منهم لصرف مبالغ مالية كبيرة ببذخ من أجل إشباع فضولهم». «قولك صحيح، خصوصا عندما ندرك أن زبائن الجنس يشعرون بالملل من تشابه المؤخرات.» وفي هذه اللحظة ضحكت في نفسي وأنا أفكر في كون أختها تملك تجويفين عوض واحد، وهذا في حد ذاته منفعة لأطراف المتعة. تدعى فاطمة في دفتر الحالة المدنية ولكن تلقب بسناء عند زبائنها. وتمضي وقت فراغها في ترتيب المنزل وغسل السلالم بكميات كبيرة من المياه حتى تصل إلى الزقاق. إن مزاجها عصبي لدرجة أنها تصرخ في وجهي بمجرد أن أضع أصبعي على جرس المنزل، بيد أنني أصر ولا أتوقف إلا عندما تطل دنيا من نافذتها في الطابق الرابع لتراني.

تحاول سناء رغم ذلك أن تعيش حياة عادية ككل الفتيات اللواتي سوف يتزوجن حتما ذات يوم، وذلك لقيامها بالأعمال المنزلية أولا، ثم نتيجة لعلاقتها العلنية مع حبيبها الساذج الذي يشتغل في الإمارات العربية المتحدة، ويرسل لها من هناك رسائل رومانسية مأخوذة من كتب المراسلات، في النسخة الشعبية، إضافة إلى عطور باهظة الثمن، حبيبها، الذي يحسب أنها ما تزال عذراء، سوف يعود لأرض الوطن من أجل أن يتزوجها ويدخل بها، ويظن أنها بنت من عائلة محترمة. خالتي، والدة «دنيا»، وزوجها، والد «دنيا»، كانوا أناسا طيبين، انفصلوا منذ زمان. وبسبب الفقر والتفكك العائلي، لم يهتم أي أحد منهما بمصير تلك المخلوقات التي أحضروها إلى الوجود على كل حال. والنتيجة : أن البنت الكبرى أصبحت عاهرة تملك علامة تميز على شكل تجويف إضافي في مؤخرتها، والابن الأكبر الحاصل على دبلوم في الدراسات الإسلامية انتهى به الأمر كبائع للرقائق والفول السوداني على عربة يد صغيرة أمام مدخل مدرسة ابتدائية. لقد كان معروفا بإدمانه الحشيش وشعوره بالإهانة. البنت الثانية، «دنيا»، شيوعية ذات شعر أحمر ترتدي الكوفية حول عنقها، كانت تحلم بأن تصبح فنانة مسرحية، ولكن سوف ينتهي بها المطاف بزواج مبكر وصولا إلى مستشفى الأمراض العقلية.

الإبن قبل الأخير عنده سوابق في الاعتقال بسبب مشاجراته اللامتناهية مع شبان الحي كلما تعلق الأمر بأخته فاطمة، الملقبة بسناء. وفي الابن الأصغر اجتمعت كل موبقات إخوانه وأخواته : إنه عاطل عن العمل، مدمن مخدرات ولا يؤمن بوجود خالق لهذا الكون البائس، وعلى غرار أخته ذات التجويف، فهو يمارس الدعارة مع الصيادين... عائلة ملعونة. ويقول إنه بدون عائلة وليس في ذلك مدعاة للعار. أن يكون بدون عائلة أرحم بالنسبة له من أن تكون عائلته مجموعة من العاهرات والمنحرفين جنسيا. حافلة الأحلام رقم عشرة قد أتت، ودنيا تجلس بجانبي. فأضع رأسي على كتفها المكشوف والبارد. لقد هجرتني وتزوجت من أستاذ الرياضيات. فأقمت علاقة مع س.س لكي أزعجها، وأزعج أستاذ الرياضيات وأزعج نفسي.

كانت علاماتها في الرياضيات ضعيفة جدا وكنت أقدم لها يد العون، ذلك لأننا كنا نتشارك الحلم نفسه بالهجرة إلى النرويج، هناك حيث لا أحد يشكك في انتماء النساء للجنس البشري. وفي نهاية الأمر، اكتفت بالذهاب إلى فرنسا لكي تهاجر مع زوج لا يعرف في الحياة سوى X و Y، وشؤون مجتمع المغتربين وممارسة الجنس الشرعي. تجري الحافلة رقم عشرة بسرعة كبيرة كما لو كانت على علم مسبق بوجهتنا. رأسي على كتف دنيا ودنيا تنظر إلى الفرا غ أمامها. أحاول أن أنام. يزداد العالم كثافة في رأسي. صوت أمي يطاردني : تريدني أن أصفف شعري وأن ألبس تنورة. وفجأة يهيمن صوت أبي الذي كان يدندن أغنية على صوت أمي، والترانزستور في أذنيه «عدت يا يوم مولدي» لفريد الأطرش، ثم صوت نشرة الثامنة على قناة الجزيرة. لم تنجح منظمتنا السرية بعد في قلب النظام. فيرتفع فجأة صوت سناء لتخبرني برحيل دنيا لفرنسا رفقة زوجها عبد الحق، أستاذ الرياضيات. أسمع صوت سيارة الشرطة، ثم صوت سيارة الإسعاف. يهمس لي «س.س» كم يرغب بي فتشعرني رائحة فمه بالاشمئزاز. يمتزج صوته مع صوت الطبيبة، التي ألقت علي خبر إصابتي بعرق النساء. أرفع عيني نحوها، وأسمع نبضات قلبي القوية. يدق ويدق بكل غباء متاح بسبب وجود دنيا إلى جانبي. تجري الأشجار بسرعة عكس اتجاه الحافلة. أشاهد انعكاس وجهي على زجاج النافذة أمامي، فأكتشف أنني لست أنا، أنا أخرى. أشاهد انعكاس وجه دنيا، والتي كانت نفسها بجانبي، ووجه تلك التي ليست أنا. يصلني صوتها العذب دون أن تراني. عبد الحق غلطة حياتي وأنا غلطة حياتك. أيمكننا إصلاح أخطائنا بارتكاب المزيد من الأخطاء الرائعة سويا عندما نغادر هذه الحافلة المتجهة إلى... إلى... فتتطلع إلي فجأة، «بالمناسبة، إلى أين تتجه هذه الحافلة ؟»

السعدية سلايلي

لقد لخصت حياة جيل كامل من النساء. أنيس الرافعي، ما الذي تبحث عنه أثناء الكتابة، والتجريب والمحاولة ؟ هل تبحث عن خطاب جديد أو عن موضوع جديد لم يسبق أن تطرق إليه أحد من قبل ؟

أنيس الرافعي

عندما نشرع في الكتابة، نبدأ بليونة وكلما تقدمنا كلما تعلمنا طريقة العمل. أنا سعيد بتواجدي في هذا الملتقى إلى جانب أسماء لامعة، ويسعدني أن أقدم لكم نصا قصيرا بعنوان : «اعتراض ورد»[1].

«في مراكش، هناك دائما رجل غريب سوف يأتي منذ الصباح إلى ساحة جامع الفنا. سوف يتوقف في حلقة ولاد الغيوان، يقودها عازف هجهوج، ذلك العازف نفسه الذي قبل أن يستأنف لعبته الموسيقية، سوف ينزل يده لإعطاء إشارة لأعضاء الفرقة بأنه سوف يقدم في البداية قطعة بمفرده. في الواقع، سرعان ما يمسك آلته بيده، سوف يعزف بمهارة استثنائية، لم يصل إليها من قبل. سوف يعزف بكل جوارحه ومن أعماق أحشائه. سوف يعزف مقطوعات لا يعرفها ولم يحفظها. سوف يعزف حتى يمدد غطاء سميكا من الغرابة والصمت والتمتع على كل من حوله. سوف يكشف عن كل ما يخرج عن قدرة التأويل، لدرجة تدخل الجميع في حالة من الغياب، كظلمات نفق طويل، طويل جدا بعتمته الداخلية.

سوف يتمنون من كل أعماقهم ألا تعرف هذه النغمات نهاية، لأنه وفي كل قطعة، هالة من النور تغذي أرواحهم داخل هذا النفق الطويل. تتوقف الموسيقى، فتشتعل الحلقة بموجة من التصفيقات والنشوة، تلك النشوة التي تقبل الوجوه، وتسم لقاء الروح بروحها بعد تيه طويل. جميع الحضور على علم بما حدث، وحده الرجل الغريب لن يعلم أبد أن العازف كان أعمى، وأن الهجهوج كان بدون أوتار وأنه لا وجود للفرقة.»

السعدية سلايلي

سؤال لك عبد النبي دشين : من هي الشخصية التاريخية الحية أو الميتة التي تحبذ أن تكتب عنها ؟

عبد النبي دشين

شكراً لك السعدية على البهجة التي تضفينها على هذا اللقاء. أما بالنسبة للرسالة ، فأنا أعتقد أن الكاتب لا يمكن أن يكون لديه رسالة لأن الكتابة في حد ذاتها أجمل رسالة : الكتابة لتجنب النسيان، والكتابة لكي تبقى الحياة جميلة .. أنا سعيد جداً بوجود أصدقاء رائعين وأنا فخور بصداقتهم الطويلة. في هذا اللقاء، أشعر بالإطراء بمجموعة من الصداقات، وأحيي الشاعر الراقي سامح درويش وكل الحاضرين. فيما يتعلق بتعليقك عن نعيمة - التي أشارت في مداخلتها لشيء سوف أجعل منه محور هذا التبادل- عندما تحدثت عن المباني التي تقع وتلك التي لا تقع. فعندما يسكنها الناس فهي تقاوم. ما هي العلاقة بين هذا وذاك، كل العلاقة ؟ هذا اللقاء بدفئه مدين بالكثير للعقول المنيرة. أحيي كل هذا الحضور الرائع، وجميع المنظمين وكل من ساهم في إنجاح هذا اللقاء، وزميلتنا من اللجنة المنظمة، وأصدقائنا التقنيين... أقترح عليكم النص الآتي المعنون : *«الغرفة المنيرة»*[1].

ضوء يوجه شاشة هاتفه نحوه، يعدل وقفته بصورة تمكنه من التقاط صورة بجودة عالية لتخليد اللحظة. يتذكر كلمة «بوبا» التي تقول أن الصورة مثل قبلة مسروقة. يحتار في اختيار الزاوية الأنسب، يميل إلى اليمين، وإلى الشمال، يرفع رأسه قليلا، بعيدا عن الكاميرا، يحاول اتخاذ شكلا طبيعيا من دون تكلف ولا إضافات ليظل طبيعيا.

ويتساءل لما يطلبون منا الابتسام في لحظة التقاط الصورة : هل لأن الوجه يصبح منيرا في تلك اللحظة ويضفي على الصورة إشعاعا إضافيا ؟ استحضر لوم زليخة له عندما أرادت أن تلتقط له صورة : «لماذا تمحو ابتسامتك بهذه السرعة كما لو كنت نادما على تخليك المفاجئ عن حالة الحزن المرسومة على محياك ؟ لم أر قط وجها محكوما عليه بالحزن وخيبة الأمل كوجهك». يضع هاتفه على دعامة الكرسي، ينهض ثم يتوقف أمام صورة على الرف الثاني من مكتبته، التي تستند إلى أعمال أصدقائه المبدعين.

يقوم بحركة بشفتيه، ثم يسحب نظارته محاولا وضعها على عينيه الصغيرتين. كم هي طويلة المسافة بين حركة يديه والصورة ! يسحب من الرف على التوالي ترجمة «الغرفة المنيرة»، وديوان قصائد، ومجموعة قصصية ثم رواية.

يتأمل من جديد صور المؤلفين على ظهر الكتب ثم يعيدها إلى مكانها. يأخذ هاتفه، من دون تكلف لكي يكون على طبيعته، يحاول أن يبقى طبيعيا، يرفع رأسه بعض الشيء، بعيدا عن الكاميرا، يميل إلى اليمين فالشمال، يحتار في اختيار الزاوية المناسبة، يوجه شاشة هاتفه نحوه، يعدل وقفته لكي يحصل على صورة بجودة عالية تخلد لهذه اللحظة، يستكشف المكان بحثا عن خلفية ملائمة. يتوقف نظره على الصورة من جديد، ينصرف عن الرف، ويبتعد قليلا لكي لا يتفادى إخفاء الصورة ثم يضغط على الزر بشراسة.

يحاول التأكد من جودة الصورة ويبدأ في فتح الصور المخزنة في ذاكرة هاتفه، تفاجأ عندما لم يجد الصورة التي انتظرها لتخليد اللحظة التي بقي فيها طبيعيا واحتار في اختيار الزاوية المناسبة. ترك هاتفه فوق المكتب ورمى بكل خيبة أمله على الكرسي. يرفع رأسه وينفخ بندمه ومرارته نحو سقف الغرفة.

يدفعه ضوء شاشة هاتفه للاقتراب من المكان الذي وضعه فيه، هناك اتصال جار. وبالرغم من أنه لم يضع هاتفه على الصامت، إلا أنه لم يسمع نغمة الاتصال التي اختارها. يحمل هاتفه ويتأمل صورة تؤثث مساحة الشاشة، متحدثا مع الشخص الذي طلبه بعد انتهاء المكالمة. يتصل بأرقامه الخاصة فتضيء الشاشة بصورة متحدث لا يرتدي النظارات. ثم يعود إلى الصورة : إنها نفس الملامح. لولا علامات الشيخوخة الواضحة جليا لأقسم بأنه هو، حاول ألا ترتسم على محياه أية علامة، يرجع قليلا إلى الخلف فينظر إلى الأسفل ثم يجلس. يصله صوت بهيج من المطبخ. ويحس بانتعاش دفء الاستقبال. فيجيب : «قهوة بدون سكر» فيجلس معتدلا ويرفع عيناه الخجولتان نحو الصورة، ثم يميل بنظره في اتجاه آلة تسجيل فيتوقف نظره بين صور المغنيين. كان على وشك التقاط شريط على الأرض، عندما فاجأه صوتها مع صينية قهوة بين يديها. جلست أمامه دون أن تمل أو تكل من تنويع عبارات الترحيب بين كل رشفتين. يلقي بنظرات خاطفة نحو الصورة : ماذا لو كان هو ؟ تطلعه على موعد معرضها القادم، وتؤكد على حضوره الافتتاح. فيطمئنها بقدومه ثم ينهض ليغادر. أثناء إمساكه مقبض الباب أشبع عينيه بالصورة ورحل.

وفي رواق الطابق الثاني، صادفت عيناه عينين عميقتين داخل وجه هزيل.لم يقدم أعذارا واتبع بنظره خطوات ذلك الشخص الذي يصعد. واستمر في النزول. حياه الحارس عند المدخل فلم يرد التحية. يرفع عيناه ويتأمل العينين المنطفأتين وملامح الوجه الهزيل. يخفض رأسه ويذهب. انحناء رأسه يطارده منذ طفولته، لأن «التايكة» كانت تقوم بذلك في كل مرة تكشفه، إذ كان يتجسس على مجالس النساء الفائضة بالحماس خلال مراسيم النقش للفتاة التي تودع الطفولة. وكان يستمتع بوجوه النساء الحاضرات عبر الثقوب. لكم كانت كبيرة متعته حينما كانت النساء تصر على إقناع التايكة بالرقص، ولكنه سرعان ما يفضح نفسه دائما، ما يجعله يقع في قبضة التايكة وبين يديها المخضبتين بالحناء. تبدو غير ودية بوجهها المشدود وعينيها الملتهبتين. يتوسل إليها، فتهدده ثم تتركه وتلاحقه وتنظر إليه شزرا إلى أن يحتمي خلف شجرة التين القديمة. يكسر غصنا، يسند ظهره، ويرسم على الأرض وجوها بواسطة الغصن، وجوه مستديرة متفرقة من دون ملامح. يتأملها، يشاهدها، ويثيرها. يقوم فتقوم معه، تطارده، وتخدعه فيخدعها، ثم يختبئ بين أغصان الشجر.

يكشف صراخها مدى دنوها منه ويفر لتستمر المطاردة، وبمجرد أن يصل قرب منزل «التايكة»، يجد نفسه وحيدا ولا أحد يلاحقه. لم يعد يشاركه أحد لعبته. يخفض رأسه ويذهب، دون التفات ودون اكتراث لضجيج الشارع وضوضائه. يكتفي فقط بإلقاء نظرات خافتة. يعتريه شعور بأن جميع الوجوه تطارده. يستعجل خطوته، ثم يخفض رأسه. تعكس الأرضية الإسمنتية وجوه المارة. يستلقي فوق الأريكة عند وصوله إلى غرفته، يصوب نظره في اتجاه الصورة، يقوم ثم يتوقف أمام حامل اللوحة الذي ظل مثبتا لفترة الزمن. يمسك الفرشاة بيديه المرتعشتين، ينقع الفرشاة في اللون الأحمر ويرسم دوائر متفرقة.

يرجع ببضع خطوات إلى الخلف، فيجلس ويمد ذراعيه فوق الأريكة متأملا تلك الدوائر فيندهش : إنها وجوه بأفواه مرعبة من دون ألسنة وأعين ملتهبة. تسمر في مكانه. تكشف القهقهات عن أنياب موشومة. مذعور، يهتز ثم يقفل على نفسه في المرحاض. تستمر القهقهات في اختراق سمعه. يجعل رأسه بين يديه ويقف أمام المرآة ثم يتحسس زجاجها البارد. فهو لا يرى شيئا عند لمسه الزجاج بيمناه، مع أنه يضع يده اليسرى على وجهه. لا يشعر بملامحه، يده تتحرك فوق شيء يشبه دائرة فارغة.»

السعدية سلايلي

محمد المرابطي يجلس بجواري. إنه فارس، وخيّال. فكيف سيبعث الحياة في خيوله الميتة. أعتقد عن طريق الكلمات. والسؤال الذي سأوجهه له كالتالي : ما هو النص الذي لا تريد أبدا كتابته ؟

محمد المرابطي

إنه نص شرعت في كتابته قبل ثلاث سنوات ثم توقفت. ويتحدث عن جلد القنفذ. لقد استوقفتني جملة : «لا يوجد في القنافذ أملس». كنت أود أن أعرف كيف تكونت كل تلك الأشواك التي تستخدم في الأذية. فهناك قنفذ مختبئ في أعماقنا وأعماق أسلافنا. فكيف كان شكله ؟ لم أستطع أن أكمل لأنني اكتشفت أن جميع القنافذ متشابهة.

لإنه من دواعي سروري أن أتواجد معكم وسعيد أيضا بحضور مجموعة من الزملاء، من بينهم رجل المعرفة الكبير عيسى مخلوف، الشاعر اللبناني، وجميع الضيوف الحاضرين معنا هنا بوجدة. سوف أقرأ لكم نصا قصيرا جدا. تدور أحداث قصصي عادة بين فضاءين، الدار البيضاء ووجدة. والأسباب متعددة. فهما مدينتان عنيفتان ويمكن قول الكثير حولهما. سوف تسنح لنا الفرصة لا محالة للحديث بهذا الصدد. لقد اخترت نصا مكونا من أربعة أقسام : «الكلمات الأخيرة» والمقتطفة من ديواني «فرسان الخيول الميتة»[1].

«عندما استيقظ صباح ذات يوم، وجد نفسه يعض حلمة أمه. ما تزال عيناه ملتصقتين بعد طول مقام في رحمها. يجر بوهن ثم يعض حلمة أمه، ويتبول على ثوب أبيه القديم ثم يقفز من النافذة. له شعر أشعث، يشبه لون التراب. وفي عينيه يسكن حلم القبائل، إذ حينما أوقفه الجنود بينما هو يحك أسفل ظهره في نهاية صباح كسول، فجأة خرج من قوقعته في محكمة الخليفة. ويقول لوريث السلطة الحاكم بسلطة مطلقة، لا يمكن الثناء على سوء الحظ إلا معه : «أنا العبد الضعيف الماثل أمامك والراغب في...» يقول له مقاطعا حديثه : «ادخل في صلب الموضوع». يدخل فيجد نفسه في غرفة يتقاسمها مع الحشرات وروائح البول ومشتقاته.

لقد كان صباح يوم خميس. كان الخليفة يحمل سيفه بتفاخر ولم يكن شعره مصففا. شق الخليفة طريقة وسط جنوده في الغرفة الكريهة. لقد كان اختباره الأول ولذلك رفع رأسه نحو السقف وتنفس الصعداء. ثم قال: «يا إلهي، خذني إليك». فأخذه الجنود وقتلوه».

القسم الثاني: «*بنظرة ماسحة للسماء يستقر في الأعلى. يحدق في البحر طويلا، ثم يطلق جناحيه ويطير نحو البحر. ينزلق فوق سطح الماء، يغوص فيخرج سمكة متعددة الألوان في منقاره. تبقى أجنحته ثابتة عندما يحلق في الزرقة اللانهائية. يحلق فوق سطح البحر. وبين الأمواج، قارب يشق طريقه في البحر. يحلق فوقه أيضا. هناك السماء والشمس المنطفئة التي تعكس لونا ذهبيا على أجنحته العريضة.*

كانت مساحة في فضاء رحب. رصاصة قادمة من القارب ثم أخرى، فتطاير الريش الجميل. لمعة ذهبية تلألأت في السماء في كل الأنحاء ثم سقط في الماء. يكفي لمساحة واحدة كبيرة تقع في الماء لتطير الأسماك محلقة في السماء. هناك سماء وهناك أسماك تطير، إلا أن السماء ما تزال خالية تماما.»

القسم الثالث: «*نطلق عليها قرية طوبة. تمتاز بخاصيتها الجغرافية. يمر في وسطها القطار المنطلق من وجدة والمتوجه إلى الجزائر ويكرر المسار نفسه. نطلق عليها، نحن، قرية طوبة، حيث لا يوجد طوب ولا حجر، سوى سكك يخيف عصافير المنطقة كل مساء مع مرور القطار. يمر القطار كل يوم ويلتقون كل يوم. ليكسب هو قوت يومه والقطار لمغادرة الجزء الخلفي من المدينة. يدخل المدينة كل يوم ومعه كيس نعناع، وككل يوم، يحمل قفة بها عشاء لعائلته الصغيرة. يغطي الصدأ دراجته بدون فرامل. يجلس فوق جلد غنم ملتصق بالسرج، منتظرا مرور القطار. يمر القطار فيعبر السكك قاصدا عشه المبني بالطوب. وككل صباح، وكل يوم، يحمل كيس النعناع أمامه، ويعود عندما يأتي المساء، منتظرا رجوع القطار حاملا معه عشاء عائلته الصغيرة. وفي ليلة ليست ككل الليالي، لا فرامل لدراجته والقطار يهم لعبور المدينة. تطير العصافير بعيدا من شدة الرعب وتطير القفة مع عشاء العائلة الصغيرة، لا شيء يفصل بين اللحم والحديد. وفي المساء، ككل مساء، تذكره الناس ثم قالوا: «ليشمله الله برحمته». كان النعناع جيدا. ويواصل القطار مروره لكن العصافير لم تعد أبدا*».

القسم الأخير: «*كانت هي آخر من يغادر القسم وأول من يلجه، كانت هادئة، تخفي ملامحها وراء نظارات طبية، تضم كتبها إلى صدرها، تدخل كما تخرج، تحمل معها حزمة من الأسئلة التي تطرحها وتتلقى عنها أجوبة. أسئلتها صعبة. تغادر وفي عينيها عدة أسئلة. تمر بلحظات شرود وخيال. تارة هناك وتارة هنا، لا أحد يعلم. ترفع إصبعها وتطرح سؤالا: «أستاذي، هل كانت قصيدة عمرو بن كلثوم سبب في استمرار الحرب؟» ثم تقف فوق مقعدها الصغير مرتدية معطفها الأبيض. «يعتبر الشاعر رسول الحب والسلام، فلا يمكن للشاعر أن يتسبب في اندلاع حرب». لم يكن الجواب شافيا ففي عينيها، حرب على الأجوبة... صباح يوم خميس، يدخل التلاميذ إلى مملكتهم. المقعد الصغير فارغ. كانت هناك مقاعد أخرى شاغرة في الخلف. يكمل ما بقي معلقا من المعلقات والمقعد الصغير ممتلئ بأسئلة صعبة ليس لها جواب*».

السعدية سلايلي

وبذلك نكون قد وصلنا لختام هذه الجلسة. ومازلنا متعطشين لأننا لازلنا بحاجة للاستمتاع بهذا الحماس وهذه المشاعر، وهذا الجهد ومن تلك التساؤلات والأفكار الفلسفية التي نحتاجها أيما احتياج. ولكن نضرب لكم موعدا في مناسبات أخرى، ذلك لأن اللقاءات سوف تستمر وستكون أكثر تنوعا. شكرا على حضوركم، وشكرا لضيوفي على كل ما قدموه لهذه الجلسة من جهد وحضور رائع.

1. ترجمة حرة لمحرر المعرض المغاربي للكتاب، ترجمت عن النسخة الأصلية بالعربية أثناء قراءتها خلال المائدة المستديرة.
2. إشارة إلى القصائد السبع الطويلة في فترة ما قبل الإسلام «الجاهلية»، والمنسوبة لسبعة من أعظم شعراء تلك الفترة، والتي لجمالها علقت على الجدران الداخلية للكعبة الشريفة.

رئيسة الجلسة : نادية هاشمي
المشاركون : جليل بناني، جان بول كافالييري (UNHCR)، بوعزة بنعاشر، لؤي عبد الفتاح (فلسطين)، خالد شيات، ادريس جعيدان، خالد منى
فضاء : آسيا جبار
التاريخ : يوم الجمعة 22 شتنبر 2017
الساعة : 15 : 00 - 16 : 30

موجز مداخلات المائدة المستديرة

أفرد فريق المفكرين والكتاب والمثقفين المجتمعين من أجل هذه المائدة المستديرة نقاشا طويلا حول الموضوع في إطار التبادل الذي تديره الكاتبة الشابة نادية هاشمي. إلى جوارها، سجلت المائدة المستديرة مشاركة ثلة من المثقفين والمفكرين ولاسيما ادريس الشرايبي جعيدان، بوعزة بنعاشر وخالد مونة.

في البداية أكد المتدخلون خلال المناقشة، على أن القضية تتعلق بكل وضوح بالمهاجرين واللاجئون. ولكن الإشكالية لا تتصل فقط بالمغرب : وإنما بكل بلدان العبور التي يمر منها هؤلاء اللاجئين وصولا إلى المغرب، إضافة إلى البلدان التي يعتبرونها وجهتهم النهائية، كلها بلدان معنية على نفس القدر. لقد شهد المغرب موجات قوية من الهجرة، بما في ذلك عودة 000 340 من المغاربة الذين طردوا من الجزائر.

إجمالا، شملت موجة الهجرة السنوية لسنة 2016 نحو 000 5 شخص، معظمهم من السوريين، واليمنيين ومواطني دول جنوب الصحراء ضحايا العنف : يبقى العدد ضئيلا بالمقارنة مع عدد السكان المغاربة.

وتعد الهجرة الفلسطينية تاريخيا أقدم كما يبدو أنها تشكل نموذجا للاندماج. عرض الأستاذ لؤي عبد الفتاح، من أصل فلسطيني، تجربته وتجربة عائلته التي أجبرت على الرحيل سنة 1948 والهجرة إلى عدة بلدان متعاقبة، قبل أن ينجح والده في الحصول على عقد عمل في المغرب. استقرت العائلة بمدينة وجدة وراقها نظام الحياة هناك، مدينة سينظم الأب فيها القصائد والزجل. ودون الحديث عن المصاعب التي واجهوها والإحساس العميق بأنك مهاجر بالمغرب، ولا يعود ذلك بالدرجة الأولى إلى التباينات الثقافية، وفي مسألة الأعراف أو اللغة، ولكن الصعوبة تكمن في استحالة الحصول على الجنسية المغربية.

ويبدو أن سلوك ساكنة البلد المضيف، يميل إلى اعتبار المهاجر منافسا على عدة مستويات، ويرتبط ذلك ارتباطا وثيقا بالأوضاع الاقتصادية الراهنة وبالخطاب الذي تروجه وسائل الإعلام.

وأشار الأستاذ الجامعي خالد شيات إلى أن المجتمع الدولي لا يزال حذرا بشأن اتفاقيات الهجرة، بما في ذلك الهجرة غير الشرعية. كما تحدث عن المسافة بين الحقائق الميدانية والاتفاقيات الدولية الموقعة على الصعيد الرسمي.

وبالنسبة للمتعاون مع المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، فيعتبر المغرب بمثابة مختبر فعلي حيث يتم وضع التشريعات والقوانين المناسبة، في نفس الوقت الذي يتم فيه التأكيد على الخطاب والممارسة في سعي لتوفير الرعاية المناسبة والاستقبال الفعال للمهاجرين.

نادية هاشمي

من أجل فهم معنى «أن تكون مهاجرا في المغرب»، سوف نأخذ شهادة السيد «لؤي عبد الفتاح»، وهو أستاذ فلسطيني بجامعة محمد الأول بوجدة، والذي سوف يشاركنا تجربته حول «أن تكون مهاجرا بالمغرب» وتفكيره في هذا الصدد. فهو مهاجر، أو منفي إن جاز التعبير. وكيف يمكن ترجمة هذا التصنيف بشكل ملموس في تعبيراته الفردية ؟

ثم، إلى جانبي، السيد جان بول كافالييري، من المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين بالمغرب في الرباط. ويمكنه أيضًا مناقشة هذا التصنيف للمهاجرين الذين يتم الحديث عنه دوليا الآن : مهاجر أو لاجئ ؟ كيف يحدث كل هذا على المستوى المؤسساتي وبأي تأثير ؟ سوف يعطينا وجهة نظره حول سياسة الهجرة في المغرب والتحديات القادمة.

سيكون المتحدث التالي السيد جليل بناني ، المحلل النفسي الذي اشتغل مع السيد كافاليري على وجه التحديد حول قضية المهاجرين ونشر كتابًا يحتوي على ثلاثين لوحة لمهاجرين في المغرب.

وأخيراً، الكلمة للأستاذ «خالد شيات»، أستاذ القانون العام بجامعة محمد الأول في وجدة، حول قضية جوهرية اليوم، على الأقل في مدينة وجدة، بما أن الحديث هنا عن الهجرة العابرة للأوطان والحدود، فبالتالي تتطلب إعادة التفكير في قضية الحدود بين البلدان المجاورة، لاسيما المغرب والجزائر.

لقد شهدنا هذا، منذ وقت ليس ببعيد، ما هي القضايا التي يمكن أن تطرح عبر إغلاق الحدود.

بادئ ذي بدء، أعطي الكلمة للسيد بناني الذي سيخبرنا عن معنى «كونه مهاجرًا في المغرب».

جليل بناني

شكرا لكل المشاركين في هذا النقاش. يجب أولا تحديد المفهوم : الفرق بين مهاجر ولاجئ. فبفضل المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين رأى هذا الكتاب النور، وكان الهدف منه رسم صورة المهاجرين في المغرب. فلأول مرة أعطيت الكلمة للاجئين في المغرب من أجل التعبير عن معاناتهم وعن نجاحاتهم، وذلك لمحاربة النمطية، والوصم الاجتماعي. وبهذا المعنى فإن الكتاب مفيد للغاية.

أنا محلل نفسي، ولكن أقول لكم أن هؤلاء الأشخاص ليسوا حالات مرضية بالنسبة لي : إنهم أناس قمت باستجوابهم، باعتباري ممارسا للغة... كانت هناك أسئلة موجهة فيما يتصل بظروف الرحيل وتلك المتعلقة بالوصول. ولكن أكثر ما أفادت به تقارير المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين هو نظرتهم عن المغرب، وهذا شيء مهم للغاية. فإننا نتعلم الكثير من نظرة الأجنبي، والتي تزيح الستار عن أمور لا نشهدها كل يوم، أو تلفت الانتباه ببساطة لإسقاطاتنا على الأجانب وتمثلاتنا حولهم.

إذا فهم لاجئون وتجدر الإشارة إلى الفرق، لأن المهاجر هو الذي ينتقل من مكان إلى آخر. فالمهاجر هو شخص أجبر على الرحيل لدوافع اقتصادية أو أنه اختار الذهاب. أو ذلك الشخص الذي يختار المنفى طوعيا وإراديا، كالكتاب والفنانين وأشخاص آخرين من مختلف المهن... حتى اللاجئ أجبر على الرحيل ولكن على خلاف المهاجرين الآخرين، فهو لا يملك إمكانية العودة، ثمة ذهاب دون إياب، لأنه يفر من بلده.

لقد كان من المحتم عليه الذهاب لكي ينجو من الموت. إذا، هنا يكمن الفرق الأساسي، وهذا ما يحدد إجمالا مهمة المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين. ومن خلال هذه المناقشة، سوف أطلعكم عن الانطباعات البشرية التي تشملها التجربة.

نادية هاشمي

أعطي الكلمة للسيد كافالييري للتعليق عما قاله السيد بناني حول الفرق بين المهاجر واللاجئ. وهل في المغرب توجد طريقة لتقسيم هذه الفئات ؟ أو معرفة كيفية تمييز فئة عن أخرى ؟ والسؤال المطروح على وجه الخصوص يهم التحديات المستقبلية التي سيعرفها المغرب في وقت نحن فيه بصدد صياغة مشروع سياسي حول هذا الموضوع.

جان بول كافالييري

من أجل التمييز بين مهاجر ولاجئ، أخص بالذكر اللاجئ الذي فر من بلده بسبب الحرب أو الصراعات أو الاضطهاد، أي ذلك الشخص الذي يخشى التعرض للاضطهاد، إما بسبب انتمائه العرقي أو الديني... لكي أختصر، يوجد ذلك الخوف، تلك الخشية المبررة من الموت، هنا مربط الفرس. ومن هذا المنطلق، فإن اللاجئ يرى الحدود من منظور آخر : بقدر ما أن وضعية اللاجئ شرعية عبر الحدود، فإن هناك شروطا لقبول هؤلاء اللاجئين. اللاجئ، بحكم تعريفه، فهو شخص لا يمكنه الرجوع إلى وطنه تحت طائلة الموت. وبالتالي فإن الدول ملتزمة - وهو الالتزام الدولي الوحيد على كل حال - بعدم إعادة اللاجئ إلى بلد فيها خطر الموت. بذلك فإن أي لاجئ وصل إلى الحدود وجبت حمايته. على خلاف المهاجر الذي يمكنه أن يتنقل بدوافع متعددة ومتنوعة، يمكنه الحصول على تأشيرة، إلا أنه غير محمي بالتزام دولي. وإلى حد ما في هذا الاتجاه، الدولة ملزمة بحماية اللاجئ الذي يصل إلى بوابتها، على عكس المهاجر الذي يمكن أن يتم ترحيله إلى بلده، عند الاقتضاء، في حالة عدم التوفر على تأشيرة، لأنه يمكن أن يرحل دون أن يشكل خطرا على حياته، وهنا يكمن الاختلاف الجوهري.

ولكن كيف تطرح الإشكالية هنا في المغرب ؟ أولا، تبقى الأرقام متواضعة نسبياً : إذ نتحدث عن خمسة آلاف شخص يمثل ثلثيهم سوريين والثلث الآخر هم أفارقة جنوب الصحراء. وعندما نتحدث عن السوريين واللاجئين العرب الآخرين هنا في المغرب ، والمسجلين لدى المفوضية السامية لشؤون اللاجئين ومع السلطات، فإنهم من أصول عراقية ويمنية وفلسطينية، وأفارقة جنوب الصحراء من بلدان مختلفة، ولاسيما حيث تكثر الصراعات، مثل مالي وإفريقيا الوسطى وبعض الجنسيات الأخرى.

يصل عددهم إلى حوالي خمسة آلاف شخص، رقم لا يذكر مقارنة مع عدد سكان المغرب. فما يزال من السهل تدبير مثل هذا العدد. ومع ذلك، فإن الأرقام تتزايد بشكل كبير، لأنه في غضون ثلاث سنوات، ارتفع عدد اللاجئين بنسبة 400% كما أن عدد المدن المضيفة في تزايد مستمر : نجد اليوم حوالي خمسين مدينة، بما في ذلك وجدة وتيزنيت وبني ملال، فاس، مكناس... وقبل الحديث عن سياسة الهجرة في المغرب فإذا كنا نتساءل عن مفهوم اللاجئ في شمال إفريقيا، فإننا ندرك أنه مفهوم يتأسس على قوانين، تطبق في جميع أنحاء منطقة جنوب الصحراء والفضاء الأوروبي.

ولموضوع الهجرة تاريخ في الفضاء العربي الإسلامي، مع وجود أسباب تاريخية وسياسية وثقافية، مما يجعل قضية اللاجئين مقننة للغاية في منطقة الشرق الأوسط. وهذا مثير للاهتمام فهناك نوع من الإنكار، وإنكار الوجود، وبالتالي لا يوجد حل فعال لهذه الإشكالية. قد يكون المغرب أول بلد في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا قد شمر عن ساعديه واعتبر أنها حقيقة موجودة ولن تختفي. وهذا أمر رائع في المغرب : ذلك الوضوح السياسي، وتلك الشجاعة، لأنه ليس من السهل نشر سياسة تعود إلى سنة 2013، والتي قبلها وصدق عليها صاحب الجلالة الملك محمد السادس. هذه السياسة مبتكرة حقا في جميع أنحاء شمال إفريقيا.

ما هي التحديات من منظور المفوضية ؟ لقد رأينا أن هناك سوريين وأفارقة من جنوب الصحراء : وهنا ندخل في مفارقة مزدوجة. أتحدث عن ذلك من منطلق أني لست مغربيا، أي بنظرة خارجية. أن هناك قبول وترحيب وحسن نية من السكان المغاربة إزاء السوريين الموجودين في المغرب، والذين يشكلون غالبية اللاجئين، أن هناك قبول، وترحيب، وحسن نية من السكان المغاربة.

من جهتهم، يشعر السوريون بأنهم في أحسن حال في المغرب. ومن ناحية أخرى، نرى أن هناك توجس من السلطات المغربية في وصفهم كلاجئين - وهذا مثير للاهتمام - ولكن توفر الدولة المغربية حماية حقيقية. ونلاحظ أن هذا التردد هو على المستوى الحكومي. ولكن المشكل غير مطروح بالنسبة للسكان.
ومن ناحية أخرى، بالنسبة للاجئين من دول إفريقيا جنوب الصحراء، أود أن أقول إن العكس هو الصحيح. هناك سلوك داعم للغاية من جانب الحكومة. من ناحية أخرى، فإن قبول السكان ضعيف فيما يتعلق بهؤلاء اللاجئين. وعلى ما أعتقد، أن الحوادث والاعتداءات الجسدية على اللاجئين من إفريقيا جنوب الصحراء قد تزايدت. هناك قبول لمسألة الهجرة من طرف الدولة ولكن هذا التوتر قائم على أرض الواقع، وأعتقد أنه يشكل تحديا. وبصفتي فرنسيًا أنظر إلى أوروبا، أرى أن الجميع يواجه التحديات.
سوف يمر المغرب عبر شيء أدركه الآن : كيف يمكن للتجربة في الخارج أن تغذي التجربة المغربية للمهاجرين اللاجئين في المغرب، بهذا المعنى الجيد الذي يحيلنا على عدم تكرار الأخطاء التي ارتكبت في مكان آخر...
وتشكل مسألة الدين التحدي الثاني بلا منازع. فهذه المسألة لا تطرح مباشرة ورسميا. أذكر هنا العلمانية الفرنسية تفرض نفسها بصورة جذرية في فرنسا. هناك أيضا نوع من العلمانية في ألمانيا أو في بريطانيا العظمى.
بشكل عام ، تواجه العلمانية الكثير من المشاكل مع الإسلام، إلا أنها تثير قضية الإسلام في جميع المناقشات التي نشاهدها ونسمعها، ولنأخذ المساجد على سبيل المثال، إلخ... توجد أشياء لا نريد أن نراها في بلدنا وتوتر المجتمع الفرنسي. ولكن يبدو لي هنا أن هذا الطرح مختلف.
تطرح أيضا مسألة كيفية التعامل مع شخص غير مسلم. وهكذا، ماذا يمكننا أن نقول في حالة مهاجرين مسيحيين التقيا في المغرب وقررا الزواج ؟ إذا، سوف نقول لهم أنه لا يوجد مشكلة في ذلك، وأن عليهم التوجه إلى القنصلية، ولكن ماذا عن لاجئين مسيحيين متواجدين في المغرب لا يستطيعان الزواج، لأنه وبحكم التعريف، فإن هؤلاء الأشخاص لا يمكنهم المرور عبر القنصلية، ولا يمكنهم الحصول على حماية السلطات، بما أنهم فروا من بلدهم. وإذا أراد الزواج في المغرب، فيعني ذلك تغيير الدين. وبالتالي سيكون في ذلك نوع من التنازل والاعتداء على الحرية الممنوحة، إذا فإن المسألة مطروحة من الناحية القانونية.
أعتقد أن المغرب إيجابي في سياسته مع اللاجئين، لكن عليه أن يطرح شيئا فشيئا هذا التساؤل : ما هو المكان الذي يمكن تسخيره للاجئين المسيحيين الراغبين في الزواج ؟
كلمة أخيرة أكثر بساطة، وهو مبدأ يوليه السيد ادريس اليزمي أهمية قصوى : والمتعلق بقضية الطفولة. في المغرب، وفيما يخص الدخول المدرسي، فإن نسبة 84% من أطفال اللاجئين يلتحقون بالمدارس. وعلى هذا الصعيد، يشهد للمغرب نجاحه في المجال وذلك عبر توفير ولوج مجاني للتعليم لفائدة جميع أطفال المهاجرين واللاجئين، دون قيد أو شرط. ويعتبر هذا أمرا إيجابيا للغاية لأن الأرقام أو النسب كبيرة جدا.
ولكن، تصبح الأمور أكثر تعقيدا في المستوى الثانوي، لأننا بصدد الحديث عن أطفال خسروا عاما، عامين أو حتى ثلاثة أعوام من التمدرس في الطرقات، فيحتاجون أحيانا إلى الدعم في اللغة أو حتى استدراك في المادة الأساسية. فيصبحون كبارا في السن على الذهاب إلى المدرسة، لأنهم خسروا سنوات عديدة. بيد أن نسبة 84% في التعليم الابتدائي تظل نجاحا.
ونسبة 16% المتبقية ؟ من هؤلاء ؟ وأين هم ؟ ولما لا يذهبون إلى المدرسة ؟ وهل السبب أنهم معوزون أم أنهم يتحدثون لغة أخرى ؟
يجب أن يتلقوا تعليما باللغة العربية وأن يتم الارتقاء بمستواهم وهذا التحدي الذي يجب أن يرفعه المغرب : يجب أن نتجاوز المستوى السياسي، وهو إيجابي للغاية، نحو مزيد من الالتزام في الاتجاه الصحيح.
فمن الضروري الانتقال من المستوى المركزي إلى المستوى الإقليمي، وفي هذه الحالة، على مدير المدرسة في الميدان وبمساعدة السلطات البلدية، محاولة التعرف على هؤلاء الأطفال، أولا، أين هم ؟ وهنا يكمن التحدي المطروح أمام المغرب.

فالطفل الذي لا يستطيع الذهاب إلى المدرسة لمدة سنتين أو ثلاث سنوات فقد انتهى الأمر بالنسبة إليه، ويواجه هذا التحدي جميع المجتمعات المضيفة للمهاجرين.
إذا، أعتقد أن هذه التحديات المطروحة أمام المغرب جاءت في ظروف بالأحرى مواتية ذلك لأن الإرادة السياسية حاضرة، ولا يمكن تعميم ذلك على كل بلدان المنطقة، ويجب الإشادة بهذه الإرادة السياسية.

نادية هاشمي

لقد تحدثتم عن اللاجئين السياسيين، وهي قضية لم تعد تطرح بنفس الشراسة كقضية الهجرة العابرة للأوطان والهجرة جنوب الصحراء، إلى جانب البحر الأبيض المتوسط، أصبح ما يسمى اليوم «بالهجرة الاقتصادية»، مما يعيد رسم مكانة المغرب كمرحلة عبور ليصبح وجهة نهائية. أعطي الكلمة للسيد بوعزة بنعاشر الذي أعد كتابا حول الشتات الافريقي والمجتمعات السوداء في المغرب. من وجهة نظركم كأنثروبولوجي هذه المرة، كيف ترون مسألة «أن تكون مهاجرا في المغرب» ؟

بوعزة بنعاشر

لم يترك لي السيد «كافالييري» شيئا لأضيفه وذلك أمر جيد. وسوف أعود فقط على بعض القضايا. أولا، يجب أن نذكر بوجود خلفية فلسفية وقانونية ودستورية في آن واحد، تشير لاسيما إلى المهاجرين من إفريقيا جنوب الصحراء وإلى الدستور المغربي فيما يتعلق بتسوية 2015-2014 والتي لا تتعارض مع شروط وروح الدستور. وتنص ديباجته على أن أحد الأسس المنطقية التاريخية للمغرب، كمجتمع وكدولة وكثقافة، هو انتمائه إلى إفريقيا بأوسع معانيها، وإفريقيا بالمعنى العالمي للكلمة.
ثانياً، قام المغرب مؤخرا بلفتة استشرافية تتميز بذكاء بالغ على مستوى الدول المغاربية : وهو تقديم طلب المغرب للحصول على عضوية في المجموعة الاقتصادية لدول غرب إفريقيا. - مجتمع دول غرب افريقيا- يجب التركيز عليه لشرح أهميته وإعطاء روح لهذا الانضمام. يحيلنا أولا، إلى المكبوت في العلاقات بين المغرب أو المغرب العربي، أو شمال إفريقيا البيضاء أو ما يطلق عليها «إفريقيا البيضاء»، وإفريقيا جنوب الصحراء فيما تسمى «بإفريقيا السوداء». هذا المكبوت في العلاقات، هو عبارة عن ماذا ؟ إنه أولا تجارة الرقيق عبر الصحراء. يجب البحث عن معنى «أن تكون مهاجرا من جنوب الصحراء بالمغرب» - لن أطيل هنا - ولكن يجب التذكير مع ذلك بواحد من الشخصيات الرمزية لتجارة الرقيق عبر الصحراء وهو المالي أحمد بابا من تمبكتو، والذي أحضر بالقوة وبالأغلال، سنة 1596 ربما، ثم عاش في مراكش واشتغل أستاذا جامعيا. ماذا يمكننا القول عن بادرة الاندماج لهذا «المهاجر رغما عنه» القادم من تمبكتو ؟
ثم هناك أيضا قضية المهاجرين في المغرب، والتي وثقت منذ زمن بعيد. أستشهد بمؤلف زميلنا جليل بناني «طريق طويل للمهاجرين في المغرب»، ويحتوي على ثلاثة فصول مهمة جدا «أسوار العالم»، «الرحيل مع الآخر إلى الوطن»، و«معاناة وحنين إلى الوطن». تلخص هذه الفصول بالكامل هذا المصير، وما يعايشه المهاجرون في المغرب. ويوجد أيضا كتاب «إدوارد فسترمارك» تحت عنوان «الشعائر والمعتقدات في المغرب»، ويعتبر هذا المؤلف مصدرا مهما.
وفي هذا الكتاب الأساسي نرى أنه منذ زمن بعيد، أي منذ القرن الثامن، في عهد المرابطين والموحدين، أن هناك اندماج للمغرب في منطق هجين، متعدد الثقافات وبيولوجي. فقد تولد ما يمكن أن نطلق عليه بتثاقف متبادل. أريد أن أقول أن الثقافة المغربية قد تحولت بفضل التقائها مع العنصر الإفريقي جنوب الصحراء. إلا أن العنصر اليهودي قد ساهم أيضا في التهجين الثقافي للخيال المغربي : الجسد، والمؤسسة، والجنس، والجمالية، والرقص، والموسيقى... إنها طريقة لقول «أن تكون مهاجرا في المغرب» تحيل على عدة سجلات. المغرب فضاء استقر فيه العديد من المهاجرين الذين يشعرون بمغربيتهم : من معنا، في هذه القاعة، ليس مهاجرًا ؟

سوف أختم بالقول أن هناك تأصيل لحركة «أن تكون مهاجرا»، ويحيل ذلك إلى وجود ما يمكن أن نسميه باستهلاك للزمن، بمعنى آخر أن المهاجر في علاقته مع الزمن لا يفكر في «الزمن». إنه يفكر في «العبور» و«السرعة»، أو ما أسميه وفقا لتعبير مهاجر من الجنوب إلى الشمال مثل «جاك دريدا»، بعد إدراك لم أكن أعرفه ولكن تبنيته مع الوقت.

نادية هاشمي

شكرا لك. كلنا هنا مهاجرون، ولكن قادمون من عصور غابرة. الآن، ربما نحتاج إلى شهادة حول قدرة المغرب على الاستقبال، وقضية الاندماج عبر نماذج، من بينهم مثال فريد نوعا ما إذ يتعلق الأمر بالقضية الفلسطينية بالمغرب، بكل ما تحمله من ثقل تاريخي، عبر شهادة حية للبروفيسور لؤي عبد الفتاح الذي سوف يحكي لنا ماذا يمثل له «أن يكون مهاجرا في المغرب».

لؤي عبد الفتاح

أشكر المنظمين القائمين على هذا المعرض في دورته الأولى في هذه المنطقة. طبعا أن تكون مهاجرا في المغرب أو أجنبيا يعيش في المغرب مسألة بديهية لأن هذه المسألة تتعارض بين المجتمعات وجميع الدول، أريد أن أتحدث عن حالة خاصة كما أعتقد أنها لا تمثل مثالا جذابا جدا، ربما هي حالة عادية لأنها لا تدخل في إطار وربما معادلة المهاجرين، ربما قبل ذلك لأنني في واقع الأمر، أنا لست مهاجرا لأني لست أنا من أتى إلى المغرب، وإنما كان والدي الذي كان لاجئا في العراق مع مجموعة من اللاجئين الفلسطينيين الذين خرجوا أو أخرجوا من فلسطين عام 1948 وهم من الفئة التي أخرجت إلى العراق .
كان في ذلك الوقت حوالي 30 ألف لاجئ فلسطيني في العراق. وما حدث مع والدي في ذلك الوقت ولظروف سياسية أو مختلفة هاجر إلى بيروت ومنها إلى أثينا ثم رجع إلى بغداد ثم حصل على عقد عمل في المغرب في تلك البعثات التعليمية التي كان المغرب خلالها يطلب متعاقدين أجانب للعمل في المغرب، طبعا جاء إلى المغرب واستقر في مدينة وجدة وأعجبته المدينة إلى درجة أنه كتب فيها شعرا، وكتب مجموعة من الروايات التي تدور أحداثها في مدينة وجدة وفي الدار البيضاء وفي الشرق الأوسط، كذلك طبعا ما أريد أن أتحدث عنه هنا هو مسالة اللجوء بالنسبة للفلسطينيين كما أشار إلى ذلك السيد كافالييري، هم قلة في المغرب، في الواقع عددهم ليس كثيرا جدا، هناك ربما ما يقل عن ألف شخص فلسطيني يعيش في المغرب معظمهم ليسوا لاجئين وليسوا ممن طلبوا اللجوء هم مهاجرون أتوا إلى المغرب ومعظمهم يشتغل في القطاع الخاص، قلة منهم من بقي للعمل هنا في القطاع العام وتم الاحتفاظ بعقودهم واستمروا في العيش هنا.
وفيما يتعلق بالقضية الأساسية التي يمكن من خلالها الحديث عن المهاجر في المغرب هناك أيضا نقطة أشار إليها السيد «كافالييري».
هناك على ما أعتقد اختلاف في النظرة إلى المهاجرين من نفس الديانة، ومن نفس الثقافة، ربما هناك اختلافات كثيرة فيما يتعلق باللهجة واللغة والأوضاع العامة لدرجة التأثير السلبي. ربما فيما يتعلق بالأمور الاقتصادية يعتبر المغربي المهاجر كمنافس له إلى غير ذلك، طبعا النظرة تختلف بين السوريين والفلسطينيين المهاجرين القادمين من دول جنوب الصحراء إلى غير ذلك. وهذه شهادة أقولها ليس بناء على دراسات وإنما بناء على مئات الشهادات التي صادفتها سواء ممن جاءوا ودرسوا في المغرب أو من الذين ذهبوا إلى دول أخرى وكيف تمت معاملتهم، ولكن أقول جزما بان المهاجر خاصة من العالم الفلسطيني والسوري، يجد قدرة على الاندماج في المغرب، أي يعاني بشكل أقل فيما يتعلق باندماجه في المغرب من أي دول أخرى، ربما تكون عربية أيضا طبعا.
الجميع ربما يعلم أن دول الخليج مثالا لم تستقبل أي لاجئ أو مهاجر من السوريين، هم فئة قليلة ربما لديهم ارتباطات سابقة قبل ما حدث في سوريا وفي دول أخرى.

لكن استقبال موجات من اللاجئين في تلك الدول أمر غير وارد الحدوث، في حين أن دول أوروبية كثيرة استقبلت اللاجئين السوريين. وأعود إلى المغرب لأقول أن هناك ملاحظة بأن المواطن المغربي أو الشعب المغربي بصفة عامة هو شعب يستقبل ويتقبل أكثر من غيره من الشعوب الأخرى، فيجد المهاجر سهولة في الاندماج في المغرب بشكل أكبر طبعا، ربما لأن ما يسمى في بعض الأحيان بنفسية الشعب، تلك الشخصية ترتبط بالعوامل النفسية والاجتماعية التي تجعل من بعض الشعوب أكثر قابلية لاستقبال الأجنبي أو المهاجر القادم من بعيد للشعوب الأخرى.

طبعا المغرب أو الشعب المغربي لديه هذه الميزة وأقول ذلك بناء على مئات من الشهادات التي استجمعتها على مر سنوات طويلة، لن أدعي أني درست هذه الحالة ولكنها ملاحظة يجب التنويه بها. فيما يتعلق بشؤوني أنا كمهاجر جاء إلى المغرب مع والده، طبعا هذه الأمور شخصية إذا كان هناك من يرغب في الاطلاع على بعض التفاصيل أنا مستعد.

ولكن درست معظم دراساتي في المغرب أو كلها، كانت لدي الفرصة للاندماج بشكل كبير، أنا أعتبر نفسي مغربيا بل وأنسى أني أجنبي في المغرب إلى أن يأتي قانون ليذكرني بأنني أجنبي، طبعا المشكل الذي أريد أن أطرحه هو التجنيس، هو مشكل بالنسبة للكثير من الأجانب، أعتقد ليس على الفلسطينيين فقط لكن المشكل كان أكبر بالنسبة إلى غيرهم فيما يتعلق بالتجنيس فهي لازالت قائمة وتمثل مشكلة كبيرة.

لماذا أنا عشت أكثر من أربعين سنة بالمغرب تقريبا، فترة عمري كله طبعا لأنسى أنني أجنبي، وليأتي القانون في بعض اللحظات ليذكرني بهذه الحقيقة ويقول أنت أجنبي، لا يحق لك ما يحق للمغاربة، وتبقى مسألة التجنيس صعبة جدا في المغرب وتتعلق ربما ببعض الإجراءات.

فاعتقد كي لا أخذ الكثير من الوقت، كان هناك إجماع بين الدول العربية على عدم منح الجنسية العربية للفلسطينيين، لماذا ؟ لكي يبقى وضعهم كفلسطينيين لاجئين، ولكي يبقى لهم الحق في العودة إلى فلسطين في يوم من الأيام، ولكن مسألة التجنيس، كثير من الدول تجاوزتها، الأردن مثلا جنست منذ الموجات الأولى للاجئين الفلسطينيين عام 1948، بدأ بتجنيس الفلسطينيين، اليمن الجنوبي قاموا بتجنيس الفلسطينيين، هناك الكثير من الدول طبعا، أوروبا، والولايات المتحدة ودول مثل بناما، ودول مثل السودان ترغب في تجنيس عدد من الفلسطينيين، في الواقع مؤخرا منذ ثلاث سنوات، قام بما يسمى رئيس الدولة الفلسطينية بدعوة الدول العربية إلى تجنيس الفلسطينيين وتوطينهم، وكانت هذه الدعوة رسمية ولكن إلى أي حد استجابت لها الدول العربية، لم تكن هناك استجابات في الواقع إلا من طرف الأردن، طبعا هذه سياسة قديمة، في المغرب فيما يتعلق بي أنا مثلا عندما تقدمت أو حاولت أن أتقدم بطلب تجنيس منذ عشرين سنة تقريبا قيل لي لا تتعب نفسك، ومؤخرا قمت بتقديم طلب تجنيس آخر منذ ثلاث سنوات ولست أدري متى أتلقى جوابا لهذه المسألة.

على أي هذا هو الوضع الآن وأعتقد أنه كخلاصة مسألة الاندماج في المغرب بالنسبة للمهاجرين خاصة مع التوجهات السياسية الجديدة، ربما ستكون الأمور غير متعذرة بالنسبة للمهاجرين حتى بالنسبة للقادمين من إفريقيا نظرا لطبيعة الشعب المغربي الذي يتقبل الآخر الأجنبي بشكل نسبي مع وجود بعض الاختلافات. هذه السياسة الجديدة التي تهدف إلى تسوية الأوضاع طبعا كما قال الأستاذ منذ قليل، وأن هناك تجاوب مع واقع معين، ومع ظروف موضوعية فلابد أن تكون هناك استجابات موضوعية ومناسبة اتجاهه وربما سينجح المغرب في إتباع سياسة مرحب بها فيما يتعلق بالهجرة واللجوء، وأختم بأني أتمنى من السلطات المغربية أن تمنح الجنسية للمهاجرين وشكرا.

نادية هاشمي

شكرا لك جزيلا. نعرف مسألة السيادة استنادا إلى مسألة المواطنة. السيد خالد شيات يمكنه أن يلخص ذلك. كيف يمكن لقضية الهجرة أن تعيد رسم مفهوم الحدود لاسيما تلك التي تعرفونها جيدا بين المغرب والجزائر ؟ وكيف تطرح هذه القضية في ظل ما بتنا نشهده اليوم من هجرة عبر وطنية ؟

خالد شيات

شكرا، أنا جد سعيد بوجودي مع أساتذة قد استفدت كثيرا منهم، وبحكم تخصصي في العلاقات القانونية، أجد كثيرا دائما أن الاستفادة تكون من الحقول المعرفية المختلفة، أنثروبولوجيا، علم النفس، كيف تطرح أسئلة أعمق من أن تطرح أسئلة مرتبطة بالقانون، في العلاقات الدولية كثير من الاتفاقيات الدولية. لكن أود أن أقول لكم أن العالم خجول جدا فيما يتعلق بالاتفاق حول موضوع الهجرة، ناهيك عن الهجرة المشروعة.
أعتقد بأن كل ما يرتبط بالهجرة على المستوى الدولي هو مرتبط بتنظيم الهجرة القانونية، الهجرة التي ترتبط بالملموس بالاتفاقية الأممية.
إذا يبقى لنا المجال القانوني المرتبط بالهجرة هو المجال الداخلي أو الوطني، إلا أن الهجرة خاصة الهجرة التي تسمى بأنها غير قانونية، غير شرعية، كلها مرتبطة بالقواعد القانونية التي تضعها السلطات القانونية الداخلية حتى في الحالات التي يكون فيها مستوى الاندماج متقلب جدا كما هو الحال بالنسبة للاتحاد الأوروبي، سواء هناك سياسات مشتركة فيما يتعلق بمجال الهجرة. ويعطينا ذلك صورة حول علاقة هذه الظاهرة عندما تكون غير مشروعة، ونستحضر هنا بين قوسين ربما في سياق آخر، عندما نتحدث عن الحظوظ في معانيها المختلفة في مجال أوربا والدول المتقدمة والجنوب والدول التي تعتبر سائرة في طريق النمو إذا حاولنا أن نعطيها هذه الصيغة الايجابية في الفضاء الحضاري إلى غيره نشاط معرض الكتاب في هذا الفضاء المغاربي، كل الأشكال السلبية للهجرة مرتبطة بالسلطة السياسية داخل الدولة، وإرادة سياسية، وسياسات غير ناضجة، وأشكال مرتبطة بمزاج السلطة السياسية، والحاكم الذي يأخذ قرار سلبيا كما اتخذه المدعو الهواري بومدين سنة 1975 عندما قال في لحظة من لحظات حياته السياسية المليئة بالمفاجآت، أن يطرد 000 340 مغربي، يوم أو صبيحة عيد الأضحى سماها بالمسيرة السوداء، وهذا نموذج من النماذج.
أنا أعتقد أن هناك مهاجرين مغاربة في المغرب منهم من لم يكن يعرف بأنه مغربي حتى اكتشف بأنه مغربي صبيحة يوم عيد الأضحى 1975، بأنه مغربي مطرود من دولة كان موجودا فيها هو وعائلته وبالتالي لم يكن يعرف بأنه مغربي، وهذه مرتبطة بالمزاجية السياسية، فالسياسي لا يفرق بين العمل الذي يمكن أن يكون استراتيجيا وبين العمل المرتبط بالأشخاص والأفراد والشعوب.
نفس الشيء قام به القذافي بالنسبة للتونسيين إلا أننا عندما نتحدث عن الحدود بمعناها السياسي في الفضاء الحضاري المغاربي، يختلف كثيرا عن الحدود بمعناه القانوني. القانون الدولي والأشياء التي تقال ويشار إليها داخل الأمم المتحدة شيء وفرق كبير جدا ؛ ولهذا عندما أردت أن أقول بأن هذه السياسات الوطنية التي تحدث الآن عن الهجرة والتي يمكن أن نضيف إليها وإن نغنيها، كلها تدخل في الأبعاد الإنسانية إذ لا نعالج مساوئ الهجرة من منظور إنساني، ولكن نعالجها من منظور أمني، وهذا بطبيعة الحال نابع من ارتباط الدولة بالسلطة حفاظا على الحدود. ونقارب الهجرة ما بين الشمال والجنوب، وما بين الدول في محيط مغاربي وما بين حتى دول في الاتحاد الأوروبي ولم نقارب أبدا هذه الظاهرة باعتبارها ظاهرة إنسانية وإنما هي تقارب من ظاهرة أمنية.
إذا حتى في هذا المستوى أجد بأنه غير إنساني بالمرة، الهجرة والدخول وإقامة الأجانب في المغرب مع غيره من الدول في أوروبا وفرنسا وفي اسبانيا أمور تختلف فقط من حيت الحمولة التي تعطى لها من الناحية الإعلامية, وتختلف كثيرا عن البعد الإنساني الذي أتحدث عنه.

جليل بناني

وعلى كل، يجب أن تعالج هذه القضايا على نحو متعدد التخصصات، لأن فيما يتعلق بقضية الاستقبال - وأشير هنا إلى دراسة «جاك دريدا» الذي تحدث عن الضيافة، من الناحية الإنسانية أولا في المضمون، يجب ألا نغلق الباب في وجه ما لا يمكن التنبؤ به. وما هو الشيء الذي لا يمكن التنبؤ به ؟ إنه مستقبل الفرد.

بمعنى آخر فإننا عندما نرى السوريين وما عايشوه من حروب وشهدوا موت آبائهم، فإن ذلك يظهر للعالم في بعض الأحيان أن الحياة أقوى وبالتالي يضاعف قانون الضيافة : فهي في آن واحد قضية فردية وأيضا قضية اجتماعية وسياسية. إنها طريقة لضرورة حساب المخاطر وبالتالي فإن الضيافة تتطلب اتفاق الأفراد والتشريع. ولنذهب إلى أبعد من ذلك وأجيب صديقي عبد السلام الشدادي، بالتأكيد، من الجوهري أن نقول أنه إذا استقبلنا واستمعنا وهذا ما قد طلب مني. وقد قمت بهذا العمل مع الكثير من الالتزام من أجل إعطاء الكلمة إلى اللاجئين - إنها المرة الأولى التي نقوم فيها بعمل مماثل - ويمكن أن أجزم أن ما تم تدوينه لم يغير فيه شيء أبدا، لا من قبل المفوضية السامية لشؤون اللاجئين ولا من قبل المحرر.

إن إعطاء الكلمة لهم ما هو إلا فتح مسار واعد للإنسانية. عندما تقف في إشارة المرور وتنظر بتوجس إلى شخص يمده، ويبادلك النظرة نفسها، وبمجرد ما إن تسأله «من أين أتيت ؟» و«ما الذي أتى بك إلى هنا ؟» حتى تتغير نظرته، ذلك لأن التجربة الإنسانية جوهرية.

وهكذا، تم طرح عدد من الأسئلة، أولا سؤال حول القطيعة وسؤال حول المنفى، والتي تثير دائما قضية الفراق والحداد، إذ حينما نكون في المنفى فإننا نترك جزءا منا. تطرح الأسئلة نفسها على اللاجئين كما على المهاجرين، إلا أن تلك المتعلقة باللاجئين تكون أكثر حدة لأنهم لا يستطيعون العودة إلى بلدهم، إما الفشل والموت وإما النجاح.

وهناك نجاحات مبهرة في هذا الكتاب. هناك قصص تظهر لنا أن النجاح ممكن في المنفى وأن المنفيون واللاجئون ليسوا بعبء علينا : إذ لديهم إسهامات، ومن الجانب الإنساني، فهم يقدمون لنا الكثير، في الثقافة، واللهجات والتجارة... لقد قمت بالإشراف على كل ما قيل من طرف المفوضية السامية لشؤون اللاجئين من وجهة نظر تاريخية، ومن وجهة نظر ما تمثله، وما تضيفه لنا : هناك إسهام واضح من الناحية الإنسانية.

مسألة الهوية أمر ضروري، فالمهاجر يهاجر أيضا بهويته. واللاجئ عليه أن يكتسب هوية جديدة، وهذا ما يميزه. في المغرب هذا الأمر مفرح، إذ استنادا إلى ديباجة الدستور فإن هناك تعدد في الهوية، وحقيقة أن بعض الأفارقة يجدون نفسهم في المغرب ويستردون هويتهم الإفريقية، ويسترد المسلمون أنفسهم، والعرب، إلخ. ولكن تبقى مسألة الدين أمرا معقدا. قضية العنصرية ؟ يمكن أن نكون عنصريين تجاه شخص أسود لأنه عاطل عن العمل ولا يمكننا أن نكون عنصريين تجاه طبيبة تعطي الدواء لجيرانها وتستقبل بحفاوة. وفي يوم، تفقد عملها، فيقال لها «إذا قمت بتغيير دينك سوف تحصلين على عمل بسهولة».

ونسائل في ذلك الجانب الديني. الأفارقة من جنوب الصحراء يعبرون عن مدى تصالح الأديان في بلدان إفريقيا : المسيحيون يذهبون إلى المساجد والمسلمون يحتفلون بالأعياد المسيحية. ويقولون أن السياسة هي التي تفرقهم. كما أن هنا مسيحيين لا يكشفهم جيرانهم ويتظاهرون بالإسلام للحصول على وظيفة. هناك شاب تظاهر باعتناقه الإسلام وسمى نفسه حسن.

الدين جزء من الهوية والعنصرية عنصرية بطبقات. يستقبل السوريون من قبل الدولة بصدر رحب ذلك لأن المغاربة لهم اطلاع على الأحداث ويرون أن السوريون في أمس الحاجة للمساعدة. ولكن السوريون أيضا يتمتعون بذكاء كبير ويحبون العمل. وأولئك الذين يريدون النجاح بسرعة لا يختارون مدينة الرباط أو الدار البيضاء، ولكن يقصدون مدنا صغيرة مثل أزرو وأوريكا... حيث ينشئون مشاريع في صناعة الألومنيوم على سبيل المثال... إذا فالقضية السورية موجودة حتما، والقضية العربية الإسلامية أيضا، ولكن، وفي نفس الوقت، لا تجدر الإحالة إلى القضية الجماعية فقط وإنما إلى القضية الفردية، وحتى في أوج مأساتهم، هناك من ينجح. السوريون إذا نجحوا فلأنهم مجدون، أناس كان لهم تاريخ، ومنزل، وعمل ومهارات...

وفيما يتعلق بالموارد، فيمكن بسهولة الاندماج وإعادة بناء حياة جديدة، إلى درجة مدهشة. آخر جانب : لقد طرحتم سؤالا حول «كون» وقد أجبتم أن هناك معلم رائع أسس مجلة إضافة إلى مجلة الكترونية الآن، فهو يعطي محاضرات ومحاضراته لا تدور حول «كيف تبقى على قيد الحياة ؟» وإنما عن «كيف تنجح في المغرب ؟»

نادية هاشمي

شكرا لك سي جليل. أما المجموعة الكبيرة الثانية من الأسئلة فموجهة للسيد الشدادي وتتناول الطريقة التي ننظم بها انفتاح بلدنا. سوف يجيبنا أيضا على سؤال حول الجهود المشتركة بين المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين والمؤسسات المغربية.

جان بول كافاليري

عن سؤال المغرب والاتحاد الأوروبي، المغرب إلى جانب بلدان أخرى معني بهذه القضية لأن السوريين الذين يحلون بالمغرب يمرون عبر موريتانيا، مالي والجزائر، ويدخلون بعد ذلك إلى وجدة أو أي مكان آخر في جهة الشرق. والسؤال المطروح حول مسؤولية أوروبا. لا يجب أن ننسى بأن 80% من اللاجئين في العالم يتم استقبالهم وإيوائهم في بلدان الجنوب، إذا هناك أزمة في الأخلاق، بل هناك أزمة أخلاقية في المغرب.

كما يوجد نقص في التضامن بين الدول في أوروبا - النمسا والسويد ودول أخرى لا تتحمل مسؤوليتها - وبالتالي هناك حاجة لمزيد من الإجراءات القانونية لتجنب الوفيات في البحر المتوسط، فاللاجئون في مناطق النزاع كما في لبنان والأردن وتركيا... من أجل التخفيف ومعالجة الاكتظاظ بطريقة ما كما الحال في أوروبا، إننا في حاجة إلى التضامن الدولي. مسؤولية المغرب تعني أيضا أنه يجب أن يأخذ نصيبه من المسؤولية العالمية. إذ سوف تتم مساءلته من طرف منظمات أروبية، بمليلية وسبتة. يجب على المفوضية السامية لشؤون اللاجئين أن تطلب من السلطات المغربية السماح بعبور السوريين وأفارقة جنوب الصحراء بصفة شرعية إلى اسبانيا ولو كانت وضعيتهم غير شرعية.

في الجنوب، يبدو أن المغرب غير قادر على خلق نظام لجوء : فالدول الأوربية قادرة على احترام حقوق الإنسان وهل لا نستطيع توفير ذلك هنا ؟ تثق أوروبا في قدرة المغرب، أو الآخر، الذي عليه احترام القوانين الدولية. وهذا ما يحدث بالضبط في المغرب، ومهمة المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين هو مساعدة السلطات المغربية في خلق نظام لجوء.

وفيما يتعلق بالسؤال عن دور المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين بالمقارنة مع المجلس الوطني لحقوق الإنسان بالمغرب أو بالوزارة المكلفة بشؤون الهجرة، فإن الأنسب هو، كما الحال بالنسبة لأوروبا، أو عدة بلدان في إفريقيا جنوب الصحراء، فإن الدور الذي نضطلع به هو مراقبة الجودة. في جنيف، فقد وقعت الدولة على التزامات في غياب قانون اللجوء هنا في المغرب، وهذا شيء مثير للاهتمام.

يعتبر المغرب بمثابة مختبر مفتوح، أي لا يوجد قانون حول اللجوء. والمغرب لم يتسلم بعد إدارة جميع القضايا ونحن الآن في مرحلة انتقالية. إذا ما يثير الاهتمام، هنا في المغرب، هو تلك «الآلات» التي تعالج قضية اللاجئين، واللجان المشتركة بين الوزارات، توجد من قبل وتعمل في الرباط إلى جانب المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين والتي تنظر إلى الحالات التي في طور الحدوث أو التي حدثت.

وأعطي مثال لامرأة من إفريقيا جنوب الصحراء مهددة بالتعرض للختان. ومن أجل تجنب الختان الإجباري، فرت من عائلتها ومن قريتها. فلم تبق السلطات المغربية مكتوفة الأيدي، إنها تعمل في انتظار صدور قانون اللجوء.

لماذا نتحدث عن اللاجئين السوريين في حين أن الحكومة لا تدعوهم في الحقيقة باللاجئين ؟ بينما الأفارقة من جنوب الصحراء، فتتم تسوية وضعيتهم من قبل السلطات، في حين لا يستفيد السوريون من التسوية بصفتهم لاجئين ولكنهم يتمتعون بحماية السلطات بصفتهم مهاجرين.

كان على السياسة أن تأخذ بعين الاعتبار هذا النوع وهذه الحالات، وقد تم حلها على أعلى مستوى في المغرب. لماذا ؟ لأن وضع اللاجئ أكثر حماية وأمانا. إذ أن منح تصاريح إقامة كمهاجرين أمر جيد؛ بحيث لا يتم في أوروبا ، لذا يجب أن نكون إيجابيين.

نادية هاشمي

شكرا. هل يريد أن يعلق متدخلون آخرون حول قضية كيفية «أن تكون مهاجرا بالمغرب» ؟

بوعزة بنعاشر

أود فقط أن أناقش ظاهرة العزل. يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أيضا أهمية ما يمكن أن نسميه بمبدأ الاحتياط في مجال السياسة. أي بمعنى آخر أن تكون المقاربة شاملة وليس فقط تكاملية. مبدأ الاحتياط هذا يضعنا أمام نظرية في علم الاجتماع، الصراع الطبقي : كيف يمكننا أن تجنب مبدأ الصراع الطبقي ؟

ويكمن الخطر في أن هذه النظرية يمكن أن تتحول إلى صراع عرقي، لهذا يجب نزع الطابع العرقي عن العلاقات الاجتماعية، العلاقات الاجتماعية للخطابات وعن الرواية والأدب.

أريد أن أعرف ما إذا كانت هذه المقاربة الشاملة تهم فقط التعليم وإدماج ومحو أمية المهاجرين، أم يتعلق ذلك أيضا بجانب الصحة النفسية كما قال السي «بناني» : هل تؤخذ المعاناة النفسية بعين الاعتبار وما هي سبل معالجتها، هل عن طريق مساعدة بعض المهاجرين الأفارقة أو السوريين مثلا لعلاج الاضطراب النفسي من منظور التحليل النفسي ولاسيما الأمراض النفسية ؟

وفي المقابل، وفيما يخص اليهود المغاربة، نجد فعلا أن الأمر يتعلق بهجرة بما أنهم غادروا المملكة، ولكن هل يؤثر ذلك على بنية الشخصية للمغربي ؟

أعتقد ذلك، إلا أنها هجرة عكسية. أولا، ليست مشكلة في التجريد بالنسبة للفلسطيني المعني بالأمر هنا على حد سواء. وهذا يعني أنه وجب التمييز بين المهاجر الذي جاء من أرضه الأصلية، والذي طرد أو استعمر، وبين المهاجر الذي سرق منه وطنه.

الشباب والهجرة نحو اسبانيا :
وجهات نظر - مؤسسة الثقافات الثلاث (اسبانيا)

رئيس الجلسة : مولاي احمد الكْمون

المشاركون : كارمن فرنانديز طفورا (اسبانيا)، خوسي مانويل سيرفيرا (اسبانيا)، انطونيو شافيز روندون (اسبانيا)، العربي الحسن، مومن الصوفي، كريمة بوعلال، عزيز امحجور، معاذ الجامعي

فضاء : ليوبولد سيدار سنڭور

التاريخ : يوم الجمعة 22 شتنبر 2017

الساعة : 16 : 45 - 18 : 00

موجز مداخلات المائدة المستديرة

حضر مثقفون بارزون بأعداد كبيرة إلى هذه المائدة المستديرة التي أشرف عليها السيد مولاي احمد الكْمون، بحضور كل من كارمن فرنانديز طفورا، خوسيه مانويل سيرفيرا، انطونيو شافيز روندون، العربي الحسن، مومن الصوفي، كريمة بوعلال وعزيز امحجور، الذين حللوا الموضوع في عمقه من الناحية القانونية والأدبية والاجتماعية. الباحث والأستاذ مولاي أحمد الكْمون أكد على أن الهجرة باتت تقلق جديا الدول الأوروبية، ولكن أيضا البلدان الواقعة في الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، وذلك لأنها أصبحت ظاهرة شائكة لها جوانب متعددة، والتي تؤثر على العالم بسبب الحروب والصراعات الطائفية والفقر.

تشكل هذه الهجرة موردا حيويا للجنوب إلا أنها تضيع بسهولة في البلدان الأوروبية. أصبحت الهجرة مشكلة هيكلية، والتي تتجلى على مستوى الجماعات والأفراد، لاسيما المغاربة والمغاربيون، والذين لا يترددون لحظة في تعريض حياتهم للخطر بحثا عن فضاء أكثر رحابة واستقبالا بمثابة «الإلدورادو» أو جنة الأحلام. إلا أنهم يجدون أنفسهم أمام حقيقة مرة، أشد قسوة، أحيانا، مما رحلوا عنه. وبما أن إسبانيا بلد قريب من إفريقيا، يجتاحها يوميا عبر البحر عشرات المهاجرين، خاصة بواسطة قوارب الموت. باعتبارها حاليا بلد ارتقى إلى تنمية اقتصادية واجتماعية مهمة، فإن اسبانيا أصبحت هدفا للشباب الباحثين عن مكان جديد للاستقرار. حلم الضفة المقابلة ما يزال حاضرا في ذهن الشباب المغاربي، أيا كانت الوسائل والطرق المؤدية إليه. إذ لا يفكر هؤلاء الشباب في العواقب الوخيمة التي سوف يواجهونها، همهم الوحيد هو الهروب من واقع يتسم بالفقر، والبطالة والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المتردية التي يعيشون فيها.

تعتبر الهجرة المغاربية نحو اسبانيا حسب المتدخلين بمثابة حلم يؤرق أذهان الكثير من الشباب : ظروف المعيشة الصعبة تدفعهم للبحث عن فرص أخرى. ويخلص المتدخلون إلى ضرورة بلورة خطط عمل رشيدة لتوعية الشباب، ولاسيما المراهقين، من أجل خلق فرص جديدة لحياة أفضل في بلدهم الأصلي عن طريق إدماجهم في الحياة الاقتصادية والرياضية والثقافية والاجتماعية والسياسية، ومن خلال دعم دور الشباب، والنوادي الرياضية والجمعيات الثقافية، إضافة إلى اضطلاعهم بالمسؤوليات داخل شبيبة الأحزاب السياسية، ولاسيما بهدف حمايتهم من التطرف.

مولاي احمد الگمون

سوف نناقش خلال هذه الندوة الثقافية موضوع هجرة الشباب المغاربي إلى اسبانيا، وسيشارك في هذه الندوة مجموعة من الأساتذة الكرام في إسبانيا وكذلك المغرب وخصوصا من جامعة محمد الأول بوجدة، موضوع الهجرة هو موضوع شائك وراهن يهم ضفتي البحر الأبيض المتوسط، فهذه الظاهرة الاجتماعية أصبحت تشغل بال السياسيين وعلماء الاجتماع وعلماء التربية، كما أصبحت ظاهرة شائكة للقرن الحادي والعشرين. وينتج عنها تبديدا للطاقات الحيوية للشباب الذين يتركون مجتمعاتهم صوب آفاق أخرى إذ بات من الضروري الحد من هذه الآفة. ويشكل ذلك محور نقاش هذه المائدة المستديرة ثلاثية الأطراف.

يهاجر الشباب المغربي إلى إسبانيا، هناك تفسيرات من الماضي وفي المتخيل التاريخي العربي، كانت تشكل إسبانيا، وخاصة الأندلس، الفردوس المفقود. فأصبحت تمثل اسبانيا للشباب الفردوس المنشود، نظرا للقفزة الاقتصادية التي شهدتها. ولكن مع حلول الأزمة الاقتصادية التي أصابت أوروبا وإسبانيا على وجه الخصوص، أصبحت أوروبا قلعة مغلقة. لذلك فإن الشباب يحاول الوصول إليها بأي وسيلة.

ويتعلق الأمر بجميع الشرائح الاجتماعية، وجميع الأصول والمستويات الدراسية. فقد دحضت الأطروحات القديمة التي تعزي سبب الهجرة إلى الفقر. المشكلة الاجتماعية لم تعد حجة صالحة، فالقضايا السياسية والحاجة إلى الحرية لم تعد فرضيات قائمة. وجب التفكير في فرضية جديدة ومقاربة جديدة. كما يجب أن تكون مشتركة بين بلدان الأصل وبلدان الاستقبال، يجب النظر إلى هذه الإشكالية من وجهة نظر إسبانية ومن منظور مغربي ثم البحث عن حلول مشتركة.

مداخلة

أود أن أشكر الأستاذ احمد الگمون والمؤسسات التي قامت بدعوتنا للمشاركة في هذه المائدة المستديرة.

أنا أشغل منصب المديرة الفنية للمركز الأندلسي للأدب. إنها مؤسسة عمومية تابعة للحكومة الأندلسية والتي تسهر على تشجيع القراءة داخل الأندلس، وترويج الكتب أيضا. الإشكالية التي تطرحها هذه المائدة المستديرة تتعلق أيضا بالشباب الناتجين عن الهجرة المغاربية، لذلك أردت أن أركز في مداخلتي حول الوسائل التي يستعين بها المركز الأندلسي للأدب من أجل إيجاد سبل لإدماج المهاجرين القادمين من بلدان المغرب العربي في المحافظات الأندلسية مثل هويلفا، ألميريا وقادس.

نتوفر على بعض الوسائل لتشجيع القراءة في إسبانيا وفي البلدان الأوروبية : إنها نوادي للقراءة. إذ نملك شبكة مستقرة تضم حوالي 430 طالبا، موزعين عبر إقليم الأندلس، ذلك لأن مجال عملنا يهم إقليم الأندلس المستقل ذاتيا ككل. نقدم لهؤلاء الأشخاص مجموعات ببليوغرافية، بهدف أن يلتقوا بعد ذلك مرة في الشهر لمناقشة ما قرؤوه واكتسبوه. يشكل ذلك بالنسبة لنا عاملا للإدماج، ليس فقط لفائدة المهاجرين وإنما أيضا للأشخاص الذين يعيشون في المدن الصغرى والقرى الأندلسية، من أجل أن يجتمعوا كل شهر حول كتاب أو شيء اطلعوا عليه. ويفترض فيه حافزا ينجح في كثير من الأحيان كما يجب اعتباره كأداة تقارب بين الناس الذي يتعايشون في المدن الصغرى. أؤكد على أن الشبكة تغطي كامل الإقليم. والمغزى منه هو التعدد، وعرض الآراء المتنوعة ثم النقاش، وفي جميع الحالات، تشجيع اللقاء بالآخر. وفي هذا الإطار، أريد أن أشير إلى أن اللجنة المشتركة بين الإدارات المعنية بسياسة الهجرة في مجلس الأندلس تطور منذ سنة 2001 أول خطة شاملة للهجرة في الأندلس. ويعني ذلك تزويد المكتبات العمومية في الأندلس بشبكة من القراءات العامة والمكتبات متعددة الثقافات (المكتبات متعددة الثقافات هي فضاءات في المكتبات، ووفقا لعدد الأفراد المعنيين، فإنها تحصل على تمويل لمختلف اللغات من أجل إدماج هؤلاء الأشخاص).

وهكذا تم تطوير ورشات عمل إضافة إلى أنشطة متنوعة وبطريقة ما، ومن خلال عنصر مدمج كاللغة، يشعر كل فرد بذلك التقارب الثقافي دون أن يفقد هويته التي تميزه. من ناحية أخرى، لهذه الآلية رابط خاص مع الشعب المغربي. إذ نحتفل كل شهر باجتماع الشعراء المغاربة. ونحاول أن نكون مرتبطين ارتباطا وثيقا بالجامعات الأندلسية لكي تقوم بنشر مؤلفات لكتاب مغاربة. كما نشجع اللقاء والتواصل بيننا وبين المؤلفين المغاربة الذين يكتبون باللغة الإسبانية. أبقى رهن إشارتكم لتوضيح كل ما يهمكم.

مولاي احمد الكمون

أعطي الكلمة للجانب الإسباني ليقدم لنا رؤيته حول هذه الآفة. وما هي الوسائل التي يجب أن تواكب ظاهرة الهجرة ؟ أعطي الكلمة للأستاذ أنطونيو شافيز روندون، المتخصص في العلاقات الأوروبية المتوسطية والتعاون الدولي من أجل التنمية، كما يساهم في إدارة المركز الثقافي الإسباني بمراكش.

وهو المسؤول حاليا عن التخطيط الاستراتيجي لمؤسسة الثقافات الثلاث، وهو أيضا أستاذ السياسة في المجتمع العربي المعاصر بجامعة إشبيلية وعضو في مجموعة أبحاث مرصد البحر الأبيض المتوسط بنفس الجامعة ؛ وتشمل منشوراته على سبيل المثال، استراتيجيات للحد من ظاهرة الفقر وبناء مساحات التواصل، وإستراتيجية تعليمية للتبادل الثقافي بين الشباب في الفضاء الأندلسي المغربي. إنه حاصل على جائزة المعهد الأندلسي للشباب. وليتفضل مشكورا.

أنطونيو شافيز روندون

أشكر السيد الكمون ومنظمي هذا المعرض وكذلك جهة الشرق. أولا، يجب تقديم مؤسسة الثقافات الثلاث، وهي هيئة تأسست سنة 1937، بمبادرة من الحكومة الإقليمية الأندلسية التي يرتبط بها المغرب، إنها مؤسسة متوسطية بامتياز.

يسمح المستوى الحكومي بالكثير من الحديث والتفكير، وفي هذه السنة، عملنا بشكل أساسي على الثقافة. المغرب بلد ثقافي، حيث يوجد العديد من المثقفين والفاعلين الاقتصاديين والاجتماعيين على حد سواء. ولدينا تاريخ استثنائي معا، تقاسمنا فيه قرونا من الثقافة. ومؤسسة الثقافات الثلاث تعمل على تبادل هذه الرؤية.

إننا لا نتحدث عن ظاهرة يمكننا إيجاد حل فريد لها، هناك العديد من الجوانب التي تشهد تغييرات. ونحتاج إلى التفكير في العديد من الظواهر الموازية لأن تأثيرنا محدود، بما أننا لا نتدخل في بلد واحد.

يجب كذلك أن نتحدث عن الأشخاص الذين غادروا بلدهم صوب بلد آخر : الأندلس.فما الذي حدث ؟

لأنه في الواقع، هناك مشكلة مع جيل المهاجرين الأقدم، فهم أناس لا يعتبرون أنفسهم أندلسيين ولا مغاربة، وهنا تكمن المشكلة، فما الذي يجب فعله إزاء ذلك ؟ نحن نعمل كثيرا بنهج استراتيجي لمؤسسة الجالية المغربية المقيمة بالخارج، نحو هدف محدد : تعزيز الوطنية المغربية للأجيال الجديدة.

كما نقدم لهم دروسا في اللغة العربية بالإضافة إلى دروس في اللغة الاسبانية، وكذلك عناصر ثقافية كانوا يجهلونها. ومقر مؤسسة الثقافات الثلاث هو موطن المغرب في الأندلس. ويمثل الشباب هدفنا الرئيسي.

فلابد أن يقدم الشباب مساهمته، ليس فقط في المغرب بل في كل المجتمعات الأورو متوسطية. كما يجب أن نتحدث عن مشكلة الهجرة والشباب.

مولاي احمد الكمون

يجب ألا ننظر إلى الهجرة كمشكلة، وإنما كفرصة لبناء مجتمع أفضل. إذ لا تعد مشكلة لا بالنسبة للبلد المرسل ولا للبلد المضيف، إذا يجب أن نعالج المسألة من هذا المنطلق. فبالنسبة للمغرب، المؤسسة لا تعمل فقط على دراسة الظاهرة، بل هي موطن له لأنها تحافظ على ثقافته. وتعمل البروفيسورة أنطونيا أوسورنو، خريجة جامعة إشبيلية، منذ 1989 على الاستفادة من المساحات الثقافية المختلفة في الأندلس :

وكانت مسؤولة عن تنظيم البرنامج الثقافي الأندلسي في المغرب سنة 1998، وتم تعيينها في سنة 2004 رئيسة للفضاء المركزي لمجلس الأدب، كما أنها مسؤولة تقنية للمشاريع والأنشطة المتعلقة بالشباب وتشجيع القراءة، وتشارك أيضا في تنظيم معارض الكتب والبرامج الأدبية. تدرس، حاليا، الثقافة الروسية إضافة إلى خبرتها في كل ما يتعلق بتشجيع القراءة وتنظيم معارض الكتب ومنح الجوائز الثقافية.

أنطونيا أوسورنو

سأتحدث عن التقييم الذي أجراه أقارب المغتربين الذين بقوا في المغرب ونجاح المهاجرين في الأندلس. ويأتي هذا من موضوع بحث عملت عليه لمدة عامين، من 2007 إلى 2009. وكان الهدف منه هو معرفة مدى نجاحهم أو فشلهم في محاولتهم. وبأي طريقة فعلوا ذلك ؟

تلقيت الدعم من العديد من الجامعات الأندلسية، بما في ذلك غرناطة ومالقة وألمرية وقرطبة وجامعة محمد الخامس بالرباط في المغرب. وكان الهدف هو تحليل نجاح المهاجرات اللواتي أحضرن من بلادهن الأصلية إلى الأندلس. ومن أين أتت هؤلاء النساء ؟ ومن أية بيئة ؟ هل كانت هذه الهجرة دولية أو وطنية فقط ؟ ولماذا انتقلت معظمهن داخل المغرب قبل التخطيط لمشروع الهجرة إلى إسبانيا أو في أي مكان آخر في أوروبا ؟

لقد كانت دراسة ممتعة للغاية مع العديد من الموضوعات التي عملنا عليها. وقد ذكرت أحد تلك المواضيع قبل قليل : أي مستوى نجاح هؤلاء المهاجرين. أملك هنا بعض الشهادات التي حصلت عليها من خلال المقابلات التي أجريت في المغرب مع أقارب هؤلاء المهاجرين. وقد تم ذلك بموافقتهم. أما بخصوص المتواجدين في الأندلس، فلدينا بيانات مثيرة للاهتمام وقد تم تكليف فريق في المغرب لدراسة نجاح هؤلاء المهاجرين. كما تلقينا شهادة من والد للمهاجرين يقول إن أطفاله هم نوع من الضمان للحصول على دخل شهري هنا في المغرب. ويقول : «*جميع عائلات وادي زم الذين لديهم مهاجرون في العائلة شهدوا تحسن أوضاعهم الاقتصادية. وفي الواقع، ذهب الجميع.*» ويقول آخر : «*محمد كان أكثر نجاحا من الآخرين. إذ لديه أطفال يعملون ويساعدون والدهم*».

وهكذا، لا ينسب النجاح إلى الأب فحسب، بل أيضا إلى الأبناء الذين عملوا مع عائلاتهم. لذلك تم تحقيق النجاح. وهناك أمثلة أخرى كذلك. لا يزال آخرون يرون آثار الهجرة عندما يكون الأطفال من نفس العائلة وقد هاجر العديد من الشباب. وتدعم أموالهم مشاريع نفس العائلة : بناء منزل، إقامة مشروع تجاري... وغالباً ما توجد هذه المشاريع في مساكن غير مستقرة مخصصة لإنشاء العقارات. ويقول أحد الذين أجريت معهم المقابلة في الدار البيضاء، ابن عم لعائلة تنحدر من بن مسيك وتستقر في «أغيلار دي لا فرونتيرا» في محافظة قرطبة، عن نجاحها : «*جميعهم اشتروا شققا. كانت لديهم شقة في الحي، لكنهم الآن اشتروا بيتًا منفصلاً تبلغ مساحته حوالي مائة وثلاثين مترًا مربعًا مقابل ستين مليونًا. إنها الهجرة التي سمحت بكل ذلك*». ويعود هذا الانتصار إلى المشاركة المالية للأبناء.

من ناحية أخرى ، نعرف أنه في العائلات، يعتمد ذلك على المستوى الاجتماعي الذي ينحدرون منه. سأتحدث عن موقف آخر يتعارض مع ما ذكر أعلاه، حيث لا يُنظر إلى هجرة أحد الأعضاء إلى إسبانيا على أنها تحسُّن للشخص الذي قام بها. في كثير من الأحيان، يعتبر الوضع قبل الهجرة أفضل من بعد الاستقرار في إسبانيا. حتى النجاح في أن يصبح الشخص من أصحاب الممتلكات في بلد الهجرة لا يعتبر ناجحا.

بعبارة أخرى ، حتى لو كان لديك منزل في إسبانيا ، فهذا ليس نجاحا : يجب أن يكون هذا المنزل في المغرب. وهذا الاستثمار سيكون أفضل قيمة وسينظر إليه على أنه نجاح إذا كان قد تم القيام به في بلد المنشأ. والشهادة تقول : «*قبل مغادرتنا، كان كل شيء على ما يرام.*» هذا وقال والد مهاجر : «*كان لديه سيارة أجرة قبل الهجرة، ولكن في وقت لاحق ساء وضعه جدا : قام بكل شيء في إسبانيا، ولم يفعل شيئًا على الإطلاق هنا في بلاده. لذا، قبل الهجرة كان حاله أفضل ، والآن ، عندما هاجر، ساء وضعه*». لذلك، فإن وجهة النظر تتغير وفقا لحالة كل عائلة.

أتوقف هنا لأنني أردت فقط أن أعطيكم فكرة عن الطريقة التي عملنا بها كفريق. وتم كل ذلك بالتعاون مع مؤسسة «ميراداس كروزاداس» وتطلبت الكثير من العمل. ما زلت أتذكر المقابلات مع المهاجرين الذين تعاملنا معهم بصدد هذا الموضوع في الناظور والحسيمة، إلخ.

مولاي احمد الكَمون

شكرا أنطونيا أوسورنو، وهي عضو في منظمة تقدم حلولاً أخرى. وتشجع هذه المنظمة القراءة بين الشباب وتشجع على إنشاء نوادي قراءة مغربية وإسبانية وأندلسية، بما في ذلك إنشاء مكتبات تجمع بين كتب من ثقافات مختلفة، مما يخلق تكاملاً ثقافياً وعلاقات فيما بينها. بالإضافة إلى ذلك، يدعو هذا المركز عددًا من الكتاب والشعراء والمفكرين المغاربة إلى شرح الثقافة المغربية ونشرها في الاجتماعات والمنتديات للجمهور الإسباني. وبذلك، يصر الجانب الإسباني على الثقافة والقراءة لحل مشكلة الهجرة.

سنذهب الآن إلى الضفة المغربية لنرى كيف يرى مواطنونا هذه الآفة وكيف يتصورون الحل. فهل هناك تطابق مع الجانب الاسباني ؟ قرب، تقاطع أم تضامن ؟ معنا الأستاذة كريمة بوعلال، والأستاذ العربي الحسن، والأستاذ امحجور، والأستاذ الصوفي مومن. جاءوا من كلية الناظور المتعددة التخصصات ومن جامعة محمد الأول بوجدة ويدرسون اللغة الإسبانية في المنطقة الشرقية. هذا العمل صعب، لكن لدينا مهارات تضع الكثير من الجهد في التدريب والتعليم وعلم التربية والعلاقات مع الدول الأخرى. نشكرهم على هذه الجهود والآن الكلمة لكريمة بوعلال.

كريمة بوعلال

أعتقد أنه من الصعب الإجابة على التساؤل الذي طرحه الأستاذ الكَمون : من هو من ؟ وما العمل ؟ وكيف نفعل ذلك ؟ وتخص هذه الأسئلة المغرب «كمصدر» للمهاجرين.

والسؤال الذي أطرحه هو : ما الذي يجب أن يفعله المغرب، وهو بلد «مُصدِّر» للمهاجرين بعد استنزاف الموارد التي هي الهجرة ؟ لأن هذا المنجم سوف ينفذ.

هناك مشروع FRONTEX، وليس هناك مزيد من الهجرة : فالعائلات المغربية لم تعد تهاجر، ليس لأنهم لا يريدون ذلك، بل لأنه لم يعد مسموحا لهم بالهجرة إلى أوروبا. وأطرح هنا سؤالاً : ماذا نفعل للعمل بشكل جيد مع الأجيال الثانية والثالثة، بحيث نقنعهم بالعودة إلى وطنهم، والاستثمار، وقضاء عطلاتهم هناك ؟ بما أن منجم الذهب هذا بدأ ينفذ، علينا أن نبحث عن بدائل للتنمية، كما كانت إسبانيا تبحث عنها. لأنه حتى الستينيات والسبعينيات، كانت إسبانيا بلدًا مهاجرًا، قبل أن تجد بدائل للتنمية في مجال السياحة والصناعة والزراعة...

بالطبع، استفادت إسبانيا من مساعدة المجموعة الأوروبية عندما بحثت عن بدائل وأصبحت الآن دولة مضيفة للمهاجرين بدلاً من أن تكون دولة مصدرة. لذا فإن السؤال المطروح : ماذا يمكن أن يفعل المغرب كدولة مصدرة للمهاجرين بعد ذلك ؟ أملك بعض الأفكار وسأعرضها بسرعة. لم يبلور المغرب خطة إستراتيجية للهجرة. ولدينا وزارة مسؤولة عن الهجرة، وفي نظري فإنها لا تملك شيئا ولا تفعل شيئا، لديها أربعة موظفين وميزانية تكفي لتنقل الوزير لوحده. لذلك ، ليس لدينا خطة استراتيجية للهجرة. نحن بحاجة إلى خطة استراتيجية تشارك فيها الأقاليم. كما يجب أن نعمل بجدية مع أبناء المهاجرين الذين يعيشون هناك. ذلك لأن منجم الذهب نفذ من الهجرة. إننا لا نصدر أي شيء آخر، لكن الأبناء الذين يعملون هناك، ويعيشون هناك، ويولدون هناك. ويمكنهم، إذا عملنا بشكل جيد، أن يعودوا بأفكارهم ومهاراتهم وأموالهم للاستثمار وما إلى ذلك. والفكرة هي إشراك هذا الجيل. وتقوم مؤسسة الحسن الثاني بعمل خجول في هذا الصدد. وفي كل سنة، على سبيل المثال، يعملون مع خمسمائة أو سبعمائة طفل من المهاجرين. نقدم لهم هنا، عطلة مدفوعة الأجر، لقضاء شهر في المغرب ويتعلمون قليلاً عن الثقافة واللغة المغربية.

إنها مبادرة خجولة لأنها أقل من القليل ولهذا السبب أقول بأنه يجب إشراك المناطق حتى يستقبل كل إقليم ألف طفل من المهاجرين. إذا كان كل إقليم يفعل هذا، سنزرع فكرة التضامن مع بلد المنشأ.
ومن هذا المنظور وفي غضون سنوات قليلة، ستكون لدينا قاعدة سفراء جدد سيكونون مستثمرين جيدين. وهذه هي أنواع الأفكار التي يمكن أن أقدمها هنا. كما أستطيع أن أقول أكثر من ذلك، لكني أريد أن أسمح بالوقت للمناقشة.

مولاي احمد الگمون

شكراً للأستاذة كريمة بوعلال التي أشارت إلى أن الوزارة تجري دراسة منذ أكثر من عام حول العائلات التي هاجر أفرادها إلى أستراليا. ووجدت أن هذه الهجرة ليس لها أية عواقب سلبية بل أدت إلى تحسين الظروف المعيشية لأسر هؤلاء المهاجرين. وقد أظهرت هذه الدراسة بالتالي الجانب الإيجابي للهجرة.

مداخلة

ألقي نظرة على الجمهور وأسأل نفسي سؤالاً آخرا عن جدوى هذه المائدة المستديرة، من هم «الشباب والهجرة»، وأشاهد هذا الجمهور وأرى أن الغرفة فارغة من الشباب، إذ لا يوجد شباب حاضرين معنا. هل هاجروا جميعا ؟ لا ؟ هذا هو موضوع مناقشتنا. دعونا نتحدث، إن هذا السؤال أو هذا التفكير، يقودني إلى سؤال آخر يعقد الموضوع قليلا : عن أي شباب نتكلم ؟ هل عن شباب اليوم ؟
فقصة هجرة الشباب المغربي إلى اسبانيا مرت عبر عدة مراحل. المرحلة الأولى قبل سنة 1991، عندما بدأ فرض التأشيرة، والتي كانت بمثابة فرامل للهجرة، ويمكننا الحديث حتى عن العقود السابقة، إذ نعرف أن هناك مغاربة جاؤوا لإسبانيا وعملوا في البناء، والزراعة، أو قطاعات أخرى، دون الحصول على رخصة عمل. فقد كانت شيئا مكتسبا أي بمجرد قدومك وحصولك على عمل تُوفر لك رخصة عمل من قبل مشغلك. وكان الشكلي حصول المهاجر على بطاقته الاجتماعية. وقابلت أحد أفراد عائلتي هاجر إلى إسبانيا خلال الستينيات والسبعينيات، وأطلعني على بطاقته الاجتماعية. ولقد اندهشت للغاية لأن البطاقة كانت تماما كتلك التي حصلت عليها ما بين سنة 1991 و1993. ونسخة من البطاقة التي كانوا يحصلون عليها في الستينيات. لقد كان شيئا غريبا جدا.
وتمتد المرحلة الثانية من سنة 1991 إلى سنة 2004. فنهاية القرن العشرين كانت مهمة للغاية بالنسبة للهجرة المغربية فهي ذروة كل شيء : الهجرة، واستقبال المهاجرين من قبل إسبانيا، والتعاون وحتى العمل المنجز من أجل تنظيم إقامة المهاجرين في إسبانيا. أنا لا أتحدث عن الإدماج لأنه ينقلنا إلى سؤال خطير للغاية حول كيفية التعامل معه. لقد تم القيام بالكثير، ولكن كيف ؟ آمل أن أعود إلى هذه النقطة وأن السيد «الكامون» سوف يعطيني بعض الوقت، لأنني أعتبر هذا الأمر مهم للغاية.
وتبدأ المرحلة الثالثة من سنة 2004 إلى اليوم. وكانت تأشيرة 1991 تهدف إلى وقف الهجرة ووضع المراقبة على الحدود في البحر الأبيض المتوسط. إلا أن عدد القادمين إلى اسبانيا قد ارتفع أكثر فأكثر. وشهدت هذه السنوات وقوع هجمات في الأبراج والقطارات، اعتبرت أحداثا هامة للغاية وقاسية ومرعبة. ويبقى علينا التفكير في كيفية إدماج وإقامة المغاربة في إسبانيا منذ ذلك الحين وحتى الآن : وتعود الخطة الأولى للإدماج الاجتماعي للمهاجرين إلى سنة 1994، لكنها لم تكن دولية : أي لم تكن مصممة كخطة دولة. وبعد ذلك برنامج 2001 مع دعم مرتبط بالمراقبة التي لم تكن لها علاقة بالإدماج كما نفهمه.
لقد ذهبنا إلى هذا التجمع والذي يوجد بمدريد، وبالطبع، لقد وضعت تدابير الإدماج كما هو الحال في مناطق أخرى من البلاد. والخطة الإقليمية للهجرة بمدريد 2001-2003 حيث تم تنفيذ المشاريع ولم تسمح للحديث عن التعايش كما هو الحال في مناطق أخرى. كانت كلتا الخطتين مهمتين للغاية لإدماج المهاجرين في إسبانيا.

فقد كانت مدريد رائدة في هذا الاتجاه : تحدثنا عن الميزانيات وفيما أنفقت : استضافة مشاريع المنظمات غير الحكومية والجمعيات وتجميعها في خطة واحدة، ولكن الخطة لم تشمل فعاليتها دمج المغاربة في إسبانيا.
سأنتقل الآن إلى السؤال حول «كيف». كما قال السيد حسن من قبل، إذ يجب على المغرب بلورة مخططات استراتيجية للهجرة، ونحن بحاجة إلى إنشاء مخططات لإدماج المهاجرين في اسبانيا، تلك المشاريع التي تأخذ بعين الاعتبار ما هو مشترك بين الشعبين. مثلا تعليم اللغة العربية لأطفالنا في إسبانيا غير كاف. إذ أن الهوية لا تضيع. كما أن أخذ بعض أطفال المهاجرين المغاربة لزيارة المغرب غير كاف كذلك. إذ يحيي فقط هذا الشعور الوطني بالانتماء للبلد والحفاظ على الهوية الثقافية، لكن لا يتم الإدماج إطلاقا. وتكمن المشكلة في أن إسبانيا لم تتواصل مع نفسها ثقافيا في البداية. ولا تزال إسبانيا لا تقبل هذا التراث المهم الذي هو التعايش بين المسلمين والإسبان، فقد تم بتر هذه الثقافة العربية من التاريخ. ومع هذا التراث المشترك، كان في مقدور اسبانيا التواصل بكل سلاسة مع المغرب والاستمتاع بالأدب والشعر والثقافة والتاريخ المشترك بين البلدين.
أعرف مهاجرين وصلوا إلى اسبانيا في التسعينيات، وهم اليوم على أبواب التقاعد لكنهم لم يستفيدوا كثيرا من الصندوق الاجتماعي، إذ كانوا بائعين متجولين، ولم يساهموا في الصندوق الاجتماعي إلا بعد مرور زمن طويل، فلم يساهموا في الصندوق الاجتماعي إلا بعد أربع أو خمس سنوات وتقاعدوا بعد طول اشتغال، فهم يعانون الآن من الوحدة والعوز.

الأستاذ العربي الحسن

قضية الهجرة صعبة جدا ويجب أن يتبنى المغرب إستراتيجية لجذب الشباب المغربي الذي يعيش بالخارج، وهذه هي الفئة التي يجب أن تأتي إلى المغرب في العطل لتطوير ودعم الأنشطة السياحية. فهؤلاء الشباب يميلون أكثر إلى قضاء عطلهم بتركيا، لذا وجب على المغرب العمل على استقطابهم.

أنطونيو شافيز روندون

أشار جميع المتدخلين إلى النقاط الرئيسية والتي أظن أنها مهمة للغاية، كما يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار. سأبدأ بخطاب عملي، وأظن أن ما شرحه الأستاذ حسن مهم جدا. فقد قدم فكرة جيدة ألا وهي أقلمة سياسات الهجرة حسب الجهات. تتمتع إسبانيا وخاصة منطقة الأندلس بخبرة واسعة في مجال إدارة سياسة الهجرة منذ سنة 2001. إذ تتوفر الأندلس على لجنة مشتركة بين الإدارات حول سياسات الهجرة كما تمتلك خطة متكاملة لتوجيه سياسات الهجرة. فماذا تعني خطة متكاملة ؟ التعامل مع الهجرة كظاهرة وجب رؤيته من منظور متعدد الاتجاهات، بعبارة أخرى، يجب التطرق لها من منظور أساسي وهو توحيد الخدمات.

فلا يمكن أن يكون هناك تكامل إذا لم يكن هناك توحيد للخدمات. فإن كان المهاجرون لا يستطيعون الحصول على نفس الحقوق (صحة، تعليم، سكن، توظيف...) مثل المواطنون الأندلسيون، فلا يمكن أن نتحدث عن إدماج، خاصة إن لم تكن هناك مشاركة المجتمع المدني، أو إذا لم تتوفر جمعيات تمثل المهاجرين. هكذا ولا يمكن مقاربة من سياسات الهجرة دون معرفة أسباب الهجرة. ولذلك، يجب أن تأخذ الخطة العامة لسياسات الهجرة بعين الاعتبار العمل التنموي للبلد الأصلي. أعتقد أن الأندلس، تخصص أقل من 0.5% من ميزانيتها لسياسات التعاون مع المغرب. ومن بين النقاط المهمة الأخرى التي علّق عليها الأستاذ حسن : عمل مجلس الجالية المغربية بالخارج.

أفكر في تجربة مؤسسة « C F Culture»، وهي أداة مجلس الجالية المغربية بالخارج للتدخل بإسبانيا كما أن لدينا سياسة منسقة مع وزارة التشغيل التابعة لحكومة إسبانيا لتنسيق وتعزيز الممارسات الجيدة التي أثبتت فعاليتها في إسبانيا والتي يمكن تطبيقها في المغرب، لأن المغرب أصبح أيضًا وجهة الهجرة.

في هذا السياق، ستشارك مؤسسة الثقافات الثلاث في ندوة ستعقد بالرباط في نونبر، وذلك لتسليط الضوء على الخبرات التي استخدمت لإدارة سياسات الهجرة والتي يمكن تطبيقها في المغرب كذلك. ومن النقاط المهمة التي ينبغي أن أختم بها، والتي أكد عليها البروفيسور بدقة، دور الإعلام في رسم صورة على الهجرة. إذ تهتم مؤسسة الثقافات الثلاث بهذا الموضوع كثيرا. لقد قمنا في فبراير الماضي، وبالتعاون مع المعهد الأوروبي، بخلق مرصد «إسلاموفوبيا» لوسائل الإعلام. لماذا ؟ لأننا نرغب في تحليل هذه الوسائط، وتحذير وسائل الاتصال من الممارسات التي يمكن انتقادها، وخاصة من أجل تقديم توصيات لوسائل الإعلام لتصحيح الصورة الرائجة والزائفة عن المسلمين في إسبانيا. ففي الحقيقة هناك تعايش رائع بين جميع المجتمعات والديانات في إسبانيا، ونادرا ما تسجل حالات العنف.

أشكركم أيضا السيد امباركي، وأدعوكم بالتفضل للإدلاء بشهادتكم من أجل تعاون فعّال مع جهة الشرق.

الأستاذ عزيز أمحجور

سأطرح سؤالا سيجعل الموضوع أكثر تعقيدا. عن أي شباب نتحدث ؟ لكل فترة شبابها والهجرة المغربية كذلك مرت عبر مراحل : مرحلة ما بين 1990 و1991 حين فرضت التأشيرة فقد كان لدى إسبانيا مهاجرين قبل الهجرة وكان لهم تاريخا وكانوا منظمين. وخلال أواخر القرن العشرين، تم إتباع برنامج لدمج المغاربة، إلا أن هذا البرنامج كان يعتمد فقط على الدعم المادي. لذا، وجب أن نعلم لغتنا لشبابنا في إسبانيا حتى لا ينسوا هويتهم. إن المشكلة التي نواجهها اليوم هي أن إسبانيا لا تجري حوارًا ثقافياً مع نفسها وتشوه إرثا هاما من ماضيها. إنه التراث العربي الإسلامي، كما يجب أن تعلن إسبانيا أن الأدب الأندلسي هو أدب مشترك بيننا.

الأستاذ مومن الصوفي

نشكر مؤسسة الثقافات الثلاث على جهودها. ولا أريد أن أكون سلبيًا، لكن أليست هذه الجهود تتم في جو سيء في بعض الأحيان ؟ فعندما أشاهد التلفزيون الإسباني وأقرأ الصحف هناك، لا يمكنني أن أكون متفائلاً. أرى، أحيانا، أن بعض الجهات لا تهتم بالتعاون، في حين أن إدماج المهاجرين هو عمل جميع الممثلين الاجتماعيين، سواء كانوا مغاربة أو إسبان.

يجب أن نفهم هؤلاء الشباب، أبناء المهاجرين، بأنهم على خلاف والديهم، لم يعايشوا ظروف بلادهم : هؤلاء الأطفال لا يعرفون شيئا عن بلدهم، أو يعرفون القليل عنه، أشياء جزئية فقط. ثم يتعلمون فيما بعد الثقافة الغربية التي تلقن لهم في المدارس. ولهذا يبقى طفل المهاجر في وضع مأساوي، حيث يجد نفسه بين عالمين، ويجب عليه أن يدير الاختلاف والحدود.

إن إدماج المهاجرين هو عرض جماعي. وسوف نتحدث قليلاً عن الظروف. هناك بالتأكيد رغبة من جانب إسبانيا، وحتى أوروبا، لدمج الخريجين، ولكن الظروف الاقتصادية الحالية تؤثر بدورها على إدماجهم.

فهناك حاجة إلى وظيفة أو منزل لهؤلاء المهاجرين الشباب أو أطفال المهاجرين. إذ يواجه فالمهاجرون الشباب في إسبانيا مشاكل كثيرة : كعدم الاستقرار في العمل على وجه الخصوص وكذلك صعوبة الحصول على السكن، إلخ. ما هو الادماج ؟ ويعني الادماج الانصهار ضمن مجموعة، إذا أردنا خلق الانسجام في المجتمع الإسباني، فمن الضروري التنسيق بين جميع مكونات المجتمع. لهذا، يجب على المجتمع خلق ظروف معيشية وحيوية حتى يساهم المهاجرون، الكبار أو الشباب، في تلبية احتياجاتهم والمساهمة في ازدهار اسبانيا.
كما يتعين على المسؤولين السياسيين والمنظمات إعادة النظر في تحديات المهاجرين الشباب ووضع سياسات وحلول مناسبة لتطوير فرص النجاح.

ماركز أوسونو أنطونيا

أرحب بالأمين العام لولاية جهة الشرق ومؤسسة الثقافات الثلاث. وما يؤسفني كثيرا هو الحضور الضعيف للغة الإسبانية في هذه المنطقة وهذه المدينة، حيث تعلمت الإسبانية. إذ تعلمتها في المدرسة، مثل أي شخص آخر، إلا أنه قد كان هناك تواجد إسباني، ومراكز ثقافية، وسكان إسبان. وكانت هناك تقاليد، كالأسبوع المقدس لإشبيلية، والتاريخ المشترك للأندلس فيما يتعلق بالمغرب العربي، إلخ.
المؤسسة ليست مسؤولة عن فقدان وجود الثقافة الإسبانية. فما زلنا نمتلك أشياء مشتركة لن يمحوها الزمان، مثل الموسيقى والشعر والأدب والثقافة وما إلى ذلك. لقد تحدثنا عن ذلك سويا أمس، ورأيتم عرض «دكالة»، ولاحظتم تأثير «الفلامنكو» والأشياء الأخرى... ولعل ما أتمناه فيما يخص الإصدار المقبل من «رسائل من المغرب الكبير» هو أن يكون الحضور أكثر كثافة حتى نتمكن من رؤية مشتركة للقصائد على سبيل المثال. وشاهدت أوركسترا جميلة للغاية أدت أغاني للشاعر «محمد المعتمد بن عبد الله»، وكانت في قمة الروعة. وأعتقد أنه يجب الجمع بين كل هذا وذاك ليدرك الناس أن ما حصل ببرشلونة، وما يرتبط بالأعمال الإرهابية، والمؤدي إلى التفريق بين الشعوب بدلا من توحيدها، فهو لا يمت للإسلام أو المسيحية بصلة.

مداخلة

أشكر ضيوفنا من إسبانيا. أهلاً بكم في المغرب، بلدكم الثاني. وأود إثارة القضية التالية، بالطبع لا يمكننا إنكار التاريخ المشترك بيننا، والذي كان موجودًا منذ أكثر من سبعة قرون بين شبه الجزيرة الإيبيرية والمغرب. أود أن أطلب منكم تسهيل إجراءات الحصول على تأشيراتنا وذلك للتفاعل بشكل أفضل مع المجتمع الإسباني. نريد أيضًا أن نرى مركزًا ثقافيا إسبانيا في وجدة. هناك شيء واحد أريد أن أذكره. أنا أعيش بإسبانيا منذ عدة سنوات وأدركت أن الحكومة الأندلسية تبذل الكثير من الجهود لإدماج المغاربة في إسبانيا. يجب ألا ننكر أن المشكلة كبيرة كما أن هناك العديد من المغاربة يرفضون الاندماج في المجتمع الإسباني. على سبيل المثال، يعمل الكثير من المغاربة في القطاع غير القانوني ولا يدفعون واجبات الضمان الاجتماعي. ولهذا السبب لا تريد الحكومة الإسبانية السماح للمهاجرين بالعودة إلى بلدهم والبقاء لأكثر من ستة أشهر : إذا فعلوا ذلك، فإنهم يفقدون الكثير من حقوقهم. ثم يجب علينا قول الحقيقة. كما يجب أن نساعد أنفسنا بصفتنا مغاربة وإسبان. فمثلا أرى أن الحكومة المغربية لا تقوم بمجهودات كافية لإدماج المهاجرين المغاربة بإسبانيا، فالقنصليات المغربية بإسبانيا لا تقوم بواجباتها حسب ما نصت تعليمات جلالة الملك محمد السادس.

مداخلة

قال سبحانه وتعالى في كتابه المقدس : «*وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا*». فالمغرب وكما يعرف الجميع، هو ملتقى للشعوب والحضارات. وأعتقد أن هناك نوعين من الهجرة : المهاجرون السريون وهجرة الأدمغة والتي يتعين على الجانب الأوروبي إدراكها. أدعو الدولة الإسبانية الشقيقة إلى رفع حاجز التأشيرات حتى يكون هناك انسجام بين الثقافات ولفتح الباب كذلك أمام التبادلات التجارية.

مداخلة

أنا مدرس متقاعد ومتعاون بمجلة إلكترونية. وسأطرح سؤالاً سيرجعنا قليلاً للوراء : ما الذي تم القيام به لتعزيز العلاقات الثقافية بين البلدين ؟

مداخلة

أعتقد أن هذا المعرض المغاربي للكتاب سيحقق نجاحا. ولكني أود الاستفسار من مسؤولي هذا المعرض ومن مؤسسة الثقافات الثلاث: ما الذي ستجلبونه لجهة الشرق؟ أعرف أنكم ربما تستثمرون في مكان آخر، ولكن هنا في وجدة، فهناك غياب تام للغة الإسبانية. أريد فقط أن أسألكم: ما هي الإضافة التي جئتم بها ؟ فكما تلاحظون فإن الدورات شبه فارغة كما أن هناك مشكل ثقافي كبير، لذا من الضروري تطوير هذا المجال. فعلى سبيل المثال، يتم تشجيع اللغة الإسبانية بفاس بطريقة رائعة للغاية، بينما في وجدة، نود أن تكتف الجهود لتفعيل هذا المجال الثقافي. فكيف يمكن جعل هؤلاء الشباب يتقبلون المجالات الثقافية والأدب ؟

مداخلة

إذا قمنا بتطبيق ما يروج ويقال عن العلاقات المغربية الاسبانية، فغالبا ما نسمع عن هجرة فئة معينة من الناس إما الذين لديهم مستوى ثقافي جد متواضع أو الذين ذهبوا لإسبانيا بغرض العمل لدعم أسرهم بالمغرب. ويمكننا التحدث كذلك عن فئة أخرى : على سبيل المثال العلاقات الثقافية بين المغرب وإسبانيا. وبالأخص بين إسبانيا وجهة الشرق بما أننا نعيش فيها، لماذا لا يوجد معهد إسباني كما يوجد المعهد الفرنسي ؟ خاصة وأن هناك جامعة تقدم دورات ودروس باللغة الإسبانية ؛ ويهتم الناس بالثقافة الإسبانية بحكم قربهم من اسبانيا، وكذلك لحب المغاربة اكتشاف وتعلم اللغات الحديثة. آمل أن نرى يومًا ما معهدًا إسبانيًا بوجدة وأن نشهد كذلك تطور العلاقات الثقافية.

معاذ الجامعي، والي جهة الشرق

تمنيت أن أكون معكم هذا الصباح، ولكن للأسف يتعذر الحضور في كل مكان من البداية حتى النهاية. يوجد في إسبانيا هناك شباب عرب، أمازيغ، أندلسيون وجنوب إسبان... ونحن لا يمكننا التحكم في الجغرافيا، فكما كان يهاجر الناس في ثلاثينيات القرن الماضي، يهاجر الناس حتى اليوم أيضا مع اختلاف الطرق.

جلبت القوارب العديد من الإسبان، والذين وجدوا العمل هنا بالمغرب. كلما نمضي قدماً، نمضي كذلك إلى الأعلى والأسفل في محور الشمال والجنوب. وهكذا سنستمر في المستقبل، لأن لا شيء سيغير الجغرافيا. وأنا لا أتحدث عن مليلية أو قضايا الحدود الأخرى. فتلك تفاصيل من التاريخ، وأنا لا أتحدث عن العلاقة بين المغرب واسبانيا، فهي علاقة قوية جدا ويرجع ذلك إلى قربنا الجغرافي.

فماذا يجمع الأندلسي بالنرويجي ؟ لا شيء، لا الموسيقى ولا الصفات ولا حتى المفاهيم. وتسمى مؤسستكم الثقافات الثلاث، الميزة التي أتصف بها والتي لها علاقة باسم مؤسستكم، هي كوني مسلم لأنني ولدت في عائلة مسلمة، ولكنني يهودي أيضاً، واعتبر نفسي مسيحيا أيضاً، ومع ذلك أنا مسلم. وما لا يعرفه جميع الناس اليوم هو أن كل مسلمي العالم يصلون خمس مرات في اليوم، يصلون من أجل إبراهيم قبل الصلاة لمحمد. ونصلي من أجل اليهود ومن أجل المسيحيين قبل الصلاة ومن أجل المسلمين. فلا يمكن لمثل هذا الدين أن يكون اليوم دين رفض وتعصب.

يخطر ببالي سؤال محير : المسيحي لا يلقب بـ «مسيحي»، واليهودي لا نلقبه «يهوديا»، لذا لماذا المسلم من ننعته «بإسلامي»؟ لأنه، ومن وجهة نظري، نريد دينه قبل كل شيء ثم لشخصه. ويجب علينا أن نتحمل مسؤولياتنا جميعا لتغيير هذا السلوك الذي يتم التعامل به.

سوف تنجو مدينة وجدة من كل الصعوبات، لأنها تمتلك أصولاً اقتصادية متينة، وتعتبر وجدة «مفرنسة» أكثر من بين مدن المغرب، ولكن بالنسبة لي، فهي أيضا أكثر المدن نطقا بالإسبانية في المغرب. نحن نتواجد هنا في منطقة جميلة حيث الناس جادين للغاية، إلا أنه يجب على الجهات المعنية التفكير في القيام باستثمارات بالمنطقة.

وأريد أن نقوم بذلك معا. إذ يمكن استخدام الثقافة كنقطة انطلاقة، ولكن لتجر وراءها قضايا اقتصادية وتوظيفية لأن لدينا 000 64 طالب في جامعاتنا و000 22 آخرين في مؤسسات مكتب التدريب المهني. إلى جانب 000 100 من الشباب الذين تخرجوا ومستعدون للعمل، إنها فرصة عظيمة...لكن علينا أن نتحرك يدا بيد في إطار هذه الديناميكية.

تعتبر جهة الشرق ووجدة سوقين محدودين، وأحب كثيرا هذه المقولة «ستعود المياه إلى مجاريها» غداً، ستفتح الحدود، فهذا شيء طبيعي. وفي اليوم الذي ستفتح فيه، سنكون في قلب المنطقة المغاربية، وسينفتح سوق ضخم وسيستفيد منه من يأتي أولاً. وفي اعتقادي أن الثقافة أو الرياضة تجمعنا، ذلك لأن كل المغاربة يتابعون نوادي ريال مدريد وبرشلونة ويحضرون مباريات كرة القدم في اسبانيا، ذلك لأننا إسبانيين بالقلب وهذه القصة سنكتبها معاً.

أشكركم وأشكر منظمي هذا اللقاء الذي يخول للناس أن يحبوا بعضهم بعضا وأن يتحدثوا إلى بعضهم بعضاً وأن يتحملوا بعضهم البعض... إن مغرب محمد السادس هو المغرب الحر، ومغرب الحرية والمبادرة. فنحن منفتحون بالكامل ومن خلال هذا الانفتاح سنكون قادرين على بناء المستقبل. كما أن الشعب الجزائري، مثل الشعب الإسباني، شعب قوي وهي شعوب نحبها وشعوب سنبني معها المستقبل، إن شاء الله.

رئيس الجلسة : عبد القادر الرتناني
المشاركون : عبيد النوري، سعيدة شرف الدين، ليلى الشاوني
فضاء : محمد عابد الجابري
التاريخ : يوم السبت 23 شتنبر 2017
الساعة : 09 : 30 - 11 : 00

موجز مداخلات المائدة المستديرة

أبدى المشاركون - معظمهم ناشرون مغاربيون - استعدادهم للعمل معا حول هذا الموضوع المعقد، والمتعلق بمجال النشر، كما أكدوا على ضرورة تحمل مسؤوليتهم لتحقيق الاتحاد. ومن منظور «المغرب الثقافي الكبير» بهدف نشر كتب حول الدول الخمس المشاركة، والتي من شأنها أن تعطي دفعة جديدة للنشر في هذا الجزء من الكوكب.

وقد ذكر العديد من الناشرين المتمرسين أن تجربة الإنتاج المشترك سبق وأن نفذت بنجاح في الماضي، وساهمت في التعرف على مؤلفين من البلدان الأخرى. وانتشار الإنتاج المشترك الجنوب الشمالي على مستوى البلدان الأفريقية الأخرى، ولاسيما دول جنوب الصحراء الكبرى. يكفي هذا المثال لاستنتاج أن كل أنواع الاشتراك ممكنة. فبفضل الوسائل الحالية لتبادل الملفات ونقلها، أصبح النشر على مستوى العديد من البلدان ممكنا.

لقد أوضح الكتاب والمثقفون المشاركون في هذه المائدة المستديرة أنه من الضروري تطوير اللوائح والأحكام المشتركة فيما يتعلق بالكتب والنشر، خاصة فيما يتعلق بالإيداع القانوني في الدول الخمس، بالإضافة إلى لوائح التصدير، وكذلك اللوائح المتعلقة بالتصدير والحيازة ودعم النقل.

كما شدد مختلف المتحدثين على الحاجة إلى ميزانيات أخرى من قبل وزارة الثقافة لدعم المؤلفين والناشرين لمضاعفة جهودهم نحو وحدة التراث الثقافي وذلك من خلال مكافأة مبادرات النشر لتشجيع هؤلاء الناشرين على العمل معًا.
يؤكد العديد من الناشرين المغاربيين كذلك على التعاون الذي من الممكن أن يكون بينهم والمبادرات التي ستسهل وستسمح لهم بالعمل معا خاصة تجربة الإنتاج المشترك.
رحب المتحدثون كذلك بمعرض وجدة في نسخته الأولى كما أشادوا بالعمل والمبادرات التي تقوم بها وكالة جهة الشرق.

عبد القادر الرتناني

هذه المائدة المستديرة مهمة للغاية لتنمية منطقة المغرب العربي والإنتاج المشترك جنوب-جنوب. أقوم لسنوات بإجراء اتصالات في هذا الجانب. كانت هناك بعض الحالات النادرة والتي أعطت نتائج إيجابية ومذهلة للغاية. ولمناقشة الأمر، أقدم السيدة سعيدة شرف الدين، الكاتبة التونسية، التي تمثل دارا تم إنشاؤها سنة 1973 من قبل واحد من قدماء النشطاء بالمغرب العربي. لقد كانت لديه فكرة رائعة: قام بعمل تقرير فوتوغرافي رائع في المملكة العربية السعودية حول الحج في مكة المكرمة في سنة 1980 وقد عرف نجاحا كبيرا، عبر توزيع أكثر من عشرة آلاف نسخة نشرت في جميع أنحاء العالم. أعطي الكلمة للكاتب التونسي السيد النوري عبيد.

النوري عبيد

أردت أن أتحدث عن الإنتاج المغاربي المشترك واهتمامه بالمجتمع المدني. فلاحظت الحواجز التي وضعتها البلدان المغاربية بينها، رغم أن لغتنا واحدة. كانت هناك مرحلتان للنشر المشترك :

• الأولى سنة 1970 و في أوائل سنة 1980 عندما كان الإنتاج مزدهرا خاصة، في الجزائر وتونس ، وبين ليبيا وتونس، فقد نشرنا عشرات الآلاف من النسخ في سياق المشاريع المشتركة.

• الثانية، في أوائل التسعينيات، مع الانتقال إلى القطاع الخاص و التخلي عن النشر من قبل القطاع العام، مع دعم للقطاع الخاص، حين كانت تتم التبادلات بين تونس والمغرب، بين تونس والجزائر، في حين كانت ضعيفة بين المغرب والجزائر.

وارتبطت هذه التبادلات بأشخاص محددين جيداً و تعتبر كتب الدكتور نزار شقرون مثالاً على هذه الإصدارات المشتركة في الجزائر ، بالإضافة إلى النشر المشترك في المغرب لسلسلة مخصصة لنظرية المعرفة. وهناك تجربة أخرى بين الجزائر والمغرب، على نطاق أوسع، ومع دور نشر أخرى، تتعلق بالكتابات المترجمة من المركز الثقافي الفرنسي «Esprit des lumières»، وكذلك الكتب المترجمة إلى الفرنسية. وكانت هناك نسخة مشتركة على مستوى كلية الحقوق مع الكتب الفرنسية المترجمة. وهذا يمثل حقوقًا مهمة للطبعة الفرنسية في جميع أنحاء المنطقة المغاربية. وكانت هذه بعض التجارب الخاصة لدور النشر التي تحفزها هذه المحاولات والتي تزيل بدورها الحواجز التي تمنع انتشار الكتاب.

أعتقد أن هناك حاجة للتنظيم التحريري، الذي يعلق أهمية كبيرة على النشر المشترك من خلال تسهيل تصدير واستيراد وتبادل وإيداع وشحن الكتب. كما يجب على وزارة الثقافة تخصيص ميزانيات لتعزيز النشر المشترك للكتاب في المنطقة المغاربية بجواز سفر واحد وأسعار مخصصة. كما أنه من الصعب جدًا الحصول على حقوق الطبع والنشر بالإضافة إلى المنحة. ويجب حجز قسم ضمن أنشطة الأمانة العامة لدول اتحاد المغرب العربي.

وأخيرًا، نقترح إنشاء لجنة لمتابعة صياغة النص الذي سيبعث للنقابات، والمنظمات، والناشرين، ومديري المعارض، والاتحادات، والأمانة العامة، وكذلك لمناقشة الموضوع...

عبد القادر الرتناني

شكرا. فقد أنشئت دار نشر تونس في عام 1976. وتديرها في الوقت الحالي مونيا مصمودي وسعيدة شرف الدين و التي تمثلها في هذه المائدة.

سعيدة شرف الدين

بالنسبة لي، هناك علامات وإشارات حول أشياء كثيرة وجب أن تجعلنا يقظين في الأنشطة التي نقوم بها في منطقتنا. ونحن نعلم أن هناك العديد من العوامل المشتركة في المنطقة المغاربية، فهي المنطقة الأكثر تضرراً من الناحية الاقتصادية، وهذه الحقيقة تخبرنا أن الكتاب بعيد عن الأهمية. فبالنسبة للكتاب، وفقا لليونسكو ، فإن القراءة المتوسطة منخفضة مقارنة بالمتوسط العالمي، ونفس الشيء في العالم العربي الذي يترجم القليل من الكتب ويصدر القليل جدا من ثقافته. لذلك نحن نشجع على التفكير، للنظر في آليات صناعة الكتاب. وأود أن يكون هناك نقاش في نهاية مداخلاتنا لكي نتوصل من خلالها إلى أفكار ملموسة للمضي قدمًا.

لماذا المشاركة في النشر ؟ أول شيء يتبادر إلى الذهن: التبادل والمعرفة الشعبية بين المجتمعات المغاربية. بالأمس أمضينا أمسية جميلة مع بعض الأصدقاء المغاربة واكتشفت بسعادة كبيرة أن المغاربة يعرفون الأغاني التونسية أفضل مني ، وذلك بفضل القمر الصناعي لحسن الحظ. لكن الكتاب عبارة عن كائن مادي، ليس يسيرا مثل الموسيقى. إذ إن أحد أهدافنا هو تمكين المجتمعات من تعريف نفسها بشكل ثقافي أفضل.

الناشرون هم مؤسسات اقتصادية. كما ذكر السيد «عبيد» سابقا. ونتحدث عن علاقة مربحة للجانبين : بالطبع، ومن حيث التبادل الفكري أيضا... للناشر وللمؤلف، وكذلك لنتعرف بأنفسنا على المجتمعات المغاربية. كما أود التأكيد على جانب آخر مهم للغاية. ففي بلادنا وحتى الآن، وفيما يخص علاقة الناشر والمنتج، بالدولة باعتبارها المسؤولة عن ثقافة البلد، فالناشر ليس مستقلاً : إذ يبقى محصورا وتحت رقابة الدولة باعتبارها الداعمة له وهذه العلاقة غير صحية. يجب علينا، بصفتنا جهات فاعلة خاصة في صناعة الكتب، أن نكون على علاقة شراكة وليس علاقة اعتماد، نظراً لضيق أسواقنا.

فالشيء الوحيد الذي يسمح بإنشاء علاقة طبيعية وصحية أكثر بين الدولة والجهات الفاعلة العامة والجهات الفاعلة الخاصة، هو نسخة إنتاج مشتركة تخول للجميع توسيع سوقه وفتحها على الآخرين، وإلا فإننا سنبقى في هذه العلاقة غير المستقلة مع الدولة. ويجب علينا كذلك إعادة النظر في العلاقات مع القطاع العام، والانفتاح أكثر على الشركاء المغاربيين ونفتتح عليهم بدورنا. حتى نتمكن من توسيع قدراتنا، ووجهات نظرنا. فالناشر المغاربي، مع بعض الاستثناءات القليلة، يتبع إستراتيجية كيفية كسب لقمة العيش فقط. ولا يعلم أنه لا يمكننا الإنتاج بهذه الطريقة. إذ يجب أن نتحرك نحو إستراتيجية البناء والانفتاح ماليا : هذا التوسع هو واحد من القضايا الرئيسية. وأوافق على مقترحات السيد عبيد.

عبد القادر الرتناني

سأقوم بإضافة شيء قمت بتجربته شخصياً. فبدلاً من التوقف عند الأشياء البسيطة، سوف نذهب لأعمق من ذلك. لقد قمت بعمليتين، الأولى كانت في سنة 1983، بمؤتمر في ساحل العاج مع خبراء فرنسيين.

وجاء رفقة الكاتب العام، كاتب قد ألف كتابا عن إفريقيا. وأراد أن يجمع كل الناشرين الأفارقة، فكان هناك ناشر عظيم «أشيماش». فخلصنا في نهاية الاجتماع الذي كان بأبيدجان إلى فكرة أن الناشر الكندي والناشر المغربي عليهم إصدار هذا الكتاب في نشر مشترك وأن يجعله متاحًا لعشر دور نشر : ثمانية إفريقيين، دار نشر مغربية و أخرى كندية.
كلفت ألفي نسخة هي ما يقارب ثلاثة آلاف أورو، وتولت الوكالة الحكومية الدولية الفرنكوفونية المسؤولية نشرها في مالي والسنغال وساحل العاج... وكانت الشحنات باهظة الثمن ولا يمكن أن تتم إلا بالطائرة، التي تطلبت ثلاثة آلاف أورو أخرى، وفرقت الكتب في عشرة من بلدان إفريقيا. وكانت العملية مثيرة للاهتمام لدرجة أن هؤلاء الناشرين الأفارقة أرادوا أن يعيدوا التجربة مرة أخرى، فطلبوا منا التعامل معهم مرة ثانية. وكانت الفكرة بسيطة للغاية.
العملية الثانية كانت أثناء حرب الخليج في سنة 1992. وفي معرض تونس للكتاب، قال لي محمد بن إسماعيل، صاحب دار النشر، أمام جميع الناشرين العرب والفرنسيين أن عشرات الكتب خرجت خلال هذه الحرب ولكن لم يأت أحد من الجانب العربي. واقترح أن نعقد ندوة لنشر كتاب عن حرب الخليج من المنظور العربي. فوافقت على الفور. وبعد بضعة أيام ذهبنا إلى الجزائر العاصمة لرؤية دار نشر كبيرة. وعقدت الندوة في تونس مع فتح الله ولعلو، وأصدرت أربعة آلاف نسخة للكتاب وطبع في تونس. وحصلنا أنا ومحمد على نصف النسخ: لقد بيعت كلها في غضون ثلاثة أشهر (أخذنا أسماء كبيرة من المعارضين لصدام حسين، والسوريين، والمتعاملين مع حقوق الإنسان...). ثم قمنا بطبعة ثانية من ألفي نسخة، ثم أخذنا زمام مبادرة الترجمة. نحن الناشرون المغاربيون - أنا أتحدث عن البلدان الثلاثة، لأن موريتانيا وليبيا لديهما إنتاج ضعيف - إذا أردنا نشر كتاب مغاربي، فإنه لدينا نفس اللغة ونفس الدين ونفس العيوب والصفات نفسها، إذا، ليس من الصعب الانسجام فيما بيننا. تخيلوا أنه يمكن تقديم كتاب لثلاثة ناشرين ومع التكنولوجيات الجديدة، يمكن طباعة ألف نسخة في المنزل، وبالتالي تجنب التنقل، كما تبعث الكتب في نفس الآن إلى البلدان الثلاثة. وبالكثير من الصبر والعمل الشاق، فلن نحتاج إلى دولة أو شخص، لأنه إذا لم يتمكن ناشر مغاربي من وضع ألف أو ألفي أورو في جيبه، فعليه أن يغير مهنته. أمنيتي هي أن أتمكن من نشر كتاب كل سنة. ابقوا الحدود مغلقة إن أردتم، فإن كتبنا ستنتشر.

حبيب بن صالحة

الكتاب عبارة عن صناعة : لماذا لا توجد جائزة مغاربية مشتركة، مع هيئة محلفين مغاربية ؟ فالتقنيات الجديدة تسمح للناشرين بالابتكار. وجودة الكتاب مهمة بالنسبة للأكاديميين. فالكتاب الأكاديمي سيتجول في المنطقة المغاربية. وإذا قدمنا مائة لقب حديث لزملائنا، الذين قدموا لنا مائة عنوان مغربي. أنا سعيد بالذهاب إلى الجزائر في نوفمبر. إنها مغامرة، حيث إن شركائنا عبارة عن مختبرات تهتم بخلق مستقبل الكتاب، وتعتمد في الغالب على الناشرين، فالناشرون يعرفون أن الكتاب ليس مجرد كائن: هناك جودة الكتاب، وجماله... وهذا مشروع مشترك بين جميع البلدان المغاربية.

ليلى الشاوني

أبدأ بتقديم طبعات «Le Fennec». إنها شركة ثقافية، مغربية، أفريقية، مغاربية. وأنا محررة، ولا أملك مطبعة أو محل لبيع الكتب. لقد أسست دار النشر هذه بمفردي سنة 1987، ثم صرنا اثنين، ثلاثة... فأصبحنا اليوم خمسة. وسأعطي بعض الأرقام : في الوقت الحاضر، لدينا 420 عنوان في الكتالوج، وبين 15 و 20 عنوانًا في السنة، ومتوسط النشر هو ثلاثة آلاف نسخة. ومتوسط عدد المطبوعات هو ثلاثة آلاف نسخة الآن وأصبحنا ألفًا لأن التقنيات قد تطورت وهذه السنة لدينا مجموعة ناجحة جدًا وتتراوح تكلفة الكتب، في الشكل العادي، بين 10 إلى 25 درهم.

أدركنا أن الكتب كانت باهظة الثمن، وغالباً ما كانت تتجاوز مائة درهم. واشتركت مع موزع سوشبريس وتشاركنا في التكاليف. وإليكم أهداف هذه الشركة :

- توزيع الكتب بأقل سعر مع الجودة المعادلة للسوق العالمية.
- نأخذ بعين الاعتبار القدرة الشرائية للقارئ المغربي.
- تقديم مجموعة واسعة من المنشورات في كلتا اللغتين.

سأقدم لكم بعض الأمثلة، مثل رشيد ميموني، كان أول تعاون بيننا سنة 1990، وتحديدا عند فتح الحدود مع الجزائر. وحتى لو كانت الحدود مغلقة، فسنواصل العمل معا بغض النظر عن أي شيء. كذلك لدينا أمثلة على عمل منظم مع أحد الناشرين، وجاء الكتاب من فرنسا وكانت تكلفته باهظة وعملنا على جعله في متناول الجميع.

في الافتتاح، قدمنا مجموعة كتب أنجزت من طرف ثلاثة بلدان مغاربية، حقا كان عملا مشتركا، وبعد أحداث 11 شتنبر. أطلقنا هذه الطبعة للتعريف بجوهر الإسلام، ذلك لأن وسائل الإعلام نقلت صورًا جد سلبية بعد تلك الأحداث.

وفي مجموعتنا، والذي حقق أكبر قدر من النجاح هو التونسي محمد الطالبي. بعد هذه السلسلة، تعاون معنا وقدم لنا كتابًا نال إعجاب الكثيرين، قدمه لنا مجانا.

إن كتاب «دولة المغرب العربي» هو مثال على تعاون الشمال والجنوب وهو كتاب مهم جدا. وكان ممنوعا في المغرب لأنه قدم خريطة مبتورة للصحراء عن المغرب : فقمنا بتغيير هذه الخريطة ؛ وهذا حق الناشر. وبالنسبة إلى النسخة المغربية الجزائرية المشتركة في سنة 2013، فقد عملنا مع جمعية نسائية. ما أردت قوله هو أن الكتاب يتيح لنا عبور الحدود.

عبد القادر الرتناني

المثال الذي قدمته ليلى قوي جدا. مع وسائل صغيرة، أولا دون اللجوء إلى أي إدارة، ومع صيغة المليشيات التي لم تعد موجودة لسوء الحظ. وكانت أولى الإصدارات سنة 1990 مع رشيد ميموني وما فعلته مع الناشرين الجزائريين والتونسيين أعطت نتائج جيدة. وسياستها مثيرة للاهتمام كثيرا : فعلى سبيل المثال سيكلفك كتاب اثني عشر أورو، فهي توفره لك باثني أورو. إذا يمكننا القيام بكل شيء ونحن لا نحتاج للدولة في كل شيء.

حبيب بن صالحة

أنتج برنامجا بتونس مند ستة وعشرين سنة، لكنني أنتظر الكتب : أين الكتب التي تنشرها بيوت النشر المغاربية إذا كان فعلا الناشرون يبنون علاقات مع أفضل الوسطاء والصحفيين، ووسائل الإعلام المطبوعة ؟

حسنية صحراوي

أنا جزائرية، من باريس، ورئيسة تحرير مجلة، وأقوم بتنظيم العديد من التظاهرات. نعم، هناك تبادلات بين المغاربة والجزائريين والتونسيين كذلك، إلا أن المشكل يكمن في أن هناك أناس يرغبون في الوصول إلى الكتب في الخارج، وخاصة في فرنسا، لكن من خلال هذه المعارض، يمكنهم الوصول إلى الكتب الرخيصة.

وبشكل عام، هناك مشكلة كبيرة في التواصل بين الناشرين المغاربيين. يجب عليهم توجيه خدماتهم الصحفية: أتلقى الكثير من الكتب من قبل ناشرين أجانب، وحتى إذا لم نتلق في بعض الأحيان، بمجرد طلبها، فيتم إرسالها بشكل منهجي، مع عدة صحفية، أو بلاغ تفسيري، إلخ. أما بالنسبة للكتاب وللناشرين وللملفات الصحافة المغاربية فعليك أن تطلبها وتنتظر كثيرا.

مداخلة

لمغزى المعرض هو أدبي ثقافي، لكن كنا نأمل حضورا في الفلسفة، في اللغة وفي التعليم. فهناك مشكلة محلية للمؤلف مع الناشر. على سبيل المثال في وجدة، يواجه المؤلف صعوبات في الوصول إلى الناشر، فالمؤلف محدود. أسأل الناشر سؤالا، هل يمكنك تعديل الكتب ؟

أمين أبو

أنا سعيد جدا بهذا المعرض. مقترحاتي عملية : توفير ظروف جيدة، وإنشاء لجنة متابعة، وأنا مستعد للمشاركة في نشر كتابين أو ثلاثة عناوين في الجانب النظري والعملي.

رئيس الجلسة : جون بيير إيلون مباصي (الكامرون)
المشاركون : يحيى أبو الفرح، أحمد عصيد، إبراهيم الحيسن، محمد الصغير جنجار، أمادو لي (السنغال)
فضاء : إدمون عمران المالح
التاريخ : يوم السبت 23 شتنبر 2017
الساعة : 09 : 30 - 11 : 00

موجز مداخلات المائدة المستديرة

العديد من الأدباء والمثقفين من جميع الأطياف، ومن دول مختلفة من القارة، قد اجتمعوا لمناقشة موضوع هذه المائدة المستديرة بحضور جون بيير إيلون مباصي (الكامرون)، المنسق ومدير الجلسة، إلى جانب أمادو لي (السنغال)، محمد الصغير جنجار، إبراهيم الحيسن، أحمد عصيد ويحيى أبو الفرح.
توجه المشاركين في هذه المائدة المستديرة قادهم إلى نهج جمالية لمناقشة الأصول المغربية - الإفريقية، وأهميتها في الوعي الجماعي.

أن تكون مفكرا إفريقيا يعني أن تمتلك حس من الخلق والإبداع وهذا يرجع في المقام الأول إلى الثروة الطبيعية في الإنتاج بهذه القارة.

كدليل، تأثير جمال التراث الإفريقي على عدد كبير من المبدعين في المغرب والغرب. وتعتبر الثقافة الإفريقية واحدة من أغنى الثقافات في العالم لأنها تتميز بتنوع أثري كبير. إنه يترجم خيالا يحمل طموحات شعوب أفريقيا وآمالها وأحلامها. فمن خلال مبدعيها أعربت أفريقيا منذ أمد بعيد عن المستقبل الذي تبنيه شيئا فشيئا. فقد أصبحت أفريقيا مرجعاً ثقافياً يستحق المزيد من البحث والتحليل والتبادل لنشره وتثمينه.

جون بيير إيلون مباصي

صباح الخير جميعا. يجب تحديد نقطة الاستفهام التي يجب الإجابة عنها هي: من هو الإنسان الإفريقي اليوم؟ يجب الإجابة على هذا سؤال، فورشة عملنا تدور حول هذا السؤال. كيف حال الأفارقة اليوم ؟
أشغل منصب الأمين العام لمنظمة إفريقية مقرها في الرباط، بالمغرب. تتمثل رؤيتها في بناء إفريقيا، وحدتها وتطورها، إلى جانب الرقي بشعوب أفريقيا خارج إفريقيا.
أشكر منظمي هذا المعرض على دعوة منظمتنا وتكليفها بإدارة ورشة العمل هذه، قبل قليل قال أحد الإخوة : أن معرض الكتاب في وجدة هو حدث ذو أهمية كبيرة. أعتقد أن ساكنة هذه المدينة يجب أن تحتفي بهذا المعرض وتوليه كل العناية. إن وجود مجتمع من السنغاليين يدل بالنسبة لي على الأخوة، ليس فقط بالنسبة للأخوة التاريخية بين المغرب والسنغال، ولكن أيضاً لتأكيد تطور ووحدة إفريقيا.
السنغال هو بلد الكتاب الإفريقيين. السنغال هي أيضا بلد العلماء والعلماء المصريين فقد أثبت أن أسلاف مصر القديمة كانوا من السود. والعلماء لم يصدقوا هذه المعلومة إلى حين ظهرت الأدلة.
وعن إفريقية المغرب ؟ ومن أفضل من المغفور له جلالة الملك الحسن الثاني كانت له هذه الروح ؟
هو الذي قال أن المغرب هو شجرة تبحث فروعها عن أشعة الشمس أينما كانت بالشرط أن يبقى جذعها متجذر بعمق في الأرض الإفريقية. لكن ما هي هذه إفريقيا ؟
نحن هنا لمحاولة الإجابة على هذا السؤال معًا. سنقبل الإجابات من وجهات النظر التي تم التعبير عنها بعد مقدمات المتحدثين. السيد يحيى أبو الفرح، غني عن التعريف كمدير لمعهد الدراسات الإفريقية وأستاذ في جامعة محمد الخامس بالرباط. أحمد عصيد باحث في المعهد الملكي للدراسات الأمازيغية ومدافع كبير عن حقوق الإنسان. والسيد إبراهيم الحيسن كاتب وناقد فني. وأخيراً، السيد محمد الصغير جنجار هو عالم أنثروبولوجيا، يدرس في «مؤسسة هوار بن عبد العزيز» في الدار البيضاء.
ضيف شرفنا هو السيد أمادو لي، أستاذ بجامعة داكار، والذي سيأخذ الكلمة ليخبرنا : ماذا أصبح الإفريقي اليوم ؟

يحيى أبو الفرح

إن الموضوع هام جدا : المسألة ذات طابع فلسفي وهي تخص الساسة وصانعي القرار، إنها تتسم بكونها تشكل لهم تحديا كبيرا. لمعالجتها، سوف أقوم بتبادل الأفكار، سيركز تحليلي هذا على التغييرات الكبرى التي عرفتها القارة الإفريقية، مع تسليط الضوء على طابع المغرب الإفريقي والإستراتيجية التي اتخذها المغرب في إفريقيا.
لقد سجلت عددا من الملاحظات. أولها يكمن في الأهمية التي يحظى بها تاريخ قارتنا. إفريقيا، مهد الإنسانية الذي عرف تعاقب عدة حضارات متنوعة بحسب المناطق. علاوة على كل تلك الأحداث التي ميزت مجتمعاتنا. يجب أن يفخر الإنسان الإفريقي بتاريخ قارته وبإطلاعه على حقيقتها، فهم تطوراتها الحالية وكذا التأمل فيها، يتوجب عليه أن يتماشى وتطورات القارة، ليس فقط تلك المتعلقة بالجانب الاقتصادي بل أيضا كذلك السياسية والاجتماعية والثقافية منها. وفهم حقائقها يشكل تحديا كبيرا، بحيث أن فشل عدد كبير من المشاريع التنموية لا يرجع فقط للعجز السياسي، بل أيضا لعدم الإلمام بحقائق القارة السوسيو-اقتصادية.
إفريقيا هي كذلك مجال يشهد منافسات شرسة على مواردها وأسواقها لكسب المزيد من القوى.
كل واحدة منها تعتمد أساسا على استراتيجية تستمد قوتها من السلطات الاستعمارية التقليدية ومن قوى الشركات العملاقة.

إلا أن أهم ما يميز السياسة الإفريقية المغربية هو أنها تعتمد على التراث المشترك : إنها فلسفة متعددة الأبعاد، دورها تاريخي محض، إذ أن العلاقات التي تربط المغرب بدول إفريقية أخرى ترجع لعدة قرون خلت. إنه أيضا عنصر مهم من إسهام المغرب والإسلام . إسهام سوسيو-اقتصادي بامتياز، ثم إن حضور المغرب في الأحداث الإفريقية الكبرى الهادفة إلى تحقيق الاستقرار والسلام في المنطقة منذ 1960، أمر لا يناقش. كما تعلمون، فإفريقيا تتحمل جزءًا كبيرًا من المشاكل التي يعاني منها العالم. فهي تشهد نسبة كبيرة من الصراعات التي يعزو سببها إلى سوء تدبير مرحلة ما بعد الاستعمار. أدت هاته الأحداث إلى ظهور تهديدات أمنية أخرى تشمل صعوبة الاستقرار في إفريقيا، مما دفع المغرب والزعماء الأفارقة إلى التفكير في سياسة أخرى لمكافحة الإرهاب. يحاول المغرب نهج سياسة جديدة وتنسيق مكافحة الإرهاب وجعل استراتيجيته متاحة للقادة الأفارقة، وذلك وفقا لثلاث ركائز : الركيزة الأمنية، وهي دعامة مهمة، ولكنها ليست كافية، الركيزة الاقتصادية، محاربة الفقر، بالإضافة إلى دعامة دينية أخرى مبنية على نشر قيم الإسلام المعتدل، والمساهمة في تكوين الأئمة الأفارقة. إلى جانب ذلك، هناك عنصر رئيسي وهو تعاون المغرب القائم على مبدأ التضامن الذي أصبح بمثابة شراكة يربح فيها الطرفان، يتعلق الأمر بشراكة رامية إلى تحقيق التنمية الاجتماعية والاقتصادية. كلها عناصر تساهم في تثمين الوجود الاقتصادي المغربي في إفريقيا.
حتى بداية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، عرفت القارة الإفريقية حضوراً مغربيًا ضعيفًا، كان يقتصر على أحياء بعض التجار الموزعين في مدينة داكار ؛ بعد العقد الأول من القرن الحالي، انتقل المغرب إلى مرحلة أخرى تميزت بحضور كبير للشركات المغربية التي أُسِّسَت في عدة بلدان إفريقية ، لم يكن هدفها يقتصر فقط على كسب أرباح طائلة بل أيضا المساهمة في التنمية الاجتماعية والاقتصادية للمنطقة. تعد سنة 2017 سنة بالغة الأهمية بالنسبة للقارة الإفريقية عموما وللمغرب خصوصا، إذ تمثلت في عودة المملكة الشريفة إلى الاتحاد الإفريقي. وقرارها بالانضمام إلى المجموعة الاقتصادية لدول غرب إفريقيا هي خطوة جديدة ستسهم لا محالة في تنمية شاملة للقارة الإفريقية.

جون بيير إيلون مباصي

شكرا جزيلا. والآن سنواصل حديثنا مع السيد أحمد عصيد.

أحمد عصيد

منذ حوالي عشرين عاما، حضرت لنقاش دار بين أستاذين اثنين. كنا نتواجد في قاعة أساتذة السلك الثانوي : كان أحد الأساتذة يحاول إقناع الآخر بانتماء المغرب إلى إفريقيا. وكان قد أجاب الآخر بأن المغرب ليس إفريقيًا، بل إنه بلد مشرقي ينتمي إلى الشرق الأوسط والعالم العربي. الأمر الذي لفت انتباهي هو أن هذا الأخير كان أستاذ تاريخ وجغرافيا. أدركت حينها أن إيديولوجية شخص معين يمكنها أن تجعله يتجاهل كليا جغرافيته، أو حتى حقيقته المادية، فما معنى أن تكون إفريقيا اليوم في المغرب ؟ يعيش المغرب مرحلة انتقالية بخطوات ثابتة نحو الديمقراطية. خلال هذه المرحلة، فُتِحَ نقاش عام وموسع حول مسألة الهوية، خصوصا فيما يتعلق بعناصر الهوية الوطنية. لم يوافق المغاربة على الاعتراف بجميع تلك العناصر إلا من خلال دستور 2011. لسوء الحظ، اعتبروا إفريقيتهم رافدا، أما نحن الأمازيغ، فقد صدمنا لأن الأمر يتعلق بحركتنا الأمازيغية المغربية، كنا الوحيدين الذين تجندوا منذ عقود للدفاع عن إفريقية المغاربة. لم نعتبر أبداً أن إفريقيتنا هي مجرد رافد، وإنما عنصر أساسي مكون للهوية الوطنية. إذا، ما هي العوامل التي جعلت المغاربة يبتعدون قليلا عن حقيقتهم الإفريقية تلك ؟ وما هي الإجراءات التي علينا اتخاذها لكي يعترف المغاربة بانتمائهم لهويتهم الإفريقية، من دون تعقيدات أو قيود ؟ أولا، هناك قضية الصحراء، التي تسببت إلى حد ما في إبعاد المغرب عن جوهره الإفريقي، على الرغم من وجود بعض التبادلات الاقتصادية والثقافية المهمة، لكنها مثلت عائقا حقيقيا للمغاربة،إذ لم يمكنهم ذلك من التعرف عن كثب عن بعض دول إفريقيا جنوب الصحراء.

السبب الثاني هو وصول الإسلام للمغرب، انفتاحه عن المشرق وكذا عملية التعريب. ثالثًا، جهل المغاربة الدائم للغات إفريقيا جنوب الصحراء. صحيح أن لديهم لغة إفريقية ضاربة في القدم، أي الأمازيغية، إلا أنهم لايعرفون بما يكفي باقي لغات دول جنوب الصحراء الكبرى. السبب الرابع هو العائق السياسي، بحيث أن قرار المغفور له صاحب جلالة الملك الحسن الثاني بالانسحاب من منظمة الوحدة الإفريقية أسهم في إبعاد المغرب عن باقي الدول الإفريقية. اليوم، بعد الاعتراف بإفريقية المغرب وبعد كل الجهود المبذولة في هذا السياق، ولاسيما من قبل جلالة الملك محمد السادس، تلك الجهود التي تفيد توطيد العلاقات بين المغرب ودول إفريقيا جنوب الصحراء، ما الذي يمكن القيام به لجعل المغاربة قاطبة يعترفون بإفريقيتهم ؟ أولا وقبل كل شيء، من الضروري مراجعة الكتب المدرسية، بدءا من التعليم الأساسي إلى التعليم العالي، لأن إفريقيا غائبة كليا عن كتبنا المدرسية. نذكر فقط نماذج من المغرب وفرنسا بالإضافة إلى دول الشرق الأوسط، إلا أنه لا وجود لإفريقيا. لذا من الضروري مراجعة محتوى الكتب المدرسية والبرامج التعليمية المغربية، لإدراج الحس الإفريقي توطيدا للعلاقات التي تربط بين كل من المغرب وباقي دول إفريقيا جنوب الصحراء.

ثانيا، نحتاج إلى النهوض بالبحث العلمي في بلدان إفريقيا جنوب الصحراء وتوطيد علاقاتنا مع النخبة الفكرية والأكاديمية في نفس المنطقة. ثم إنه لمن الضروري أن نبرز على مستوى كل المؤسسات الطابع الرسمي للغة الأمازيغية في المغرب، لأنها لغة إفريقية قديمة جداً. يجب تفعيل ذلك، لأنه حتى الآن، مازالت بعض الأمور حبر على ورق، ومازلنا ننتظر تفعيل كل ما جاء به دستور 2011 من إنجازات وإجراءات عملية، بما في ذلك هذا الاعتراف ؛ إفريقية المغرب. المسألة الرابعة تتمثل في أهمية تجاوز الإيديولوجيات الإقصائية المستوردة من المشرق. فمن الستينات حتى تسعينات القرن الماضي، سادت إيديولوجية القومية العربية في كافة بلدان شمال إفريقيا. كما منعت هذه القومية المغاربة من اكتشاف إفريقيتهم. هناك عناصر أخرى داعمة لهذا التغيير، فعلى سبيل المثال يمكننا القول أنه في الآونة الأخيرة، لم يكن المغرب متحمسا للمشاركة في عدة قمم عربية، وذلك راجع إلى التوترات والصراعات الموجودة بالشرق الأوسط وإلى عناصر سياسية أخرى.

من جهة أخرى، يحاول المغرب التغلب على المشاكل التي أدت إلى انسحابه من منظمة الوحدة الإفريقية. يعمل المغرب جاهدا للتغلب على المشاكل الناجمة عن قرار انسحابه من منظمة الوحدة الإفريقية، لذا فهو بصدد بذل كل الجهود الاقتصادية الممكنة لإيجاد شركاء جدد بإمكانهم فتح باب الآفاق الاقتصادية الخارجية على مصراعيه.

إبراهيم الحيسن

من خلال هذا التدخل القصير، سيقع اختياري على المقاربة الجمالية المتعلقة بجذورنا الإفريقية والأهمية التي تحظى بها على مستوى وعينا الجماعي. إنه لأمر مؤكد.

ثم إن الانتماء إلى إفريقيا يجعل من الشخص أكثر إبداعا، ليفخر بعدها بذلك. والدليل على أن القارة الإفريقية تتسم بطابع التحدي هو اهتمامها المبكر بمختلف الأشكال الفنية المرتبطة بهذا المولود الجديد. سأقتصر على ذكر مثال الفنان التشكيلي الإسباني بابلو بيكاسو، بصفته رجل ترك بصمته في القرن العشرين، فخلال مرحلة تحليلية، استلهم إبداعه من القناع الإفريقي معتمدا أساسا على تقنية تفصيل الشكل.
يظهر هذا جليا من خلال الصورة الذاتية للرسام وأيضاً من خلال لوحة «آنسات أفينيون» التي رسمت من بداية القرن بالاعتماد على عدة تعبيرات فنية مستوحاة من الأقنعة الإفريقية. يجب علينا أيضا أن نعترف بوجود مبدعين أفارقة عظماء لطالما بصموا مسيرتهم الفنية من خلال عظمة موهبتهم. دعونا نذكر على سبيل المثال الفنان السنغالي عصمان سو الذي ترك سجلًا فنيًا مهماً. لقد جئت من المنطقة الصحراوية والحضارة الحسانية التي تقع على منطقة جغرافية تمتد من جنوب المغرب إلى السنغال ومن المحيط الأطلسي إلى شرق مالي. هناك ثقافة البيضان وداخلها الثقافة الحسانية. من حيث العبور الجمالي، تُظهر الموسيقى الحسانية والحرف اليدوية المستخدمة في هذا الفضاء حيث الانتماء مزدوج لهذه الثقافة. أنحدر من المناطق الجنوبية الصحراوية والحسانية حضارتي، فهي تمتد على طول مساحة جغرافية أولها جنوب المغرب وآخرها السنغال، ومن المحيط الأطلسي إلى شرق مالي. تسمى تلك الثقافة بـ «بيضان» التي تشمل بدورها الثقافة الحسانية. فيما يخص التنوع الجمالي، تعتبر كل من الموسيقى الحسانية والمنتجات التقليدية المستعملة في المنطقة خير دليل على الانتماء المزدوج لهذه الثقافة.
ترتبط هاته الملابس والأدوات الموسيقية والتعبيرات الموسيقية بالجذور الإفريقية وكذلك بالمغرب. باختصار شديد أقول، كما سبق وأشار له الأستاذ يحيى، إنه من الضروري العودة إلى تراثنا، ولن يتحقق ذلك إلا من خلال إجرائنا لمقارنة لكل من ثقافة جنوب المغرب والثقافة الإفريقية.

جون بيير إيلون مباصي

سأعطي الآن الكلمة للسيد محمد الصغير جنجار لكي يشارك معنا وجهة نظره.

محمد الصغير جنجار

إنه لمن دواعي سروري أن أشارك في ورشة عمل كهذه. من خلال فهمي واستيعابي لعنوانها سوف أقوم بصياغته على شكل سؤال، ففي اللغة العربية لا نطرح دائما السؤال متبوعا بعلامة الاستفهام إلا أن الهدف منه هو أن تتم الإجابة عليه على ذلك الأساس. ماذا يعني أن تكون إفريقيا اليوم ؟
في هذه الحالة، أقول أن إجابة الأفارقة ستتغير بحسب اللغة والتاريخ. ثم إن جواب المغربي لن يكون مثل جواب إفريقي جنوب الصحراء أو مصري أو حتى سنغالي. إذا كيف سيكون جواب المغربي بخصوص «ماذا يعني لك الآن الانتماء للهوية الإفريقية، في الوقت الراهن، أي في بداية القرن 21 ؟» سيتغير الجواب بحسب وعينا بالمكان الذي نتواجد فيه، بتاريخه وبقارتنا الإفريقية. المغرب ليس هو السنغال ولا البنين، لماذا ؟ لأننا كلنا نتواجد في الجانب الآخر من القارة. في إقليم جغرافي معين يشكل أيضا نهاية عصر حضاري وثقافي. ماذا سيحدث إذا للدول التي تعيش مثل هاته الأوضاع. هذا ما يسمى «بالوضع الحدودي» «البرزخ»، وهو نوع من الحضارة تعيشها كل من إسبانيا وتركيا، ثم إنه مصير جغرافي يظل إلى الأبد. ماذا يحدث لهذه الدول ؟ هذه الأراضي هي في غالب الأحيان نفس تلك التي عرفت، على مر التاريخ، هجرات بشرية متواصلة. هذا بالضبط هو مصير المغرب. فعندما تصل تدفقات الهجرة تلك للحدود، فإنها تتوقف في كثير من الأحيان، وذلك بسبب وجود البحر، إلا أن عبورهم للبحر للوصول إلى الضفة الأخرى من الأراضي الإسبانية جعل من تلك التيارات واقع لا نهاية له مما أدى إلى اعتماد السلطات الإسبانية على مصالح الديمومة الأمنية وتكثيف مهماتها.
الأمر الثاني : بعد كل ذلك تصبح تلك الأراضي بوتقات تعابير لغوية تمثل ثقافات متعددة، هناك ثقافات تصل فتخلق فناً معمارياً خاصا بها وموسيقى إبداعية جديدة تستلهم من كلتا الثقافتين.

فما هي النتيجة إذا ؟ تكون النتيجة خلق «ثقافة حدودية» أي ثقافة منفتحة أمام التأثيرات الأجنبية، وهذا بالضبط ما جاء به دستور 2011. يعتقد البعض تطرقنا للتلاقح الحضاري الأندلسي والعبري وكذا المتوسطي يعتبر فقط بالكلام النظري، لا أظن ذلك لأن الأوضاع التي نعيشها حاليا هي نتيجة الدولة الحدودية المتطرفة، بحيث تعتمد في أغلب الأحيان على العناصر التي تشكل نقط التقائها مع الهويات الأخرى وتترك في طي النسيان العناصر المغايرة المتبقية. إبان استعادة أراضينا، اعتمدنا بشكل رئيسي على السجل العربي الإسلامي للتصدي للمستعمر، وفي أحيان كثيرة، خضنا تجربة مغايرة، إذ تبنينا تراثًا مختلفًا عن هويتنا المركبة.

في الوقت الراهن، نشهد نوعا من التحول المحوري لإستراتيجية المغرب، أي نوعً من إعادة التوجيه. ففي تلك اللحظات يطرح السؤال التالي، لماذا ؟ لأن القارة الإفريقية اليوم ليست مهمة فقط بالنسبة لنا بل حتى بالنسبة لباقي دول العالم. أنظار العالم بأسره تتجه اليوم صوب أإفريقيا باعتبارها مستقبل الإنسانية لأنها أفق اقتصادي وإنساني وثقافي وديموغرافي متميز. وبالتالي، ستكون القارة إذا آخر محط اهتمام كل الدول الأخرى، خصوصا فيما يتعلق بعاملها البشري. أن تنتمي لإفريقيا اليوم يعني أن تكون واعيا تمام الوعي بكل ما تحمله الكلمة من معنى وأن تقرأ كل تلك العبارات المشار إليها في الدستور المغربي بشكل استراتيجي، هذا مفاده أن البعد والطابع الإفريقيين يجب أن يبصما هويتنا، بالإضافة إلى ذلك، يتوجب على كل المغاربة جعل أفريقيا أفقا هاما نصب أعينهم، كما كان من قبل، فتبني هاته الرؤية الإستراتيجية اليوم من شأنها ضمان مستقبل مشرق للجميع. بتعبير آخر، إن كونك إفريقيا اليوم هو بمثابة «عودة الوعي بالذات»، أي استعادة نوع من الوعي المغربي بالبعد التاريخي والجغرافي الأساسي لذلك، الذي ربما سيجعل لقدرنا هذا المآل سواء على الصعيد الاقتصادي أو السياسي أو البشري، أو ربما على كل الأصعدة، مما سيجعله أفقا من بين الآفاق الجوهرية المكونة لمغرب القرن الواحد والعشرين.

جون بيير إيلون مباصي

الجميع تحدث من منظور مغربي محض، سنستمع الآن إلى المنظور السنغالي متجهين بأنظارنا نحو أقطار البلدان المجاورة.

أمادو لي

لا يمكنني الإجابة على كل هذه التساؤلات بصفة مدققة، إلا أنه يمكنني الإدلاء ببعض المعطيات المجردة. بحيث يستحيل التطرق للواقع الملموس لكل البلدان الإفريقية، بسبب تعقد تاريخ قارتنا وعمق أحداثه، بما أننا اكتشفنا مؤخرا أن تاريخ الإنسان الإفريقي هو تاريخ عريق جدا.

بما أن هذا الإنسان مسجل نوعا ما في طيات التاريخ، فالوضع الذي يعيشه يحتاج أن يؤخذ بعين الاعتبار، وذلك بغية التعرف عن كثب على السيرورة التاريخية والسياسية والثقافية التي هو جزء منها والتي ستجعل منه إنسانا حرا، قادرا على التفكير في مستقبله، في مستقبل بلده وقارته بدون أي تعقيد... سوف نفكر في كل ذلك. فما معنى أن تكون إفريقيا اليوم ؟ في بلدنا السنغال يسموننا بـ «السنغاليين الجدد»، إلا أنني تعبت حقا من هذه التسمية، أود أن يطلقوا علينا اسم «الأفارقة الجدد». «أن تكون إفريقيا» هو بالضبط الإجابة عن التساؤل العام الذي يطرحه معرض الكتاب المغاربي «فهم الشباب»، أي استيعاب فكرة أن يكون كل شباب القارة وكذا العالم بأسره محور اهتمامات القادة والحكام. أما بالنسبة للجانب المجتمعي الذي يدور حول التواصل والثقافة، كالكتاب والناشرين ونحن الأساتذة، يجب أن يكون همنا الشاغل هو زرع الأمل في نفوسنا وإعادة إحياء ما ضاع منه. كل هذا يعني الكتابة عن الشباب، الحديث عن الشباب والتفكير في الشباب. أن تكون إفريقيا في السنغال معناه بالضرورة : السنغالي هو كذلك إفريقي.

بعد الصحراء، المغرب العربي، شمال إفريقيا... إفريقيا تحتاج لإفريقيا. نشكل قصة جميلة بالنسبة لإفريقيا منذ القرن السابع عشر على الأقل. تربطنا أواصر متينة بإفريقيا القرن السابع عشر، وطابعنا الإفريقي ظل معنا منذ الاستقلال، خصوصا مع ظهور شخصيات تشرفت بتلك التسمية، أذكر منها ليوبولد سيدار سنگور وثقافته الحاضرة في النشيد الوطني السنغالي ؛ «البانتو أخ والعربي أكبر الإخوة»، مما يبرز انتماءنا لقارة ضاربة في القدم، ثم إن نشيدنا الوطني ينتهي بـ «تحية لإفريقيا الأم». فهمنا واستيعابنا للسمة الإفريقية يعود لسنوات خلت، كما كان الأمر بالنسبة للطابع الإفريقي لمصر والحضارة الفرعونية. في حقيقة الأمر، لقد بذلنا مجهودات جبارة في كل مناطق الربوع، خصوصا مع كل من الرؤساء سنغور وسال وكذا ديوف.

في الوقت الحالي، يعتبر السنغاليون أنفسهم أكثر أفارقة من أي وقت مضى، أينما وجدوا لا يحسون بالغربة، ليس فقط بقارتهم الأم، بل حتى خارجها. إنكم على علم بذلك وتدركون كل شيء لأن بلدكم يعج بالمواطنين المنحدرين من السنغال. في مسقط رأسنا كنا دائما على استعداد للعمل جنبا إلى جنب مع المواطنين الآخرين للمضي قدما بإفريقيا، لكي تصبح واحدة من بين أهم الاقتصاديات العالمية الناشئة.

لقد كنا ولازلنا إحدى القوى النامية، إلا أنه آن الأوان لكي نحقق تقدما في جميع المجالات. يسود إفريقيا حكم فريد من نوعه يبرز أساسا مصالح شعوبها وأمورها الداخلية قبل الاهتمام بالمصالح الخارجية الخاصة بالشعوب الأخرى. تشهد بلادنا كذلك مرحلة حاسمة لتحرير المرأة، إضافة إلى أن إعداد الشباب لكي يتمكنوا من تحقيق استقلاليتهم سيجعلنا نواصل التقدم من أجل ازدهار القارة الإفريقية ككل.

جون بيير إيلون مباصي

إنني أشعر بالاطمئنان الآن، لأن عادة ما يكون حديث المثقفين بمثابة سفر بين النجوم، لا نفقه فيه شيئا، إلا أنه في هذه الحالة، بيننا أشخاص يخمنون ويفكرون انطلاقا من واقعنا المعاش، من دون كذب ولا إخفاء حقائق. لكن كما قلتم جميعًا، لا يجب علينا ومهما كانت الظروف أن ننسى تاريخنا ولا جغرافيتنا الممثلين لواقعنا، ولنلتزم لتحقيق نماء منطقتنا، بناء هويتنا التي ننتمي إليها مع المطالبة بهذا الانتماء. الآن الكلمة للحضور.

بوعبدلاوي يحيى

أنا أستاذ باحث بجامعة الحسن الثاني. أشكركم على تنظيم حلقة النقاش هاته وعلى كل الإضاءات التي تم تقديمها الكفيلة بجعلي أحس بشيء من الطمأنينة والهدوء. بالنسبة لي، «أن تكون إفريقيا اليوم» يحتم عليك التحلي بالشجاعة الكافية لتقبل جروح ومآسي الماضي، من غطرسة المستعمر وظلمه وعدم المساواة، إلى غير ذلك. دعونا نتأمل مليا إفريقيا اليوم للقيام بتقييم موضوعي : نسبة الأمية فيها مرتفعة، العديد من المنازل غير مزودة بالكهرباء، لا وجود لطرق معبدة في عدة مناطق نائية، دول لا موانئ لها ولا سدود تضمن التزويد بالمياه الصالحة للشرب، دول مازالت تتعامل على أساس اتفاقيات جمركية عقدت ما بعد فترة الاستعمار، إلخ.

لنتحدث بكل موضوعية، لا يجب أن ننسى تعاقب فترات من الزمن كانت العبودية جريمة من الجرائم ضد الإنسانية، وبعدها التوزيع سنة 1885، من خلال تقسيم الجماعات العرقية والقبائل، مما أدى إلى اندلاع فوضى لا تزال آثارها ليومنا هذا. إنها كلها أمور من الصعب حلها في فترة وجيزة، إلا أن حكمتنا وشجاعتنا بصفتنا أفارقة من شأنها إيجاد حل للمشكل، نعم أظن أنه بإمكاننا القيام بذلك. وماذا عن الحاضر ؟ تعيش إفريقيا لكن المرأة والطفل يموتان في سن مبكر. إن ذلك يهدد الديموغرافيا ويعرقل التطور. من بين المشاكل الأخرى الموجودة، هناك سوء التغذية. فبالرغم من وجود العديد من الأراضي الخصبة، في السودان مثلا، لا تستطيع إفريقيا لحد الآن إطعام كل سكانها بالشكل الكافي. لذا فهناك العديد من الأشياء يتوجب القيام بها. أولها، ونخص بذكر الأفارقة أنفسهم، إنتاج الأغذية الكافية لإطعامهم. لدينا الحليب، نيستلي، لكن بأي ثمن ؟ ما هي ظروف تصنيعه ؟ أما فيما يخص التعاونيات والتعاونيات الإيكولوجية، أليس في استطاعتها منافسة الشركات العملاقة الأخرى ؟ إنها كلها مشاكل ينبغي التصدي إليها.

لتلخيص أهدافنا، يمكننا القول أنه حان الوقت لكي تستقل إفريقيا قطار التقدم كما يتعلق الأمر بكل القارات الأخرى، لكي يجتاحنا الإحساس بالفخر الاقتصادي والاجتماعي بها... دعونا نرى الآن الأخطار المهددة لتلك السيرورة. المياه موزعة بشكل غير سليم : أتحدث عن النيل والكونغو وزامبيزي... هناك اتفاقيات قديمة، متعلقة بها لأن الأفارقة حاليا، لا يستخدمون تلك المياه. اليوم، تحاول قوى خارجية السيطرة والتحكم في الزراعة، كما أنها تود استغلال الكثير من الكهرباء، فتجعل الأفارقة يضعون حدا للاتفاقيات الموقعة مع البلدان المجاورة، لتولد بعدها صراعات قد تشمل حتى العسكرية منها. انظروا إلى بحيرة تشاد التي جفت منذ مدة.

الأستاذ الحموتي

أن تكون إفريقيا هو تساؤل كبير، للإجابة عليه يجب أن نتموضع ليس كأفارقة بل كوجهات نظر نابعة من إفريقيا. فأنا مثلا إذا أردت أن أتحدث عن إفريقيا، فمن الواجب أن أنسلخ من جلدي لكي أتطرق لتاريخي ولصلتي بإفريقيا. كل متدخل سوف يتحدث بدون شك عن نفسه وعن هويته : هوية محلية ولا تتعدى حدود التراب الوطني... آن الأوان لكي نغير تفكيرنا ولنفكر في قارة تجمعنا، تشاركنا همومنا أو ربما رؤيتنا، تبحث عن حل لمشاكلها، تتصالح مع ماضيها من دون المكوث في طياته، والتي تخطو خطوات ثابتة نحو المستقبل مع الحفاظ على الثقة نفسها. أن تكون إفريقيا هو أمر جيد، لكن عن أي إفريقي نتحدث ؟

إفريقيا غير معزولة عن العالم، بل في مركز العالم، ولن تسمح لنا القارات الأخرى بالقيام بأي شيء من دون أخذها بعين الاعتبار، هذا يعني أن تكون إفريقيا وتبقى على ما أنت عليه. لدينا صلة بكل بقاع القارة، بأقرب مناطقها وبأبعدها، إلا أننا مازلنا نحتاج للمزيد من الأواصر لكي نتمكن من محو ما تبقى من هويتنا الدموية، كما عبر عنه أمين معلوف في إحدى كتاباته، مضيفا أنه : عندما نقوم برؤية أنفسنا في المرآة، يجب أن نستحضر كذلك وجود الآخرين.

مداخلة

أنطلق من تجربتي الخاصة وأود أن أغتنم هذه الفرصة لتوجيه التحية لمارياما نداي وأمادو دياب الموجودين معنا هنا بصفتهم المستشارين الثقافيين للرئيس السنغالي. سنحت لي الفرصة لزيارة السنغال عدة مرات وموريتانيا أيضًا. وبالنسبة لي، كونك إفريقيًا يعني إيلاء الأهمية للناس كافة، بناء الطرق، إزالة الحدود والتأشيرات. فمثل فيما يتعلق بالسنغال، يمكنك السفر عبر مطار الدار البيضاء مباشرة إلى داكار أي من دون طلب تأشيرة، أما بالنسبة للجارة موريتانيا فأنت بحاجة إليها.

جون بيير إيلون مباصي

شكرا جزيلا. لك الكلمة السيد المستشار.

مستشار السيد رئيس السنغال

عرفت الورشة عدة مداخلات، إلا أنني سأتطرق فقط لما هو أساسي، ثم بعدها سأحاول إضافة بعض النقط الأخرى. ماذا يعني أن تكون إفريقيا ؟ أولا وقبل كل شيء هي مسألة جغرافية، كيف يمكن إذا أن تكون كذلك ؟ في البدء، يمكن القول أن القارة الإفريقية أصبحت تلقي خطابا لها ومتعلق بها. يجب أن نبدأ بمعالجة الإشكاليات، فاليوم مثلا الكل يتكلم عن العالم وعن إفريقيا ولا أحد حاول استحضار الثقافة، باعتبارها الشرط الوحيد. أعتقد أيضًا أن إفريقيا يجب أن تعيد كتابة تاريخها، لأن ذاك الذي يتداوله الكتاب ليس بالتاريخ الجيد.

ثالثًا، لا ننسى أن إفريقيا لديها حقل ثقافي مهم يمكن تطويره، هذا يعني أنه إذا لم نقدم حتى الآن الشيء الكثير للديمقراطية، فهذا لا يعني أننا لن نقدم لها أي شيء... ثم إنه من الضروري أن تعمل إفريقيا على وحدتها بتحقيق مبادئ التضامن الأفقي عمودي. إذ أن العمل على تحسين هويتها هو مسار متطور ليس أساسا ماديا. وأخيرا، يجب أن تواجه ألإفريقيا مخاطر العولمة التي ما انفكت تهدد الهويات الضعيفة. ويجب أن يستعيد الأفارقة ثقتهم في أنفسهم لضمان مستقبل زاهر والخروج من كل المآزق التي تهدد وجودهم.

جون بيير إيلون مباصي

سنعطي الآن الكلمة لإحدى النساء.

مداخلة

الطابع الإفريقي الذي يتسم به المغرب والمغرب العربي هو بمثابة حقيقة جغرافية، تاريخية واجتماعية، فبأي إفريقيا استراتيجية نطالب نحن ؟ هل هدفنا هو صحوة إفريقيا وإيقاظ الضمائر ؟ كيفما كانت النتائج فنحن مدعوون للمطالبة بكل ذلك وأن نكون أفارقة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، يجب أن نمنح نفسنا الوسائل الكفيلة بذلك، بما في ذلك المغرب. ولا يمكن تحقيق هذا المبتغى إلا من خلال الكتاب، إذ أن تنظيم معارض مثل معرض الكتاب بوجدة يعتبر الوسيلة الجيدة.

أتحدث عن الكتاب لأنني كاتبة، ففي تونس العاصمة مثلا قمت بكتابة ونشر كتاب يدور حول هذه السمة الإفريقية، لأن السود هناك يسمون بالأفارقة. يجب أن نقضي على هاته التسميات حتى لا يطلق على أبنائنا الـ «كالوشات»، وهي تسمية يطلقها المغاربيون على أبنائنا حتى في مونريال.

انتصار، طبيبة وكاتبة

أتوجه بالشكر لكل المتدخلين على إضافاتهم القيمة. إلى جانب الاعتبارات المتعلقة بالهوية، تعرف إفريقيا حاليا نوعا من الهجرة الجماعية للأطفال، إذا فهم ماهية هذه الآفة هو بيت القصيد، لأن تحديات تفوق كل ما يمكننا التحدث عنه من إشكالية الهوية وغيرها.

جون بيير إيلون مباصي

ما هي الأسباب الكامنة وراء الهجرة التي تؤرق أجيال اليوم والغد ؟ إنك على صواب، يجب فهم ذلك.

محمد

كل المغاربة أفارقة، إذ كما قال جلالة الملك : جذورنا تنتمي إلى إفريقيا. ازداد جدي بالسنغال سنة 1910 وجدتي بالمغرب سنة 1923، مما يؤكد جليا ما قيل من قبل. أن تكون إفريقيا بالنسبة لي هي مسألة رؤية، إرادة وعمل. أن تكون إفريقيا اليوم يفرض عليك المضي قدما بالقارة والإسهام في تطوير جميع مجالاتها. إذا، أن تكون إفريقيا يعني أن تشارك في عمليتها التنموية.

الدكتور حسن خرواء، طبيب نفسي بوجدة

نحن على حافة الهاوية، وهذا مرتبط بكل المجالات. وسأركز هنا على من قال بأن المغرب محدود، بيد أن إفريقيا جد عميقة جداً. لا أظن أن هناك دواء مغاربي كفيل بعلاج بعض أصحاب النوايا الخبيثة.

السيد العربي

أنا أستاذ بكلية الآداب بوجدة. سؤالي هو : ما الذي يمكننا القيام به لكي لا ينحصر هذا الاهتمام بإفريقيا فقط على الجانبين الاقتصادي والسياسي ؟ بحكم عيشي بوجدة، ألاحظ أنها مدينة تحتضن العديد من المواطنين المنحدرين من دول إفريقيا جنوب الصحراء، لذا فإشكالية تقبل الآخر و ثقافته تثقل كاهل الجميع.

مداخلة

كيف يمكن أن تكون إفريقيا اليوم وأن تساهم في ازدهار قارتك ؟ هل يمكن إعادة الاعتبار والأخذ بالاتفاقيات المبرمة بين المغرب وباقي الدول الإفريقية ؟ أظن أنها اتفاقيات منصفة جداً، خصوصا تلك المتعلقة بالأمن الغذائي والموارد المعدنية.

جون بيير إيلون مباصي

كان حقا نقاشا وتبادلا قيمين جداً، كل ما نتمناه هو أن تحقق كل هذه المطالب. ماهي إذا خلاصة كل هذه النقاشات ؟ وكيف يمكننا اليوم أن نكون أفارقة بكل ما في الكلمة من معنى ؟

إبراهيم الحيسن

إنه تحدي ليس بالهين. تأمل مجموعة من المناطق أن تحقق طفرة نوعية. أتكلم هنا عن المقاربة الجمالية لقارة كل ما نتمناه لها ولأبنائها هو مستقبل زاهر ومشرق. قارة نفتخر بها وبالانتماء إليها.

أمادو لي

نحن الأفارقة، وكأننا نقبع اليوم في سجن مظلم، في ليلة قاتمة يديرها شياطين كوكب الأرض، فالأمراض الخطيرة منتشرة في عدة بلدان، في معظمها، حتى لو كانت من بين تلك التي يعم فيها نسبيا السلام والرخاء. إنها ليلة مظلمة، غير أنه يبدو جليا أن نهايتها ستقترب بفعل إرادة وعزيمة البعض. لقد حان وقت إيقاظ القارة وجعلها تسير بخطى ثابتة نحو مستقبل مشرق، نحو نهضة أسطورية ستمكننا، نحن وأبنائنا، من تحقيق إنسانية الشعوب والأمم الأخرى.

هل هذا التفاؤل حلما ؟ نعم إنه كذلك، إلا أن الشعوب التي لا تحلم يكون موتها وشيكا. أنا مقتنع بأن إفريقي اليوم سيعمل كل ما بوسعه لرفع كل هذه التحديات، بغية العيش في كنف قارته بكل رفاهية وسعادة.

أبو الفرح يحيى

لم تكن قط قضية الصحراء عائقا في ازدهار العلاقات التي تجمع بين المغرب وبلدان الجنوب. ولقد لعبت المملكة دائما دور الجسر الذي يربط المغرب ببقية الدول الإفريقية. يعتمد حجم الهجرة الذي يعرفه جنوب المغرب نحو كل بقاع القارة على هذه الدينامية ؛ فإفريقيا كانت وجهة أول المغاربة المهاجرين.

لطالما تطلعت كبريات المدن المغربية، مثل فاس، إلى إفريقيا. ولا تزال الصحراء هي الجسر الوحيد الذي يربط المغرب ببقية القارة الإفريقية. مع استقرار القوى الاستعمارية بفاس والرباط وجعلهما عاصمتين للمغرب، قام المستعمر بنقل الأقطاب الاقتصادية والإدارية إلى تلك المدن، ومع ذلك حافظت باقي المدن المغربية على وفائها لهذا التوجه نحو إفريقيا. كما قلنا من قبل، كانت ومازالت الصحراء بمثابة حلقة وصل بين المغرب وباقي دول القارة الإفريقية.

أحمد عصيد

النقطة التي أشار إليها السيد المستشار هي مهمة جداً : إعادة قراءة التاريخ. كان المؤرخون المغاربة مهتمين جداً بغزو المغرب الكبير والاتجاه صوب جنوب الصحراء، لكنهم نسوا قرونًا من المبادلات الثقافية والاقتصادية. إن إعادة قراءة ودراسة التاريخ أمر يفرض نفسه اليوم. لذا، فمن المفروض أن تقوم كل دولة إفريقية بإعادة قراءة تاريخها، بحيث أنه من المستحيل اليوم فهم واستيعاب «أن تكون إفريقيا» من دون الاطلاع على تاريخ إفريقيا.

محمد الصغير جنجار

لقد تم التطرق لنقطة أساسية خلال المناقشة، يتعلق الأمر بقضية التنقل البشري والهجرة. ثم إن المطالبة بخلق نوع من الوعي في بلدنا بأن المغرب يبني توجهه اليوم نحو إفريقيا جنوب الصحراء وغرب إفريقيا هو بمثابة فكرة مبهمة تراكمت شظاياها عبر التاريخ، بالإضافة إلى ذلك، تشهد إفريقيا تدفقا بشريا سيستمر على الأقل حتى خمسينيات القرن العشرين، لذا فقد عرف المغرب تغيرا بحسب حجم السكان، مما جعل البعد الثقافي يكتسي أهمية كبرى.

كيف سنبني الروابط الاجتماعية لأجل مغرب غني ومتعدد الثقافات ؟ من خلال اكتشافنا لطابعنا الإفريقي الثقافي، التاريخي والفني، من خلال كتبنا الدراسية، في تعليمنا وفي تنوعنا الديني، لأن إفريقيا هاته التي ستصلنا معتقداتها هي أساسا بروتستانتية، مختلفة تماماً عن الكاثوليكية التي كنا نعرفها من قبل. الآن، يجب أن نكون على استعداد تام لتطوير وبناء هذا البعد الثقافي لكي نستطيع العيش معا.

جون بيير إيلون مباصي

لدي شرف اختتام هذا اللقاء. بحلول عام 2100، ستأوي أفريقيا 40% من سكان العالم ؛ أي 4 مليارات شخص من أصل 10 ستكون إفريقية. ابتداء من اليوم، فنسبة 40% من شباب العالم هم أفارقة غير أنهم لا يعلمون أنهم هم الذين سيبنون عالم الغد.

لهذا، فأن «تكون إفريقيا اليوم» يعني أنك على وعي تام بمسؤولية الأفارقة في جميع أنحاء العالم وكذا لديك استعداد كبير لتحمل تلك المسؤولية. أن تكون الأول في الفصل أمر صعب، لاسيما في مادة الديموغرافيا. بيد أن التاريخ ما هو إلا تاريخ كل البشر. الاقتصاد هو مجرد قصة عنهم، وكلما ازداد السكان كلما أصبح التاريخ أكثر أهمية. يمكن للغير أن يستصغركم لبعض الوقت، لكن ذلك لن يدوم طويلا.

أنظر إلى الصين أو الهند مثلا، وافهم مغزى حكمة سيدة ألمانيا، ميركل، التي أدركت بأنه في السنوات القليلة المقبلة سينخفض حجم الساكنة الألمانية بالنصف (من 80 مليون نسمة إلى 40 مليون)، مما جعلها تفكر في هذا الترحيب الرائع، مستقبلة لمليون مواطن سوري، هذا بعدما رفض أغلب الأتراك الحصول على الجنسية الألمانية.

يجب أن تكون إفريقيا مسؤولة. إن «كونك إفريقياً اليوم» يعني أنك تدرك أن مصير الجنس البشري على هذه الأرض يعتمد بشكل حاسم على الخيارات التي سيتخذها الأفارقة. بين الرزانة والحركة التجارية، بين المشاركة والتضامن، بين تعبئة سلمية جماعية أو تبني مبدأ الجميع ضد الجميع، بين بناء الإنسانية للحضارة العالمية كما علمها لنا سنغور أو الاستعداد للحرب.

إن إفريقيا أكثر تأصلا من مناطق العالم الأخرى، مناطق أصبح تاريخها دمويا وتنميتها غير مستدامة. فهذا التطور غير المستدام يهدد وجود الإنسان.

من هم أفضل من الشعراء والفنانين والكتاب ورواة القصص والعلماء لإعداد الأفارقة لتحمل هذا المستقبل المجيد، الذي بالكاد يمكن تخيله في خضم كل هذه الاضطرابات التي تعيشها اليوم المجتمعات الإفريقية ؟

من يستطيع أن يحافظ على الهدوء والطمأنينة لحظة إدراكه واكتشافه لهذا الواقع القاسي الذي نبحر فيه اليوم فقط هؤلاء هم الذين بمقدرتهم جعلنا نسافر عبر مخيلتنا، لنستوعب فكرة أن قوة الإيمان كفيلة بمحو آثار الأساطير ؟

من يستطيع أن يكون جريئا بما يكفي ويغير قدرنا في عالم أصبح الإدمان على التلفزيون والهواتف الذكية قوة مستحوذة على كل ملكة من شأنها خلق آمال دائمة لشبابنا ؟

من يستطيع مقاومة هذا الخنوع ؟

كيف يمكننا أن نجعل من الموسيقى المفضلة للأفارقة نغمة تتغنى بقصصهم المتنوعة والسعيدة، تطالب بعالم أكثر حيوية ويصلح للتعايش، مبنية على التنوع وتساوي الهويات، واعية بمخاطر الانقراض التي ما انفك يهدد الجنس البشري، إذا لم نقطع الصلة كليا مع طرق استهلاكنا الحالية ؟

عالم علمتنا فيه دروس علوم الحياة أن التنوع هو فقط ما يبقي هذه الحياة فانية. الخيال، الموسيقى والمطالعة هم القادرون على جعلنا نشعر بقيمة ذواتنا، إنها كلها إبداعات شعرائنا، كتابنا وفنانينا. لهذا فمن المهم جدا أن تعترف مجتمعاتنا بدورها كمكتشفة لعظمة قارتنا وكذا لاحتياجاتها لضمان غد أفضل. قيل كلام كثير في البداية، أما الآن فما نحتاج إليه هو أن نكون مسؤولين. فلنبني قارتنا الإفريقية !

رئيسة الجلسة : لمياء برادة بيركة
المشاركون : دنيا الشدادي، ماريا ڤسوس، صونيا التراب
فضاء : آسيا جبار
التاريخ : يوم السبت 23 شتنبر 2017
الساعة : 09 : 30 - 11 : 00

موجز مداخلات المائدة المستديرة

يعتبر موضوع المرأة موضوعا مثيرا كفيلا بتحقيق التغيير الاجتماعي، مع عدم نسيان أن التحرر من النماذج الاجتماعية الجامدة سيساعدنا على إطلاق عنان الذاكرة وإعداد العقول لتقبل الصور غير الاعتيادية.

إذا اعتاد القارئ-المتلقي على رؤية المرأة كمادة خام للابتكار عندما تكتب أو تنتج، وذلك عبر تخيلها للأساطير والقصص، سرعان ما يغير موقفه، فتصبح في نظره كائنا مبدعا، بعدما كانت «شيئا»، مما سيحفز لا محالة الآخرين للقيام بالخطوات نفسها.

لقد عبرت المرأة المغربية عن موقفها الجديد، بصفتها «كائنا» اجتماعيا مختلفا، منتجا للثروات بكل تضحية وتفاني، خصوصا الثقافية منها، وفي جميع الظروف.

هذا ما عبرت عنه دنيا الشدادي خلال هذا اللقاء.

اكتست دواوينها الشعرية المكتوبة باللغة العربية أهمية كبرى، خصوصا في أوساط المهتمين بالأدب وقضاياه بوجدة، فمنذ بداياتها كشاعرة ومبدعة، أكدت دائما على أن المرأة المغاربية كانت تعاني من القمع والتهميش وسط مجتمع ذكوري أبيسي، إلا أنها أشارت كذلك إلى كونها محظوظة شيئا ما لأنها تكسب باستمرار اهتمام مختلف الجماهير الأدبية لجهة الشرق.

فيما يتعلق بالتجربة الإبداعية، أكدت الروائيات ماريا ڭسوس وصونيا التراب، بالإضافة إلى دنيا الشدادي على أنهن اخترن كتاباتهن النسائية لنفض الغبار عن مشاكل النساء وإن استعصى الأمر، للدعوة إلى التمرد وكذا لمساندة المضطهدات من النساء في معانتهن، كل ذلك لمحاربة ذلك الواقع الذي كان السبب وراء تهميشهن كمبدعات، مفكرات وشاعرات. وبالتالي، فإن أعمالهن المتعددة والمختلفة، أنجزت وفقًا لمناهج تعتمد في معالجتها على أساليب أدبية متباينة (وصولا إلى كتابة سيناريو الفيلم الوثائقي)، كانت بمثابة ردود أفعال «كائن» ضد كل ما يهدد وجوده الاجتماعي. ولم يكن الهدف من ذلك سوى التغلب على الصعوبات والعقبات وكسر أغلال الواقع.
بقدر ما ظلت دنيا الشدادي وفية للأشكال التقليدية للنظام الشعري، مما مكنها من معالجة كل المواضيع من دون تمييز أو غموض، فقد طورت كل من ماريا ڭسوس وصونيا التراب أكواناً روائية جديدة لاستحضار داخل عالم كتاباتهن، قصص مستمدة من واقعهن المغربي. لا تطالب الكاتبات باستعادة نشاطهن النسوي، بل يؤكدن على ضرورة خلق سبل وآليات للتعبير ونبذ معاناة وتناقضات يعيشها أشخاص حقيقيون.

دنيا الشدادي

أهلا وسهلا. عادة ما أقف على خشبة المسرح لقراءة قصائدي فقط، لكن هذه المرة سأحاول التحدث عن تجربتي كشاعرة. موضوع هذه المائدة المستديرة هو تجارب الكتابات النسائية. سأحاول تلخيص تجربتي المتواضعة وتبسيطها لكم قدر الإمكان. أسلوب الكلام الذي اخترته إذا هو أسلوب مبني على أساس جمالي وفكري محظ : إن الأمر يتعلق بشعر مكتوب باللغة العربية الفصحى.

ليكن في علمكم أنني لم أختر الشعر، بل هو من اختارني، ربما كان لذلك دوافع فكرية أو أخرى ثقافية. ما يميز تجربتي هو أن كل شعراء جيلي وقع اختيارهم على نوع جديد من الشعر : النثر الشعري. بالنسبة لي، أفضل أن أبقى ملتزمة بالقصيدة التقليدية المقفاة وأعيش دوما على ذكرى روائع أشعار المتنبي ونازك الملائكة... ربما في المستقبل سيتم إبدا ع نوع جديد من الشعر.

أو ربما هذا بالضبط هو ما جعل الأدباء والمثقفين، خصوصا بمدينة وجدة، يهتمون بكتاباتي الفريدة من نوعها. ثم إنني أعتبر نفسي محظوظة لأنني قد سبق والتقيت بأناس يهتمون بالواقع الثقافي لخطاب تدور محاوره حول المجتمع الأبيسي المستبد والصعوبات التي تواجها المرأة المبدعة داخله، المرأة تعاني عموما من التهميش والخضوع وكذا كل ما يترتب عن ذلك من تصريحات وردود الأفعال.

وفيما يخص مواضيع تجربتي الإبداعية، فإنها تتعلق إما بالكشف عن حقائق، التأمل، التمرد، أو حتى التخفيف من وطأة معاناة الآخرين. علاوة على استجابة الكائن لأولويات وجوده داخل المجتمع. أحاول أن أكتب بأسلوب واقعي، مستحضرة الحاضر ومستلهمة من الماضي الذي تمثله ذاكرتي الفردية والجماعية.

أحاول أيضا الابتكار من خلال اهتمامي بكل أشكال الكتابات الشعرية. أعتقد أيضًا أن ما يميز تجربتي هو الجرأة التي أعتمدها في طرح المواضيع، بعيدا عن أي غموض، خاصة عندما يتعلق الأمر بطرح موضوع الحب في العلاقات الإنسانية لمجتمعنا المحافظ، إذ أن مدينة وجدة هي مدينة محافظة بالمقارنة مع الدار البيضاء أو طنجة.

لذا، فعلاقتي مع الرجل في خطابي الشعري لا تعبر عن صراع أو رغبة في التفوق. إن هدف وجوده في قصائدي مختلف، وكتاباتي لا تتوخى تصفية حسابات مع المجتمع، بل هي مكملة له، إنها نوع من الإسهام الفكري. ما قد يعاب علي من خلال كتاباتي هو مسألة الجرأة في طرح المواضيع، خصوصا تلك المتعلقة بالرجل، وكيف لامرأة ترعرعت في بيئة محافظة التغني بالحب، مناقشته، المطالبة به وحتى تحدي قوته ؟ هذه كلها مواضيع تطرق لها الرجل، من دون عقد أو خوف مجتمعي، لذا لماذا نمنع المرأة الشاعرة أو المبدعة من القيام بذلك ؟

الغريب في الأمر هو أن تلك المرأة التي أحاول على وجه التحديد تحريرها بكل السبل من قبضة القمع والظلم، هي من تهاجمني في العديد من الأحيان، أظن أنه أمر غريب شيئا ما، في حين أتلقى أحيانا أخرى تشجيعات المبدعين والقراء من الرجال، أقاربي بالدرجة الأولى، وهذه ملاحظة مهمة.

هذا لا يعني أنني أؤمن بالكتابة التافهة والأسلوب الخسيس، التي تحط من شأن الكتابة الرفيعة، سواء تطرقت لإحدى المواضيع الخاصة بالرجل أو بالمرأة. خطابي يتغنى بتناغم سمفونيات الحب: في كتاباتي، لا أستعمل اسما مستعارا ولا أخفي اسمي، إنني أوقعها باسمي فقط، وربما هذا هو السبب الذي جعلني أعتبر نفسي قد كسرت قيود الواقع المرير، هكذا قررت التمرد عليه وهو قرار لا رجعة فيه. أحس أنني أحقق ذاتي من خلال كتاباتي ورسم طريقي.

لمياء برادة بيركة

دنيا، ذكرت خلال حديثك معرض رحال الفوتوغرافي الذي شاركت فيه بالبعض من قصائدك، والجميل في ذلك هو الجمع بين الفن البصري والشعر. يحمل ذلك المعرض عنوان «العنقاء امرأة»، إنه لعنوان رائع للغاية، هلا أعطيتنا تفاصيل أكثر عن هذا اللقاء، هذه القصيدة وهذا الديوان ؟

دنيا الشدادي

كانت التجربة فريدة ومبتكرة لاختيارها لذلك المكان. هو لقاء بين الشعر والتصوير الفوتوغرافي، شكل بالنسبة لي فرصة مهمة أوحت لي ببعض الأفكار الفنية، كانت مجسدة في العديد من الصور الفوتوغرافية، عمدت على إبرازها في قصائدي. ربما قد أدرك البعض أن الصور المعروضة كانت مستوحاة من بعض قصائد ديواني «تتقدم خطواتي وأتقدم معها».

كانت أيضًا محاولة لتقريب الجمهور من الشعر والتصوير الفوتوغرافي. وأخرى لجعل الناس يحبون الشعر ويكتشفونه من خلال الصورة. إن الجمع بين هذين النوعين الفنيين هو تجربة ناجحة، في انتظار تجارب مستقبلية أخرى تجمع بين أنواع أخرى من الفنون والإبداع.

لمياء برادة بيركة

أشكرك جزيلا على هذه المقدمة التي تبرز جمالية اللغة وجانبها الراقي، والتي لا أجيدها للأسف الشديد. أغتنم هذه الفرصة كذلك لتقديم صونيا التراب. سننتقل من الشعر إلى الرواية، وسنتطرق أيضا لموضوع الحب، لنواجه بذلك وقائع أكثر صعوبة وأشد قساوة.

ماريا ڭسوس، أنت كاتبة وطبيبة مختصة في علم نفس معتمدة. تعملين كذلك في مجال التواصل ولديك عدة كتابات، وصونيا التراب، التي مارست الصحافة في بداياتها، نرى أنها تتبع خطاك. والكتابة هي بمثابة حاجة حققت العديد من الكاتبات من خلالها أهدافهن كالكتابة السينمائية والسمعية البصرية... كلكن نساء تكتبن لتمثلن نساء مغربيات أخريات. أظن أن ذلك يعني لكن الكثير، لأن الحقائق التي تشغل بالكن باستمرار هي وقائع ذات طابع مختلف. ومن خلال ما قرأناه من كتابات ماريا وصونيا، تجمع شخصياتكن النسائية بين التقليدي والعصري وفي الوقت نفسه تبرزن مفارقات المجتمع المغربي.

وبهذا، تحاولن رسم حدود المجتمع بأكمله من خلال الشخصيات التي وقع عليها اختياركن، ليصبح كل ما هو حميمي آلية لاكتشاف حقائق مخفية. ماريا، لقد قمت بوصف مدقق للمنظومات الاقتصادية والسياسية المؤدية للاستعباد، ونقرأ في كتاباتك تلك القصة الصغيرة التي يسمع صداها هموم مجتمع يفتقر إلى الشجاعة...

ماريا، أود أن تخبرينا عن الروايات التالية، «حسناء أو مصير امرأة»، «الحياة المزدوجة» و «لن ندخل الجنة جميعا»، بصفتها إبداعات تقدم لنا صورة واقعية للظلم الاجتماعي والعنف الاقتصادي اللذان يضغطان على المرأة لحظة اختيارها لقدرها الذي باء إلا إن يمنح لها الإحساس بالسعادة. هل يمكنك أن تحدثينا عن المواضيع التي قمت باختيارها عن قصد ؟

ماريا ڭسوس

في الواقع، إن روايات «حسناء أو مصير امرأة» و «لن ندخل الجنة جميعًا»، هي لوحات جدارية اجتماعية، لوحات أصفها بالبسيطة لكنها واقعية، حيث تجد المرأة فيها بالكاد نوع من التوازن بين حياتها العملية وحياتها الشخصية، كما هو الحال في روايتي الأولى «الحياة المزدوجة». ولقد كتبت هذه الروايات في سياق محدد يتمثل في الاستجابة لحاجة ملحة ولإحساس عابر يفرض التعبير عنه من خلال الكتابة.

مهنيا، وأتتبع بفطنة وإدراك كبيرين تطور المرأة داخل النسيج الاقتصادي والاجتماعي. إلا أنها تجد صعوبة كبيرة في التوفيق بين حياتها المهنية وحياتها الشخصية، مع ضرورة تشبتها بالتقاليد.

هناك تناقض أيضًا بين الجوهر والمظهر. مما يخلق الكثير من التناقضات. فلماذا إذا أحب التطرق لمواضيع أسلط من خلالها الضوء على النساء ؟ لماذا المرأة ؟ لأنني أعرف شخصيتها جيدا. فأنا مثلا سأجد صعوبة في تمثيل شخصية رجل، بالرغم من وجود الكثير ما يمكن قوله عن الرجل في المجتمع المغربي. إذا كنت سباكًا تهتم بالخيال العلمي وترغب في الكتابة ، ستكتب قصة جميلة حول سباك تدور أحداثها في مجرة أو شيء من هذا القبيل. غير أن الواقع يفرض عليك أن تكتب عن أكثر الأشياء التي تحس بها، فهذه هي الطريقة الوحيدة التي ستمكنك من الكتابة وتبليغ رسالتك بكل أمانة وجدية. أكتب عن المرأة لسبب آخر: أنا امرأة وأجد نفسي في بحث دائم عن الهوية والحرية، وحتى أنني أتوجه إلى النساء من أعضاء الحركات النسائية برسالتي هذه: فلنوقف كل النقاشات النسوية لأننا بصدد فقد هويتنا رويدا رويدا ، وذلك بسبب المساواة التي نطالب بها. كل ما أريد هو أن تستطيع المرأة أن تحقق وتثبت نفسها، فكيف ذلك ؟

وبالتأكيد عن طريق الحفاظ على أنوثتها في نفس الوقت الذي تعيش فيه ببساطة في كنف مجتمعها كامرأة.

اليوم، عندما نتأمل المجتمع المغربي فوضعيته كارثية: النساء والرجال يعملون، والمربيات تتكفل بحراسة أطفالهم، وفي غضون ثلاث أو أربع سنوات سيصبح هؤلاء الأبناء حبيسي الحواسب والهواتف النقالة. مما يؤدي إلى تفكك المؤسسة العائلية. كل ذلك بسبب الحرية التي طالبت بها المرأة، فعوض أن تبلغ هدفها من اجل تحقيق أشياء كثيرة، فقدت أهمها.

روايتي الثانية «حسناء أو مصير المرأة» مختلفة نوعا ما. في الواقع، إذا كنت قد تحدثت في الرواية الأولى عن معاناة النساء في عالم من الحرمان حيث تتعايش مع مجموعة من التناقضات فإن حسناء حسب رأيي، بحاجة ماسة إلى نداء ضميرها. كانت لدي خادمة وكنت ألاحظ عن كثب ظروف عيشها القاسية. شعرت بالحاجة إلى الكتابة عن الخير ، بعدها شعرت بحاجة ماسة للكتابة عن كل الخادمات، عن كل هاته الفتيات اللواتي لم يولدن ليكتب لهن الاشتغال في البيوت، بل ليتعلمن في المدرسة ويصبحن واعيات، ولهن مكان في المجتمع مثل كل النساء الأخريات. أما بالنسبة لشخصية حسناء، فبعدما فقدت والديها، لم يبق لها أي خيار آخر غير أن تصبح خادمة.

فبعد وقوعها في شباك عمها الذي استغل وضعها ليجعل منها عاملة بيوت، أدركت أنها في عالم مختلف، بين أشخاص مختلفين. بالإضافة إلى أنها واجهت العديد من المصائب، مثل اضطرارها للقيام بالإجهاض، الهجرة غير القانونية والعديد من الصعوبات الأخرى.

في الرواية الثالثة، تطرقت كذلك لتيمة المرأة، لكن من منظور آخر. كنت في كل مرة أختار منظورا معينا أقوم من خلاله بالحديث عن النساء ومعاناتهن. في هذه الحالة، يتعلق الأمر بحياة زوجين اثنين. تزوجت إيمان شابا مغربيا، فقررا العيش سويا بفرنسا، إلا أنه كان زواجا فاشلا. بعدها، تعرفت على رجل متطرف جدا، نظرته للدين مختلفة عن الواقع.

بالنسبة لقصة الزوجين الآخرين، نجد كاثرين، مسيحية وقعت في حب شاب مغربي الأصل. ستقوم بما في وسعها لكي يعجب بها، حاولت كذلك اعتناق الإسلام، فبدأت رحلتها في البحث عن الإيمان والعقيدة. لأنها يمكن أن تنطق بسهولة بالشهادة، غير أن قلبها قد لا يؤمن حينها. لتكتشف في آخر المطاف أنها لن تستطيع اعتناق ديانة أخرى غير تلك التي يؤمن بها أسلافها وأجدادها. حاولت من خلال القصتين أن أوضح مسألة الديانة والإيمان، فقد نعتنق الديانة نفسها، إلا أنه لكل واحد طريقته في فهمها، استيعابها وتطبيقها. في بداية الرواية، يظهر الزواج المختلط كشيء عادي وفي متناول الجميع، إلا أنه مع توالي الأحداث، تطفوا آثاره السلبية على السطح، مثل تربية الأبناء، وضع علامات ذات حمولة دينية كالصليب، اختيار المواد الغذائية، إلخ.

لمياء برادة بيركة

أعتقد أن أهم ما يمكن النطق به هو كلمة «اختيار». حسب ما قلت، في بعض الأحيان يراودنا الإحساس بأن النساء نلن حريتهن، لكنها حرية قمن بامتلاكها بطريقة غير لائقة، فكان ذلك على حساب هويتهن. ينبغي التكلم باستفاضة عن كل هذه التناقضات وعن صعوبة التوفيق بينها. ننتقل مع صونيا التراب من مرحلة الانتقاد إلى المطالبة. في هذه الحالة، لا نحس البتة بكوننا استطعنا كسب حريتنا، إننا نحس بأن الأمر يتعلق بخوض معركة، إنه لعراك بمعنى الكلمة. هلا تفضلت بالمزيد من التوضيحات بهذا الخصوص، بتقديمك لكل من رواية «شمابلانكا» و«لم تحدث الثورة»، خصوصا عندما تتحدثين عن المبدأ التالي : كوني حرة أولا وبعدها طالبي بالحرية. أما عندما نرى كيف تناقشين مواضيع مثل : الزواج، العذرية، النفاق الاجتماعي ولاسيما الدين، ينتابنا انطباع أن كتابتك هي بمثابة بيان.

صونيا التراب

لا أجيد «الكتابة النسائية»، لأنني لا أعرف للكتابة كامرأة سبيلا، ولا حتى من هي المرأة. من الصعب أن تكوني امرأة اليوم، لكني أعتقد أن الأصعب من ذلك هو أن تكوني عربية، مغربية أو مسلمة، وهذه هي أول معركة يتوجب علي المرور بها قبل المطالبة بحقوقي كامرأة، بل كإنسان أولا وقبل كل شيء. في رأيي، من المهم جداً أن أحدد أنني أكتب أولاً كإنسان، كمغربية، وذلك قبل أن أضع إشكالية المرأة ضمن أولوياتي.
مر الكثير من الوقت بعدما كتبت رواياتي الأولى : تقريبا 8 سنوات. وفي الواقع، كانت روايتي الأولى «شامابلانكا» بمثابة بيان، كانت صرخة نابعة من الأعماق، تعبر عني وعما أشعر به. حينها، قررت أن أكتب عن بيئة لا تكتب عنها في المغرب وأن أتحدث عن أشخاص لا أحد يكتب عنهم : إنهم البرجوازيون المغاربة أو علية القوم، هؤلاء الذين يمثلون 2% من المواطنين المغاربة. كنت بحاجة للكتابة عن تعاسة هذه الشريحة. كان ذلك بالضبط ما انتقدته منذ عودتي من باريس، بعد أن أكملت دراستي هناك. كنت قد قضيت سنة كاملة بالدار البيضاء إلا أنني لم أتحمل كل ذلك. كنت أبكي طوال الوقت لأن الوضع كان لا يطاق. كنت غاضبة جدا حينها، لذا قررت أن أعبر عن كل ذلك من خلال كتاباتي، هذا بالضبط ما نسميه بصدمة انعكاس الثقافة، أي أنك تعود لمسقط رأسك، فتكتشف أنك لا تعلم من أنت. عموما، الأشخاص الذين قمت بوصفهم في الرواية مثلتهم شخصية «شامة»، إنهم أناس يعيشون متقوقعين، إذ أن في المغرب كلما كنت غنيا، كلما تبقى حبيس المقاهي، الحانات، المنازل والسيارات الفخمة. لأنك تتخلى تماما عن انتمائك للأمكنة العمومية.
في المغرب، كل حرية هي للبيع. لقد ترعرعت في مدينة موصدة أبوابها. في سن الثامنة عشرة، قررت إنهاء دراستي في الخارج مثل معظم أبناء جيلي، ممن يبحثون عن حرية جديدة ومسؤوليات جديدة كبشر، مثل تحقيق التطور والتحرر. يمكننا قضاء أربع، خمس أو حتى ثماني سنوات هناك، وعندما تقرر أن تعود إلى المغرب، تصاب بصدمة كبيرة، لأنه بصفتك شخص بالغ، ينبغي أن تفكر في إعادة تكوين نفسك والخروج من فقاعة عائلتك الحمائية.

لم تعد تنحصر الإشكالية اليوم في الحرية التي منحها الغرب لنا، بل في التناقضات اليومية التي أصبحنا نواجهها. علينا أن نتعلم أن نفرض ذواتنا، أن نجد مكانا لنا، وهذا شيء يمكن أن يكون صعباً في البداية. أتذكر حينها، عندما كنت أتحدث عن أولئك الذين في مثل وضعيتي، فكانوا يؤكدون لي دائما بأن السنة الأولى عادة ما يكون التأقلم فيها صعبا، لكن مع مرور الوقت تتغير الأوضاع تدريجيا.

لسوء الحظ، يملك الإنسان قدرة كبيرة تمكنه من التكيف مع الأوضاع وحتى الخضوع لها. وفي هذا الإطار، يتكيف المغاربة أينما كانوا وبسهولة قصوى، حتى لو تعلق الأمر بالافتقار إلى الحرية. نحن من نبني مساحاتنا المغلقة، لنتعود بعدها على نمط العيش الذي تقدمه لنا. فلنعد الآن إلى الرواية التي كانت بمثابة صرخة و تعبير عن غضب تلك الشابة حيال وطنها ووضعها. كانت تشعر كما لو أنها نشأت في مجتمع كاذب، محارب لأحلامها ورغباتها، بصفتها شابة مثقفة، متحررة وذات تنشئة أوروبية.

بالنسبة لروايتي الثانية، «لم تحدث الثورة»، فقد اخترت التطرق مرة أخرى للبرجوازية، لكن هذه المرة من خلال قصة شاب يعيش بباريس، بصدد التحضير لأطروحة في العلوم السياسية، شاب يعتقد أنه ذكي للغاية إلا أن حياته معقدة جدا ولم يجد لمصائبها مخرجا. تدور أحداث القصة قبيل اندلاع ثورة تونس ومصر.

يحدث دائما نفسه ويقول : أنا متواجد هنا لكي أستفيد مما يقع وأمرن نفسي على ما تتطلبه منا الثورة، سأعود قريبا إلى بلدي وسأساهم في تغيير الأوضاع هناك. يقرر الشاب بذلك العودة إلى المغرب ويلتقي بشباب «20 فبراير»، ثم ينضم إليهم. بعدها يقع في حب شابة برجوازية أيضا، إلا أنها تفتقر للإرادة الكافية لصناعة الثورة، أو لمد يد المساعدة للآخرين، لأنها منهمكة في تحطيم نفسها وإلحاق الأذى بها. فبعدما قررت الانفصال عن عائلتها، بدأت حياة جديدة كانت تمتهن فيها البغاء مع أثرياء طبقتها. إنها لا تشبه البتة إلياس، ذاك الشاب الذي يعشقها بجنون. من خلال هاتين الشخصيتين وقصة الحب المحكوم عليها بالفشل، ييأس الشاب بعدما تأكد أنه لن يصنع الثورة في المغرب، فغادر بلده وتخلى عن حبه لميا. فهم في تلك الأثناء أنه لم يكن بوسعه تحرير نفسه، فكيف يطالب بتحرير الآخرين ؟

فهم كذلك أنه لن يقبل أبدا بميا التي لطالما ضايقته وبدت متناقضة أمام عينيه. كان يأمل في تغيير بلده وميا، لكنه فشل، فغادر المغرب دون أن يغير شيئا. ومن تم، لم تحدث الثورة أبدا.

من خلال هذه الشخصية، هذا الشباب وهذا البلد الذي نعرفه جميعًا جد المعرفة، يمكن القول أنه : قبل المطالبة بالحرية الجماعية يتوجب علينا تحقيق الحرية الفردية.نعيش حاليا مرحلة ما بعد الثورة، وأعتقد أن الوضع ينطبق كذلك على باقي البلدان العربية، حتى تلك الدول التي مازالت تعيش رواسب الثورة في الوقت الحالي، وذلك بغية مواجهة التحديات التي تهددها اليوم. كانت لدي فكرة كتابة ثلاثية، لذا ارتأيت كتابة رواية ثالثة تتطرق للإشكالية نفسها، إلا أنني لم أتمكن من كتابتها بعد. من جهة أخرى، أخرجت فيلماً وثائقياً بعنوان «شكسبير في الدار البيضاء»، ولم تحدث الثورة.

لمياء برادة بيركة

بعدما قالت دنيا بأن المرأة بمثابة شخصية «الفينق» التي تلهمها لكتابة الشعر، أحسسنا بأننا بحاجة ماسة لكي نعيش كل الأزمنة. إنها امرأة بمعنى الكلمة وفي الوقت نفسه ، يبدو أن في حالتي ماريا وصونيا يتعلق الأمر بصراع محتدم بين الأجيال، ومن الواضح أنكن تقمن بإسماع صوت طموحات الأجيال التي تعبرن عنها. إنها حاجة للتحرر تلك التي تسكن الشخصية النسائية للرواية، غير أن التعبير عنها يختلف باختلاف الأجيال. تتحدث صونيا عن شباب يحتاجون إلى التغيير، بينما في حالتك ماريا يتعلق بالأمر بيافعين يواجهون مختلف الخيارات التي تتيحها لهم الحياة : هم شباب يعملون إلا أنهم يواجهون باستمرار تحدي الزواج، بصفته أحد الجوانب الجلية التي قمت بإبرازها في كتاباتك. بالنسبة لصونيا، أهم شيء هو أن تكون فردا، وهذا بالضبط ما استطعت فهمه، لأننا عندما أطلقنا فعاليات هذه الورشة، لم نتحدث قط عن الكتابة النسائية. في تلك اللحظة، استوعبت بأنكن كاتبات، شاعرات ثم نساء.

في حالتك ماريا، أحسست بأنه لا يمكن أبدا للمرأة أن تعبر بنفسها عما يخالجها، لأن الكل يتحدث عنها : إنها الأم وربة بيت، المرأة العاملة، إلخ. وبقوة الأشياء، تظهر دائما كإنسان لا يمكن أن يوجد إلا بوجود الآخر، مما يطرح إشكالية المكانة التي تسعى المرأة إلى تبوئها. في الوقت نفسه الذي يبدو فيه لنا أن في كتاباتك ماريا، مكانة المرأة تنحصر في خلقها لدوائر عدة : دائرة الأسرة ودائرة المجتمع، بينما في حالتك صونيا، يتواجد الفرد داخل نفق ضيق، ليجد نفسه حينها مواجها لجماعة معينة، مثل حركة «20 فبراير» أو غيرها. ومن تم، تظل المرأة حبيسة سياق اجتماعي محدد.

ماريا كسوس

في حقيقة الأمر، لا أجد ذلك متناقضا لبعضه البعض بل مكملا له. سأقول بأنه في كتابات صونيا، نتذوق طعم الأحلام، بينما في روايتي يتعلق الأمر بمواجهة الواقع. الواقع ليس كالحلم. هناك عمر نحلم فيه بأن نكون أحرارا وأن نحقق الكثير من الأشياء. والتعريف بالحب يختلف باختلاف الأجيال، أما الحرية في المغرب تتسم بأبعادها العديدة. هناك من يقول أننا لسنا أحرارا، لكن عندما أرى امرأة تكتب عما يخالج صدرها، أقول : عن أي حرية يتحدثون ؟ صحيح أنه أمر يبقى دائما حبيس تصور شخصي وذاتي، إلا أن ذلك لن يمنعنا من قول أن النساء عموما في المغرب هن نساء أحرار. أما تلك اللواتي يفتقدن للحرية ينتمين غالبا لفئات المجتمع الهشة . لن يكون بوسعهن الولوج إلى عالم من الحرية مثل هذا، لا العام فيه ولا الخاص.

كما ذكرت صونيا من قبل، الكل يشترى في عالم البرجوازية، إذ يمكنك أن تشتري حريتك وتعيش أسيرا لها، وهذا نوع من الحرية. إنها في رأيي مرحلة متقدمة من الحرية، إلا أنها ليست بالمثالية، بحيث أنني أرى أن الحرية تتجلى في إمكانية مساعدة الآخرين للحصول بدورهم عليها. ودائما كانت الحرية مقيدة في أوساط الفقراء والمعوزين. مؤخرا، قرأت في إحدى صفحات المواقع الاجتماعية شيئا أثار حفيظتي، يتعلق الأمر بشابة انتحرت لأنها فقدت عذريتها، والأمر الذي أثارني هو تناقض مسألة أننا نعيش وسط مجتمع عصري وفي نفس الوقت لا نتقبل مثل هاته الأمور. أظن أن ذلك لا ينبغي أن يحدث في كنف عائلة برجوازية : فضمن منطقهم، إما أن يجدوا وسيلة لإخفاء الحقيقة أو أنها ليست بالزوجة الصالحة. خلاصة القول : لكل طريقته في فهم الحرية، ويتحقق ذلك بحسب انتمائه لفئته المجتمعية ونظرته للأمور وواقعه المعاش.

أما ذاك الذي أكتبه أنا فيمثل الواقع كما هو. لا أملك العديد من الأحلام لأجسدها في كتاباتي، إلا أنني أرسم لوحة تلك التي تشتغل في المقاولة، الحمامات العمومية أو في أي مكان آخر. إنهن نساء قمن بحكي قصصهن لي واستمعت لهن بعناية كبيرة، لكل منهن قصة ستلهمني لكي أكتب المزيد من الروايات.

صونيا التراب

لا أعرف كيف أجيب على هذا السؤال المتشعب، لكن عموما، هو تساؤل راودني مؤخرا رغما عني.

بما أنني أعيش في المغرب منذ ثلاث سنوات، فأنا مضطرة لمواجهة وضعي بصفتي امرأة، أو بالأحرى التصدي لكل من يواجهني من الناس. التساؤل الذي يطرح نفسه اليوم، دائما من خلال أمثلة شباب الدول الأخرى، هو كيف يمكن للنساء أن يضطلعن بمسؤولياتهن. وما يمكن قوله اليوم هو أننا بصفتنا نساء، بإمكاننا أن نؤكد أننا مسؤولات. كفانا قولا أننا ضحايا أو أننا لم نكسب كل حقوقنا وحرياتنا. أتوجه بكلامي هذا للأمهات قبل كل شيء، للزوجات ولشخصي، لما أحتفظ به وما يشكل نصيبي من المسؤولية.
أعلم أن الأمر معقد جدا وأنه شيء يمكن فقط تمريره عبر الثقافة والمطالعة... إلا أن اليوم، أعلن معركتي التي تكمن في أن يتحمل الرجال والنساء مسؤوليتهم. لا توجد ضحايا، أو كلنا ضحايا. فلندرك حجم المشاكل التي تواجهنا يوميا، في مجتمعنا المغربي.

دنيا الشدادي

أعتقد أنني أحسن التعبير فقط من خلال الشعر. بالنسبة لموضوع الحرية، لقد تطرقت إليه في قصيدتي «الفينيق هو امرأة» يبعث هذا الطائر من رماده بعدما عرف الهلاك، ليظهر أكثر جمالا وأكثر قوة. إنها الفكرة التي تقوم القصيدة بتلخيصها.

لمياء برادة بيركة

فيما يخص إشكالية الجسد، الرغبة والشهوة فيمكن للغة أن تكون حسية. كل كتابتكن لا تتشابه، لكن دعونا نبدأ بحضور مفهوم كل من الجسد والشهوة في الرواية. لماريا، غالبا ما نلحظ غياب الأجساد لأنهم ينتمون لعالم الحميمية ويفتقدون للمرونة الكافية عندما يتعلق الأمر بحركات الجسد، بالإضافة إلى خضوعها لقوانين أخرى. وفي «شامبلانكا»، الشخصيات التي وقع عليها اختيارك، صونيا، لديهم تفكير عقلاني، تساؤلات وأحاسيس. نساؤكن عبارة عن لوحات تتتابها مشاعر وأحاسيس، كالغضب من جهة وثقل المعاناة من جهة أخرى. بخصوص مسألة الجسد والحب، نتحدث عن عقود وتوافقات متواصلة في أسلوب ماريا، وعن مثالية بعيدة كل البعد عن الواقع بالنسبة لك صونيا. سندرج أيضا مسألة مميزات السينما التي باتت واضحة من خلال هذا البحث عن الحب. تلك المسألة التي قد يكون التعبير عنها بالكتابة مستحيلا، إلا أنك قمت باستساغتها من خلال تجربتك الوثائقية.

ماريا ڤسوس

إشكاليات الجسد والشهوة هي في الوقت ذاته حاضرة وغائبة في رواياتي، لأن نساء روايتي الأولى تعشن في الحرمان والإحباط، تعشن زواجا فاشلا لأن الزوج غالبا ما يكون غائبا عنهن أو ملتزما الصمت.

لا وجود لمسألة الجسد، ومن تم تحاول هؤلاء النساء الإفلات من قبضة ذلك الوحش الذي يمنعهن من الاعتراف بأجسادهن، الاستمتاع بشهواتهن أو النهوض بوضعهن. الشيء نفسه بالنسبة لإيمان في الرواية الثالثة. ففي ليلة عرسها، يحاول زوجها أن يمتلك جسدها، كما لو كان شيئا قد اشتراه، فيمكن أن يصنع به ما يشاء، مما وضعها في موقف ضعف وخضوع كما لو كانت شيئا جامدا، لاحياة ولا روح فيه. ستوافق بعدها على علاقة حميمية خارج إطار الزواج لكي تستطيع الفرار من تلك الصورة النمطية التي تتصف بها تصرفات بعض الرجال، ليس الكل بالطبع، والتي تكمن في كبح جماح شهوات النساء. بصفتي كاتبة، لم أتمكن بعد من تقديم موضوع «المرأة وجسدها» من خلال كتاباتي. ربما أجهل الكيفية. لم أتعمق قط، وحتى في حالة وصفي للقطات حميمية، أقوم بذلك مع توخي الكثير من الحذر، ملتزمة بقواعد الحشمة والحياء وبعيدا عن الإفصاح بكل التفاصيل. هذا أمر ذاتي، يتعلق بي، بيد أنني أعتقد أن جسد المرأة يجب أن يتم تقديمه على هذا الأساس، وليس بصفته جسدا للرجل. ربما هذا ما يجعلني لم أتمكن بعد من التمييز بين المرأة والجسد في الكتابة : في رأيي، المرأة هي أنثى ينبغي أن يكون جسمها مماثلا لجسم الرجل، علما أنهم يحس كلاهما بالأحاسيس نفسها ولديهم الطموحات ذاتها ، إلا أننا ننظر إلى جسم المرأة بطريقة مختلفة. قد تكون مسألة اجتماعية أو دينية. أظن أن الخروج من هذه الهوة أمر يفرض نفسه اليوم.

صونيا التراب

أود أن أعقب على مسألة أن كزابلانكا جسد بالمقارنة مع شمابلانكا، كما عبرت عنه لمياء. إن ذلك صحيح لحد ما، لأن كزابلانكا امرأة شهوانية، متناقضة ومتوحشة. أعلم أن هذه المدينة لطالما كانت مصدر إلهامي في كتاباتي الأولى، هذه هي الثلاثية التي كنت أرغب في التكلم عنها، أود من خلالها أن أواصل اشتغالي على مدينة الدار البيضاء. هي مدينة لم أكن أحبها قط، كرهتها، نعم كرهتها كثيرا لأنني أنحدر من مكناس حيث تلقيت كل الحماية، بعد فترة انتقلت للعيش لمدة طويلة بباريس.

عندما قررت الاستقرار بالبيضاء، كنت أعاني من الاعتداءات بشكل يومي.

لذا و قبل كل شيء، ارتأيت أن أتصالح مع هذه المدينة ولم أجد أفضل من الكتابة للقيام بذلك. بدأت بالكتابة، شتمتها مستعملة لكل الأوصاف، وازداد كرهي لها شيئا فشيئا. فمهت تدريجيا أن الطريقة الوحيدة التي ستمكنني من التقرب من الدار البيضاء تكمن في قبولها والبحث عن حب أكنه لها، مما جعلني أطرح السؤال التالي للناس : كيف لنا أن ننطق بكلمة «أحبك» ؟ ذلك لأننا في المغرب ليس لدينا كلمة مثل «أحبك»، نقول فقط «كنبغيك» التي تعني «أريدك». فمن البدء، منذ أن قمنا بطرح هذا السؤال، سيطرت علينا أحاسيس من قبيل الشهوة، الاستحواذ أو العنف، إنها مشاعر بعيدة كل البعد عن كل ما هو رومانسي، لطيف أو حساس. إنه عدواني جدا استعمال كلمة «كنبغيك» (أريدك) عوض «أحبك». في آخر المطاف، هذه الكلمة تلخص كل مشاكل المجتمع، المدينة أو الدولة. هذا بالضبط ما جعلني أقوم بذلك. إنها رغبة شكلت لي حلم عشت روعته لمدة ثلاث سنوات ومازالت أعيشه ليومنا هذا.

بعدما غادرت باريس وعدت إلى المغرب، غيرت مهنتي وبدأت أعمل ككاتبة سيناريوهات، اندمجت في ذلك الوسط، قمت بتجارب وبعدها أحسست بكوني محظوظة جدا لإخراجي لفيلم كهذا «شيكسبير البيضاوي». في هذا الفيلم، لا يتعلق الأمر بأخذ الميكروفون والتوجه بالسؤال للناس، لأنني كنت أفكر حقا في فضاء يضم عدة مقابلات في الشارع. لذا، أخذت في البحث عن الشخصيات لأجد مجموعة مسرحية رائعة تدعى بـ «تمثيل البيضاوي». إنهم أبناء أحياء شعبية، أغلبها يتواجد بنواحي البيضاء. يتزعمهم شاب اسمه غسان، كان ذلك بالضبط هو سبب عودته إلى المغرب من الديار الفرنسية، عاد لاحتراف المسرح، لتلقينه، لإيقاظ الشباب وخصوصا لإنقاذهم من الفشل عن طريق هذا الفن. تعرفت على هؤلاء الشباب بعد قضاء ستة أشهر برفقتهم، كنا نزور بعضنا البعض باستمرار. بعد هذه المدة، قلت لهم : «*يدور تساؤلي حول مفهوم الحب في المغرب. كيف تقول أحبك ؟ هل تبدون أي اهتمام بسؤالي ؟ وإن طرحت عليكم سؤالي، ماذا سيكون ردكم ؟* .»

قررنا حينها ترجمة «حلم ليلة صيفية» لشكسبير إلى العربية الدارجة. إنها سابقة من نوعها، إذ أنه سبق وترجمت بعض مقاطع من مسرحيات شكسبير إلى اللغة العربية، لكن لم تترجم مسرحياته بأكملها، التي توصف بالطويلة (فتمثيلها يدوم أكثر من ساعتين ونصف). لقد قاموا بذلك وقدموها، فكانت تجربة قيمة جدا، خصوصا تلك المتعلقة بالترجمة واستيعاب القيم الكونية التي عاشها شكسبير والذي حاول تمريرها عبر أدبه. بعد ذلك، توجهوا للمارة بالسؤال التالي : «*نحن أعضاء مجموعة مسرحية، نقوم بترجمة شكسبير، كيف نقول أحبك بالدارجة ؟*». فكانت نتيجة ذلك العمل إخراج فيلم ممتع وإيجابي، خصوصا في تطرقه للشباب، نظرا لأن كل رواياتي السابقة تنتمي لجنس الأدب الأسود، أدب قاس وغير متصالح مع المعوزين من الشباب المغربي. لأنني في هذه الحالة، وجدت نفسي أمام نوع آخر من الشباب ؛ شباب الأحياء الشعبية، شباب مفعم بالأمل، الإرادة والسعادة، شباب صالحني مع نفسي ومع الدار البيضاء. كانت سنة رائعة تلك التي عشتها برفقتهم من دون شك. عن طريقهم، قمت بإخراج فيلم آخر يعبر عن قصة حب تجاه البيضاء، قصة لم أعد أراها اليوم بنفس الشكل. أعتقد أنني راكمت تجربة كبيرة بالمقارنة مع روايتي الأولى وهذا الفيلم الذي يسدل الستار على ثلاثية البيضاء.

أتمنى أن أستمر في الاشتغال على الشباب وثقافتهم، فهذا هدفي. في المغرب، يجب أن نهتم بهؤلاء الناس، ليس فقط بأبناء الأحياء الشعبية، بل حتى بالباقي من الشباب. أينما ذهبت كنت أسمع: «*هل أنت مجنونة ؟ ستصورين في الدارالبيضاء ؟ ستتعرضين للاعتداء، ماذا ستفعلين حينذاك ؟*». لكن الأمر لم يكن كذلك، الكل بدى سعيدا. المغاربة متشوقون للتعبير عن رأيهم، هذا فقط ما يريدون. أحسست أنني نجحت في خوض غمار تلك التجربة التي غيرتني كليا.

إنه بالضبط ما جعلني أغير وجهتي كليا لأختار الفيلم الوثائقي. لأننا في المغرب نحتاج اليوم إلى الوثائقي، إلى أفلام واقعية ومنخفضة التكلفة. نحتاج إلى الحديث مع المغاربة عن قصصهم وعن واقعهم المعيش. بث فيلمي على الشاشة الصغيرة وشاهده أكثر من مليوني متفرج. لقد حان دور المهرجانات الآن، وستغمرني السعادة إذا حققت ذلك. كم أرغب في تصوير أفلام وبرامج وثائقية مثل هذه.

لمياء برادة بيركة

هذا ما نتمناه لك. أختتم بإشكالية اللغة، فعندما تتحدثين ماريا في كتاباتك عن حرية التعبير، عن القوة التي نستمدها منها، ينتابنا انطباع بأن الكتابة لا تعتريها صعوبات. في الواقع، نحس بوجود عدة أشياء مخفية لا تقل أهمية عن غيرها. في الوقت نفسه تتسم فيه الكتابة السلسة بكونها كتابة تستمر في تفاديها للتناقضات، مثل الكتابة لأجل محاربة العنف والظلم. في حالتك صونيا، وبما أنك تتكلمين عن السينما، نشعر بأننا نتعامل مع كتابة تفيد الفنون المرئية. وتجربتك الأولى مع «شمابلانكا» خير دليل على ذلك.

يتعلق الأمر هنا بمقاربتين مختلفتين جدا، وهو بالضبط ما مكننا من فهم من هي دنيا الشدادي وما هو أسلوبها. التعبير عن الشهوة بكلمة واحدة، الإفصاح عن طريقة البحث عن الكلمات...

ماريا ڤسوس

أتتبع طريقة سهلة في الكتابة. أحاول أن أكون صادقة، بحيث لا أقوم بتزييف كل ما أرى وأسمع أو أريد قوله، مما يجعلني أقوم ببحث معمق جدا في اللغة. إذن، فالفكرة سهلة. أفكر كذلك في مسألة الأسلوب الذي يشبه التشريح لحد ما، أو ما يغطي جسد الجنس الأدبي. لكل أسلوبه الخاص به، وكما قال فلوبير : «*ينبع شكل النص من الداخل كما تنبع الحرارة من النار*». هذا ما يجعلنا في بعض الأحيان نكتب بالأسلوب الذي تفرضه كتابتنا، لأن اختيار اللغة يعتمد أساسا على نوعية الكتابة. إذ اخترت مثلا أن أكتب عن النساء العصريات، ينبغي أن يكون أسلوبي أسلوبا سهلا وسلسا.

صونيا التراب

لحد الآن، كانت كتاباتي دائما غريزية. لقد اجتهدت كثيرا في بناء أسلوبي لكي يصبح أسلوبا أدبيا. لا أعلم إذا كان هذا أمرا جيدا، إلا أنني أجيد أكثر الكتابة السينماتوغرافية، بحيث أن تصوير هذا الوثائقي يشبه صنع فيلم دام تصويره حوالي ثلاثة أشهر. كانت بمثابة تجربة جعلتني أحس بالإبداع وأبتعد عن الانعزال... كان هناك الكثير من التبادل وكتابة أبيات شعرية خيالية انطلاقا من وقائع. ثم عندما تكون المادة الخام بين يديك تجعلك تكسب الحرية وتزداد عطاء.

لمياء برادة بيركة

دنيا، أريد منك أن تشاركي معنا حقيقة مشاعرك التي تميل أكثر إلى الاستمرار في كتابة أدب نسائي مميز وتمجد فيه الشخصيات من النساء. وبالرغم من كونهن حساسات في بعض الأحيان، غير أنهن قويات لأنهن حاضرات بقوة في كل مراحل التغيير الذي يعرفه المجتمع.

دنيا الشدادي

تمكننا اللغة العربية من التعبير بسلاسة اعتمادا على أسلوب شامل. وربما يلخص الشعر كل ما يتعلق بمسألتي الجسد والشهوة. فأنا أكتب كما تكتبن النساء الأخريات، أو على الأقل أغلبهن، تلك المبدعات، كل حسب منواله. أظن أن كل ما سبق وقلته هو ملخص في أحد نصوصي المعنونة بـ «المازوسشية».

لمياء برادة بيركة

شكرا جزيلا. سنأخذ الآن بعض الأسئلة.

مداخلة

أريد أن أبدأ كلامي هذا بما ذكرته الشاعرة دنيا الشدادي قبل لحظات. في الحقيقة، عبرت كل من هاتين الكاتبتين اللتان تكتبان بالفرنسية عن رأيهن بعيدا عن المنظور الأدبي، إلا أنك أنت تحدث أساسا انطلاقا من الخطاب الأدبي الشعري. أما فيما يتعلق بالأدب وبمقارنته مع الأدب، نشهد انتشار مجموعة من الأفكار في الأوساط الأدبية. نلاحظ ذلك من خلال أساليب أخرى، ككتابات النعيمي، هبة هارز و هدى بركات.
هناك من يقول أنه عندما يكون التعبير باللغة الفرنسية سلسا، يصبح ركيكا عند ترجمته للعربية، بيد أن الأدباء العرب سينفون ذلك بلا شك وسيؤكدون للجميع كيف يمكنهم التعبير عن الجسد والجنس بعمق وبأسلوب رائع لا تشوبه شائبة.

يتوجب علينا تفادي كل هذه الادعاءات التي هي في وجهة نظري، نتيجة صراعات محتدمة بين اللغات الأوروبية وترجمتها للغة العربية. عندما أقرأ نصوصا عربية لنساء كاتبات، أحس بأنهن أكثر جرأة من غيرهن من الكاتبات الفرنسيات. أريد أن أوضح شيئا ما يتعلق ب صونيا التراب. إن رواية صونيا «لم تحدث الثورة» قد تشبه البيان، لكنها ليست ببيان لأن الثورة لم تحدث أبدا. إنه فعلا نص رائع حول العلاقة التي تربطنا بالثورة، لكن أيضا حول علاقة الرجل بالمرأة في بلدنا المغرب. في الواقع، النساء متحررات أكثر من الرجال، عكس ما نقول تماما، ذلك لكونهن جريئات أكثر من الرجال الذين مازال أغلبهم حبيس تصرفاته، بالإضافة إلى وجود مفارقة غريبة في ما تظهره لنا المرأة.
ينتابنا انطباع أنها متحررة من وجهة نظر عصرية، إلا أنها مهووسة بالكتابة عن الجسد وعن شهوة الجسد. لا وجود لتناقض بالضرورة بين التشبث بالتقاليد والتطلع إلى كل ما هو عصري. مشكلتنا في المغرب هي أننا نفكر باستمرار في ثنائية التقليدي والعصري، إلا أنه سيكون بالأمر الجيد إذا فكرنا في مسألة الازدواجية الجماعية، بحيث أن المغربي ليس هو الغربي ولا حتى المرأة أو الرجل التقليدي، بل إنه مزيج من الاثنين. سأعطي مثالا بديهيا يعرفه كل عالم اجتماع، وهو تحركات جسد الإنسان المغربي في منزله التي تختلف من مكان لآخر باختلاف الأوضاع والظروف.
هذا ما نجده في كتابات الرجال والنساء في آن واحد. المفارقة الدائمة الوحيدة التي قد نلاحظها تخص عدم الوعي بالفرق بين الرغبة في تحقيق الذات وسلامة الجسم. أدعوكم للتفكير مليا في ذلك.

لمياء برادة بيركة

شكرا. أعتقد أنها لم تكن حقا إشكالية الجسد.

عبد الرحيم فايق

أود العودة إلى تناول هذه المسألة. كنت ترسمين لوحة جميلة عن واقع المرأة المغربية، إلا أنه في الحقيقة... ذكرت مسألة الطبقات الاجتماعية، طبقة ميسورة وطبقة محرومة اجتماعيا. أعتقد أن كلتا الطبقتين تفتقران للحرية الحقيقية. لا أتحدث عن تحرير المرأة وإنما عن الحرية التي يجب أن تكسبها في بلد محافظ كهذا.
أعطيك مثالا ملموسا، فمثلا الحق في الدراسة، في الذهاب إلى المدرسة، إلخ.
أتعرفين عدد الأطفال الذين لا يدرسون، خصوصا في البوادي ؟ أكثر من 81%، و67% من النساء أميات في جميع أنحاء المغرب. فلنتحدث الآن عن العنف ضد النساء، عنف يؤدي بالبلد برمته إلى فشل ذريع. ثلثي النساء يتعرضن لسوء المعاملة، العنف أو حتى الاغتصاب. أتعلمين كم حالة اغتصاب تحدث يوميا في المغرب ؟ وفقا لتحقيقات تم القيام بها في هذا الإطار، حوالي 900 حالة تقع بشكل يومي. بالنسبة للإجهاض السري، حوالي 800 حالة يوميا...
أهذه هي حرية المرأة في التقرير في الأمور المتعلقة بجسدها؟ مازالت اللائحة طويلة، إلا أنني سأكتفي بالتطرق لموضوع الإرث. إعطاء ثلثي التركة للرجل وثلث واحد للمرأة، هل هذه حرية ؟ لا أظن ذلك. سأعود للكتابة. لم أقرأ بعد كتبك، أنا آسف، لكني أعدك بفعل ذلك. قرأت العديد من قصائد دنيا، وأعتقد أنها من خلال كتاباتها، تحاول المضي قدما بوضعية المرأة، وربما تحاول جعلها قوة موجهة، محركا كفيلا بتحقيق ازدهارنا. كما قال الشاعر: «المرأة هي مستقبل الرجل».

لمياء برادة بيركة

أتوجه لك بالشكر، خصوصا لمعطياتك السوسيولوجية. في الواقع، يجب الانطلاق من الواقع المعاش من الحياة. فعوض رسم لوحة مثالية عن النساء في المغرب، من الأفضل الاعتماد على الشهادات من خلال ما يكتبن. هل من أسئلة ؟

إلهام صنابي

أهلا. أنا باحثة في الأدب العربي بكلية وجدة. أتساءل انطلاقا من بعض الإشكاليات المطروحة هنا : متى سوف نتمكن من التحرر من صيغ من قبيل «كتابات نسائية» عند تحدثنا عن الكتابة ؟ إلى متى سنستعمل هذا التعبير كلما تحدثنا عن المرأة ؟ لماذا لا نقوم بنفس الشيء عندما يتعلق الأمر بالرجل ؟

للعودة إلى دراسة شعر دنيا الشدادي الذي تناولته بالبحث والدراسة، سواء تعلق الأمر بديوانها الأول أو بالثاني المعنون بـ «تتقدم خطواتي لكني لا أتقدم»، ألاحظ، ومن خلال الموضوع المطروح هنا، أن الشاعرة لم تستعمل قط ألفاظا مبتذلة في وصفها للجنس، بل هي قامت بالحديث عن كل ما هو حساس، إنساني وتواصلي، أكثر منه جنسي.

خلافا لذلك، وفي رجوعنا إلى الشعر العباسي، يلفت انتباهنا أن أدب الجواري بلغ التحرر فيه إلى أوجه، عند وصفه لأعضاء الجسم والفعل الجنسي. بأي طريقة ينبغي أن نتحدث بها عن الجنس ؟ في اللغة العربية، يذكر القرآن الجنس باستعمال تعابير مقتضبة. يبقى دور المتلقي في استقبال الرسالة وفهمها دورا أساسيا. ليس من الضروري أن أفسر، إذ أن اللغة العربية لغة اختصار. مما يجعلني أتساءل دائما : متى سنقوم نحن النساء من التخلص من مصطلح «نسائي» لحظة التكلم عن الأدب الذي نصنع.

مداخلة

هناك نقطة لا أراها البتة منطقية : لا يجب التفكير فقط في الأدب والفن بصورة مستقلة عن مجمل مكوناتهم. تركيز الخطاب على الجسد والتحرر هو بالنسبة لي هوس. في آخر المطاف، يمكن اعتبار مسألة الفن والأدب بالفضيلة، إذ لا أحد يفكر في التحرر أو الانغلاق منذ البداية.

إذا، بصفتي فنانا وأديبا، وبما أن الأمر يتعلق بإنتاج فردي، فلا وجود لأية حدود إيديولوجية. غالبا ما نتحدث عن «الكتابة النسائية» بخصوص مواضيع متعلقة بجسد المرأة، يبقى هذا كذلك أمر فردي، أي أنه يتعلق فقط بصاحبه. هذه ميزة لا يجب أن يفقدها. في آخر المطاف، الكاتب كائن بشري.

فاطمة بلاوي

بحسب رأيي، تعتبر مسألة الحرية في الكتابة مسألة شخصية، لأن الكتابة فعل وموقف. يمكن للكاتب أن يجعل من الحرية موضوعا هاما في كتاباته، إلا أن المطالبة بها لها نطاقها الخاص بها، مما يتدخل في ذلك كل من المجالات الاجتماعية والسياسية. إلا أنه في الأدب، تعتبر الحرية جنسا يتمحور حول تساؤلات المجتمع والآخر، تساؤلات يحاول الأدب الإجابة عنها. لذا، فإشكالية الحرية وكذا إشكالية الكتابة النسائية شكلا خطوات هامة بالنسبة لأساليب الكتابة عموما. في مجتمعنا، تعاني المرأة لأنها امرأة، ولكن أيضا كعنصر اجتماعي، مما يجعلنا نقول بأنه من قبل، كان للكتابة النسائية دورا مهما، لقد عشنا أوج ذلك مع التجربة الرائعة لفاطمة المرنيسي وكاتبات كان عطاؤهن كبيرا في هذا المجال. بعد ذلك، تتبعن نفس المسار نساء أخريات. هذه كلها مكتسبات يجب تطويرها، عوض أن نطلب من المرأة أن تكتب بطريقة مغايرة عما تلقته.

دنيا الشدادي

شكرا على الأسئلة والمداخلات. أجيب على السؤال أولاً : كيف يمكنني التعبير عن نفسي باللغة العربية ؟ سبق أن قلت أن اللغة العربية تسمح لنا بالتعبير كثيراً عن عناصر الوجود والبوح بمشاعرنا بطرق مختلفة. فمثلاً فقط كلمة «حب» لها عشرات المرادفات باللغة العربية ويمكننا استخدامها حسب المعنى. ربما أعتبر نفسي محظوظة لأنني أكتب باللغة العربية ويمكنني التعبير عن نفسي من خلالها حول مواضيع الجسد والرغبة. أستطيع التعبير عن نفسي دون تفاهة أو ابتذال. قلت ذلك خلال مداخلتي، وربما تمكنت من التعبير عن نفسي بهذه اللغة.

بخصوص عبارة «الكتابة النسائية»، نتساءل متى يمكننا تحرير أنفسنا منها. أنا لدي موقف مختلف، لأنني لا أرى أي مشكلة في هذه التسمية. ومن المعروف فالرجل هو من بدء المعركة أولاً وكتب الكثير، في وقت كانت فيه النساء تكتفي بالقصة والتغني بالشعر.
لما ظهر التصنيف الأدبي النسوي في الكتابة، فقد كان من الطبيعي أن نجد هذا التعبير «كتابات نسائية»، مادام أنه ليس نعتا يختزل أو يهمش المرأة .تختلف الكتابة النسائية اختلافًا كبيرًا عن الكتابة الرجالية، وليس الذكورية، لأن المرأة لها جسد ومشاعر مختلفة، وهي مختلفة كذلك من حيث طبيعتها. للمرأة حياة مختلفة وتفكير مختلف، لذلك بطبيعة الحال، فالكتابة النسائية تختلف عن الكتابة الرجالية. هذه هي وجهة نظري الشخصية.

ماريا ڤسوس

أنا سعيدة جدًا لتواجدي هنا رفقتكم. أشكر المنظمين ولمياء التي أدارت هذه النقاش الثري للغاية. أعود إلى الجانب الاجتماعي. أعتقد أنه هناك العديد من القضايا التي لم تُعْرض فعليًا في مجتمعنا، ولم تُعَالج كما ينبغي، ولهذا السبب دائمًا ما نواجه المشكلات نفسها على جميع المستويات ؛ أنا أتحدث هنا عن العنف المدرسي والعنف ضد المرأة.
بخصوص كل هذه المواضيع، فعلى المستوى الأدبي هناك الكثير يجب القيام به ولكن أيضا على مستوى الجمعوي. بعض الجمعيات غنية جدا، ترعاها الشركات المتعددة الجنسيات والبنوك، وتتلقى دعما ماليا كبيرا تصرف جزءًا منه في شراء، على سبيل المثال، الحقائب المدرسية، الأحذية، المكاتب، وكذلك من أجل مساعدة الأسر المعوزة خلال فترة الدخول المدرسي، ولكن هذا لا يكفي أبدا. ينبغي دعم الجمعيات، ومنحها المزيد لأننا، للأسف، نميل فقط إلى إقراض الأثرياء والمال يبقى مع الأغنياء. هذا يخلق العديد من الهُوَى بين الفقراء والأغنياء والمثقف والأمي. فيما يخص العنف لا يزال هناك الكثير مما يتعين القيام به.

صونيا التراب

شكراً للجميع وشكرا لمياء ودنيا وماريا. لقد بدأت بالقول إنني لم أحب هذا العنوان «كتابات نسوية «لأنني أعتبر نفسي قبل كل شيء شخصًا ولديّ الكثير من المشاكل الجدية قبل أن أكون امرأة مغربية أصيلة وعربية ومسلمة.
ما أريد أن أقوله لكم هو أنه في رأيي الشخصي ـ لن يتفق الجميع ـ أعتقد أنه لا يجب أن ألزم نفسي. أنا لا أقوم بالفن بغية تغيير الأشياء. أنا لست مناضلة نسوية، أرى الأمور هكذا. أشتغل على الفن لأنني بحاجة إليه، بحاجة إلى التعبير عن نفسي وترك بصمة وإلى القيام بذلك على طريقتي الخاصة ربما قد تكون هذه نرجسية وأنانية ـ لا أعرف ما هي ـ لكن فأنا لا أقوم بالفن الملتزم. عندما تجتاحني فكرة الالتزام من أجل قضايا نسوية أو غيرها، أفعل ذلك بشكل مختلف، كما قالت ماريا، من خلال الجمعيات ولكن أيضا اليوم عبر العالم الرقمي، وهو فضاء رائع يسمح بتسهيل الأشياء وتمرير رسائل قوية جدا مثل الفن. كان من المهم للغاية بالنسبة لي أن أقدم هذا التوضيح وآمل أن يوافقني الرأي البعض منكم.

وساطة أدب الشباب :
تنشيط القراءة - قراءة المتعة - الحكاية - الاستغلال الديداكتيكي

رئيسة الجلسة : أمينة الهاشمي العلوي

المشاركون : روزالبا باليرميتي (فرنسا)، إيفلين ريشار (فرنسا)

فضاء : ليوبولد سيدار سينغور

التاريخ : يوم السبت 23 شتنبر 2017

الساعة : 11 : 15 - 12 : 45

موجز مداخلات المائدة المستديرة

لقد قدمت العروض التي قامت بها كل من إيفلين ريشار وروزالبا باليرميتي بمسرح محمد السادس الكبير أثناء المعرض المغاربي للكتاب المقام بوجدة، إيضاحات و تفاصيل بخصوص موضوع حلقة النقاش هذه، بما في ذلك الطرق المناسبة لقراءة جيدة بالنسبة للأطفال - خصوصا في الإطار المدرسي - فضلا عن الفوائد التي يمكن توقعها للتعليم.
وقد عبرت روزالبا باليرميتي بشكل عفوي عن نظرتها للموضوع، مشيرة إلى أن القراءة هي عبارة عن متعة لأن الكتاب يحمل الطفل أو الشاب إلى العديد من الأماكن التي لم يكن من المكن الوصول إليها من قبل. يجعل الكاتب قارئه يخترق خياله، ويروي له أشياء رائعة، ويعرض رأيه في موضوع معين، ويخبره عن ذكرياته وطفولته.

غالباً ما يعبر المؤلف عن رؤيته للواقع من خلال قصة تنقل هذا الشاب أو الطفل إلى بيئة ممتعة مستوحاة من الواقع والخيال معا. شرعت السيدة باليرميتي في قراءة سلسلة من القصص لإظهار الأهمية الجمالية وأهمية القراءة خاصة بين الشباب والأطفال.

ومن جهتها، قالت الكاتبة الفرنسية إيفلين ريشار إن وساطة أدب الشباب المخصصة لتلاميذ المدارس هي نوع خاص للغاية بسبب أهدافه التربوية وكذلك الرواية، التي تجعل الطفل يقدّر قراءة القصص ذات الطابع الفكري.

وقدمت السيدة ريشار بهذه المناسبة عرضها للزوار والمشاركين في حلقة النقاش بطريقة موضحة للغاية، كما شرعت في قراءة مجموعة من النصوص الموجهة للأطفال والتي تحتوي على ترجمة من الفرنسية إلى العربية.

تمت مناقشة دور تدريب المعلمين في الاستخدام الأمثل لأدب الشباب، كما تم إبراز ظروف التنفيذ التي تمكن القراءة من لعب دورها في بناء الفكر واللغة مع تلقين القيم الأخلاقية والمجتمعية إلى الأطفال.

أدارت أمينة الهاشمي العلوي حلقة النقاش، بحضور مجموعة من المشاركين والمثقفين الذين أغنوا النقاشات بتدخلات ذات جودة عالية.

أمينة الهاشمي العلوي

مرحبا بكم في حلقة النقاش هذه التي يمكن تلخيص موضوعها في السؤال التالي: كيف تحكي قصة للأطفال ؟ ينطلق موضوع اللقاء من فكرة أن الأطفال لا يقرءون. وهي فكرة مغلوطة. سنرى ما يجب عمله مع طفل يحاول القراءة. ولهذا اخترت شخصين سيجعلاننا نكتشف مهنتهما. لدينا أولا، روزالبا باليرميتي، المختصة في الوساطة والقراءة داخل حجرة الدرس في الإطار المدرسي. وهي مدرسة ومكونة، في إطار جمعي، فيما يخص أدب الشباب. ثم لدينا إيفلين ريشارد، ذات الخمسة والثلاثين سنة من الخبرة في مجال وساطة أدب الشباب في فرنسا. سنقوم بتوفير كتب للأطفال ونعطيهم حرية القراءة. فلا يمكن للطفل لوحده أن يقوم بتأليف كتب إلا إذا قمنا بالإشراف عليه. إذا سوف نبدأ بوساطة الأدب ثم ننتقل بعد ذلك للوساطة داخل المدارس.

روزالبا باليرميتي

سأحكي لكم قصة تحمل عنوان «الحمار الوحشي هو حمار وحشي». إنها عبارة عن قصة مصورة من خمس وثلاثين صفحة موجهة للأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ثلاث و خمس سنوات، نشرتها ينبوع الكتاب سنة 2012 :

«*هل أنا حمار وحشي لأن لي خطوطا بيضاء و سوداء أم أن لي خطوطا بيضاء و سوداء لأني حمار وحشي ؟*»
«*هل لي وبر أسود بخطوط بيضاء أم لي وبر أبيض بخطوط سوداء ؟*»، قاموا بسؤاله : «*أأنت مريض ؟*»
«*لا، لست مريضا. أنا أفكر*».
«*يتعلم الحمار الوحشي الصغير الحياة عن طريق طرح أسئلة كبيرة*».
«*في وقت من الأوقات، كان هناك حمار وحشي يشبه الغزالة ؛ إنه يشبه بقية الحمير الوحشية، إلا أنه لا يزال صغيرا. إنه غيور ويتقن بعض الأمور إلا أن أمامه الكثير لتعلمه...*»

كل ما أفعله الآن هو قراءة في إطار عائلي. أما فيما يخص تدريب الأساتذة في الأدب والتوثيق فيما يتعلق بالشباب، كانت الفكرة هي إتاحة الفرصة للطلبة في دراسة سنة ثالثة والتخصص في التوثيق بالنسبة للشباب و كذلك في أدب الشباب. وقد عرف تدريب الأساتذة فترة جيدة إلى حد ما بين سنتي 2005 و2009.

لا يشمل اختصاصي على معلمي المدارس، إلا أنه في عام 2005 كان هناك إصلاحا أدخل أدب الشباب إلى المدرسة. من أجل اجتياز مباراة توظيف معلمي المدارس، أصبح من الضروري أن يكون لديك 60 ساعة على الأقل من التدريب في أدب الشباب. لقد طرق أدب الشباب أبواب الجامعة أيضا. لم يتم التطرق لكل الجوانب بعد : فلا يزال يتعين بناء الجانب العلمي المتعلق بأدب الشباب، هذا يعني أنه ليس هنالك محاضرين في أدب الشباب، إلا أن بعض الأدبيين، يولون اهتماما بأدب الشباب ؛ ولكن للأسف، تبقى المجالات التأديبية محدودة. أدب الشباب هو وسيلة رائعة، فيمكنه أن يكون مؤلفا فنيا وهو موضوع ثقافة. كما أنه يمكن للطفل من إيجاد الكتاب الذي يهمه ويمكن كل كتاب من إيجاد قارئه: وهذا ما يهم.

أدب الشباب متنوع للغاية : حيث يمكن إيجاد جميع أنواع وأشكال الثقافات. أعرف أن أدب الشباب في المغرب يتميز بالكثير من الروايات والقصص. في فرنسا، يتميز هذا الأدب بأن له علاقة بكافة الكتب، وكل الأصناف وكل أنواع القراءة. يمكننا القول أن أدب الشباب يتجلى في كل الكتب غير الموجهة للبالغين، ولكن هل هذا كاف ؟ فعلى سبيل المثال، إذا أخذنا كتابا يتحدث عن مدينة الدار البيضاء. أنا لا أعتقد أن الأطفال سيهتمون به. لكن إذا أخذنا رواية «ليلى والذئب»، فكل الأطفال مهتمون بها. إذا يمكننا القول أن أدب الشباب هو ذلك الأدب الموجه للأطفال. ولكن ماذا عن الذي لم يعد طفلا ؟ أولا وقبل كل شيء، بالنسبة لأي سن يمكننا التحدث عن أدب الشباب ؟ هل يعتبر الرضيع طفلا ؟ هل يمكننا أن نتحدث عن القراء الرضع ؟ في فرنسا، بدأنا نتحدث عن أدب الشباب عندما بدأنا باعتبار الطفل شخصا ؛ وهذا في الحقيقة اعتراف حق بالطفل وحقوقه. لقد قام المغرب بالتوقيع على اتفاقية حقوق الطفل. إذا ومن منظور رسمي، ماذا يمكننا القول عن أدب الشباب ؟

على سبيل المثال، في هذا النوع من الأدبيات، لا يستطيع المرء ترويج العنف أو العنصرية. سأريكم كتاباً أحبه يحمل عنوان «الذئب الأسود». حيث يكون الطفل الصغير في الغابة ومن الواضح أنه سيقابل ذئبًا. ما يختص به هذا الكتاب هو استخدام الأسود والأبيض. سيخيفه الخطر وسنعتقد نحن القراء أن الذئب سيأكله، لكن في الواقع سوف ينقذه الذئب من شجرة كادت أن تسقط عليه. هذه قصة أحبها. إنه عمل عالي الجودة. يحاول أدب الشباب أن يتطور بمساعدة أحد الناشرين : ديزني، الذي يطلق على «الرواية» اسم «الأدب المربي». لقد فهمتم على الفور ما أعنيه بـ «الأدب المربي» هو أدب لا يوجد به سوى المشاعر الجيدة والقيم المؤكدة وفكرة أنه لا يمكنك الكذب ولا يمكنك أن تغار، بل عليك أن تكون لطيفا... وهذا ما نسميه «الأدب المربي». من ناحية أخرى، في فرنسا، تم تطوير أدب الشباب بصور قوية وصور تبعث على التفكير. ففي فرنسا، لا نخشى التحدث عن المدرسة أو الطاعة أو الغيرة أو حتى الموت أو العنف عند الأطفال والبالغين... يمكنك إيجاد كل هذه الأشياء، ولكن ستجد أيضاً الصداقة والحب والسعادة: و هذا يعتبر خصوصية من خصوصيات الأدب الفرنسي، لأنه في الآداب الأنجلوسكسونية، نجد دائماً صورة إيجابية؛ صورة طفل سعيد وعائلة سعيدة.

في فرنسا، يعتبر أدب الشباب تراثا، وموضوعا للدراسات الجامعية في أقسام الأدب المقارن : فهناك باحثون يعملون عليه. لقد فهمت أنه في المغرب أيضا يعملون على الأدب المغاربي بجامعات الدار البيضاء والرباط وفاس. خلال تسعينات القرن الماضي، أردنا تدريب وسطاء. لقد احتيج لقصة من الأدب، فمن سيحدد إذا كان كتاب ما جيدا أم لا، أو مثيرا للاهتمام أم لا ؟ لذا، كان من الضروري وجود وسطاء لأدب الشباب يكونون أساتذة ومدرسين ذوي معرفة بالأدب المغاربي. الأن، أريد التحدث عن الوساطة وما هو وسيط كتاب ما. التعريف ليس محددًا للكتاب.

إنها وسيلة للتوصل إلى اتفاق، لتسوية الصراعات عن طريق حل سلمي، وتدخل طرف ثالث. وسيط الكتاب هو الشخص الذي يفضل أن يكون اجتماعه محددا بدقة، ومنظما للغاية أو أن يكون طارئا. الوساطة ليست هي التنشيط، الذي يعتبر طريقة من طرق الوساطة. سأعرض عليكم قصيدة لمصطفى حومر بعنوان «كان يا مكان». يجب علينا خلق تقريب. ترى أطفالاً صغيرين مرتبطين بالكتب، وهذا في الواقع طريقة لمحاربة عدم المساواة.

يتم عقد هذا الاجتماع في فرنسا بفضل الشراكات التي تم التوصل إليها، على سبيل المثال، من قبل المساعدين الحاضنين، وهناك بالطبع سياسات من شأنها أن تفضل ذلك. هناك أيضًا أعمال تجرى في بعض المناطق، حيث يتلقى كل مولود جديد عند الولادة كتابًا في جناح التوليد. هذه هي العمليات التي تجريها المجالس الإقليمية. الفكرة تجعل من الممكن دعم الابتكار والرسامين والمؤلفين أيضا، لأنه في كل عام، يتم توزيع كتاب جديد. «إنه صغير ويمثل المدينة كلها» هو عنوان أحد مؤلفاته.
اننا نمارس القراءة التعليمية. فحتى ستينيات و سبعينيات القرن الماضي، تعمل المدرسة على التكوين، الا أن هذا الأمر لم يعد صالحا في عصرنا هذا. فهناك سياق جديد، حيث عليك قراءة الكتب الجيدة. في التدريبات، قيل لي: «ما هو كتاب جيد ؟» الكتاب الجيد يتوافق مع التعليم، ومكانة الطفل في المجتمع، وكذلك مهارات القراءة لديه. لذا، يمكننا القول إن الكتاب جيد عندما يكون مفيدًا للجميع: وهذا موقف متفق عليه في فرنسا اليوم بشكل واسع فيما يخص المؤلفات الموجهة للأطفال والشباب، والمصادق عليها من قبل التربية الوطنية. إن هذا ما يضمن تعلم المفردات. لا يحب الأطفال القراءة، لذا فالمفروض إعطاءهم كتبا جيدة للقراءة. لا يجب إعطاءهم سوى الأشياء غير القابلة للقراءة، ولكن لا يجب أن يفهموا كل شيء ليبقى لهم المجال للتخيل والاكتشاف...
من أجل التحدث عن اللقاء مع اللغة، تحدثت عن اللقاء مع الكتب ومع النصوص. في سنة 2002، دخل أدب الشباب إلى المدارس، لأن المدارس قررت اعتماد أدب الشباب داخل الفصل، إضافة إلى شيء مهم للغاية : الثقافة الأدبية. أنا مهتمة أيضًا بسلوك القراء: السماح للأطفال ببناء الجسور بين الكتب، مثل البالغين. تكمن الفكرة في تكوين شبكة بين الكتب وبناء ثقافة مشتركة، ثم ترك أثر ما قرؤوه في المدرسة من رسومات ومواد...
لدينا كتاب «من يقرأ صغيرا» :

من يقرأ صغيرا، سيكبر شاعرا........................ من يقرأ صغيرا، سيصير قويا
من يقرأ صغيرا، سينفتح على العالم................... من يقرأ صغيرا، سيتحصل على العالم
من يقرأ صغيرا، سيستريح كبيرا...................... من يقرأ صغيرا، سيحلم كثيرا
من يقرأ صغيرا، سيختار حسنا........................ من يقرأ صغيرا، سيرحل عنا كبيرا

هناك أليات كلاسيكية - أشياء مثل الاستقبال- و آليات مبتكرة تعزز اللقاء.
آخر نقطة مهمة للغاية، وهي أن هناك شيئا واحدا أود أن أتجنبه في الوساطة هو التأثير السلبي للتدريب على التنشيط، أي نهج المستهلك. نحن نستخدم القراءة، ونقوم بأنشطة : ما المعاني التي يمكن أن نعطيها لهذا إن لم تكن ربط الكتب ببعضها البعض، وربط المؤلفين ببعضهم البعض، وبناء جسور بين الكتب ؟
يجب أن نعطي معنى لما نفعله.

إيفلين ريشار

كما قالت أمينة، لقد كنت مدرسًة لفترة طويلة جدًا، ثم مدربة. ثم عملت لدى الأكاديميات المغربية لتدريب معلمات الأطفال الصغار الشابات. وهكذا تعرفنا على بعضنا البعض. سيكون حديثي مرتبطا بالمجال التعليمي فقط : يمكننا الحصول على كتاب جميل، ولكن ما النفع منه إن لم تكن القراءة ممكنة. أنا أتحدث هنا عن القراءة الدقيقة، وليس القراءة السطحية : القراءة المتعمقة، وإلا فإنها عديمة الفائدة. وبالتالي، سأتحدث عن المجال التعليمي. وسأركز في بادئ الأمر على الفهم الأدبي لرياض الأطفال، وعلى الإجراءات المهنية التي يجب أن تطور من أجل أن يتقبل الطفل هذه الكتابة، وعلى أساليب العمل على الكتاب، ومن جهة أخرى، سأقترح أدوات من أجل تعلم وفهم النصوص السردية على مستوى المدرسة الابتدائية والمهارات المتضمنة، وكذلك الأدوات التي يجب استعمالها من أجل تشغيلها. أنا باحثة، لذا علي إعطاء مصادري، التي ساهمت في عرضي هذا حول تعليم الأطفال، والتدخل الأدبي، والمكتسبات المعتمدة، وغيرها.

فلماذا قراءة القصص والروايات للأطفال الذين لا يستطيعون القراءة ؟ قد يتساءل البعض : ما هو دور القصص ؟ عندما يكون المرء قارئًا، فهو يتعلم الثقافة : الثقافة المغاربية، الثقافة الفرنسية، أو غيرها. إن لنا شيئا مشتركا. غالباً ما يكون للكتب دور أيضاً، كما قالت روزالبا في إشارة إلى أدب الكتب «المربية»، لكنه دور أخلاقي كما هو الحال بالنسبة للقصص الخرافية خاصة حكايات غريم الخيالية. إن الجانب الأخلاقي الذي يمكن استخراجه من القصة هي أن المرء يكبر وتساعده هذه القصة على النمو. معظم الوقت في هذه الحكايات، الشخص النبيل، والشجاع، والسخي، يعيش مغامرات تجعله أقوى و تكسبه حياة أفضل. يجد الطفل نفسه منغمسا في هذا الموقف ويقول : «نعم، أنا أيضا...». لما الروايات إذا ؟ من أجل فهم القصص الأكثر طولا و الأكثر تعقيدا. ويمكننا أن نشتق من الكلمة «فهم» كلمة «أخذ». ومن أجل الأخذ، على المرء إن يتواجد «بمنطقة النمو الوسطي». يتم تعريف هذه المنطقة في الإطار النظري على أنه يجب أن يقدم للطفل شيء يستطيع اكتسابه.

والسبب هو أن لديه الحد الأدنى من المعرفة التي يمكنه أن يتصل بها للتقدم. من الواضح، لكي يكون في «منطقة النمو الوسطي»، لا يجب أن يقترح على صبي صغير يبلغ من العمر أربع سنوات عملا بعيدا جدا عن هذه المنطقة. لذلك نختار أعمالا تتناسب مع عمر الطفل. ما الذي يمكن القيام به غير ذلك؟ سيكون من الضروري السماح للطفل بإتقان اللغة لأن كل شيء يمر عبر الكلمات. فيتطور ذكائه عن طريق اللغة، مما يسمح بتطوير المفاهيم، وبالتالي الحاجة إلى مدرسات، حتى بالنسبة للأطفال الصغار، وذلك لممارسة أنشطة اللغة يوميا.

نظهر أيضًا في البحث، أن الطفل سيطور مهارات القراءة في الأنشطة الثقافية، لأنه سيعمل على تكوين الروابط بين الكلمات ومعانيها، وبالتالي، سيصبح فعالًا. بالطبع، سوف تخبروني أن هذا الأمر معقد لأن النظرية تؤدي إلى إعطاء قيمة للنتائج، وتفسرها وتدفعها، ويجب على المعلمين تشجيع المتعلمين.

عندما تقول المعلمة على سبيل المثال «*لديك الشجاعة لكتابة هذه الكلمة رغم صغر سنك*» وتقول «*جيد، لكن هل يمكنك أن تفسر لأنني لست متأكدًا مما كتبته*»، أعتقد أن هي الطريقة الصحيحة لتشجيع الصغار على تطوير اللغة. بما أن لا أحد لديه نفس المعرفة، فمن الضروري التحدث بخطاب مشترك يفهمه الجميع. أعطيكم مثالًا على عمل المدربات الشابات اللاتي يعلمن التلاميذ الصغار الذين تتراوح أعمارهم من ثلاث إلى أربع سنوات يقترحون العودة في الأيام المقبلة إلى قصة شخصيات صغيرة. يتعلق الأمر بالغوص مع الأطفال في هذا المجال، مع تثبيت المفردات المصادفة في القصة في أذهانهم. يمكننا أيضًا إنشاء قائمة انتظار لا تسمح للطفل بفقدان أحداث القصة عندما يقرأها. أثناء القراءة، هناك ماض وحاضر ومستقبل. وعند قيام الأطفال بالقراءة، سيتمكنون من بناء أنفسهم. بعد ذلك، إما سيتمون القراءة في اليوم ذاته أو سيتمونها حسب التسلسلات السردية للكتاب. لا تظهر المعلمة التوضيحات عند القراءة : أقرأ وأوضح الكتاب أثناء القراءة. وماذا علينا أن نفعل بعد القراءة ؟

سنحدد على سبيل المثال الشخصيات المتواجدة في القصة، ونعمل حسب مفهوم الزمن : ما الذي حدث قبل وفي لحظة معينة ؟ سيقوم الأطفال بربط القصة اعتمادا على الصور الصغيرة للتسلسلات : سنقوم بالرسم ونتأكد أيضا من فهم ما يسمى أيضا رواية. وللتذكير بالسرد، فهو عندما يكون المرء غير قادر على قول ما يفهم من القصة من البداية إلى النهاية.

سأتحدث قليلا عن كتاب «علياء والقطط الثلاث». هذا الكتاب يدرس في أقسام الأطلس الكبير حيث قدمنا عرضا سأقوم بشرحه لكم. ماذا يمكننا القول عند النظر إلى الغلاف ؟ انه يظهر لنا ثلاث قطط، إضافة إلى العنوان علياء. أثناء القراءة، لا نجد سوى تلك القطط الثلاث التي تعيش في العائلة من بينهم واحد تراه في العمل - اسمه مينوش - وقد تم التخلي عنه والعثور عليه. أنتم تعلمون أن الأطفال الصغار في كثير من الأحيان لا يربطون بين الصورة التي يرونها وما حدث من قبل. لذا، فمن المهم، أثناء القراءة وكذلك بعدها، العودة إليها، حتى لا يتصوروا أنها تتعلق بشيء آخر. يجب أن نتأكد من تحديد الشخصيات.

قبل الانتقال بالحديث إلى المدرسة الابتدائية، سأقرأ لكم قصة بعنوان «سالم والساحر». تخيلوا أنكم أطفال. المؤلف هو محمد ديب، والرسوم التوضيحية من قبل فيرجيني سومنياك. الكتاب منشور بالفرنسية والعربية. ويبدأ على النحو التالي : «*كان يا ما كان في قديم الزمان ساحر شرير، كان له خادم صغير اسمه سالم. في أحد الأيام، سمع الساحر شخصا يطرق باب منزله. أمر سالم بالفتح. هذا الأخير رفض. ما كان عقابه ؟ أمر كلبه أن يعض سالم. الكلب رفض ...* »

هذه القصة لديها بنية مخصصة للأطفال الصغار. تطمئنهم. سوف نتساءل بسرعة عن الغلاف الذي يقول كل شيء عن هذا الطفل الصغير وعلاقته بالساحر. هناك العديد من العناوين لهذه القصة، لأنها تطمئن وتترك مسافة : إنه ليس «*ذات مرة*»، ولكنه «*كان يا ما كان في قديم الزمان*». هذا الكتاب يخبرنا أنه على الرغم من المحن، يمكننا أن نعيش على أفضل وجه ممكن. سنعبر عن مفهوم الساحر اليوم. ما هو الساحر ؟ وهل هناك ساحر عظيم ؟ سنقوم بتسجيل كل شيء من أجل رؤية النتائج. يتم التعامل مع الأطفال على أنهم أجهزة فك رموز : ما هي القضايا والأدوات المستخدمة والمهارات التي يمكن استخلاصها من هذا المؤلف ؟

يأتي نصف حالات الفشل في الرياضيات من حقيقة أن نص البيان غير مفهوم. تتطلب مهارات فك التشفير مهمة طويلة ومملة للطفل لمساعدته على الفهم. يقوم الطلاب بقراءة أولى ثم ثانية ، لضمان قراءة سلسة وقراءة دقيقة وسريعة مع احترام الترقيم والنبرة. كما أن المهارات اللغوية ضرورية أيضًا. توفر المقارنة بين الأطفال من العائلات المتواضعة والأطفال الآخرين فيما يتعلق بالمفردات المكتسبة إجابة : كلما كان القارئ يعرف كلمات أكثر، كان يفهمها بشكل أفضل.

وكلما فهم ما يقرأ، كلما اكتسب المزيد من الكلمات وطور المهارات القصصية. هذه الأخيرة تنشأ عن طريق استقبال نص ما. إذن، ما هي القراءة ؟ القراءة هي بناء هام : إنها نتيجة تفاعل النص مع المعرفة الأساسية للطالب. بالطبع، كلما كانت قاعدة البيانات أكبر ، كلما كان الفهم أفضل. سأعطيكم مثالين، وسوف ترى أنه كلما توسعت معرفة القراءة، كلما فهم الطفل أكثر. إذا أعطيته جملتين للقراءة مثل «*ألبسه حذائه وذهب للانضمام إلى أصدقائه في الملعب*» و«*جلس على الكرسي منتظرا رفع الستارة*»، ستفهمون على الفور ما يعني هذا للأطفال الصغار : يحتاجون إلى مفككات لفهم هاتين الجملتين. يفترض بناء السرد وجود تمثيل عقلي كبير وهذا ما يقوم الأطفال ببنائه. لذا، فهم قادرون على ربط الأشياء الجديدة التي قرؤوها للتو : هل هناك أي مكتسبات وهل هناك أي معرفة محضة ؟

التماسك السببي له أهمية خاصة في التماسك العقلي ؛ غالبًا ما يعرف الأطفال كيف يربطون أحداثًا متعاقبة، لكنهم لا يعرفون كيفية ربط الأسباب بالعواقب. إذا ما الذي علينا فعله ؟ هناك دائما المهارات المكتسبة والثغرات. اذا ماذا نفعل ؟ حسنًا، ما يُقترح هو القيام بخلاصات مؤقتة، أو خلاصات صغيرة باستعمال رسم تخطيطي، أو أسهم. بعد ذلك، نضع مهارات السرد في الإنتاج، لأننا يجب أن نعرف طريقة الاسترجاع. يتعلق الأمر بإظهار المشكلة، ثم حلها. إذا سوف نتعلم أن نحكي، ونعلم التلاميذ الفهم والحفظ.

كيفية التعبير عن الروابط المنطقية والرواية الشفوية التي من شأنها تعزيز التنمية، والقدرة على الكتابة ؟ في معظم الأحيان، تستند القصة على نفسية الشخصيات والأثر الاجتماعي ونظام قيمها : إنه أمر مهم لأنه ما سيحدد أهدافهم وأفعالهم ، بالإضافة إلى الكشف عن القصة. الأطفال هم قُراء ضعفاء، ذوي فهم ضعيف : إذا كنت تقدر الجملة التالية «*أمي تعد كعكة لكريم*»، فإن التذكير بالقصة سيسمح للمعلم بالتأكد من أن الأطفال قد فهموا هذه القصة ويمكنهم رويها مرة أخرى. يدعوك الكتاب لقراءة القصة الغنية للرواية ليلى والذئب وكذلك رواية بلادي، التي هي غنية أيضاً لأنها تحكي عن الحياة الصعبة التي تعيشها حمير الدار البيضاء التي تنقل السلع والنساء والأطفال وتعمل بدون الاسترخاء تحت ضربات متكررة من أسيادها. في ظهيرة صيفية جميلة، يستمتع ثلاثة من الرفقاء باستراحتهم اليومية.

على الرغم من الإرهاق والمصاعب، تستمر حميرنا في الجدال، حيث يدعي كل منها نبل أسلافه. منذ سنوات، تقضي هذه الحمير الثلاث وقتها في التعامل... مع الحمير. ولكن في ذلك اليوم، غير لقاء روتينهم اليومي...

أمينة الهاشمي العلوي

شكراً لكم على هذا العرض الجميل ودراسات حكي القصص للصغار. أعلم أن تنظيم المؤتمرات والعروض للبالغين والطلاب أسهل، ومن الصعب جدًا عقد ورش عمل، والعمل مع الأطفال الصغار، لذلك أهنئكم وأدعوكم لزيارة فضاء «الشباب» الذي يوجد تحت الخيمة.

رئيس الجلسة : ياسين عدنان

المشاركون : فلور منتنارو (إنجلترا)، نجوم الغانم (الإمارات العربية المتحدة)، زهور كُرام، محمد الأشعري، واسيني الأعرج (الجزائر)، شكري المبخوت (تونس)، نسيمة الراوي، عبد السميع بنصابر.

فضاء : محمد عابد الجابري

التاريخ : يوم السبت 23 شتنبر 2017

الساعة : 11 : 15 - 12 : 45

موجز مداخلات المائدة المستديرة

عرفت حلقة نقاش الجائزة الدولية للرواية العربية بمسرح محمد السادس بمدينة وجدة نقاشات موسعة وغنية. وأشار المشاركون إلى أن قيمة الجائزة التي تمنحها جائزة مؤسسة بوكر لا تتجلى في المكافأة المادية التي يراها الفائز كجائزة في حد ذاتها، ولكن في قيمتها الرمزية وحقيقة أنها تسلط الضوء على الكتاب الفائز مساهمة بذلك في الرفع من شهرته، وهو ما يسمح للمؤلف والناشر بمضاعفة عدد الطبعات، بل وحتى الترجمات. وهكذا يجذب الفائز انتباه الناشرين الأجانب الذين يرغبون في ترجمة الكتاب، وهو ما يمنح للمؤلف العديد من الفرص.

يمكن أيضا للمؤلف أن يحصل على عقود، مما يجعل للجائزة دورا هاما، عن طريق الرفع من مستوى آليات نشر الكتاب و ترويجه.

كما أقامت جائزة بوكر دورات تدريبية سنوية وأعطت الشباب الذين يخطون أولى خطواتهم في الأدب فرصة المشاركة و الفوز بدل الاقتصار على الأسماء المعتادة. كما تجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن دور النشر هي من ترشح الكتب المشاركة في المنافسة.

ومن جانبها، أوضحت منسقة هذه الجائزة، الإنجليزية فلور مونتانارو، أن هذه الجائزة هي جائزة أدبية دولية مخصصة للأدب العربي، أنشئت في عام 2007 في أبو ظبي في دولة الإمارات العربية المتحدة حيث يقع مقرها الرئيسي، وأنها منظمة بفضل التمويل المقدم من هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة ودعم مؤسسة جائزة بوكر الإنجليزية.

أضافت أن هذه الجائزة يديرها مجلس إدارة ينتخب أعضاؤه لمدة ثلاث سنوات (من بينهم ثلاثة رؤساء تحرير). ويتم منحها كل سنة حصرياً لأفضل رواية، من قبل هيئة محلفين تتألف من خمسة أعضاء يعينهم مجلس الإدارة ويتم تجديدهم كل عام. وقد حددت السيدة مونتانارو الإجراءات : يتم وضع قائمة موسعة من المرشحين، تستخرج منها قائمة بالأعمال الأولية (ما يسمى بالقائمة الطويلة) ثم ست روايات (تسمى القائمة المختصرة) والتي تستمر بالمنافسة.

يحصل الفائز على 50 000 دولار أمريكي وتمنح 10 000 دولار أمريكي لكل من الروايات الخمس الأخرى الموجدة على القائمة المختصرة. وتصر المنسقة على الاستقلالية التامة لهيئة المحلفين وعلى حقيقة أنها هي نفسها لا تتدخل في المداولات، وتقتصر على تزويد المجلس وهيئة المحلفين بالمعلومات التي يحتاجونها.

وحتى الآن، فاز مؤلفان مغربيان بالجائزة.

ياسين عدنان

قبل عشر سنوات، انضمت هذه الجائزة إلى الأنشطة الأدبية للعالم العربي. و منذ ذلك الحين، وهي تثير الكثير من الجدل. وقد قدمت هذه الجائزة ديناميكية خاصة بها. ربما سننجح في التعبير عنها ببساطة عبر الإجابة على الأسئلة التالية : ما الذي قدمته هذه الجائزة للرواية المغربية والرواية العربية ؟

إلى أي مدى ساعدت على بث روح جديدة في هذا النوع الأدبي وإنتاجاته ؟

ما هي القيمة المضافة للجائزة ؟

ما مدى أهمية الجائزة للمؤلفين والناشرين العرب ؟

وبالمثل، ما هو تأثيرها على القراءة ؟

وإلى أي حد ساعدت الروائيين العرب على تطوير أساليب كتابتهم ؟

وإلى أي مدى شجعت على الكتابة والترويج لأدبنا والرواية العربية على المستوى الدولي ، لاسيما من خلال الترجمة ؟

في الواقع، نتج عن هذه الجائزة ظهور العديد من الترجمات وتزايد اهتمام دور النشر الأجنبية بالمترجمين. الأسئلة كثيرة، وكما تلاحظون، لدينا هنا منصة مكتظة، كمجموعة من الأسود في حديقة صغيرة. وسيتعين على هؤلاء الضيوف التحدث بعجالة. سنبدأ مع فلور مونتانارو، المنسقة الرسمية لجائزة الأدب العربي. انجليزية الجنسية، درست الأدب في أكسفورد والترجمة في معهد اللغات ؛ وقد أقامت في العديد من البلدان وزارت العديد من الأماكن : مالطا ولندن ونيجيريا وموريتانيا... فلور، اشرحي لنا كيفية عمل هذه الجائزة ؟ هنالك إطار عمل، مجلس يشرف على هذه الجائزة، ولجنة حكام يتم تحيينها كل عام. وكيف تتفاعلين، كمنسقة للجائزة، مع مجلس الإدارة ؟

فلور منتنارو

أشكركم على حضوركم وأيضاً على استقبالنا في مدينة وجدة الجميلة والتي تعتبر بوابة إلى المغرب العربي. يسعدني أن أتواجد معكم، خاصة وأنني عشت في موريتانيا لمدة سبع سنوات. أشعر هنا أنني في مكان مألوف بينما نحتفل بالنسخة العاشرة من الجائزة منذ إنشائها في عام 2007. تُمنح الجائزة الدولية للرواية العربية، المعروفة باسم جائزة بوكر العربية، كل سنة وتُمنح لأفضل رواية وفقاً لرأي لجنة الحكام. هي ليست جائزة للاحترام أو التشجيع لتتويج كتّاب ذوي خبرة أو شباب. تم إطلاق الجائزة في أبوظبي بالتعاون مع جائزة بوكر بلندن، بدعم مالي من هيئة السياحة والثقافة الإماراتية. وخلال مسارنا القصير هذا، احتلت الجائزة مكانة مرموقة على المستويين الأدبي والثقافي في المنطقة وأصبحت واحدة من أهم الجوائز الأدبية في العالم العربي. نحن نعتقد أن نجاحها يرجع إلى التزامها بالاستقلالية والشفافية والحياد.

يدير الجائزة مجلس إدارة مستقل، يتكون من خبراء في الأدب العربي والترجمة، بالإضافة إلى شخصيات هامة في ميداني النشر والإعلام وأكاديميين من العالم العربي وأماكن أخرى. يعين هذا المجلس كل عام لجنة من خمسة حكام من خلفيات متباينة للغاية، وليس من الضروري كونهم جميعا نقادا أدبيين. من بينهم، مستعرب متقن للغة العربية ومتخصص في الأدب العربي. يجب على اللجنة أن تقرأ الروايات المشاركة في المسابقة وأن تختار أولاً قائمة تتضمن ستة عشرة رواية، تليها قائمة قصيرة من ست روايات، وأخيراً الرواية الفائزة. خلال مراحل الاختيار هذه، لا يتدخل مجلس الإدارة بأي شكل من الأشكال، كما أن قرارات اللجنة نهائية. يجب على كل حكم أن يقرأ جميع الروايات وهو الشيء الذي سيمكنه من تقييم قيمتها الأدبية وتحديد إن كانت تستحق أن تكون ضمن القائمة الطويلة. يتم الاختيار بكل سرية، دون الأخذ بعين الاعتبار الجنس أو جنسية المؤلف، أو أي اعتبار آخر، باستثناء قيمة العمل.

كمنسقة، فأنا أحضر اجتماعات لجنة الحكام لتوفير العناصر الضرورية وأعطي مجلس الإدارة ما يحتاجه من معلومات، لكنني لا أتدخل في القرارات. كما أن كل مؤلف تم اختياره في القائمة المختصرة يتلقى مكافأة قدرها عشرة آلاف دولار. ويمنح الفائز بالجائزة الأولى خمسين ألف دولار. والأهم من هذا هو الانتشار الواسع للرواية الفائزة، وزيادة شهرتها - من المغرب العربي إلى الخليج - وإعادة إصدارها. وهكذا، فإن «ساق البامبو» التي فازت في عام 2013، أعيد إصدارها اثنتين وثلاثين مرة، وتحولت إلى مسلسل تلفزيوني وترجمت إلى اللغة الإنجليزية ولغات أخرى. وقد ترجمت حتى الآن ثلاثة وثلاثين رواية من بين الروايات الفائزة إلى أربع وعشرين لغة. وخلال السنوات العشر هذه، وصل كتاب مغاربي إحدى عشرة مرة إلى القائمة المختصرة للجائزة، في حين أن المغرب العربي يقدم من بين سبعة أسماء مرشحا واحدا فقط. من بينهم كتّاب من المغرب والجزائر وتونس وليبيا ، مثل واسيني الأعرج ويوسف فضل ومحمد برادة وياسين عدنان. و قد فاز الروائي المغربي محمد الأشعري بالجائزة عام 2011 برواية «القوس والفراشة»، كما فاز الدكتور شكري المبخوت - والحاضر معنا اليوم - سنة 2015 برواية « الطلياني».

ياسين عدنان

دعونا نحاول وضع إطار للموضوع مع ضيوفنا. لقد أعطتنا فلور فكرة عن الجائزة وطريقة عملها. تكون لجنة الحكام كل سنة في المقدمة تحت الأضواء، وبالتالي فهي أيضًا موضوع الجدل. ويسعدني أن تكون معنا اليوم السيدة زهور كرّام، روائية وناقدة وأكاديمية وحاصلة على دكتوراه الدولة في تحليل الرواية. أتيحت لها الفرصة للعمل في لجنة حكام الجائزة. إذا كيف تعمل لجنة الداخلية ؟ هل هي حقا قادرة عل اتخاذ القرارات والسيطرة عليها ؟ كيف تتم إدارة الاختلافات في الاختيار ؟ وكيف تبقي اللجنة مسافة بينها وبين المنسقة ومجلس الإدارة ؟

زهور كرّام

شكراً على دعوتكم لنا إلى مدينة وجدة الجميلة لمناقشة هذه الجائزة التي، في رأيي، تضعنا جميعاً -وسائل الإعلام الثقافية، النقاد، خبراء من العالم العربي أو الرواية العربية - أمام تحدٍ كبير. من خلال خبرتي في لجان جائزة بوكر وجوائز أخرى، أعتقد أن المسؤولية تقع على عاتق لجنة الحكّام. مجلس الإدارة لا يتدخل أبدا. حتى فلور، التي تحضر معنا في اجتماعات مغلقة، تقتصر على كتابة التقارير التي ترسلها إلى المجلس. لم أشعر قط بتدخل من أجل المحسوبية. فأنا أنطلق من فلسفة أنني عندما أتدخل في شيء ما فإن هذا الشيء يحدد وجودي ومسؤوليتي. أنا سيدة مشاركة. إذا شعرت أن الجهة المسؤولة في المؤسسة تتدخل في الخيارات والقرارات، وإذا لم أعرب عن رفضي داخل لجنة الحكام، وإذا لم أعبر عن موقف واضح، فهذا يعني أنه على المؤسسة التدخل. عندما نكون مسؤولين، فطريقة عملنا تكون محددة. وهذا هو السبب في أن أي هيئة أو مؤسسة أو جائزة أو منتدى ... يضعنا أمام تحدٍ وأمام قناعاتنا، ولهذا أنطلق من وجهات النظر هذه.
تضع اللجنة في الأول معايير سيتم توضيحها بدِقة أكبر فيما بعد. وتنطلق هذه المعايير من المنطق الذي يحكم الأدب، فقد تكون الأعمال مثلا عبارة عن قصص جميلة ولكنها لا تندرج في إطار الأدب. ويدور النقاش حول دقة المعايير غير أن الأمر لا يتعلق بمعايير صارمة. ففي 2014، شاركت 6 روايات مغربية ضمن 106 رواية مرشحة لهذه المسابقة، ثم ثلاثة في اللائحة الطويلة واثنتان في اللائحة القصيرة، وهذا يشرفني لكوني مغربية الأصل. ولا أدافع عن الروايات المغربية بعاطفية : فأنا أدافع عن كل الروايات بتفكير نقدي وطريقة علمية موضوعية تستطيع اقناع الآخرين بالقبول بوجهة نظري. وبالفعل، لقد جمعتنا محادثات طويلة بخصوص رواية يوسف فاضل لأن طريقة كتابة الرواية المغربية تختلف عن طريقة كتابة الروايات الأخرى. باختصار، ما هي الإضافة التي ستضيفها هذه الجائزة على العموم إلى الروايات العربية ؟ من الممكن تقديم مجموعة من التصورات والتمثلات : أولا، لقد بدأنا نتجاوز بعض المفاهيم الرائجة والمعارف الثقافية.

ويمكن أخذ المدرسة العربية المشرقية كمثال عن ذلك ؛ فمن المهم الرجوع دائما إلى النموذج التقليدي. وعامة، لم تنتشر الروايات المغاربية في المشرق العربي لأنها مكتوبة بطريقة مختلفة ؛ ولم يستطع النموذج السائد استيعاب هذا النموذج المحرر من القيود ومن النظام الذي يؤطر الروايات العربية. ولقد أتاحت الجائزة الفرصة للكتاب العرب لكي يتعرفوا على هذا النموذج الجديد من الكتابة، وهي طريقة أخرى لتمثيل الأشياء وتصورها. ولقد وصلنا إلى مستوى آخر من الحوار لأننا نعمل معا على المفاهيم. ولكن الرواية تقوم أيضا بتسويق الفن العربي، وتقوم بذلك ليس عبر النظام المعتاد بل انطلاقا من نظام مختلف. وتعد هذه الموازنة الإيجابية شيئا مهما بالنسبة للجائزة، غير أنه من الواجب على النقاد والمثقفين التطرق إلى هذه المسألة وفهمها. الفكرة الثانية هي أننا بدأنا نتجاوز مفهوم المركزية. لم نعد نتحدث عن تعبير «الرواية العربية»، بل «الروايات العربية»، لأن التجارب المتوفرة اليوم متعددة وهذا هو التحدي الصعب. وما يحدث هو أنه لا يوجد نص يشبه نصا آخر؛ فالروايات المغربية متنوعة جدا، والشيء نفسه بالنسبة للروايات الجزائرية، والمصرية... حتى الشباب يكتبون اليوم بشكل مختلف عن ذي قبل. وهذا يعني أن هذه الجائزة أجبرت الناقد العربي على التفكير في خطابه وموقفه، وهذا تحد آخر. كيف يمكن تحويل هذه الجائزة إلى جهة ثقافية فاعلة في الساحة العربية ؟ ما زلنا ننتظر نشر القائمة الطويلة ثم نقوم بمناقشتها، وهذا أمر غير جيد على هذا المستوى. هناك ردود فعل عاطفية تعيدنا إلى الأفكار العتيقة، في حين أنه من الواجب على وسائل الإعلام الثقافية والنقد العربي أن يعملوا على هذه النصوص المندرجة ضمن اللائحة الطويلة وتقديم قراءات علمية هامة، وليس قراءات مستندة على الانطباعات والتفسيرات بهدف التأثير على قرارات لجان الحكام وتعديلها. كما يجب علينا أيضا أن نتحدث عن تمثيل عالمي ونرى كيف يمكن لهذه الجائزة أن تسهم في إعادة تشكيل ديناميكية ثقافية جديدة في الساحة العربية من خلال هذا البعد المجتمعي والإقليمي، إلخ.

ياسين عدنان

كما قلت، يبدو الأمر كما لو كنا نحبس الأسود في حديقة، لأن التدخل يفتح العديد من النقاشات وبعضها يفوتني : مسألة الرواية المغربية، وخصوصيتها، وكيف تساعد هذه الجائزة على تركيز الاهتمام على النموذج المغربي ؟ وكيف تخدم وسائل الإعلام الثقافية ؟ الشيء المهم هو أن الرواية المغاربية تتحقق على المستوى العربي في الواقع. هذا ما قالته فلور وهي تزودنا بأرقام القوائم الطويلة والمختصرة : فخلال عشر سنوات كانت هناك ثماني جوائز شرقية وجائزتان مغربيتان.

شكري المبخوت، حاصل على دكتوراه في الآداب، أكاديمي، رئيس جامعة، كاتب وباحث تونسي. حتى أصدقاءه في العالم العربي دهشوا من هذا العمل المباشر والمتمثل في رواية «الطلياني»، ثاني رواية مغاربية حاصلة على الجائزة والتي أتت في وقت كان فيه اسم المؤلف غير معروف في الشرق العربي كروائي. فوز شكري أثار أكثر من سؤال حول الأكاديمية، كان أولهم عن تحول الناقد إلى روائي.
إذا، عندما يشارك الشخص بعمل مندرج في مجال آخر غير الذي كان يمارسه من قبل، فهل يعتبر النصر في المشاركة الأولى دليلا على حيادية هذه الجائزة ؟ وأخيراً، هل وصول اسم شكري مبخوت إلى الساحة الأدبية العربية بهذه القوة دليل على تأثير الجائزة وتغلغلها في الإعلام العربي والمجال الثقافي والنقد العربي ؟

شكري المبخوت

نحن ننسى أن الرواية العربية حديثة النشأة حقا. فبمجرد أن بدأت الخصائص الأساسية في التكون سرعان ما تحولت. وفكرة أن الأكاديمي لا يكتب الرواية هي فكرة تونسية فالرواية أداة تعبير للأكاديمي. الرواية هي اليوم نوع في حد ذاته، أكثر من علم الاجتماع، أو علم النفس. ليس من قبيل الصدفة أن يشرع أكاديمي في كتابة رواية، لأن الرواية يمكن أن تعبر عن تعددية الأصوات ووجهات النظر والتحولات. فن الرواية هو فن التحول وليس فن التعبير العاطفي. فعندما يدخل عالم الرواية، يقوم بذلك بمرارة وبأسئلة لا يمكن أن تجيب عليها الممارسة الأكاديمية عندما يتعلق الأمر بالعالم العربي: اقرأ على سبيل المثال حالة الرعب التي يجعلنا الكاتب العراقي نعيشها في روايته «فرانكنشتاين» حول الفيسبوك.
ليس هناك رواية أولى ورواية ثانية. فالكتابة ليست تمريناً مدرسيا نتعلم من خلاله قواعد الكتابة. ولحسن الحظ، تمكنت رواية «الطالياني» منذ البداية من بناء شخصية معقدة قادرة على جذب القراء، مع العلم أن ما ساعد على ذلك هو الواقعية التي أهملتها الرواية العربية. عندما نعود إلى الواقعية الذكية، يمكننا خلق تشويق للقارئ. فكتابة الرواية ليست اضطهادا للقارئ ؛ هناك حقيقة ساهمت فيها التجربة النقدية، ولكن بطريقة غير واعية.
لقد فزت بهذه الجائزة، وهو حدث بارز : إنها ليست إشادة. هل من الممكن أن يشارك كاتب مهم ولا يفوز بهذه الجائزة ؟ إذا كان الأمر كذلك، فإن هذا يعني أننا نجعل كل الأشخاص متساوين. وهناك ميزة أخرى مهمة : فهذه الجائزة لا تمنح للأفراد، وإنما لدور النشر، فيمكنني النشر على حسابي الخاص، ولكن لا يمكنني الترشح للحصول على الجائزة. من المهم أن تكون لدينا شخصيات مثل واسيني الأعرج. عندما رأيت كيف يتم التعامل مع الأدباء في مصر - مثل نجوم السينما - كنت متأثراً جداً لأنني كنت بعيدا عن ذلك.

ياسين عدنان

بالفعل، يا دكتور شكري، لقد أحطت بالموضوع وفتحت إجابتك بابا أمام المزيد من المواجهات التي أفضل أن أبقيها على جنب. لنقل إن جائزة بوكر يتم الحصول عليها من خلال نصوص تختارها لجنة الحكام. لذا يجب أن ترى الجائزة كأداة لدعم النشر والناشر وسوق الكتاب وترويج الكتب وما إلى ذلك. فالكاتب ينشأ من خلال نصه وبيننا اليوم السيد واسيني الأعرج، أحد نجوم الأدب العربي، مؤلف جزائري كبير. إنه ابن هذه المنطقة إذا اعتبرنا أن تلمسان جارة وجدة. لقد فاز بجدارة واستحقاق بأهم الجوائز العربية : من بينها جائزة الشيخ زايد، جائزة قطر... وهو معنا اليوم للتحدث عن جائزة بوكر، ليس فقط لأنه على دراية بذلك ولأن أعماله كانت مرشحة لنيلها، ولكن أيضاً لأنه، بطريقة أو بأخرى، أيد دينامية الجائزة. وسأله سؤالين.
ككاتب وأكاديمي على دراية بالمشهد الثقافي والأدبي في المغرب الكبير : ما هي درجة حضور الرواية المغاربية في جائزة بوكر ؟ و مع فائزين اثنين - الأشعري وشكري - خلال عشر دورات وإحدى عشر رواية مغاربية وصلت للمرحلة النهائية: هل كانت الجائزة منصفة للرواية المغاربية ؟ أنا أسأل السيد واسيني عن الإنصاف لأنني اتبعت ردود فعله على مر السنين، والتي تتميز بتواضع كبير.

سأل صديقنا صويلح السيد واسيني : لماذا فازت هذه الرواية ؟ هل لأن كاتبها استغل موجة الصوفية ؟ هل لأنه استخدم ذكاء وحيلة ابن عربي، أم لأنها رواية عادية ؟ فأجاب واسيني قائلا «*لا، إن ذلك لسبب رابع لم تذكره ؛ وهو أنها فقط وببساطة رواية جميلة*».

واسيني الأعرج

بالنسبة لتمثيل المغرب الكبير، فهذه مسألة لا تطرح إلا في العالم العربي. ففي أمريكا اللاتينية، هناك تجانس لغوي عام ؛ فعندما تفوز رواية إسبانية بالجائزة، فإنها تكون بلغة تشكل جزءًا من المجال اللغوي الذي تكتب فيه. إننا في العالم العربي، نعاني من هذه المشكلة ذات أصل تاريخي. عندما يتعلق الأمر باللغة العربية، تثار مشكلة تعدد اللهجات. بالطبع، يمكن لهذه الرواية المغاربية أن تكون متميزة بخصائصها، واستماعها، وكتابتها، إلخ. والشيء نفسه بالنسبة للرواية المصرية أو السورية أو الفلسطينية، إلخ.

السؤال الثاني يتعلق بالعودة إلى الأدب : يجب على المرء أن يكون جاهزا لاستغلال النصوص التي فرضت نفسها خلال السنة أو ستة أشهر الماضية قبل عودة الأدب، حيث أن مجموعة من النصوص أصبحت مرئية. فعلى سبيل المثال تصل الجائزة في شتنبر أو أكتوبر. حيث تكون لنا رؤية عامة ومسبقة للإنتاج الأدبي للسنة. ويجب ألا تدخل الجائزة في مجال لا نعرف عنه شيئًا. لذا، فإن أفق الانتظار مهم جدا : يجب أن نعرف نتائج السنة، ونعرف النصوص التي ستفرض نفسها. يجب على الأقل معرفة الأعمال المندرجة ضمن القائمة الطويلة أو القائمة المختصرة. وهذا مجرد اقتراح.

أما بالنسبة للندوات، فقد شاركت فيها مرة واحدة. ما هي القيمة الفعلية للندوة ؟ يسلط البوكر الضوء على الفائز النهائي، سواء كان معروفًا أم لا. هذه الجائزة تحطم الرؤية السابقة لأنها تمنح إمكانية الحلم، لشاب - مثلا- بدأ للتو في ميدان الكتابة ومؤمن بموهبته وإمكانية حصوله على الجائزة. إنه لحدث أن تقدم رواية لأول مرة وتحقق الفوز.

النقطة الثالثة هي الفائدة من جائزة بوكر : فقد أنشأت هذه الأخيرة ندوات تدريبية سنوية لكثير من الكتاب في البلدان العربية. إنه عمل منسق يشجع الشباب على دخول عالم الرواية وبالضبط الشباب الموهوبين الذين لديهم القدرة على الكتابة والإدراك. تدوم الندوة عشرة أيام، كلها متعة لكون الشخص الذي يشرف عليها ينسج أيضا شبكة من العلاقات مع المؤلفين والمؤلفات الشباب. إنه ليس مجرد مسؤول منظم. فهذه العلاقة تبني الثقة لدى المشاركين. بالنسبة لي، فإن العمل الأساسي لجائزة بوكر هو المساعدة في خلق جيل جديد من الروائيين الشباب.

ياسين عدنان

نشكر السيد واسيني الأعرج على هذه التوضيحات المتعلقة بالجوانب الأساسية للجائزة. فبالطبع هناك ديناميكية الجائزة، لكن هناك أيضًا ديناميكية ورشات العمل والتي نحتاج إليها على الأقل للتيقن. فنجد مبتدئا شابا منغلقا على نفسه يعتبر أنه كتب نصا لا مثيل له. دعونا على الأقل نتحاور ؛ إنه سؤال حاسم. نسيمة الراوي، عرفناها كشاعرة، مع «قبل أن تستيقظ طنجة»... كانت ضحية سرقة : تم قطع طريقها وتوجيه رحلتها نحو الرواية. والنتيجة هي أنه بعد مشاركتها في ورشة الإبداع، فوجئنا بنشر رواية جميلة. كيف تم نشر روايتك، بينما لم يكن لديك تاريخ ؟ فمن ورشة الرواية جاءنا هذا العمل الجميل.

نسيمة الراوي

في الحقيقة، لقد كنت أكتب النص سراً، وقد منحتني هذه الورشة ما كنت أبحث عنه. فعلى الطريق الصحراوي المؤدي إلى موقع الورشة، وصلنا عند الكاتب المغربي عماد الورداني، وفحصت الفراغ الكبير الذي بدأت بتأثيثه بالجمل عن طريق بناء المنازل والنوافذ والقصص.

منحني الكتاب العظماء، كالذين أشرفوا على الورشة، ثقة يفتقر لها الكاتب المبتدئ. كنت استمع باستغراب للناقدة والروائية اللتين حدثتانا عن تعدد الأصوات، وغير ذلك. كيف يمكننا تحرير الشخصية ؟ وكيف يمكن أن نجعلها تتفوق علينا. كنت أستمع إلى الملاحظات وتذكرت قوة الوصف. فقد عرض لنا الروائي إبراهيم نصر الله خبرته في الرواية وأعطانا أسرار بناء نصه. وناقشنا في الورشة قضايا كالمسافة بين لغة النص وحوار الشخصيات. كما ناقشنا العلاقة بين التاريخ والرواية، بالإضافة إلى موضوعات أخرى والتي زودتنا برؤى عميقة حول كتابة الرواية. كانت هذه الورشة بالنسبة لي فرصة للتعرف على مهنة الروائي، بعيداً عن الانطباعات غير الموضوعية والأفكار العامة لأنني كنت متخصصة في الاقتصاد، وهو مجال بعيد عن الأدب. أتقدم بالشكر لكل الذين أشرفوا على الندوة وكل المشاركين الذين يشاركونني نفس الاهتمامات. فلقد توصلوا بنصوصي وتوصلت بنصوصهم، وأعربوا عن إعجابهم وآرائهم، هو ما كان حافزا لي.

ياسين عدنان

كيف تم اكتشافكم من قبل جائزة بوكر دون أن تكون لديكم خلفيات معروفة في مجال القصة والرواية ؟

نسيمة الراوي

لقد قمت بمحاولات أخرى في مجال القصة، غير أنني لم أقم بنشرها. فلقد كنت في الواقع أنتظر فرصة لاكتشاف الوظيفة؛ فكان العمل في الورشة مفيدا جدا رغم ضيق الوقت. وبالفعل، كنت أبحث عن هذه الديناميكية التي تعطي الجزء الأول الذي عملنا عليه والذي يعطي اليوم رواية جميلة. وهناك أيضا تجربة السيد عبد السميع بن صابر الذي كان صبورا (صابر...) معنا حتى النهاية. وهو كاتب موهوب من مدينة الداخلة، والذي على الرغم من بعد المسافة تمكن من إثبات نفسه في مجال الأدب المغربي، فقد كان على القائمة الطويلة لجائزة الكويت للقصة العربية القصيرة خلال دورة 2013.

ياسين عدنان

أوجه لكم سيدي نفس الأسئلة التي طرحتها على السيدة نسيمة : كيف تم اختياركم للانضمام للورشة ؟ وهل مشروعكم مماثل لمشروع السيدة نسيمة ؟

عبد السميع بنصابر

للاحتفال بهذه الجائزة الدولية للرواية العربية، يجب أن أتحدث عنها من خلال ارتباطي بمشاركتي السابقة بواحد من أهم نشاطاتها. فقد كنت سعيدا وفخورا بدعوتي للمشاركة. وأحيي جودة التنظيم والضيافة طوال فترة إقامتنا في أبو ظبي. وهذه فرصة للتحدث عن هذا الفضاء الصحراوي الجميل الذي ينعش الكاتب بروح الإبداع والحيوية. ومما يدعوني للافتخار، هي حقيقة أن الأستاذ واسينى الأعرج كان منسق الورشة لعام 2015 وقد تم اقتراحي من قبله. ومن المهم التأكيد على أهمية هذه الورشة. سأبدأ بسؤال غالباً ما يثيره القراء والنقاد والأشخاص المهتمون بشكل عام. هل يمكننا خلق روائي ؟ هل يمكننا التحدث عن «تشكيل الروائي» ؟ لقد ميزنا بين استحالة خلق الشاعر واحتمال خلق روائي. أنا شخصياً أعتقد أنني أحتاج إلى المهنة التي أستطيع مقارنتها مع كرة الثلج : والتي يزيد حجمها كلما تقدمت إلى الأمام. ويتم اكتساب هذا الحجم من خلال التجارب التي عاشها المؤلف، وربما من خلال اتصاله مع بيئته ومع العالم. ففي إحدى حلقات برنامجه «مشارف»، استقبل صديقي ياسين الأستاذ يوسف طه الذي تحدث عن القلق والخبرة في كتابة الرواية. فيجب أن تكون هذه المهنة موجهة ومختصرة. وقد كتب محمد زفزاف في رسالة منه إلى محمد شكري في عام 1962 : «*نحن جميعا بحاجة لتهذيب*». وهذا يعبر عن تواضعه. كما أن هذا التقليم ضروري للجميع. وأتذكر قولة لنحات إيطالي قال فيها : «*أنا لا أنحت وإنما أزيل ما هو إضافي*».

وفي نهاية المطاف فالرواية هي قصة. وأصلها من فعل «قص»، أي قلم زوايا الرواية. إن الرواية تسمح للكاتب بمواجهة القراء لأن الكتاب المشاركين هم أيضا قراء ذووا زوايا تحليل مختلفة وذلك حسب مراجعهم : وهذا هو الأهم في الورشة. فهم يقدمون آراء أو تفسيرات متعددة تزيد من قوة النص ويمكن أن تصل إلى ملاحظات تقنية أو فنية أو إدراكية. أنا بنفسي كنت أرغب في نشر رواية تاريخية عن ليكسوس في عهد القرطاجيين، وهذا أظهر لي دور المعرفة أولاً لأنه من الضروري أن يكون الكاتب كاملاً على مستوى مؤهلاته. فالرواية هي الحياة التي خلقها الآخر ولا يمكننا بناء جوانب الحياة بسهولة، أو عن طريق شعر وجمال اللغة، والانفتاح على السينما كذلك. الدائرة واسعة. كما أن هناك ميزة أخرى لهذه الورشة وهي أنها تشارك في خلط العديد من التجارب ومناقشة الاهتمامات والطموحات بين الكتاب. وقد كان اكتشافي الرئيسي هو العمل مع الأستاذ واسيني الذي يعطي أهمية بالغة للدقة والوضوح. وكان النقاش يستمر معه خارج قاعة الندوة وفي المطعم وفي كل مكان نلتقيه فيه. فلطالما طرح أسئلة للنقاش : ما سبب اختيار الاسم أو المساحة أو الشخصية... هذه الميزة ذكرتني بهرم مغربي في الكتابة : السيد أحمد بوزفور. فنحن نفتقر إلى هذا الاهتمام البالغ الذي يحافظ عليه الكتاب العظماء في عملهم. وعلى العكس، عندما يرسل شاب عمله إلى كاتب عظيم ليقرأه، يجهل هذا الأخير أن هذا الشاب ينتظر ويتفقد بريده الإلكتروني باستمرار لمعرفة ما إذا توصل برد أم لا. أتمنى لجميع الشباب المشاركة في هذه الجائزة لأنها تجربة مفيدة للغاية.

ياسين عدنان

لا تتم مناقشة الجائزة خارج هذه الديناميكية. فهي تتوج أعمالا وتمنح الاعتراف على المستوى العربي للنصوص الواردة في القوائم الطويلة والمختصرة. فما نحتاجه اليوم هو المراهنة على هذه الجوائز التي تعتبر كأجهزة داعمة للكتاب والقراءة والعلاقة بين الناشرين والقراء. ويعد هذا المعرض المغاربي للكتاب فرصة للاتصال والتواصل. لكن يجب علينا أيضا وضع الأمور في مكانها المناسب، ودون تضخيمها كثيرا : فسواء فاز المرشح بالجائزة أم لا فهي ليست نهاية العالم.

عبد القادر الرتناني

في مجلس إدارة الجائزة، هناك ثلاثة مقاعد مخصصة للناشرين. وهو ما يؤكد أن هذه الجائزة مخصصة للناشر مما يميزها عن باقي الجوائز. وكل ناشر يشغل كرسي العضوية لمدة ثلاث سنوات. كما يجتمع مجلس الإدارة مرتين في السنة. فنختار أعضاء لجنة الحكام: حيث يقترح الناشرون ثلاثة مرشحين. وتتمثل المسؤولية الرئيسية أيضاً في دور الناشرين في اختيار النصوص التي يقترحونها، عند الاستماع إلى نصوص جديدة، وفي المساواة بين الشباب والمواهب المعروفة. وفي الواقع، لقد كرست نفسي للقراءة من أجل مواكبة تطور نشاط القصة والرواية في البلدان العربية.

مداخلة

هناك بعد أدبي وإدراكي يحمل العديد من الرموز الفكرية، والشيء نفسه بالنسبة لوسائل الإعلام. إذا ما القيمة التي أضافتها الجائزة لوسائل الإعلام؟ وما دور الصحافة في الترويج للجائزة؟ أنا لم أكن أعرف الكثير عن هذه الجائزة. وقد عرفتني إياها حلقة النقاش هاته، وكذلك عن كيفية إدارتها وكيفية الحصول عليها.

ياسين عدنان

في برنامجي التلفزيوني «مشارف»، استقبلت السيد خالد الحروب، وهو عضو داخل مجلس إدارة الجائزة، والذي قدم كل التفاصيل التي نتحدث عنها هنا. حتى أنني سألته أسئلة استفزازية، ووجهت إليه اتهامات، ثم أعطيته فرصة لشرح ذلك. كما استقبلت السيد البرغوثي، رئيس لجنة الحكام، وطرحت عليه بدوره أسئلة صعبة.

إن وسائل الإعلام تقرب المشاهدين من ديناميكية الجائزة. أما بالنسبة للفائزين، فقد استقبلت العديد منهم من بينهم شكري مبخوت ومحمد الأشعري...

واسيني الأعرج

هذه الجائزة هي للناشر والكاتب يحصل عليها. وهذا أمر طبيعي لكون الناشر هو من يقدم ويقترح العمل. كما أن هناك صراعا لدى الناشر. فمن بين عشرين رواية لا يمكنه أن يقترح إلا ثلاث روايات يؤمن بأنها تملك فرصة للفوز بها. لذلك فهو عمل الناشر وليس الكاتب، لأن هذا الأخير لا يتدخل. وبعد ذلك، يسألوننا «*سيدي، هل تريد منا أن تقترح روايتك ؟*» هذه هي المرحلة الأولى. عندما يفوز الكاتب، يرغب بعض الناشرين في التحايل قليلاً: فيطالبون الكاتب بعشرين أو ثلاثين في المائة من الجائزة. إنه شيء غير مقبول على الإطلاق وغير أخلاقي. فالشخص الذي يقترح الكتاب يؤمن بفرصه في الفوز. لكن عندما يفوز الكاتب، يحصل على الجائزة وينتهي دوره هناك. أعرف عبدو خان الذي فاز وباع ثلاثين ألفا أو أربعين نسخة من روايته: وهذا رقم مهم في العالم العربي. يتم دفع ثمن حقوق الكاتب، ولكن الناشر يستفيد بدوره. إن وظيفة الناشر واضحة جداً، لكن يجب على الكاتب أن يكون فخوراً لأنه تم اختياره من بين ثلاثين رواية. وسواء فاز أم لا فهذا أمر آخر. فللجنة مزاجها وحساباتها وآرائها، الخ.

مداخلة

نحن لا نعمل دائما بطريقة مهنية وعلى أساس علمي. إذا، كيف يعمل الناشر دون أخذ الجانب المادي بعين الاعتبار ؟ وما الذي يجب القيام به لتكون الجائزة من نصيب الأعمال التي تستحق الفوز؟ فالناشر ينشر العديد من الأعمال، والتي تكون لمؤلف تربطه معه علاقة صداقة أو من تجمعهما مصالح.

عبد القادر الرتناني

هدفي هو إعطاء الكاتب فرصة للمشاركة في الجائزة. لا يوجد صديق أو رفيق. فدار النشر مؤسسة محترمة وتحتاج إلى نصوص تملك الفرصة للفوز. لا أعتقد أن هناك ناشرًا يقترح مؤلفًا دون أن تكون لديه فرصة للفوز.

مداخلة

دائما ما يتم تجريم الناشر. لأّن لعمله بعدين، بعد أخلاقي وبعد ربحي. فالكاتب يميل إلى الإيمان بأن عمله خالٍ من الشوائب. وهذا خطأ فادح يرتكبه المؤلف. يجب أن يكون هناك خيار في نشر النص؛ فلسنا مجبرين علىً نشر أي شيء.

حسن

لماذا لم نر حتى اليوم رئيس لجنة الحكام مغاربيًا؟ فمن المهم أن تُظهر هذه الجائزة النزاهة والعدالة الجغرافية فالمجلس يشار إليه على أنه المؤسسة المنظمة للجائزة. من المستحيل أن يكون هناك فائز مغربي لمدة سنتين متتاليتين ؛ لذلك فحتى لو كان النص جيدًا، فسيتم إهماله كي لا يقول الناس أن المغرب فاز مرتين على التوالي. فهذه المسألة الجغرافية تثار عندما يتعلق الأمر بالفوز، ومن المؤكد أنها موجودة على مستوى اللجنة، ومن شاركوا كأعضاء. لكن يجب أن نلفت الانتباه إلى الجانب الآخر من العالم العربي.

فلور منتنارو

أود أولا أن أؤكد أن رئيس اللجنة لا يملك وزنا أكبر من وزن الأعضاء الآخرين وليس له صوتان. قد يتحمل المزيد من المسؤولية عند إدارة الاجتماعات، غير أن لديه صوتا واحدا كغيره من الأعضاء.

الخصوصيات الثقافية : عامل من عوامل التنمية ؟

رئيس الجلسة : محمد الطوزي
المشاركون : ادريس كسيكس، فتح الله ولعلو، عبد السلام الشدادي، عبد الرحمان رشيق
فضاء : إدمون عمران المالح
التاريخ : يوم السبت 23 شتنبر 2017
الساعة : 11 : 15 - 12 : 45

موجز مداخلات المائدة المستديرة

عرفت هذه المائدة المستديرة مشاركة عدد هام من المثقفين والمفكرين خاضوا في نقاشات عميقة حول موضوع الخصوصيات الثقافية : عامل من عوامل التنمية ؟ وقد شهدت الجلسة التي انعقدت بالمسرح الكبير محمد السادس، حضور السيد والي جهة الشرق، عامل عمالة وجدة-أنجاد السيد معاذ الجامعي.

أوضح السياسي والاقتصادي السيد فتح الله ولعلو أن للثقافة دورا أساسياً في تقدم الأمم، وبأن شجرة الهوية الثقافية الضاربة جذورها في التاريخ تؤثر في حاضر الدول ومستقبلها. مؤكدا أن هذه الخصائص شكلت عائقا تنمويا في بعض المجتمعات بينما ساهمت في تطور تنمية مجتمعات أخرى.

وقد طرحت مجموعة من الأمثلة تبين أن إهمال الخصوصيات الثقافية المحلية قد يضع عراقيل ومعيقات كبيرة أمام التنمية، في حين أن الاعتماد على هذه الخصوصيات يعد عاملا مساعدا في التنمية، وخير نموذج على ذلك كهربة العالم القروي التي ساعدت في رفع مؤشرات التنمية والارتقاء بظروف عيش الساكنة.

كما تم أيضا التأكيد على أن مراعاة هذه السمات والخصوصيات الثقافية ساهم في وضع سياسات تنموية شمولية تتجاوز الخطط التنموية القديمة المحدود النطاق والمنفصلة بعضها عن بعض، ومثال ذلك وضعية السكنى والتعمير، حيث تم تجميد «الخصوصيات» التي تميز المجتمع المغربي المسلم إبان فترة «ليوطي» ثم «إيكوشارد» قبل أن تعود بقوة للحياة في نماذج جديدة مع نهاية الثمانينات من القرن الماضي.
وأكد عدد من المتدخلين على العلاقة الوطيدة بين التنمية وعنصر الوقت الذي يتعامل معه كل مجتمع حسب خصوصياته. إنه الوقت الذي يتطلبه التفاوض والموافقة على المشاريع وبعد ذلك التخطيط لها وإنجازها. الوقت مهم أيضا، إذ فيه يتم تدبير العلاقات الإنسانية المجتمعية بشكل يساهم في التنمية ولا يعرقل عجلتها كما أكد السيد الوالي معاذ الجامعي.
ومن خلال نماذج تنموية أخرى سواء كانت ناجحة أم فاشلة بخطورة مراعاة أو عدم مراعاة الخصائص الثقافية المحلية، لأنها قد تحسم بشكل كبير في تقبل الساكنة المعنية لإكراهات التنمية من عدمه.
وتبرز كل هذه الاعتبارات ضعف المقاربة التقنوقراطية المبنية على معايير مستوردة من النموذج الأوروبي لا تراعي أبدا خصائص المجتمعات الأخرى غير موجهة لها أصلا.

محمد الطوزي

في الواقع، واجهتُ صعوبات كثيرة في تحديد نطاق موضوع هذه المائدة المستديرة لأن مفهوم «الخصوصيات الثقافية» جد معقد ويصبح أكثر تعقيدا كلما أضفنا إلى النقاش مفهوم آخر إلى درجة يصعب معها إيجاد مدخل سليم للنقاش.

إدريس كسيكس

علمتنا التظاهرات الثقافية أنا كل شيء يمكن ارتجاله، حتى أخد الكلمة يتم بارتجالية. عندما أسير مائدة مستديرة بحضور أشخاص أكن لهم احتراماً كبيرا وتجمعني بهم علاقة أخوية ترفع عنا كلفة طلب الإذن قبل التدخل فتصبح نقاشاتنا أكثر استرسالا وسلاسة، لاسيما إن كان موضوع النقاش بأهمية موضوعنا اليوم. ما هي الخصوصية ؟ ما هو الكوني ؟ ألسنا بصدد التساؤل عما نؤمن به ؟ هل تقودنا مسألة الخصوصية إلى النسبية وبالتالي إلى رفض بعض القيم ؟ هل يمكن أن تأخذنا مسألة الخصوصية في سياق ما بعد الاستعمار إلى إعادة بناء البعد الكوني انطلاقاً من تاريخنا ومما أسميه «إعادة إحياء التقاليد وبعث الروح فيها» ؟ إنها شكل من أشكال الحداثة. أعتقد إذاً أن مسألة الخصوصيات الثقافية مهمة، خاصة عندما توضعُ في إطار علاقتها بالتنمية. ما الذي يعنيه هذا؟ إنه يعني أشياء عدة، لكن لكل شخص طريقته الخاصة في مقاربتها.

أترك الكلمة للخبير الاقتصادي الكبير فتح الله ولعلو، وزير المالية و عمدة مجلس مدينة الرباط سابقا، له مؤلفات مهمة حول التنمية ودول العالم الثالث. وقد أصدر مؤخراً كتاباً عن المغرب والصين يوفر لنا تحليلات وإجابات حول مسألة التنمية ونماذجها وكذا مسألة الخصوصيات الثقافية.

فتح الله ولعلو

سعيدٌ جدا بحضوري معكم. عندما نتحدث عن التنمية فإننا نتحدث بالضرورة عن التنمية الاقتصادية، حتى وإن كانت هذه الأخيرة معقدة. سأبدأ بالتأكيد على أمرين مهمين، الأول أن الخصائص الثقافية لا تؤدي حتما إلى التنمية، ويمكننا القول في نفس الوقت إن نجاح أي سياسة تنموية رهين بمدى مراعاة الخصوصيات الثقافية للبلد والجهة. بيد أن الخصوصية الثقافية قد تؤدي إلى الركود والمحافظة على الوضع القائم والتخلف لا التنمية. ويوضح تاريخ بلدنا وبلدان العالم العربي، لاسيما المغرب الكبير، أن العلاقة القوية بين الركود وتطور الاقتصاد العالمي بالتوجه المحافظ والخصوصيات الثقافية. وهذا ما يؤدي إلى التباين السائد في العالم بين الشمال والجنوب منذ القرن الثامن عشر إلى اليوم.

أما الأمر الثاني فيتعلق بالخصائص المرتبطة بالإصلاح والحداثة، والتي يمكن أن توظف في عملية التنمية التي تتطلب الالتزام بمجموعة القيم أبرزها قيمتين : أولا العمل والكد وثانيا الابتكار. ولعل العمل والكد يجعلان الحداثة اختيارا لا واقعا مفروضا، وبهذا المعنى يصبح لدينا حداثة إنتاج لا حداثة استهلاك.

يمكن أن نقدم أمثلة تاريخية للتنمية بالعالم بعد ظهور الرأسمالية قبل أن تنتقل إلى عالمنا العربي، خصوصا المغرب الكبير. يمكن أن نستقي مثالين من الغرب، حيث بدأت التنمية من خلال إصلاح ديني، بالخصوص مع ظهور البروتستانتية ومساهمات «لوثر» و«كالفين». أما على المستوى الاقتصادي، فقد جاءت البروتستانتية بفكرتين أساسيتين : أولا تقديس قيمة العمل الإنتاج باعتبارهما نعمة من الله حتى صار العمل عبادة، ؛ ثانيا إبراز فكرة هامش الربح كبديل لفكرة الربا الشائعة آنذاك في الأنظمة البنكية الأوروبية المسيطر عليها من قبل اليهود.

كل هذا أوصلنا إلى مرحلة الثورة الثقافية فيما يسمى «عصر الأنوار» الذي أولى أهمية لبناء للفرد والعقل بالموازاة مع بناء الدولة. وتعتبر الدولة عنصرا أساسيا في التنمية، إذ لا يمكننا إنجاز أي شيء في غياب الدولة. كانت نتيجة هذا التوجه ثورة فلاحية تبعتها ثورة صناعية انطلاقا من بريطانيا العظمى وفرنسا. وقد استعملت الرأسمالية الناشئة أدوات محددة من أجل تحقيق أهدافها، ومن ذلك أنها استعانت بالحضارة اليونانية-اللاتينية. تم إصلاح الكنيسة حيث قبلت قواعد ومعايير جاء بها الإصلاحيون وانفتحت على العمل والحداثة وعلى شيء آخر لا يقل أهمية وهو التنوع، وهو ما يحيل إلى التنوع الثقافي والتمازج اليهودي-المسيحي وما إلى ذلك.

هنا بدأت الهجرة في لعب دور محوري مهم بالنسبة للعبور من أوروبا إلى أمريكا الشمالية. هذا التنوع هو ما مكن الولايات المتحدة الأمريكية من أن تصبح محركا للرأسمالية منذ سنة 1880. وتعتبر الولايات المتحدة الأمريكية بمثابة مزيج ومركب إنساني وثقافي إفريقي-أوروبي، وكذا مركب جغرافي وهو ما وفر شروطا مبدئية ملائمة للتنمية الاقتصادية هناك. من قبل كان البحر الأبيض المتوسط والبندقية ثم بروج ولندن فنيويورك ولاحقاً سان فرانسيسكو... والآن المحيط الهادئ الآسيوي. تظل حالة الاتحاد الأوروبي جديرة بالاهتمام، حيث لا يجب التقليل من شأنها، إذ أنها تجربة الاندماج والانصهار الثقافي الأكثر نجاحاً في تاريخ البشرية، إذ حصل تمازج بفضل الرأسمالية من خلال إسهامات كل دول المنطقة الأوروبية.

يتعلق المثال الثاني بما أسميه بـ «الأسينة» أي إضفاء الطابع الأسيوي، وهي ظاهرة سياسية واقتصادية وثقافية ظهرت أول مرة باليابان عقب ثورة سياسية وثقافية ونهج أسلوب الانفتاح على المعاصرة والعمل قبل كل شيء. وبسرعة كبيرة، وخلال خمس وثلاثين سنة صار اقتصاد اليابان شبه إمبرياليا يتميز بثقافته الخاصة وينبني بالتالي على خصوصيته الثقافية. سنلاحظ هذه الظاهرة مع التنانين الأربعة خصوصاً كوريا الجنوبية منذ ستينات القرن الماضي مستفيدة من دعم الولايات المتحدة الأمريكية إبان الحرب الباردة، كما نجد نفس الظاهرة في الصين. كيف نشرح إذاً ما حدث في الصين التي كانت تتوفر على اقتصاد في طور النمو تحول إلى اقتصاد صاعد ثم بعد ذاك إلى ثاني أقوى اقتصاد في العالم والأول بالتأكيد في المستقبل ؟

لقد لعبت فكرة جدلية الحداثة والخصائص الثقافية عند كونفوشيوس دورا كبيرا في تطور الصين بما تنتجه من تنوع في كل شيء. نجد اليوم بآسيا نماذج مختلفة : نجد مثلا التعددية الثقافية والمركزية السياسية كما في الصين وفيتنام، ونجد التعددية الاقتصادية مع التعددية السياسية كما هو الحال في اليابان والهند. تختلف النماذج، إلا أن العنصر الثقافي يبقى حاضراً فيها جميعها لما له من أثر بالغ على التنمية. لدينا نماذج أخرى يطبع الفشل تجربتها لاعتمادها ثقافة ريعية. المثال الأبرز هنا هو الدول النفطية عامة والدول العربية خاصة، حيث تسود أنظمة محافظة يطبعها فكر البترودولار والتمركز المفرط للدولة. وهذه كلها عوامل تؤدي بدون شك إلى ضعف التنمية.

وفي الواقع ، نحن نحن محظوظون لأن المغرب لا يتوفر على ثروة نفطية وهو ما يدفعنا للعمل. ويكمن حظنا الثاني في الدستور المغربي الذي يعتبر عنوانا للتعددية والتنوع اللذين يميزان المغرب. المغرب دولة مسلمة بروافد عربية أمازيغية وحسانية وأندلسية وعبرية.

يقدم المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط تفسيرا للتاريخ، حيث إن للعنصر الجغرافي أهمية في الثقافة، بالإضافة للمدن والعالم القروي أيضاً. ونحن مطالبون في المغرب باستغلال هذا التنوع الثقافي كرافعة للتنمية. لا نتوفر على النفط ولكننا نحظى بالأمن والسلم وهذا معطى تاريخي مهم أيضا. ومن المؤكد أن تنميتنا يجب أن تتم في إطار عقلية منفتحة تؤمن بضرورة الحوار مع العالم، وخاصة أوروبا وإفريقيا. انطلاقاً مما سبق نستخلص أن نماذج تنموية نجحت بينما فشلت أخرى أو سجلت نجاحاً نسبياً فقط. ولذا يجب على المغرب الاستفادة من النماذج الناجحة حتى يوظف تنوعه الثقافي والحضاري بغية ترسخ قيم الحداثة والعمل في المجتمع كبداية حقيقة لتحقيقه التنمية الشاملة.

إدريس كسيكس

شكراً جزيلاً، من الرائع أن تنقيب رجل اقتصاد في التاريخ محاولا إفادتنا وتنويرنا بخصوص إشكاليات التنمية ومخاطر الفشل في تحقيقه. أعطي الكلمة الآن للسيد عبد السلام الشدادي، المؤرخ والمترجم المتخصص في فكر ابن خلدون، حيث ترجم المقدمة كما أنه كتب سيرة رومانسية لإبن خلدون. السيد الشدادي أصدر مؤخراً مقالاً بعنوان : «الثقافات العربية، فكر كوني». أذكرُ أيضاً بعمله المتمثل في ترجمة مقال كبير حول الطريقة التي انتقل بها الفكر اليوناني عبر الثقافة العربية إلى الغرب راسما بذلك معالم رؤية تاريخية لتاريخ الأفكار ومقدما رؤية تاريخية تنتمي إلى فكر وبيئة من خارج عالمنا العربي.

عبد السلام الشدادي

القضية التي حاول السيد محمد الطوزي تحليلها معقدة للغاية وتخترق راهنيتها الزمن. هذه الخصائص الثقافية حاضرة لكننا لا نجسدها على أرض الواقع ما يجعلها في حكم العدم. عندما نتحدث عن الخصائص الثقافية المغربية (حفظ الشرف، الكرامة والتراتبية والسلطة...) في علاقة بما يمكن أن نأخذه في الحسبان في التسيير على سبيل المثال، فهي أمور حاضرة بشكل افتراضي لكنها دون تأثير وكأن لا وجود لها من الأساس. و معلوم أن الوعي بوجود الشيء أمر جيد لكن العمل وتوظيفه أمر أفضل بكثير.

عندما نتحدث عن خصوصيات التنمية، فنحن نتحدث عنها في علاقة بماذا ؟ وهنا يطرح سؤال آخر مهم : هل يمكننا أن نُموقع أنفسنا اليوم ؟ من نحن في علاقة بهذا وفي علاقة بذاك ؟ يجب في البداية أن نوضح علاقتنا بتاريخ الحداثة وهذا ما لم نفعله بعد. ولم ندر موقعنا في علاقة بتاريخ الحداثة الذي بدأ من أوروبا في القرن الخامس عشر ثم العالم العربي في بداية القرن التاسع عشر ثم المغرب مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، فكيف سنقوم بتحديد موقعنا في هذا العالم الحديث ؟

ولكن ماذا نقصد أصلا بالعالم الحديث ؟ هذا هو السؤال الأول الذي لم نفكر فيه، وما دمنا لم نفعل ذلك فلا وجود للخصائص ولا للتنمية. طرح هذا السؤال والإجابة عليه كفيل بسد الباب على الأفكار الجاهزة والصيغ المبتذلة التي تقدي على إمكانية بناء نموذج تنموي مغربي أصيل ومستقل.

بعد آخر غاية في الأهمية هو العولمة ؛ لسنا الوحيدين في هذا العالم اليوم. لم تكن أسئلة الخصائص الثقافية وغيرها مطروحة للنقاش، لأن المجتمعات كانت تعيش في إطار خصوصياتها في عالمها الخاص لكن العولمة دمجت كل تلك العوالم في عالم واحد لا حدود له ولا خصوصية فيه تتفاعل فيه خصوصيات المجتمعات حتى تفقد لونها وتصير خصوصية بلا خصوصية.

في الماضي، لم تكن مسألة الهوية مطروحة، لكنها اليوم حاضرة بقوة في عالم كل تفاصيله معولمة. فالعلوم والتكنولوجيا معولمة والتجارة والصناعة والتواصل كذلك، حتى إن العمل أصبح معولماً. إذا، ما الذي تعنيه كل من التنمية والخصوصيات الثقافية ؟ كان من الضروري وضع تأطير منهجي لهذين المفهومين قبل مناقشتهما.

البعد الموالي الذي أريد التطرق إليه هو شكل الدولة حيث نريد تحقيق التنمية ؛ لا يمكن لأي مجموعة إنسانية أن تتحدث اليوم عن التنمية أو السياسة أو الحكومة إذا لم تضع نفسها في إطار ما نسميه الدولة، أي الدولة-الأمة كأحسن نموذج سياسي تم التوصل إليه حتى الآن. الدولة-الأمة إطار نطرح من داخله نقاش مجتمعي ونتقاسم حاضرا وماضيا معينا. والمشكل الذي يُطرح أمامنا هو : ماذا نفعل بهذا الإطار المفروض علينا وكيف نتعامل معه ؟ ما الذي يتطلبه هذا الإطار ؟ إنه يتطلب بالأساس وجود جماعة لغوية وجماعة ثقافية وبضع لغات : أين هو هذا المجتمع الثقافي ؟ كما يتطلب اقتصادا وحضورا قويا لروح المواطنة.

ومن هنا السؤال التالي : هل قمنا بتكوين إنسانا قد يمكن اعتباره نموذج المواطن المغربي المنشود ؟ أكيد أنه لضمان نجاح هذا الإطار من اللازم أن تتوفر نوعا ما صيغة من للحكامة. ولعل مشكلتنا بالمغرب هي أننا لم نراع الإطارات والأبعاد السالفة الذكر في كل محاولاتنا التنموية.

يمكن أن نتحدث عن خصوصيات التنمية قدر ما نشاء، لكننا لن نخرج بخلاصات مفيدة مادمت أفكارنا عن التاريخ الحديث والعولمة والدولة قومية غير واضحة ولم يحسم فيها.

إدريس كسيكس

بعد التطرق للإطار الفكري الذي يتم الاشتغال من داخله لتحقيق التنمية، نستمع للأستاذ محمد الطوزي الخبير في العلوم السياسية والمحلل الكبير للأحداث الميدانية، والعارف بتعقيد الواقع انطلاقاً من تحليل واقعي وميداني. نطرح عليه السؤال التالي : هل يجب التفكير في الحداثة بصيغة المفرد أم بصيغة الجمع ؟ هل المواطنة شيء مفترض أم أنها تتشكل قبليا حيث أننا لا نستطيع رؤية ما هو في طور التشكل ؟ ولعل الجواب على هذه الأسئلة سيساعدنا على التعرف على ما نسميه الحداثة الصامتة التي تسكن الواقع إلا أننا لا نلاحظها ولا نميزها بشكل كاف.

محمد الطوزي

لا أحبذ مفاهيم الثقافة، لا أعرف كيف أخوض فيها، ونفس الأمر بالنسبة لمفهوم الخصوصيات : فالأمر محير وعالمي وشامل. حتى حين يستخدمه أحدهم فإن في الأمر نوعا من الاختلال. ثم إن مفهوم الخصوصيات يحد الآفاق، والدليل أننا لا نتحدث عن الثوابت إلا في الدستور، وهي أحد مفاهيم الخصوصية التي ما انفكت تحد من رحابة الآفاق ولا زالت، كونها محددة ومعيارية. لأننا لا نعرف ما هو «الثابت». الإجابة على السؤال المطروح تتم في جزء منها عبر التفكير في العلاقة بين ما يمكن أن نسميه التأصيل والعادات والقيم والتمثلات. وينقلنا سؤال التنمية ببساطة إلى نظرية العمل، العمل في علاقة بماذا ؟
نتصرف بعقلانية في علاقة بماذا ؟ فيما يتعلق بالقيم والتمثلات التي تجعلها متجذرة في إطار محدد لا تجرد عنه : وهو ما يمكنني ملاحظته. ما هي التنمية ؟ في هذا الصدد أذكر أن السيد ولعلو مناضل يطالب بتحفيز وتوجيه الباحثين والأساتذة في تلك المرحلة انطلاقا من بنيته الفكرية الماركسية. في نهاية حياته المهنية، قال بأن هناك عوامل غير اقتصادية للتنمية، مع بدء التفكير حول سؤال : ما الذي يجعل الناس يعملون ؟ كيف يعمل الناس ؟ أي نوع من العقلانية تدفعهم إلى العمل بهذا الشكل ؟ الناس عقلانيون. وقد دفعنا هذا إلى تحديد مفهوم التنمية. بالنسبة لي، التنمية بسيطة للغاية : فهي لا تتعلق بمعايير وإنما بالقدرة على اختيار المصير ونوع الحياة ونوع الراحة والطعام والدين، فالأمر يتعلق إذا بالقدرة على الاختيار.
سأحاول في الدقائق القادمة مناقشة العلاقة بين التمثلات والقيم ومسألة تعريف المصير المشترك، على أن أتناول لاحقا التنمية في عالم تطبعه الطفرات، انطلاقاً من تجربتي الخاصة : في لحظة التنمية، ما نراه تنمية. بمعنى، كيف تشتغل هذه العلاقات ؟ ما هو رأي الناس ؟ ماذا يريد الناس ؟ ماذا يريد التقني ؟ وماذا يريده حتى ذلك «البروميثيان» الذي يسعى لتحقيق السعادة الإنسانية ؟ يبدو أنني سأتحرر في تمرين الارتجال هذا من مفهوم ثقافة الخصوصيات ومن مفهوم التنمية. سأخوض في التحليل بسرعة لأننا تحدثنا عن التقلبات الكبيرة التي نشهدها حاليًا، والتي تحدد أفق تفكيرنا، يصعب كثيراً التفكير خارج هذا القفص الحديدي للحداثة الذي قيدنا، والتفكير في التعقيد والسخافة. إذا مما يتكون هذا المستجد ؟ هناك ثلاثة تقلبات أساسية.
الأولى هي الطابع المهيمن إلى حد ما والذي نقارب من خلاله العالم، عالم يعبر عن نفسه من خلال أسلوب الإدارة. تقلل هذه الظاهرة من الانقسام الأيديولوجي وتقلص إلى حد كبير المسألة السياسية بالمعنى الفلسفي للمصطلح. إنها مسألة ترابط، حيث سيختزل دور الحكومة إلى مجموعة من الأدوات والتقنيات التدبيرية، ويحدد هذا التحول شيئاً ما أدوار المؤسسات السياسية، مثلما يحدّد أفق التغيير في الهيكلة والتنمية، إلخ. وهو يحدد مفاهيم الأداء والنتيجة ويؤدي إلى تصور للعالم يتم تدبيره بشكل أساسي من خلال الوسائل.

أما التغير الرئيسي الثاني فيتعلق بالمهنة، أي الطريقة التي ينقل بها المرء معرفته وما إلى ذلك. هناك إذاً نموذج شبه فريد وموحد للمعارف، وهناك توحيد للمعرفة يأتي من العلوم الدقيقة. هذا كله ينتج كما أبرزه الأستاذ عبد السلام من خلال الثورة الصناعية والفلسفة الوضعية... يمزج هذا النموذج بين العلوم والمقاربة «العلمية»، ويحدد معيارًا فرديًا للأداء ومعيارًا فريدًا لتمويل أنشطة البحث والتنمية، إلخ. ويرفض هذا النموذج العالم ولا يمكنه مقاربته إلا عن طريق التخطيط. إن خلاصة هذا التفكير الفعال والتخطيطي للعالم هو استخدام المنطق والعلوم الرسمية، وهو ما ينتج عنه «المحاكاة»، أي أنه فكر تقني، أحيانًا ما يكون تافهًا كما تعلمون جميعًا، فكرًا بدون ثقافة، بدون تاريخ، بدون فن وبدون جماليات.

بينما يتعلق التغيير الثالث بثقافة مرتبطة بتغير أنماط الانتقال بسبب الثورة الرقمية.

هذا الانتقال من الطباعة إلى الصورة يتعارض مع كل فكر نصي. عندما نتحدث عن الخصوصية والتاريخية والتميز، فالأمر لا يتعلق هنا بالعالمية. بيدَ أن «الفكر» و «المعقد» يُكونان ثنائيا حيث إن الحضارة الحديثة لم تعد قادرة على تحمل هذا الثنائي. وحتى نكون قادرين على التفكير من خارج هذه البوتقة، يتحتمُ علينا التفكير في مختلف أنواع الحداثة. في الأسبوع الماضي، خصصت أمسية لكتاب الصويري عن اليابان وأنواع الحداثة، وهذا أمر يهمنا بشكل كبير، لكن هذا الثنائي من التعقيد صار مستحيلاً. وإذا ما نظرنا إلى طريقة التدبير : يمكن التخطيط للمشاريع الكبرى وعرضها على برنامج «باور بوانت». وفي الواقع كل المشاريع الكبرى تعرض بهذا الشكل قبل الشروع في إنجازها. إن التفكير في التنمية على أنها مسألة تشاركية، ليست أبدا فكرة تدخل في إطار تاريخانية المجتمعات. أن يكون الشخص حاملا لفكر معياري غير ايجابي بتاتا. يمكننا البدء في التفكير من خلال أنفسنا وبعد ذلك يتعين علينا التفاوض مع الناس وكل هذا يشكل حزمة متكاملة لا يمكن فصلها.

سأعطي مثالا بسيطا عن تجربة تنموية : الكهربة القروية في قرية صغيرة. تم إشراك علماء الاجتماع في هذه المغامرة لمدة ست سنوات لإنشاء ورشات البناء والتفكير في العمليات التقنية والتفاوض حول الطرق التي ستسلكها هذه الشبكات والتفاوض على نوع المعدات داخل المنزل، وما إلى ذلك. في هذه العملية لم يتم التفكير في تأثير الفاتورة الشهرية على ميزانية أسرة لا تتوفر على دخل ثابت. ما هو نوع الهشاشة التي ندخلها إلى العالم القروي ! نقوم بتزويد العالم القروي بالكهرباء وخلق التنمية، ولكننا نقوم في الوقت ذاته بإضعاف هذا النموذج.

لن أتحدث عن القيود فقط، فالقيام بمشاريع التنمية هو أولاً تدبير للوقت. التنمية تستغرق وقتًا. وتظل إحدى الدروس العظيمة لخلق التنمية هو «اكتشاف» أهمية الوقت. التفاوض مع ساكنة المناطق المستفيدة من الكهربة تطلب وقتا كثيرا. لم تكن مشاريعنا مؤطرة من خلال أهداف محددة سلفًا، وحيث إذ كان ينظر إلى وقت التفاوض كاستثمار، وبالتالي يتم تأجيل كل المشاريع لأن المجتمع لم يصل بعد إلى النضج الكافي للتفاوض. ولهذا السبب كان من الضروري أن يتم احتساب وقت التفاوض الذي استمر أكثر من ثماني سنوات في تكلفة المشروع. وهكذا، التغيير الاقتصادي والاجتماعي يعرقله بطء سير الزمن في كل تجلياته عن الأطراف المعنية بالمشاريع التنموية.

وقع المشرفون على عملية التفاوض في أخطاء وطرحوا وضعيات وأسئلة في غير محلها. كيف تشرح لساكنة دوار صغير يجمعهم صراع تاريخي أبدي مع دوار آخر أن مصدرهم من المياه الذي يدخل في الملكية الخاصة سوف يستخدم في إنتاج الكهرباء التي سيستفيد منها الدوار الآخر، علما أن الماء والكهرباء يتوفران دائما في نفس الوقت، كيف نفسر لهم أن المصدر الذي يملكونه سيساهم في إنتاج الكهرباء لأعدائهم ؟ يُفسر هذا النوع من المشاكل تأخر مشاريع بالحسيمة مثلا. كيف يمكن فك شفرة التذمر الصامت لمجموعة من الشباب الممنوعين من التحدث في مجلس توافقي بينما يطرحون مشكلة خطيرة حول مسار إجباري لأنبوب الماء الذي يهدد بتوقف عشرات المطاحن المائية ؟ إذا ما تم إقصاء هؤلاء الشباب، بسبب ضيق الوقت، ستظهر المشكلة بعد ذلك. الجواب بسيط : نحتاج إلى وقت.

ولقد فاتنا هذا الوقت لفهم سبب معارضة مجموعة من الأعيان لشبكة الكهرباء تحت أرضية، على الرغم من الأدلة البيئية والتقنية التي عرضناها وعلى الرغم من اتفاقنا في التخلي عن مشروع أعمدة الأسلاك الذي يؤثر على جمالية المنظر العام. في وقت قليل اتضح أن هؤلاء الأعيان كانوا أساسا مقاولون أسندت إليهم الشركة المتعاقدة مع المكتب الوطني للكهرباء والماء الصالح للشرب صفقة أعمدة الأسلاك. كانت كل حفرة فارغة تم التخلي عنها تكلف هؤلاء الأعيان ستمائة درهم (كل حفرة متفاوض عليها بسبعمائة درهم وتنجز بمائة درهم). يدفعنا هذا للتفكير في الحداثة، وهي مفهوم معياري. شكلت تجربة الكهربة فرصة نادرة لمعالجة قضايا التغيير والعولمة، مع عوامل ثقافية أخذت بعين الاعتبار في دراسات وتحاليل الباحثين... علينا أن نوقظ جميع المؤسسات الحديثة المنغمسة في في سبات التقليد وأن نقوم بنقد ايجابي لنماذج التخطيط ونقوم بمساءلتها مع التأكيد على البعد التاريخي الخاص بمجتمعنا. إذ ليس كل نموذج قديم بالضرورة صالح وحتمي ؛ يجب أن نبدع نموذجنا الخاص المتسم بالحداثة. بالطبع، يمكن للناس أن يفتنوا بأشكال التماسك الاجتماعي وأشكال التعبير التعددية التقليدية، ولكن ليست هذه هي الديمقراطية : هي ليست سوى كلمات مضبوطة وهرمية. في الختام، تشير هذه العلاقة بين الثقافة والتنمية إلى قدر كبير من التواضع في تتبع سياق التعقيد الذي يميزها. حيث أنه بقبول فكرة المسارات متعددة تظل المبادئ مستعصية علينا. هذا ليس رفضًا لما هو كوني، بل إنه يشبه مفهوم الصوفية في الإسلام أي إمكانية وجود سبل متعددة للوصول إلى الله بمعنى إمكانية تحقيق الحداثة والتنمية عبر سبل شتى.

إدريس اكسيكس

أشكركم على هذه الخلاصة حول تعدد سبل التفاوض حول ما هو كوني، وهو أمر يحتمل عدة منزلقات يجب الوعي بها حتى لا نسقط في المعيارية من جهة و في الحنين للماضي من جهة أخرى. إننا عكس ذلك، نتبنى نوعا من اليقظة التي تمنح الوقت وتقبل بالزمن الاجتماعي وتأخذه بعين الاعتبار. سنمر الآن من المجال القروي إلى المجال الحضري. عبد الرحمان رشيق واحد من القلائل في المغرب الذين قاربوا منذ فترة طويلة مسألة الحركات الاجتماعية، حيث قام بدراسة تاريخها بشكل كبير ونشر مؤخرا كتابًا عن المجتمع والدولة، يعيد فيه كتابة تاريخ الحركات الاجتماعية في الفضاء الحضري. كما تركز عمله بشكل رئيسي حول مدينة الدار البيضاء. أعطيه الكلمة الآن ليحدثنا عن وجهة نظره حول الديناميات والتوترات بين المجتمع والدولة ونتائجها على التنمية مع مراعاة الثقافة ؟

عبد الرحمان رشيق

ترددتُ أيضاً قبل قبول المشاركة ومناقشة هذا الموضوع الشائك والمعقد. ما الرابط إذا - في علاقة بمجال عملي، علم الاجتماع الحضري - بين السياسة الحضرية وما يُنظر إليه على أنه خصوصيات ثقافية، ليس فقط من قبل الإدارة الاستعمارية ولكن أيضًا من قبل الدولة المغربية ؟ مفهوم الخصوصيات الثقافية مهم بالنسبة لأنه لا يتعلق فقط بالقيم، وليس مجرد خطاب موجه للاستهلاك بل لكونه يشمل البعد العمراني أيضا. حتى نهاية الثمانينات، كان هناك حرص على تلبية المتطلبات الهوياتية للساكنة الحضرية المغربية من خلال المباني. كيف نبني مدينة خاصة بالسكان المغاربة المسلمين، هل لأن الساكنة اليهودية مختلفةً، أي بمقاربة أخرى ؟ يتمثل المبدأ الأول للخصوصية الثقافية لدى ليوطي في احترام المؤسسات المحلية والهوية المحلية وعادات وتقاليد المغاربة المسلمين. أنا أصر على هذا لأن هذا هو مكمن المشكلة.

ويلخص اقتباس لمقولة لليوطي بشكل جيد تأثير ما يُنظر إليه على أنه خصوصيات ثقافية على المدينة والمقاهي وتصميم المساكن. حيث يقول ليوطي : «*تعلمون كم يغير المسلم على خصوصية حياته الخاصة، عندما تلاحظون الشوارع الضيقة والواجهات دون فتحات أو نوافذ التي تخفي وراءها كل زخم الحياة، إذ تُزهر الأسطح بدفء الحياة العائلية إلا أنها يجب أن تبقى بعيدة عن أعين المتطفلين*».

وسيكون لمقولة ليوطي هاته تأثير قوي على المدن المغربية بقوة منذ عام 1917، وهي الحقبة الأولى التي تطورت فيها المدن المغربية الكبرى، حتى ثمانينات القرن الماضي. وهنا نسوق مثال حي الأحباس بالدار البيضاء حيث تمت مراعاة أسلوب البناء المغربي. أفكار كثيرة طبقت منها مثلا فكرة الأحياء الضيقة في الأحياء المخصصة للمسلمين، وليس فقط الأعيان.

تم احترام هذه الخصوصية في حي كوسومار حيث استقرت الطبقة العاملة. وبالتالي ظلت الشوارع ضيقة كما في المدينة القديمة، ولكن بشكل هندسي وعقلاني ومستقيم هذه المرة. وتعني عبارة «الواجهات بدون فتحات» أن المغاربة كانوا لا يحبذون حتى سنة 1987 السكن بنوافذ. وحتى سنة 1987 قامت الدولة ببناء مساكن اجتماعية حسب ما يسمى «السكن الإسلامي التقليدي» : سياج، جدران مغلقة، مع وجود فناء، بلا نوافذ، إذ أن الهواء وأشعة الشمس ينفذان من الفناء.

ولقد تم تمديد العمل بهذا المخطط حتى سنة 1987 التي شهدت انطلاق سياسة ضخمة لبناء المساكن الاجتماعية. في الدار البيضاء، تم تشييده تسعة آلاف وحدة سكنية ببن مسيك فقط. حيث تم إعادة إنتاج نموذج مدينة متوسطة بمساكن مصممة وفق تصور الخصوصية الثقافية كما كان يفضلها «ليوطي» و«إيكوشارد»، وذلك منذ الاستقلال حتى أواخر الثمانينات في الأحياء التي استجابت إلى ما كان ينظر إليه منذ عام 1917 كشرط للهوية. منازل كثيرة جدا، وفردية بالطبع. ولقد خاطب المرحوم الحسن الثاني المهندسين المعماريين بهذا الخصوص قائلاً: «*لكي نحترم المغاربة، يجب أن نمنحهم مساحة كبيرة نسبياً، مساكن واسعة ومساكن فردية*».

لذلك، لا مكان للسكن الجماعي. وبين عامي 1984 و1987 قمنا بتشييد مدينة بمساكن فردية، وثنائية، بطابق واحد. ونظراً لهذا الإكراه الناتج عن ندرة وتكلفة العقار في الدار البيضاء كان من الضروري التراجع عن هذه السياسة لأن الأرض كانت مستنفدة نسبياً. ومن هنا أصبح على المغاربة العيش في إقامات جماعية وتم لهذا الغرض تأسيس شركات لبناء هذا النوع من المساكن. منذ ذلك الحين، بدأت الدولة في الانسحاب تدريجياً، حيث تركت لوزارة التعمير والإسكان مهمة العناية بهذه المساكن الجماعية عبر تفويت صفقاتها لكبار المنعشين الخواص، وهو ما شكل تطوراً جديداً. لم أتحدث عن خصوصية هذه الأحياء : في الفترة الأولى، كان الهدف يتجلى في البحث على حميمية الأسرة.

عندما نذهب إلى حي الحبوس أو الأحياء الأخرى من نفس النوع، نشعر بتوحيد في السكنى التي تتنفس الحميمية العائلية ببساطة، وكذا من خلال الشوارع الضيقة، وجميع المرافق التي يمكن أن تخلق روابط اجتماعية وتوفر مرافق إدارية بالاضافة للبقال والصيدلية...

جميع المرافق العامة توجد خارج الحي وكذلك شبكات الطرق الرئيسية. لذلك تم وضع كل ما من شأنه أن يخلق روابط اجتماعية مع بداية فترة الحماية.

على عكس الفترة منذ الخمسينات عندما بدأ الجيل الجديد - ما يسمى بالمهندسين المعماريين الحديثين - في التعبير عن قلق اجتماعي أرغم المهندس المعماري و المخطط الحضري على التفكير مفهوم المدينة أو الحي، لإظهار الرابط الاجتماعي.
أما بالنسبة للمرافق، وعلى عكس الفترة الأولى، تم تركيبها هذه المرة داخل الوحدات السكنية، والتي أطلق عليها إيكوشارد «وحدات الجوار»، وذلك لإنشاء هذه البنية الاجتماعية وإجبار الناس على الاجتماع في فضاءات مناسبة، فضاءات الحفلات وفي محلات البقالة... فعلنا عكس ذلك مع سياسة الإسكان الضخمة التي أعقبت أحداث سنة 1981، عندما تدخلت الدولة بقوة في بناء المساكن الاجتماعية.

إدريس كسيكس

قام السيد عبد الرحمن بمقاربة سوسيولوجية للمناطق الحضرية. لقد أشار إلى شيء مهم، نوع من الثقافة الاستعمارية التي كانت حاسمة، حتى في أوقات ما بعد الاستعمار ليعاد إنتاجها بشكل مختلف. ويبقى السؤال الرئيسي في النهاية ما هو الرابط بين كل ما سمعناه اليوم ؟ تتعلق مسألة الحداثة بالفرد، بيد أن مسألة التنمية تتعلق بالروابط. يكمن المشكل إذا في الكيفية التي نتوجه بها نحو الحداثة أو كيف نبدأ ببناء الحداثة الجماعية ؟ وكيف نبني في الوقت نفسه الروابط التي تساهم في التنمية ؟ السؤال الحقيقي هو ذلك الذي يهم الروابط. ينطبق هذا مثلما على السكنى وينطبق على الإصلاح الديني. وينطبق على كيفية الخروج من اقتصاد ريعي وبالتالي الخروج من «الذاتية» في السياسات الاقتصادية ؛ وينطبق أيضا على الحتميات الحاسمة التي يجب أن نأخذها بعين الاعتبار، وخاصة المسألة اللغوية. ولقد قمنا بعكس السؤال المطروح سؤال كيف نتعامل مع الوقت في العالم القروي، خاصة عند تفاعلنا مع الناس ؟
في كل مرة، تكون مسألة الرابط مركزية وحاسمة، ومنه بناء الرابط وفهم المكان الذي نتواجد فيه واستيعاب الأفق في نفس الوقت. ونلاحظ ذلك حتى عندما نكون في المناطق الحضرية، في السكنى، نتحدث عن الفضاء الذي يكون فيه الأفق شبه مغلق.

بوعبدلاوي يحيى

أنا أستاذ باحث في جامعة الحسن الثاني، وأشارككم الرأي بخصوص تعقيد هذا الموضوع. ماذا عن محاولات الإصلاح ؟ ما أخبرنا به ابن خلدون عن التخطيط الحضري يربط درجة التنمية بالجودة وبالخصوصية الحضرية. لسنا بصدد ليوطي، انظروا لما تم بناؤه في غرناطة وشفشاون وفاس والقيروان، إلخ. إنها إضافة تندمج بشكل جيد في الجمالية وفي الحياة.

معاذ الجامعي، الوالي

لا يمكننا أن نُنكر أهمية الخصوصيات الثقافية على الرغم من العولمة، مع كل ما نراه. وسوف أتطرق لأمثلة في هذا الصدد. أولاً، لقد بدأنا هذا اللقاء متأخرين بربع ساعة ولم يكن الأمر صادما لأي أحد من الحضور. عندما طلب أحد أقرباء من محمد الفاسي، رحمه الله، أن يترك نصيحة للمغرب وهو على فراش الموت، أجاب «إذا ما احترمنا الوقت، فإنني أعتقد أننا سنبلغ مراتب متقدمة».
الملاحظة الثانية هي أن أحد المتدخلين، وهو وزير سابق، غير حاضر معنا ولم يصدم هذا أحدا أيضا. وأعتقد أنه كان عليه أن يعتذر عن الغياب. والأسوأ هو غياب مسير الجلسة الأصلي، ومن الخاصية المغربية أن طلب الأستاذ من طالبه السابق أن ينشط الحدث، هذا يحيل على عدم احترام المشاركين وتفشي أسلوب للارتجال : نطلب من السيد إدريس، الذي أهنئه بالمناسبة، أن يتحمل المسؤولية، إذ أمامه تحد كبير : أربع شخصيات كبيرة تلقي مداخلاتها. فهو يتفاوض مع جاره السيد الشدادي حول أخذ الكلمة، وبعد ذلك، وعلى مسافة مع السيد رشيد ليضعه في المرتبة الرابعة.

هكذا تساعدنا الثقافة في إدارة تعقيد المواقف. هكذا بدأت هذه المائدة المستديرة. أعتقد أنها خصوصية مغربية، أحدثكم عن تفاصيل صغيرة، لكن للأسف دلالاتها كبيرة. أعود إلى سؤالي. أتمنى أن نتحدث قليلاً عن العولمة وعلاقتنا بها. من المفروض أن يتطرق هذا اللقاء الأول في وجدة للثقافة. وأعتقد أنه لا ثقافة بدون تنمية.

رحل بنا السيد الشدادي مداخلته إلى المستوى الفلسفي ومستوى القيم. أعتقد أن هناك ثورات كبيرة عرفتها البشرية، لا بد من الإشارة إليها أهمها الطباعة التي أحدثت ثورة في العالم والكهرباء والثورة الرقمية. لقد غير الإنترنت كل القيم بشكل كامل. لا نرى جميع العواقب لأننا ما زلنا نمر بتغييرات. الأول هو ذلك القدر من الطاقة السلبية الذي يجب أن نتحكم فيه. حيث أننا نقضي المزيد من الوقت في حل المشكلات الزائفة أكثر من المشاكل الحقيقية. وقد استشهد السيد الطوزي بمثال الكهربة. لو كان هناك استماع إيجابي في البداية، ولو كانت الأولويات قد وضعت على أساس الحقائق الاقتصادية واحتياجات الساكنة، لكان بإمكاننا تجنب وضع مخططات أدت إلى تدهور الوضعية الاقتصادية للعائلات المحلية.

أنهي حديثي بمخاطبة صديقي رشيق الذي أكن له الكثير من الاحترام وسأقرأ لكم واحدة من كتاباته : «*أنا آسف عندما نفكر في المغرب من خلال ليوطي*». مع كل الاحترام الواجب، تحدثت عن كيفية بناء هذه الأحياء الضيقة، كان ذلك لأسباب أمنية فقط. وفي الواقع، حتى مسميات تلك الفترة كانت «أصلية» وكانت أيضا نسخة من أحسن وأقوى ما كان عندي، لأننا للأسف لا نحترم أنفسنا بما فيه الكفاية. إذا أخذنا مدن تطوان وفاس ومراكش، وإذا رأينا كيف بنيت كل مدينة قديمة منذ اثني عشر قرناً، وكيف لنا ذلك الاحترام للأمكنة العامة والخاصة، وللأشياء الفوضوية، والفضاءات التي أصبحت عصرية (مدن الصفيح مثلا) بالرغم من عدم تناسقها وانعدام جماليتها والتي كانت أمام أعيننا منذ البداية... هذه هي خصوصياتنا التي لم نتمكن من المحافظة عليها أو تطويرها لكي نستفيد منها اليوم.

كيف نعالج كل هذا ؟ «مدينة الصفيح» ظهرت في عين السبع، حيث كان هناك مصنع وكان الناس مجبرين على إيجاد مساكن بالقرب من أماكن عملهم : هكذا نشأت كل هذه المدن الصفيحية. كانت ساكنة الدار البيضاء في عام 1905 تقدر بخمسة وعشرين ألف نسمة. ولقد نشأت الدار البيضاء بفضل الميناء، وهو ما يفسر كل الأضرار التي نواجهها في التنمية. كيف نبتكر تنمية بطريقة ذكية دون أن نخضع لها ؟ كما قال السيد ولعلو : نحن نعاني أكثر مما نخطط وتلك نتيجة أخطائنا.

إدريس كسيكس

بالنسبة للجانب التنظيمي، اتبعنا في الحقيقة سياسة ترقيعية، لكنكم تعلمون أن الحلول «الترقيعية» ربما تكون أحيانا أحسن من تلك المخطط لها. لذلك ليست تلك بمشكلة كبيرة. بخصوص مسألة الاختيار لا بد من القول أن الاختيار يكون حرا عند توفر القدرة والإرادة الحرة.

ماكي كاكون

جاءت مداخلة السيد الشدادي في محلها، قال أحد الحكماء أن الشعب الذي لا يعرف تاريخه لا مستقبل له. إن الشعب والمستقبل والمواطن المتحضر، كلها مسائل مرتبطة بالتعليم. لا يمكننا حرق المراحل. إذا لم يتم أداء رسالة التعليم بشكل جيد، وإذا لم نعرف تاريخنا بشكل جيد، فلن يكون هناك أبدا أي تنوع او أي روابط.

العربي «باحث»

فيما يتعلق بالدولة القومية، يقول السيد الشدادي أننا في إطار لا يمكن تجاوزه. إن الدولة القومية بناء أوروبي : فلا وجود لها في شكل أو صيغة كونية.

في الواقع، هناك العديد من الدول القومية القوية، وحيثما تكون الدولة قوية، تلعب الشركات متعددة الجنسيات دوراً هاماً إذ تتجه نحو الدول الفاشلة والأكثر فسادا. عوض التحدث عن الخصائص، ألا ينبغي لنا أن نتحدث عن التراث ؟ أعطي مثالا على ذلك لأننا نتيه في مسألة الخصوصية هذه. قبل بضع سنوات، أجاب أحد علمائنا الكبار عن سؤال في التلفزيون عن ماهية الحديث النبوي الصحيح، وقال إن بعض المصادر تقول إن الأحاديث النبوية الصحيحة تعد بأربعين ألفًا وآخرون قالوا ثلاثين ألفًا وآخرون ثلاثة آلاف وأنه يعتقد أن العدد أقل بكثير من ذلك...

فهل لكم أن تتصوروا حيرة الملايين من المشاهدين المغاربة في تلك اللحظة، على الرغم من أنه ربما كان على حق. إنني أسمع نفس الكلام حول الخصائص لفترة طويلة جداً ولم يخبرنا أحد ما هي هذه الخصائص في المغرب - من حيث القيم - وما هي الخصائص الجيدة والسيئة لتسريع التنمية، وأقول هنا أنه لا وجود لخصوصيات دون الاستجابة لفلسفة الولادة والوجود. في الواقع، لن يكون هناك سوى وجود واحد واتجاه واحد لتحسين وجودنا.

خالد الزكري

نحن لم نتحدث بعد بعمق عن فكرة الحداثة، والإطار الذي نضعها فيه. ويبقى مصطلح «الوعي التاريخي» إشكالياً للغاية حيث لدينا مشكلة وعي تاريخي. نعيش الكثير من الأشياء، لكن لا نضفي عليها إطارا مفاهيمياً، ولا نقوم بترشيدها عبر خطاب معين حيث أنه فجأة يصبح هذا الأمر منتشرًا، خارجا عن كل الضوابط.

ومن ناحية أخرى، تحدثنا عن العديد من الأشياء المثيرة للاهتمام، من التمدن إلى التدبير ومسألة الاحتواء، لكننا لا نستطيع أن نفهم دور الدولة في الاحتواء، ربما في تنفيذ التنمية. تبقى الرغبة شيء والإرادة شيء، بيد أن التنفيذ شيء آخر. إذ غالبا ما نرغب في الاحتواء السياسي لمسألة التنمية.

أما فيما يتعلق بتأثير العولمة، نسجل فقدان الدولة لسيادتها واختفاء الدولة القومية. والمشكل لا يُطرح فقط بالنسبة للبلدان النامية، بل أيضا للبلدان المتقدمة : ومن ثم تُفقد السيادة مع العولمة والشركات المتعددة الجنسيات. وتتحرر التدفقات المالية من السيطرة التي يمكن لدولة قومية أن تمارسها عليها.

لطيفة

أنا طبيبة وعضوة في المفتشية الجهوية للسكنى والتعمير وجدة/فجيج (CRPH)، وأنا أستمع إليكم، أدركت مدى تعقيد قضية الخصوصيات الثقافية. وبصفتي شخص يحاول فهم العالم، ألفت انتباهكم إلى وجود هذه الخصوصية الثقافية في دستور 2011، وللأمر تأثير كبير على تطبيق القوانين التي تخص حياة أكثر من نصف المواطنين المغاربة، أي النساء، اللواتي يعانين من ضعف التنمية بسبب منعهن من أرباحهن والأصول الاقتصادية التي تحق لهن.

ادريس كسيكس

أظن أن السيد محمد الطوزي تطرق لهذه النقطة الأخيرة، أستاذ محمد أعطيكم الكلمة لبضع دقائق.

محمد الطوزي

إن المسألة معقدة وخطيرة جدا في نفس الوقت. أعتقد أنه علينا قراءة النصوص بحذر أكبر. كان يمكن أن أتحدث عن الشرق. وبالطبع يمكن أن نتحدث عن ذلك، لكن لا يمكنني أن أتحدث هنا عن الخصوصية. أي أنني لا أستطيع إيجادها. فالخصوصية جزء من ديناميكية يجب مراعاتها في طريقة رؤية الناس للأشياء. ما هي القيمة التي يعطونها لأفعالهم وفي علاقة بماذا ؟ لقد تمكنت العلوم الاجتماعية من الاشتغال في هذا الاتجاه.

حتى الدولة لا يمكن أن تقرر ما هي الخصوصية. إنها معيارية جداً، وتتعارض أحياناً مع ما يفعله الناس. هذه أشياء يمكن ملاحظتها، إنها ديناميكية تتغير وتتحول...

عندما نأخذ بعين الاعتبار الحوافز، يمكن أن تكون ثقافية أو دينية... أو ببساطة المصالح التي يديرها الناس بعضهم البعض. هي مسألة معقدة للغاية تدفعنا إلى ملاحظة هذه الأشياء وهذه التغييرات لمواكبة عملية التنمية والتفكير فيها مليا. عندما نتحدث عن الكهربة القروية، فذلك تعبير جيد عن التنمية. حيث تمت كهربة القرية في غضون بضع سنوات.

الآن، وفي مرحلة معينة، علينا أن نذهب ونرى ونناقش مع الناس ونطرح السؤال : لماذا تم التخلي عن توفير الكهرباء من خلال بطاقة للتعبئة ؟ لأن التقنيين وجدوا أنها معقدة للغاية لتدبيرها حيث أن الاشتراك لم يكن مربحا للمكتب الوطني للكهرباء. لكن وحده التفكير والتتبع والمداولات بإمكانها توجيهنا لما هو خصوصي. فخصوصية سوس ليست هي خصوصية الشرق.

في الشرق تصبح الخزينة ممتلئة بعد عيد الأضحى وفي شيشاوة بعد موسم جني الزيتون، هاتان لحظتان مهمتان لتعبئة الخزينة العامة، وهذه هي الخصوصية : إنها ليست معيارية، فالعقلانية هي ما يجب البحث عنه على أرض الواقع وهي التي يجب أن نفكر فيها وعبرها.

في الاقتصاد الكلي، تمكننا مسارات التنمية التي تنهجها الدول من تحديد مراتب الدول. فالحكم في الصين وفرنسا ليس الحكم في المغرب، كما أن الناس لا ينتظرون نفس الشيء من الحكومات في الدول المختلفة لأن الأداء السياسي ليس هو نفسه هنا أو في مكان آخر. يجب أن ننظر إلى السياسة ونبحث عن بعض الأفكار التي نحتاجها : فنحن بحاجة إلى الاستثمار في معرفة التعقيد.

لذا، نحن بحاجة إلى مزيد من العمل على التاريخ والعلوم الاجتماعية. كما أننا بحاجة إلى مزيد من التقنيين الأكثر تعليماً : هذا هو التدبير. نحتاج قبل كل شيء إلى التداول والتفاوض والتحدث كثيراً وفسح المجال للناس ليدافعوا عن مصالحهم وانتظارا تهم، وهذا هو أهم شيء. لذلك فهم بحاجة إلى المزيد من الديمقراطية.

تكريم لفاطمة المرنيسي وآسيا جبار

رئيسة الجلسة : سناء غواتي
المشاركون : عائشة بلعربي، حورية عبد الواحد، ربيعة جلطي (الجزائر)، ليلى مروان (الجزائر)، حبيب بن صالحة (تونس)
فضاء : آسيا جبار
التاريخ : يوم السبت 23 شتنبر 2017
الساعة : 11 : 15 - 12 : 45

موجز مداخلات المائدة المستديرة

كانت النسخة الأولى من المعرض المغاربي للكتاب بوجدة فرصة لتكريم العديد من الكتاب والباحثين الذين برزوا لسنوات عديدة في المشهد الأدبي المغاربي. حيث اختارت اللجنة المنظمة تكريم الكاتبتين «آسيا جبار»، الأكاديمية الفرنسية ذات الأصول الجزائرية، والمغربية «فاطمة المرنيسي»، عالمة الاجتماع، والتي كرست حياتها للنضال من أجل حقوق المرأة. هاتان الشخصيتان رحلتا عنا في سنة 2015.

وتعد آسيا جبار المرأة العربية والمغاربية والإفريقية الوحيدة، التي استطاعت في سنة 2005، أن تنتخب عضوًا في أكاديمية اللغة الفرنسية، وهي أرقى مؤسسة فرنسية تختص بتراث اللغة الفرنسية، حيث أسهمت بأكثر من عشرين عملا في مجالات الرواية والمسرح والشعر.

كما أنها عرفت أيضا بموهبتها في السينما، سواء على مستوى الإنتاج أو الكتابة. وهي تعتبر من بين الشخصيات الرئيسية التي ناضلت من أجل حرية المرأة ومن أجل الاعتراف بدورها داخل المجتمع الجزائري، كما ناضلت من أجل استقلال بلدها. حيث كان يطلق عليها «كاتبة المقاومة». وقد رشحت لنيل جائزة نوبل في الآداب سنة 2009.

من جهة أخرى، أصدرت الكاتبة وعالمة الاجتماع، «فاطمة المرنيسي» العديد من الكتب والمقالات عن المرأة خاصة وضعية المرأة المغربية والعربية في المجتمعات العربية، حيث ألفت أكثر من 15 كتاب وألقت العديد من المحاضرات في الجامعات والمؤتمرات العربية والغربية. كما أنها ساهمت في إنشاء عدد مهم من الجمعيات والنوادي الأدبية، حيث صنفت كواحدة من بين 100 امرأة مؤثرة في العالم، ولقد حققت هذه النجاحات بفضل تضحياتها ونضالاتها من أجل تحسين الظروف المعيشية للمرأة في عالمنا العربي.
ولم تفوت الكاتبتين الفرصة للتطرق إلى إشكالية بعض التأويلات الخاطئة أو الظرفية لعدد من الآيات القرآنية والأحاديث. لكنهما صادفتا شتى أنواع المعارضة الشرسة التي بلغت حد التعنيف واتهامهما بزعزعة الاستقرار العام. رغم أن معارضة هذه الأفكار مازالت قائمة حتى اليوم إلا أن أعمالهما صارت محل إجماع كبير.

سناء غواتي

شرف عظيم أن أترأس هذه المائدة المستديرة تكريما لشخصيتين كبيرتين من أعلام المغرب الكبير، إحداهما عالمة اجتماع ومؤلفة وروائية والأخرى شاعرة ومخرجة سينمائية وكاتبة مسرحية. جبار والمرنيسي هما رمزين لكفاح نساء المغرب الكبير وهما نجمتان لم ينطفئ أبدا نورهما رغم أنهما رحلتا عنا سنة 2015. إذ تنطلق السينمائية والأدبية من الفرد لتصل إلى المجتمع. أما أعمال فاطمة المرنيسي، فتهم الشأن الاجتماعي، مع أنها ألفت أيضا رواية خيالية، لتحقق متعة القراءة إلى كل النساء على اختلافهن. وكانت الكاتبتان تحاضران في جامعة محمد الخامس في الرباط حيث درست آسيا جبار لوقت قصير عام 1959 في حين كانت فاطمة المرنيسي أستاذة باحثة في المعهد الجامعي للبحث العلمي. ولقد أعادت كل من جبار والمرنيسي قراءة التاريخ الإسلامي من منظور نسائي، و أعطتا نظرة جديدة وأنثوية إلى النصوص القديمة.

وللإشارة، كتبت المؤلفتان في موضوع إشكالية الصراع والمقاومة وتشابهت آراؤهما حول عدد من النقاط وإن اختلفت التوجهات. فحين وجدت إحداهما مبتغاها في الأدب الخيالي والكتابة السينمائية، انكبت الأخرى على العمل الميداني وتمكين النساء من التعبير عن أنفسهن من خلال مشاريع على أرض الواقع.

ويحضر معنا اليوم عدد من المدعوين المحترمين للحديث وتسليط الضوء على حياة رمز من رموز الأدب والبحث العلمي في المغرب الكبير. ونبدأ مع عائشة بلعربي، عالمة الاجتماع والناشطة في مجال حقوق المرأة وكاتبة الدولة في وزارة الشؤون الخارجية والتعاون سابقا قبل أن تشغل منصب سفيرة المغرب في الاتحاد الأوروبي. ناقشت الأستاذة بلعربي إشكاليات عدة في الكثير من مؤلفاتها مثل «أزواج وتساؤلات» انطلاقا من سنة 1990 و«أجر المرأة» و«وضعية الفتاة في المغرب» و«حقوق الإنسان في الكتب والمقررات المدرسية» و«وضعية الفتاة في العالم العربية. كما أن المرأة حاضرة في أعمال منها «نساء قرويات» و«سلا : التراث وروح المكان» و«المساواة والمناصفة، تاريخ متعثر» و«هجرة نساء المغرب العربي إلى أوروبا» سنة 2012، و«تحديات الهجرة في المتوسط» في 2013. وما فتئت أن انتقلت إلى نوع أدبي آخر كما فعلت فاطمة المرنيسي من خلال ديوان قيد النشر تحت عنوان «انطباعات وتعابير». فماذا تمثل هاتان المرأتان بالنسبة إليك، سيدة بلعربي ؟

عائشة بلعربي

إنه لشرف كبير أن أحضر في أول معرض مغاربي للكتاب في وجدة الذي يمثل خطوة في الاتجاه الصحيح نحو بناء المغرب الكبير. فالمغرب الكبير حقيقة نؤكدها اليوم ونتذكر جميعا تاريخنا المشترك ومعاركنا خلال سنوات التحرير الذي دب في مختلف ربوع المغرب الكبير. المغرب العربي موجود على الأرض إلا أن الاستعمار ضيّق الحدود بين بلداننا، لكن روح الكفاح التي تجمعها هي الأمل في التحرر من المستعمر وإرادة البناء من جديد. ويعد اللقاء الأول في طنجة سنة 1958 أسمى تعبير عن هذا التلاحم المغاربي وإمكانية بناء هذا المغرب الكبير. كنا نطمح إلى بنائه سنة 1989 مع إنشاء اتحاد المغرب العربي. ومع أن الانطلاقة تعثرت لأسباب سياسية، إلا أنني أعتقد أن مغرب المفكرين الكبار موجود. مغرب الشعراء والأدباء ومغرب الشباب والنساء. ولأجله اجتمعنا اليوم. ومن هنا، كل أملي أن يكون المفكرون اليوم أكبر دعاة إلى المغرب الكبير لأن فينا قوة ورغبة كبيرتين في جعله مكانا يتنقل فيه الأشخاص والأفكار بحرية من أجل الصالح العام. ويسعدني أيضا التفاتة منظمي المعرض إلى هاتين الشخصيتين الكبيرتين واختيار مفكرتين مغاربيتين متميزتين من بين آخرين من أمثال عابد الجابري ومحمد أركون الذين سلطوا الضوء على الفكر الإسلامي المعاصر وروح العروبة التي نفخر بها.

وواجب علينا نقل أفكارهم إلى الشباب ومساعدتهم على فهمها من أجل تطويرها. استمتعت بقراءة مؤلفات آسيا جبار كما حظيت بفرصة العيش بجوار فاطمة المرنيسي.

تعرفت عليها عند عودتها من الولايات المتحدة وودعتها فقط شهرين قبل وفاتها. عشنا تجارب كثيرة معا ومازلت أحتفظ بذكراها في خاطري. ولدت المفكرتان في عهد الاستعمار في المغرب الكبير: آسيا في سنة 1936 وفاطمة في 1940. الأولى أديبة وسينمائية وكاتبة مسرحية، والثانية باحثة اجتماعية. كان لهما مؤلفات بالفرنسية والانجليزية وحضور في الجامعات الأمريكية والغربية وحتى العربية بالنسبة لفاطمة. ترجمت مؤلفاتهما إلى لغات عديدة.

ورغم اختلاف المكان، فإن المسار النضالي كان متشابها مع بعض الاختلافات. من بين أوجه التشابه العديدة موضوع الحدود، فنساء المغرب العربي تصادفهن حدود على مستويات متعددة، حدود الانغلاق والحدود بين الحياة العامة والشخصية والحدود العائلية والفئوية بالإضافة إلى الحدود بين الدولة والشعب، حيث تعمل الدولة مع النخبة بعيدا عن الشعب دون تواصل فعال. تعد الحدود عقبات وموانع بطبيعة الحال كما أنها ترسخ العلاقات المبنية على السيطرة والتحكم. وما يجب الانتباه إليه هو أن الحدود ليست في المكان والفضاء فحسب وإنما الحدود تسكن أيضا الأذهان والعقليات والقلوب وتساهم في تشكيل الهوية، لذلك يجب التفكير في كيفية كسر الحدود وفتح ثغرات لاختراقها شيئا فشيئا.

كانت لهاتين السيدتين الجرأة والشجاعة في كشف الستار عن الوضعية السياسية والاقتصادية والاجتماعية في بلديهما، كل واحدة بطريقتها، في عصر كان فيه المغرب الكبير مضطربا وتحت وطأة الاستعمار ثم ثورات التحرير ومسار الاستقلال المليء بالصعاب وسنوات الرصاص في المغرب والعشرية السوداء في الجزائر. يمكن القول إنهما كانتا محاربتين ثائرتين وناشطتين نسائيتين تفيض أقلامهما بالذكاء والرقة والتحليل الدقيق للمجتمع.

استنكرت كل من جبار والمرنيسي ازدراء النساء في البلدين وهو موضوع تطرقنا له باستفاضة. تحدثت آسيا في كتابها «المرأة التي لا قبر لها» الصادر عام 2002 عن موجات الاستقلال التي أغفلت دور النساء. وانتقدت فاطمة في مؤلفاتها المجتمعات التي تضيق على المرأة. وما كان يميز مؤلفاتها هو مسألة تدبير الأعمال اليومية والمنزلية والعلاقات الزوجية. حيث أعادت كل من جبار والمرنيسي الاعتبار للمرأة.

تطرقت جبار والمرنيسي أيضا إلى موضوع الإسلام عبر الدعوة إلى إسلام التسامح والإنسانية والعدالة أيضا. في كتاب «بعيدا عن المدينة» الصادر في 1991، أبدعت آسيا في التحليل التاريخي لدور النساء في المجتمع آنذاك، حيث إن فتح المدينة المنورة لم يكن هينا وسهلا. فقد كان على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن ينتظر ويبعث القوة في نفوس رجاله وكان دور المرأة بالغ الأهمية إن لم نقل حاسما.

وانتقدت فاطمة في مؤلفها «ابن طفيل» الصادر عام 1975 التفسيرات القرآنية الخاطئة التي تخضع المرأة لهيمنة الرجل. ولقد مكن كتابها «الرسول وزوجاته» عام 1987 من أن تصبح معروفة على الصعيد الدولي. ويسلط هذا الكتاب الضوء على التفرقة والتمييز بين النساء والرجال. هو كتاب جميل وعمل عظيم أعاد النظر في قضية ووضعية المرأة في المجتمع خصوصا في النصوص الدينية المرجعية التي تساهم في إقصائها من السلطة.

وكانت المرنيسي الأولى التي راجعت وناقشت حديث أبي بكر (لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة). الذي كان السبب وراء حرمان المرأة من إدارة الشؤون العامة والحكم. ولقد جر هدا العمل على المرنيسي تهديد الإسلاميين لأنها تجرأت على طرح أسئلة حول نص ديني والجزم بأنه نص مغلوط ومزيف وأنه ليس من تأويلات القرآن وأن القرآن بعيد عن كل ذلك. وكان ما دفعها إلى التفكير أكثر هو تولي «بينظير بوتو» الحكم في دولة إسلامية كبيرة كباكستان عام 1988. تشير فاطمة أيضا إلى قصة «السلطانات المنسيات» إلى نساء عظيمات طوى الزمن أثرهن، نساء ساهمن في بناء وتطوير بلدانهن والدفاع عنها. ومن الرائع القول إن النساء قادرات على الحكم والقيادة رغم إقصائهن باسم الإسلام والنصوص الدينية.

والمثير للاهتمام أن الكاتبتين كانتا تعشقان شهرزاد وقصص ألف ليلة وليلة، وما تنم عنه شخصيتها من إرادة ومثابرة وفطنة في زمان كان الحاكم يقتل فيه النساء دون رادع. شهرزاد تمكنت من العيش بفضل اللغة والرواية والكلمات. وهذا ما نجده في كثير من مؤلفات فاطمة المرنيسي.
وقامت المؤلفتان بمهمة رائعة : مناهضة الإسلام السياسي. في كتاب «بعيدا عن المدينة» لآسيا جبار وفي «الرسول وزوجاته» للمرنيسي وجل أعمالها نلمس استحضار مؤلفات مغاربية نشرت في عقدي 1980 و1990 في ورشات وحدت النساء المغاربيات وساهمت في تطوير الفكر النسائي ونشر أعمال مثل «المرأة والعنف في المغرب العربي» و«المرأة والمجتمع المدني في المغرب العربي». هذا بالإضافة إلى كتاب جامع للنصوص الدينية والأحاديث، وكلها تصب في موضوع المساواة والمناصفة بين الرجال والنساء. أود أن أشير إلى كتاب رائع للمرنيسي بعنوان «الخوف من الحداثة» الصادر سنة 2014 في مواجهة الحكومات العربية، لأن الحداثة تبدأ بالمرأة عبر منحها حرية التعبير والحق في الحكم بالمساواة مع الرجل. إلا أن تخوف الرجال يدفعه إلى إقصاء المرأة و بالتالي التهجم و إلحاق الضرر بالديمقراطية.
أعود إلى قضية الحب لأنها حاضرة بقوة في تلك المؤلفات. فمنذ سنة 1957، في رواية «العطش»، تتحدث آسيا جبار عن الحب والعشق والجسد الأنثوي. وترسم المرنيسي، من جهتها، في مؤلفات عديدة مثل «خمسون اسما للمحبة» و«روضة المحبين» صورة جميلة لأشكال الحب بعيون المتصوفة. فبمجرد تصفح الكتاب نمتلئ بمحبته وبمحبة الآخرين أيضا. ويكمن التمييز بين الكاتبتين بفروق دقيقة، فإحداهما روائية رومانسية بدأت بالمسرح والسينما وتخرجت من الأكاديمية الفرنسية، والأخرى كاتبة وناشطة مدافعة عن حقوق المرأة لاسيما من خلال المحاضرات التي ألقتها في كليه الآداب وغيرها بهدف إبراز دور المرأة والشباب في المجتمع من خلال مجموعة «المرأة والطفل» في عام 1983 وكذا من خلال تنظيم بعض الورشات. هذا وقد ساهمت في إنشاء مراكز الاستماع لضحايا العنف ضد المرأة وقوافل مدنية سعيا إلى إبراز دور المرأة والشباب في المناطق البعيدة والمهمشة.
وعبر واقعيتها، ساعدت فاطمة المرنيسي النساء على أرض الواقع بشتى الطرق، إذ كشفت المستور والمسكوت عنه في مؤلفاتها ومن خلال القوافل التي كانت تنظمها أو تشرف عليها، إلخ. وكانت محبة للحوار والمشاركة. ومن الفوارق الدقيقة الأخرى بين المؤلفتين أن آسيا عاشت بين المغرب والجزائر حيث استقرت، في حين عاشت فاطمة في المغرب وزارت مختلف ربوعه. أما الفارق الدقيق الآخر فيتجلى في اختيار الاسم المستعار، حيث كان اسم آسيا جبار الحقيقي هو فاطمة الزهراء إيملاين. ولم تكن تحب فاطمة الظهور في وسائل الإعلام و لا المشاركة في المناسبات الرسمية.
ورغم هذه الفوارق الدقيقة، تظل الكاتبتان رمزين من رموز حقوق المرأة والحداثة. ولعل إقامة مثل هذه الورشات أمر ضروري، لكن لابد من المتابعة وكذا مساهمة الطلاب والكتب في التحدث عن هاتين السيدتين العظيمتين، ولدينا في المغرب هذه الإمكانيات. يجب إعطاء دينامية جديدة لأعمال فاطمة المرنيسي من أجل نشرها وكذا مساعدة الشباب على فهمها وتجديدها لأنه لا يمكننا الاكتفاء بالنسخ واللصق، بل يجب السير قدما نحو الإبداع. وأعتقد أن ذلك هو الهدف من وراء المعرض ولدينا مسؤولية مشتركة تجاه الشباب وتجاه هاتين الشخصيتين العظيمتين. ولا يمكن الحديث عن الحركة النسائية دون الإشارة إلى بنية الفكر العربي. وجب إذا استثمار هذه المجهودات للعمل معا و رفع المستوى الفكري المغاربي ومساعدة الشباب على فهم المغرب الكبير المتغير والمساهمة في بنائه.

سناء غواتي

شكرا جزيلا على هذا التحليل العميق والرائع ودقة المقارنة بين هاتين الرائدتين في الفكر النسائي لتحسين وضعية المرأة. لقد أبرزت السيد عائشة أوجه التشابه والاختلاف. لكل منهما أسلوب للتعبير، واحدة في الآداب والأخرى في العمل الميداني.

اختارت إحداهما استعمال المنطوق وتجاوز اللغة المكتوبة والأسلوب بغية الرفع من شأن قضايا المرأة، بينما شاءت الأخرى التقرب من النساء ودعمهن عبر مشاريع حقيقية. شكرا لهذا التحليل المفصل. السيدة حوريه عبد الواحد، أنت محاضرة في جامعة باريس 7 «دينيس ديدرو»، تشتغلين كثيرا على قضايا المرأة والحركة النسائية في الإسلام وعلم الأديان والأدب. ترجمت للشاعر «أدونيس» ونشرت معه مختارات شعرية وألفت كتاب «شخصيات نسائيه في الإسلام» وشاركت في كتابة «نظرة أورفيوس» و«الفكر السحري» عام 2012. اشتغلت كثيرا على المرأة في الإسلام، كيف تنظرين إلى فاطمة المرنيسي وآسيا جبار ؟

حوريه عبد الواحد

أنا جد معجبة بآسيا جبار وفاطمة المرنيسي. تحدثت زميلتي عن الموضوع باستفاضة. ويعتبر كتاب «أطفال العالم الجديد» عملا جميلا للغاية حول المقاومة والمعارك النسوية من أجل استقلال الجزائر. سأخبركم كيف بدأت أهتم بقضايا المرأة التي لم تكن محط اهتمامي في الأول. وأبدأ كلامي باقتباس لابن العربي حيث قال إن المرأة هي أسمى الكلمات. وكان ابن العربي يتغنى بالمرأة ويحكي أنه لما كان يطوف بالكعبة، خطرت على باله بعض الأبيات الشعرية. وما أن لفظتها شفتاه حتى أحس بيد رقيقة كالحرير تلامس كتفه. ولما التفت وجدها فتاه جميلة، أميرة من الأميرات.

لم تر عيناه أبدا فتاة بحسنها ورقة كلامها وقلبها وفاقت أهل الزمان ثقافة وعلما. وما هي إلا شهرزاد، إحدى موضوعات الآداب النسائي. خصص ابن العربي مطلع ديوان «ترجمان الأشواق» لفتاه تدعى «نظام هارمونيا». وكانت مصدر إلهام في أشعار هذا الكتاب وهي أشعار في المحبة. ويقول إن مختلف الأسماء والألقاب المستعملة تعود عليها لأنها كانت مصدر طمأنينة له وقرة عينه، إذ أن البذل يعد بالفعل من أشراط الحب. ولطالما تحدث الشعراء والفلاسفة مثل سقراط ومن جاء بعده عن المرأة.

فقد أنصت سقراط إلى «الغريبة» وصحح مفهوم الحب بمعنى التملك فانتقل إلى حب يجتمع فيه جمال المظهر والروح حيث جمال الروح الفاضلة التي تبلغ الجمال المتعالي يعتبر أصل كل أصناف الجمال. وهنا أبدأ كلامي بالحديث عن الأفلاطونية العربية، فرؤية الجمال والإحساس به بارزة في كتاب الغزالي حيث أن الارتقاء بمفهوم الجمال يعتبر محور كتاب الزهراء أو زهرة بحسب ابن داود. ولم يكن ابن حزم استثناء لهذه القاعدة لأنه تحدث عنه في طوق الحمامة وكتاب آخر، وقال ابن العربي في الفتوحات أن كل ما كان لا يعول عليه. ولاسيما قوله أن الإنسانية ليست ذكورية، أليس كذلك ؟

وكلمة المرأة مشتقة من مادة مرأ ونجدها في المرآة والرؤيا والرأي والإمرئ بمعنى الرجل والمرأة. ويبدو جمال المرأة متجليا في علم اللغة، فالمرأة هي اللفظ الوحيد الذي لا يجمع وأما الرجل فيجمع على الرجال والمرأة تبقى امرأة بالإفراد والإطلاق. وقد سلط الكاتب المصري توفيق الحكيم الضوء على هذه الفردية في مسرحية شهرزاد حيث قال الوزير إن جمال المرأة في القلب وقال الحاكم إن جمالها في الروح وقال العشيق إنه في مفاتن الجسد، فمن يفهم شهرزاد ؟ تلك هي المعضلة كما يقول «فرويد» والمعضلة في أدب الشعر العربي.

ومن أفضل من الشاعر الجاهلي تعبيرا عن البعد اللانهائي للمرأة ؟ «الكل سمع بقصيده لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد». لم يخش ابن عربي التعبير عن الجانب الأنثوي في شخصيته حيث أشاد بسلطانته الشابة.

وفي أعمال آسيا جبار وفاطمة المرنيسي أجد صوت سقراط وأصداء ابن عربي.

يتحدث الرجل عن المرأة ويصفها بطريقة أفلاطونية لكن ماذا عن صوتها وحديثها عن ذاتها هي بنفسها ؟ كيف تحكي المرأة قصص العشق ؟ ماذا تقول عن جسدها ورغبتها ومتعتها ؟ فهل تكون أفلاطونية كما نعتقد ؟ ترجمت مع «أدونيس» ديوان الشعر العربي القديم ولاحظت القوة الشهوانية للمرأة ولكن أيضا قوة الرجل التاريخي، بين كسره للقوانين الاجتماعية وكلمته عن حرق الجسد وحماس الرغبة واللذة الشديدة.

عندي ثلاث قصائد : وأبدأ بالشاعرة ضاحية الهلالية التي تقول «*أقسم أنني لم أتذوق شيئًا لذيذًا مثل لعابه، إذا طلب مني الاختيار بينه وبين والدي، فاخترت أن لا يكون والدي، إذا لم أجعل بعد النومة ذراعي وسادة له فليشل ذراعي*». الثانية لأم ضيغم البلوية التي تقول : «*في مخفى عن أنظار سكان الحي، قضينا الليل، لنا فستانان معطران يقياننا المطر، كعادتنا، ولكن فلنشبع رغبتنا بالقبلات*». الثالثة، أكثر جرأة. ومعي القصيدة باللغة العربية، أي جريمة ارتكبتها ليلة جميلة تعذبها آلام بعيدة ؟ في الليل، عندما تتذكر نضارة هذه الحجارة، يأخذها الحنين، تتأوه عند حلول الظلام ومرة أخرى عند بريق الفجر. «لها آهة عند العشي وآهة سحيرا ولولا الآهتين لجنت».

بدأ تاريخ العرب في الازدهار منذ القرن السادس، مع ظهور الشعر الموزون المقفى. ولم تصل إلينا من اللغة العربية إلا أجزاء أو مقاطع غير مكتملة رحبنا بها وبروعتها الشعرية : وأشير هنا إلى أعمال الجديدي، وهو جزائري، وكيليتو، وهو مغربي، كما لو كان التاريخ العربي مقترنا بظهور الشعر التقليدي وأن أصل الشعب العربي متصل بظهور الشعر.

وينتهي الشعر التقليدي بالمعلقات وهي رسائل ذهبية معلقة على الكعبة في مكة، أو كما يطلق عليه البيت العتيق والذي يقال أنه يعتبر نقطة الصفر في الفضاء.

ولقد حج الناس، حتى قبل الإسلام، إلى هناك، وحلوا بالكعبة ليقرؤوا المعلقات ومن جراء الدوار التي يخلفه الطواف حول نقطة الصفر من الفضاء، فقد كانوا فخورين بشعرهم، وكانوا يلقبون بأهل اللغة، لذا يمكننا أن نسأل هذا السؤال : كيف يمكن أن لم يصلنا من قصائد نساء أهل اللغة سوى أجزاء ؟ ألا يتكلم شعراء العالم العربي عن رغباتهم ؟ لا، على الإطلاق. تشيد الكتب المدرسية بالعظمة الشعرية لامرئ القيس، وهي الكتب المدرسية التي تعلمنا فيها بالمدرسة، وتذكر بعناية الشعراء الذين تحدوا الأخلاق الدينية.

اقتبس على سبيل المثال كلام عمر بنو أبي ربيعة، وأبي نواس الماجن والوليد بن يزيد الذي يقول عن القرآن : «أتوعد كل جبار عنيد، إذا ما جئت ربك يوم الحشر، يا رب مزقني الوليد».

لا يمكن للمرء أن يجد أكثر إثارة من ذلك والكتيبات تحافظ على هذه الأسماء، وأما بالنسبة للشاعرتين فلا يتبقى من شعرهما إلا بعض الأجزاء القليلة.

والثالثة، التي تقول إنها تأوهت، وكانت تدعى عربية، أي أنها بدون اسم، بدون وجه، إنها امرأة عانت ما تسميه فاطمة المرنيسي «القتل» التاريخي. في الواقع، النساء التي تحطمن الأصنام والمقدسات لسن قليلات في العالم العربي : كان هناك شاعرات ومحاربات وقائدات.

سجى على سبيل المثال، التي ترتبط قصتها ارتباطًا وثيقًا بمحاربتها لدين النبي هي شاعرة لا نجدها إلا في مقطع صغير من كتاب مسيلمة الكذاب للطبري : لذلك كانوا يمرون بمسيلمة لإيجاد سجى لكن أبياتها لم تحفظ.

لا تزال ربيعة غير معروفة لسوء الحظ، فقد عاشت خمسة قرون قبل أختها دليلة وكانت من أولى المتصوفات من المسلمين، وقد فكرت في كسر الجدل حول الحكمة المتعالية وتحويل المشهد الديني إلى مشهد شهواني : إنها ربيعة التي قالت «أحبك حبين».

وفي كتاب «بعيدا عن المدينة»، تجرأت آسيا جبار على المقارنة بين فاطمة، ابنة النبي، و«أنتيغون» والواقع أن المقارنة بين عمر وفاطمة تذكرنا بالمقارنة بين «أنتيغون» والخيام. هناك، نجد أنفسنا في هذه الجملة لفاطمة المرنيسي : المرأة تزعج بمجرد أن تأتي إلى مكان لا يتوقعها أحد فيه ؛ فالسياسة والشهوانية مترابطة في المجتمع ولا تزال بصيغة المذكر وفاطمة المرنيسي تتحدث عن اغتيال تاريخي. كنت طالبة في مدرسة ثانوية عندما سمعت لأول مرة عن فاطمة المرنيسي حين طلبت معلمتنا الفرنسية، معلمة جيدة جدا، أن نقرأ مقالا من علم الاجتماع حول الطلاق ؛ «لوديفورس» بالفرنسية. وقدم فريد عرضا عن أعمال فاطمة وأثنى على احترامه للغة : «الطلاق» و«لوديفورس» ليسا تماما نفس الشيء، وأذكر أنني انتهزت فرصة ذلك اليوم للحديث عن حالة المرأة في منطقة الشمال التي انحدر منها.

تبلغ نسبة الأمية في أوساط النساء 70% ولا توجد البنيات المناسبة لمساعدة النساء الفقيرات اللائي ينظر إليهن بناء على أحكام جاهزة ومسبقة، إلخ.

ولقد صادفت مصطلح «الطلاق» في وقت لاحق وأنا أؤلف كتاب «أشكال المؤنث في الإسلام»، إلى جانب الصعوبات الاجتماعية والاقتصادية. في الواقع، أدهشتني كلمة المطلقة على صيغة اسم المفعول : فهي دائماً من يقع عليها الفعل وتخضع له. وفي «المدونة الجديدة»، تخضع للإجراء حتى لو كانت هي التي تطلب الطلاق : وتبقى «مطلقة» ويصبح موضوع رغبة المرأة موضوع الرفض، وتسمى الطالق. يجب علينا تحديث لغتنا، فالطالق في اللغة الإبل التي ترعى بدون قيد، وفي لسان العرب : يأكل كل شيء ويلتهم كل شيء في طريقه.

وينصب التركيز على البعد الشفهي وتزايد الاتهامات في حق تلك التي لم يعد لها سيد. في مسقط رأسي الصغير، القصر الكبير، لم نكن نعرف «سيمون دي بوفوار»، ولا «نوال السعداوي» وكنا نردد : «كاريتارا، الذي مرر أومبري، كوتشارا».

ولقد أصبحت اللغة الفرنسية، للفتيات الصغيرات من جيلي، لغة الحركة النسائية. هكذا بدأنا بقراءة فاطمة المرنيسي. رأيتها للمرة الأولى في معهد العالم العربي في باريس، وهو يوم 8 مارس بالضبط، اليوم العالمي للمرأة : قدمت «السلطانات المنسيات»، وهو كتاب تم تأليفه بعد انتخاب «بينظير بوتو» في باكستان في 16 نونبر 1988. ما هو ملفت للنظر هو أنها تعمل مثل المخبر الخاص وعلاوة على ذلك قالت لي أن فاطمة المرنيسي هي مثل «محققة خاصة» تصارع النسيان والصفحات الصفراء، وهي تقول ذلك : «*أنتم القراء وأنا مخبركم السري للغاية (كان لديها حس الدعابة)، سنكون إذا أول من يسلط الضوء على واحدة من أروع حملات التطهير الرائعة في تاريخ الإنسانية، سلسلة تصفيات لرؤساء الدول*، مرت في صمت، *لم تبال بها السلطات العامة*»، وفي كل مكان تقول من أين تبدأ، تستخدم تعبيرات قوية للغاية، مثل «*تتعثر فوق جثث الملكات*»، وتستعيد الحقيقة أولاً.

بالفعل مسألة اللغة كانت حاسمة : كيف لك أن تقول كلمة «ملكة» في الإسلام ؟ بالنسبة لكلمة الطلاق، فهي بالفرنسية «ديفورس»، ولكنهما ليسا نفس الشيء. لذلك، تظل قريبة جداً من منطوق ودلالة المفردات اللغة لتجعلنا أكثر وعيا بالبعد الاجتماعي والثقافي وحتى الذاتي. لكن فاطمة كانت كاتبة، أي شخصا بأفكار عميقة ومعقدة مثل أي كاتب. كانت ثائرة، تحاور التقاليد. وعلى سبيل المثال، لماذا لا نقنن كلمة الميراث ؟ لماذا لا يحق للمرأة أن تحكم ؟ ما يميزها هو مجرد أنها امرأة مثل باقي النساء، وبالتالي هناك بعد حيوي يحيط بها دائما في هذا الواقع المغربي. وأعجبني قولها : «*أشكر المرأة التي تدفع الفواتير*»، إلخ.

لماذا لا يحق للمرأة أن تحكم ؟ أجابت نفسها في «السلطانات المنسيات» : لأن المرأة لا يمكن أن تكون إماماً والإمامة للرجال فقط، ببساطة.

إذا كيف يمكن للمرأة أن تكون إماماً في بلد تحكمه الآيات ؟ «*نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم*»، أو «انكحوا»، وليس تزوجوا. أن تتزوج كما تشاء، امرأتان، ثلاث، أو أربع نساء، ولكن ليس الزواج : الزواج، مؤسسة رمزية واعدة للبنوة. ولكن «انكحوا»، لا، لأنه حقا «تملك لهن» : هنا، المرأة تصبح بمثابة وعاء أو مفعول به إذاً هناك خيال قرآني يستخدم هذه الآيات ليجعلها تفرط في ما كان يسمى الحواري، وهي كلمة فرضت نفسها علي.

أول من يتكلم في شؤون الجنسين أناس يحكمهم فكر خيالي لا واقعي تكون نتيجته حرمان المرأة من الحق في الحكم. لذلك عندما نقول الحريم السياسي، أنا لا أتفق مع فاطمة، لأن الحريم لم يحكم أبدا ؛ حتى عند آسيا جبار فقد كان من الخيال : الحريم لم يكن سياسيا هناك بعض الكلمات المزعجة في بعض الأحيان : الحريم هو التنافس بين جميع زوجات الرجل وكما أنه مكان للمثلية بالرغم من أنه لا يحق لنا قول ذلك. لذا اليوم، يجب أن تذهب كلمة النساء إلى أبعد من أمهاتنا أو أخواتنا الأكبر سناً واللواتي عشن مسارًا غير عادي.

مهمتنا اليوم هي أن نسأل أنفسنا عن هذا الوقت الذي لا ينتهي أبدا : لماذا لم يتغير الأمر ؟ تقول فاطمة المرنيسي في «السلطانات المنسيات» : هؤلاء النساء كن يرغبن في الخروج من المنزل. تقول : ماذا سيحدث اليوم، عندما تذهب البنات إلى الجامعة، والعمل، إلخ.

لم تعد المرأة تفتقر إلى الطموح. فمهمتنا اليوم هي أن نسأل أنفسنا عن الوقت الذي لا يمر ولا ينتهي أبدا، لبناء قصة تلبي متطلبات الحداثة، وأيضاً للتأمل في لغتنا على طريقة فاطمة المرنيسي وآسيا جبار.

على سبيل المثال، مصطلح «العذراء» لا مذكر له كما لو أن الصبي لم يمر بمرحلة مشابهة : فهو رجل أصلا، ولا يصبح رجلا - هذا خطأ ! - «عذراء» مثل «مطلقة». وعلى سبيل المثال، حتى الآن، من أجل ترجمة إليزابيث بادنتير، أو سيمون دي بوفوار، أو غيرهما، ليس لدينا في لغتنا كلمات مقابلة لكلمات أجنبية عديدة مثل التمييز على أساس الجنس، والحركة النسوية، والرجولية، وما إلى ذلك. لغتنا، جميلة جدا، لكنها لا تزال عالقة في رؤية قديمة للمجتمع.

أعود إلى البناء الجديد الذي يتطلب منا أن نتحرر من الفكر الذي لا يزال يرزخ بكل ثقله على الثقافة ويربطها بالهرطقة، حتى أنني سميت النص الذي كتبته «مع شاعريتي، مع هرطقتي» أي أننا ننزع القداسة عن النصوص التي تدين الفكر.

كانت فاطمة، مثل آسيا، تنبش في الأسماء المنسية والمكبوتة والمحرمة، وأسماء النساء اللواتي عبرن عن تمردهن ومعاناتهن وحبهن وسرورهن ورغباتهن، لإعطاء حياة لنساء أسكتهن الرجال، واستبعدن من التاريخ.

سناء غواتي

أشكركم على هذا التعليق الجميل بشأن الأنوثة من خلال كتابات المفكرين الذين كانوا موضوع إحالة في أعمال كلتا الكاتبتين، هذا الشعر النسائي الرائع، الذي يجب اكتشافه، وتقييمه، لنعلم أن المرأة كانت حرة دائما، حتى عندما كانوا يدفنون الفتيات الصغيرات...

أشكركم على كل هذه الإحالات والشعراء طرفة وامرؤ القيس والمفكرين ابن الحزم، ابن عربي، والكتاب توفيق الحكيم وغيره... كانت رحلة جميلة سمحت لفاطمة المرنيسي وآسيا جبار بالحضور مجددا ومواصلة هذه الأعمال.

مرحبا بضيفنا التونسي حبيب بن صالحة، من جامعة تونس المنار، وهو أستاذ عظيم عرفه جيلنا، مدير المختبر في جامعة منوبة، وكاتب وكذا مدير نشر للعديد من الكتب، لاسيما مؤلف «الكتابة في المغرب العربي». إذاً، ما الذي تمثله هاتان الشخصيتان بالنسبة لك، أنت الذي اشتغلت كثيرًا على أعمال آسيا جبار ؟

حبيب بن صالحة

أشكر أصدقائي الذين يختارون أساليب مبتكرة لمحاربة الاحتجاز والاستمرار في الإنتاج، لأن المغرب الكبير يحتاج إلى إنتاجات متقنة، حديثة ومنفتحة كليا على العالم. في تونس، نفكر في اليوم الذي تصبح فيه امرأة رئيسة للبلاد. نساؤنا يكافحن. فساحة باردو الشهيرة ما كانت بدون كفاح النساء، ولم تكن لتصبح «النهضة». من وقت لآخر، تتقدم النساء المنفتحات والمستنيرات الناطقات بالفرنسية.. قيل لي إنها جزيرة، على جانبها الصحراء، وعلى جانب آخر، لا أعرف ماذا. سألت سائق سيارة أجرة أين الجزائر : قال لي أن أنظر إلى اللافتة، حيث الحدود. لذا تساءلت كيف أتحدث إلى المرأتين : واحدة التقيت بها - يا لأناقتها، فاطمة المرنيسي، أيقونة، بنظرة أخرى للعالم - والأخرى، آسيا جبار، المتهربة التي حضرت إلى الراديو للقاء تونسي ينتج برنامجا... وفضلت التحدث إلى النساء خارج الأستوديو. كنت وحدي أنتظر الجزائرية. فنحن في انتظار الجزائريين، سيأتون، بالتأكيد سيأتون.

لذا، آسف لأولئك الذين جاءوا للاستماع إلى محاضرة كلاسيكية، أطلب من النساء قراءة نانسي هيوستن، أستاذة اليأس. نريد الأمل، نريد كتابة حول الحياة، نريد شيئًا ملموسًا، وهذا الأستاذ، في كتاب جميل، يطلب من النساء مراجعة ثنائية الرجل والمرأة.

سأقول لك حكاية : اضطررت إلى تقديم مؤتمر في تونس، في منستير. كنت في تركيا وقمت بجولة في المتاحف التركية واشتريت كل البطاقات البريدية للإلهات - أعرف أن هناك ألف إلهة وإلهة - وقلت لنفسي أنه إذا كان هناك ألف إلهة وإلهة، فهن خطيرات.

وكيف لي أن أعلم إن كان المغرب الكبير المنقسم على ذاته لا يشارك في لعبة لأولئك الذين يسعون إلى أن يظل دائما على خلاف ؟

ورغم أن الغرب يسيطر على العالم باستمرار فإنه لم يحاور أبدا الجنوب المليء بالتساؤلات، والذي يرى المغرب بلدا يسعى إلى الجانب الآخر، دون انغلاق، لبناء جنوب متصل بذاته. يجب على الجنوب بناء جسر حتى يربطه بالجنوب والشمال في الوقت ذاته، فالواقع يقول أن ليس هناك حوار حقيقي. هل يتحدث باللغة التي يستخدمها ؟ بأي لغة نحلم ؟ بأي لغة نموت ؟ بأي لغة نحب ؟ أعتقد أن الكلمات ليست كافية لقول ما يحدث بين رجل وامرأة، لأن هذا لا يقال...

لدي نص صغير في هذا الباب أريد قراءته عليك ؛ يقول الراوي في هذا النص : «*لقد ولدت عام 1940، في فاس، وهي مدينة مغربية أسست في القرن التاسع، تقع على بعد خمسة آلاف كيلومتر غرب مكة وألف كيلو متر جنوب مدريد، إحدى العواصم المسيحية. مشاكلنا مع المسيحيين، قال والدي، تبدأ بالنساء، عندما لا يتم احترام الحدود المقدسة. لقد ولدت في فوضى، لأن المسيحيين والنساء تنازعوا الحدود وانتهكوها باستمرار، حتى داخل حرمنا، هاجمت النساء احمد البواب، وضايقوه، وعبرت الجيوش حدود الشمال، لذلك فإن الويلات تأتي من الشمال، وننتقل إلى الشرق للصلاة، ومكة بعيدة، ولكن الصلاة يمكن أن تصل إليها إذا كنت تعرف كيف تركز، وتنصت. المسيحيون مثل الفرنسيون والأسبان تخلصوا منا عملياً على أرضنا، ولأنهم لم يبيدوا أنفسهم، قرروا تقسيم المغرب إلى جزأين. قطعة أخرى، الحدود، هي خط وهمي يوجد فيه جنود. قال ابن عمي سمير، الذي رافق أحيانا عمي ووالدي في رحلتهم : لإنشاء حدود بلد ما، يكفي أن يكون هناك جنود، وإجبار الآخرين على تصديقها. حيث الحدود موجودة فقط في رؤوس أصحاب السلطة*» ؛ انتهى النص.

لاتزال هناك حدود وجدران سميكة بين عالم المرأة والرجل، ولكن لماذا لا نستطيع الهروب من قانون الاختلاف ؟ لماذا لا يستطيع الرجال والنساء اللعب معاً، حتى عندما يكبرون ؟ لماذا هذا الفصل ؟ الرجال، تماما مثل النساء، محكوم عليهم بالعيش دون سعادة بسبب هذا الفصل. ولقد حفر الانفصال بينهما خنادق وهوى كبيرة : فالرجال لا يفهمون المرأة والعكس صحيح. كل شيء يبدأ عندما يتم فصل الفتيات الصغيرات عن الأولاد الصغار في الحمام، وهي حدود حقيقية، تحدد جزء من علاقات القوة. أينما توجد حدود، هناك نوعان من المخلوقات على أرض الله، الأقوياء من جهة والضعفاء من جهة أخرى.

كيف تعرف في أي جانب أنت ؟ الأمر واضح جدا : إذا كنت لا تستطيع مغادرة المكان الذي أنت فيه، فأنت على الجانب الضعيف. نحن في وجدة : لسنا في جانب الضعفاء، ولكن على الجانب الآخر، لأنه يوجد بالفعل جانب آخر، شاطئ آخر. لذا قلت لنفسي، إن الأمر يحتاج إلى جزائري لتصحيحه، لذلك اجتهدت حتى حصلت على نص من مهندس جسور أعطى وجهة نظر الأخرى.

ماذا قال المهندس ؟ قال لي يستغرق الأمر تسعة أشهر لوضع الطفل وأكثر من ذلك بقليل لبناء الجسر، لم يخطئ مهندس «الانطباع الأخير» كما قال مالك حداد، العمل، مبدأ الحياة كلها، ماذا يقول ؟ العمل فعل ينبغي تقبيله على كلا الخدين والجلوس على قواعد الآثار، فدون العرق، ودون الكدح، سوف تفقد العديد من الروايات بنيتها وهيكلها العظمي، وستفقد العديد من المدن نبضها وجوهر تحركاتها وإنما ستفقد عدة لغات كلماتها والدبال المغذي لها.

إنه يكشف عن شجاعة وجرأة في طريقة رؤية الأشياء والنظر إليها، وإعادة التفكير في البحر الأبيض المتوسط في تعدده التاريخي، والعالم بكل أطيافه، وأفريقيا في جميع موسيقاها والأمريكيتين. على أي جسر أو حجر أو طين أو فولاذ، يمشي المرء بسهولة بين الأفكار الفلسفية عبر القرون. لقد كنا دائماً نرغب في تخطي المنحدرات السحيقة، ومواجهة السيول، وتجاوز البحار... فهل سيكون التاريخ في متناول أيدينا ؟ تقدم الجغرافيا كل الحلول الممكنة : هل التنوير وبناء الجسور منفصلان عن نشاط الوعي البشري ؟ يأخذ الكثير من الأيدي، الكثير من القوة للحفاظ على الجسر، يتذكر سعيد، الذي ناضل بشجاعة ضد اللامبالاة وعمى البصيرة. لأنه يعلم أن التاريخ لا يرحم وأن الرواية لم تعد موجودة في الكتب.

الجزائر لدينا روايات - القائمة كبير جدا - حيث كانت النساء تقاتلن... قتلت الكثير من الضحايا في تونس والمغرب والجزائر لكتابة المغرب الكبير وإلغاء الحدود، المرنيسي وجبار هما رائدتان في هذا الباب.

لذا أريد أن أقدم هذه الفقرة بمثابة جسر، وقصة حب - ماذا أقول - لأولئك الذين يفرضون الأسلاك الشائكة وما زالوا يتمادون في الجدران. نحن لا نوقف تدفق الكلمات، مثل المهندس، مثل الشاعر والروائي والفنان... ولا يهم إذا كان الحرفي من الماضي أو من المستقبل : المهم انه أصبح عصب الحداثة، كان فقط يحفر ويتقدم ليمنح الحياة لقصصه، وأسوأ وقت للسياسة !

سناء غواتي

شكرا حبيب. نحن دائما نستمتع كثيرا بالاستماع إليك وأنت لا تفعل أبدا الأشياء بطريقة كلاسيكية. أنت دائما مبدع، حتى عندما يكون الموضوع ذو طبيعة أكاديمية، أعطي الكلمة للحضور الكريم.

الأستاذ بن عمر

تنشر اليوم كتب فاطمة المرنيسي في المغرب دون مشكل، لكن هذه الكتب كانت محظورة وممنوعة في ثمانينيات القرن العشرين. الجميع يتذكر بنيس، حميش... للمرة الأولى، أصدرت الحكومة بيانا أدانت فيه كتاب «النبي وزوجاته». لماذا، لأنها درست واستكشفت حياة وشخص النبي صلى الله عليه وسلم ؟ يجب أن نضع في اعتبارنا هذه النقطة، لأنها المرة الأولى في تاريخ المغرب، مع فاطمة المرنيسي، أن الكتاب كان يعتبر من بين المحرمات... وللأسف يتم قراءة النص الديني والتراثي دون أن تؤخذ بعين الاعتبار، للأسف، الآليات التي يجب أن يقرأ بها هذا النوع من النصوص، دون أن يكون لديه الأدوات التي تسمح بقراءتها. ليس من السهل قراءة التراث والنص القرآني دون وجود الوسائل الضرورية.

خلال الندوة التي حضرناها في وهران، قال أحد المتحدثين إنه من المستحيل قراءة مثل هذه النصوص دون إتقان اللغة العربية، ولم تتقن الأستاذة فاطمة المرنيسي هذه اللغة لقراءة النص... لكنها أبدعت. إذا وضعنا الأسلوب الثقافي الإسلامي في أبعاد تفسيره، فإننا نجيب على العديد من الأسئلة المطروحة في كلا المداخلتين...

أستاذ حسونة

كان من دواعي سروري الاستماع إلى السيدة بلعربي وصديقتنا حورية. أعرف الكاتب حبيب، أستاذ عظيم، لكن هذه هي المرة الأولى التي أستمع إليه وألتقي به خارج تونس، وهو معروف بشغفه الثقافي لعقود. تحدثت السيدة بلعربي عن عدد من أعمال صديقتي الراحلة آسيا جبار ومن بينها كتاب «تحية إلى النساء والرجال» وهو كتاب مهم جدا. آسيا جبار أبرزت طبيعة النضال الذي كنا نخوضه معا.

نحن نتحدث عن فصل وتمييز بين الرجل والمرأة في المجتمعات الشرقية، لكن هذا الفصل أقل حدة في المنطقة المغاربية. نتذكر جلالة الملك محمد الخامس الذي لم ترتد ابنته الحجاب أمام الحشد الكبير في طنجة، أو الرئيس بورقيبة ونظامه المبتكر.

بين الموروثات، هناك نساء متمردات وهن كثيرات. تمردن بطرق مختلفة، من بينهن عائشة بنت طلحة بن الزبير الذي وقع في حب عائشة (زوجة النبي). عندما سمع النبي بهذا، كان هناك الآية القرآنية التي منعت الزواج من زوجات النبي بعد وفاته. تزوج أخت عائشة، كلثوم، وأعطى إسم عائشة لابنته الأولى، التي كانت خالتها عائشة هي التي قامت برعايتها وتثقيفها. عاشت فخورة بجمالها وقاتلت جنبا إلى جنب مع الرجال الذين كانت لهم رغبات جنسية...

السيد الحموتي

لترجمة هذه الكلمة «مرأة»، التي ليس لها صيغة الجمع، لم أكن أعرف باللغة العربية بالنسبة لي.

حورية عبد الواحد

المفرد / الجمع : كتاب / كتب، رجل / رجال، رأي / آراء... نحن نعرف أن اللغة العربية هي لغة اشتقاق، وهكذا عندما نأخذ على سبيل المثال، موسوعة «لسان العرب» الاستثنائية لابن منظور، مع الجمع المرأة «نساء»، وبذاك وجب التمييز بينه ومصطلح «مراة»، بمعنى تأخير سداد دين.
إذا كان السؤال يهمك، لديك «كتاب» ابن عربي «الحكّام، المحمدية» الذي يتحدث عن هذا المنفى، في الواقع الجانب اللغوي هو ما يهمني، أي لغة ذات جذور .لقد كان هناك الكثير من الحديث عن النسوية، وما تعلمته مع اللاجئين هو أن النساء اللواتي يأخذن الأطفال ويغادرن، في كثير من الأحيان، أي أنهن لا زلن يؤمن بالحياة ما دمن دائما الى جانب الأطفال.

السيد الحموتي

بالنسبة إلى «المعلقات، المعلق،» قد يكون المعنى «ما هو معروض». هناك أيضا إمكانية أخذ الكلمة بالمعنى المجازي.

حبيب بن صالحة

في الفرنسية، يوجد في التراث، ما يدل على الأب والأم ؟ اقترحت تونس كلمة مغاربية : لماذا لا نقول الأم التراث في اللغة الفرنسية ؟ اللغة متأخرة دائما : يقول المرء أن ألف امرأة وطفل قد وصل، بصيغة المفرد بالفرنسية، وكلمة الطفل الصغير هنا تغطي على جمع كلمة ألف التي تعبر على الجمع.

مداخلة

ناضلت النساء كثيرًا في المجتمع، لكن هناك دائمًا أفكار. بدونها تبقى المرأة مجمدة رغم أنها قادرة على كل شيء : هذه مشكلة المرأة العربية المسلمة وهذا ما يؤخرنا.

عائشة بلعربي

هناك سؤال واحد يهمني حقا : كيف يمكن للمرء أن يقول أن فاطمة المرنيسي لم تكن لديها آليات لقراءة النص الإسلامي ؟ هذا ما قاله بعض المعارضين. أعلم أن فاطمة عملت كثيرا، بمفردها، وجنبا إلى جنب مع العلماء والمفكرين الذين أتقنوا اللغة العربية : درست معهم مطولاً. لذا، لا يمكننا أن نناقش هذا الشيء وعلينا مساءلة وما كتبته، وجريء جداً. لكننا لا نقبل جرأة المرأة عندما تشكك في نظرية الرجل، وخاصة عندما يتعلق الأمر بالنصوص الإسلامية. في كتاب عن العلاقة بين المرأة والإسلام، كتبت في المقدمة أن الإسلام ودراسته لا يقتصران على الرجال، لأن جميع النساء والرجال المثقفين، عندما تكون لديهم الموارد، يمكن أن تلائم هذا النص ومناقشته.

كانت المعارضة قوية جداً : قيل إن أولئك الذين لديهم دراية كاملة بالدراسات الإسلامية هم المؤهلون حصرا لدراسة وتحليل نصوص الإسلام. لم تغامر فاطمة المرنيسي أبدًا بأي شيء إلا عندما أتقنت الموضوع تمامًا.

حورية عبد الواحد

مسألة مقاومة خطاب المرأة التي تتجرأ على مهاجمة ما يسمى بالثوابت أو الأسس، هو أمر محرج للغاية بالنسبة للرجال. وبالنسبة للكتاب المدرسي، عملنا على طرفة بن عبد، امرئ القيس، الماجنات، إلخ. وحالما تتحدث امرأة عن حبها - في الواقع في «كتاب الأغاني» يمكننا العثور على الأشياء - إنها جميلة. ببساطة، لقد علّمتنا الكتب المدرسية التي عودتنا الصمت حول كل شيء يشكل هويتنا الجنسية، أو طبيعتنا، أو رغبتنا. في «أحلام النساء»، يوجد مقتطف صغير للمرنيسي، جميل جدا : *«أريد أن أعيش في الحاضر وجريمته ؟ أريد أن أشعر على بشرتي بالمداعبة الحسية لكل ثانية تمر، هل هي جريمة ؟ هل يمكن لأي أحد أن يشرح لي لماذا الحاضر هو أقل أهمية من الماضي ؟ هل يمكن لأي أحد أن يشرح لي لماذا «ليالي الأنس، ليالي المتعة»* موجودة فقط في فيينا ؟ *لماذا لا تكون «ليالي الأنس» في مدينة فاس ؟»*

هذا هو الخطاب الذي وجدته مزعزعًا للغاية : بمجرد أن تلمس المرأة السياسة والإثارة الجنسية، عندئذ تظهر كل أنواع المقاومات.

سناء غواتي

تذهب إلى أبعد من ذلك، فاطمة المرنيسي : إنها تربط الانحطاط في البلدان العربية بموقف الرجال تجاه المرأة وهي مقتنعة بذلك.

حبيب بن صالحة

أنا فقط رأيت الرسالة «حا» وأنا لم يكن لدي الوقت لتطوير، الحدود، حب، حرام، حلال، أحمد، الحريم، حشومة... ما هو مكتوب بلغة غير اللغة الأم، اللغة غائبة وموجودة في نفس الوقت.

سمع أحدهم عن بدوي وقال له : *«حالتك غريبة، أنت تتحدث بلغتنا، بلغة غير لغتنا ؛ قواعد اللغة الخاصة بك هي الذكاء والبصيرة ولنا طبيعية وفطرية»*.

سيكون من الأفضل الجمع بين البصيرة والفطرة في كل ما هو مكتوب بلغة أخرى غير اللغة الأم، لقراءة المرنيسي، كما تقرأ وتعبر في كتبها.

أظهرت المرأة في اللاوعي الاسلامي أن المسيحية متأخرة بأشواط في تصور مفهوم الحب وتقول إنها رائعة، وقرأت مرة بعد مرة.

ومن المستحيل أن يكون المرء رجلاً، ربما لا تظهره القراءة السطحية في الخطاب باللغة الأم. لقد أوضحت في دكتوراه الدولة أن كل ما كتبه كاتب ياسين وخير الدين، من ما يسمى بـ «القانون العظيم»، هو الأرض، كلمات الحياة اليومية، الطعام اليومي، الملابس، الأغاني.

فاطمة المرنيسي هي المغرب، إنها الأرض المغربية، إنها الروح، وربما، غياب أو حضور، وربما المستقبل لإبراز دور الشباب .أعتقد أن هذه الجلسة توضح لنا المستقبل بدون حدود لأن الحدود ليس لها أي مستقبل.

رئيس الجلسة : محمد بشير زناڭي
المشاركون : حسن نجمي، فرانسوا ليفوني (فرنسا)، محمد بنعمر، سعيد تونا
فضاء : ليوبولد سيدار سنڭور
التاريخ : يوم السبت 23 شتنبر 2017
الساعة : 15 : 00 - 16 : 30

موجز مداخلات المائدة المستديرة

قام محمد بشير زناڭي بالإشراف على حفل تكريم محمد أركون ومحمد عابد الجابري حيث عبر عن فخره الكبير بتنشيط هذه التظاهرة المخصصة لاثنين من كبار الكتاب المغاربيين الذين ساهما بشكل كبير في تنمية المشهد الثقافي بسبب مواقفهما من الحياة الفكرية في فترة تاريخية عرفت تقلبات كبيرة كالسعي وراء الاستقلال.
وأضاف حسن نجمي، الكاتب والشاعر ومدير المعرض، أن محمد أركون خريج جامعة السوربون الباريسية.
كان واحدا من الطلبة الجزائريين الذين تسجلوا في نفس الجامعة في الخمسينيات من القرن الماضي خلال الفترة الاستعمارية التي قاد فيها الشعب الجزائري الشقيق نضاله ومقاومته من أجل الاستقلال.

كما ذكر بحدث حاسم وقع في جامعة السوربون حيث اتحد الطلبة المغاربيين خاصة الجزائريين والمغاربة إثر دعوة صناع القرار الجزائريين وقتها الطلبة الجزائريين للمشاركة في حرب تحرير بلدهم الأم. ولقد استجابت أغلبيتهم لهذه الدعوة إلا قلة رفضت من بينهم محمد أركون الذي صرح أنه رجل فكر لا حرب. وإذ زج به موقفه هذا في نزاع لا يحسد عليه مع الدولة والمسؤولين الجزائريين مما دفعه إلى طلب دفنه في المغرب في وصيته. وهذا ما تأتى له حيث دفن في مقبرة الشهداء في الدار البيضاء.

وشاء القدر أن يدفن بالقرب من محمد عابد الجابري، صديقه، المفكر المغربي. وقال فرانسوا ليفوني أن محمد عابد الجابري هو واحد من أعظم المفكرين والمخطط الرئيسي لمشروع النهضة الفكرية. لم يكن اهتمامه بالتراث العربي الإسلامي محض الصدفة، بل مبنيا على أساس مكانه في المشهد الفكري والثقافي، وخطورة المشروع الذي قدمه، وأهمية المواضيع التي عالجها.

وذكر فرانسوا ليفوني أن محمد عابد الجابري يعتبر من كبار المفكرين وعلامة فارقة في مشروع نهضوي كبير. لم يكن اهتمامه بالتراث العربي الإسلامي محض صدفة بل كان مبنيا على مكانته في المشهد الثقافي والفكري وجدية مشروعه وأهمية المواضيع التي يناقشها...

وذكر فرنسوا ليفوني أيضا أن الجابري كانت تجمعه علاقة صداقة شخصية وطويلة ومتينة مع محمد أركون وكذا مسار فكري مشترك مع مفكرين آخرين ذوي مقاربة متفتحة على الثقافات الأخرى. كانت اهتمامات العديد منهم تنصب على التراث، مشيرا إلى أن أركون لا يمكن حصره في مكان جغرافي محدد لأن فكره جد خصب.

محمد بشير زناكي

أهلا بكم جميعا... يشرفني حقا أن أكون هنا اليوم لتكريم هرمين من أهرام الثقافة المغاربية، محمد أركون ومحمد عابد الجابري، وهما من أسسا للكتابة في الستينيات والسبعينيات، من القرن العشرين. منذ بدايتهما وطوال رحلتهما، وحدّدا أفكارهما على ضفتي البحر الأبيض المتوسط، رغم أن أحدهما يكتب بالعربية والآخر بالفرنسية. كان لكل منهما تأثير قوي على ثقافة البحر الأبيض المتوسط ككل، وفي مرحلة صعبة بشكل خاص لأنهما عاشا في مرحلة الاستعمار وفترة الهجرة...

في هذا السياق، كانت الثقافة مهمة جداً، كانت الهوية محورية، وكان لدى المغرب الكبير عددا من التحديات للتغلب عليها. وفي الحقيقة، يعتبر هذان الهرمان جزءًا من تاريخ ذاكرتنا. مساهماتهما ليست بسيطة أبدا، لأنه جيلا كاملا من المثقفين يواصل المشي على خطى محمد أركون ومحمد عابد الجابري في كل جامعات العالم العربي. أعطي الكلمة لحسن نجمي، الكاتب الرائع ومندوب هذا المعرض.

حسن نجمي

أنا فخور جداً بالإشراف على هذه الجلسة المخصصة للإشادة بشخصيتين بارزتين في الثقافة المغاربية : محمد أركون ومحمد عابد الجابري. كتابات الأول باللغة العربية والثاني بالفرنسية، لكنها كلها احتوت على الثقافة المتوسطية ككل. لقد تأثرا بها واستجابا لجميع تحولات الحياة، وخاصة الفكرية منها، خلال فترة عرفت هزّات كبيرة بسبب الكفاح ضد المحتل وتحولات ما بعد الاستقلال. هذان الرجلان تركا بصماتهما على المشهد الفكري في المنطقة المغاربية ولديهما اليوم العديد من التلاميذ الذين يتبعون خطواتهما.

محمد بشير زناكي

أرحب بعائلة محمد عابد الجابري، بالخصوص زوجته السيدة مليكة وابنه عصام الذي حضر من الدار البيضاء. نحن نعرف الجذور القوية لعائلة الجابري المنحدرة من جهة الشرق بحكم انتماء المرحوم إلى فجيج. علاوة على ذلك، تحضر معنا هذا التكريم عدة شخصيات من جهة الشرق وفاء له ولعطائه. جاء البروفيسور فرانسوا ليفوني خصيصا ليقدم لنا لمحة عامة عن مسار المفكر العظيم محمد أركون، المغاربي بامتياز الذي اعتبر نفسه هنا كما في الجزائر مواطنا مغاربيا. لذا بمناسبة الدورة الأولى للمعرض المغاربي للكتاب في وجدة يبدوا طبيعيا تخصيص حصة لتكريم هذين العلمين.

أمرر الكلمة لصديقي حسن نجمي الذي سيشاركنا تجربة محمد عابد الجابري ثم للبروفيسور فرانسوا ليفوني ليسرد لنا تجربة محمد أركون.

حسن نجمي

أختنا العزيزة المحترمة لالة مليكة الجابري رفيقة درب المفكر المغربي الإسلامي الكبير محمد عابد الجابري، أخي عصام الجابري نجل الفقيد المفكر المغربي الحديث والمعاصر محمد عابد الجابري. أيها الحضور الكرام، كان من المتوقع أن يحضر معنا بعض الأساتذة وأصدقاؤنا من الذين اشتغلوا على فكر الرجلين إلا أن الالتزامات العائلية حالت دون ذلك.

نحتفي بهذا العناق الفكري الروحي الرمزي بين هرمين في الفكر الحديث والمعاصر، بين شقيقين مغاربيين ينحدر الأول من الجزائر والآخر من المغرب. ولكنهما رسما أفقا إنسانيا فكريا وأخلاقيا للممارسة الفكرية في تاريخ المغرب الكبير.

لن أذكر محمد أركون هنا، لكن اسمحوا لي بالتحدث عن محمد عابد الجابري من باب الشهادة لا من باب المداخلة الفكرية الفلسفية المتخصصة لأنني أنتمي إلى جيل، أني اعتبر نفسي ابنا روحيا له وأحد تلامذته وأحد الذين رافقوا المرحوم محمد عابد الجابري في بعض المسارات المهنية والفكرية والثقافية. سأبدأ بسؤال مركزي : ما الذي يجعل هذان المفكران الكبيران قريبان أحدهما من الآخر، وماذا كان يميز بينهما ؟ على الأقل في الممارسات الفكرية.

ينبغي أن أشير إلى أن محمد أركون خريج المدرسة الفرنسية ومن قدماء طلبة السوربون ومن الطلاب الجزائريين الذين التحقوا بالجامعة الفرنسية في الخمسينيات، خلال الفترة الاستعمارية، يعني الفترة التي كان فيها الشعب الجزائري الشقيق يخوض حربه التحريرية لتحقيق استقلال وطنه وكانت هناك حادثة كنا نتداولها في الوسط الفكري والثقافي بشكل عام وبين النخبة دون أن ننشرها أو نتحدث عنها للعموم، أسمح لنفسي أن أشير إليها لأن أخانا عبد الواحد الراضي في سيرة حياته التي صدرت أخيرا، يشير إلى المرحلة الطلابية التي عاشها هو ويتحدث عن العلاقات القوية المدنية والثقافية بين الطلاب المغاربيين وخاصة بين الطلبة المغاربة والطلبة الجزائريين في فرنسا، وكيف كان الطلبة المغاربة يلعبون دورا أساسيا في دعم الثورة الجزائرية والدفاع عن استقلال الجزائر.

يشير عبد الواحد الراضي في سيرته الذاتية الصادرة حديثا إلى محمد أركون وبعض أصدقائه المغاربة والجزائريين والتونسيين، قائلا إنه في غمرة تصاعد النضال الثوري في حركة القيادة، أصدرت القيادة الجزائرية أمرا يلزم الطلاب الجزائريين في الجامعة الفرنسية بالالتحاق بالثورة باعتبار الحاجة إلى أطر لقيادة الثورة والتسيير والترجمة... استجاب معظم الطلاب لنداء القيادة، تركوا مقاعدهم الجامعية والتحقوا وانخرطوا في صفوف الثورة.

لكن قلة من الطلاب عزفوا عن الاستجابة لهذا الأمر القيادي ومن بينهم الطالب الجزائري محمد أركون، الذي ارتأى آنذاك أن البندقية لا تناسبه وأن الثورة وبناء الدولة الوطنية بعد الاستقلال يحتاج أطرا مؤهلة فكريا ما يستوجب مواصلة الشباب الجزائري لدراسته. قال أنا شخصيا لا أصلح للبندقية، فلم يلتحق وطبعا بعد الروائيين التاريخيين تفهم موقف الطلاب القلة الذين لم يستجيبوا للقرار ودعوات القيادة والمناضلين.

تفهم بعض المؤرخين والقادة والمقاتلين موقف هؤلاء الطلاب. لكن الشعب شعر وكأنهم خانوا روح الثورة. هذا الوضع أشعل فتيل العداء الرمزي والنفسي، بل الفكري والإيديولوجي أيضا، بين محمد أركون والساحة السياسية في بعديها المسلح والمدني. على هذا الأساس، ظل الجفاء قائما مما يفسر طلب محمد أركون في خريف عمره أن يدفن في المغرب. حتى وهو يسلم الروح لمولاها رفض أن يدفن في تربته الأولى وفي وطنه رحمه الله فدفن في مدينة الدار البيضاء في مقبرة الشهداء ؛ وللمصادفة التاريخية وللمصادفة العجيبة أننا أثناء الدفن، في مقبرة الشهداء في الدار البيضاء وتعرفون أنها امتلأت عن أخرها لم تعد هناك بقعة تصلح للدفن إلا بعض البقع المخصصة لبعض العائلات التي اشترت الأرض في الخمسينيات، أحيانا نلجأ إلى أسرة من الأسر لكي تخصص حيزا يدفن فيه شخص غريب عن الأسرة. حدث هذا مثلا بالنسبة لعبد اللطيف بن جلون ولغيرهم من القادة الوطنيين، احتجنا إلى دفنهم في مقبرة الشهداء. فمن المصادفات الجميلة رغم فداحة الفاجعة أن القبر حيث وري الجثمان الطاهر لمحمد أركون لم يكن بعيدا إلا ببضع خطوات عن قبر المفكر المغربي الكبير محمد عابد الجابري ؛ تقاسما الحياة معا وجمعت بينهما صدفة الموت لكي يدفن الواحد قرب الأخر، رفقة في الحياة ورفقة في الموت.

تعمدت أن أبدأ بهذه القصة لأصل إلى هذه اللحظة، حيث جمعهما الموت معاً لتتويج دورة حياة طويلة ومعقدة تتقاطع فيها الاندماجات والمواجهات ونقاط التباعد. صديقان ورفيقا درب تشاركا الآمال العظيمة والآراء الفكرية والفلسفية. فيما يخص أوجه التشابه والاختلاف الفكري بينهما، سأقتبس جوابا للجابري في مقابلة نشرتها صحيفة الاتحاد الاشتراكي حيث كان قد أجابني على السؤال ذاته.

من بين الأسئلة التي وجهتها إليه رحمه الله : ما الذي يفرق بينك وبين محمد أركون على مستوى الممارسة الفكرية، أذكر جيدا قال لي : «هناك الكثير من النقاط التي نلتقي فيها، نشتغل على الإنجاز الفكري العربي الإسلامي، عن المدرسة الفلسفية العربية نشتغل على الماضي، على التراث ومساءلته والترتيبات ونشتغل على التراث لنجدده ونطوره ونفتح به المستقبل، ولكن هناك أيضا فرق جوهري عميق الذي لا ينتبه إليه الكثيرون بين محمد أركون ومحمد عابد الجابري هو أنني أشتغل على الفكر العربي الإسلامي أي على أشكال التأويل وأشكال المقاربة وأشكال القراءة على المستوى العربي الإسلامي، بمعنى أشكال الاجتهاد الذي طورها المفكرون العرب المسلمون القدماء كابن سينا، ابن رشد والشاطبي، إلخ. كيف قرؤوا التراث.

كيف قرؤوا الإسلام وكيف حاولوا أن يقدموا فهما جديدا بروائية معرفية جديدة للإسلام كحضارة، كممارسة دينية، كواقع اجتماعي، تاريخي فكري سياسي وما إلى ذلك. لكن في التأثير يختلف عنه أيضا مع محمد أركون أنه لم يضع القضايا اللاهوتية موضع مساءلة أو موضع نقاش فقد اعتبرها من المسلمات، بمعنى أن الجابري رحمه الله لم يكن يطرح السؤال، هل الله موجود أم غير موجود ؟ لم يكن يطرح هذه الأسئلة رغم طابعها الإشكالي، فهي لم تكن لتخدم القضايا المجتمعية. كان يعتبر كل تلك المسائل هي مسلمات لدى عامة المسلمين، إذا، لماذا أطرح هذا السؤال ؟ وما الذي سأستفيد وما الذي سيستفيد القراء من طرح هذه الأشياء، هل الإنسان من ألف القرآن أم أنه وحي ؟ هل الرسالة حقًا إلهية ؟ هذه الأسئلة لا تهمني، أنا أشغل في قلب المجتمع العربي الإسلامي وعلي أن أؤثر في المجتمع العربي الإسلامي وعلي أن أخدم المجتمع العربي الإسلامي لكي أطوره وأذهب به إلى المستقبل، لذا فأنا غير معني بهذه الأسئلة، أعتبرها من المسلمات طالما العرب المسلمين يتعاملون مع هذه القضايا اللاهوتية تعاملا إيمانيا والقضايا الإيمانية ليست انشغالا مركزيا، إذا هنا أختلف مع محمد أركون».

اشترك محمد أركون مع محمد الجابري في المقاربة التاريخية وفي فهم وتأويل الإسلام كنشاط، كممارسة في قلب المجتمع العربي. أشتغل على النص القرآني، كل هذه القضايا وأشكال التأويل وأشكال القراءة، كانت تجمعنا معا ويكاد أحيانا الرجلان يتشابكان الخطى في هذا المسار لكن على هذا المستوى الفكري الدقيق، المعرفي الدقيق جدا. كان هناك اختلاف جوهري كبير بين المفكرين.

استغل محمد أركون، بحكم انتمائه للمدرسة البنيوية ومن منطلق المدرسة السيميائية، إنجازات النظرية المعرفية الحديثة ولم يتردد في طرح الأسئلة اللاهوتية. اهتم أركون بكل الأسئلة التي تجاوزها الجابري، والتي لم يعطها الأولوية في مشروعه الفكري.

هنا تكمن نقطة الاختلاف المركزية والأساسية بين هذين المفكرين أما فيما يخص باقي الأشياء كانت هناك مجموعة من التقاطعات الكبرى، أحيانا كان يختلفان في بعض المفاهيم محمد عابد الجابري عندما شيد مشروعه الفكري، الكبير، العميق والمتميز.

يتمحور المشروع الفكري الكبير للجابري حول العقل العربي وتكوين وبنيته ودلالته ووظائفه واتجاهاته ومرجعيته الكبرى والعقل السياسي والعقل الأخلاقي إلى آخره عبر الأجزاء التي استبسل فيها وطور مشروعه الذي يعنى بدراسة التعصب والدولة والتراث والحداثة في الفكر الخلدوني، خصوصا دراسته المركزية حول الفارابي في ألفيته في كلية الآداب ودراسته الأساسية حول ابن خلدون في الندوة الكبرى التي نظمتها كلية الآداب بالرباط عندما كان أستاذا هناك في الجامعة، من هناك التقط الخطوط المركزية الأساسية لمشروعه.

وما ميز مشروع الجابري على هذا المستوى هو أنه لم يدرس الثقافة العربية الإسلامية والعقل العربي الإسلامي دراسة أيدلوجية، رغم أنه كان مناضلا يساريا وأحد قادة اليسار المغربي بامتياز، بل دراسة إبستيملوجيا لأنه كان فيلسوفا ودرس تاريخ الفلسفة ؛ لكنه كان من القلائل في العالم العربي الذين جمعوا بين دراسة الفكر العربي الإسلامي ودراسة فلسفة العلوم الإبستمولجية، درسها وأصدر فيها كتابا في جزئين وكان مختصا وكان له عقل رياضي أيضا وعلمي في التخصص. لم يكن فقط رجل آداب ورجل فلسفة بل كان رجلا مختصا في الدراسات العلمية، محمد عابد الجابري تميز أيضا عن زملائه الآخرين بتجاوز النزعة المادية في بناء مشروعه الفكري. لقد تميز عن كتاب كبار آخرين مثل حسين مروة والطيب التيزيني وحسين مروان من لبنان وفهمي جدعان وحسن حنفي. في الحقيقة لقد فاقهم جميعا ؛ لا أريد أن أدخل في المفاضلة لكنه تفوق عليهم جميعا في هذا المستوى، حتى أن بعضهم عاداه وخاصمه وهاجمه.

أكثر من ذلك، اجتمع بعض خصوم الجابري في ندوة بتونس فاتفقوا على مواجهته ووزعوا الأدوار. هذا المشروع الذي قام به الجابري ويقول أنه إبستيمولوجي ويشتغل في بستان فلسفة العلوم وفي عمق الخيار الأيديولوجي. أيضا عندما قال الطيب التيزيني، وهذا جانب آخر بمعنى أن الجابري استطاع فعلا، عندما شيد مشروعه الفكري الذي نفتخر به كمغاربة وكمغاربيين، حقق فيه نقلة نوعية على المستوى المنهجي والنظري والمعرفي وبالخصوص لأول مرة بين هذه النخبة من الباحثين الذين يشتغلون عن التراث وكان جريئا في التعبير عن أن المغرب الكبير والمغرب العربي على المستوى الفلسفي كان منتجا للعقل وليس منتجا للعرفان الصوفي كما هو منشور في مكتبة النشر.

اعتبر الجابري أن الغرب الإسلامي أنتج مدرسة فكرية عقلانية أبرز رموزها ومعلميها الكبار ابن رشد، ومن هنا اهتم الجابري رحمه الله بمشروع ابن رشد الفلسفي والترجمي والسياسي، اهتم به وترجمه وقدم كتاباته برؤية معاصرة مقربا الفكر العقلاني الرشدي من الأجيال الجديدة. هذا عمل أيضا حاول أن يعمقه وأن يمضي به إلى أبعد الحدود عندما انتبه أيضا للإمام الشاطبي الأندلسي ورموز فكرية أخرى.

إذا باختصار شديد، محمد عابد الجابري قمة من قمم الفكر الإسلامي.

الجابري ليس مفكرا مغربيا أو مغاربيا كبيرا فقط، لذلك ترجمت أعماله إلى عدد من اللغات، فعدد من القراء لا يعرفون أن أعمال الجابري مترجمة إلى الإيطالية والإسبانية والانجليزية والألمانية والتركية وعدد اللغات الأخرى.

التقط الباحثون والمستعربون الغربيون القيمة النوعية للمشروع الفكري لدى محمد عابد الجابري. وهنا لابد لي من أن أستحضر محمد عابد الجابري كفاعل في الفكر السياسي المغربي، انبثق من صفوف الشبيبة المغربية التي عاشت اللحظة الاستعمارية وانخرط في صفوف حزب الاستقلال، عندما كان حزب الاستقلال الحزب الوطني الكبير الذي كان يجمع القاعدة الاجتماعية الشعبية المغربية كلها. نشأ الجابري داخل أسرة وطنية لم تكن تملك الكثير من الإمكانيات. كان الجابري عصاميا في تكوينه وفي اختياراته الفكرية والثقافية. بعد الحصول على البكالوريا، جاء ضمن قلة قليلة من الطلاب تضم سبعة أو تسعة طلاب من المغرب كلهم جاؤوا إلى الرباط لتسلم شهادة النجاح، ونظم الحفل في كلية العلوم في الرباط وكان هناك عدد من الشخصيات الفرنسية من العمداء ورؤساء الجامعات وأيضا كان هناك المهدي بن بركة رئيس المجلس الاستشاري الوطني من 1956 إلى 1959.

تسلم الجابري جائزته من يد المهدي بن بركة، الذي سأله من أين أنت ؟ فأجاب الجابري : «*أنا من فيجيج*»، فسأل بن بركة : «*ما هو عملك ؟*» فأجاب الجابري : «*أنا معلم*». فزاد بن بركة : «*نقطك جيدة وخصوصا مادة الترجمة. غدا في الصباح ستأتي إلى جريدة العلم*». كان بن بركة مدير العلم ومسؤول التنظيم في حزب الاستقلال. في اليوم الموالي، التحق محمد عابد الجابري بمقر الجريدة ؛ أوصى له بن بركة بمكتب خاص وطلب منه أن يكتب مقالا أو مقالتين شهريا عن المعلمين، فتساءل الجابري قائلا : «*عن ماذا أكتب ؟*» فأجاب بن بركة قائلا : «*اكتب ما شئت إنها مهنتك*».

هذه بداية عابد الجابري في الخط النضالي، دخل حزب الاستقلال أو ما نسميه يسار حزب الاستقلال ومن هنا بدأ كصحافي يمارس التعليم. كان محمد عابد الجابري مربي أجيال وبيداغوجي كبير مارس التعليم كمعلم وكأستاذ وكمدير ثانوية وكأستاذ جامعي بكلية الآداب بالرباط في شعبة الفلسفة.

في نفس الفترة، جاء شاب آخر صحراوي يدعي الباهي إلى علال الفاسي وإلى جريدة العلم. اشتغل الباهي وهو شاب يافع براديو دكار، كان مناضلا مزعجا فاعتقلته السلطات الاستعمارية بدكار لكنه هرب وركب باخرة على أهبة الإقلاع وهو لا يعلم أنها متوجهة إلى طرفاية أو إفني، على ما أظن. فلما اكتشفه طاقم الباخرة رموه في البحر حتى لايتحملوا مسؤوليته ؛ لكنهم تراجعوا عن ذلك لما عرض عليهم تنظيف الباخرة كاملة. وكذلك كان حتى بلغوا ميناء سيدي إفني فأنزلوه. فماذا فعل ؟ التحق بجيش التحرير المغربي في منطقة غير بعيدة عن «آيت باعمران» في «سيدي إفني». كان هذا الشاب يجيد العربية الفصحى والفرنسية فكلفوه بالتواصل، أصبح يكتب البلاغات لجيش التحرير ويدون المعلومات والأرقام والمعطيات... وهكذا أصبح عضوا مناضلا في جيش التحرير المغربي، عندما وقعت عملية وانهزم فيها جيش التحرير المغربي بالضربة القاضية كما تعرفون، عاد مع المناضلين ومع قادة جيش التحرير إلى الدار البيضاء وإلى الرباط واستدعاه علال الفاسي، عندما فكر علال الفاسي في إنشاء صحيفة اسمها الصحراء المغربية في سنة 1958، وبرنامج إذاعي في إذاعة الرباط حول الصحراء وكان «الباهي» هو أول من تحدث باللغة الحسانية في الإذاعة وجاء به إلى جريدة العلم فأصبح محمد الجابري والباهي حرمة صديقين وزميلين وشقيقين لم يفرق بينهما إلا الموت. مليكة الجابري تعرف ذلك والأسرتان كانتا ومازالتا أشبه ما تكون بأسرة واحدة. انخرط عابد الجابري في الدينامية السياسية بالمغرب الحديث ولعب دورا أساسيا في عدد من النصوص المؤسسة للفكر الديمقراطي المغربي الحديث منها نص يعود لسنة 1964 حول الديمقراطية، نص متقدم جدا كأن الجابري كتبه اليوم فقط. لقد كان من أول المثقفين الملتزمين المغاربة الذين أسسوا للفكر الديمقراطي لأن التجربة اليسارية بشكل عام بدأت منفتحة عن الناصرية وعن البعثية كما تعرفون وكان في حاجة إلى نخبة فكرية جديدة تفكر بأفق آخر وفي اتجاه آخر، فلعب الجابري وعدد من خيرة المثقفين في تلك المرحلة التأسيسية الأساسية دورا مهما.

وطبعا ظل الجابري يرافق المهدي بن بركة ؛ يحكي لي أخي المرحوم عابد الجابري سنة 1989 في حوار نشرته جريدة الإتحاد الاشتراكي بتاريخ 29 أكتوبر 1989 حول علاقته مع المهدي بن بركة ومما ساقه في هذا الحوار أنه قال لي مرة عندما كان معه في الرباط في لقاء حزبي، اجتمعوا وخاطب وحاور وتكلم وهم ذاهبون إلى السيارة، قال له، سي المهدي، قال له : نعم، هذا الحديث الذي كنت تسرد، كنت تتكلم مع الناس، كل شيء قلته فهو مقاربة ماركسية، كنت تتحدث من داخل الرؤيا والمنهج الماركسي، قال له : *«أصمت لا تقلها، إذا قلت لهم أنني كنت أتكلم عن الماركسية، سيقولون إذا هذا شيوعي، هذا ملحد، بمعنى أنهم سيرفضون الفكر الذي أقول وأتحدث به، دعنا نتكلم عن المبادئ والقيم الأساسية، عندما يقتنعون بها، وأقول لهم الماركسية فسيتقبلون بها».*

وبهذه الروح التربوية تعرفت أيضا على أخي المرحوم محمد عابد الجابري ودائما كنت أرى فيه المعلم ورجل الفكر العظيم ورجل الأخلاق والمبادئ، أحد كبار مؤسسي المدرسة الفكرية المغربية وأحد صناع المستقبل، وقد أسلم الجابري رحمه الله الروح لبارئها لكنه مازال حاضرا مؤثرا منارا نهتدي به في المسار الفكري والسياسي والأخلاقي.

محمد بشير زناكي

بعد هذه الإشادة الكبيرة بمحمد عابد الجابري، التي تليق بحجم عمله ومسيرته، والتي يتعذر التطرق لجميع جوانبها. أعلم أنه يوجد بين الحضور أشخاص ممن قابلوه ويمكنهم الحديث عنه. إلا أنه نظرا لضيق الوقت لابد أن ننتقل إلى الشقيق والهرم الكبير المرحوم محمد أركون ونعطي الكلمة إذا للفرنسي فرانسوا ليفوني.

فرانسوا ليفوني

أود أن أدلي بتعليقين. الأول يتعلق بتواجدي هنا ، وما الذي قد يبدوا غريبا بعض الشيء بل متناقضا، فأنا لست مستعربا ولا مختصا في الدراسات الإسلامية ولا عالما قرآنيا ؛ أكثر من ذلك، أنا لست مغاربيا. لكنني ومحمد أركون صديقين مقربين ينتميان إلى أخوية الأكاديمية اللاتينية التي كانت تعنى بإقامة اللقاءات والنقاشات بين العالم اللاتيني بمعناه العام واللاتيني الأوروبي وطبعا أمريكا اللاتينية والعالم العربي الإسلامي بمفهومه الواسع أيضا. وبالتالي كانت بيننا رفقة ثقافية على نطاق واسع تضم أيضًا أشخاصًا مثل إدغار موران وآلان توران وجون بودريار وآخرين.

كان محمد أركون مثقفاً يتميز بشهرة عالمية، وهذا أمر يجب أخذه بعين الاعتبار. أعمال محمد أركون تتجاوز المحلية الآفاق الواسعة نحو العالمية. ملاحظتي الثانية تخص اختيار هذا المكان لتنظيم المعرض المغاربي الأول للكتاب.

من الجلي أن لهذا الاختيار دلالات رمزية في ظل استمرار إغلاق الحدود... إنه اختيار يوضح أهمية الدبلوماسية الفكرية التي يجسدها محمد أركون إذ تدفعنا للنظر إلى المدى البعيد، وتستطيع أحيانًا إعادة صياغة المشاكل. لا أريد أن ألقى خطابا حول التأملات، لذلك تتمحور مداخلتي حول محمد أركون كشخص وعن مكانته.

أود أن أذكر أولا أن محمد أركون، المولود في عام 1928، كان ابن بقال صغير. سوف يتحدث عن ظروف حياته مع معلم ماكر شيئا ما، ويستفيد من حقيقة أنه خارج نوعا ما عن النظام الاستعماري. ثم تتاح له فرصة الالتحاق بالتعليم الثانوي والعالي في المدرسة الثانوية في وهران، ثم في كلية الجزائر. سيواجه صعوبات كبيرة، ولكن، الانفتاح الذي يميزها سيطبع فكره.

بين سن الثامنة والتاسعة، أثناء تلقيه تكوين ديني في قريته أتيحت له فرصة التقاء الآباء البيض، وفرصة اكتشاف عالم رائع آخر بجانب الإسلام، عالم المسيحية وشعائرها، إن الأمر يشبه بعض الروايات الهجينة.

هذه الأحداث تبين أمورا تلخصها عبارة مشهورة للشاعر الفرنسي ألفريد دي فينيي حين قال : «*إن الحياة الناجحة هي حلم مراهقة يتحقق في سن الرشد*». بشكل ما فإن حياة أركون هي حلم الشباب الذي تحقق في سن الرشد. لقد كان أركون دائم الاقتناع بأن المشاكل التي تصاغ على المستوى العالمي، يتم حلها على المستوى المحلي هذا الفكر سيصاحبه وهذه الجدلية سمة مميزة لطريقة وأسلوب محمد أركون.

كانت هذه ملاحظتي الأولى، أما الملاحظة الثانية فأود التذكير أن محمد أركون عاش خلال تعليمه الجامعي أي الخمسينات، عصر انتصار العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية وازدهارها. إن علم الإسلام «الأركوني» إذا جاز التعبير سيواجه معارف جديدة ستغير طريقة التفكير، والتعامل مع النصوص، والمواضيع المطروحة للدراسة إذ ستخلق ترابطا بين المعارف. يبدو لي أنه يتشارك نفس النظرة مع مفكرين آخرين لديهم الإرادة لقبول التعقيد وكسر حواجز التخصصات كإدغار موران الذي يحكي عن تجربة كتابه الأول حول موضوع الموت، ففي طور الإعداد للكتاب، أدرك أنه من المستحيل أن يجد في المكتبة جميع الكتب التي تناولت هذه المسألة، لأن كل تخصص له مكتبة خاصة به وأساليبه ونهجه الخاص. ونتيجة لذلك، أدركوا أن هنالك حاجة إلى تفكيك هذا النظام لذلك جعل محمد أركون وإدغار موران ربط المعرفة ضرورة حتمية وحدثا معرفيا أساسيا للغاية.

أما فيما يخص الملاحظة الثالثة، فأود تسليط الضوء على نقطة مهمة لتأملها : هناك ميل إلى التقليل من أهمية فكر محمد أركون واختصاره في بعض شعارات وصيغ ربما هو نفسه سمح بها. لكننا لا نستطيع أن نختزل عمل مفكر بهذه الأهمية في مجرد أفكار، فالجميع لديه أفكار تمر عبر عقولهم وتؤثر عليهم إذا كانت أصيلة. لكن الفكر مسألة أخرى، فهو عمل العقل، وهو نوع من التعمق وإبداع في الوقت نفسه. لهذا السبب تحدثت عن حلم الشباب الذي تحقق في مرحلة الرشد، يجب على المرء أن يأخذ هذه الصورة المشابهة لإثبات فكرة : فلدينا فكرة عن حياتنا، فالأفكار أمر نادر بالنسبة لمحمد أركون إذ يعتبرها نوع من الغنى والثراء. وفكرته هي انتقاد العقل الإسلامي. ويعد الحديث عنه بمثابة ربط علاقة وصدى مع انتقادات العقل العربي. لكن ما يبدو مهمًا بالنسبة لي بشأن محمد أركون وهذه نقطتي الرابعة عن أن نقد عقل الإسلامي يرافقه نقد للعقل الأوروبي. مما يتقارب مع فكر الفيلسوف الفرنسي المعاصر، فرانسوا جولين، بمعنى أننا نواجه الفكر الأوروبي ومصادره، كالفكر القديم على سبيل المثال.

تنطوي أعمال محمد أركون على نقد العقل الإسلامي والأوروبي، أقول الأوروبي وليس الغربي لأن الغرب في مجمله لا محدود، بينما في تنوع أوروبا دليل على الانشطار وهو ما يستند إليه في نقده للعقل الأوروبي. لم يكن لأركون قصب السبق في هذا الباب، فقد انتقد «مارتن هايدجر» العقل الأوروبي كما انتقده «أدورنو» لشساعته وانغلاقه في نفس الوقت. ولذلك، فإن انتقاد العقل الأوروبي سيقود محمد أركون إلى تأمل عميق، بل جدلي تماما رافضا التأمل السطحي السهل.

فقد رفض على سبيل المثال عبارة «إسلام الأنوار» لعدة أسباب. أولها، لرفضه دمج الإسلام والأنوار معا لحل المشكلة، فالأمر قد يبدو سهلا، ولكن مصطلح «الأنوار» ذو دلالة عميقة جدًا ؛ لقد تحدث «ريجيس ديبريه» عن «الأنوار المعمية»، من المفترض أن تنير الأضواء العقل بالطبع، ولكنها تمنع رؤية بعض الأشياء أيضا. ولعلنا نحن نعرف الكثير عن القرن الثامن عشر، فهو قرن حاسم، من الناحية التاريخية، ولكنه يحمل أيضا عنفًا نظريًا وسياسيًا واقتصاديًا.

الفكر الذي نتحدث عنه لم يولد خلال القرن الثامن عشر. بل قبل ذلك بوقت طويل : لقد كان حاضرا في أعمال ابن رشد، وكذلك في الانتقادات الكبرى للقرن السابع عشر. لذلك، فإن فكرة إسلام الأنوار - التي أعتقد أنها «موضة» متجاوزة إذ تتعارض مع مفهوم الإسلام العظيم كحل عالمي. يعارض أركون هذه الأفكار التبسيطية من خلال أعماله، كما هو الحال عندما يتحدث عن علم الإسلام التطبيقي. ما هو علم الإسلام التطبيقي هذا ؟ للتحدث عنه، يجب على المرء أن يشارك نفس اعتقاد الفيلسوف باشلار الذي بين في وصفه للعقلانية التطبيقية، أن التعقيد غالبا ما يكون أكثر عقلانية من البساطة.

إن إعادة العلاقة إلى التعقيد، وليس البساطة، تتعارض مع تراث ديكارت، على سبيل المثال. فالأنثروبولوجيا التطبيقية ذات أهمية كبيرة لأركون. إنها فكرة مشابهة لفكرة العلوم الطبيعية التي تسمح بتحديث قوانين الطبيعة وربما التصرف فيها، ومن نفس المنطلق قد يكون ممكنا وضع قوانين تحكم البناء الاجتماعي، وبالتالي ربما التأثير على هذا البناء. على أي، فإن هذه المنهجية الإسلامية التي طبقها محمد أركون ستكون أداة نظرية غنية جدًا تتغذى على معارف متعددة. وهذا يمثل لقاءا حاسمًا مع الأنثروبولوجيا المنسوبة لهنري جيرار الذي عمل على الصلة بين القداسة والعنف. سوف يضيف أركون إلى هذه الصلة الحقيقة، ويبني هذا المثلث التي يعتبره محركا للفكر والقداسة، وكذا الحقيقة بشكل ما، وبالتالي محركا للمجتمع. يعطي أركون أهمية كبيرة للمعنى ويصر على ذلك دائماً، كمعنى كلمة إسلام. ما هو الإسلام بالنسبة للبلدان التي حصلت على الاستقلال ؟ ما هو هذا الإسلام ؟ أو ماذا يراد به ؟ هل هو إسلام مؤقت ؟ هل هو إسلام تاريخي ؟ لدى أركون الكثير من الأعمال في هذا السياق.
النقطة الأخيرة والتي تبدو لي مهمة للغاية هي أن كل عمل أركون يؤدي إلى فكرة أساسية هي أن هناك أمراضا فكرية، مثلما توجد دبلوماسية فكرية. عندما يقرأ المرء الخطاب الفلسفي لفولتير، يجد أنه وصف كلمة «التعصب» بأنها «مرض العقل».

اقترح فولتير التسامح كعلاج لمرض التعصب. أما بالنسبة إلى أركون وموران، فالحل ببساطة هو معرفة المعرفة لأنه عندما تقوم المعرفة بفحص المعرفة، فإنها تقيس جميع المخاطر الكامنة في المعرفة، وكل المخاطر الكامنة في الفكر أيضًا. نحن نعرف ما هو العقل ؛ ونضل الطريق عندما يتجاوز العقل الصواب. توجد صلة بديهية بالدين، لكننا نعرف جيدا أن التعصب لا يكون دينيا فقط : ما هو التعصب ؟ يمكننا تسليط الضوء على خصائص أي نوع من التعصب. إنها الاختزالية، أي اختزال كل شيء في جزء واحد : ينتج عن ذلك رؤية الخير والشر، والحقيقة والزيف، وما إلى ذلك. مما يضع الآخر في وضع راديكالي متطرف واختزالي. وأخيرًا، فإن السمة المميزة الأخيرة للتعصب هي ما يمكن تسميته بالتعديل. ما هو التعديل ؟ إنها قدرة العقل البشري على اختلاق «آلهة» قد تكون أيديولوجيات أو مفاهيم. هذه «الآلهة» اختلقها العقل وهي نفسها ستقيده بل سترهبه. هذه هي إنتاجات الروح البشرية التي تتطلب التضحيات. هذه المقاربة للتطرف هي واحدة من المساهمات الرئيسية لهذا المفكر العظيم وأنا مسرور لتكريمه معكم.

محمد بشير زناكي

إنه موضوع غني ومشوق لأن الفكر في مجال التعميق العملي الإبداعي الذي قام به محمد أركون، تكون في مكان تختلط فيه حتى المدارس العلمية، لأن أركون اشتغل في مرحلة عرفت نهضة العلوم الجديدة في الخمسينات.

إذ كانت لهذه العلوم وخصوصا في المجال الإنساني أثر على كل الإنتاج، على كل عملية فكرية في المنطقة الأوروبية، على كل حال، «فرانسوا» يقول، أنه ربطته بهذا الهرم صداقة طويلة ومسار فكري مشترك مع مجموعة أخرى من المفكرين كانت لهم مقاربة تسعى للانفتاح على كثير من الثقافات في مرحلة متقدمة وكذلك كان له اهتمام مشترك معه على المستوى التراثي.

أركون عند «فرانسوا» لا يمكن حصره في مجال جغرافي، حتى المنطقة المغاربية لا تمثل وحدها فكر محمد أركون لأنه يرى في بعدها أكبر بكثير من ذلك ويشترك معه كذلك فيما سماه بدبلوماسية الفكر ومسألة الهدوء في المقاربة والنظر للبعيد. إذا هذه الأشياء التي حببت له محمد أركون وجعلته يرتبط به لمدة طويلة جدا وعلى أية حال : هو قدم ست نقاط في مجال المساهمة الفكرية المتميزة لمحمد أركون.

أولا، من الأفكار الأساسية في مقاربة أركون أن القضايا الأساسية الكبرى تجد حلولها على المستوى المحلي.

ثانيا، العلوم الإنسانية كانت في ما مضى تضع بينها وبين كل المسارات المختلفة الفكرية حدودا وقواعد في التعامل تجعلها منفصلة عن بعضها، لكن أركون ينتمي للفكر الذي حطم تلك الحدود بين المدارس في التخصصات العلمية وحاول أن يبني جسور بينها من منطلق أن المعقد هو الأساس وليس السهل البسيط.

ثالثا، مقاربة أركون لم تركز على إنتاج الأفكار بقدر ما ركزت على إنتاج الفكر وهما مختلفان. وقد وصل محمد أركون إلى الإنتاج الفكري من خلال تعميق وإنضاج المقاربة المختلفة التي وظفها في مسار البحث العلمي.

رابعا، لم ينتقد أركون العقل الإسلامي فقط بل نقد الفكر الأوروبي أيضا وكانت هذه المقاربة المزدوجة أساسية في تعامله مع المعرفة ولذلك في النهاية تصور مقاربة يمكن مناقشتها وهي تقوم على فكرة الإسلامولوجية التطبيقية، وهذه الفكرة اعتمدت على مستوى الوسائل المعرفية دراسة عميقة للغة، أي الجوانب الخاصة باللغة من خلال مدارس فوكو، وكذلك يرتبط فيما يتعلق بالخطاب والمقاربة اللغوية بفكرة «بول رايك» حول الاستعارات ومن هذا كله وصل إلى المستوى الذي فعلا كان يطرح إشكالا هو أنه ربما كان ملتزما بعملية تعرية عن الخطابات السياسية وبالخصوص الخطابات السياسية السائدة في العالم العربي في تلك الفترة .

سادسا، عالج أركون موضوع «التعصب» باعتباره مرضا من أمراض العقل و هذا التصور مبني ليس فقط، على فكر «فولتير» من خلال التسامح ولكن من خلال نقد المعرفة ومحاولة استعمال المنطق العلمي للتعرف على المنهجية العلمية في بنيتها ومحاولة نقدها وتعرية خباياها، هذا بشكل عام كل ما في مدرسة أركون ميز حسب «فرانسوا» ولذلك أتمنى أن أكون قد أصبت في هذا.

فرانسوا ليفوني

أردت فقط أن أضيف نقطة أخرى ؛ توجد في المغرب مؤسسة محمد أركون التي تسيرها عائلته والتي تضع على الانترنت عددا من الوثائق والأفلام والمستجدات المرتبطة به ؛ تمنح هذه المؤسسة جائزة محمد أركون كل سنتين.

محمد بشير زناڭي

فتحت زوجة محمد أركون موقعا إلكترونيا يوجد به عدد من التسجيلات المتعلقة بحياة زوجها.

حسن نجمي

أسست عائلة المرحوم محمد عابد الجابري هي الأخرى مؤسسة محمد عابد الجابري بالرباط، ومكتبته موجودة في مكتبة المؤسسة بعمارة السعادة بقلب العاصمة الرباط.

في هذه المؤسسة هنالك مفكرين وفاعلين في الحقل السياسي، والمؤسسة تقوم بأنشطة دراسية حول الفكر العربي الإسلامي، حول فكر عابد الجابري تحديدا والمكتبة مفتوحة بكل إمكانيتها للطلبة والباحثين والمهتمين بفكر عابد الجابري رحمه الله.

محمد بشير زناڭي

يسعدنا حقاً أن نكرم في هذا المعرض هؤلاء المفكرين الكبار. كما نتمنى أيضا أن يستمر النقاش حول فكرهم الراقي خلال الدورات القادمة من المعرض. معنا بعض المداخلات، في البداية، أعطي الكلمة لعائلة عابد الجابري في شخص السيد عصام الجابري.

عصام الجابري

شكرا، أولا أنا جد سعيد لحضوري في مدينة وجدة بمناسبة المعرض المغاربي للكتاب الذي سيساهم بما لا شك فيه تثبيت أواصر القوة والحوار بين شعوب المنطقة وما يزيد من فرحتي هو هذه الالتفاتة الكريمة بتكريم أحد أهرام الفكر العربي محمد عابد الجابري، فشكرا جزيلا على هذه المبادرة التي تكرس ثقافة الاعتراف، وما أحوجنا اليوم خصوصا في هذه الظروف الصعبة التي يمر بها وطننا العربي إلى تكريس مثل هاته الثقافة خصوصا عندما يتعلق الأمر بشخص مثل الراحل محمد عابد الجابري المعروف بعصاميته، بجديته العلمية وبمثابرته وبنزاهته الفكرية والسياسية. ولكن الجابري أيضا المثقف المعروف بمشروعه الفكري الضخم وما يؤكد هذه الحاجة هو أنه كما تعرفون المشروع الفكري للراحل يدور كله حول ما يعرف بإشكالية الفكر العربي المعاصر وبسؤال النهضة : لماذا تخلفنا ؟ وبالتالي أعتقد بأننا اليوم بأمس الحاجة لهذا المشروع الذي أعاد قراءة التراث قراءة نقدية : فهو لم يكن ينتقد من أجل النقد ولكن لأجل التخلص مما هو ميت وغير صالح في هذا التراث. نحن في أمس الحاجة لهذا المشروع الذي انتصر للعقل البرهاني الذي حاول أن يفسر القرآن تفسيرا يجعله معاصرا لنفسه ولكن أيضا معاصرا لنا نحن أبناء القرن الواحد والعشرون، لا أريد أن أطيل عليكم بمداخلتي، أريد فقط طرح سؤال للأستاذ «فرانسوا»، وعلي أن أخذ التزاما من الأخ حسن نجمي وكما تعلم إلى جانب المؤسسات التي نقوم بإنشائها مند سبع سنوات، أسست جمعية جديدة بمدينة الدار البيضاء تحمل إسم «جمعية أصدقاء محمد عابد الجابري» ونحن نعمل داخل الجمعيتين من أجل تنظيم، احتفال بالذكرى الثامنة لرحيل المفكر محمد عابد الجابري بمدينة فجيج، فلقد أكرمنا الأخ حسن نجمي بالمساعدة في هذا الصدد. السيد ليفوني، لدي سؤال قصير : برأيك، هل انحاز محمد أركون لإحدى الضفتين الشمالية أو الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط ؟

فرانسوا ليفوني

ما يعجبني في محمد أركون هو أنه اعتبر دائماً الرحلة التي ننظر إليها كجدلية من الناحية الفكرية هذا التنقل بين الشمال والجنوب، طريقة لبناء عالم. أذكر هنا مقولة لموران، الذي قال : «*إنه الجنوب الأكثر عالمية*». أعتقد أن طريقة العيش هكذا على الضفتين أمر مبتكر للغاية، كونها لا تقع ضمن لزوم الاختيار بين جهة أو أخرى، لأنه، إذا اختار المرء، يخون أو ينسى...

محمد بن عمر

أنا مهتم بفكر محمد عابد الجابري وسبق أن شاركت بورقتين بحثيتين في شعبة الفلسفة بجامعة وهران، الأولى لمحمد عابد الجابري والثانية لمحمد أركون في لقاء دولي نظمته شعبة الفلسفة بوهران كان من بين خلاصاته أن هناك مفارقة كبيرة بخصوص نقط الالتقاء بين الرجلين، فهما يلتقيان في قراءة النص التراثي من أجل بناء النهضة ويختلفان كثيرا.

من أجل فهم نص الجابري، لابد أن نقرأ المقابلة المطولة التي أجرتها مجلة المقدمات وأعيد نشرها في مجلة فكر ونقد العدد 10 وفي مجلة مواقف العدد 28. وعندما نقرأ هذه المحاورة المطولة نستنتج أن محمد الجابري قام بقراءة التراث وخلص إلى أن التراث العربي الإسلامي يتشكل من بنية فهم النص ومن تم فإن جميع العلوم التي نشأت في التراث العربي الإسلامي كلها علوم بيانية تسعى لفهم وقراءة النص فقط في حين أن محمد أركون قرأ النص لنزع القداسة وهذا ما قاله بصريح العبارة لمجلة «رودوت»، أكثر من ذلك، عندما تقرؤون تفسير محمد أركون للقرآن، الأصل في التفسير أن نقرب النص إلى القارئ، الإخوة في مصر قرؤوا كتاب تفسير محمد أركون للقرآن قالوا إنه كتاب في الرياضيات فيه منحنيات ومستطيلات ورسوم ودوائر إنه نص بعيد كل البعد عن التفسير، وشكرا لكم.

مداخلة

أولا، تحية للسادة الأساتذة الذين ساهموا في تنشيط هذه الجلسة حول المرحوم محمد عابد الجابري ومحمد أركون ولكني لدي مجموعة من الملاحظات التي أريد أن أطرحها.

الملاحظة الأولى، عندما نقارن بين مفكرين أو ثلاثة أو غير ذلك، المقارنة في بعض الأحيان قد يكون فيها نوع من التعسف ونوع من الإساءة للمفكرين معا، خاصة إذا كانت المقارنة بخلفية الانتصار، بوعي أو بدون وعي لمفكر على حساب مفكر ولهذا يجب الحذر، ولو أن محمد أركون كان يقول بأن المقارنة تولد المعنى. يمكن أن تكون المقارنة موضوعية بينهما على اعتبار أننا أمام منهجيتين مختلفتين، مقاربتين مختلفتين في مجال التراث، ماذا يمكن أن نقول عن المشترك بينهما ؟ هو أنهما معا يشكلان موجة كما قال الأستاذ، موجة في الكتابات النهضوية التي سوف تحاول إيجاد مقاربة ابستيمولوجية، تحاول أن تبعد ما هو أيدلوجي في مسألة التراث.

ما يعاب على المداخلات هو أن ليس هناك توطين ؛ صحيح أننا نقرأ عن محمد عابد الجابري في المهرجان المغاربي ولكن ما هي أسباب النزول الآن ؟ ما حاجتنا للجابري ومحمد أركون والعروي والآخرين ؟ خاصة في لحظة المتابعات العربية ومن بينها المجتمع المغربي، نحن في حاجة إلى فكر الأنوار، في حاجة إلى تلامذتنا في المدارس، في الجامعات للحد من هذا الجهل المقدس والجهل المؤسس الذي خيم على المؤسسات كما يقول محمد أركون نفسه، بالنسبة لأركون، أنا لا أريد ذكر المقاربات التي تتوقف من المفكر الاعتبارات الدينية والأيديولوجية للدين نقدمها على مذبح، وبالنسبة لمحمد أركون أعطى مسألة، ما هو توطين السياق ؟ السياق الذي نحن فيه عندنا إشكالية في فهم تراثنا، عندنا إشكالية في فهم ثقافتنا الموروثة، لابد أن تخضع هذه الثقافة بجميع عناصرها ومكوناتها للدراسة والبحث والتمحيص كما يقول الأستاذ محمد أركون وفق مقاربة علمية تجد أصلها في العلوم الاجتماعية وعلوم الإنسانية عموما.

ولا يجب أن نضع أنفسنا استثناء في العالم، لنخرج من ثقافة الاستثناء، «هذه المقاربة لا تصلح لنا»، «لا تنطبق علينا»، فكر أركون هو فكر تحرري في قضية الضفتين، هل ينتمي للبحر الأبيض المتوسط شمالا أو جنوبا. للمفكر موقف حول هذه المقاربة : «*يحاول الفكر الأوروبي قراءة الثقافات والحضارات المتواجدة في حوض البحر الأبيض المتوسطي بشكل منفصل، بغية الوصول إلى مقاربة إنسانية واحتضان المشترك الإنساني*».

محمد بشير زناڭي

مجمل القول، يبدو من الصعب القيام بمقارنة أو مفاضلة. وما يهم في الأمر هو محاولة محمد أركون ومحمد عابد الجابري بناء جسور. فجسور الجابري تختلف عن أركون : إن جسورهما متوازية.
والسؤال المطروح اليوم هو معرفة مدى المستوى المعرفي والاحتياجات المعرفية المواكبة لهذا العصر في هذا البلد وفي هذه المنطقة. فما هي الإمكانات التي نستثمرها في هذه الأفكار ؟ من البديهي أن العمل ضروري، إذ هناك حاجة لبذل جهود كبيرة في البحث، في الفكر والمعرفة، لاسيما في وقت يشهد فيه العالم بأسره تحولات عديدة.

سعيد تونا

أشتغل كصحفي وباحث في الفكر العربي المعاصر. وعلى غرار المثل الفكري القائل: «لا يفتى ومالك في المدينة»، أستسمحكم عذرا عن أي نقص أو قصور إذ لا أريد أن أبدو قليل الاحترام لأشخاص يعتبرون أساتذتي. سيد نجمي، بكل صراحة فقد رويت ظمئي عند حديثك عن الأستاذ محمد عابد الجابري. فأنا واحد من تلامذته أو بالأحرى واحد من أتباعه، ويحق لي تبني أفكاره لأسباب ذاتية وموضوعية. سيد حسن نجمي، لقد تبين لي صدقك الفكري، لماذا ؟ إذ رفضت الحديث عن محمد عابد الجابري بصفته قياديا داخل الاتحاد الوطني للقوات الشعبية والاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية، وذلك لأنك حاليا عضو داخل الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية. وأنت مشهود لك بهذه الأمانة الفكرية. فقد تحدثت عن محمد عابد الجابري وأهملت الجانب السياسي، فهو يعتبر مفكرا عضويا. وقد صرح : «*أنا لست بمفكر يخطط في السماء، أنا مفكر عضوي بالمعنى «الغرامشي» للمصطلح*». بلغة أخرى إنه لم يكن مفكرا نظريا فقط، وإنما مناضلا داخل الإتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية، بل أحد مؤسسي الحزب، إذ حرر بيانه الإيديولوجي. وأثناء الحديث عن محمد عابد الجابري ومحمد أركون، فقد أغفلت نقطتين أساسيتين. فيما يتعلق بالجابري هناك نقطة جوهرية لم ينتبه لها أحد : إذ هو الشخصية المغربية الوحيدة التي حضر القصر الملكي جنازتها في حين أن الجابري لم يكن يشغل أي منصب رسمي. سيد فرانسوا ليفوني لقد غاب عنك أن محمد أركون دعا إلى بناء «معهد دولي لعلوم الدين». فهناك تباعد هيكلي بين المفكرين فيما يخص الحداثة. يجب علينا ألا ندخل في استنتاج يفيد بتعارض فكري فقط بل هناك قطيعة فكرية بين الرجلين. يقول الجابري إنه في الحداثة يجب الوقوف عند الديمقراطية والعقلانية وترك العلمانية. في حين يرى أركون أنه يجب الدخول إلى الحداثة عبر الخيارات الثلاث.

محمد بشير زناڭي

شكرا وبعد هذا أعطي الكلمة أولا للسيد ليفوني لمراجعة بعض القضايا حول عابد الجابري.

فرونسوا ليفوني

إن بعض الأمور تتم باحترام كبير، ومن ذلك احترام إيمان المسلمين الذي يتضمن مفهوم الوعي، ولا إيمان بلا شك. لذلك، أعتقد أنه من الواجب توخي الحذر في كل ما نقول.

المسألة الثانية تتعلق بما يجب دراسته فهل نشكك ونطعن في أي نص ديني وأي مقاربة عقلانية للنص الديني ؟ ذلك ليس طعنا بل تساؤلا، فنحن ندرس النص وفقا لتقنيات علمية. بالنسبة لسؤالكم فقد حدث نفس الأمر في القرن الثالث عشر في فرنسا عندما كانت هناك شرح وتأويل للنصوص الدينية بنظرة جديدة، وكان علماء الاجتماع والمؤرخون والفلاسفة المهتمون بالدين يعتبرون دخلاء على الموضوع.

الأستاذ حسن نجمي

لكل من أركون والجابري مشروعه الفكري الخاص. وكما نعلم لكل مشروع مقدمات ونتائج، وكل مشروع سيستند على أطر معرفية ونظرية ومنهجية تختلف عن أي مشروع آخر.

حاولت الاشارة الى نقطة الخلاف الجوهرية كما قالها المرحوم عابد الجابري في حوار منشور. اختلاف الكبار، يكون على المستوى المعرفي لكن كل الأشياء الأخرى كانت مشتركة، فلقد اقترب أحدهم من الأخر بشكل ضمني أو بشكل مباشر. كان الحوار بينهما مستمرا ومفتوحا لأن العقل العربي هو العقل الإسلامي في النهاية، ومشروعاهما الفكري لم يكونا سواء أبدا مثل النعامة التي تضع رأسها في الرمل وإنما عادا لمقاربة التراث بالدرس والتجديد. إذا لم يكن ممكنا التخلي عن التراث والماضي فلا بد من إعادة قراءته بنظرة مستقبلية لكي ننهض من جديد، هذا هو المشروع في عمقه.

محمد بشير زناكي

تحية للمؤسسات الخيرية والاجتماعية والثقافية بمدينة وجدة ونوجه التحية للأخت لالة مليكة ونشكرها ونرحب بها في هذه اللحظة لتستلم هدية رمزية وهي عمرة مباركة إن شاء الله. لنصفق جميعا بحرارة لهذه اللحظة التي تعبر عن كرم ساكنة جهة الشرق.

رئيس الجلسة : مصطفى بن الشيخ
المشاركون : أحمد فريد المريني، محمد الصغير جنجار
فضاء : آسيا جبار
التاريخ : يوم السبت 23 شتنبر 2017
الساعة : 15 : 00 - 16 : 30

موجز مداخلات المائدة المستديرة

حسب مداخلات المشاركين، فإن العيش معا يظل الحل الأمثل للتغلب على مسألة الاعتراف بتنوع المكونات الثقافية، وذلك من أجل إبرازها بالشكل المناسب والصادق، في إطار مقاربة منفتحة تعتمد الحوار بين الحضارات.

ومن جانبه، أبرز الأستاذ محمد الصغير جنجار، أن تطور العديد من المجتمعات العربية أفرز العديد من المشاكل والتي أدت وستؤدي مستقبلا إلى مجموعة من الاختلالات، ولقد ركز بالخصوص على مستوى تعليم الفتيات اللواتي يجدن صعوبة في الاندماج في سوق الشغل بعد الحصول على الشواهد. حيث تعتبر وضعية النساء والفتيات في كل مجتمع، بمثابة المؤشر الرئيسي على مدى تحرر الأفراد في المجتمعات الحديثة.

يعتبر التراث بكلتا دعامتيه الأسرة والدين بمثابة آخر حصن وملجأ للهوية. وأمام هذا الوضع، فإن الغريب والغرابة يعدان مصدرا وسببا للقلق والإزعاج للعيش معا، حيث لا توجد أية هيئة أو مؤسسة تجعل الشخص موضوع اهتمامها في فرديته، وهكذا تظل العلاقة بين الفرد والجماعة موضع تساؤل.
وحيث أن المؤسسة التعليمية تشتغل خارج عالم التقنيات الجديدة فهي تظل مكانًا للتلقين السلبي، في حين أن فضاء الحرية الذي تقترحه الإنترنت يخضع لقواعد مختلفة جذريًا. هناك مواجهة هذين العالمين المتناقضين حيث تكون السلوكيات وحتى التحفيزات مختلفة أو متوازية، وباختصار فهذا شكل من أشكال الفصام الذهني.

يخبرنا التحليل النفسي أن الغريب كامن فينا، نسميه الغريب الداخلي إلى جانب الغريب الخارجي الذي يطرح عدة إشكالات متعلقة بالعيش معا ومرتبطة بصعوبة فهمه، وترجمة أفكاره، إذا لم يكن المرء قادراً على إتقان اللغة الخاصة به، أو حتى التفكير في لغته من خلال استيعاب المفاهيم التي يحملها، إلخ.
كل لغة تحمل مفاهيم قد لا تحتوي لغات أخرى على مقابل تام لها، وهنا تطرح مسألة الترجمة بحدة، حيث أننا نترجم المعنى دون القدرة على نقل الثقافة التي تحملها. ومع ذلك، فالعيش معا مشروط بقدرتنا على اقتحام لغة الآخر وخطابه، لأن هذا الآخر جزء لا يتجزأ من العيش معا ويساهم في تحديد هويتنا.
وقد اعتبر أحد المتدخلين أن الشباب في عصرنا الحالي منفتح بشكل كبير على الثقافات الأخرى.

محمد الصغير جنجار

لا توجد لحد الآن آليات لمرافقة الفرد صوب آفاق رحبة ؛ نحن نشهد زمن بطالة الخريجين الشباب حاملي الشهادات والذين لا يستطيعون إبراز مؤهلاتهم. وفي الوقت الراهن، أصبح معدل الزواج والولادة والخصوبة في مصر أكثر مما كان عليه منذ عشر سنوات، أي أن النساء ينجبن المزيد من الأطفال وعندما نلاحظ زيادة المواليد هذا يعني : الزواج المبكر، العمل كربة بيت، عرقلة الفرد في تحرره.
وتجدر الإشارة إلى أن المغرب يتجه أيضا إلى هذا النوع من المشاكل، حيث أنه في السنوات الأخيرة، انخفض معدل نشاط الإناث بعشر نقاط، وتراجع عدد النساء العاملات خارج المنزل مقارنة بالفترة بين 1980-1990. هناك مشكلة أخرى تتجلى في الزواج، إذ انخفض سن الزواج الأول عند الفتيات المغربيات الشابات ببضعة أشهر في ضوء نتائج الإحصائيات الأخيرة، ونخشى نوعاً من الانسداد في الأفق لأن مصير الفتيات هو مؤشر لحرية الفرد المغربي.
عندما تعود الفتيات الصغيرات إلى تقليد الزواج المبكر وإنجاب المزيد من الأطفال، فهذا يعني أن الفرد المغربي قد يواجه انسداد الأفق. لحظة الانسداد هي لحظة خلل لأن هناك رغبات من جهة، ومن جهة أخرى نظام لا يستطيع الاستجابة لهذه الرغبات. وفي الأردن، تصل نصف الفتيات إلى مستوى التعليم العالي، مما أدى إلى زيادة معدل بطالة الفتيات الحاملات للشواهد العليا بنسبة تتجاوز 45%، وهذا يعني العودة إلى المنزل، حتى رغم الحصول على الدبلوم.
بطبيعة الحال، تستطيع دول الخليج تحمل رفاهية تدريس الفتيات في المدارس ثم إعادتهن إلى المنازل، لكن المغرب لا يستطيع ذلك لأنهن طاقات ضرورية لخلق مغرب الغد. لذا فيما يتعلق بالروابط الاجتماعية والعيش معا. وفي الوقت الذي نواجه هذه المشكلة تطمح الأجيال الشابة إلى التحرر وتحقيق الذات. إنهم يعانون من عدم توفر البنية التحتية الضرورية، حيث أن غيابها قد يؤدي إلى اضطرابات في المستقبل وهو ما يجب تجنبه لخلق مجتمع متناغم في إطار العيش المشترك العام.

مصطفى بن الشيخ

الشكر موصول لك السيد جنجار على هذه المقاربة للتطور المغربي. هناك نقاط تشابه مع مجتمعات مماثلة أخرى. لقد تابعتم باهتمام، كما هو الشأن بالنسبة لي، العرض التحليلي للأستاذ جنجار، حيث رفض في البدء خطاب الحنين ونقاط ضعفه، وذلك بالعودة إلى النص التأسيسي لإميل دوركهايم حول الانتحار، إذ سلط الضوء على العجز في الوسائل الذي يؤدي إلى التفكك الاجتماعي.
وفي الوقت نفسه، بدأ المجتمع المغربي يطرح تساؤلات حول موضوع الفرد إلا أن ظهور هذا الموضوع في المغرب، لم يحظ بالتجاوب المطلوب باستثناء مواجهته من طرف الدين والأسرة، وهذه مرحلة عصيبة بشكل واضح بخلاف أوروبا حيث كانت هذه المسألة بيد مؤسسات وهيئات قادرة على دعم تقدم النقاش حول موضوع الفرد. وهذا كلام مؤسف حقا.
يؤكد الأستاذ جنجار أن شبابنا يحاول جاهدا بوسائله المحدودة، خلق منظومة من القيم وهو الأمر الذي يؤدي إلى توجه محافظ وانغلاق مقيت على الذات.
ومن هذا المنطلق، تظهر بعض الأرقام التي قدمها الأستاذ جنجار، أن المجتمع المغربي تراجع بشكل كبير خلال القرن الحادي و العشرين، عندما نأخذ بعين الاعتبار على سبيل المثال دراسات استقصائية مختلفة تتناول مسألة تشغيل النساء.
أعطي الكلمة الآن للدكتور فريد المريني الذي سيتناول بدوره موضوع العيش معا.

أحمد فريد المريني

لاشك أن مداخلة الأستاذ جنجار حول موضوع العيش معا في غاية الأهمية. وأنا أشاطره نفس الرأي، حتى وإن اختلفت الحقول المعرفية. الأستاذ جنجار توسل علم الاجتماع في بناء موقفه، بينما استعنت أنا في بناء موقفي بعلم التحليل النفسي وتجربتي الشخصية. لقد بدأت والأستاذ في الاشتغال على موضوع العيش المشترك بتشجيع من صديقتنا المرحومة فاطمة المرنيسي، التي قالت في يوم من الأيام أننا «*في المغرب، لا نعرف كيف نتحاور*» بعد حضورها، بإحدى مكتبات الرباط، حفل توقيع إصدار جديد تلاه نقاش طرحت فيه امرأة سؤالا حول تقسيم الإرث في الإسلام أثار ضجة كبيرة فاختلط الحابل بالنابل واستحال النقاش الرصين.

ومن هنا أهمية السؤال التالي : هل يحقق لنا العيش معا إمكانية الحوار والنقاش البناء ؟ من هذا المنطلق أسسنا نحن والأستاذة المرنيسي مفهوم «جماعية العيش المشترك» وتعاونا في إنجاز كتاب بعنوان «نسيج الفردانية»، بتنسيق من الأستاذ إدريس كسيكس والأستاذة فاطمة آيت موس. وفي المحصلة، اشتغلنا معا على تيمة العيش معا حوالي ثلاث سنوات. النقطة الأولى في مداخلتي تتعلق بمفهوم الأجنبي وعلاقته المتناقضة ظاهريا مع مفهوم العيش معا.

في حقيقة الأمر، الإنسان الأجنبي يدعونا لخوض تجربة العيش معا ويحفزنا على تحرير الذات من شرنقة الهوية المنغلقة التي تنبذ الأجنبي ولا ترى حاجة إلى التواصل معه.

إن سؤال الهوية سؤال ذو أبعاد دولية يتجاوز حدود دولة واحدة أو حتى قارة، والشاهد الأكبر على ذلك ما يرد علينا من أخبار مأسوية سببها في غالب الأحيان هويات قاتلة عابرة للقارات. في التصور النمطي، الأجنبي هو ذلك الشخص القادم من مكان بعيد والحامل لثقافة مختلفة. أما في علم التحليل النفسي، فيتسع مفهوم الأجنبي ليشمل أكثر من ذلك بكثير. الأجنبي حسب علم النفس التحليلي هو أيضا ذلك الذي يسكننا ويواجه لاوعينا بالحقائق. فمثلا عندما نقول «*لا، لم أقصد قول ذلك...*» فهذا لا يلغي حقيقة أننا نحن من نطق تلك الكلمات. وأحيانا نرى أحلام من غرابتها لا نكاد نصدق أننا رأيناها، وهذا لا يلغي حقيقة أننا نحن من رآها فعلا.

إذا، هناك أجنبي بداخلنا يمكن أن نسميه الأجنبي الداخلي، أو كما سماه فريد «*الأجنبي المقلق*»، أي المألوف الذي نشعر أنه أجنبي. هذا الأجنبي الداخلي مرتبط بذلك الأجنبي الخارجي. ولعل هذا ما يفسر انجذابنا نحو الآخر وبحثنا عن مشترك يقربه منا ويعرفنا إليه. هذا الموضوع استأثر باهتمام مفكرين كثر منهم الفيلسوف «تزفيتان تودوروف» الذي ألف كتابا بعنوان «نحن والآخرون».

في حقيقة الأمر، الآخر هو مرآة تعكس جوهرنا، وعليه فتواجده في حياتنا أمر ضروري، لما يبث فيها من توازن. فكم من مرة جمعنا في كلامنا أو كتابتنا بين ما يشير إلى ذواتنا وإلى الغير، كما كتب «آرتور رامبو» مرة في رسالة إلى أحد أصدقائه قائلا «*أنا تكون شخصا آخر*». المستفاد مما سبق أنه برغم اختلافاتنا لابد أن نجد مشترك يعيدنا إلى نفس القبيلة ويبني لنا جسور التوصل.

إن المقاربة الفعالة لموضوع الأجنبي في مختلف تجلياته وفي علاقته بالعيش معا تعني بالضرورة التطرق لدور اللغة في خلق وتقوية الروابط الاجتماعية التي لا عيش مشترك بدونها.

وهنا أقف عند مسألة اللغة، خاصة موضوع ترجمة فكر الآخر وثقافته لنتساءل : كيف نترجم الآخر ؟ وما الذي يصلنا من أفكاره ؟ وماذا يقول عندما يخاطبنا ؟

بناء على ما سبق، فالأجنبي يساعدنا على معرفة الذات، رغم أنه قد يكون مصدر إزعاج في إطار العيش معا. هذا التناقض تعكسه اللغة أيضا، ومثال ذلك من الدارجة المغربية حيث يطلق وصف «براني» على الأجنبي الذي لا يشاركنا نفس الانتماء والقادم من «برا»، أي من الخارج. المثير هو أن عبارة «براني» تعني في الآن ذاته «عالجني». لابد أن يستوقفنا هذا التحول الحاصل في المعنى والذي لا نجده مثلا في اللغة العربية الفصحى رغم قربها الشديد من الدارجة.

هذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أن التواصل بلغة دون أخرى من شأنه التأثير بشكل أو بآخر على روابطنا وتفاعلاتنا مع الآخر، ما دام الانتقال من لغة إلى أخرى هو بالضرورة انتقال من عالم ومنظومة فكرية معينة إلى عالم ومنظومة فكرية أخرى. أتمنى أن تكون الفكرة قد وصلت بخصوص مسألة اللغة والترجمة. فالمسألة تتعدى نقل معاني معينة من لغة إلى أخرى إلى ما هو أكبر من ذلك، وهذا ما يشد انتباهنا في ميدان التحليل النفسي، وتحديدا ظاهرة «تعدد الألسن» عند الفرد الواحد، إذ نجد أنفسنا أمام أسئلة تربط اللغة بالهوية : أي لغة يا ترى هي اللغة الأم لمن يتكلم الدارجة والأمازيغية والفرنسية والعربية ؟

وأيهما يتوسل في التعبير عن ذاته ؟ هذه الأسئلة تأكد أهمية السعي في فهم هذه الظاهرة. وزيادة في إبراز أهمية الموضوع ندرج المثالين التاليين : إن أرادت سيدة أن تعبر لي عما أحست به من تجريح ومشاعر سيئة جراء وصفها بالعاهرة باللغة العربية، فستخاطبني بلغة أخرى تنقل أفكارها بنفس الحمولة العاطفية دون استعمال مقابل كلمة عاهرة في تلك اللغة. وهنا تكمن صعوبة الموقف، فنحن، وإنا كنا قادرين على التنقل بين لغتين أو أكثر، لا نولي نفس الأهمية لما يقال لنا بغير لغتنا الأم ولا نتفاعل معه بنفس القدر.

الأمر ذاته ينطبق على مفردات السباب والقذف : فعندما يسب شخص شخصا آخر، فهو لا يستعمل لغة غير تلك التي يفهمها خصمه، وإلا فلا معنى ولا مفعول لهذا السباب عند الطرفين. يمكن أن نكبر هده الصورة ونتساءل ما هي لغة شبابنا في العيش معا وفي التعبير عن ذاته ؟

هذا التفاعل بين عناصر اللغة والهوية والعيش معا يبدو جليا أيضا في الكتابة الأدبية. إذا يكتب كاتب بغير لغته الأم - كحال جملة من الكتاب المغاربيين الذي يكتبون أعمالهم باللغة الفرنسية - بغية تحميل هذه اللغة بمعاني ومنظومة قيم لها لغتها الخاصة، وهذا يسمح بتفاعل اللغات والثقافات وحامليها فيما بينهم.

نتيجة لذلك تصبح ترجمة فكر معين من لغة إلى أخرى عملية إبداع وخلق وتفاعل متجددة على الدوام. وهنا أحيل على فكرة انسداد الأفق التي ناقشها الأستاذ جنجار في مداخلته بالقول أنه لربما يكون في فهمنا لأدوار اللغة في تحقيق الانفتاح والعيش معا ما يعيننا على تفادي انسداد الأفق ويمدنا ببعض وسائل التحرر وإثبات الذات.

إذا لم نترجم فكر الآخر بحيث نتملكه ونضيف إليه لمستنا الخاصة فنحن مجرد مستهلكين، وهذا واقعنا للأسف. فإسهامات الترجمة في عصرنا لا ترقى لما حققته مثلا الترجمة في عصر الخليفة العباسي المأمون، مؤسس بيت الحكمة، من نقل وتملك للفكر اللاتيني في اللغة العربية التي كان أهلها يعدونها لغة الوحي والحقيقة. فكيف يا ترى تحقق هذا التفاعل والانفتاح الذي قاد إلى توسع المدارك والمعارف في الثقافة واللغة العربيتين آنذاك خارج حدود الدين لتشمل علوم كالمنطق والرياضيات والفلسفة. تفسير ذلك أنهم كانوا أكثر انفتاحا على الآخر وفكره. وهذا معناه أن الترجمة نشاط مركب يتطلب انفتاح الثقافة واللغة المستقبلتين على الآخر وفكره، والاعتراف باستحالة الانكفاء على الذات والاستغناء عن الآخر. في مرة من المرات حاولت مع مجموعة من الزملاء ترجمة بعض نصوص علم النفس التحليلي، فوجدنا أنفسنا نتساءل بخصوص مستوى انفتاح وحرية الفكر بعالمنا العربي، بعد أن وجدنا أن اللغة العربية لا تسعفنا في ترجمة هذه النصوص التي تحوي مفاهيم غريبة وغامضة بالنسبة للغة والثقافة العربيتين.

فمثلا، مفهوم اللاوعي الذي يشكل أساس علم النفس التحليلي هو مفهوم غريب. نفس الكلام يعم دراسة وتفسير الأحلام، فالثقافة العربية لها تقاليدها ومعارفها التي تراها كافية لتفسير تحليل الأحلام دون الحاجة لمعارف الآخر في هذا الباب. فكيف السبيل إذن إلى ترجمة هذا العلم وعلوم أخرى إذا كان هذا هو واقع الحال في اللغة والثقافة العربيتين ؟

هذه كلها تساؤلات يمكن التطرق إليها في إطار دراسة وتحليل اللغة، التي قد تعرقل الترجمة الفعالة إذا كانت منغلقة غير متفاعلة مع اللغات والثقافات الأخرى. قد نترجم المعاني لكننا لا نترجم روح الآخر صانع هذه المعاني. وإن ترجمنا الاثنين معا اعتبر البعض ذلك تهديدا يدفعهم إلى التقوقع أكثر من ذي قبل في هويتهم والاكتفاء في التعامل مع الآخر بالتصورات والأفكار النمطية.

فقط أريد أن أقول في ختام مداخلتي أنه بعد النقاش المستفيض بالأمس حول الحدود الجزائرية-المغربية، قررت أن أرى هذه الحدود على أرض الواقع. ولما اقتربت قرأت على لافتة اسم المعبر الحدودي البري بين البلدين «زوج بغال»، فخطر لي أن ارتباط اسم هذا الحيوان العقيم بهذه الحدود المغلقة له دلالات عدة أبرزها أن الانغلاق فيه شيء من العقم. وهذا تماما ما سعيت إلى تبيانه في مداخلتي. إذ أن انغلاق الفرد والمجتمع ورفض الانفتاح والتفاعل مع الأخر نتيجته العقم على جميع المستويات.

مصطفى بن الشيخ

شكرا دكتور فريد المريني على مداخلتكم المتكاملة مع مداخلة الأستاذ جنجار. حيث ناقشتما موضوع العيش معا في السياق المغربي مند القرن 19 حتى أيامنا هذه، مع تركيز الدكتور المريني على موضوع اللغة والترجمة. لكننا لم نسمع بعد رأيكم في علاقة الديمقراطية بالنظام السياسي ببلدنا بالعيش معا، علما أن تعايشنا دون حوار وتواصل يعني انهيار صرح الديمقراطية. لكن قبل الاستماع إلى ضيفينا بخصوص هذه النقطة، سأعطي الكلمة للحضور قصد التفاعل و إغناء النقاش.

السيد الحموتي

أكد السيد الحموتي في مداخلته على علاقات القوة القائمة بين طرفي كل عملية تواصلية، مبينا ضرورة تحقيق التوازن في هذه العلاقات، ولو في الحد الأدنى. من ناحية أخرى، أكد المتدخل على صعوبة إقامة هذا التوازن في السياق المغربي، حيث مازال كثيرون يناقشون أفكارهم بعصبية وصدامية، وحيث ما زال الغريب والأجنبي مرفوضا. في الختام، تساءل المتدخل عما إذا كان هناك تفسير ممكن لهذه العلاقات المتشنجة المحكومة بمنطق القوى.

السيد الخمليشي

من جهته، أكد السيد الخمليشي أن الجيل الحالي يعتبر أكثر انفتاحا من سابقيه على الأجنبي وأكثر تقبلا للاختلاف، قبل أن يتساءل حول سبل جعل هذا الشباب يتنقل من مرحلة الانفتاح وتقبل الأخر إلى مرحلة يكون فيها قادر أيضا على الاعتزاز بفردانيته وتفرده. من جهة أخرى، بين السيد الخمليشي أن الترجمة نشاط أكبر بكثير من مجرد نقل للقيم والفكر بغية تملكهما.

في السياق ذاته، تساءل المتدخل حول سبل ترجمة قيم الآخر التي ينتظر من شبابنا تملكها إذا كان البون شاسع بين لغة هذا الشباب المترجَم له والأجيال الأخرى المترجِمة. في الختام، ثمن السيد الخمليشي الجهود المبذولة في سبيل بث قيم العيش معا.

السيد أزدود

من جانبه، تساءل السيد أزدود بخصوص طبيعة العيش معا بيننا وبين المدرسة كفضاء يفترض فيه الآمان ونقل المعرفة والتنوير ؟

الأستاذ حدو

من جهته، نوه الأستاذ حدو إلى أن حتمية العيش معا وطبيعته المركبة التي تتداخل فيها مؤسسات مجتمعية عدة كالفرد والمجتمع والتراث... تدفعنا إلى التساؤل بخصوص الحدود التي في حالة تجاوزها يصبح العيش معا في مهب الريح.

السيد حسن

بدأ السيد حسن مداخلته بالتعليق على استمرار إغلاق المعبر الحدودي «زوج بغال» موضحا آثاره السلبية على فكرة الانفتاح والعيش معا بين البلدين، كما ثمن محتوى مداخلة السيد جنجار المنبثق من أرض الواقع، بحسب رأيه.

من ناحية أخرى، شدد المتدخل على أننا مازلنا نقارب مسألة العيش معا ونحن محملون بتصورات نمطية لا تساعدنا على الانفتاح والتواصل، كحال الآباء مع الأبناء. فالآباء لهم تصوراتهم النمطية حول الأبناء ودورهم الذي لا يتعدى ملء فراغ عاطفي. وعليه فقد بات من الضروري، حسب الأستاذ حسن، التفكير في سبل هدم هذه التصورات النمطية، التي تضر بفكرة الانفتاح والعيش المشترك وتدفع الفرد نحو الانغلاق على ذاته ورفض الأخر.

في نفس السياق، بين المتدخل أن من يرفضون الأجنبي حتى وإن عاشوا داخل ثقافته، كما هو حال كثير من المهاجرين بفرنسا مثلا، يمرون بتجارب هوياتية وعاطفية حادة قد تضرب توازنهم العقلي والعاطفي إلى حد تبنيهم أيديولوجيات إرهابية فشلت المقاربة حتى الأمنية في احتواها، وباتت تسائل دور المثقف والكتاب.

محمد الصغير جنجار

لابد هنا أن نتساءل بخصوص طبيعة ونتائج التنشئة الاجتماعية بمغرب اليوم. إجابة هذا السؤال هي خلاصة واحدة خرجت بها كل الدراسات الاجتماعية المقدمة بهذه المناسبة ومفادها أن كل التحولات التي عرفها المجتمع المغربي ستنتج لنا، بشكل طبيعي وكما في باقي دول العالم، فردا يسعى إلى التحرر وإثبات الذات. لكن الواقع يقول عكس ذلك، فالشباب المغربي يعاني انسداد الأفق بسبب عجز الدولة المغربية عن توفير البنية التحتية المساعدة على تحرر هذا الشباب وإثبات ذاته. غياب هذه الوسائل هو معطى مشترك بين دول عدة كالأردن والجزائر ومصر، حيث تسجل نسبة البطالة في صفوف حاملات الشواهد العليا ارتفاعا كبيرا، مع ما لهذا الواقع من تبعات أهمها عودة المرأة إلي إلى البيت وتحجيم دورها في المجتمع. أما الوضع بالمغرب فيسير من سيء إلى أسوأ، في ظل تراجع نسبة النشاط النسائي واكتظاظ المدارس والجامعات.

أشار الدكتور ابن الشيخ إلى البعد السياسي في عملية التحرر وإثبات الذات، موضحا أن البعد السياسي هو السبب الرئيسي في نيل مؤسستي الدين والعائلة ثقة الغالبية العظمى من أفراد المجتمع وفشل باقي المؤسسات، كما هو الشأن بالنسبة للمدرسة التي فقدت ثقة أفراد المجتمع فيها كفضاء تكوين إنسان جديد كان قادرا على تأطيره إلى حدود الثمانينات، حيث لم تكن الأقسام مكتظة بعد ولم تكن ثورة وسائل التواصل والاتصال قد بدأت.

في أيامنا هذه، خرجت الأمور عن السيطرة. فبدل تنشئة أطفالنا وفق منظومة قيم تندرج ضمن رؤية سياسية واضحة، أصبحت شبكة الإنترنت مصدرا جديدا للقيم والمعارف يروي عطش النشء دون قيود، في حين تحولت مدارسنا إلى ساحات صراع لا غير. لقد دخلت المدرسة المغربية هذا النفق المظلم بعد توقف مجهودات إصلاح النظام التعليمي منذ ستينات القرن الماضي، وهي إلى اليوم ما تزال حبيسة التصورات النمطية بخصوص أدوار المعلم والتلميذ.

شخصيا، أرى أن رهان المدرسة المغربية اليوم هو تكوين أجيال مستقلة لها القدرة على الاختيار بوعي واعتماد النقد المنهجي بمقاربات علمية.

كسب هذا الرهان أمر ممكن شريطة التخلي عن الأسلوب التلقيني العقيم الذي لا يستجيب لطموحات الشباب وينفرهم من التعليم. هذا القول يؤكده تحقيق جريدة «ليكونوميست» المغربية لسنة 2015 حول وضعية الشباب المغربي، والذي بين أن المراهقين يقضون في المتوسط خمس عشرة ساعة في الأسبوع أمام شاشات الأجهزة الإلكترونية بينما يقضون وقت أقل بكثير في المدرسة. هذه الأرقام تدق ناقوس الخطر وتدعونا إلى إصلاح عميق تكون بدايته بالتخلي عن الأسلوب التلقيني.

أحمد فريد المريني

سأحاول الإجابة على التساؤلات المطروحة مع ربطها بنقاط أخرى بغية فهم أعمق لتيمة الأجنبي. تطرقت في مداخلتي أولا إلى موضوع الأجنبي وميزت بين الأجنبي الداخلي والأجنبي الخارجي. على مستوى الروابط الاجتماعية العائلية، بين كيف أن الطفل يكبر وصير مستقلا بذاته لكنه يدخل أيضا في علاقات اجتماعية تكاملية مع أقاربه ومحيطه. أول علاقة اجتماعية للطفل تكون مع أمه، أول أجنبي يقابله، قبل أن يتدخل الأب كأجنبي جديد يفصل الطفل عن والدته بعد أن بات مألوفا. هذا التصرف الأبوي ضروري لتهيئة الطفل للمدرسة، كعالم خارجي غريب مليء بالأغراب سيمنحه فرص الوعي بذاته بعيدا عن أمه.

في مرحلة المراهقة سيترك هذا الطفل سنوات الطفولة وراء ظهره وسيكبر ليستقل بذاته ويغادر عشه. سيستقل بذاته وسيغادر لكنه سيعود لعشه دون شك، كما قال أحد علماء التحليل النفسي «*يجب أن نغادر من أجل أن نعود*». هذا الطرح ينطبق علينا نحن أيضا عندما نغادر المغرب، فكل كلامنا خارج المغرب هو عن المغرب. نرحل إلى حيث يوجد الآخر لكي نتكلم عن أنفسنا ونمحصها ونسبر أغوارها. هذه القدرة على الانطلاق والرحيل هي ما يحتاجه شبابنا حتى يعرف ذاته وتراثه بشكل مختلف.

المراهق اليوم منفتح ومتفاعل مع الأجنبي تفاعلا يحث فيه ملكة الإبداع والخلق التي تفيده في التحرر وإثبات الذات. نحن بدورنا يجب أن ننفتح على الآخر ونتفاعل معه، مدركين تماما أن هذا هو السبيل السالك ذو الآفاق الواسعة.

في الختام، أريد أن أحيل الحضور الكريم على اشتقاق وأصل كلمة «خرافة» في اللغة العربية. هذه الكلمة كانت اسم شخص عاش قبل الإسلام. وفي يوم من الأيام قرر أن يسيح في البلاد، وكذلك فعل. لكن غيابه لم يطل لكثرة ما شاهد في سفره القصير. وما إن انتهى من سرد قصة سفره على أفراد قبيلته حتى انضاف إلى اللغة العربية مصطلح «خرافة» للدلالة على «الكلام الفارغ الذي لا معنى له». هذا الكلام ينطبق علينا في علاقتنا «بقبيلتنا» المنغلقة والمنكفئة التي لا تقبل أفكار وقيم جديدة، فقط لأنه من العالم الخارجي.

مصطفي بن الشيخ

شكرا جزيلا للأستاذ جنجار والدكتور المريني. لا شك وأن الحضور الكريم لاحظ اتفاق المداخلتين معا على أن تحقيق العيش معا مشروط بمراجعة أدوار مؤسستي الأسرة والدين في المجتمع. وإنه فعلا لأمر يبعث على الأسى أن يكون هذا حالنا في مغرب القرن الواحد والعشرين.

من ناحية أخرى، نحن متفقون على أن المدرسة المغربية معطلة ولا تنتج الإنسان الجديد بقدر ما تنتج العنف والصراعات. لكن ماذا عن الجامعة ؟ شخصيا سأكتفي بالإجابة على هذا السؤال بقراءة جملة في مقدمة أطروحة طالب دكتواره يقول فيها «*أنا من زمرة من لا يؤمن إلا بالله*». هذه الجملة تأكد بالملموس مدى هيمنة الدين على وعينا.

ربما هذا هو الوقت المناسب لتحقيق حالة من التوازن عبر نقاش مثمر ورصين متحرر من عقال الأيديولوجية، يقودنا إلى منح الأولوية للعلوم الأساسية في نظامنا التعليمي والانفتاح على الآخر وثقافته.

رئيس الجلسة : عبد القادر الرتناني
المشاركون : نور الدين عالم، الأستاذ أبو بكر، الأستاذ ميمون الداودي، الأستاذ عزيز حارو، الأستاذ عبد اللطيف معروفي
فضاء : ليوبولد سيدار سنڭور
التاريخ : يوم السبت 23 شتنبر 2017
الساعة : 17 : 00 - 18 : 30

موجز مداخلات المائدة المستديرة

عقد مجلس الجالية المغربية بالخارج اجتماعا مع عدد من أساتذة كلية الآداب بجامعة محمد الأول بوجدة لتبادل الآراء حول موضوع هذه المائدة المستديرة وبعض الكتب التي اشتغل عليها الأساتذة في جهة الشرق.

لقد تم افتتاح المناقشة بتدخل الأستاذ نور الدين عالم، الذي تحدث عن الهجرة بجهة الشرق، انطلاقا من تأليف كتاب أشرفت عليه جامعة محمد الأول بوجدة، في إطار الشراكة مع هيئة التعاون البلجيكي.

وأوضح الأستاذ أبو بكر أنه تم تناول قضايا الهجرة بهولندا من خلال حالة الكاتب المغربي الهولندي حفيظ بوعزة، الذي تم تقديمه بشكل موجز مع استعراض أهم أعماله.

وشدد الأستاذ الداودي على أن بداية القرن العشرين شهدت ظهور مجموعة من المثقفين على الساحة الأدبية، التي عاشت ظاهرة الاغتراب، إذ تعرب عن رؤية متسمة بالتعقيد داخل فضاء جديد. وأشار إلى أن الهجرة التي ميزت هذه الفترة أنتجت أدبا يستوجب إعادة اكتشافه من جديد. وتظهر نصوص هذه الفترة الهوية المميزة للكاتب المغربي والمغاربي، الذي هاجر إلى إسبانيا أو فرنسا أو ألمانيا أو كندا أو الولايات المتحدة الأمريكية.

وأشار الأستاذ «عزيز حارو» إلى أنه ساهم في محاولة دراسة ومقاربة مجموعة من التحولات في السلوك الاقتصادي للمغترب والطريقة التي يمكن أن تستثمر بها مثل هذه الممارسات في التنمية المحلية، إذ يشير إلى أن دافع الهجرة لدى المفكرين والأدباء هو العامل الاقتصادي بالدرجة الأولى. وتعتبر هذه المظاهر الثقافية نتيجة لهذه الدينامية ولهذا الامتزاج بين السكان الأصليين والوافدين الجدد.

وعن مجلس الجالية المغربية بالخارج، صرح الأستاذ عبد اللطيف معروفي، أن الهجرة الثقافية في المجتمع المغربي أمر يؤسف له، مشيرا إلى أنه بالرغم من هجرة بعض المفكرين، فقد سجلنا وصول ثقافات عديدة إلى المغرب كذلك، فعلى سبيل المثال الطرب الغرناطي والموسيقى الأندلسية و«الكناوية». إضافة إلى أن الهجرة رغم كونها فعلا تأسيسيا، فهي لم تنل مكانتها الحقيقية داخل المؤسسات الثقافية، لاسيما في المدارس.

وقد عرف هذا اللقاء حضور ثلة من المثقفين ورؤساء الجمعيات الثقافية بجهة الشرق، من بينهم الدكتور محمد عمارة، رئيس جمعية «فن وجدة»، الذي تحدث عن مساهمته في توثيق وحفظ ثقافة جهة الشرق لحمايتها من الاندثار والعبث والتحريف الذي يمكن أن يلحقها.

عبد القادر الرتناني

مرحبا بكم في هذا الجمع الذي استقطب الباحثين في مجال الهجرة في المغرب، لاسيما على مستوى جهة الشرق. وبالمناسبة، نتقدم بالشكر لمجلس الجالية المغربية بالخارج الذي نظم هذا اللقاء وكذلك لأساتذة كلية الآداب بجامعة محمد الأول بوجدة. سيتمحور نقاشنا حول عرض لإنتاج علمي أكاديمي بتنسيق الأستاذ نور الدين عالم. وإذا سمح الوقت بذلك، سنتحدث أيضًا عن كتاب آخر، يتعلق بهجرة المغاربة إلى هولندا. ثم سنناقش الهجرة انطلاقا من جهة الشرق. نعطي الكلمة على التوالي للأستاذ نور الدين عالم من كلية الآداب والأستاذ أبو بكر عبد الله من قسم اللغة الإنجليزية وميمون الداودي من كلية الآداب بفاس.

الأستاذ نور الدين عالم

يعتبر هذا الكتاب الذي تناول الهجرة انطلاقا من جهة الشرق، ثمرة الدراسات الموضوعاتية التي أجريت في سنتي 2014 و2015 حول المجتمع المدني وحول الأبحاث العلمية التي همت الهجرة في هذه الجهة. ويستند إلى تجميع أعمال تم انجازها بمعية هيئة التعاون البلجيكي منذ سنة 2001 إلى سنة 2003، وهي مؤسسة تدرس تاريخ الهجرة.

الأستاذ أبو بكر

يشرفني أن أتقاسم معكم بعض الأفكار التي حاولت مناقشها في مقال تجدونه في الكتاب حول الهجرة في هولندا. وقد حاولت أن أسلط فيه الضوء على أحد أبرز الكتاب المغاربة الهولنديين : ألا وهو السيد حفيظ بوعزة، أحد الأدباء المميزين، له إسهامات عديدة في مجال القصة والرواية والمسرح.
ومن أشهر كتاباته، مجموعته القصصية «أقدام عبد الله» التي صدرت في سنة 1996 ورواية «مومو»، و«بارأفيون» وكذلك مسرحية «باولين»، نال جوائز قيمة منها «البومة الذهبية»، التي يتنافس عليها سنويا كتاب الرواية باللغة الهولندية. ويعتبر بوعزة شخصية مثيرة للجدل بسبب انتقاداته اللاذعة للإسلام السياسي.
وفي هذا المقال الذي يحمل عنوان : «جدل حول العالمية والجمالية في الكتابات الإبداعية لحفيظ بوعزة»، حاولت الاهتمام بالجانب الفني والسياسي في نصوصه، والتركيز بشكل خاص على المجموعة القصصية المشهورة «أقدام عبد الله»، التي فتحت له أبواب الشهرة داخل المشهد الأدبي الهولندي، إذ سلطت هيئات الصحافة الضوء على دوره البارز في إغناء التعددية الثقافية التي كان يشجعها المحيط السياسي بهولندا في أواخر التسعينيات.
إلا أن بوعزة هاجم بشكل شرس هذا المخطط الإيديولوجي، لأنه يرمي إلى إقصائه من الهوية الهولندية. أكد بوعزة في العديد من اللقاءات الإعلامية على أنه كاتب هولندي يكتب بالهولندية ويتمتع بجميع الحقوق المعترف بها للمواطن الهولندي. في نفس السياق، يكشف التحليل الأدبي لبعض مجموعاته القصصية مشاعر الكراهية المكرسة لثقافته الأصلية. زيادة على الدعوات إلى إقصاء الآخر (غير الهولندي) الخطيرة في خطاب اليمين المتطرف بهولندا، محتفيا بمبدأ «الاغتراب» الثقافي المنتمي لاتجاهات العولمة.
وهذا ما نلاحظه على مستوى زمان ومكان الرواية، المنحصر بين الماضي والحاضر، والبلد المضيف والبلد الأصلي. وفي الختام، يعتبر حفيظ بوعزة أحد المدافعين البارزين عن فكرة عالمية الثقافة التي تدحض جميع أنواع التفكير الضيق بوصفه سببا أساسا لكل أزمات المجتمعات الأوربية.

الأستاذ الداودي

عرفت نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين بروز عدد من الأسماء المغربية في المشهد الأدبي، عاشوا تجربة الهجرة والاغتراب وسعوا للتعبير عن تصورهم الثنائي والمعقد لوسط مغاير لوسطهم الأصلي، ولنمط عيش مختلف عن نمطهم الأصلي، ومتخيل ثقافي وحضاري مخالف لمتخيلهم الأصلي. ويتذكرون أيضا عبر هذه النصوص ماضيا بكل مكوناته الرمزية، ومن بينها نصوص لكتاب مغاربة بهولندا وبلجيكا والولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وألمانيا، وفي جميع الدول الأوروبية، ومن بينهم : الكاتب «بريك أوسعيد»، الذي لم يحظ بالمكانة التي يستحقها.

ففي كتابه : «كوكليكو دو لوريونتال» (خشخاش المنطقة الشرقية)» تطرق بشكل رائع إلى مسقط رأسه منطقة سيدي الحسن الواقعة بين جرادة وتاوريرت. والكاتبة بيتي البتول، التي تنحدر من مدينة كرسيف، من أب مغربي وأُم بلجيكية ؛ والكاتبة ليلى هواري من اسبانيا ؛ والكاتبة نجاة الهاشمي من الناظور، التي هاجرت مع والدها إلى اسبانيا وكتبت رواية «البطريرك الأخير».

وفي أمريكا كتب بالإنجليزية مغاربة من أمثال ليلى العلمي، وأنور مجيد، وفازوا بالعديد من الجوائز أيضا، وكذلك الأمر بالنسبة لمغاربة كندا. لقد تميز كتاب المهجر باستعمال لغة هجينة، وبخصوصية ثقافية ذات متعة وحضور، أثارت نقاشا واسعا أدى إلى اصطدام لغة بلدان الاستقبال بلغة جديدة عصية على الترجمة، لأنها أوجدت لنفسها مصطلحات وتعابير خاصة في نصوص هؤلاء الكتاب، وأصبحت متداولة من طرف الأوروبيين أنفسهم مثل كلمة «بلاد»، وعبارة «إن شاء الله».

مما لا شك فيه أن أفكار أدباء المهجر تجاوزت إلى أبعد الحدود الرؤية التي تقتصر على الحنين إلى الماضي. إذ تمكن هؤلاء من فرض وجودهم ثقافيا واجتماعيا وسياسيا داخل بلدن المهجر، كما هو الشأن بالنسبة لـ «أحمد أبو طالب» من هولندا، المنحدر من بني سيدال قرب الناظور، و«نجاة فالو بلقاسم» من فرنسا، وآخرون أصبحت كتاباتهم إلى حد ما عبارة عن قراءة نقدية للواقع السياسي. فنجد على سبيل المثال «ليلى العلمي» تنتقد في كتاباتها الوضع الاجتماعي والثقافي. والفضل يعود إلى المبادرة التي قام بها مجلس الجالية المغربية بالخارج سنة 2010.

وذلك بنشره لسلسلة من إبداعات كتاب مغاربة العالم، بمناسبة المعرض الدولي للنشر والكتاب للدار البيضاء سنة 2010. وكان من المهم الالتفات إلى هؤلاء الكتاب بتسليط الضوء على إبداعاتهم عبر مشاريع أكاديمية ذات مستويات عدة منها الترجمة إلى اللغة العربية. وتظل هذه مجرد مبادرات خجولة لا تمكن القارئ المغربي من التعرف إليهم بالقدر الكافي.

الأستاذ عزيز حارو

يمكن اعتبار مساهمتي في هذا العمل الجماعي مقاربة لمجموعة من التحولات التي عرفها السلوك الاقتصادي للمهاجر، فيما يخص الاستثمارات التي يمكن أن تسهم في التنمية المحلية. ويعلم الجميع أن السبب الرئيسي وراء هذا التنقل وهذه الحركية هو العامل الاقتصادي.

وإلى جانب المظاهر الثقافية التي نحن بصدد دارستها، والتي هي وليدة هذه التراكمات وهذه الدينامية، ندرس أيضا العلاقة بين الساكنة الأصلية والوافدين الجدد، الذين يشكلون الأجيال المتعاقبة من المهاجرين. لهذا تم نهج مقاربة بسيطة، هدفها مواكبة هذه التحولات. علما أن السلوكيات الاقتصادية وأولوياتها واختياراتها تختلف من جيل إلى آخر.

وللحفاظ على هذه العلاقة وترجمة الجهود بشكل إيجابي، يمكن من الناحية الاقتصادية، توظيف تحويلات المهاجرين لصالح الاقتصاد المحلي، في حالة تأهيل المناطق التي ينحدر منها المهاجر لتصبح جذابة. وكل ما يقتضيه الأمر لبناء علاقة جديدة معه هو جعله يحس بالانتماء وأنه مرغوب فيه كذلك.

الأستاذ عبد اللطيف معروفي، عن مجلس الجالية المغربية بالخارج

أصبحت الهجرة ظاهرة مؤسسة في المجتمع المغربي وفي ثقافته، حيث اقترن تاريخ الهجرة بالمجتمع المغربي وبتاريخه منذ النشأة ؛ فتحقق الإسلام عن طريق الهجرة، ودخلت الموسيقى الكناوية بواسطة هجرة الأفارقة، والموسيقى الأندلسية بواسطة الأندلسيين، وموسيقى الغرناطي بواسطة سكان غرناطة.

وإذا كانت الهجرة فعلا مؤسسا فإنها لا تحظى للأسف بمكانتها التي تستحقها في المؤسسات الثقافية والتعليمية. ولقد تم تناسي وصول بني هلال وهجرة المغاربة نحو مناطق أخرى، إلخ. ولكن بتنا نتحدث فقط عن هجرة اليد العاملة التي بدأت في منتصف القرن التاسع عشر بعد احتلال الجزائر والتي تزايدت بعد الحربين العالميتين.

ونظرا لأهمية الهجرة، وللعديد من الاعتبارات، وكإسهام متواضع مني، وبفضل الوثائق والمستندات التي جمعتها على شكل كتاب بعنوان : «تاريخ المغاربة بهولندا» الذي يتحدث عن تاريخ العلاقات المغربية الهولندية القائمة منذ القرن السابع عشر. بحيث استقر بعض يهود فاس في أمستردام وعمل بعضهم في الهيئة الدبلوماسية، وأخص بالذكر العالم أحمد بن قاسم الحجري، الذي بعثه السلطان والذي عاش سنتين بين فرنسا وهولندا و أرسى تعليم اللغة العربية في الجامعة.

ومن جهة ثانية وبإيجاز، لم يذهب هؤلاء المهاجرين ليستقروا وإنما لكسب المال والخبرة، وبعدها جاءت فترة الاستقرار التي انبثقت عنها المواطنة المزدوجة بين السكان الأصليين والمهاجرين ليتشاركوا في إنشاء تاريخ للبلدين، فلا أحد ينكر أن الهجرة أنتجت كتابا ومنتجين وممثلين ورياضيين، أغنوا الثقافة الهولندية ولغتها وأصبحوا يمثلون اللغة الهولندية في المحافل الدولية، مثلا عبد القادر بن علي الذي ترجم العديد من الأفلام، التي لم تعرض هنا للأسف، وتم ترشيح فيلمه الأخير «مريم» لنيل «جائزة الأوسكار». إذا فالهجرة مكون أساسي عندنا وجب إدماجها في المخططات التربوية والثقافية والاجتماعية، لجعلها عنصرا مكونا للسياسات.

أما فيما يخص حركية الهجرة بجهة الشرق، فيجب التذكير أن ثلث الساكنة معنيون بقضايا الهجرة، وأكثر من مليون شخص ينحدرون من جهة الشرق، هاجروا نحو فرنسا، وهولندا، وبلجيكا، وألمانيا ساهموا في تحسين الظروف الاقتصادية بالجهة. وتعتبر منطقة الناظور تعد أكبر مدينة بعد الدار البيضاء من حيث الودائع المالية، ولكن هذه الأموال لا تستغل محليا أو جهويا، وإنما تستغل في الدار البيضاء والرباط وجهات أخرى وهذا يؤدي إلى طرح أسئلة : هل يمكن فرض استغلال نسبة 30% أو 40% من هذه الأموال محليا.

وتبقى جهة الشرق أحد مصادر الأدب والشعر الرفيع والأغنية الهادفة التي تعد تعبيرا فنيا عن حقيقة الحياة.

الأستاذ محمد

أثار السيد المعروفي نقطتين أساسيتين وأود أن أقدم بعض الإضافات. قرأت روايات الكاتب الخادم بن علي بعد ترجمتها إلى الإسبانية وأفادتني كثيراً في أبحاثي حول منطقة الريف فيما يخص الأدب وعلاقة الريف بالخارج. فإذا عدنا إلى تاريخ المغرب في عهد الحماية، نجد أن السلطان منع المغاربة من الهجرة إلى دول الكفار، وأجازها إلى دول الشرق، ولم تستثن من هذا المنع سوى البعثات الطلابية والدبلوماسية. والجدير بالذكر إن حركية المهاجرين شملت كذلك بلدان المغرب العربي، بحيث استقبل عبد الرحمان ابن هشام الجزائريين الذين رفضوا العيش في الجزائر وقت الاستعمار، بحيث تم نقلهم مباشرة بواسطة أربعة بواخر من الجزائر إلى تطوان حيث استقروا. مكنت فترة الاستعمار إذا من تغيير معطيات الهجرة وتسهيلها، وساهم فيها أيضا تطور وسائل النقل. ونمر الآن إلى طرح الأسئلة.

مداخلة

يعد التعرف على الإرث الجهوي وتقاسمه من الأولويات. لهذا الغرض تم تقديم فيلم السيد أحمد، وتم أيضا تكريم المرحوم «اليونسي»، صاحب أغنية «الباسبور الأخضر»، وقمنا بإنتاج فيلم قصير يخصه، وأشياء أخرى. ونحن بصدد تقديم طلب إدراج ثقافة جهة الشرق كتراث عالمي. وما يثلج الصدر هو أن جامعة وجدة - حمدا لله - تحظى بمكانة عالية وتضم ثلة من الأساتذة المختصين، لكن من ناحية النشر لا نتوفر إلا على عدد قليل من الكتب. أما الندوات والحوارات فكلها مصورة لكنها لا تدون على شكل كتب. لماذا لا تتحدث سوى كتب قليلة عن ثقافتنا ؟ لا يتعلق الأمر فقط بمدينة وجدة، بل بساكنة جهة الشرق كلها بما فيها الأمازيغية، الكل مدعو إلى الافتخار بتاريخه وبآبائه وبأجداده وبإرثه وبثقافته، الخ. وهذا ما يجب أن نغرسه في أبنائنا، ويلزم توفير وسائل لذلك، يجب الدفاع عن الثقافة لان الأبناء متمسكون بالهواتف الذكية وبالشبكات الاجتماعية، لذا يجب حمايتهم.

ولحسن الحظ توجد موسيقى «الراي» وهي الوحيدة التي تستعمل مثل ما قال الأستاذ المعروفي لغة الشارع لكن بأدوات موسيقية غربية للتأثير على الشباب.

فيجب إذا نقل ثقافتنا عبر هذه الأدوات المعروفة لديهم. هكذا انتشرت موسيقى «الراي» عبر العالم. ففي أمريكا الجنوبية وفي الهند أيضا تم سؤال عينة من الأشخاص عن المغني العربي الذي يعرفونه، فكان جواب الأغلبية الساحقة هو الشاب خالد. بالفعل ومما لا شك فيه أن وراء كل هذا كل من سلطة المال والإعلام. لكن ينبغي تعزيز ثقافتنا لتقوى على مسايرة التحديات.

مكانة الرسم التوضيحي في أدب الشباب :
ماذا عن الرسم التوضيحي للشباب المغاربي ؟

رئيسة الجلسة : أمينة الهاشمي العلوي

المشاركون : رؤوف الكراي (تونس)، سمر محفوظ البراج، منى يقظان، وليد الطاهر، نادية السالمي

فضاء : إدمون عمران المالح

التاريخ : يوم السبت 23 شتنبر 2017

الساعة : 17 : 00 - 18 : 30

موجز مداخلات المائدة المستديرة

جمعت هذه المائدة المستديرة بين الرسامين والمؤلفين والمحررين المهتمين بوضع صور الكتب الخاصة بالشباب. وقد اتفق المتدخلون على غياب أي تدريب مهني وفني مخصص لمهمة الرسام التمثيلي لكتب الشباب ؛ خاصة في مدارس الفنون الجميلة والجامعات. وقد اكتسب الممارسون لهذه المهنة معرفتهم في الميدان من خلال تجاربهم الخاصة. وبالرغم من هذا، فإن كان فن الصور له تاريخ طويل وتقاليد خاصة، قبل أن يختفي في الستينيات. فإن «فن الرسوم التوضيحية» وعلى العموم يكاد يكون تخصصا جديدًا يجب إعادة تحديد العلاقات القائمة فيه بين الرسام-المؤلف-والناشر.

بحيث أن المتدخلين في إنتاج هذه الأدبيات المصورة يدلون هنا بوجهة نظرهم حول ما يجب أن يكون عليه الإنتاج الناجح ومكانة كل منها، ودورها، وكذا كيفية خلق الظروف المواتية لها. ويعتبر المصور أو الرسام الشريك النشط في وضع قرار مشترك مع المؤلف والناشر، حيث أن إنتاجه الفني يجب أن يكون مبدعًا، ومؤطرا للحوار مع كلا الشريكين في الواقع، ويبقى الرسام فنانًا له التزامات مترابطة، لأنه يعمل داخل مخطط متناسق. بحيث يجب أن يتجاوز عمله النص، ويعطيه الديناميكية المطلوبة من قبل شركائه ليحمل صوره أبعادا أخرى لا يمكن توضيحها بالكتابة : التصوير ليس فقط إعادة قصة التاريخ من خلال الصورة. إنما يجب تجاوزها وإثرائها وحملها خارج النص المكتوب لتجنب التكرار.

وما يعطي أهمية ونوعية فريدة للكتاب بالنسبة للأطفال هو استجابته لاحتياجاتهم وتطلعاتهم، بحيث تكون ردود أفعالهم نتيجة تلاقح المهارات، وبالتالي يجب علينا تعبئة الموارد البشرية ذات الكفاءات العالية. دون أن ننسى أيضا عوامل التكلفة التي يمكن أن تؤدي إلى سعر مرتفع وقدرة شرائية ضعيفة، وهذا يؤدي في نهاية المطاف إلى الفشل. لهذا، يجب علينا تقليص التكاليف الثابتة، بما في ذلك الكتابة والرسوم التوضيحية، مما قد يحفز على توزيع أكبر للكتاب.
وأخيراً، لا تزال بعض المنتجات مطلوبة، مثل الكتب المخصصة لقراء لغة «برايل»، مع النقوش والأنسجة، إذ تظل تقريبا عن العرض في المغرب. ونشجع بذلك الناشرين، الرسامين والمصورين لتكريس مجهوداتهم أكثر في هذا المجال، وبالتالي من أجل اكتساب المهارات اللازمة لمعالجة هذا الخصاص.

أمينة الهاشمي العلوي

هناك نقص في الرسامين والمدربين أيضا، بحيث اخترت تقوية قدرات الشباب. إذ لقد حان الوقت لأن نغير ما بأنفسنا، دون انتظار قيام الدولة بذلك. نحن ناشرون وهناك مؤلفون كثر.لابد من البحث عن حلول فعالة لهذه المشكلة. هدفي هو تشجيع المدارس في المغرب على إنشاء قسم للرسومات المخصصة للأطفال إذ لا وجود لها حتى الآن. وهذه مشكلة في بلد يكون فيه ثمانون في المائة من السكان من الشباب والأطفال.

نادية السالمي

ما تقوله أمينة صحيح. الآن، عندما نقول للقارئ أو للمواطن للمغربي بشكل عام أنه لا يوجد رسامون أو مصورون في المغرب، ينظر إلينا باستغراب لأن الجميع يظن ببساطة أن التصوير والرسم في المدرسة هما نفس الشيء. يذكرنا هؤلاء على الفور بتلك المدارس التي تكون كل هؤلاء الرسامين، كل هؤلاء الفنانين، فيسألوننا لماذا لا نعترف بهم، ولماذا لا نجعلهم من ضمن القوة البشرية النشيطة والعاملة في هذا الميدان ؟ ولكن إذا كانت القاعدة هي نفسها، فإن الرسم التوضيحي هو وظيفة أخرى. بحيث يكون المصورون هم في نفس الوقت فنانون يستخدمون الآلات والتقنيات نفسها. إذا، ما هو الرسم التوضيحي ؟ يمكننا القول أنها صورة تكمل معنى النص. لأنه في الماضي كان يجب أن يكون الرسم التوضيحي قراءة ثانية للنص ؛ ولكن حاليا يجب أن يرافق الرسم التوضيحي قراءة النص من أجل وضوح وفهم أكثر. وشخصيا، أعمل مع رسامين غالبا ما يطلبون إدخال تعديلات على النص.
عندما نقرأ النص والصورة، يجب أن نتحرك ونتحلى ببعض الدينامية، من حيث تفاعل الصورة مع النص : هذا هو الرسم التوضيحي. فعندما ندعو المصممين ونطلب منهم أن يحاولوا العمل معاً، فقط لدمج المصممين المغاربة في كتالوجاتنا. فإننا نصطدم بالكثير من الصعوبات، أولها غياب الخبرة.
وحتى من دون خبرة، يجب أن نوفر بنية تحتية، بحيث نمنحهم منبرًا يعبرون فيه عن أنفسهم، ليتم التعرف والتعريف بهم. و لكن يقابل هذا الاقتراح بالرفض، لأنهم جزء من جيل يجب أن يحدث كل شيء فيه بسرعة، لكن لا شيء يتم بين عشية وضحاها. فانا شخصيا استغرقت سنوات لأتبوأ مكانتي اليوم، ولم أتمكن من الوصول إلى هذا المستوى بسهولة : فهناك خطوات يجب أن تتبعها ويجب أن تتحلى بالصبر لتحقيق أحلامك .

أمينة الهاشمي العلوي

أود أن أطلب من المصممين الموجودين معنا أن يشرحوا لنا ما هي الرسومات التوضيحية للأطفال، أي تعريف محدد لهذا الرسم التوضيحي.

زينب

أتفق مع كل ما تم التطرق إليه وأريد أن أتقاسم معكم ما تعلمته في التكوين الذي حظيت به وكل ما سمعته. لا توجد مدرسة للرسم التوضيحي، هذا أمر محير. ما أردت قوله هو أنني أدعم ما قالته أمينة ونادية بخصوص النقص الكبير في المدارس المتخصصة في الرسم التوضيحي. إنها حقيقة مرة، لكنني أعتقد أن المشكلة أكثر تعقيدا. تكمن جذور المشكلة في أن الناس لا يقرؤون ليس فقط الصغار منهم بل الكبار كذلك، فالرسوم لغة في حد ذاتها ولكن، عندما لا توجد مدارس أو تكوين، هناك على سبيل المثال ورشات العمل التي تعد فرصة سانحة للتعلم.

الأستاذ وليد الطاهر

هذا الكتاب هو نتاج مشروع جماعي بين ناشر وكاتب وكل رسام توضيحي، يعبر عن نفسه بواسطة رسومات الأطفال من وجهة نظر أدبية وبصرية محترفة. فأهم الأسس هي المسؤولية، الهدف والرسالة، والعناصر الثلاثة مادة ضرورية لإعطاء تعريف محدد لدور المصور.
وهكذا يتمتع كل طرف بالحق في ممارسة حريته كاملة. فهو بمثابة جسر بين الطرفين يخلق تداخلات ومناقشات. يمكننا على غرارها أن نكمل بعضنا البعض، ونقوم بأشياء مشتركة، ولكن عندما يتدخل المرء في مجال الآخر، تحدث مشكلة في العمل. هذا يعني أن الناشر لا يمكنه توجيه الكاتب، والكاتب لا يتحكم بالمصور والرسام التوضيحي ليس رئيسا لأحد سوى لنفسه. فالمسؤوليات متساوية وجماعية بحيث يحصل الطفل على الكتاب المطلوب، وتقع المسؤولية كذلك على عاتق الثلاثة على السواء لتحقيق أفضل النتائج، وحدوث مشكلة يعني انعدام التماسك والترابط.

منى يقظان

أنا أتفق مع كل ما قيل، وأضيف أن الرسم التوضيحي، ليس فقط مسألة إضافة شيء للنص أو ترجمته ولكن في نظري، إذا كان الرسام التوضيحي لا يستطيع أن يغني النص بإضافاته، فإنه لم يقم بعمله بشكل صحيح. فإذا تلقيت نصًا وترجمته نصيًا، فماذا سأكون ؟
ما هو دوري في الكتاب ؟ هل دوري هو فقط الترجمة الحرفية ؟
لذلك أفضل أن أرفض الاشتغال على الكتاب، مثالاً : اشتغلت على كتاب حول الحيوان، هنا يمكننا إضافة شيء ما، كالفكاهة لجذب انتباه الطفل. مثال آخر : قمت برسم توضيحي لكتاب مع الكاتب سمر محفوظ براج يتحدث عن الصداقة. كثير من الناس يقرؤون الكتاب ويقولون لي إنني لست في الكتاب. وقد أزعجني ذلك.
وأضيف أنني شاركت لمدة أسبوعين في جمعية للمكفوفين والصم والبكم لتعلم القليل من لغتهم. على سبيل المثال، أكتب التعبير عن الصداقة في لغة الإشارة. فشعرت حينها أنه لا ينبغي فصل الطفل البصير عن المتعة، ففكرت أن لغة «برايل» هي الطريقة الناجعة لإدماج هذه الفئة.
أنت لا تسأل الرسام كيف يعمل. أنا أيضا أشعر أن الكاتب ليس مسؤولا وحده : يجب على الرسام التوضيحي أن يحدث تغييرا. وأن لا يبقى حبيسا للأفكار المتوارثة، فيمكنه إذا الاتصال بدور النشر، أو التعريف بأنفسهم لاكتساب الشهرة والحصول على المشاريع.
وأود فقط من الناشرين الموجودين معنا هنا أن ينظموا مسابقات للجامعات التي لديها أقسام فنية. فعندما كنت طالبة في نيقوسيا، أتيحت لي الفرصة للمشاركة في مسابقة. يتوصل من خلالها الناشر بمسودة نص ومشروع لكل طالب ليتم دمج أفضل مشروع توضيحي في الكتاب. أود أن أعرف رأيكم في هذه النقاط.

أمينة الهاشمي العلوي

إننا نتمتع بالخبرة اللازمة كمحررين ومديري نشر ومسيري مكتبات، وهذا كان كافيا ليدفعني شخصيا إلى التفكير في سبل الجمع بين الكتابة والرسوم التوضيحية في تكوينات مشتركة. فاقترحت مشاركة زينب وحياني. فهذه المرأة، المتخصصة في أدب الأطفال، طرحت عدة استفسارات عن الكتابة للطفل، وما هو الألبوم، ومن هو الرسام، وكيف يتم دمج الرسم التوضيحي في كتاب ما. كما كان لدينا تجربة مع ناشر ألماني في المركز الثقافي الألماني في الدار البيضاء بحيث درسنا الرسوم التوضيحية وكيفية إنشاء شخصية ورسم خط سكة حديدية. ويمكن لكل هذا أن يتطور إذا كان يحترم إطار المدة والاستمرارية. ولقد دعوت السيد «رؤوف الكراي» الذي يتمتع بخبرة كبيرة في التوضيح وخاصة في كتب الملموسة لذوي الاحتياجات البصرية. لقد تمكن من إنشاء قطب للرسم التوضيحي لذوي الاحتياجات بالبصرية في تونس، وهي تجربة نريد أيضا نقلها إلى المغرب.

أطلب منه أن يساعدنا بخبرته، حيث أنه لن يقوم بتنشيط ورشة عمل للرسوم المتحركة للأطفال، وإنما برنامجا للرسوم المتحركة للكبار.

رؤوف الكراي

نشكرك على هذه الدعوة وأيضاً على هذه الفرصة لمقابلة محترفي كتب الأطفال والرسامين التوضيحيين والناشرين والكتاب. إنها لحظة جميلة وغنية جدًا. أنا هنا منذ ثلاثة أيام وحظيت باجتماعات استثنائية. لقد اكتشفت العديد من الأشياء المهمة هنا وحظيت باهتمام استثنائي من جميع الناس. للتوضيح، لا أريد أن أعطي تعريفا لأن هناك الكثير، وفقا لأشياء كثيرة. لذا تستمر التجربة مع كتاب الطفل.

هذا أمر جديد، يمكننا القول أن إضافة رسوم لكتب الأطفال كما نراها الآن هو عمل جديد للغاية. ويعتبر اليوم عملا مهما جدا للتواصل والتعليم بين الطفل والناشر والرسام التوضيحي والكاتب. ففي الماضي، في المخطوطات العربية والمخطوطات الأخرى الموجودة في أفريقيا أو في أوروبا، وخاصة في عصر النهضة، كانت الرسوم التوضيحية رائعة، لكن لبعض الوقت، توقفت هذه الأعمال وظهرت كتبًا لم تعد تحتوي رسوما. على سبيل المثال، الكتب التي قرأناها في الستينيات : وأتذكر على وجه التحديد كتبا مرت بين يدي مثل مؤلفات كمال كيلاني والأبراشي، حيث لم تكن هناك أي رسوم توضيحية تقريبًا.

بقدر ما أشعر بالقلق، خاصة بالنسبة للرسوم التوضيحية للمكفوفين، فإن تجربتي حديثة : بدأت في عام 2001. هذه التجربة وهذه المحاولات بدأت مع «برايل». عندما أتحدث عن كتب المكفوفين وعن الرسم التوضيحي وعدم الكتابة، يشعر الناس بالدهشة ويفكرون : كيف ترسمون للطفل الأعمى ؟ فالخبرة موجودة ويتم نشر العديد من الكتب الآن. ولكن للأسف، ليس هناك خبرة في العالم العربي. أعتقد أن هناك دارين للنشر، فقط قاموا بالتجربة : لقد صنعوا كتابا وطبعوه في الصين. لكنهم فشلوا : فكتب المكفوفين تعتمد اللمس فعندما يضيع النسيج المكون لها، تصبح غير مقروءة.

نادية السالمي

في المغرب لدينا تجارب مماثلة، ولكن ليس للناشرين. فالجمعيات هي التي تستفيد ونخصص لها حقوقنا مجانًا لإصدار كتب بطريقة «برايل».

رؤوف الكراي

تقاسمت معي أمينة هذه التجربة وتحدثنا عنها قليلاً، لكن الآن في الدول العربية لا توجد كتب بعد. إنه ليس كتابًا يعتبر بمثابة تجربة، إنما هو إصدار. هذه الكتب باهظة الثمن. لذا يجب أن تكون متوفرة في كل مكان وفي جميع المدن حيث توجد جمعيات أو مدارس للمكفوفين، وتحتاج إلى مكتبة خاصة ومخصصة لهؤلاء الناس.

أمينة الهاشمي العلوي

تحدثت عن التجربة مع جمعية «أماردیف» للمكفوفين : أنشأنا ورش عمل لإنشاء كتب عن طريق اللمس، وقدمت واحدا للسيد رؤوف حيث توجد أخطاء كثيرة. فالتكوين مكلف للغاية. و بالحديث عن السيد حياني، الذي درس بمدرسة الفنون الجميلة في تطوان. وهو يحضر دبلوم الماجستير في الهندسة الثقافية والفنية ويدرس في مدرسة «ArtCom». دعوته لأنه عمل كثيرا مع الأطفال، ولديه طريقة خاصة في التعامل معهم : فلمدة ساعة، نقل لهم الإحساس بالفن وأود منه أن يحرك ويغير مجرى الأمور قليلاً، وأن يذهب إلى المدارس في محاولة لجعلها تعمل بهذا المفهوم. فكيف تفعل ذلك ؟ خلال سنوات دراستك، هل اعتنيت برسوم الشباب التوضيحية ؟

الحياني

بالنسبة للتكوين الفني في المغرب، هناك مدرستان للفنون الجميلة، واحدة في تطوان، حيث درست، وأخرى في الدار البيضاء. الدورات الدراسية هي أكاديمية بحتة وتوجيه الطالب نحو الفن أكثر منه إلى الرسم التوضيحي. لذا، يمكن أن نجد طالبًا ممتازًا في الرسم ولكن لتوضيح محتوى كتاب، سيواجه دائماً صعوبات : بحيث هناك نقص في التخصص. في الآونة الأخيرة، فمؤخرا كان هناك حديث عن إنشاء فرع للكتاب الهزلي في تطوان. أما فيما يخص تكويني، فأنا في مجال التدريس وهناك دائما مشكلة كبيرة في البرامج التدريسية، سواء داخل مدرسة الفنون الجميلة أو غيرها من المدارس. فعلى سبيل المثال، أنا أستاذ الفنون التطبيقية في إحدى المدارس الثانوية، وعندما أرى البرامج التعليمية، أجدها فارغة نوعا ما. لا بد لي من الارتجال لإفساح المجال للتوضيح. يمكن للمرء أن يتخيل برنامجًا على سبيل المثال ستة عشر ساعة من رسومات الملاحظة، اثنتي عشرة ساعة من التشكيلات، ست عشرة ساعة من الرسومات التحليلية وساعات قليلة من التعبير البلاستيكي. بحيث يكون هناك التزام باحترام كل ذلك مع المفتش. عليك القيام بذلك والتلاعب بالبرنامج قبل القيام بهذا النوع من الأشياء. وفيما يخصني، فأعتبر ورش العمل أهمها : لقد تدربت على الرسم، حتى عندما كنت أدرس في مدرسة الفنون الجميلة، في ورشات مثل تلك التي نظمتها أمينة.

إنها أحيانًا تقوم بورشات كهذه ؛ تجمع الفنانين المعتمدين والمدعوين لتدريب الفنانين المصورين على الرسم التوضيحي. وحسب تجربتي : تعلمت فن الرسم التوضيحي، ويمكنني تنشيط ورشة رسم، أنجح بشكل جيد في التدريس، عندما أعود إلى الأستوديو، أشعر بأنني أقرب إلى الرسم والفن من الرسم التوضيحي، لأنه عندما أمارس الفن، أجد نفسي أكثر عندما أرسم. هذا هو المشكل. عندما أطرح السؤال على أصدقاء لي من الرسامين عن الرسم التوضيحي، فلا فرق يذكر.

أمينة الهاشمي العلوي

الآن بعد أن أصبحت أبا، ألا تريد أن تصبح رساما توضيحيا ؟

الحياني

لطالما عرضت علي هذا، وقمت بتحفيزي للعمل من أجل أبنائي التوأمين البالغين من العمر ثمانية عشر شهراً. لذلك سأقوم بهذا العمل التربوي وسأساعد الأطفال على ممارسة الرسم.

أمينة الهاشمي العلوي

لقد سمعنا من فنانين وناشرين ورسامين : أتوجه إلى المؤلفين. عندما تعطي النص، كيف تتعامل مع الرسام التوضيحي ؟ هل تطلب منه ما تريد وتعطي للرسام حرية تفسير النص كما يريد ؟

نزهة

لدي خبرة خاصة منذ أن أرسل الناشر إلينا في البداية روابط للرسام المغربي ولم يغريني صراحة. أهم ما في ألبومات الشباب هي أنه عندما يدخل الطفل محل لبيع الكتب، ما الذي يسترعي انتباهه ؟ يذهب طبعا إلى الغلاف : إنه أول شيء ينظر إليه ويتصوره. ثم ملمس الكتاب، وبعد ذلك يأتي التصفح. بالنسبة لي الأمر كذلك. لذلك عندما أرسل لي بعض أسماء الرسومات - للأسف لا أعرف كل الرسامين - سألت إذا كان لديه أي شيء لتقديمه. قال لي نعم.

وعدت إلى المغرب، ورأيت أن هناك رسامين توضيحيين، بالطبع. كنت محظوظة لأن مديرة النشر التي أشتغل معها أعطتني تفويضاً مطلقاً. لذا، يمكنني اختيار رسام توضيحي قريب من قصتي.

كلما وجدت رساما توضيحيا يتصرف مثلنا نحن الكتاب، أبعث له النص، ويجيب : *«أنه من الضروري أن تستأثر القصة بي أحتاج أن تعيش القصة في داخلي»*. وهذا أمر مهم جدا، فحاله كحال المؤلف : كتابة النص الذي تم في فترة الحمل قد تدوم عدة أسابيع أو أشهر، وعندما ينضج، يبعث به إلى المحرر فيوافق أو يرفض النص. لقد اشتغلت مع الرسامين. يقول المصور : *«لسنا هنا لنقول ما يقوله النص ؛ نحن هنا لإضافة شيء ما»*. على سبيل المثال، أفكر في هذه اللوحة حيث يقول النص : *«مايهمني أنه لطيف وظريف، أنه صادق ومخلص»*. أنا أترجم : *«أنا لا أهتم، إنه رفيق لطيف، إنه أمين ومخلص»*.
هذه ثلاث جمل : لكن هل تتطابق الصورة مع الجملة ؟ لا، لقد قامت بعمل رائع حقا : نرى الكتب، نرى الأطفال في كل مكان، كتاب واحد وحزمة واحدة. على الجانب الآخر، نرى قطة صغيرة لطيفة لأن القطة هي رمز للحنان والحب. نرى رسائل صغيرة وهي في الحقيقة صفحة، إنها لوحة، أحبها كثيراً، إنها لا تقول، إنها لا توضح ما يقوله النص، وهذا هو عمل الرسام، عمل مبدع للغاية. لقد عملت مع الرسامين الذين يقومون أحياناً بعمل مثل المؤلفين. اعتقدت أن الرسام يبدأ من اللوحات الداخلية ويترك الغلاف في النهاية. البعض الآخر يفضل أن يبدأ بغلافه. لذلك كل شخص لديه طريقته في العمل. لا أعرف لماذا في المغرب لدينا هذا النقص. كنت أود أن أشغل رسامين توضيحيين من بلادي.

الأستاذ وليد الطاهر

لدي تحفظ حول علاقة العمل في إطار ثلاثي. في البداية يجب أن يكون هناك اتفاق بين الكاتب والرسام التوضيحي، ثم مجموعة من الخطوات المشتركة بينهما لإنتاج كتاب، وحوار لمعرفة ما إذا كان الكاتب يوافق على الرسوم التوضيحية أم لا. لقد قمت باضافة رسوم توضيحية لكتب الأطفال في تونس. وعندما اطلع الناشر على الرسوم التوضيحية، أخبرتني الكاتبة أنها تستطيع كتابة كتاب انطلاقا من هذه الرسوم التوضيحية. ولقد قمنا بإنشاء فريق عمل، وكنت أقدم الرسوم التوضيحية عن الحيوانات وجلبت الكاتبة والشاعرة ما جاد به إلهامهما من أدب وشعر، فأنجز وأنجز ونوقش العمل. وكان الناشر هو الراعي لهذا العمل. إذا لم يتفق مع الكاتب والرسام التوضيحي، فإنه سينسحب، وسيحل محله شخص آخر يشاطره نفس الرؤية. فبالنسبة لي، فإن أحكام الاتفاق أو الرفض ليست في مصلحة الكتاب.

نزهة

أعتقد أن الناشر له رأي. فإنه يرى الرسومات ويصادق عليها أو يرفضها.

رؤوف الكراي

هل يتعين على الناشر التحقق من الرسوم التوضيحية ؟

الأستاذ وليد الطاهر

لا. ليس من شأنه المصادقة على الرسوم التوضيحية. وإنما فقط التحقق من صحة طريقة العمل. نحن لا نعرض البضائع : وإنما نقدم عمل فني ثلاثي، وإذا كان أحد الطرفين لا يوافق على هذا العمل، فإنه ينسحب من المشروع إذا اشترى الناشر أو عدل أو لخص، فسيكون هناك تراجع في قيمة العمل الفني في مجمله.

نزهة

في فرنسا، عندما يتفحص ناشر لوحة ما، يعيدها و يتساءل : هل يمكننا فعل ذلك ؟ هل يمكننا فعل هذا ؟ هل نستطيع أن نغير هذا أو ذاك ؟ من الجيد أن الحوار بين الناشر والرسام التوضيحي الذي يختاره مهم للغاية.

الأستاذ وليد الطاهر

نعم، إذا كان الرأي فنياً، لكنه ليس وصاية فنية. أعني أن العمل يجب أن يجمع الأطراف الثلاثة بنفس الوزن ونفس الخطاب ونفس الأعمال. يجب أيضًا تطوير الثقة لتجنب النزاعات. فإذا كان الناشر يملك المال، فإن الرسام لديه الخبرة والكاتب يمتلك الفكرة. إذا لا أحد يستطيع المزايدة على الآخر.

منى يقظان

على سبيل المثال، بالنسبة لنا نحن الرسامين، يجب أن يكون الكتاب جميلًا، لكن من ناحية أخرى، يجب أن نفكر في الناشر لأنه هو من يعرف السوق ويعرف ما يتطلبه تسويق الكتاب. ففي المغرب، لا يملك الناس سوى القليل من الموارد لشراء الكتب، وإذا كنت أنا الرسام، أتقاضى راتبي ولا أنزعج بهذه الحيثيات، فلن يتم تسويق الكتاب بشكل جيد. ما أريد توضيحه هو أنه إذا أردت أن يصل هذا الكتاب إلى الطفل، فيجب أن أقدم شروطا مقبولة لجميع الأطراف. لدى الناشر خبرته الميدانية ؛ يزور المدارس ويسأل عما يحتاجونه، كما قال الأستاذ وأمينة. رأيت بالأمس شخصًا يحب كتابًا، لكن السعر كان مرتفعًا ولم يستطع شرائه. فأصابني الحزن لذلك.

سمر محفوظ براج

بالنسبة للعلاقة بين الرسوم التوضيحية والكتابة فهي مهمة وفعالة. على سبيل المثال، يسعى الكتاب للتعرف على الكثير من الأشياء لتطوير كتاباتهم وليتعلموا من تجارب الآخرين. فيجب على المصممين أيضًا الاطلاع على كتب كهذه لأنها تعتبر مدرسة بحد ذاتها. وسيكون من الجيد أن تكون هذه الكتب متاحة للجميع. ولحسن الحظ، يحضر معنا ثلاثة رسامين مهمين سيتقاسمون معنا تجاربهم.

وبالإضافة إلى ورش العمل، من الضروري وجود كتب ذات نوعية جيدة. فكما سبق ذكره يجب استيراد الكتب من الخارج أو الدول العربية أو أوروبا، ليتم الاطلاع عليها من قبل الكتاب والرسامين. فهناك العديد من التجارب المفيدة للغاية، ولكن فيما يتعلق بالعلاقة بين المصور والكاتب، هناك نوعية من الناشرين لا يرغبون في مقابلة الرسام للمؤلف ويفضل التعامل معه دون حضور هذا الأخير. بحيث يهتم فقط بنتيجة العمل في النهاية. وتجدر الإشارة إلى أن هناك أشياء تتعثر في بعض الأحيان. فيمكن تحريف النص أو الابتعاد عن معناه على سبيل المثال، لذلك يجب علينا تصحيحه وتعديله ليتناسب مع المغزى الحقيقي للنص. وهناك أيضًا ناشرون يفضلون الجمع بين الرسام التوضيحي والمؤلف، وشخصيا أجد ذلك جيدًا جدًا. هذا أمر ضروري على الأقل للقراءة الأولية، لكي يعرف الرسام ما يعنيه المؤلف ويعيد صياغته بشكل جيد، من أفكار ومبادئ. بحيث لن يفرض المؤلف على الرسام التوضيحي القيام بما يمليه عليه من تعديلات. فهو يتمتع ببعض الحرية لصياغة المعنى كما يراه مناسبا، لأنه فنان في النهاية، لكن الرسوم التوضيحية لا يجب أن تعطي فكرة خاطئة وأن تخل بمعنى النص، هذا هو الأهم. خلافا لذلك. الرسم أيضا مؤلف من خلال رسوماته، على ما أعتقد.

نزهة

عندما تحدثت عن العمل مع الرسامين الفرنسيين، فمعظمهم لا يعرفون جميع الجوانب الثقافية للمغرب، لذا فقد قدمت المادة . على سبيل المثال، بالنسبة لـ «رمضان الغول» : كيف يكون رمضان ؟ قبل الإفطار، ماذا نفعل ؟ بعد الصيام، ماذا يمكننا أن نفعل ؟

سمر محفوظ براج

نعم، يجب أن تخدم الرسومات النص، تكمله، تضيف اليه، تصنع الحلم من خلاله.

إيڤلين

هل من الممكن أن يكون هناك نوعية محددة من الأشخاص الذين يمكنهم ممارسة الرسم التوضيحي ؟ يمكن للفنانين الكبار، أن يتصرفوا في مضمون القصة. هل من الضروري التحكم بأحاسيس الناس من خلالها ؟ في مواجهة النقص الحاصل في فئة الرسامين ذوي تجربة في الميدان.

أمينة الهاشمي العلوي

أعطي مثال خالد نظيف : لقد شجعته دائماً للقيام بالرسم التوضيحي، والحمد لله نجح، فدعوته إلى «Montreuil» وقلت له أن يتابع كل شيء وأن يلاحظ كل صغيرة وكبيرة. وفي آخر المطاف جاء إلي وقال : «الآن، *أنا أعرف ما هو الرسم التوضيحي*».

مداخلة

أظن أن الأشخاص الذين لم يتم تدريبهم، فهم فنانين بالفطرة، لكن هذه حالات نادرة. هل هناك فرصة حاليا لإنشاء مراكز لتدريب الشباب، للحصول على شهادات ؟ بالنسبة للشباب الحاصلين على باك + 5 والذين يجدون أنفسهم في الشارع ؟

أمينة الهاشمي العلوي

في مدينة مثل وجدة، سوف يؤثر هذا الحدث على عقلية الناس، سينمي فيك الرغبة في العطاء. نحن بحاجة إلى لقاءات متكررة كهذه. خير مثال هو كل هؤلاء الأطفال الذين حضروا لتصفح كل الكتب، حيث قاموا بالاستحواذ على الفضاء بحماسهم.

مداخلة

هل توجد مدرسة ثانوية فنية خاصة بالتكوين في مجال الفنون : لماذا لا يتقدم هؤلاء الشباب للتعلم هناك ؟

نادية السالمي

غالبًا ما تكون هناك مشاكل كبيرة في لقاءاتنا بالدار البيضاء، وهي التواصل. ننفق الكثير من المال دون نتيجة واضحة فلماذا لا نتجه إلى الجامعات، إلى المدارس الكبرى، إلى الثانويات، والمعاهد... هذا ما يتعين علينا القيام به. أعطيكم مثالاً : في الدار البيضاء، حتى لو كنا الطبعة العشرون من لقاءاتنا، إذا استقلت سيارة أجرة وطلبت منه أن يأخذك إلى مقر المعرض، فلن يعرف بكل تأكيد. وهذا راجع إلى ضعف التواصل.

روزالبا

أنا لست خبيرة ولكن إذا تحتم على المؤلف والرسام العمل مع الناشر، فلا اعتراض لدي. ما يهمني هو كيف ينظر الطفل إلى النتيجة، وكيف ينظر إليها الوسيط. الألبوم هو مكان اللقاء الوحيد للصورة والنص وما يهمني هو وجود حوار بين النص وصورته. أتحدث أيضا عن المرافقة. إذا ما هو الحوار وما هي طبيعته ؟ هو : أن أقول شيئاً، وأن تكمله أنت، أي أن أكمل ما قلته في الوقت الذي تقوم فيه بتعديل ما قلته للتو... فالحوار في نظري هو كل ذلك. بالنسبة لي، كوسيطة ثقافية، ما يهمني في الألبوم هو أن هذا الحوار قد تم، أي أنني أشعر أن هناك تحاور بين النص والرسم التوضيحي. هذا هو التكامل الذي يؤدي إلى الإنتاج، والمساهمة، المؤدية إلى الانتعاش... مثال ما يحدث في حوار للصم داخل ألبوم غير ناجح. فعندما يحدث ذلك، لا فنحن لا نتحدث مع بعضنا البعض، ولا تعكس الصورة ما بداخل النص ولا يتكلم النص من خلال الصورة : هذا ما أسميه حوار الصم.

أو عندما نتخيل ألبوما لرواية خيالية، لا وجود لنص يقننها ويحتويها ؛ فهناك مؤلف يخطط لقصة، لكن الرسم التوضيحي هو الذي يتقمص وظيفة الراوي وليس مؤلف النص.
فما الذي يجعل الفنان يعمل على ألبوم ما ؟ يتبع تجربته الشخصية ولكن المهم هو أنه تلقى تكوينا على الفنون أو الفن. فيعرض وحده في معرض، أو ينظم معرضًا شخصيًا، إنه في إطار عمل معروض أو مستتند، هذا كله ينظم دورة الحياة، إنها اجتماعات تحقق المبتغى أو العكس. إذا تم التلاقح فهذا جيد، أما إذا شعر أحد الرسامين التوضيحيين بأنه ملتحم بنص ما، فهو يحدث تفاعلا معه. إذا لم يكن لديه هذه الرغبة، فقد يكون رسامًا توضيحيا ملائما للألبوم... هذا ما أريد أن أقوله بخصوص عملية الاستقبال.

مداخلة

أريد أن أطرح سؤالًا ربما يكون ساذجًا. أعلم أن كل من الكتابة والرسم التوضيحي والنشر هي مهام ثقيلة ولكن ماذا نستخلص من ذلك ؟ لنأخذ حالة المجتمع المغربي، رغم جمالية هذه الكتب التي تثير إعجاب الأطفال : إذا وجدت الأم كتابا، تصدم بثمنه المرتفع وتعيده إلى مكانه - مما يحزن الطفل - لأنه غير قادر على الحصول عليه، ما الذي يمكن للناشر القيام به لمواجهة هذه المشكلة ؟

أمينة الهاشمي العلوي

سأجيب على هذا السؤال لأنني أعمل كثيراً مع الأطفال في المناطق المهمشة وقمت بزيارة كل المغرب مع قافلة الكتاب. لقد قمت بتوزيع مائة ألف كتاب مجانا كانت قد اشترتها الجهات المانحة. ثم قلت لنفسي : لا أريد أن أقوم بتوزيعها مجاناً بعد الآن وسوف أقوم بتعليم الأطفال الآن كيفية شراء الكتاب. قلت لهم : «*كم دفع والدك مقابل أحذيتك الرياضية ؟ كم اشترى لك الفستان ؟ فالكتاب له أيضا ثمنه*». أعلم أن الآباء، يمكنهم شراء كتاب بعشرة دراهم. ولكن لكي تصنع الكتب بعشرة دراهم، عليك أن تنتج الكثير. لقد أنتجت عشرين ألفًا من كل عنوان وهي ميزانية من ستة إلى سبعمائة ألف درهم لا أستطيع تحملها. تصور كم تكلفة كل الكتب إذا تم بيع كلها... لذلك لا يمكنك كسب المال على هذا المنوال، لكني لم أقدم على هذه المحاولة إلا عندما كان لدي وعود بالشراء. ولا أخفيك سرا أنني لجأت فيما مضى إلى الجمعيات للحصول على الطلبيات والتمكن من طباعتها. وقد مولتني وزارة الثقافة بمائة وثمانين ألف درهم. لكن في اليوم الذي حصلت فيه على هذه المنحة، كان هناك تغيير في الحكومة. لم يوافق الوزير الجديد على سياسة الوزير السابق، ومنذ ذلك اليوم، ضربات قلبي تتسارع : علي أن أدفع للمطبعة، أن أخزن الكتب... حسنا، من الجيد الحصول على مائة ألف كتاب، ولكن أين سيتم تخزينها ؟ وفر لي والد أحد المتعاونين مرآباً في حي شعبي... يجب أن نستمر في المضي قدما، أليس كذلك ؟ والحقيقة أنه إذا لم أحصل على هذه المنحة، فإنني سأحمل هذه الكتب في شاحنة، وأحرقها أمام وزارة الثقافة !

مداخلة

أنا سعيد جدًا بحضور هذا الاجتماع مع المحررات والمحررين الشباب. لقد حضرت اجتماعًا مع ناشرين كبار تم فيه الإتفاق على إصدار «بيان وجدة»، أطلب منكم أن تفعلوا نفس الشيء، أي توصية في شكل نص للبلدان الثلاثة في المغرب الكبير وفي اتجاه مفتوح نحو الشرق، لأن ما يفعله العالم العربي الأن - أنا وسيط وأعمل على الراديو - لم نكن نرى أن كل شيء يبدأ مبكرا وأن النصوص الأولى، الصور الأولى، الأشكال الأولى، الألوان الأولى، هي التي من شأنها تكوين الشباب. وفي أحد الأيام قد نقول عن الشباب : «*إنه عنيف، لا يفهم*».

أطفالي في تونس يذهبون إلى مدرسة خاصة تسمى «مدرسة الأخوات الصالحات». بالنسبة للكتب الفرنسية، يتم الاعتماد على كتب بجودة عالية. أود أن أخبركم أن هناك فجوة عميقة بين القطاع العام والقطاع الخاص. يجب على الوزارات أن تعتني بكتب الأطفال : هذا أمر لا ينبغي أن يعالج فقط في وزارة الثقافة، ولكن على وجه الخصوص على مستوى الفاعلين في مجال تعليم الأطفال. كل شيء يبدأ في وقت مبكرا جدا، أريد أن أخبركم بقصة صغيرة. كنت في فرنسا أستمع إلى برنامج، على السيد «علي أمرشاد»، وهو معروف جدا في تونس. هو برنامج خاص بالأطفال. وتحدثنا لهم عن القراءة وكان هناك عرض لكتاب بعنوان «العصفور والملك». أخبرت أمي : «*يجب أن أشتري هذا الكتاب*». شردت الأم عن عملها وبكت. وذهبنا لإيجاد المال أولا، فمشيت اثني عشر كيلومترا، وبعدها ذهبنا لشراء الكتاب. عندما وصلت إلى المنزل، أنهيت قراءة الكتاب بسرعة، وبكيت وأنا أعيد قراءته مرة أخرى.

وتجدر الإشارة إلى أهمية الراديو، ووسائل الإعلام و التلفاز. أهنئك لأن الكتب التي قرأتها، «نصائح مهملة» على سبيل المثال، قرأتها أثناء الاستماع إليك. أهنئك لأنك تبني مستقبل هذه الطفولة الواعدة، عليك أن ترى التأثير الذي يحدثه هذا عليهم. سوف نقترح على منظمي معرض وجدة تحقيق اللامركزية. أنت بما أنكم ناشري كتب الشباب، فأنتم مستقبل المنطقة المغاربية، هذا المستقبل الذي يتشكل الآن أمام ناظرينا. حظا سعيدا وتهاني الحارة.

رئيس الجلسة : بوعزة بنعاشر
المشاركون : محمد دوزي، ياسين عدنان، إدريس كسيكس، بيوس ديالو
فضاء : آسيا جبار
التاريخ : يوم السبت 23 شتنبر 2017
الساعة : 17 : 00 - 18 : 30

موجز مداخلات المائدة المستديرة

موضوع هذه الطاولة المستديرة يدور حول إشكالية تعريف المثقف في سياق المجتمعات العربية والأدوار التي يمكنه الاضطلاع بها. وقد أجمع المتدخلون، خاصة من خلال أعمال الأستاذ إدريس كسيكس، على أن المثقف لا يصبح، من جهة، إسما على مسمى إلا عندما يصدح بأفكاره ومواقفه، ومن جهة ثانية، خلصوا إلى وجود أنواع مختلفة من المثقفين حسب حجم ونوعية القضايا التي يتصدى لها كل واحد منهم وبحسب ما يوظفه من وسائل في التعبير عن مواقفه وآرائه.

وفي نفس السياق، اتفقت الآراء على أن المثقف لا يلعب دوره المجتمعي كاملا إلا بنزوله من برجه العاجي والاهتمام بانشغالات وتحديات مجتمعه تحليلا ومعالجة. هذا التفاعل مع قضايا المجتمع يصبح جزء لا يتجزأ من مجموع أدوار المثقف الأصيل، خاصة أن أهمية أي مثقف تحددها اختياراته للأدوار المجتمعية التي يرغب في أدائها.

وعلى هذا الأساس، اتفق المتدخلون على ضرورة التمييز بين مفهومي العالم والمثقف، لأن الأول على عكس الثاني واسع قد يشمل أصنافا من المعرفة يغلب عليها َالطابع التقني والعلمي بمعناه المعاصر.
وقد أكد المتدخلون على أن تعريف المثقف وتحديد أدواره شهد تطورا عبر التاريخ في كل مجتمع حسب خصوصيته حتى أصبح وصف فرد معين بصفة «مثقف» لا يتعدى سياق مجتمعي معين. وتكمن بذلك قوة المثقف في قدرته على تشريح المجتمع وتشخيص أمراضه ومحاولة إيجاد الحلول المناسبة.
وقد أجمع المتدخلون أن المثقف يعتبر شخصا واعيا يتفاعل انطلاقا من منظومة قناعات ورؤى أخلاقية وسلوكية تحدد له واجباته والتزاماته. وهو بحق شاهد على عصره، بما يصدر عنه من أقوال وأفعال، لأن تطور أي مجتمع عبء ثقيل يتحمل المثقف الجزء الأكبر منه.

وفي ذات السياق، اعتبر المتدخلون أن المثقف هو الشخص الذي يبني مواقفه الخاصة انطلاقا مما هو متوفر بغية إبراز ملكاته التحليلية وقوته الاقتراحية... ومن ناحية أخرى، أضفى المتدخلون على المثقف صفة المشيد الذي يبني بلده ويعبد أمامه طريق الحداثة والتطور، بمعناهما الواسع الذي يتجاوز البعد المادي.
وقد تمت الإشارة إلى أن مثقف الوقت الراهن يعيش حالة من العزلة سببها الرئيسي هي وسائل الإعلام الحديثة التي تركز على أمور سطحية ولا تخصص جزء من شبكات برامجها للبرامج الفكرية الجادة.

بوعزة بنعاشر

أولا، عندي تعليق مقتضب حول عنوان هذه المائدة المستديرة : ربما كان من الأفضل اختيار عنوان «دور المثقفين» بدل «دور المثقف» لما في ذلك من إحالة على ترابط عدد من المثقفين من حقول معرفية مختلفة أو حقول معرفية كبيرة تندمج في بوتقتها جملة من الحقول المعرفية الأخرى. أما الآن فاسمحوا لي أيها الحضور الكريم أن أقدم لكم السادة المتدخلين في جلستنا الفكرية هذه. ونبدأ بضيفنا الكريم محمد دوزي، أستاذ العلوم السياسية بجامعتي الحسن الثاني بالدار البيضاء و«إكس أونبروفنس» بفرنسا، وأعمال الأستاذ دوزي محط اهتمام داخل المغرب وخارجه، كما أنه عضو اللجنة الاستشارية لمراجعة الدستور المغربي سنة 2011.

ومن ضيوفنا أيضا الشاعر والإعلامي ياسين عدنان، وادريس كسيكس الكاتب والصحافي والمسرحي مدير مجلة «إيكونوميا» وكذا مدير مركز الدراسات الاجتماعية والاقتصادية والإدارية. ويحل علينا ضيفا عزيزا من الشقيقة موريتانيا الأستاذ بيوس ديالو، صحافي ومدير مديرية الكتاب والقراءة بوزارة الثقافة الموريتانية ومدير مهرجان ثقافي ينعقد سنويا بالعاصمة نواكشوط.

ادريس اكسيكس

يحمل الكتاب الذي اخترت مناقشته عنوان «مهنة المثقف»، وهو كتاب اشتغلنا عليه بالتعاون مع الأستاذة فاطمة أيت موس طيلة ست سنوات تتبعنا خلالها مسار خمسة عشر مفكرا مغربيا. حاولنا قدر المستطاع فهم طبيعة منهجية العمل عند كل واحد من هؤلاء المفكرين وفحص ما يناقشونه من أفكار بمساعدة منهم شخصيا.

لقد ضمنا هذا المؤلف مقدمة مطولة ناقشنا فيها مفهوم المثقف ؛ وأنا أدعوكم جميعا لمناقشة هذا المفهوم الذي ما فتئت أشتغل عليه وتأملته عبر أبحاثي في ميدان الإعلام والثقافة والوساطة وكمواطن.

شخصيا، ليس عندي الكثير لأقوله حول دور المثقف لأنني لا أستطيع تحديد ماهيته وأدواره، وعليه فكل ما أستطيع مشاركته معكم هو جملة من الأفكار التي تجد أصلها في تجربتي الشخصية. أولا، لابد أن نفرق بين مفهومي «المثقف» و«العالم» ؛ فليس كل من اكتسب معرفة قد دخل إلى دائرة المثقفين. مفهوم «المثقف» يحمل في طياته ما يدل على ارتباط مواقف وأفكار الفرد المثقف بالحياة العامة في مجتمعه. هذا الفرد المثقف يرى نفسه مؤهلا لمخاطبة المجتمع، انطلاقا من ضمير حي، بغض النظر عن مدى تمكنه من ناصية العلوم بكل تلاوينها. بهذا المعنى يصبح الأنبياء والرسل من أوائل المثقفين الذين عرفتهم البشرية، رغم أن غالبيتهم كانوا رعاة. وبناء على ما سبق، فالتفرقة بين مفهومي «مثقف» و«عالِم» إجراء منهجي غاية في الأهمية لمن أراد تحديد ماهية وأدوار المثقف.

نقطتي الثانية تتعلق بميل الفكر الغربي إلى ربط صفة «المثقف» بإميل زولا ثم جان بول سارتر وغرامشي، على أساس أنهم صوت الحقيقة. هذا معناه أن كل من يكتسب علما ما ويفكر انطلاقا من فهمه الخاص وعلاقته العضوية ببنية مسيطرة كحزب مثلا يكتسب حق تحديد الصواب من الخطأ. هذا فكر عمودي، هذا الخطاب مصدره الأبراج العاجية. صورة أخرى تطفو على السطح كلما فكرنا في مفهوم المثقف وإن لم نصرح بذلك هي صورة «العالم» المعارض المناوئ للسلطة والصادح بصوت الحق. والمثال على ذلك ما أقدم عليه الدكتور إدريس الكتاني من قول وفعل بداية القرن العشرين كلفه الكثير. نعم، نحن نرى المثقف كشخص لا يخشى في قول الحق لومة لائم، لكن هذا لا يبرر أي خلط بين المفهومين.

ولعل عقولنا تخزن لنا صورة أخرى لمثقفين معاصرين لهم في نظري مقامات رفيعة تقارب مكانة جان بول سارتر. أسوق لكم في هذا الباب أمثلة كالأستاذ محمد عابد الجابري والأستاذ محمد العروي الذي كان ينتمي لحزب معارض مهم.

هذان المثقفان على سبيل المثال كانا يشتغلان على مسائل علمية نظرية بحتة، لكنهما كانا في الوقت نفسه يوجهان الرأي العام عبر مقالاتهما في الصحف والمجلات... ستكون لدينا فرصة للحديث عن المثقفين المغاربة عموما بمزيد من التفصيل. شخصيا، أرى أن هناك أربع فئات من المثقفين بخلاف فئة المثقفين الصادحين بالحق. أول هذه الأصناف ما أسماه ميشيل فوكو «المثقف المحدود» الذي لا ينبس ببنت شفة حول العالم والمعرفة خارج قاعة الدرس. هذا النوع يوظف ما اكتسب من علم في نطاق منفعي ضيق. ونجد هذه الفئة من المثقفين بالخصوص في مجتمعات أصبحت تؤمن بالتخصص وتطبقه إلى حد بعيد.

أما النوع الثاني من المثقفين فقد أسماه الأستاذ أنور سعيد «المثقف الهاوي»، أي المثقف الذي يسمح لنفسه بالخروج عن حدود تخصصه والحديث في أمور لا تعنيه بالدرجة الأولى من الناحية العلمية البحتة كالمسائل السياسية والثقافية والاجتماعية المطروحة داخل مجتمعه. هذه الوضعية التي يضع المثقف نفسه فيها تدفعه للحديث بالدرجة الأولى عن المجتمعات وهي في حالة تحول.

النوع الثالث من المثقفين هو «المثقف العضوي» حسب غرامشي الذي كان عضوا في الحزب الشيوعي الإيطالي. والمهمة الأولى التي يطلع بهذا المثقف هي توجيه الرأي العام نحو ما يراه صوابا بناء على ما توصل إليه من نتائج وفهم مبني على تشريح بنيات المجتمع وقناعاته الراسخة.

والإشكال هو أن جميع هذه الأنواع المذكورة أصبحت متجاوزة في ظل التغيرات المتلاحقة التي تعرفها المجتمعات بفضل التطورات الرقمية غير المسبوقة وارتفاع منسوب التفاعل الأفقي بين أفراد المجتمع دون إشراك المثقف الجالس هناك في برجه العاجي.

وهذا يقودنا للحديث عن نوع آخر من المثقفين ناقشناه في كتابنا المشار إليه هو «المثقف المجتمعي». وقد اختلف جان بول سارتر وميشيل دو سيرتو لما اعتبر الأول المثقف شخصا يجيد الكلام، بينما اعتبره الثاني شخصا يجيد الاستماع. هذا معناه أن المثقف ليس ذلك الشخص الذي يملك الحقيقة ويحاضر الناس بخصوصها بقدر ما هو في حقيقة الأمر شخص يجيد الإنصات لنبض الشارع ويؤطر القضايا ويطرح تساؤلات يوجه بها الرأي العام وهو بالتالي ذلك الشخص المستعد للحوار والنقاش. هذا هو ما نسميه «المثقف المجتمعي». وقد سُلِط المزيد من الضوء على هذا المفهوم على خلفية الظروف التي مرت به منطقتنا العربية ابتداء من سنة 2011.

في آخر اللائحة نجد نوعا آخر من المثقفين أشتغل على دراسته منذ مدة وأسميه «المثقف التجميعي العضوي». على عكس المثقف العضوي الذي ينطلق من إيديولوجيا معينة في بناء تصوراته ومواقفه، يقف المثقف التجميعي العضوي على أرضية تتلاقى فيها جملة من الديناميات والحقول المعرفية والفضاءات التي تتفاعل في بوتقته فتعطيه طاقة جديدة يواصل العمل بفضلها. لكن لماذا يتبنى المثقف التجميعي العضوي هذا النهج في العمل ؟

السبب هو أن الديمقراطية التمثيلية في بلادنا تعيش أزمة على مستوى النخب القيادية مع ارتفاع منسوب التفاعل المجتمعي في مستواه الأفقي فقط. هذا النوع من المثقفين هو الوحيد الذي استطاع أن يخلق مساحة زمنية يصغي من خلالها إلى نبض الشارع مع التعبير عنه والتفاعل معه. وقد أسماه عالم اجتماع أمريكي «قوة الروابط الضعيفة» بمعنى أن المثقف التجميعي العضوي هو بمثابة ذلك المصب الذي تتلاقى عنده روافد كثيرة تحرك المياه الراكدة في مستنقع المجتمع.

ومناقشة دور المثقف في المجتمع تدفعنا بالضرورة إلى الحديث عن نقطتين أساسيتين هما البعد الأخلاقي لدى المثقف واستقلاليته عن السلطة والجماهير. حجم هذه الاستقلالية يتناسب بالضرورة مع الحالة المادية والفكرية والأخلاقية عند المثقف.

النقطة الثانية التي أريد مناقشتها معكم هي أننا اليوم لم نعد نتحدث عن المثقف إلا داخل بنية فكرية وسيطة مهمتها تحليل وتشريح بنيات المجتمع والوقوف على نقاط القوة والضعف. هذه الوساطة تعني وجود مؤسسات تتوفر على مقرات ووسائل اتصال وتواصل وفاعلين ينتجون المعرفة بطبيعة الحال.

إن فكرة الروابط المشار إليها سابقا فكرة في غاية الأهمية : لا يمكن أن نحمل المثقف الفرد العبء كله، فمن غير المعقول أن يسهر على إنتاج المعرفة ونشرها أيضا ؛ ومن هنا تأتي أهمية الروابط، ولكن ماذا نقصد تحديدا بكلمة الروابط ؟ المقصود بها هو كل فرد يقوم بنشر المعرفة التي ينتجها المثقف في الفضاءات العمومية بالدرجة الأولى كالجامعات والمدارس والفضاء السمعي البصري بكل تلاوينه... لكن الواقع يظهر أن المثقف في بلادنا يعيش حالة من العزلة ؛ وهنا لابد من لفت الانتباه إلى أن مصطلح «المثقف» شامل من ينتج أفكاره عبر الكتابة والخطاب عبر اللوحة والكلمة والصورة... هذا معناه أن مغني فن «الراب» الشبابي يمكن أن يكون مثقفا من الطراز الرفيع. ونحن مطالبون اليوم بالتعامل مع مفهوم «المثقف» بكثير من الانفتاح والحداثة، نظرا للتنوع الكبير الذي باتت تعرفه بلادنا على مستوى أشكال التعبير الفكري. وأود التأكيد مرة أخرى على أن المثقف لا يكون مثقفا بحق إلا إذا اجتمع فيه البعد المعرفي والبعد الأخلاقي. وعليه فإن غياب ما أسميناه الروابط والوساطة بين نخب المجتمع وعامة الناس وعدم الإنصات يزج بالمجتمع في حالة من التخبط وعدم وضوح الرؤيا وهيمنة التواصل المجتمعي الأفقي مع كل ما قد يشوبه من نواقص وآفات ليس أقلها أن يشطب الإنسان من عقله الحاجة إلى التفكير ويكتفي بالسطحية واستهلاك ما يطرح على طاولته من أفكار دون أي نقد.

الأستاذ محمد دوزي

الحديث عن مفهوم المثقف هو حديث عن المقامات والوضعيات والوهم إن صح القول، كما أشار إلى ذلك الأستاذ إدريس. مفهوم المثقف هو إنتاج فكري فرنسي بالدرجة الأولى أنتج في سياقات خاصة، رغم أن الإيطالي غرامشي كانت له هو الآخر إسهامات مهمة في هذا الباب. كان المجتمع الفرنسي وقت إنتاج هذا المفهوم مجتمعا طبقيا بامتياز يرى أن هناك نوعين إثنين من الثقافة : ثقافة نخبوية تنتجها الأقلية وثقافة شعبية تأثر في مكوناتها الداخلية فقط ولا تتعداه للتفاعل مع الثقافة النخبوية. وهذا يحيلنا على نخبة تتفكر في ذاتها والآخر الذي يصبح موضوعا للدراسة. ولكن هذا لا يلغي حقيقة أن هناك بعض نقاط التلاقي بين الثقافة النخبوية والشعبية، فالكل لديه حاجة إلى رسول أو مرشد أو قائد أو زعيم يكون شغله الشاغل هو قيادة المجتمع. وكما قال دو سيرتو، هناك دائما حالة من الاعتراف بالآخر في فكرنا.

على هذا الأساس، أنا لا أنجذب لمفهوم الثقافة أو مفهوم المثقف الذي لا أحبذ الوقوف عنده مطولا. نشاطات المثقف عندي ليست مهنة مستقلة بذاتها. فقد يشتغل المثقف من داخل مؤسسة أو إدارة وقد يكون عالِما بالمعني التقليدي في البيئة العربية الإسلامية.

يعتبر التصور السائد عن إنتاج المعرفة تماما لا يرى من فائدة للمعرفة إلا أن تكون تطبيقية عملية في الحياة اليومية. وهذا التصور يعكس لنا أيديولوجيا عامة تهيمن على كل المجالات ابتداء من الحقل التعليمي الذي يُشرط وصفه بالنجاح بمدى قدرته على تكوين كفاءات قادرة على الإنتاج المادي في مختلف تجلياته. هذا هو التفكير السائد حاليا ؛ أنا لا أستطيع في ظل هذا السياق الحديث عن مفهوم المثقف في كليته. سأكتفي بدل ذلك بالحديث عن المهن التي يمارسها المثقف وعن تجربتي الشخصية وعملي كباحث. يمكن أن نلخص عمل الباحث في تبين المعقد الغامد بتحليله وتقريب معانيه كما يفعل مثلا مع الحركات الاجتماعية أو مسارات الديمقراطية المتنوعة في طبيعتها بين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية... يطلع الباحث بهذا الدور البالغ الأهمية بتبصر ومن زاوية نظر تختلف تماما عن زاوية نظر كثير من الفاعلين المجتمعيين وعلى رأسهم الإعلام. يوظف الباحث مجموع ما توفر له من ملكات تحليلية وتركيبية ونقدية وخطابية ويستغل مكانته الاجتماعي في إيصال صوته.

لكن طرق اشتغال الباحث كما ذكرناها لا نجد لها أثرا في بعض الأحيان وتعوضها طرق أخرى تستلزم الكثير من النقاش. وهنا لا بد من الإشارة إلى فكرتين متناقضتين : أخلاقيات القناعة وأخلاقيات المسؤولية. فيجب أن نتوفر على هاتين المنظومتين الأخلاقيتين.

ومن ثمة لا يبقى الحديث عن المهن المختلفة والمهارات التقنية مهما لأن الأهم هو الجوانب الأخلاقية ومدى حضور ضمير حي ينشد النزاهة في أي نشاط إنتاجي كان. هذا هو المهم في نظري. وشخصيا أبذل قصارى جهدي حتى لا أجد نفسي في موقع المثقف الذي ينوب عن المجتمع في تأمل ذاته والتفكر فيها : هذا ليس من أدوار الباحث في شيء ؛ وأنا أرفضه.

بوعزة بنعاشر

شكرا على هذه المداخلة الشيقة والمثيرة للجدل التي طرحتم فيها ما يمكن اعتباره مقاربة إبستيمولوجية لموضوع بالغ التعقيد. النقط التي أشرتم إليها في غاية الأهمية لأن المثقف في حقيقة الأمر ذات تبني المعقد وتهدمه لإعادة البناء بنظرة استشرافية تقدمية. أدوار المثقف متعددة ومتداخلة وكذلك مواقعه في المجتمع. والآن أعطى الكلمة للكاتب والشاعر ومقدم البرنامج الثقافي «مشارف» على القناة المغربية الأولى ياسين عدنان.

ياسين عدنان

شكرا للأستاذ بنعاشر، أنا أولا أعتذر عن التأخر لأنه فعلا كان عندي التزام مع المعرض حتى حدود الساعة الخامسة، لكن لم ننته في الوقت المحدد، وكان هناك أصدقاء التحقوا بنا هنا. نعتذر مرة أخرى، ربما سؤال مهنة المثقف وللمعجبين بكتاب ادريس كسيكس والدكتور عمار الذي يطرح مسألة المثقف. والحال أنني مهتم ربما أكثر بأعمال المثقف في مجتمع يكاد يكون مستغنيا عنه. الذين يصنعون السياسات في البلد لديهم استغناء تام عن المثقف وهم واثقونً بأن المهندسين والأطر ومهندسي القناطر قادرون على أن يحققوا كل شيء وأن يصنعوا التنمية على الأرض. الشعب أيضا لديه إحساس بأن أولوياتهم يمكن أن أن يحصيها لك في ثوان ولكن تظل الثقافة دائما في آخر القائمة، أنت تريد أن تكون مثقفا وفاعلا ومؤثرا وأن يكون لك أثر ولكن وسط مجتمع كل أطرافه مستغنية عنك من الأصل وهذا ما يجعل المثقف يعيش على الدوام في بلد مثل المغرب حالة بحث دائم عن التموقع، يريد أن يتموقع، يريد أن يجد له موطئ قدم لديه إحساس بأن لديه خبرة، معارف، رؤى، تصورات، قدرة على التحليل، على التفكير، على الاقتراح ولكن كما لو أنه زخم يحتاج إلى من يتلقفه ومن يتفاعل معه طبعا. وفي هذا البحث الدائم والطبيعي على التموقع، وتختلف المسارات وتتعدد ولعل جزء من مهام الدولة العاقلة هي استقطاب هذا المثقف لكي تستفيد منه. والمثقف خبير أيضا يمكنه أن يكون صاحب خبرة في مختلف المجالات التي هي كمجالات التخصص في العلوم الإنسانية وغيرها من المعارف، إذا هذا التموقع يمكن أن يفتح المجال لمجموعة من المثقفين للمساهمة في البناء. يعني إذا كان هناك من يتصور بأن التنمية ممكنة بدون ثقافة، فهذه مغالطة، لأن التنمية البشرية لا تتم فقط بشق الطرق وفك العزلة وتأهيل البنيات التحتية ولكن ستحتاج لشيء آخر، وهو الثقافة. المثقف يمكنه دائما أن يساهم بشكل إيجابي. ولعل مطالب الشعب، ومطالب الناس، مطالب الحركات التي تنشط داخل المجتمع تمارس أيضا نوعا من التأثير على المثقف. وإذا سمحتم أريد أن أتحدث هنا أن مجموعة من المثقفين المغاربة يتعرضون للاستفزاز يوميا وأقول أن معرفتي بهم ليست لا عرضية ولا افتراضية ولكنها معرفة ومعاشرة في مجالات عملهم وتفاعلهم مع قضايا المجتمع وأنا في الحقيقة أشفق عليهم، فالمثقف يتعرض لابتزاز حيث أن الكل يطالبونه بأن يكون معهم وأن يكون صوتهم وأن ينتمي لهم ولكن في نفس الوقت يطلب منه الالتحام مع الناس وقضاياهم وأن يكون صوتهم ولكن في نفس الوقت، يكون مطالبا بأن يتخلى عن ما يصنع المثقف داخله وهو روحه النقدية لأن المثقف غير مطالب بأن يكون مثقفا غازيا أو فاتحا ، «*وما أنا إلا من غزية غاوية و إن ترشد غزيت رشدي*» يقول الشاعر القديم ، لا فالمثقف مفروض أنه صاحب وجهة نظر يمكنه أن يختلف مع المجتمع، يمكنه على ما أتذكر لعبد الكريم الخطابي، أن يمارس نقدا مزدوجا ونقدا لكل الأطراف في قضايا بعينها.

أنا لا أريد أن أدخل في التفاصيل ولا أن أطيل ولكن أفكر في قضايا ومحطات شتى من تاريخ المغرب في السنوات الأخيرة، سأروي لكم حكاية صغيرة حدثت في العشرين من فبراير، كنت أخرج في المسيرات في مراكش لأنني أقيم في مراكش وفي إحدى هذه المسيرات اقترب مني بعض الشباب الذين كانوا يقودوا الحركة وفي تلك الساعة كانوا قد أوقفوا تقديم برنامجي في إطار بعض الحلقات وقالوا لي نحن نحييك لأنك مثقف وخرجت معنا في حين أن المثقف غائب والمثقف كذا وكذا... وأنا أقول لهؤلاء الشباب بالضبط الذين كانوا يتكلمون معي : «*انتظروا دقيقة، فالمثقف ليس غريبا، المثقف معك في هذه المسيرة، فهو ذلك الرجل، صاحب الكتاب. ذلك الرجل الروائي والشاعر*». فأجابوني لا نعرفهم، فاكتشفت بالنهاية أنهم لا يعرفون المثقفين أصلا لا يقرؤونهم، المثقف يريدونه أن يتحقق كصدى لصوتهم وليس كصوت خاص مستقل لديه نداء في الفكر في الثقافة في رؤية المجتمع، وربما هذا من الأسباب، أنا قلت أن المثقف يتعرض للاستفزاز ولكن أيضا يعاني من الاستغلال في هذا البلد لأن الكل يبحث عن المثقف في المكان الخطأ، تريد المثقف، اشتري كتاباً واقرأه، حلول بسيطة وسهلة، لماذا تريد من المثقف أن يتقدم في مسيراتك وتظاهراتك ويحضر إلى احتفالياتك وحشدك، لا فالمثقف يقيم في كتابه ولكن هذه هي المصيبة و تصير غربة المثقف مضاعفة، ولهذا كل الصيحات وكل الكلام وأنتم تقرؤون الصحف والمجلات، وهناك كلام كثير حول المثقف وغياب المثقف ولكن تأكدوا بأن ذلك الكلام هو كله كلام باطل أريدَ به باطل ببساطة لأننا نبحث عن المثقف في غير المكان الذي يقيم فيه، فعنوان المثقف معروف هو الكتاب، في مجتمع لا يقرأ يصير كل استدعاء للمثقف مجرد مزايدة عليه.

بوعزة بنعاشر

تمت مناقشة مجموعة من المحاور. المحور الأول يتعلق بأزمة استقبال واستيعاب الخطاب وإنتاج الإنسان المثقف. المحور الثاني ناقش التناقضات المؤثرة التي قد تشوب مواقف المثقف عند الخوض في الحياة العامة وقضاياها مع ما تعرفها هذه الحياة العامة من تصادم بين مختلف القوى والتيارات الحية داخل المجتمع. أما المحور الثالث فقد ناقش الاستفزازات التي قد يتعرض لها المثقف عند ممارسة دوره والتي تخلق عنده أزمة وتكبح ملكاته الإبداعية وقدراته ؛ وهذا أمر ولا ريب مأساوي حقا. ياسين عدنان حدثنا عن عالم المثقف وبيته الذي هو النص والخطاب.

وباختصار، يبقى جدل كينونة المثقف وأدواره قائما يدعونا للمزيد من النقاش. المثقف يسكن في مؤلفاته، إذا عليكم بزيارته لكي تتعرفوا عليه. الكلمة الآن لضيفنا العزيز الأستاذ «بيوس ديالو» من موريتانيا الشقيقة.

بيوس ديالو

جد سعيد بالحضور معكم والمشاركة في هذه المائدة المستديرة بالغة الأهمية. أريد في البداية طرح ملاحظات سريعة : أولا، لاحظت أن مفهوم المثقف عند غالبية المتدخلين يحمل في طياته الدلالات السلبية أكثر من الدلالات الإيجابية، ربما لأنه يحتمل الكثير من التفسيرات التي تصعب ضبط معناه. ثانيا، يجب أن نمحص أكثر قبل إطلاق صفة «مثقف» على أي فرد ؛ فالكاتب والشاعر عندي مثلا لا ينطبق عليهما هذا الوصف.

ليس كل من ألف كتابا أو ديوانا مثقفا. والأمر ذاته ينطبق على الأساتذة الجامعيين، إذ ليس لديهم ما يؤهلهم لنيل صفة «مثقف» بالمعنى الصريح للكلمة إن لم يكونوا منتجين للمعرفة. يجب أن نفرق بين المثقف الذي يُعمل الفكر في دراسة المفاهيم وتحليل المجتمع بنية الكشف عن أمراضه وطرح الحلول التقدمية الممكنة على أرض الواقع والمثقف الذي ينشر ويقرب ويبسط أفكار النوع الأول للمجتمع. عندما ندرس المجتمعات العربية أو الأفريقية أو العالمية نجد أن جزءا مهما من معاناتها سببه المثقفون، كيف ذلك ؟

السبب كما ذكره الأستاذ ياسين عدنان هو أنه كل ما طرأت أزمة أو مشكل ما، سارعت وسائل الإعلام لإعطاء الكلمة لأشخاص تمنحهم صفة المثقفين، بغض النظر عن مدى تمكنهم من موضوع النقاش. إنها الطبيعة البشرية ؛ الكل يحب أن يفتي ويتصدر المشهد. وهذا مشكل عويص. أما المشكل الثاني فهو أن كل من كان له عهد بالمدرسة - خاصة المدرسة الغربية - يرى نفسه مؤهلا ليحمل صفة «مثقف»، وهذا ادعاء باطل : يمكن للمرء أن يكون مثقفا دون أن تطأ قدماه المدرسة والدليل على ذلك أن الكثير ما حكمائنا الكبار جاؤوا من البوادي والمجتمعات التقليدية. لا بد من الإشارة هنا إلى أن المثقفين والوسطاء المجتمعيين هم أول المطالَبين في أوقات الأزمات بالتفاعل وإبداء الرأي والتحليل وطرح الحلول. وأنا على يقين أن حضور السينمائي الأستاذ نور الدين سعيد كان سيغني النقاش ويلقي الضوء على الكثير من الزوايا المعتمة بالنظر للدور الكبير الذي بات يلعبه أهل هذه الصناعة المتميزة في مناقشة القضايا المطروحة على الساحة واقتراح الحلول معتمدين في ذلك على التأثير العميق لصورة في عصرنا الحديث. لا يعتبر المثقف فقط هو ذلك المحاضر أو الكاتب، لكن المثقف أيضا هو الموسيقي والمخرج وغيرهم ممن يحاولون التعبير عن أفكارهم ومشاركتها مع باقي أفراد المجتمع بطرق غير تقليدية. أقول هذا الكلام وأنا أفكر في ما عاناه بلد كالعراق وآثار الربيع العربي والعديد من المعضلات التي عانت منها مجتمعاتنا العربية كافة وإن بدرجات مختلفة ؛ والقناعة الوحيدة التي تتشكل عندي في كل مرة هي أن المثقفين يتحملون جزء كبيرا من المسؤولية. على سبيل المثال، النقاشات حول الحركات الإسلامية تملأ وسائل الإعلام والكتب الرخيصة تروج لفكر هذه الحركات التي تتاجر في الدين وتفرغ الفكر الإسلامي والديني عامة من محتواه. يعتقد القارئ الذي يشتري تلك الكتب أنه اشترى النور لكنه في واقع الأمر لم يشتر سوى الظلام.

والخلاصة مما سبق هي أن الكتابة بنية التنوير وبث الأفكار الإيجابية لا تحضر عند كل المثقفين. وحتى نميز بين المثقفين، لا بد من العودة إلى المراجع الأصلية دائما وعدم التسليم للمثقف بالنزاهة بسهولة. أعتقد أننا إذا أمعنا النظر وحاولنا جهدنا التفكير في مجتمعاتنا، فلابد من إلقاء نظرة على الذات في مرحلة معينة من مراحل دراسة المجتمع. الكثير من المثقفين لا يفعل ذلك لما فيه من إحراج، لأن القليل فقط يستطيع الحفاظ على استقلاليته والنظر إلى نفسه في المرآة. الكارثة العظمى هي أن هؤلاء هم من تفتح لهم الأبواب وتوضع لهم المنابر فيقررون مصيرنا بشكل أو بآخر. هذا يدفعني إلى التساؤل : هل هذا النوع من المثقفين هو حقا الأكثر تمثيلية لمجتمعنا والأكثر تعبيرا عن همومه وقضاياه. شخصيا، لا أعتقد ذلك ؛ والمثال هو الإسلاميون الذين ثبطوا كل محاولات بناء مجتمع يتقبل فكرا ينتجه البعض ويناقشه البعض الآخر بنية الترقي والنماء على كافة الأصعدة. كثير من المخرجين مضطرون اليوم للبحث عن التمويل لأعمالهم في الدول الغربية، اليد العليا بلا شك خير وأقوى من اليد السفلى ؛ فهل تعبر الأعمال الممولة من الخارج عن أفكار وقناعات أصحابها وهل تعبر عن المجتمع ؟

أنا هنا لا أضع الجميع في سلة واحدة ولا أشمل بكلامي أصحاب النوايا الحسنة ؛ كل مثقف أو باحث له هويته وخلفياته الخاصة التي يجب أن تَحتَرِم النصوص موضوع الدراسة والجماعات البشرية المخاطَبة وطريقة تفاعل هذه الجماعات مع خطابه باعتبار الهوة السحيقة بين شعوب المنطقة ومثقفيها. في السابق كانت المدرسة المصدر الرئيس للمعرفة بين عامة الشعب، أما اليوم فقد سيطرت وسائل الإعلام على عقول الناس وظهرت فئة جديدة من المختصين في كل شيء دون أن يجتمع لهم من أسباب التخصص شيء ؛ فيكفي مثلا أن تطأ قدم أحدهم مرة واحدة فقط أرض المغرب وموريتانيا وتونس والجزائر والسنغال ليصبح خبيرا في قضايا المغرب الكبير وقضايا الساحل والصحراء والكثير من القضايا التي لا تربطه بها علاقة واضحة ومباشرة. إن المثقف الحق أكثر تواضعا واحتراما لنفسه من ذلك بكثير. المثقف ليس فقط من تمدرس، وإنما أيضا الراعي وربة البيت التي نستشيرها في العديد من المواقف الحاسمة والتي قد تساعدنا بأفكار ما كانت ستخطر على بالنا.

كل واحد منا خبير في ميدان اشتغاله اليومي فهل ترون الطبيب منجزا عمل المهندسة أم ترون الاثنين معا ينجزان عمل النجار، طبعا لا. الفكر لا لون له ولا انتماء ولا مدرسة ؛ الفكر في حقيقة الأمر هو مسألة متعلقة بالروح والتنوير الحاصل في جوهرها في كل الثقافات وبكل اللغات.

سنكون غير منصفين لندعى أن المثقف هو الوحيد القادر على إنتاج الأفكار وهو حصرا من كان له عهد بالمدرسة ومن يتصدر المشهد الإعلامي ؛ منتجو الأفكار أكثر من ذلك بأضعاف مضاعفة كما وكيفا، علما أن الكثير منهم يتمدرس لمدة طويلة. الإنتاج الفكري بمعناه الموسع ليس مشروطا بالشواهد ؛ كل ما يحتاجه الإنسان هو أن تكون جذوة روحه متقدة وأن تكون له القدرة على ملاحظة وتحليل المجتمع. الشاب العاطل عن العمل الذي يشهد حالة اعتداء وسرقة في الشارع العام ويرى في نفسه طوق النجاة للمعتدى عليه لا يحتاج شهادة من كلية الطب كي يبدى رد فعل قد يكلفه حياته. علينا جميعا التحلي بروح التواضع ؛ وإن لم نفعل، فسنبقى دائما حيث نحن في مواجهة جدار يكاد أن ينقض علينا جميعنا. والسبب في هذا كله أننا لا نعرف قدرنا الحقيقي ؛ فتجدنا نتقمص دور مرشد وملهم المجتمع، بينما نحن في الحقيقة لا نعدو أن نكون لبنة صغيرة في جدار عظيم اسمه المجتمع.

بوعزة بنعاشر

ناقش الأستاذ بيوس ديالو الأبعاد الاجتماعية للمهن، كما عمل على هدم التصورات الفاسدة بخصوص ماهية المثقف ودوره في المجتمع. في السياق ذاته انتقد المتدخل نظرة المثقف المتعالية اتجاه المجتمع.

يحيى بوعبد اللاوي، باحث

بحسب التعريف الذي حددتم للمثقف في مداخلتكم أنا وكثيرون مثلي لا ينطبق علينا صفة «مثقف»، وأنا أرى أن ما يحدد المثقف الحق هو التزامه وتحمله المسؤولية وليس التضحية بنفسه. عندما يكون مجتمعنا في حالة من التيه وعدم وضوح الرؤيا، يتوجب على كل من يسمي نفسه مثقفا الانتصار للمجتمع والتخلي عن الأنانية على الأقل.

يكتسب المرء خلال سنوات طويلة جملة من المعارف يرى أن مشاركتها مع الآخرين تنفعهم في مواجهة التحديات والإجابة على أسئلة الحياة والتكتل والاتحاد... ألا يجعله كل هذا مثقفا ؟

مداخلة

أولا، أشكر الأستاذ ياسين عدنان الذي دعاني مرة للبحث عن المثقفين في كتاباتهم. وقد فهمت كلامه بعد سنوات من المعانات. ثانيا، المثقف عندي هو شخص لا يكتفي بمجرد العيش وإنما هو شخص يموقع نفسه تاريخيا واجتماعيا وفكريا، أي أنه يبحث لنفسه عن رؤيا كونية تؤطر وجوده.

في تجربتي الشخصية، حاولت دائما فهم ما يجري من حولي من أحداث مستعين في ذلك بالقراءة والكتابة. وما إن نشرت أول كتاباتي حتى أراد الكل استقطابي لأكون صوتا معبرا عن قضاياهم، كانوا يقولون لي في زياراتهم أنني أقوم بعمل رائع وأنني سأكون أفضل إن كتبت حول هذا الموضوع أو تلك القضية. أما أنا فأكتب ما أريد لا ما يريد الآخرون.

غالبا ما كنت أجد نفسي على هامش الأحداث لأنني قررت أن لا أتكلم باسم أحد. في البداية، ظننت أن بقائي على الهامش سببه نقص في كفاءتي. لكن مع مرور السنوات ونضوج التجربة، فهمت أن السبب الحقيقي هو أنني لم أتغير، حيث بقيت نفس الشخص طوال تلك السنين. وأنا لا أنوي أن أتغير اليوم. صديقي العزيز ياسين عدنان أنا الآن أدعو قرائي للتعرف علي من خلال كتبي.

الأستاذ صديق

تحية للأساتذة الكرام على المداخلات، رجعنا إلى قضية نهاية التاريخ، نهاية المثقف، نهاية الإيديولوجيا إلى غير ذلك، والحال أنه هناك فعلاً معطيات جديدة للعولمة وتطورات للحس الثقافي في المجتمعات وما إلى غير ذلك. وبطبيعة الحال طرحت أسئلة ما هو الدور، ماهي المهام، ماهي الوظيفة التي يقوم بها المثقف في هذا الوضع الجديد، الوضع الذي فرضته العولمة والتحولات التي طرأت على المجتمعات ككل. ولكن عبر التاريخ ومنذ البداية الأولى، كان دائما دور المثقف حاضراً مثلاً عندما نأخذ المدينة الفاضلة عند الفلاسفة الإغريق والفلاسفة المسلمون ودائما ما يطرح الفيلسوف نفسه كونه بطبيعة الحال مثقفا وحاملا للقيم يطرح نفسه ويطرح المشروع للمجتمع على اعتباره أنه يقدم مشروع مثالي لمجتمع معين وهذه المسألة ظلت قائمة عبر التاريخ. ونحن في المغرب الآن نتحدث عن الحداثة، نتحدث عن الديمقراطية، نتحدث عن المواطنة. وهذه مشاريع فكرية مطروحة في المجتمع المغربي والمثقفين والهيئات السياسية والحقوقية وغيرها والتي تسعى لتحقيق هذه المشاريع داخل المجتمع، وبالتالي يظهر هذا ضرورة بقاء المثقف، ومع ذلك نتحدث عن الخبير الذي يريد تصنيف نفسه في خانة الخبير الذي يريد بيع معرفته مقابل المال لدوائر أو لسلطة إلى غير ذلك، ليجني المال مقابل المعرفة التي يمتلكها بمعنى المسألة الخاصة بالمجتمع المغربي. فمازال هناك صراع قائم بين قيم المحافظة والحداثة وهذا هو جوهر الاختلاف في الوقت الراهن وهذا ما يفرض ضرورة استمرار مفهوم المثقف الملتزم وشكرا.

أحمد فريد المريني

لدي فقط ملاحظة بخصوص ما جاء في مداخلتكم أستاذي الكريم حول سؤال المثقف وعلاقته بالمعرفة. خلال تجربتي مع الراحلة الأستاذة فاطمة المرنيسي في ورشات الكتابة كنا نتعامل مع أفراد من حقول معرفية مختلفة تماما.

فالتفاعل بين عناصر المجموعة التي أشرفنا عليها لم يكن يتطلب من المشاركين سوى قدر معين من الثقة في النفس بحيث يأخذون الكلمة ويعبرون عن أفكارهم ويكونون مؤثرين في النقاش. والملاحظة الأساسية هي أن كل من تكلم كان يعبر عن عدم رضاه عن نظامنا التعليمي التلقيني الجامد. شبابنا اليوم كله طاقة ولا تعجزه الشروط الاجتماعية والاقتصادية في التعبير عن سخطه ؛ وهذا يؤكد كلامكم بخصوص أن المثقف ليس فقط ذلك الذي تلقى تكوينا مدرسيا.

وهنا أذكر مثالا على قوة الشباب من الجمعيات النسائية لصناعة الزرابي. قوة شبابية تنتج لنا معرفة تقنية خاصة في ميدان خاص بالاعتماد على مخيلة خصبة والثقة بالنفس وحسن الإنصات. هذه الأمثلة يجب الترويج لها في مدارسنا وجامعاتنا ومؤتمراتنا وورشاتنا الثقافية حيث لا يكف الناس عن ادعاء تحمل المسؤولية، لأن هذا هو السبيل الأنجع لتحمل المسؤولية وليس بتقديم أطروحات من المكاتب والكلام الكثير الذي لا ينفع. لا بد من التحلي بشجاعة التعبير عن الرأي والإنصات لنبض الشارع.

طبيب نفسي بوجدة

منذ مدة لم أنصت لأناس يتأرجح نقاشهم بين الظاهر والباطن والعقل واللاعقل والمادي واللامادي والشكل والجوهر بسلاسة، وهذا شيء أثار انتباهي حقا. أشتغل من مدة ليست بالقصيرة مع أناس يعانون اضطرابات عقلية، وأركز على دراسة الأفكار المنحرفة الشريرة. أفراد هذه الفئة ليسوا أذكياء بقدر ما هم متلاعبون ومخادعون يتسببون في أضرار مادية كل يوم. والأفضل لك أن لا تصادف أحدهم في طريقك لأنك في الغالب لن تفارقه دون أن يترك فيك بصمته. سؤالي هو ما موقع هذه الفئة من البشر في مسألة تعريف المثقف وتحديد أدواره ؟

مداخلة

أنا أحببت تدخلاتكم كلها وإن كانت بينكم بعض التفاوتات على مستوى التعريف، على مستوى المدارس، فكل واحد له انتماء لمدرسة مهمة فكريا، لكن أثار انتباهي تدخل السيد ديالو حول الاشتقاق اللغوي مثلا الاشتقاق اللغوي «ثَقَفَ يُثَقِفُهُ ثَقَافَةً». ولقد انطلق من فكرة مفادها أن كل كائن حي موجود في هذا العالم، لديه إشعا ع فكري معين سواء كان فكري أو يدوي، فهو يدخل ضمن الثقافة.

إذا، فهنا يبقى للناس الذين يبخسون دور المثقف، ففي الحقيقة هم يبخسون دور المثقف في طبقة معينة وهي الطبقة المتوسطة، بحيث الآن نلاحظ في العالم العربي ككل هجمة شرسة على الطبقة المثقفة لدرجة لم يبق لها وجود.

وبالتالي حتى عملية السخرية من المثقفين في إطار هذا الانتماء الطبقي. إذا يبقى التوجه الفكري لسيد ديالو وهو أن هذا المثقف لن يكون له وجود بشكل صحيح إلا ضمن كل الفئات المكونة للمجتمع. أتذكر من عشرين سنة كان عندي أستاذ تونسي يدرسنا وكان يأخذنا إلى البادية حيث النساء التي تعمل لتنتج الحَلْفَة وتقمن برسم رسوم معينة بالأحمر والأخضر إلى آخره. هذا الأستاذ أنجز دراسته فقط في هذا المجال وهنا نعرف بأن هؤلاء النساء هم أيضا مثقفات ولو أنهن لم يدخلن المدرسة، إذا فحماية المثقف لن تكون إلا بانتمائه لمجموعة فئات المجتمع وليس أن يحبس نفسه في خانة معينة.

صحفي في وكالة المغرب العربي

في الحقيقة أريد أن أتقاسم معكم أفكارا كانت لدي منذ زمن وهي أنني لم أنجح طوال سنوات في تمثل مفهوم المثقف حتى أصبحت أراه ككائن هُلامي فَصِدقاً وعلى مدار سنوات لم أستطع فهم ما هو المثقف حتى أفهم ما هو دوره والسؤال الأسبق من هذا، هل هو الذي ينتج الخبرة. هل هو الجمال، الذي ينتج الجمال ؟ هل هو طرف فكري أو متعة أو مجموعة مغلقة من الناس الذين يتحدثون فيما بينهم، أشياء شديدة النظرية ؟ هل من حاجة حقيقية في سياقها الآن لهذا المثقف ؟ فمن هو هذا المثقف ؟ ربما نحن في حاجة إلى منتجين للفن وأناس يمتعوننا وإلى أناس يعطوننا الخبرة والمعارف الضرورية لكي ننمي مستوانا ؟ لكن المثقف لا أعرف أين أمثله، لا أستطيع فهمه فبالنسبة لي هو كائن هُلامي.

انتصار

أنا طبيبة وكاتبة. أشكر المتدخلين على تقديم محتوى بجودة عالية تشد الانتباه من بداية المداخلة إلى نهايتها. سأتكلم عن دور المثقف بمغرب اليوم، على أن كلامي صحيح بالنسبة للبلدان المجاورة. كما هو معلوم، مرت مؤخرا أحداث عاصفة على بلادنا، التي باتت تعيش مرحلة تاريخية حرجة طبعها سخط الجماهير والأحكام القضائية الجائرة... واحتجاج الشباب بمناطق مختلفة من البلاد لأسباب متعددة.

لقد لاحظنا تزايد قوة هذا الحراك والوعي المجتمعي الذي يعكس في آخر المطاف صورة معينة عن المغرب في أعين العالم ويثير العديد من الأسئلة...

سؤالي أيها الحضور الكريم هو كالتالي : ما هو الدور التأطيري الذي لعبه المثقف في وضعيات وفترات كهذه ؟ والمواطن يسأل أيضا : أين المثقفين من دراسة وتحليل ما يجري وطرح حلول تبلغنا بر الأمان ؟ نحن اليوم وأكثر من أي وقت مضى في أمس الحاجة إلى قادة على مستوى تأطير وتوجيه الرأي العام، قادة لهم القدرة على احتواء الأزمات والقدرة على الفهم والإفهام. لا شك أن لدينا بالمغرب مثقفين أكفاء وكتابا معترفا بهم عالميا، لكن حضورهم في ساحة الحياة العامة ونقاشاتها وتفاعلاتها يبقى ضعيفة.

محمد الداحدي من السمارة

السؤال الأول : هل فعلا طبقة الفلاحين هي الطبقة الوحيدة التي لا تتوفر على مثقفين ؟ وسؤالي الثاني : هل يمكن تطبيق نظرية المثقف العضوي على النخبة المثقفة في الفضاء العربي- الإفريقي ؟ والسؤال الأخير : هل يمكن الحديث اليوم في المجال العربي- الإفريقي عن المثقف ؟

مداخلة

أنا كاتب وشاعر ؛ لم أنشر بعد أي كتاب ولكنني عازم على ذلك، فهل أنا لا أعتبر مثقفا ؟ قال الأستاذ بيوس ديالو أنه «لولا أبناء الفقراء لما أضاء العلم» بما معناه أن التفقه وطلب العالِمية واجب. إما أن المتعلم لديه موهبة وروح متقدة متعطشة للعلم من ذاتها فكيف تتكون قناعات هذا المثقف ؟ ولقد تساءلت طويلا عن ماهية روح وإيمان الشاعر ؟ شخصيا، كنت دائما أبحث عن طريقي في الحياة وأتعامل مع واقعي بحيث أعيش حسب إمكاناتي... في الطبيعة.

محمد دوزي

هناك محاولات لتبسيط المعقد وتقريبه إلى الإفهام عبر أشكال إبداعية جمالية متنوعة ؛ لكن المعضلة الكبرى هي أننا في مجتمع لا يقرأ ولا يشاهد الأفلام السينمائية الهادفة ولا يعرف طريق المسرح. غياب التفاعل مع هذه الأشكال الإبداعية لا يتعلق بالطبقة الاجتماعية فقط ؛ المسألة أكبر من ذلك. كل الطبقات الاجتماعية لها مثقفوها لكن التفاعل غائب.

يمكن تعريف المثقف بأنه شخص له معرفة معينة وقناعة مفادها أن له دورا إصلاحيا وتوجيها يلعبه داخل المجتمع. هناك أفراد قادرون على لعب هذا الدور فعلا ودمجه في نشاطهم كمثقفين. يتكلم بعض علماء الاجتماع عن نشوء تخصص جديد يمكن تسميته «علم الاجتماع النقدي»، بينما لا يرى علماء آخرون ذلك. الشاهد هنا أن المثقفين على اختلاف آرائهم ينتجون لنا معرفة جديدة ويقدمون لنا نقدا مفيدا ويعبرون عن التزامهم بقضايا المجتمع.

وبهذا يصبح المثقف ناطقا باسم المجتمع. شخصيا، أرفض الكلام باسم الآخرين وتصدر المشهد، لأنني أعتبر ذلك أمرا جد مؤثر على صورة المثقف : المطلع بذلك الدور المجتمعي يشترط فيه الموسوعية والتوفر على مهارات كمهارات الثعلب، ومرونة كمرونة الأخطبوط، إن هو أراد فعلا تصدر المشهد وتوجيه الرأي العام. ويتوفر المثقف على قدرات معرفية قوية يعرفها ويحس بها الجميع كما أنه قد يتخذ مواقف سلبية اتجاهها.

في الحقيقة الشيء الوحيد الذي أرفضه رفضا باتا هو الشفقة ؛ فلو تحمل كل واحد مسؤوليته وعمل من موقعه وفق إمكانياته بدل البحث عن الزعامة وتصدر المشهد في الحياة العامة لما وضع بعض المثقفين أنفسهم في مواقف توجب لهم الشفقة. نحن لا نحتاج أنبياء وزعماء لهدايتنا إلى سواء السبيل بقدر ما نحتاج إلى أناس ملتزمين بقضايا وطنهم على مستوى محيطهم الاجتماعي المحلي عبر نقل المعنى وتبسيط المعقد ومساعدة الناس على إثبات ذواتهم.

ياسين عدنان

في الحقيقة الأستاذ دوزي قال كلمة السر والتي كنت كتبتها حكاية «النبي» في إطار لا يبحث عن المثقف وإنما يبحث عن نبي بحيث نقربها للحكايات المصنفة للشيخ أبو الوليد يعني يبحث عن شيخ مثقف. لأنه عندما قلت المسكن الحقيقي للمثقف هو كتبه، نحن نريد دورا للمثقف دون أن نقرأ لأن القراءة فيها مصاحبة ومكابدة وإعمال للفكر. المثقف يمكن أن يكون له تأثير عليك عبر مجموعة من الوسائط في الوقت الذي تستغني أنت عن هذه الوسائط. تطالب بدور سحري وهذا الدور هو دور النبي فهو الذي يأتينا بأحداث خارقة ومعجزات ويغير المجتمع، أنت لا تريد أن تكابد حتى كتاب تقرأه وتكمل 300 صفحة وتتكلم عن دور المثقف وتقول أين يمكن أن يكون هذا المثقف ؟ لهذا من البداية المثقف يسكن في كتابه. وعندما قلت لك : «*صديقي العزيز، هل تقرأ* ؟» فإنه سؤال استنكاري، في الواقع لأنك تبحث عن المثقف في السماء وتقول «*نحن نسمع*». لكن المثقف يجب أن يقرأ وأن يشتبك مع الأسئلة ومع قلق الكاتب. ففي الحكايات كنت أقرأ كتاب «المتفائل» والذي ظهر مباشرة بعد الربيع العربي ويطرح تساؤلات حول مجموعة من قضايا الساعة. وحقيقة بعد ظهور كتاب الربيع العربي كان أصدقائي يتساءلون أين المثقفين، المثقف يتحقق يوميا لكن التلفاز لا يعطي هوامش للمثقف التي يلقي فيها خطاباته.

فالحيز التلفزيوني على جميع المستويات ضيق هذا هو واقع الحال. لكن الصحفي مثلا يتحدث في الجرائد يوميا وهنا يقول للمثقف : «*اقرأ لي*» ويجيبه : «*لا ليس لدي وقت*». وهنا يملأ الصحفي الجرائد بمقالات لا تنم عن احترافية لهذا لا يجب أن نطلق العنان للصحفي ليكتب ما يشاء. وسأختم مداخلتي، في وقت ما كنت مناضلا يساريا وكنت دائما أتصور حقيقة أن الأمر يتعلق بخطابات يسارية ليبرالية منفتحة ديمقراطية متقدمة ضد ثقافة محافظة.

ومع الوقت بدأت أقتنع بحكاية أخرى أنه في هذا البلد هناك صراع بين الثقافة واللاثقافة، واللاثقافة هي الحاكمة وتخضع جميع الأطراف لسلطتها. واللاثقافة هي في النهاية الغوغائية، الوقوف عند الشعارات وعدم الذهاب أبعد من الشعار، عدم القدرة على الحوار هو أنك تأخذ مجموعة من الأفكار كيفما كانت وتتبناها وتعمي بصيرتك، فحينما تضيق نفسك ولا تستطيع تقبل الآخر، تحاول اختزال هذه المأساة في ترديد شعارات دون أن توقع عليه ثقافياً ؛ فتتبنى بذلك الفكرة دون أن تقرأها وذهب بعض المثقفين إلى أبعد من هذا بحيث انخرطوا في سياق اللاثقافة.

فحتى عند الليبراليين نجد كاتب ليبرالي وصحيفة ليبرالية ويقول كلاماً أصولياً أحياناً خالياً من روح النقد. يتكلم كنبي هو الأخر لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ويأخذ مواقف حيادية أي بالمطلق أو ضد المطلق. ولهذا حقيقة نحن مطالبين بشكل جماعي أن نعيد الاعتبار للثقافة في هذه اللاثقافة والتي من خطورتها أنها تزايد على الثقافة في بعض الأسئلة.

بيوس ديالو

هناك فرق بين نقل المعرفة ولعب دور المثقف. أشخاص كالمدرس أو الأستاذ الجامعي ينقلون المعرفة ويقربونها للناس. فقط فهل بنقلهم هذه المعرفة يقومون بتمرير أيديولوجيا معينة يلتزمون بها ؟ بالتأكيد لا ؛ فالأمران مختلفان تماما. والسؤال هنا هو كالآتي : هل المثقف مطالب بالالتزام اتجاه قضية معينة ؟ شخصيا لا إجابة لدي على هذا السؤال حاليا. وكما قالت الأستاذة انتصار، كلما جاء المثقف بكتابات وأفكار فريدة ومستنيرة بات محط أنظار الجميع ؛ الكل ينتظر منه الدعم والتوجيه والدفع.

هذا يقع كثيرا حتى مع الصحافيين كما قال الأستاذ ياسين عدنان. تجد الصحافي المشتغل بمؤسسة إعلامية مهمة يتلقى مكالمات دون توقف وحتى في آخر اللحظات قبل طبع عدد اليوم ينوه أصحابها إلى الكثير من الأفكار والمعلومات والأحداث والقضايا التي يرون أنها تستحق الدراسة والتحليل وإبداء الرأي وطرح الحلول... وإذا استمعتَ لهم وتفاعلت معهم بتسرع فقد وقعت في خطأ.

من الجيد التأني في نشر أي خبر أو معلومة ؛ أن تتأخر بعض الشيء في النشر خير من أن تتسرع وتنشر معلومات عارية من الصحة. وإذا تكرر الأمر، يصبح مسارك المهني كصحافي مهدد بالفشل ولن تجد من يقرأ كتاباتك. لا بد أن يجد الصحافي والمثقف عموما نقطة التوازن بين الحالتين : أن يرفض الانخراط في أدوار ليست من أدوار المثقف في شيء وأن يبقى نفس الشخص المتصالح مع ذاته وقناعاته.

قالت الأستاذة لطيفة أن الجميع ينتظر صدور موقف المثقف من كل جديد. لكن عن أي مثقف نتحدث ؟ هل نتحدث عن مثقف السلطة أم المثقف القابع بالسجن ؟ عندما تكون هناك أزمات، يُرسل الصنف الأول ممثلا في الوزراء والمسؤولين... على اختلاف درجاتهم لدفاع عن موقف السلطة. يتكلم المثقف في كل هذه الأمور المهمة لكنه مطالب بالحياد التام، وهذا ما ينقص مثقفي السلطة. المثقف الحق يتراجع وينئ بنفسه كلما أحس أن حياده ليس مضمونا وأن مصداقيته على المحك. فالمهم إذا عند المثقف هو سلامة الموقف وحياديته وحرية الفكر التي تضمن له التصالح مع ذاته ولا يهم كثيرا الوقت المستثمر في ذلك.

ادريس اكسيكس

أريد مناقشة أربعة نقاط تمت الإشارة إليها. أولا، أسطر على كلمة التواضع عند المثقف ؛ وأنا أعتبر توفر هذه الخصلة في المثقف أمرا بالغ الأهمية، فليس من المعقول تبني خطابات مزدوجة ومتناقضة تطالب من جهة بالديمقراطية في المجتمع والدولة وتهادن وتتقبل سيطرة المؤسسة الدينية على مفاصل الدولة من جهة أخرى. لا يمكننا العمل بالاثنين. إذا كانا نريد الديمقراطية حقا، فسيكون علينا تبني فكر سقراطي بالدرجة الأولى، أي أن المعرفة عند الجميع بشكل أو بآخر. والتحدي في حال صرنا في هذا الاتجاه هو العمل على إبراز هذه المعارف واستخلاصها من أهلها عبر الإنصات بالدرجة الأولى. أنا لا أتفق مع سارتر الذي يرى أن المثقف يسيطر على المعرفة ويملكها، وأجدني أقرب إلى موقف ميشيل دو سيرتو الذي قال بخصوص مسألة التواضع أن كل ما يلزم المثقف هو أن يتعلم كيف ينصت للأصوات الهامسة في مجتمعه قبل أن يجد لنفسه الموقع المثالي للحديث وتوضيح الأمور من منطلق قوة وعلى أساس متين أصله الإنصات لنبض الشارع. وعليه فتواضع المثقف ونزوله من برجه العاجي أمر مهم جدا، لأن التواصل الأفقي مع الناس هو الأساس في فهم وتحليل المجتمع ؛ ولنا في شبكات التواصل الاجتماعي مثل فيسبوك خير مثال.

ناقش كاتب فرنسي لا أتفق معه في الكثير من آرائه ما أسماه «القبلية الجديدة» على مستوى وسائل التواصل الاجتماعي ؛ حيث يبحث الأفراد عن من يشاركونهم نفس الأفكار ولا يسعون إلى معرفة أناس بأفكار نقدية مختلفة. هذا البحث عن المماثل والنفور من المختلف لا يحفز فينا الفكر النقدي الذي لا يتولد إلا بتصادم الأفكار والإنصات إلى الفكرة المناقضة.

المسألة الثانية هي مصطلح «مثقف» الذي يشير في سياق اللغة العربية إلى الفرد المتعلم والعارف. أن يوصف شخص بالمثقف فهذا لا يجعل منه فاعلا مجتمعيا بالطبيعة.

من الأفكار الشائعة حول المثقف أنه فيض من المعرفة والثقافة يعلم الجميع في كل الأوقات. ما يهم في الحقيقة ليس كمية المعارف ولكن نوعيتها. قد أنصت لكلام عميق ذو معاني من شيخ حكيم أو مغني راب ولا أنصت لما يقوله أهل الجامعة من أفكار عقيمة. ولهذا فالعلم والوعي يقعان عندي على طرفي نقيض لأن تحقق العلم لا يعني بالضرورة تحقق الوعي.

المسألة الثالثة تتعلق بدور المثقف. كان من الأجدر أن يطرح السؤال بوضوح أكبر كأن يقال «ما هو دور المثقف في الإصلاح والتغيير؟». واضح جدا أننا نعاني أزمة على مستوى التمثيلية : لدينا مشكل على مستوى مؤسسات الوساطة المجتمعية كالأحزاب والرأي العام عندنا سهل التوجيه ولا يطبعه الفكر النقدي.

في مغرب اليوم، لدينا ثمانية ملايين مستعمل للفيسبكوك وستة عشر مليون شخص متصلين بالنت. هذه الأرقام تحتاج الدراسة والفهم على مستوى سياسات الاتصال والتواصل.

فمند سنوات قليلة كنا لا نبيع سوى ثلاث مائة ألف جريدة يوميا وبالكاد نصل إلى مليوني مشاهد للقنوات الوطنية ؛ أما اليوم فنحن نتكلم عن ملايين من المغاربة يتواصلون ويتفاعلون على شبكات التواصل الاجتماعي. التفسير المنطقي الذي أراه ممكن هو فشل مؤسسات الوساطة ببلادنا في خلق تواصل مجتمعي مثمر يكون فيه للإنصات دور مهم. أفراد المجتمع يبحثون عن بدائل جديدة، والخطير هو أن لا أحد يعرف حصيلة نتائج تواصل هؤلاء وتفاعلهم خارج مؤسسات الوساطة المجتمعية التقليدية، ولنا في ما وقع سنة 2011 خير مثال، حيث أن فهم هذا الواقع الجديد لن يتم على الوجه المطلوب إذا لم نسائل مؤسسات مجتمعية عديدة أهمها المدرسة والإعلام.

أي دور سيلعبه المثقف والإعلام لا يفتح المجال أمام كل الآراء للتعبير عن نفسها بحرية ؟

إعلامنا فاشل في هذا الباب ونحن من ساهم في إفشاله بإفراغنا العمل الصحافي من قيمته المجتمعية.

في الحقيقة هذا واقع تعرفه كل دول العالم بدرجات مختلفة، لكننا هنا تفوقنا على الجميع.

فهل نحن أناس حالمون يرون أن التعبير عن الرأي الشخصي وآراء الآخرين أمر سهل لا مجاهدة ومكابدة فيه ؟ أبدا، لسنا كذلك. الواقع بتجاذباته وتناقضاته لا يسمح بمثل هذه الأفكار الطوباوية.

المسألة الرابعة فتتعلق بالآثار السلبية لكل ما سبق ذكره. الاختلالات التي ذكرتها على المستوى المفاهيمي والمؤسساتي تنتج لنا فئة أسميها المثقفون الدكتاتوريون. هذا النوع من المثقفين عالم بكل شيء، وهو نتاج خالص لوسائل الإعلام التي تبحث دائما عن أشخاص مسموح لهم بالكلام دون غيرهم أو أشخاص يغلب عليهم الفكر السطحي. من هذا المنطلق، أرى ضرورة مقاربة هذه المسألة بكثير من الحيطة والحضر.

ولقد ترسخت في أذهاننا أسطورة تقول بإمكانية توجيه الجماهير بخطاب جماعي. الميدان الذي لي معرفة به أكثر من غيره هو المسرح ؛ وقد قال «برتوليت بريخت» أن الكاتب المسرحي لا ينتج نص رائع نية التأثير في الجماهير. الصحيح كما أشار إلى ذلك الأستاذ ياسين عدنان هو أن يستهدف الكاتب كل فرد على حدة بدعوته إلى زيارته والتعرف عليه بين الصفحات لأن التلقي يكون فرديا فقط لا جماعيا.

بوعزة بنعاشر

لقد أتاحت لنا هذه المائدة المستديرة فرصة تبادل جملة من الأفكار بالغة الأهمية ؛ لقد احتفلنا خير احتفال بالفكر الحر والجاد الذي يجمعنا ويدعون إلى الانفتاح واكتشاف ما وراء أفق النفس والعالم الخارجي على حد سواء. في الختام أشكر المتدخلين على إثراء النقاش والجمهور على حسن الإصغاء.

ورشة تكوين : محاضرة حكواتية،
رهانات الحكاية التقليدية في عصر الحداثة

رئيستا الجلسة : نجيمة طايطاي، مليكة حلباوي

فضاء : محمد عابد الجابري

التاريخ : يوم الأحد 24 شتنبر 2017

الساعة : 09 : 30 - 11 : 00

موجز مداخلات المائدة المستديرة

استضاف المسرح الكبير محمد السادس في وجدة، ورشة عمل حول الحكاية التقليدية، بإشراف نجيمة طايطاي التي كانت تشغل منصب وزيرة سابقة، إلى جانب الكاتبة مليكة حلباوي، المهتمة بشكل خاص إيجاد أفضل السبل لجمع ونقل الحكايات القديمة، بل وإحيائها وإعادة نشرها عبر قنوات حديثة.

وقد شددت نجيمة طايطاي في مستهل مداخلتها على ضرورة مواصلة حمل شعلة فن الحكاية، إضافة إلى تكريس التقنيات والممارسات وذلك للحيلولة دون اندثاره، إذ يتعلق الأمر في جانب أساسي بتراثنا غير المادي والذي يعد من أسس هوية كل فرد.

وأضافت السيدة طاي طاي أن الحكاية تشكل موضوع رهان يتصل بوجودها واستمرارها، وذلك بسبب تراجعها الملحوظ أمام التطور التكنولوجي والعولمة.

وقد أشارت في هذا الصدد أنه من الممكن تسخير التكنولوجيا الحديثة من أجل تلافي اندثارها وذلك عن طريق نسخ ونقل الحكاية عبر وسائل التواصل الاجتماعي، أو عبر تطبيق الواتساب مثلا. وبذلك يتم ضمان حضورها واستدامتها أمام المحتويات المعولمة، وبغية لفت انتباه الأطفال ولاسيما إلى مضامينها والدروس المهمة والمفيدة والجميلة والمسلية لعمرهم.

وقد أضافت السيدة طايطاي في حديثها عن كيف أنقذ هذا التراث الشفهي من الضياع، وذلك عن طريق عمل دؤوب من جمع وتجميع وتعبئة للمسنين وخاصة النساء المسنات، ولاسيما بالتعاون مع الأكاديميين والطلاب الذين نجحوا في أن يجعلوا من هذا التراث موضوعا للتفكير العلمي في الوقت المناسب.

كما أشارت الكاتبة مليكة حلباوي إلى أن الحكايات الشعبية هي ذاكرة الشعوب، وذلك بتنوع موضوعاتها ومساعيها، فضلا عن لغاتها واللهجات المستعملة. وينضاف إلى ذلك أن جميع هذه الحكايات والأساطير غنية بالاختلافات التي تكشف عن الخصوصيات الجهوية والمحلية، إذ تسمح الحكاية ،إذ لم نقل تنقل، من هذا المنطلق التنوع والاختلاف، كما تحافظ على الذاكرات المحلية والتي تشكل مجتمعة الذاكرة الوطنية.

وقد شهدت هذه المائدة المستديرة مشاركة جملة من المثقفين الذين شددوا على ضرورة الحفاظ على التراث الثقافي المتعلق بالحكاية الشعبية، ذلك الإنتاج الثقافي المهدد بالانقراض.

نجيمة طايطاي

أنا جد مسرورة بوجود مليكة إلى جانبي. إذ يتيح لي هذا اللقاء فرصة معرفتها عن قرب إضافة إلى رؤية بعض الوجوه الصديقة الحاضرة هنا. أود أن أحيي قبل كل شيء أولائك الذين خطرت ببالهم فكرة إنشاء معرض مغاربي للكتاب في عاصمة جهة الشرق، أي في الحدود بين المغرب والجزائر. إن لهذا المعرض لا محالة مستقبل زاهر. فكل شيء يمر على أحسن ما يرام بالنسبة للدورة الأولى : إذا فهنيئا للمنظمين.

لقد كنت أظن في بداية الأمر أن مشاركتي تقتصر على ضرورة تحسيس المعلمين، إلا أنه طلب مني الحديث عن مواضيع أرحب، والمتعلقة برهانات الحكاية بين التقاليد والآفاق، إلى جانب الحديث عن تجربتي منذ سنة 1992، بل منذ سنة 1984 وهي السنة التي غادرت فيها المغرب لمتابعة دراستي المتعلقة أصلا بالحكاية، والحكاية الشعبية والحكاية التقليدية. وقد لاحظت بعد عودتي إلى المغرب، الاستخدامات التقليدية للحكاية : الحكاية في السهرة المغربية، فهناك حكايات شبابية للسهرة بين الشباب، حكايات لسهرات الكبار، بعد صلاة المغرب وقبيل صلاة العشاء. وهناك حكايات يرويها الرجال فيما بينهم، وحكايات في المنازل، وما إلى ذلك.

هل تدركون كم كانت المرأة حافظة للذاكرة : لقد ساهمت المرأة كثيرا في حفظ التراث وخاصة الذاكرة الشفهية، مع الجدة والخالة... ويتوقف ذلك بطبيعة الحال على المجتمعات والأماكن، سواء في الأرياف أو في المدن... فقد عرفت الحكاية تراجعا في الانتشار، ويعزى ذلك لعدة أسباب، ونذكر أهمهما. من جهة، التفكك الأسري حيث لم يعد هناك تجمع عائلي تحت سقف واحد : إذ لم يعد هنالك بيت العائلة يعيش الآباء مع الأقارب من الأعمام والعمات. فاستبدلت المنزل الكبير بالشقة، أي البيت الصغير حيث يسكن الأب والأم رفقة أبنائهم. فقد تولد عن التفكك الأسري ظهور عائلات مصغرة اختفت معها السهرات التقليدية المغربية. فقد أصبح للأجداد والشيوخ الآخرين مكان آخر، إما في منزل منفصل، في دور رعاية المسنين أو يعيشون بمفردهم، بالتالي يزداد الأمر صعوبة في تداول الحكايات داخل الأسرة. ومن جهة أخرى، تغير أنظمة الحياة والتسلية مع قدوم وسائل من قبيل التلفاز وأشرطة الفيديو والقرص المدمج وجهاز الدي في دي، وألعاب الفيديو والإنترنيت.

فلم يعد يتواصل أفراد العائلة نفسها كما قبل، وذلك لأنه أصبح كل فرد يحمل هاتفه بين يديه. فقد انقعطت حبال التواصل بينما كانت الحكاية بمثابة وسيلة تواصل مهمة بين العائلة. فبفضل الحكاية كان يتواصل الأفراد فيما بينهم، يتجاذبون أطراف الحديث ويتبادلون الحوار. وأبعد من الجانب الأخلاقي فإن الحوار مهم. إذ لم يعد هناك حوار داخل البيت، وبين الأجيال. أصبحنا نعيش في صمت، وفي عالم افتراضي لاسيما عالم الألعاب، وهنا تكمن صعوبة الكبرى للتوارث داخل الأسرة المصغرة.

لم تعد مهن كالحلايقي والحكواتي والمغني والراقص ونافث اللهب... تؤمن القوت اليومي. إذ أصبحت مهنا مهمشة، ولم تعد بالقيمة ذاتها.

فالمكان الوحيد الذي ينبض بالحكايات ونعرفه جميعا هو جامع الفنا بمراكش، ولكن يوجد كذلك باب سيدي عبد الوهاب بوجدة، وباب بوجلود بفاس، وساحات بتزنيت، وفي الأسواق، إلخ. بيد أن عدد الحكواتيين الذين يروون قصصا في الأسواق وفي الساحات الكبرى أصبح يتضاءل شيئا فشيئا. بالتالي فهناك أيضا صعوبة كبيرة في التوارث مرتبطة بندرة مهنة الحكواتي.

وهناك سبب شخصي يتعلق بالأحكام السلبية التي حملها جيلنا ضد كل ما هو تقليدي، وخاصة ما هو شعبي. فباسم الحداثة، حاربنا هذه التقاليد، معتقدين أنها المسؤولة عن وضع مجتمعنا. فكانت النتيجة هي تدمير قناة الإرسال، أتحدث كثيرا عن الإرسال أو التوارث لأنه أمر أساسي.

ولكن، ولحسن الحظ، أنه قد هبت رياح أزاحت الستار عن أخطاء التسعينات، فبفضل تضافر جهود الأكاديميين، والباحثين والجمعويين، الذي رسموا هدف رد الاعتبار لهذه الممارسة للحكاية والتقليد الشفهي (أو التراث الشفهي كما يسمى اليوم). لقد كانت هناك مهرجانات ومخرجون ومنتجون قدموا هذا النوع في الشاشات بنجاح. فمنذ سنة 1990 بباريس، لقد حضرت تدريبا، وقمت بتدريب المدربين، والتعليم ذي الأولوية في تولون ومرسيليا وباريس. لقد تدخلت أيضا في مدارس لصالح الأطفال في وضعية صعبة، وفي المستشفيات، وقمت بتدريب للمنشطين والحكواتيين وأمناء المكتبات... ولكن عندما عدت إلى المغرب سنة 1991، اكتشفت أن الوضع لا يطاق : لا يمكن أن تبقى الحكاية في مرقدها. إذ يجب أن تكون رافعة للازدهار البشري، ومعززة للتنمية المستدامة في المجتمع. وأنا على ما أقوله شاهدة : صحيح أنني أكملت دراستي في جامعة السوربون، جامعة أكاديمية معروفة على الصعيد العالمي، ولكن جامعتي الأولى، وعميدة جامعتي الشعبية، كانت جدتي، والتي وهبتني الكثير وعلمتني الكثير. لقد كانت جدة عالمة، رغم أنها كانت تجهل القراءة والكتابة. رغم ذلك، علمتني التسامح أولا، وكيفية الاستماع وليس السمع فقط. أرى أولئك الذين يستمعون إلي ولكن قلة هم من يسمعونني، وهذا أساسي. الاستماع يجبر على أن تسمع، فالاستماع يختلف عن السمع. لقد تعلمت فن الاستماع داخل الجامعة الشعبية التي تديرها جدتي وسط عائلتي. لقد اكتسبت قيما، ألا أكذب، وأن أكون طفلة جميلة، كما قد شاهدت استعدادات الفتيات للزواج، وذلك بفضل حكايات كانت تروي هذه الحكايات. وكانت هناك قصص الحيوانات وقصص أخرى، فلم يتوقف الأمر عند هذا الحد، إذ كان الجميع يعلم أنواع الحكايات الموجودة، ولكن هذه الجدة التي لم تذهب قط إلى المدرسة، والتي قد حفظت القرآن (ستون حزبا)، وسنة الرسول، والتي كانت تعرف أسماء الطيور في السماء، وأسماء النباتات في الأرض، قد كانت عالمة، ولكن للأسف دون أن تعرف القراءة والكتابة، قدمت لي الكثير. وقد أقنعتني هذه التربية أن الحكاية لا يمكن لها أن تبقى حبيسة غرفة، أو حتى داخل أسرة، وذلك لأن مكانها الطبيعي هو المدرسة : يجب أن تصل إلى المدرسة. إذا في سنة 1992، أنشأت رفقة العديد من الزملاء وحدة بحث حول الشفهية، حيث كان هناك أيضا باحثون أجانب لاسيما من المشرق (مصر).

كيف سنكون هذه الوحدة ؟ إنها خدمة نقدمها للجيل القادم. لقد كانت هناك ثورة، ولكوني امرأة لا تحب القواعد فقد قمت بالثورة. وكان أول ما قمت به، كسر البرج العاجي للباحثين المغاربة. أين كانوا في التسعينات ؟ كان الباحثون يمشون ذهابا وإيابا داخل برجهم العاجي، مراقبين من بعيد المعلمين والمعلمات في المدارس.

لقد رفضت كل ذلك : فكسرت هذا البرج العاجي واتجهت نحو المجتمع، ونحو المدارس، والمراكز، ودور الرعاية، إلخ. لقد أجهدني ذلك إذ استدعى الأمر مواجهة الكثير من المصاعب، الكثير من الحماس، ولم يفهمني أحد. كما أنني تعرضت للوم من بعض الزملاء وذلك لإدخال الحكاية إلى الجامعة.

لذلك استخدمت حيلة لتدريس الحكاية في الجامعة، أولاً من خلال توجيه بحوث تخرج الطلاب، في حين لم أعد أدرس السيميائيات. لقد تطلب الأمر أن أقوم بجمع النصوص في الجهات والتي من المفترض أن أحللها شكليا أو سيميائيا، ولكن ما كان يهمني، هو التواصل مع الآخرين، الحفاظ على الذاكرة، وإعطاء فرصة التعبير للجيل المحكوم عليه بالصمت... وبفضل هذا البرنامج، تمكنا من زيارة المنازل والبيوت وجمع النصوص. نملك حاليا، ما يزيد عن سبعة آلاف حكاية، من جنوب المغرب إلى شماله، ومئات آلاف الأمثال أيضا، والتقاليد الشفهية، إلخ. وهذا من الجانب الأكاديمي. وقمنا بعد ذلك بدفع الطلبة الذين لم يدرسوا الشفهية والحكاية في الجامعة : على الأقل، كانوا يمتلكون قدرا من الشجاعة للذهاب وجمع الحكايات من عند جداتهم وأمهاتهم. وفي واقع الحال، لقد شكلنا موضوع بحث ودراسة : وكان ذلك إيجابيا جدا. وراودني شعور القيام بثورة أخرى : طرق باب المدارس. وفي سنة 1993، وضعنا برنامجا سمي «بسبق الحكاية». لقد كان شبيها بعمل الصائغ، ذلك الشخص الذي يشتغل بدقة على المجوهرات لإضفاء الجمالية عليها : وبالتالي ينبغي على الأطفال داخل القسم، تشكيل وصنع جوهرة من حكايتهم، حكايتهم الخاصة، حكاية الألفية الثالثة، وليس قصة ذات الرداء : بل حكاية مختلفة.

وسوف يستمعون إلى حكايات قديم الزمان، ولكن عليهم أن يصنعوا حكايتهم الخاصة، واختيار مواضيعهم الساحرة. فقد تكون أحيانا مكنسة كهربائية كما يمكن أن يكون حاسوبيا... لقد كان هناك داعم أقدم له كل الامتنان كما أريد أن أشيد بالمعهد الفرنسي بأكادير، والممثل هنا اليوم، وأنا جد مسرورة بذلك. حيث كانت أبواب المدارس العمومية مقفلة في وجهنا فيما مضى : لقد قوبلت برفض تام من مندوب التربية الوطنية للتدخل لفائدة المدارس. ولم يكن ذلك هينا إذ لم يؤخذ كلامي على محمل الجد، وكانت سنة 1994 سنة انفراج. فقد كان السيد رشيد بلمختار وزيرا للتربية الوطنية آنذاك. وكنت أستاذة جامعية في ضواحي مدينة أكادير، إذ كنت غريبة عن نخبة الرباط والدار البيضاء، فتشجعت على الكتابة.

فتبنى فورا هذا البرنامج التربوي، ونال إعجابه وكان داعما جدا له. ثم أعطى تعليماته بالعمل داخل المؤسسات العمومية فتدخلت هناك، وأيضا في دور الأيتام، من قبيل منظمة القرى أو أرض الإنسان، وداخل دور الرعاية إذ كنت أحث الجدات على أخذ الكلمة. خذوا الكلمة واحكوا لنا. إنني سعيدة بالحديث اليوم لأنني كنت شغوفة بذلك. إنه لمن الصعب تصور كيفية تغيير شخص صامت إلى شخص يتكلم ويحكي، ويهدم جدار الصمت والماضي، لأنه لا يريد استرجاع ذكريات ماضيه، من الابن الذي أودعها في دور الرعاية إلى البنت الناكرة للجميل...

وبفضل الحكاية، تذكرت جدتها وعمتها، وقريتها وأمها التي توفيت. فقد أعدنا إليها الذاكرة، ذاكرة أسلافها... ففي كل مساء أيام الأربعاء والسبت، كنا نأخذهم إلى المدارس للقيام بمداخلات للمشاركة، ويتعلق ذلك بالمرحلة الأولى من البرنامج : إلقاء الحكاية على مسامع الأطفال. ويجب أولا الاستماع، ثم البحث عن حكايات أخرى، وسؤال الوالدين أو الاتصال بالجدة التي تبعد بـ 600 كيلومتر، إلخ.

إذ يغير ذلك الروابط بين الأجيال. ثم بعد ذلك نطلب من التلاميذ كتابة حكايات جداتهم أو أمهاتهم أو حتى جاراتهم : إذ أصبحوا بذلك باحثين. فيأتون إلى المدرسة محملين بهذه الحكايات. وتأتي الجدات المقيمات في دور الرعاية أيام الأربعاء والسبت، وتروين حكايتهن ويأخذن مقابلا ماليا بفضل جمعية أولياء أمور التلاميذ. لقد استمعوا إلى «ذات الرداء الأحمر»، كما استمعوا إلى «عيشة الرمادة» إذ لا بد من التقارب بين ثقافات العالم وبين الثقافات المحلية، وذلك لأن هدفنا أيضا هو الافتخار بانتمائنا إلى جهة الشرق، لذلك كنا نبحث عن حكايات إما بالعربية أو بالأمازيغية.

فوصلنا إلى مرحلة التعبير الشفوي والتمكن. ينقسم التلاميذ إلى مجموعات، إذ لا يخص الإبداع تلميذا واحدا بل مجموعة من التلاميذ.

وبفضل هذا البرنامج، ساهمنا في الحد من الإخفاق المدرسي : لا يوجد تلميذ سيئ في تقديري، ولكن يمكن أن تكون هناك مشاكل نفسية، اجتماعية واقتصادية، إلخ. مما يرغم التلميذ على الانسحاب وعدم الحديث، إلخ.

لقد تعاملت مع تلميذ قال لي : «*أنا أريد أن أمنع تشغيل الخادمات، بما أن الخادمة تكون موجودة في البيت طوال الوقت بينما تكون الأم غائبة.*»، بالتالي وجب الانتقال إلى إبداع جماعي.

وفيما يخص المرحلة الثالثة : التعبير الكتابي، ننتقل للكتابة على السبورة. فالأساتذة أو المعلمون لا يتدخلون على مستوى الإبداع، ولكن فقط للتصحيح، والإملاء والتراكيب، إلخ. إذا فالعمل جماعي، فتأخذ «نحن» محل «الأنا»، وهنا تكمن القوة، وفي الاتحاد قوة، وبذلك فإن هذا الإبداع هو جوهرة صاغها مجموعة من الأطفال، بتوظيف شخصيات معينة. فمثلا، كتبت قصة لا يمكن تصورها. وتدور حول أطفال لأمهات يشتغلن في معامل تصبير السردين بأكادير.

وفي غالبية الأحيان هم أطفال لقطاء، أي بدون آباء، والأمهات هن نساء عازبات. وها هي ذي القصة المخترعة : تشتغل الأم كعاملة، وهي جميلة جدا، وكانت قد تزوجت من سعيد الذي كان يشتغل كصياد، بما أن الأحداث تدور في أكادير. وكانت مولوعة بالسمك والأحجار الكريمة. فأخذ سعيد قاربه ورحل دون عودة. يسألونه في المدرسة عن والده.

وبما أننا في الخيال، فإننا سوف نشغل مخيلتنا، يخرج الطفل من قوقعته، ينفتح ويسقط قناعه. فتنتهي الأم بالحديث مع سمكة وتقول لها السمكة : «*أرجوك، أفلتيني. عندي ابن بانتظاري، امنحني حريتي*» ؛ «*لا أستطيع ذلك، سوف يعاقبني رب العمل، سوف يطردني.*» وفي آخر المطاف، تحرر سمكة السردين، والتي سوف تعثر على سعيد، ذلك لأن الحكاية هي ببداية بنهاية سعيدة. وما بين البداية والنهاية، هناك دائما محنة. وبالتالي يجد والده في هذه المدينة، فتحل المكتبات ومحلات لبيع الألعاب والمطاعم محل المعامل... لقد هدموا معامل التصبير.

لقد وصلنا إلى مرحلة، مهمة أيضا، من التربية. فعندما ينشغل الأطفال بخلق حكايتهم، فهم يطلبون بعض المعلومات من آبائهم، ويقومون بالبحث، ثم التقسيم : سوف يأتون بكل ذلك. فمثلا، عندما أحكي عن فلسطين، فهم يبحثون عن العلم، وعن الرئيس وعن كل المعلومات. وما إن تشرف السنة الدراسية عن نهايتها حتى يقدمون موسوعة لمدير المدرسة، تحتوي على كل ما جمعوه من معلومات، وموجز ما قاموا به، والمدينة والتقاليد، إلخ. فبعد الانتهاء من كتابة هذه الحكاية الشفهية، تأتي مرحلة التحرير، وصناعة الكتاب. يذهب الأطفال إلى المكتبة، سوف يلمسون الكتاب، ويمتلكونه، ويقدمونه إهداء، إهداء الكتاب لقريب، إلخ. سوف يفهمون معنى الصفحة الأولى، والصفحة الرابعة حيث صورة جميع التلاميذ.

جميعهم، كتاب هذه القصة، والعنوان، والرسومات والصور... للأسف، لم أستطع إحضار إصدارات لقصص مكونة من مجموعة حكايات من صنع تلاميذ المدرسة الابتدائية. فمرحلة الإصدار مهمة لأنها تعني الرجوع إلى الكتاب.

وفيما يتعلق بالمرحلة الخامسة، فقد بدأنا بالاستماع وانتهينا بالحكي. سوف نعلم للتلميذ أن يقف أمام جمهور عريض، وبما أنه مؤلف القصة التي استوحاها من واقع حكايته، فإنه سوف يرويها، ويتخلص من قوقعته ويبوح بكل ما يخالج صدره، ويبعث بذلك رسائل للكبار وللمسؤولين. وتقييم البرنامج هو تعميقه للمعارف العامة، وتطويره للغة أيا كانت (إذ اشتغلنا أيضا مع أطفال ذوي نواقص في اللغة الانجليزية أو في الأمازيغية)، واكتساب حرية التعبير، واستكشاف الكتاب والثقافة، والحوار بين الأجيال، إلخ. وتلك حصيلة البرنامج. فمع برنامج «سبق الحكاية»، بدأ مهرجان «مغرب الحكايات»، حدث ثقافي عابر للحدود، والذي جعل من الحكايات التربوية موضوع حدث يجمع كل هذه الحكايات.

لقد توصلنا مع وزارة الثقافة إلى اتفاق بحصول هؤلاء الرواة على بطاقة فنان بصفتهم مؤلفين، وفي ذلك اعتراف بهم. لقد أصبح المهرجان موسما حيث نلتقي فيه بكل الرواة من هنا وهناك : تشارك مئات البلدان في هذا المهرجان. ويتم فيه تكوين الرواة. كما أن هناك جائزة مخصصة لأفضل قصاص في المدارس، وجائزة لأفضل قصاص تقليدي، وجائزة لأفضل جدة راوية قصص. وهذا المهرجان تحت رعاية صاحب الجلالة الملك محمد السادس.

مليكة حلباوي

أدعى مليكة حلباوي وأنا راوية قصص. ولدت بالمغرب وذهب والدي إلى فرنسا عندما كنت في الثانية والنصف من عمري. أعتقد أن الحكاية قد شدتني لأنني تلقيت بعضا من التقاليد الشفهية، وذلك مهم جدا. إنه لمن الرائع اختيار هذه المهنة، أو الاضطلاع بمهمة أن تكون قصاصا في عهد نجهل فيه معنى الحكاية. عمليا، فإن أفضل عرض للأشياء بالنسبة للفنان، هو شخصه وإنتاجاته. فالحكاية هي فن العلاقة بين الكلام، السمع، الاستماع، الأشياء المكتسبة وبين طعم العلاقة، العلاقة بين الذات والتي بطبيعة الحال سوف تظهر في العلاقة مع الآخر. فالتوارث بالنسبة لي هو جدتي. وهكذا تتوارث الأشياء :

«لقد تمشين في الأرض، ووضعن الماء في الآبار،
وسكبن الرمال في غربال الكثبان،
لقد فتلن الرمال في كسكس الولادات والوفيات،
وفي خصورهن ميل ما صنعته الأيام،
وطبعن على وجوههن ندوبا تمحيها الضحكات،
وعلقن نجوما في عيونهن الوحيدة،
ورسمن علامات وهبنها للرياح،
وحملن أشجارا لتلقيمها بالفواكه،
وقد ارتدين صبرا فساتين زفاف لا تنتهي أبدا،
وقد خضبن بالحناء يد اللمسات الخفيفة،
وأدخلن في القصبات نفس الحكايات،
وفي عبور الصمت، طيف حضورهن».

لقد عدت إلى هذه الجدات عن طريق ممارستي للحكاية. أحكي، وأكتب وأجمع. ولكن كيف ؟
إنه عن طريق فن الإصغاء وفن الصمت. لعل الموسيقي كما القصاص لا يشتغل إلا في حضور الصمت.
إن الذي يستمع يسمع، والذي يسمع يفهم، والذي يفهم يصبح كبيرا، إذا، فهنالك دائما طريقة لكي تكبر.
فعملي كراوية قصص هو التحيين. فقد قرأت قصصا كثيرة، مثلا كتاب «حكايات حكماء البربر». لقد قرأت كثيرا من الماضي، ثم كتبت بروايتي : وهذا هو التحيين، أو ربما التحديث. فهناك نفس التراث غير المادي للإنسانية، ومن خلال زخم ونفس التراث نكتسب وسائل، والتي هي العبارة والكلمة. فهي كل شيء بل التراث في حد ذاته. فجداتي هنا، والنفس هنا كذلك، ولكن الكلمات تتغير. لقد ترعرت في فرنسا، وأنا عاشقة للغة الفرنسية، وهكذا أيضا.

هذه قصتي وأتحملها، وأعرف أنهما حاضرتين هنا، فاستمرارية وتوارث الذاكرة نعمة كبيرة. سوف أستشهد بحكاية توضح كيف أن حكايات الأمس شبيهة بحكايات اليوم، وذلك ببساطة لأن الحكواتية حاضرة معنا، وترتدي نفس الثياب المتداولة اليوم. ولماذا اليوم ؟ لأننا سوف نحكي كل شيء الآن.
فعندما نحكي للأطفال، هناك الأمثال التي تجذب الانتباه، وهناك الأحجيات التي تستدعي الاستماع، وهنا حكاية تدعو للتفكير والتأمل، وتعطي للكلمة والحوار كل الطعم، إنها حكاية جمعت في المغرب «كان يا ما كان في قديم الزمان» مولاي سليمان، سلطان عظيم. ويقال أن أمره مستجاب. يخدمه الجان، لقد كان سلطانا عظيما. وكانت لديه زوجات. ولكن له واحدة مفضلة. كيف يمكن وصف هذه الزوجة المفضلة ؟ لديها إطلالة مختلفة، وشفاه مرصعة، ونظرة مخملية. في الصباح، عندما تكون هذه المفضلة في غرفتها، غرفتها الشاسعة، تفتح خزانتها وتنادي مولاي سليمان... فيأتي. تقطب جبينها وتقول له : «*إنه فصل الشتاء ولا أملك معطفا*.» فالأمر سهل بالنسبة له، لديه خاتم، يحركه فيحضر الجان. يأمرهم مولاي سليمان قائلا : «*اذهبوا إلى حدود الصين، و اجلبوا لي أنعم وأجود أنواع الحرير*». بهذه البساطة.
في القصر، يتم قص وخياطة وصناعة معطف حرير لامرأته المفضلة، وعند الفجر، عندما ترتدي المعطف، تتنهد : «*مولاي سليمان سوف أموت بردا في هذا المعطف الحريري*.» فيحرك مولاي سليمان خاتمه، ثم يحضر الجان، ويخبرهم : «*اذهبوا واحضروا لي الباشمينا، الصوف الناعم للكاشمير*.» فتعاد حياكة المعطف. وعندما ترتدي المفضلة المعطف، تتنهد وتقول لمولاي سليمان : «*سوف أموت من الحر في هذا المعطف*.»
وهنا، مولاي سليمان، وبجبروته، لم يجد باليد حيلة. نظرت زوجته من فوق كتفها، فلمحت شجرة في الحديقة، وفوق تلك الشجرة، هناك فواكه ملونة. إلا أنها ليست بفواكه بل عصافير. فقالت لمولاي سليمان : «*ريش العصافير خفيفة، وتحفظ الحرارة. أريد معطفا مصنوعا من ريش كل تلك العصافير*.» ففكر مولاي سليمان في تلك العصافير وفصل الشتاء... ولكنه عندما رأى نظرة مفضلته المنكسرة، نادى العقاب مبعوثه وقال له : «*سوف تبحث عن كل طيور البلاد، أريدهم أن يحضروا عند الظهيرة*.» أمر فكان أمره مفعولا، حضر العصافير. فأخذ في النظر والمشاهدة والاستماع، بيد أن البومة لم تأت. فأمر مولاي سليمان العقاب بالبحث عن البومة. «*لا أعرف مكانها، ولكن سوف أحاول جاهدا البحث عنها*.» وهكذا أتى العقاب بمعية البومة. فسأل مولاي سليمان الطائر : «*ألم تسمع ندائي ؟ أين كنت ؟*» «*مولاي، مولاي، أعف عني، أعف عني، لقد كنت مشغولا، مشغولا، بالحساب، الحساب*.» «*حقا ؟ لقد كنت مشغولا بالحساب ؟ ولكن بحساب ماذا ؟*» «*مولاي، مولاي، كنت أحسب، أحسب كم عدد الأيام مقابل عدد الليالي، كم عدد الموتى مقابل عدد الأحياء، وكم عدد الرجال مقابل عدد النساء*.» فابتسم فخامته :«*أرغب في معرفة ومشاركة ثمرة حساباتك المستفادة مع هذه الجمعية*.» فتحت البومة أجنحتها، واقتربت من السلطان : «*مولاي، مولاي، يا مولاي، أحسب في هذه الحياة عدد الأيام أكثر من عدد الليالي*.» «*أحقا ذلك*»، أردف السلطان قائلا : «*أليس هناك نهار في مقابل الليل ؟*» «*مولاي، لا يعتد بليالي البدر المكتمل التي تجعل من الليل شبيها بالنهار*.» «*فعلا، أعترف لك بذلك*». يقول فخامته : «*وماذا عن الأموات أليسوا بعدد الأحياء، مع العلم أنه منذ أن وجدت الأرض، دفن فيها رجال ونساء ؟*». «*أحسب الأحياء أكثر من الأموات، مولاي، مولاي يا مولاي*.» «*فالميت الذي يبقى حيا في القلوب هل نحسبه في عداد الموتى ؟ والرجال والنساء ؟ أجبني !*»
وهنا، فتح الطائر أجنحته، وسمح لنفسه بالجلوس على كتف السلطان. وهمس في أذنه خشية أن يسمعه باقي الحاضرين : «*مولاي، أحسب النساء أكثر من الرجال على هذه الأرض*.» «حقا ! ما الذي يجعلك تتفوه بذلك ؟» «*مولاي، إن الذي يخضع بغير هدى لنزوات امرأة، هل يمكن إدراجه أيضا في خانة الرجال ؟*»

تحتوي هذه القصة على أسئلة، وأجوبة وألغاز : وهذا هو جوهر الحكاية الذي يوقظ الفضول. هناك مستويات عديدة من الحكايات الساحرة، ولكنها أيضا حكاية علاقة، وأحجية، وحكاية تأمل كذلك.

هناك امرأة في القصة، بيد أن النساء لسن كذلك في الواقع. فمثلا هذه روايتي، وذلك لأني جمعت عدة أسئلة لم تكن موجودة في الحكاية نفسها. وهكذا، فالتوجه إلى جمهور اليوم بالصيغة القديمة، فإن المرأة سوف تطلب فورا فراشا من الريش. أريد أن أقول أن السلطان فهم مغزى الدرس وأفرج عن الطيور دون أن ينزع عنهم ريشة واحدة، ولكن الرواية القديمة كانت جد متصلة بالحياة اليومية. وبالتالي أججت مزاجية الملكة لنستطيع أن نفهم، وإلا سوف نعتقد فقط أنها قاسية.

هكذا أضفت لمستي الخاصة في التحديث. أردت أن أختم بعلاقة القصاص والشاعر. فالشاعر في هذه الحكايات، عليه أن يطور، ويشتغل، ويحاول التعبير عن هذا النفس الذي ذكرته من قبل. وبصفتي راوية قصص وشاعرة، سوف أبحث أيضا عن قصص من التراث غير المادي، الذي نود رد الاعتبار له. بالتالي سوف أبحث عن حكايات صغيرة، كعالم الآثار الذي يجد أثرا صغيرا لشيء ما ثم يقوم بترميمه بدقة، ليحصل على معلومات، ويحدد الحقبة، والمكان وكل شيء. وهنا عندما طلب مني أن أكتب حكايات الحكماء البربر، فقد ذهبت أيضا لطلب المساعدة من أصدقائنا الطوارق في الجزائر. لقد رأيت أنهم يملكون آلة مصنفة ضمن التراث العالمي غير المادي للإنسانية : إنه «إمزاد»، كمان بوتر واحد. إنه الكمان الذي تعزف عليه النساء، ولذلك ليست هناك حكاية حول هذا الكمان.

كانت هناك ثلاثة أسطر، ومن خلال هذه الأسطر، اشتغلت مطولا لخلق قصة. وذلك لأخبركم كم ينجح ذلك : منذ أن نشرت القصة، طلب مني قصاصان ما إذا كان من الممكن أن يحكوا القصة. وبهذه الطريقة نضخ الحياة في الحكاية، وهكذا دواليك. وهذا هو التوارث والشغف وفن العلاقة. فلا نخترق جيدا إلا عندما نستوعب جيدا. فتفكر في الشخص الذي أمامك، وتوجه إليه الكلام فعلا، وتكون حاضرا فعلا، بالتالي فإنك لا تحتاج إلى تدخل : وهذا هو الإرسال. أردت أن أشارك معكم عمل الشاعرة وفي الآن نفسه باحثة وراوية قصص تقوم بتحديث تراثنا كما تعيد تدفق الحياة فيه ومواكبته تيار العالم.

وبما أنني أحب «الصلام»، تلك النسخة الحديثة للقصة لسرد الحكايات، فإنني كتبت «صلاما» وذلك لأنني أشتغل كثيرا مع الموسيقيين. وأريد أن أتشارك معكم ولادة «إمزاد».

«منذ متى وهم في مبارزة،
هؤلاء المحاربون الطوراق «التماشق»، والسيف في اليد،
في الليل كما في النهار، حرب دائمة ؟
وصدى تداخل سيوفهم يتردد من بعيد،
وصراخهم المدوي يبعد الغزلان،
وتهتز الكثبان من تألق صوتهم،
وتحلق العصافير في أعالي السماء بعيدا عن عشها،
يتحاربون من أجل بئر مستولى عليه منذ قديم الزمان.
ومنبع الخلاف لم يجف أبدا،
شفاههم بيضاء وجبينهم يتصبب عرقا،
يتغذون فقط على حماس التحدي،
وليس بعيدا عن ساحة المعركة الطويلة،
نساء يفقن جمالا قطيعا من الظبى،
مجوهرات تخشخش معلقة على خصورهم،
بشرتهن السمراء والمائلة للزرقة، وابتسامتهن المشرقة.
يهمهمون بكلمات في هذه الليلة المضطربة الكبيرة،
يتطلعن لموعد مع الحفلة والرقص.
يهمسن، ويسألن السماء المليئة بالنجوم :

كيف السبيل لإخماد هذا النزاع، وخرابه الشامل ؟
يتأملن في النار بنظراتهن المتواطئة،
يجلسن في دائرة، خلف الناس الذين تهزهم الرياح.
يهمسن، ويتنهدن، وفي نهاية المطاف يعرفن،
كيف يعدن للصمت موسيقاه عوض أن يرتدينها،
هذا هو، تقف النساء وموجة على الشفاه،
يخطن الجلد المدبوغ لماعز عجوز،
عودان ووتر وها هو ذا الكمان،
قوس ملتو، فينكشف إمزاد.
حركة أنثوية تنجلي معها الضغينة،
وتر واحد وآلاف النغمات الاختيارية،
تيار موسيقي يخفف من آلامهن،
وواحدة من بينهن، عجوز، قديمة،
والتي تحسب تجاعيدها المشاعر والأحزان بالآلاف،
تأخذ إمزاد وبمظهر واثق تتجه نحو الأعالي،
تجلس القرفصاء وبقوسها الجميل،
تداعب الوتر الوحيد للآلة،
فتردد النغمات الألحان المقدسة،
فيتسمر الرجلان، منبهران...»

وهكذا، يتوقف الرجلان عن القتال ويقرران مشاركة مياه البئر. ولا تزال هناك هذه القصة التي تحكي ولادة هذه الآلة، وأنها أوقفت المشاجرات. ولا تزال هناك أغنية : *«أنا أفضل صوت إمزاد على جميع الأصوات، والكمان الذي يستطيع الغناء. لا أحد يتفاجأ بأن لديه حبلًا واحدًا فقط : هل لديك أكثر من قلب للحب ؟»* إليكم عملي كقصاصة، وشاعرة ؛ هذا هو ما يمكننا القيام به بفضل ثلاثة أسطر صغيرة، استخراج قصص تغذي الخيال وتقدم لنا المعلومات كذلك. كان لا بد لي من إثبات ذلك. فأنا أؤمن بالمثالية وأتمنى أن أكون قد برهنت عن بعض الأحداث الجارية وأظهرت كيف أن الحكاية القديمة يمكن أن تصبح حديثة ؛ ولكم هو مهم أن نتغذى على كتابات جميلة.

عثماني جمال

أنا مولود بالجزائر، تم طردنا في سنة 1975، وكانت جدتي تحكي لي كثيرا، أريد أن أعرف هل إذا كتبت سيرتي الذاتية سيفهمها شباب هذا الجيل...

نجيمة طايطاي

القوة ليست ما اكتسبته من جدتك وما روته لك من حكايات ومن التراث والمعلومات ومن الهوية، فأنت لديك انتماء، وأنا أيضا كنت من ضحايا الطرد أنا وعائلتي من الجزائر، والتي لا زال البعض منها هناك بوهران، والبعض الآخر انتقل للمغرب، ولكنه يبقى طرد جسدي أما على مستوى الذاكرة فلازال هناك رابط يجمعك أنت وجدتك التي ظلت بالجزائر، فأنت تحس بسعادة عندما تسترجع ذكرياتك. أنت تقولين إنها مهمة تخليد ذكرى. في الواقع، يجب علينا حفظ هذه الذاكرة، ولكن لجيل جديد، يجب أن نقدم (داكشي للي عطاتك حناك يامنة) في غلاف جديد وإرسالها عن طريق البريد الإلكتروني، الفيسبوك، الواتساب، الأقراص المدمجة، الخ.

فالغلاف جديد يمكن أن يجتذب الجيل الجديد، وفي الوقت نفسه، تنظيم المراجع : أولا أنا مغربية، رباطية وجدية، مغربية، مغاربية، إفريقية مسلمة ،أنا عربية، أنا إنسان. أهم شيء هو : كيف نضع ما جمعناه من هذه الذاكرة في خدمة التنمية ؟

إن أطفال اليوم يستهلكون عيد القديسين وعيد الحب، إلخ. فلا يمكننا أن نطلب منهم الانغلاق على أنفسهم. إذ من الجيد الانفتاح على الثقافات الأخرى، لتمتلكها أيضًا، لكن يجب علينا أن نطلب ثقافاتهم الخاصة، مثل مليكة، التي غادرت في سن الثانية، لكنها حافظت على انتمائها وهويتها من خلال جدتيها.

وهذا المحتوى الذي رتبته على شكل شعري وموسيقي، يثبت أن القصة لا تزال حية، كما هو الشأن مثلا بالنسبة لمسلسل حديدان أو فيلم كيد النسا أو والت ديزني الذي قام بعمل رائع، وما إلى ذلك.

نرغب في الحصول على وسيلة لوضع هذا التراث، هذه الثروة، على شكل أقراص مدمجة وأفلام ثلاثية الأبعاد... لم لا ؟ لا يجب أن نقلل من شأن هويتنا ؛ يجب أن تكون فخورا بينما تفتح نفسك للثقافات الأخرى : هذا هو نقل الثقافة، هذه هي المشاركة.

مداخلة

أظن انك تعملين على التراث الأدبي، من الأهداف بالنسبة إلي، هل أنت تتوجهين إلى فئة معينة أو شريحة معينة من المجتمع المغربي أم أنك تتوجهين بحكايتك إلى فئات أخرى من أطفال العالم، وما هي اللغة التي توظفينها بالأساس في البداية ؟ هل أنت تعملين على اللغتين أم تعملين على لغة واحدة، علما أن اللغة الأخرى والتي هي الفرنسية والتي نحبها جميعا وتعلمناها منذ البداية إلا أنه أصبحت الآن عصية على أطفالنا ؟ وهل لك إصدارات لهذه الحكايات للقراء الأطفال، وكيف يمكن أن تصلي هذه الإصدارات والحكايات إلى أطفال المدارس ؟ وأنا أرى أن السوق غارقة بكثرة القصص التي تحمل الكثير من الأخطاء اللغوية سواء بالعربية أو الفرنسية، معناه انه ألا يمكن أن توجد مجموعة من القصاصين المغاربة الذين يشتغلون على أدب الطفل، لإحداث شراكة مع وزارة التربية الوطنية من أجل أن تصلنا قصصهم وحكاياتهم على شرط أن تكون باللغتين العربية والفرنسية، كما كنا نحن نتقن اللغتين معا ولا عيب في هذا، أرجو ألا أثقل عليك بهذه الأسئلة.

مداخلة

سؤالي موجه إلى السيدة حلباوي. أود أن أعرف ما إذا كانت لديك منشورات بلهجات مغربية أخرى.

مليكة حلباوي

ليس بعد. فأنا ناطقة بالفرنسية، لكني أفهم الدارجة. وقد عملت كثيرًا على سبيل المثال مع موسيقيات يتكلمن لهجات القبايل. وأعمل أيضا مع موسيقيين ومغنيين يتكلمون اللغة العربية. فأنا أكتب أغاني تتم ترجمتها. وليس لدي طعم تعلم اللغات.

نجيمة طايطاي

أنا محظوظة لكوني ما أكونه بفضل السيدة الخالدي، مديرة المدرسة الثانوية عندما كنت في ثانوية الفتيات، قبل أكثر من خمسة وثلاثين عاما، ولذا فإنني أنحني احتراما لمعلمينا ومعلماتنا، الذين جعلوا منا ما نحن عليه اليوم وأشكرهم كثيرًا. يخاطب برنامج «سبق الحكاية» عدة مستويات، أي الأطفال والشباب والكبار، حيث نعمل مع الأطفال من الحضانة حتى المدرسة الثانوية، ثم مع طلاب الجامعة، وأخيرا مع الشيوخ، وخصوصا العجائز، في دور الرعاية، أو في مختلف المؤسسات، أو حتى في البيت، من أجل لقاء أولئك الذين يملكون هذا الفن، لأنه لا يمكن للجميع أن يكون حكواتيا : عليك امتلاك هذا الفن.

إلى جانب ذلك، يتذكر كل واحد منا هذا الشخص المعروف بفن الحكاية : إما عمة أو جدة. ما اللغة التي نستخدمها في الفصل ؟ قبل التدخل في الفصل، نقوم بإجراء بحث، وتحقيق مع المعلمين. وهناك استنتاج واحد : أي قسم يعاني أكثر ؟ هل هو قسم يجب أن يتعلم الفرنسية بشكل أفضل ؟ أو قسم يجب أن يتعلم اللغة العربية بشكل أفضل، أو ربما الإنجليزية ؟

الهدف هو تعلم أفضل واكتساب لغة حيث توجد فجوات. نحن لا نذهب إلى فصل حيث كل شيء على ما يرام. لذا، نسأل الطفل الموجود في منطقة قروية، إذا كان يريد أن يتحدث عن نفسه. سيقول «*أنا، بطلي هو (النملة أو النحلة)*»، لأنه لا يعرف كيف يقول النحلة بالفرنسية... وهذا يعطيه الحق في التعبير عن نفسه بلغته الأم والأطفال الآخرين معه، في الصف، سوف يساعدونه على قول الكلمة بالفرنسية. إذا لم يستطع أحد، يتدخل المعلم آنذاك.

يجب علينا فقط أن نجرؤ، ذلك لأن بعض الأطفال عندما يصلون إلى الصف، لا يجيدون التحدث باللغة العربية ولهذا نعطيهم الفرصة للتحدث بالدارجة أو الأمازيغية. بالطبع، لقد تم عمل إصدارات.

فعلى سبيل المثال، فإن رسالتي حول «الحقيقة والخيال في الحكاية الشعبية المغربية» هي دراسة نقدية. في المجلد 2، جمعت العديد من القصص الشرقية، عنوانها «في بلاد الغيلان والأهوال». وتحتوي أيضًا على حكايات رائعة وفلسفية، إلخ. لكن هذه الحكايات مسببة و تجيب على الأسئلة : لماذا البحر مالح ؟ لماذا الأرض مستديرة ؟ لماذا هذا وكيف، وما إلى ذلك، وأكثر من مائة وخمسين قصة. ونحن نعمل على منشور ولدينا شركاء متعددون ؛ وزارة التربية الوطنية أولًا : فبفضلها، تمكنا من التدخل في مئات من المدارس في المغرب، وبالتالي تابع الآلاف من الطلاب البرنامج.

صحيح أن هناك الجيد والسيئ في السوق ولكنني أرى دائماً نصف الكوب مملوءاً. عليك أن تذهب أولا وتقرأ هذا الكتاب، سواء كان جيدًا أو سيئًا، والأمر متروك لك بعدها كقارئ لتقرر بنفسك.

أعطيكم مثالا لمؤلفين مثلي. إنه يسعدني ويشرفني أن أكون مؤلفة، لكنني باحثة أيضا وأكاديمية ؛ لذلك، عندما يكتب مؤلف من هذا الطراز كتابًا للأطفال، ينزل من مستواه ويذهب إلى الطفل ليكتب، سوف يستعمل تعبيرات مثل : دادا، ميمي، نيني...

ولكن اليوم، ليس هذا ما يهم الأطفال وعندما تتاح لهم الفرصة لإنشاء قصصهم الخاصة، سيتحدثون عن السياسة، وسوف يتحدثون عن مشاكل الأمراض، وسوف يتحدثون عن الآثار السلبية للعلم، وما إلى ذلك. سنندهش من إبداعهم، وأخيراً نفهم أن رسائلهم، القوية جداً، موجهة إلى قادة البلاد.

رئيسة الجلسة : أمينة مديب
المشاركون : عبد القادر الرتناني، رشيد خالص
فضاء : إدمون عمران المالح
التاريخ : يوم الأحد 24 شتنبر 2017
الساعة : 09 : 30 - 11 : 00

موجز مداخلات المائدة المستديرة

مشاركة المغرب في المعارض الأدبية والفكرية الدولية هي جزء من استراتيجية دعم القطاع الثقافي، داخل المغرب وخارجه. وذلك بالمشاركة في المعارض الأجنبية، لتشجيع قطاع النشر والكتاب المغربي وتعزيز تمثيل الكتاب والثقافة المغربية على الساحة الدولية.

وشدد المتدخلون على أن مشاركة المغرب في الأحداث الثقافية الدولية الهامة تعتبر مبادرة جيدة تعطي صورة إيجابية أثناء الترويج للكتاب المغربي وبالتالي ضمان حضور فعال وبشكل أفضل بين القراء المحتملين أو غيرهم من الشركاء الأجانب المحتملين، لاسيما أولئك الذين لا يعرفون الإنتاج المغربي بعد.

لتحقيق هـذا الهـدف، يجب أن تعمل مجموعة من الناشرين والمؤلفين والمؤسسات المتخصصة في تطوير النشر المغربي معًا لتوفير إطار يمثلها في الخارج بالإضافة إلى الدعم والمساعدة اللازمين للكتاب والناشرين المغاربة لتسهيل مشاركتهم الفعالة والناجحة في المعارض الدولية.

وأضاف المشاركون أن الحضور المغربي في المعارض الدولية يختلف عن الحضور في الدول الأخرى خاصة من خلال العدد الكبير من الأعمال المعروضة.

أحد المعايير الرئيسية لنجاح هذه التدخلات، بالإضافة إلى لقاء المؤلفين مع قرائهم، هو أيضًا التقاء المؤلفين مع نظرائهم الأجانب وكذلك مع الناشرين الأجانب، وذلك بغرض إصدار ترجمتاهم وخوض غمار تجربة الإنتاجات المشتركة مع الناشرين المغاربة.

في الختام، أكد المتدخلون على أن المشاركة في المعارض الثقافية هي جزء من الرغبة في تعزيز علاقات التعاون الثقافي والتبادل الثقافي بين المغرب والدول المنظمة، وتوطيد الروابط بين كتّاب ومفكري الدول المختلفة، بالإضافة إلى إرادة دعم الكتاب المغربي وتوفره في المكتبات الأجنبية وكذلك عند قراء البلدان المعنية بهذه التظاهرات.

أمينة مديب

لقد تم اختيار المؤلفين القادمين من الدار البيضاء بناء على أهميتهم. وهم حاضرون بهذا الفضاء، كما أنهم مدعوون لعقد مؤتمرات بهذا المعرض. إلا أنهم رغم قدومهم يواجهون مشكلة الترجمة، مما يجعل العديد من العناوين تبدو مربكة لهم. غير أن المعرض غير رؤيتهم وهم الآن مهتمون بنا، للتأكد من تقديم نفس الكتاب باللغتين العربية والفرنسية، وغيرها. إذا، فهؤلاء المؤلفين حاضرين وسنقوم بدعوتهم إلى المغرب للقاء مترجمين... ومن أهداف معرض الكتاب هذا هو فتح الباب أمام تداول النصوص والأفكار. أتمنى أنه عندما ننتهي من هذا العمل في الدار البيضاء أن تتوفر لدينا الفرصة لمناقشة موضوعات أخرى مع مؤلفين، وبالتالي نسج علاقات وبناء روابط على المدى الطويل. أود أن أقول، بدون الخوض في التفاصيل، أنه خلال هذه الأيام القليلة التي شهدت تنظيم المعرض المغاربي للكتاب حدثت أشياء كثيرة غاية في الأهمية.

نأمل أن يتكرر الحدث، خاصة أنه يمثل رمزية مهمة. أنا أعتقد أننا أمام تحدي حقيقي : يقول البعض إن المغرب العربي ليس بموضوع ؛ أعتقد أنه على العكس، بل إنه موضوع كبير. سيصبح هذا المعرض معرضًا رائعًا للمغرب والمغرب العربي.

عبد القادر الرتناني

نحن نفهم أهمية وجود المغرب في المعارض. أعطي الكلمة لرشيد خالص، الذي هو محرر. وقد بدأ مسيرته على المستوى الدولي برفقتي في معرض مهم جداً، يتعلق الأمر بمعرض جنيف، وقد ظهر في الحقيقة متحمسا لذلك. أنا شخصياً، شاركت سنة 2015 في 15 معرض، و17 معرض سنة 2017. إنه حقا لغنى مستحقا، إذ مكنتني تلك اللقاءات من التعرف على العديد من الناشرين المغاربة.

رشيد خالص

في الحقيقة، أنا أمثل دار نشر صغيرة جدًا، والتي أنتجت عدة مؤلفات مهمة، في غضون سنتين، سواء من حيث الجودة أو من حيث المضمون، حيث أنها تحظى بثقة العديد من الكتاب الكبار. لم يسبق لنا أن نشرنا أي عمل من قبل. لهذا ليس لدي خبرة كبيرة في المعارض الدولية، ولكن بإمكاني تقديم ملاحظة قد تبدو ضرورية : الهدف من ذلك يتمثل في التحسين من جودة كتبنا المعروضة، الاستفادة من النصائح والأفكار المتداولة في هذا الفضاء وكذا من تجربة الكتاب ذوي الخبرة، خصوصا من التقينا بهم في المغرب، وبالضبط في معرض النشر والكتاب بالدار البيضاء.

من الواضح أنني سأبدأ بعنوان الحدث. إذا تمت إقامة معرض في هذه المنطقة، فهذا يدل على وجود طموح. غالبا ما تختصر هده المعارض الدولية، في الحقيقة بشكل سريع - وعلى نحو مطرد - في اجتماع للكتاب بعض الأحيان مع تواجد الكتب في متناول الزوار، ولكن دون أن يكون هناك أي تناسق. نأخذ على سبيل المثال المساحة المخصصة لمعرض الدار البيضاء للكتاب ؛ هي مثل شكل من الأسواق بكل بساطة.

من ناحية أخرى، يمكن لمعرض مثل معرض طنجة أن يسمى هذه التسمية بكل دقة. لقد فوجئت، كما تقول أمينة، بالديناميكية التي عرفتها مدينة وجدة بسبب هذا المعرض، لأنني أعتقد أن جميع العناصر كانت حاضرة ليكون- بعد تقييم أولي إيجابي - معرضا حقيقيا. يمكنه في الحقيقة أن يقارن بالمعارض الدولية، لأنه أولا يجسد فكرة تناسب الجغرافيا المواتية، في وجدة، غير البعيدة عن الحدود. بالنسبة لي، ما ينطوي عليه الأمر هو إعادة فتح هذه الحدود، لأن المؤلف يجب أن يكون قادراً على السفر في اتجاه أو آخر، من الجزائر إلى وجدة، أو من تونس، أو من السنغال على سبيل المثال، إلى المغرب وهكذا دواليك.

تتعلق ملاحظتي الثانية بالمضمون. في كثير من الأحيان، يمكن طرح السؤال : هل هو معرض للكتاب أو معرض الكاتب ؟ أنا أميل - لأنني مؤلف أيضًا - لأعتبر هذه المعارض بمثابة معرض للكتّاب وأتوقع، كمشارك، أن أرى المسؤولين يركزون على إنتاج الأفكار، والقراءة بشكل عام، ولكن أيضا تسليط الضوء على الكتّاب المدعوين، سواء كانوا أبناء الوطن أو أجانب.

التجربة التي عشتها على سبيل المثال في باريس، حيث كان المغرب ضيف شرف هذا العام، تركت لي انطباعا غير جيد. ذهبت إلى هناك من أجل إيجاد مغرب يزخر بالتنوع، والديناميكية، لأن هذا الأدب، هذا الفكر، في عشر سنوات على سبيل المثال، حقق دينامية ملحوظة. إذا لم يحقق البلد بعد تقدما ملحوظا، أظن أنه في خطى متسارعة نحو الانفتاح، التشارك والقيم الإنسانية. لكن بالرغم من ذلك، أحبطت بعض الشيء، لاسيما لأن الجميع كان ينتظر نجاح هذا الموعد الثقافي. أقول ذلك لأنني أعتقد أن معرضا مثل هذا يحتاج لتحضير قبلي من قبل فرق عمل وكذا اعتماد وسائل لوجستية كفيلة بإنجاح هذه العملية، ويقرر كل ذلك في اجتماعات ذات طابع رسمي.

نسمع رأي الخبراء، لكننا لا نطبق أي شيء على الإطلاق من ملاحظاتهم. أعطي مثالاً ملموسًا من أجل الخروج من هذه النظرة الشاملة : المغرب في باريس، كان بناية جميلة، ولكنها كانت أيضًا مكانًا ضيقًا، وغير مناسبة، حيث كنا الوحيدين في هذا الصالون حيث كنا الوحيدين الذين قرروا وضع الكتب وترتيبها فوق رفوف على ارتفاع مترين ونصف المتر. وحتى كتب أدب الشباب كان على بعد متر واحد وعشرة سنتيمترات، أي أن الطفل لن يستطيع رؤية الكتب ولمسها.

لذا من الواضح أن هذه الملاحظة ربما تكون تفصيلا، ولكنه تفصيل مهم لأنه يقرر ما يكتشفه القارئ من الكتاب، كما أن الاتصال المباشر أو غيره مع الكتاب يقرر ما إذا كان المرء سيشتريه أو لا. لقد قمت بجولة في هذا المعرض. ووجدت مجموعة فرنسية كبيرة في الخارج اختارت بكل بساطة ما هو وظيفي : طاولات تستطيع أن ترى فيها الكتب، وتلمسها، وتتصفحها، بكل سهولة. فعلى سبيل المثال، تجد كتبا على الطاولة، وتجد العديد من صناديق الأداء، بالطبع، وتجد الكتاب بجوارهم. هم قريبون من الممر، ويمكنك شراء كتابك، ودفع ثمنه، والحصول على توقيع، والانصراف. هناك عمل يجب القيام به في هذا المجال، وهذه الملاحظات هي ضرورية بالنسبة لنا. قبل المغادرة، لم يتم أخذ أي شيء بعين الاعتبار في الحوار الذي تبين أنه رسمي تمامًا. في رأيي، يهدف المعرض إلى تمرير النصائح والأفكار والأدب لاستخدام لغة وساطة.

إنه شكل من أشكال الدبلوماسية وهو أكثر فعالية، أو على الأقل يوازي الخطب الدبلوماسية أو السياسية، أو غيرها. للأسف، لم تتم تعبئة الكتاب المغاربة كما لم يتم تشجيعهم وتثمين أعمالهم بالشكل المطلوب ولم نستوعب لحد الآن أن معرضا كبيرا بهذا الشكل لا يمكن التقليل من شأن الكتاب فيه. إدارة هذه المعارض، إذا جاز التعبير – التابعة ربما للوزارة الوصية وبعض المنظمات - يجب أن تأخذ هذه الملاحظات التي تحقق النجاح بعين الاعتبار.

على سبيل المثال، فكرة نشر «كتالوج»، وتقديمه في هذا المعرض وغيره، سواء في جنيف، أو باريس أو غيرها، هو بالنسبة لي إجراء بالغ الأهمية. لقد وجدت أن نشر مثل هذه الوثيقة أمر ضروري، لأنه لا يوضح فقط توجهك، ولكنه يتحدث أيضًا عن أدبيات الجنوب هذه. في بعض الأحيان يكون الناس متحمسين لأنهم قاموا بقراءة بعض المعلومات على وثيقة ما، وما إلى ذلك. أود أن أطرح عدة أسئلة : ما قيمة تنظيم مثل هذه المعارض الدولية ؟ لماذا حضور هذه المعارض الدولية ؟ على المستوى المهني، يتم إجراء معرض ما بغية أن تكون هناك عقود، سواء أكانت نشرا مشتركا أو ترجمات، ومن جانب المبدعين والكتاب والمفكرين، ليبدؤوا مشاريع في اتجاه أو آخر. في كثير من الأحيان، لا نحصل على شيء على الإطلاق. هناك مبادرات، واتصالات لإبرام عقود بين المهنيين، ولكن سيكون من الضروري أيضا أن يكون لدى الإنسان، موقف متواضع لاستخلاص الدروس من كل تجربة، والقيام بتقييمات، والمضي قدما، وهذا يعني إنشاء الذي يتمثل ربما في النقد بغية التطور، بعيدا عن كل الحساسيات وغيرها.

أنا لست هنا لأنتقد فقط، لكن يجب ألا نعيد نفس الأخطاء التي نجدها في مجالات أخرى في مجال الثقافة، وذلك لأننا لم نختر الشخص المناسب، أو لأنه لم يكن هناك حوار، أو لأنه لا يتم تقييم المشاركة. إشراك البعض أو البعض الأخر أو تقييم الأوضاع هي مسؤولية كبيرة، وطالما لا يمكننا فعل ذلك، سيظل هذا البعد من المعارض الدولية محدودًا.

عبد القادر الرتناني

تطرق السيد رشيد لهذه الدبلوماسية التي ما انفكت تلعب دورا مهما في تثقيف الأجيال. بالنسبة لي، فقد خاب أملي بعض الشيء، خصوصا بعد حضوري لكافة أنشطة معرض باريس للكتاب، غير أنني أفضل عدم الإدلاء بتفاصيل أكثر تتعلق بذلك. فالمعارض تتنوع وتختلف وأهم شيء هو ألا يدير شؤونها ويقرر في أمورها شخص واحد، لأن القوة والرزانة تحتكمان لمجموعة عمل وليس لفرد واحد.

تستغرق التحضيرات الخاصة بمعرض معين عدة أيام، فهو لا يحضر في يوم أو شهر مثلا، لاسيما إذا تعلق الأمر بمعرض مهم وذات طابع دولي. إنها دورته 70، أتذكر أنني وجدت صعوبة كبيرة في البحث عن فندق، خصوصا عندما زرت باريس لأول مرة، علاوة على أنه غالبا ما ترتفع أثمنة الفنادق في تلك الفترة. ساعدني حينها صديقي الكندي في إيجاد غرفة. عند وصولنا، قام بملء استمارة التسجيل، حيث حجز كذلك غرفة سنمكث فيها طوال فعاليات معرض السنة المقبلة، فقلت له متعجبا : «*كيف لك أن تقوم بذلك ؟*» . أجابني مؤكدا أنها مسألة تنظيم قبلي لا غير. ثم إنه ظل يكد ويعمل في برنامج مرتبط بما سيقدمه السنة المقبلة، مباشرة بعد مغادرته للمعرض.

في أول زيارة لي، لم يكن لدي دليل للمعرض، نفس الشيء بالنسبة للمرة الثانية. أما في المرة الثالثة، فقررت اصطحاب دليل رغم صغر حجمه. كان مكتوبا باللغة الفرنسية، بيد أن اللغة السائدة في المعرض كانت هي اللغة الإنجليزية. هناك، كان الكل منهمكا في عمله : دور النشر، الزوار... إلخ. السنة الماضية، قمنا بإرسال رسائل إلكترونية لأزيد من 50 دور نشر، وكانت كل المراسلات تعتمد على أرقام مشفرة أو عناوين مضبوطة. لحسن الحظ، تلقينا إجابات من قبل جلها. لا تحاول حتى التفكير في مراسلتها شهرين أو ثلاثة أشهر قبل انطلاق فعاليات المعرض، فلن يجيبك أحد ! هذه كلها أمور يستفيدها من فكر في المشاركة في ذلك المعرض. التحضير القبلي مهم جدا.

سأعقب على ما قاله رشيد. التنظيم القبلي في المغرب هو بمثابة حلم، ثم إنه يتطلب تعبئة كل البلاد، بما فيه أجهزة الاستخبارات. كان سيتم خلق لجنة تتكلف بذلك، إلا أن أحد أعوان السلطة رفض العمل بجانب مجموعات عمل. انطلاقا من تجربتنا الطويلة، بعد الاجتماع الأول والثاني، لم نلحظ أي نتيجة... القرارات المهمة يتخذها الناشرون. بالطبع، دور الكتاب مهم إلا أن دور الناشرين هو أكثر أهمية، إذ في حالة عدم وجودهم، لن نحصل أبدا على الكتاب. بدوره، صرح السيد الوزير بأنه علينا أن نسرع في عملنا، بيد أن ذلك العمل لن يعطي أكله إلا إذا توافقت الجهود من قبل كل الجهات المعنية. لا أنكر أنه لا يمكننا اتخاذ القرارات إلا بصحبة الناشرين، فهم من يمتلكون الرؤية الصحيحة والباع الطويل في مجال النشر. لا أحد لديه العصا السحرية لكي يطلب منا تنظيم اجتماع ليوم غد مثلا. كل ما نريده هو تنظيم معرض في المستوى المطلوب. لقد اطلعت شخصيا على محتوى دفتر التحملات وكنت مدافعا بشدة على مشاركة المغرب. لقد حصلنا على قرار هذا التنظيم بفضل تدخلاتي ومجهوداتي الجبارة.

لهذا، أقول اليوم أن الكل وضع ثقته في لأنني لم أطلب سوى ما نحتاج له حقا، إلا أن هناك من يحب تعقيد الأمور وقلب الحقائق. كل ما كنا نحتاجه هو تعبئة ثلاثة مهندسين، التحضير لمباراة صغيرة ثم تكوين لجنة مكونة من كتاب، ناشر وفاعلون ثقافيون... في البدء أكد لي الجميع أن الأمور «ستكون على ما يرام». بعدها، قالوا لي أن الوقت يداهمنا ولم يبق الكثير منه للقيام بكل ذلك. لم تبق سوى ست أشهر ولم نقرر بعد في موضوع الهندسة. هذه بالضبط هي ظروف عملنا هنا.

قبل أن نعطي الكلمة لأصدقائنا من السنغال، اسمحوا لي أن أقول أن اليوم، تعلم المغرب الشيء الكثير، مما جعلنا نعيش انفتاحات من الطراز الرفيع. أود التكلم أيضا على أصدقائنا العرب، فهم ليسوا أبدا بالمنغلقين كما يظن البعض. بدأت بوادر هذا الانفتاح منذ أربع سنوات، وذلك مع مبادرات الوزير السابق الذي شجع على هذه الأمور.

فمثلا في منطقة دول الخليج، توجد أسواق ضخمة لبيع الكتب. القاهرة تعتبر أيضا معرضا كبيرا يضم أهم المنتجين، وكم هائل من الزوار، قد يبلغ عددهم مليون ومائتي ألف زائر. المشكل الذي يطرح نفسه يتعلق أساسا بالقدرة الشرائية للقراء، في نفس الوقت الذي لا يمكننا بيع كتب بأثمنة جد منخفضة. إلا أنه في هذه الحالة، يصرف القارئ اهتمامه عن الجودة التقنية للكتاب، ليعير اهتمامه بمضمونه. يمكن القول أن الناشر المصري يصنع العديد من الكتب، معتمدا على أوراق جودتها مرتفعة قليلا بالمقارنة مع أوراق الصحف، مما يجعلهم يكسبون جمهورا واسعا. في بلدنا، يشتري الناس الكتب ب 70 درهماً، بينما يستحب بيعها بـ 50 فقط.

سوق النشر الإماراتية هي أيضا سوق ضخمة، إلى جانب ثقافة البلد الغنية. لماذا أضحت دبي أكثر أهمية من ذي قبل ؟ كل سنة يتم اختيار دور نشر، لتتكفل جهات معينة بكل مصاريفها، فتقوم اللجان بعدها بدعوة 35 دار نشر، لتخبرهم : «*نحن مستعدون لمساعدتكم إذا شارك أحد الناشرين من الإمارات*». وليومنا هذا، اللبنانيون هم الأكثر استفادة، بحكم ما يمتازون به من تجربة في مجال صناعة للكتاب. التقيت في هذا المعرض بناشر ورث هذه المهنة أبا عن جد، وهذا بالضبط ما يجعلهم متميزون في هذا الميدان.

إذا، يمكننا السير على منوال كل هاته الدول سابقة الذكر، في حالة تضافر جهود وزير الثقافة وكل من يقوم بتسيير مثل هذه المعارض، يجب أن يعي الجميع بذلك. أنتهز الفرصة لتكريم السيد وزير الثقافة السابق، على ما قام به من مجهودات، إذ لم نعد نرى معرضا دوليا لم يستقبل مشاركة المغرب، وهذا أمر رائع جدا. أعطى للثقافة نفسا جديدا لأنه اشتغل من قبل كأستاذ جامعي، فهو واعي أيما وعي بأهمية الثقافة. إذا كانت لدينا وزارة منغلقة، لن نصل لما عليه الآن.

أمينة مديب

تحدث عن أصناف المعارض، موضحا ذلك من خلال عدة تعاريف، معرض الكتاب، مهرجان أدبي، إلى غير ذلك من اللقاءات الأدبية. غير أنه في المغرب، يعير المنظمون أهمية لحضور ومشاركة ناشرين دوليين في مثل هذه التظاهرة الثقافية. هذا بالضبط ما يجعلنا نفكر في إدراج كل سنة ناشرين فرنسيين أو ثلاثة ضمن برنامج المعرض، ثم فتح حوار برفقتهم، بحضور ناشرين من المغرب العربي، حول ما يميز تجربة النشر المغاربية. نلاحظ أن معرض الدار البيضاء يضم فقط القليل من الناشرين الدوليين وهذا ليس عملي. فمثلا هناك، كثر ة الزوار لكن قليل من يهتم حقا بالكتب، المنشورات أو الكتاب. يمكن لمعرض وجدة هذا أن يصبح مثالا يحتذى به لأن تسييره سهل، وليس كما يتعلق الأمر بمعرض العاصمة الاقتصادية. لا أظن أنه معرض كتاب، بل هو مهرجان أدبي. في طنجة، ترسل كل سنة دعوات الحضور لناشرين اثنين أو ثلاثة، وفي آخر المطاف، لا يتمكنون من الحضور لأن لا أحد تكفل بمصاريفهم. أو قد يحضرون فقط للالتقاء بناشرين آخرين. أعتقد أن كل هذا يحتاج لإعادة النظر.

متدخل من السنغال

أنا جئت من السنغال. أريد فقط أن أذكر بالنقاط الثقافية المشتركة التي تربط بين كلا البلدين. أشرت قبل قليل إلى أن مسألة مشاركة المغرب في معارض الكتاب الدولية تحظى بأهمية قصوى. بالسنغال مثلا، مشاركتنا مازالت ضعيفة جدا. لهذا، فنحن هنا للبحث عن إطار منظم لتحقيق ذلك، علاوة على تثمين أواصر تعاوننا القوية، خصوصا في المجال الثقافي.

هذا سيمكن من السنغال من المشاركة في معرض الدار البيضاء الدولي للنشر والكتاب، بالإضافة إلى تظاهرات ثقافية مغربية أخرى. سأشير إلى جانب آخر يرتبط بسياسة الكتاب، كانت قد ذكرته السيدة أمينة قبل قليل، إنه الاعتماد على الآليات الكافية، الكفيلة بنشر الكتاب بالمغرب وكذا في باقي الدول. الهدف من المشاركة في معارض مثل معرض وجدة أو الدار البيضاء يتمثل في التعرف على سوق النشر والناشرين، ثم إيجاد ما يناسبك من اقتراحات للعمل في ظروف جيدة. تمت موضوع مهم سيتم التطرق إليه، إنه : «الكتابة ضد الجدران».

نحاول أن نبرز كتاباتنا داخل هذا الفضاء الجغرافي، كما هو الحال بالنسبة لدول إفريقية أخرى كتونس مثلا، وذلك من خلال معرض الكتاب لتونس العاصمة. لقد قمنا بذلك سنة 2015 في معرض باريس. مثلت دولة السنغال إفريقيا من خلال ما نسميه بـ «رسائل إفريقيا». كل ما نحتاج إليه اليوم هو المزيد من التنظيم لتقريب دور النشر من إبداعاتنا.

كما سبق ذكره، الهدف من تنظيم هذا المعرض هو إيجاد الظروف المناسبة للنشر، لكن العمل على الرفع من جودة محتوى الكتب أمر لا يقل أهمية عما تم ذكره. فمسؤولية اختيار كيفية هذا التمثيل وتكييفه مع ما هو واقعي تبقى على عاتق الوزارة والحكومة. فيما يخص المشاركة في ورشات المطالعة، أظن أنها لم تنظم بما يكفي.

لكن الأهم هو التحلي بالصبر والعزيمة الكافيين لتحدي كل أنواع الصعوبات التي نواجهها باستمرار. وكما قلتم، لا يمكننا التحضير للمعرض خلال شهرين أو حتى سنة. وأخيرا، يجب البحث عن مسؤول قوي بالشكل الكافي ليتمكن من تخطي كل الصعوبات والعوائق.

شكرا على اختياركم للسنغال كضيف شرف.

ماريا (دكار، السنغال)

أعتقد أن هذا التساؤل ينم عن تفكير معمق : كيف يمكننا أن نجعل علاقتنا بدول جنوب الصحراء علاقة متينة ؟ أظن أن العمل المشترك الذي يجمع بين كتاب وناشري الشمال والجنوب هو شيء جميل جدا. هنا مثلا، تنظم اللقاءات والتبادلات في موائد مستديرة، في الفنادق أو حتى في البهو. هذه مسألة مهمة. بالرغم من أن السنغال «بلد صغير ومحدود» فيما يتعلق بتنوعه الثقافي، إلا أنه يشارك باستمرار في عدة معارض، كمعرض جنيف، برلين، إلخ. من خلال مشاركتنا في معرض الدار البيضاء، تعلمنا الشيء الكثير. فمثلا بالنسبة لأثمنة الكتب، اندهشنا عندما اكتشفنا أن سعره منخفض مقارنة مع السنغال.

مداخلة

إذا أردنا أن يجتمع الناشرون، لماذا لا نقوم بذلك هنا في وجدة ؟ هناك إمكانية أخرى تتعلق بالاعتماد في ذلك على الوسائل التكنولوجية الحديثة... يمكن أن تكون آلية مهمة، ستساعد حتما أفضل الوسطاء الفاعلين في المجال الثقافي لكي يتمكنوا من إخراج إبداعهم للوجود. المستقبل ليس بين أيدي من يبكي على الأطلال، بل من يبدع.

رئيس الجلسة : نور الدين بوصفيحة
المشاركون : عبد القادر الرتناني، مونيك ڭولدبورك (فرنسا)، بوعزة بنعاشر
فضاء : آسيا جبار
التاريخ : يوم الأحد 24 شتنبر 2017
الساعة : 09 : 30 - 11 : 00

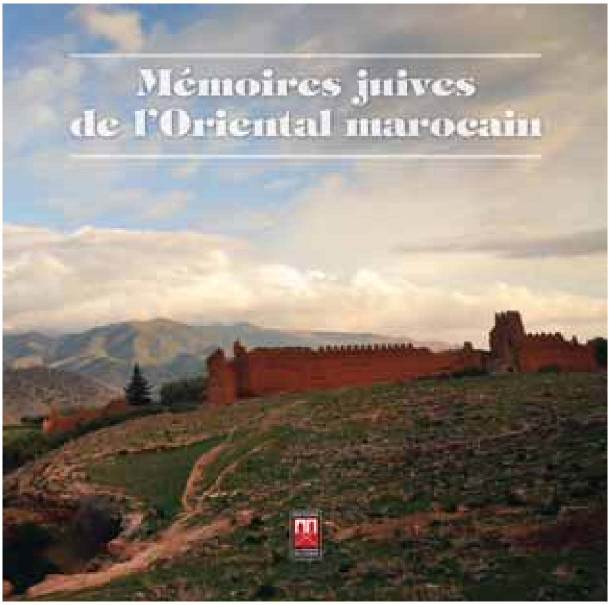

موجز مداخلات المائدة المستديرة

اكتشف كل من شارك في معرض الكتاب الحامل لشعار «رسائل من المغرب العربي» الجانب اليهودي الذي يكون جزءا لا يتجزأ من الهوية المغربية، خصوصا بجهة الشرق. في هذا الإطار، تم تقديم الكتاب القيم «ذاكرات يهود شرق المغرب».

خلال هذا التقديم، أكدت الجامعية الفرنسية «مونيك ڭولدبورك» ذات الأصول الوجدية، أن المغرب حريص جدا على إتاحة أفضل الفرص لليهود الذين كانوا يتعرضون باستمرار للمطاردات في كل أنحاء العالم.

مضيفة أن انفتاح المغرب على كل الثقافات جعل منه أرضا مفضلة لليهود ومادة خصبة لدراسة جذورها، مما زاد من تشبثهم بها شيئًا فشيئًا.

لقد تم تسليط الضوء على المجهودات المبذولة للحفاظ على التراث اليهودي، باعتباره أحد أهم ما يميز التنوع الثقافي للهوية المغربية، بالإضافة إلى أنه ساهم في إثراء هذه الأخيرة لكي تصبح إحدى الحضارات الأكثر غنى في العالم بأسره.
أضافت نفس المتدخلة أن هذا المعرض المغاربي يشكل مثالا حيا على أن المغرب قادر على التعايش مع رؤى مختلفة، مع حرصه دائما على المضي قدما بمكونات هويته وعدم زعزعة قيمها.

كما تطرقت السيدة ڭولدبورك بدورها إلى مجموعة من النقاط التاريخية قصد بيان قدم وتجذر الوجود اليهودي على أرض المغرب والمساهمة المميزة لليهود في تشكيل يهودية أمازيغية بعد هجرتهم من الأندلس هربا من التنصير. في نفس السياق، ناقشت المتدخلة الظروف الخاصة التي تمت فيها هجرة اليهود بأعداد كبير نهاية الستينات.
أما الأستاذ نور الدين بوصفيحة فقد ذكرنا بالدور المحوري الذي لعبته الإنتاجات الأدبية للكتاب اليهود في نشأة دور الطبع والنشر بالمغرب قبل حوالي قرن من الآن. الاضطهاد الذي مارسته إسبانيا والبرتغال أفاد دول أوروبية أخرى استقبلت اليهود المهجرين - مثال هولندا التي استقبلت الفيلسوف «بروخ سبينوزا». بلدان المغرب الكبير استفادت أيضا والأمثلة كثيرة ذُكر منها الفيلسوف ورجل السياسة خديم بلده المغرب على الدوام الأستاذ إدمون عمران المالح.
في ختام مداخلتها، ناقشت السيدة ڭولدبورك ما أسمته «فلسفة الاختلاف» وطرائق حدوث «المثاقفة المتبادلة» بين مكونات المجتمع المغربي.

عبد القادر الرتناني

نسعى من خلال هذه المائدة المستديرة إلى مناقشة تاريخ المكون اليهودي بالمغرب ؛ ويحضر معنا لهذا الغرض ثلة من المختصين. أشكر الجميع على تلبية الدعوة. رأى كتاب «ذاكرات يهود شرق المغرب» النور بمبادرة من وكالة تنمية جهة الشرق. اليهود مكون أساسي بكل جهات المغرب، لكننا نلحظ هذه الحقيقة بقوة وزخم أكبر هنا بجهة الشرق.

من الأهمية بمكان أن نتكلم عن هذا التاريخ ونعرف به في زمن يطبعه الفشل الجماعي في تحقيق العيش المشترك بين الأديان. لقد فضلنا التركيز في هذا الكتاب على مدينة دبدو التي كانت مركزا حضاريا يهوديا ذو إشعاع عالمي.

يسعدني أن أقدم لكم السيدة ڭولدبورك، أستاذة اللغة العبرية بباريس ولها رسالة ماجستير حول يهود المغرب الكبير ؛ والدها أصوله من وجدة وهذا يعني أنها آتية إلينا محملة بالكثير من الذكريات التي ما فتئت تأخذ حيزا أكبر في قلبها كلما زارت المغرب، خاصة أنها هذه المرة تزور مدينة والدها. ضيفين عزيزين آخرين سيغنيان نقاشنا بلا شك هما الأستاذ والمؤرخ والكاتب المختص في قضايا القارة الأفريقية بوعزة بنعاشر والأستاذ الجامعي والشاعر والكاتب نور الدين بوصفيحة، الذي تكرم وقبل دعوتنا إياه إلى تسيير هذا الجلسة الفكرية. شكرا للجميع، فليتفضل مشكورا.

نور الدين بوصفيحة

في البداية، اسمحوا لي أن أتكلم قليلا عن بعض الكتاب اليهود المغاربة مادمنا نتحدث عن التاريخ والإرث المشترك في سياق الكتابة والإبداع الأدبي. نشرت أول الكتابات الأدبية التي خطتها أقلام يهود مغاربة ابتداء من سنة 1900 وهي مازالت تنشر إلى اليوم. وقد عرفت عملية نشر هذه المؤلفات ذروتها ابتداء من سنة 1943. نذكر من بين هؤلاء الكتاب «الإخوان كنوف» الذين نشروا دواوين شعرية بمدينة الصويرة. بعض الكتاب هاجروا إلى فرنسا أو مناطق أخرى لكنهم لم يقطعوا علاقتهم بالمغرب. وقد سُعدت بلقاء عدد من هؤلاء الكتاب الذين كتبوا نصوصا بديعة خلدت الذاكرة والتاريخ المغربي المشترك ؛ من هؤلاء إيفلين كدوش وإدمون عمران المالح الذي كان يدعونا إلى بيته ويمنعنا من استعمال الفرنسية في حواراتنا العادية. أستغل هذه الفرصة لأشيد بهذا الرجل العظيم الذي ترك لنا نصوصا أدبية رائعة، رغم أنه لم يبدأ الكتابة حتى الستين من عمره. لقد أثرت كتاباته في شباب المغرب في تلك الفترة. جانب آخر من حياة المالح هو أنه شارك في تأسيس الحزب الشيوعي المغربي السري آنذاك وناضل من داخله في سبيل تحرير البلاد. حتى تعرف كاتبا، يكفيك أن تزوره في مؤلفاته ؛ وزائر المالح في كتبه مثل «مكتوم» نشر سنة 1997 و«الشاي والنعناع» يحظى بتجربة رائعة جربتها بنفسي. أن يكتب المرء حول موضوع معين فذلك شيء عادي أما أن يكتب ذاكرته المشتركة التي مازلت فيها بعض الأحزان والجراح والعتاب فذلك شيء مختلف تماما ليس متاحا للجميع. وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن الكتاب اليهود المغاربة كأي يهودي مغربي آخر لم يفرطوا في تاريخهم وذاكرتهم المشتركة مع باقي مكونات المجتمع المغربي. الآن أعطي الكلمة للأستاذة مونيك ڭولدبورك التي أتمنى مشاركتنا مسارها وتجربتها وطريقتها في الإخلاص لهذه الذاكرة والإرث المشتركين.

مونيك ڭولدبورك

لي عظيم الشرف أن أكون معكم وأسهم مساهمة متواضعة في إغناء النقاش حول تاريخ المغرب في بعده اليهودي.

يستهدف هذا المعرض المغاربي تنوير الشباب بالدرجة الأولى ونقل المعرفة والثقافة المغربية بكل تلاوينها، تماشيا مع ما أقره الدستور المغربي سنة 2011 من أن الثقافتين اليهودية والأمازيغية مكونان أساسيان في حضارة وتاريخ المغرب. وأنا هنا اليوم قصد إبراز هذه الحقيقة.
ولدت بباريس، حيث ربتني والدتي ذات الأصول السلاوية-الرباطية بمفردها بعد فشل زواجها من والدي الوجدي الأصل. رغم تشتت الأسرة بقيت أبحث عن الذكريات الجميلة التي عشتها بالمغرب بفضل أسرة يهودية كانت تربطني بأفرادها علاقة قوية : لقد كبرت وصنعت ذكريات الطفولة هنا بالمغرب بين الرباط ووجدة. كنت أقضي شهرا كاملا من العطلة الصيفية في بيت تلك الأسرة إلى أن هاجرت سنة 1967 إلى أورشليم. تبين لي مع الوقت أن بداخلي ذكريات وتعلق بالمغرب لم أكن واعية بهما تمام الوعي قبل أن أبدأ الاشتغال على رسالة الماجستير خاصتي حول تاريخ اليهود بالمغرب الكبير حوالي عشر سنوات قبل الآن.
كان علي بدل مجهود كبير لإنجاح دراستي وعدم الاستسلام أمام فيض الذكريات والمشاعر والحنين الذي انهمر علي كالشلال كلما قلبت صفحات المراجع. صوت بداخلي كان يدعوني لأعود وأبحث عن جذوري كما لو كان يقول لي أنني لست فرنسية فقط.
أنا امرأة ناجحة في عملي ومتزوجة برجل يهودي أصوله من أوروبا الشرقية، وكل شيء على ما يرام. لكنني فجأة قررت ولوج سلك الماجستير وتعلم اليهودية. وكم فتح أمامي هذا القرار من أبواب لم أكن أراها حتى الرؤية ؛ أبواب قادتني إلى معرفة تاريخي الذي كانت تحدثني عنه جدتي. وهنا لا بد لي من الإشادة بالدور المهم الذي يلعبه المؤرخون في هذا الباب.
توجد بباريس جامعة تقدم دروسا في اللغة العبرية والعربية في سلك الإجازة إلى جانب مواد أخرى يمكنك اختيارها حسب الرغبة. شخصيا اخترت مواد «اليهود والعرب» و«اليهود والإسبان» و«تاريخ اليهود في أرض الإسلام»، وللأمانة كانت الفائدة كبيرة.
بناء على ما سبق، أرى أنه من الأفضل أن أحدثكم عن رسالة الماجستير خاصتي بدل الحديث عن تاريخ عائلتي؛ أنا لا أتكلم العربية ولا أفهم منها إلا القليل، وهذا يحول بشكل أو بآخر دون تمكني من تاريخنا بالمغرب حق التمكن. بصراحة، لقد ندمت على عدم تعلم اللغة العربية، لكن بإمكاني تدارك الأمر. سأنجح في تعلمها كما تعلمت العبرية من الصفر حتى أصبحت أستعملها بكل طلاقة وأريحية لدرجة أنني الآن أدرسها لأناس آخرين. ربما في المرة القادمة سنتحاور بالعربية.
أستغل هذه الفرصة الثمينة لأذكر بعراقة بالوجود اليهودي على أرض المغرب لأن هذا الوجود لا يُتكلم عنه كفاية بدعوى أن اليهود قرروا المغادرة فجأة ودون مبررات. هناك فراغ في هذا الباب يجب سده.
حسب الكتابات المختصة، يرجع تاريخ اليهود بالمغرب إلى الفترة الممتدة بين القرنين الثالث والخامس ميلادي ؛ وهناك دلائل مادية تأكد هذا الكلام. عرف الشعب اليهودي حالتي شتات مهمتين في تاريخه. حدث الشتات الأول سنة 600 قبل الميلاد على يد الدولة الكلدانية التي سبت اليهود إلى بابل، خاصة النخبة. أما الشتات الثاني فوقع في عصر الإمبراطورية الرومانية التي طردت اليهود من منطقة يهودا. هؤلاء المساكين المطرودون من أرضهم تشتتوا في دول المتوسط. كان أغلبهم تجارا، ولهذا كانوا يستقرون قرب الطرق التجارية الصحراوية والحواضر التجارية.
وهنا أعدوا الجميع للإطلاع على الكتب الصادرة عن دار النشر «لا كروازي دي شومان» لأنها تقدم الكثير من الشروحات والتفاصيل الموثقة في هذا الباب. الوجود اليهودي بأرض المغرب سابق على الوجود العربي. قبل وصول العرب، تفاعل اليهود والأمازيغ وتعايشوا بفضل روح التسامح عند الأمازيغ. في الحقيقة، لا نعرف من أثر في الآخر أكثر ؛ لا نعرف «هل تهود الأمازيغ أم تمزغ اليهود ؟». وأعطيكم مثالا من عائلتي التي كان بعض أفرادها يتكلمون الأمازيغية والعبرية في البادية، لكنهم لما هاجروا إلى المدينة تخلوا عن الأمازيغية وتعلموا لغات أخرى. من جهة ثانية، هرب اليهود في العقد الأخير من القرن الرابع عشر من إسبانيا ومحاكم التفتيش التي نشرت الرعب بعد انتصار المسيحيين والسيطرة على شبه الجزيرة الأيبيرية.

موجة أخرى من الهجرة اليهودية نحو المغرب جاءت بعد مائة سنة على سقوط الأندلس من جهة تلمسان هذه المرة. وقد استقر هؤلاء المهاجرون بجهة الشرق حاملين معهم ما يغني الثقافة والحضارة المغربية أكثر.
خلال اشتغالي على بحثي، عقدت مقابلات مع أشخاص بعضهم لم يكن يعلم أن الوجود اليهودي بالمغرب لم يبدأ مع يهود الأندلس. كانوا يظنون أن قصة اليهود بالمغرب مدتها خمسة قرون فقط.
قامت الثورة الفرنسية سنة 1789 وتبعها ما سمي «إعلان حقوق الإنسان والمواطن» الذي قضى على كل أشكال التمييز الديني والعرقي... اليهود المشتتون في كل بقاع العالم كانوا على اتصال فيما بينهم، فأعلم بعضهم البعض بهذا التطورات.
أهل تلك الحقبة لم يتوفر لهم شيء من وسائل الاتصال التي لدينا نحن اليوم، رغم ذلك كانوا مطلعين على كثير مما يجرى في البلاد البعيدة. فرنسا هي أول بلد في العالم يعترف باليهود كمواطنين كاملي المواطنة. راجت الأخبار بين اليهود وبات الجميع يتطلع للجانب الآخر من العالم، لكن كيف السبيل إلى هناك ؟
عندما حل الأوروبيون بالمغرب بشكل رسمي افتتحوا سفاراتهم بمدن ساحلية كالصويرة واستفادوا من مهارات اليهود اللغوية في التواصل مع باقي السكان المحليين. بعض هؤلاء اليهود وجد لنفسه مكان في التمثيليات الدبلوماسية التي كانوا يساعدونها بحيث أصبحت لهم أدوار مهمة واكتسبوا جنسيات بلدان هذه التمثيليات. هذه التفاصيل جد مهمة ولا ينبغي إغفالها.
عندما احتلت فرنسا الجزائر، فكر يهود فرنسا في مساعدة يهود الجزائر؛ فكانت النتيجة صدور مرسوم رئاسي فرنسي يمنح يهود الجزائر الجنسية الفرنسية كيهود فرنسا. وقد سهر على صدور هذا المشروع المحامي أدولف كريميو رفقة آخرين. هكذا وجد يهود الجزائر أنفسهم منتمين، على الأقل من الناحية الرسمية، إلى حضارة وهوية جديدة أول ما جذبهم إليها أنها تعترف بهم وبهويتهم اعترافا كاملا.
بدأ الوجود الفرنسي بالمغرب سنة 1860، أي بعد سنوات من كل ما ذكرناه آنفا. من أول وأبرز مظاهر هذا الوجود تأسيس جمعية خيرية بالمغرب سنة 1862 هدفها مساعدة المجتمع اليهودي بدول المتوسط على مواجهة الفقر والجهل. هذه الجمعية هي «الرابطة الإسرائيلية العالمية» التي وفرت لأبناء اليهود تعليما وفق المناهج الفرنسية باللغة الفرنسية لإدخال الحداثة في حياتهم. الهدف كان نبيلا : التنوير وجلب الحضارة. أسست الرابطة مجموعة من المدارس بمختلف مناطق المغرب أولها مدرسة تطوان. وقد سجلت الرابطة باستغراب حالة التكدس التي عاشها اليهود بأحياء الملاح، على نحو سهل تفشي الأمراض والفقر وغيرهما من الآفات. بادرت الرابطة فوفرت التعليم والتطبيب والطعام باستعمال موارد مادية مهمة تتلقاها من فرنسا باعتبارها جمعية فرنسية.
واصلت الرابطة هذا العمل عبر بقاع العالم، حيث وفرت مدارس مهيكلة تعطي نتائج جيدة جدا. ما من معلم أو أستاذ أو مدير اشتغل في مدارس الرابطة إلا وكتب تقارير يمكننا اليوم الإطلاع عليها.
لماذا إذا قرر يهود فرنسا مساعدة يهود المغرب والبلدان الأخرى ؟ لماذا هاجر اليهود أوطانهم ؟ كيف هاجروا فعليا ؟ ولماذا الهجرة أصلا إن كنا في مكان نحبه مع أناس نحبهم ؟ في الحقيقة الإجابة على هذه الأسئلة أمر معقد ليس هنا فقط بل حتى في أوروبا، لأن من الصعب جدا الوقوف على كل التاريخ وفهمه والربط بين كل أحداثه. في الماضي كانت الأقليات مثل اليهود تحقق الأمان لنفسها فقط بالانكفاء على الذات وعدم الخوض مع الخائضين في أي قضية كانت، أما اليوم فقد اختلفت الأمور وتعقدت فسارت أوقات الأزمات تعني الخوف والمعانات للأقليات حتى وإن مشوا بجانب الحائط.
في مثل هذه الشروط يصبح المفر الوحيد من الموت هو الهجرة. فهل يلام المضطر ؟ نقرأ في كتب التاريخ ويقال لنا إن اليهود عاشوا بسلام آمنين وهذا صحيح. لكن اليهود دفعوا ضريبة على ذلك هي العيش داخل أحياء الملاح المعزولة والمغلقة على شاكلة «ڭيتوات» أوروبا.
تحسنت الأوضاع بفضل الرابطة ومساعدة الدولة الفرنسية، رغم أنها ساهمت في إلغاء مهن كان بعض اليهود يزاولونها مما صعب عليهم الحياة ووضعهم أمام واقع جديد.

هذا يجعل المرء يلح في التساؤل عن ما دفع اليهود إلى الهجرة ؟ الإجابة على هذا السؤال كما أسلفت ليست بالأمر الهين وسيكون من الضروري في محاولة الإجابة استحضار الأوضاع السياسية بين 1948 و1970. لقد وقعت أشياء كثير أهمها على الإطلاق قيام إسرائيل واكتشاف العالم جرائم النازية في حق ستة ملايين يهودي وضعف قبضة الدول الاستعمارية على مستعمراتها بسبب الحرب العالمية الثانية.
هذا الوضع شجع شعوب الدول المستعمرة على المطالبة باستقلالها ؛ تكتلت هذه الدول فأسست منظمات هدفها تصفية الاستعمار ؛ الدول المغاربية انضمت إلى الجامعة العربية ؛ قامت دولة إسرائيل التي كان يفترض أن يتقاسم فيها السلطة العرب واليهود بموجب قرار أممي ؛ استمرت الدول العربية في مقاومة المستعمر ؛ توالت الحروب العربية الإسرائيلية. ومع كل حدث من هذه الأحداث كان جزء من اليهود يهاجر لكن البعض ظل متشبثا بالأرض.
لكن المحاولة الانقلابية التي شهدها المغرب سنة 1970 كانت النقطة التي أفاضت الكأس فلم يعد اليهود قادرين الاستمرار في حياة كلها خوف. حسب الإحصاءات، سبعون بالمائة من هؤلاء هاجروا إلى إسرائيل بينما هاجرت خمسة وعشرون بالمائة إلى فرنسا وخمسة بالمائة إلى كندا. أجدني مضطرة للاختصار نظرا لضيق الوقت. فقط قبل تقديم استنتاجات مداخلتي أود الإشارة إلى أنني أشتغل حاليا على قضايا يهود فرنسا بسبب انعدام حاجز اللغة.
البحث الدقيق والفعال يتطلب من الباحث إتقان لغة الوثائق الأصلية التي يريد دراستها. أنا للأسف هذا الضعف في اللغة جعلني أركز على يهود فرنسا. غالبا ما ننظر للمهاجرين على أنهم ضحايا لكنهم ليسوا دائما كذلك ؛ أحيانا، هم أناس قرروا تغير الأجواء واكتشاف عوالم أرحب. الأمر صعب ما من شك في ذلك، لكن لا بد من السير إلى الأمام، كما يقول إنريكو ماسياس في إحدى أغانيه : «يجب أن نترك كل شيء وراء ظهورنا ونمضي قدما». هذا كلام أتفق معه تماما، خاصة أن هجرة اليهود إلى فرنسا لم تكن كهجرة الأفارقة أو المغاربة أو الجزائريين لأن هؤلاء يستطيعون العودة رفقة أبنائهم ولو بعد سنوات طوال بينما الهجرة عند اليهود كانت ذهابا بلا إياب.
المثير للاهتمام في هذا المعرض هو الحضور القوي للمرأة. وهي مناسبة للحديث في بضع كلمات على المرأة اليهودية التي كانت قبل الهجرة ربة بيت غير متعلمة في غالب الأحيان قبل أن تتحسن أحوالها بعد الهجرة وتنال نصيبها من التعليم والحقوق الأخرى. المرأة اليهودية هي المستفيد الأول من الهجرة. لقد تلقت تعليما جيدا أفادت به نفسها وأبنائها، وهي تنتمي إلى النخبة إن صح القول. لم أولد بالمغرب، ومع ذلك عندي مشاعر وسلوكات من ولد وعاش بالمغرب ؛ السبب في ذلك ربما هو والدي اللذين مررا لي بوعي أو بدون وعي شيء من روح المغرب التي تسكنهما. أنا شخصا سريع الاندماج مع كل الناس لكنني أفعل ذلك بشكل شبه طبيعي مع المغاربيين لأنني أجد فيهم شيء من نفسي.

عندما أتبسم بشارع المغرب أحس أنني أرى نفس الابتسامات والتعابير. نحن لا ننتمي للجيل الذي قرر الهجرة. نحن الآن نذهب ونأتي بدون أي إشكال ؛ لكن من هاجروا تائهون بين الانغماس في الحياة بإسرائيل أو العيش بفرنسا في بيئة يهودية عربية تشابه الأصل ولو في الحد الأدنى.
اليهود مستقرون بفرنسا ؛ لكن كيف هي طبيعة هذا الاستقرار ؟ اليهود المغاربة الدين هاجروا إلى فرنسا ما زالوا متشبثين بتقاليدهم وعاداتهم. لكنهم للأسف لا يعبرون كفاية عن انتمائهم بأعلى صوت كما يفعل جيلي : نحن يهود مغاربة ولا ننوي إخفاء ذلك. للأسف هذه الرغبة في التعبير عن الانتماء والافتخار يتم كبتها من طرف عراقيل كالتطرف. حلمي أن يعم السلم والتعايش والتسامح، وأن أعبر جسر العودة إلى الأصل، الذي أتمنى أن يعبره أبنائي من بعدي. أحلم أيضا بتنظيم رحلات سياحية ثقافية أوضح من خلالها مكانة اليهود ومساهمتهم في المجتمع المغربي. هذا مهم لنا جميعا دون استثناء.

نور الدين بوصفيحة

قدمت السيدة ڭولدبورك شهادة غنية بالمعطيات. أعطي الكلمة الآن للأستاذ بوعزة بنعاشر الذي سيحدثنا عن طريقته في تفسير وفهم أدب ذاكرات يهود المغرب.

بوعزة بنعاشر

قراءة مذكرات يهود المنطقة تعني التعامل مع تاريخ متعدد الأبعاد يضم الثقافة الإفريقية والمتوسطية والجنوب صحراوية والعربية والأوروبية... قراءة هذه المذكرات تعني الغوص في مواضيع كثيرة وإشكالات كثيرة تشغل الإنسان اليهودي كالهجرة والتيه وحلم يتردد صداه في الروح والقلب : «السنة القادمة سأصلي بأورشليم». موضوع آخر يشغل حيزا مهما في هذه المذكرات هو تاريخ اليهود ودورهم في بناء هوية شمال أفريقيا، أو ما قد يسميه المؤرخون المغرب التاريخي، أي الدولة المغرب قبل وصول العثمانيين إلى الجزائر وتونس...
هذا المغرب التاريخي الذي شكلت فيه الثقافة اليهودية عنصرا مهما، ما كان ليكون كما نعرفه اليوم لو بقيت الظرفيات والأحداث التاريخية متباعدة زمنيا ؛ كان ضروريا تسارع هذه الأحداث والظرفيات التاريخية بشكل يرفع منسوب التفاعل بين المكون الأمازيغي والإفريقي والعربي واليهودي، بما في ذلك المارونيون الهاربون من الضغط من أجل التحول القسري للكاثوليكية ببلاد الأندلس. كل هؤلاء ساهموا في تشكيل صورة المجتمع المغربي المعاصر. معاناة المارونيين أضافت بعد آخر على فكرة الشتات عند اليهود ؛ يمكن تسميته شتات العلماء والمفكرين. مثلا، هولندا حصلت على الفيلسوف «باروخ سبينوزا». لكن على ماذا حصلنا نحن هنا بالمغرب ؟ هكذا قد يتساءل البعض. نحن هنا ورثنا من ثلة من رواد الفلسفة القبلانية اليهود القادمين إلينا من وراء جبال الأطلس بين القرنين الثاني عشر والسادس عشر ميلادي، خاصة من درعة و سوس العالمة. هذه الفلسفة أصلت لما يمكن تسميته فلسفة الاختلاف.
هذا الكلام معناه أن عندنا «سبينوزاتنا» في عالم الروح والتصوف. هذا البعد مهم جدا ؛ ونحن غالب ما نغفل عنه. وهنا أتذكر فيلسوفا قبلانيا عظيما تحدث عنه حاييم زعفراني في مؤلف له من ثمان مائة صفحة موجود بمكتبة الجامعة العبرية بالقدس. وهنا أود التأكيد على ضرورة توفر الوثائق والأرشيف الشامل والأصلي إن نحن فعلا أردنا بناء فهم واضح وعلمي لموضوع الذاكرة والتاريخ المشترك وتأسيس خطاب مبني على الحقائق بدل الآراء والذكريات والصور الضبابية والعاطفة والطوباوية. ما يجب فعله حقا هو استرداد أرشيفنا الذي سرق منا فسرقت معه ألفي سنة من تاريخ أمتنا المغربية.
لقد بُتر جزء من ثقافتنا وتاريخنا وحضارتنا ووعينا الجمعي... أرشيفنا تنقصه ألفي سنة أيها السيدات والسادة. إذا نحن لا نحتاج الكلام والفرضيات التي لا أساس لها، بل نحتاج استرداد أرشيفنا أولا. وإلى ذلك الحين، سيبقى غالب الكلام في موضوع يهود المغرب تعبيرا عن حالة عاطفية طوباوية.

أريد أن أسلط الضوء على إسهام الأستاذ إدمون عمران المالح في دراسة وتطوير ما يسمى طرائق المثاقفة المتبادلة، أي طرائق تشكل وعي متعالي عن كل منطق هوياتي أو عنصري ضيق وكل هوية قاتلة منغلقة ؛ وعي يعبر عن قيمة سياسية ونظرية وبعد فني أدبي وروحي. إدمون عمران المالح تلقى تكوينا فلسفيا وقد وعي أهمية العمل السياسي في تحرير البلاد وتنميتها. وقد ساهم من هذا المنطلق في تأسيس الحزب الشيوعي السري الذي نال عضوية لجنته المركزية بين ستني 1945-1946. كما أنه ساهم في حرب التحرير الوطنية ابتداء من سنة 1953. بعد تحقق الاستقلال وبداية التغيرات السياسية بالمغرب، قرر إدمون الهجرة إلى فرنسا.

وجد هناك بيئة ثقافية وفلسفية مختلفة وأعاد اكتشاف، كأستاذ للفلسفة، أهمية هجرة مثقفي جمهورية فايمار كالفيلسوف تيودورأدورنو في تأسيس مدرسة فرانكفورت العريقة.

هذا كله أعطى تجربة حياتية فريدة عرفنا من خلالها إدمون عمران المالح الماركسي ثم عمران المالح الشكاك ثم المالح الصوفي الروحاني في آخر حياته... تجربة تبلورت عبر قراءة وإعادة قراءة النصوص.

نستخلص من تجربة إدمون عمران المالح وفلسفته أن دواخل الإنسان العميقة تحرك فيه بعده الروحاني الوجداني. هذه الحالة تحضر فيها روح فلسفة الاختلاف والوعي بالحاجة الدائمة إلى قراءة العوالم من كل الجوانب الممكنة والانتماء إلى الأرض حتى وإن لم نملكها ؛ المهم أن روحها تسكننا وأن روحنا تسكنها.

تقديم كتاب نشر بمبادرة من وكالة جهة الشرق :
«الشرق المغربي، قرون من فن الطبخ اليهودي»

تبنت وكالة جهة الشرق منذ نشأتها، خطا تحريريا يولي أهمية خاصة للتراث المادي واللامادي لجهة الشرق وذلك بهدف رسم صورة حضارية مشرقة تزيد من جاذبيتها.
ومن أدوات هذه السياسة المندرجة بدورها في إطار الاستراتيجية التواصلية التي تنهجها الوكالة، نجد سلسلة «الكتب الجميلة» والتي تضم اثني عشر مؤلفا، كما أن هناك مؤلفات جديدة برمجت للنشر وأخرى مازالت في مرحلة الإعداد.
ويسعدنا أن نقدم لكم اليوم آخر إصدار في هذه السلسلة. وبالمناسبة، يؤرخ كتاب «الشرق المغربي، قرون من فن الطبخ اليهودي» للذاكرة الجماعية والعيش المشترك في أحد أهم تجلياته، ألا وهو فن الطبخ.
ولقد سهرت وكالة جهة الشرق على أن تحظى الكاتبة والناشر بفرصة تقديم عملهما في هذا المعرض، حيث تزامن تقديم هذا العمل مع تاريخ المعرض.
هكذا، تم حينها الاتفاق مع مؤلفة هذا الكتاب لتأليف كتاب آخرعن المطبخ اليهودي المغربي ككل.

يعتبر هذا المؤلف، الذي هو في حقيقة الأمر، بمثابة لقاء بين إرث ثقافي ومجالي، تتمة لكتاب صدر قبل أربع سنوات بعنوان «ذاكرات يهود شرق المغرب». ومن غريب الصدف، وجدت الكاتبة نفسها، بعدما كانت قد ألفت كتابا عن المطبخ اليهودي المغربي، في قلب المشروع الذي نتج عنه هذا العمل الجديد.
ولقد سلط هذا المؤلف الضوء على الأدوار التجارية والعسكرية والثقافية والروحية التي اضطلعت بها مدينة دبدو الصغيرة حيث عاشت غالبية يهودية مند سنوات طويلة. بفضل هذا المؤلف، ألقينا الضوء على جزء من الذاكرة مازال يعاني التهميش وحققنا مداخيل مادية رصدت لبناء مركز ثقافي هدفه الأول حفظ الذاكرة، خاصة ذاكرة الأماكن اليهودية المقدسة كالأضرحة التي مازالت تستقطب العديد من الزوار حتى يومنا هذا.
ومن المهتمين بموضوع ذاكرة وتاريخ يهود المغرب المهندس اليهودي المغربي الراحل «آمي كاكون» الذي كلفته وكالة جهة الشرق بالإشراف على هذا المشروع بالتعاون مع مهندس مغربي مسلم في تجسيد عملي لروح التكامل والتعايش المشترك التي طبعت علاقة يهود ومسلمي المغرب قرونا من الزمن.
وقد بدأ المشروع واستمر، رغم وفاة «آمي كاكون» الذي خلف رحيله حزنا عميقا عند كل المتدخلين في المشروع. ولقد قربنا هذا الحدث الحزين والمؤلم من أرملة الفقيد السيدة «ماغي كاكون» التي كانت تتابع سير مشروع «دبدو» عن كثب.
ولقد طرحت وكالة جهة الشرق فكرة هذا المشروع وقامت بخطوات عملية في اتجاه تفعيله، أهمها المساهمة في التمويل ؛ وإذا كان هذا المركز اليوم موجود ويشتغل، فذلك راجع لهذه الخطوات.
عندما أطلعتنا السيدة «ماغي كاكون» على دفتر ملاحظات الطبخ الخاص بصديقتها السيدة «بيرث ابن يونس»، المزدادة بتلمسان والمقيمة ببركان، تبين لنا أنه بإمكاننا المحافظة على جزء مهم آخر من ذاكرة يهود جهة الشرق بنشر محتوى الدفتر في كتاب. ولقد قمنا بذلك، فربطنا الحاضر بالماضي وفتحنا أمام الأجيال القادمة نافذة كبيرة للتواصل مع تاريخهم بشكل يومي.
تتحدث السيدة «بيرث ابن يونس» في دفترها عن دور التجار اليهود بالمنطقة في استيراد وتموين المداشر والقرى بالسلع مستعينين بعرباتهم المتنقلة. ما يهمنا هنا ليس عمليات البيع والشراء بل السلعة في حد ذاتها، خاصة التوابل.
كانت هذه السلع تأتي من كل حدب وصوب قبل أن تنطلق بها العربات إلى كل فج عميق بالمغرب الكبير وأوروبا. في جهة الشرق، كانت هذه السلع وعلى رأسها التوابل تجد في انتظارها عالما غنيا من المنتجات المحلية الأصلية أو الناتجة عن التفاعل الحضاري من الآخر فتتمازج جميعها وتتفاعل تأثيرا وتأثرا. وعلى هذا النحو تفاعل المطبخ اليهودي أيضا مع باقي عناصر المطبخ المغربي فاكتسب مكانته الخاصة وأغنى الذوق المغربي.
كما يمنحنا هذا المؤلف فرصة الإطلاع على حقيقة هذه التفاعلات الحضارية بين مختلف مكونات المنطقة، والتي امتازت مند قرون مضت بسيادة روح التعايش والتآخي. كما أن المؤلَف يتضمن عدد كبير من الوصفات التي تغطي كل أشكال الطبخ اليهودي من مشروبات ومقبلات وأطباق رئيسية تختلف باختلاف الأيام بين عادية ومناسباتية وحسب اختلاف الفصول. ولقد ساهم تضمين هذه الوصفات في الكتاب من ربط الكتاب بعالم الطبخ بشكل أكبر.
دعونا نقترض من مؤلف هذه المقدمة، السيد محمد امباركي قولة «جون دجيانو» الذي قال يوما : «*أن تحب مطبخ بلد ما معناه أنك أحببت هذا البلد*». والهدف الرئيسي من هذا الإصدار هو تقريب وتحبيب جهة الشرق إلى القلوب.

تقديم الكتاب الجميل :
«الشرق المغربي، قرون من فن الطبخ اليهودي»

رئيس الجلسة : نور الدين بوصفيحة

المشاركون : ماكي كاكون، مونيك ڤولدبورك، عبد القادر الرتناني، بوعزة بنعاشر

فضاء : آسيا جبار

التاريخ : يوم الأحد 24 شتنبر 2017

الساعة : 11 : 15 - 12 : 45

مداخلات المائدة المستديرة

نور الدين بوصفيحة

سنسعى في جلستنا هذه إلى مناقشة علاقة الأدب بفن الطبخ. أول المتدخلين الكاتبة والرئيسة المؤسسة لنادي المرأة الأمريكية بالمغرب السيدة ماكي كاكون التي ستحدثنا عن كتابها الجديد حول تاريخ المطبخ اليهودي بجهة الشرق

ماكي كاكون

تحدث المتدخلون قبلي عن التاريخ، أما أنا فأحدثكم عن شيء مما يخلفه لنا التاريخ ؛ سأحدثكم السيدات عن المطبخ. لقد تتبعت أثار المطبخ اليهودي في الأماكن التي هجرها اليهود حاملين معهم ذكريات الروائح والبهارات والأعشاب وغيرها من العناصر المتنوعة لهذا المطبخ العريق الذي لم يكن عندهم مجرد أطباق للأكل. ولقد بث اليهود المغاربة روح هذا المطبخ حيث ما استقر بهم المقام.

وقد كان في تشبثهم به تشبث بمغربيتهم التي لم تخفت جذوتها يوما رغم بعد المسافات وتعاقب الأجيال. والدليل على ذلك أن الآلاف من اليهود المغاربة بكل بقاع العالم، خاصة فرنسا والولايات المتحدة وإسرائيل، يحرصون منذ سنوات على زيارة المغرب وتتبع آثار تاريخ أجدادهم عبر ربوع المملكة.
تطرق «إدمون عمران المالح» في كتاباته إلى الحكماء القبلانيين الذين تنتشر أضرحتهم في كل ربوع المغرب : أكثر من ألفي حكيم قبلاني وفد على أرض المغرب من كل بقاع العالم إذ مازالت أضرحتهم شاهدة على ذلك حتى اليوم. يحج آلاف اليهود كل سنة إلى المغرب لإحياء موسم الهيلولة بعد شهر ماي سيرا على نهج آبائهم وأجدادهم. اليوم سأقربكم من المطبخ اليهودي بجهة الشرق وأبدأ بحكمة من كتاب «الزوهار» تقول : «*نحن ما نأكل*».
في التقاليد والعادات اليهودية، هناك أطباق لا تحضر إلا في مناسبات خاصة ولعل في ذلك ما يفسر المحافظة عليها إلى يومنا هذا. الأكيد أن الكثير من الأطفال والشباب اليهودي المغربي المنتشر في كل بقاع العالم لا يحضرون هذه الأطباق لكنهم لا يفوتون فرصة تذوقها كلما سنحت الفرصة. شخصيا، طورت علاقتي بالمطبخ اليهودي المغربي من مرحلة التمتع بالمذاق إلى مرحلة البحث عن أصوله بجهة الشرق حيث يبرز حضوره بشكل جلي.
لقد أخذتني رحلتي البحثية إلى الجزائر وإسبانيا لكنها أخذتني بالدرجة الأولى إلى بركان ووجدة وأحفير وتاوريرت والكثير من المناطق الأخرى وخاصة فجيج مرورا بدبدو. زرت كل هذه المناطق بالجهة لأنها استقبلت أعدادا كبيرة من اليهود القادمين من الأندلس آنذاك. هناك وجدت مطبخ سِمته الأساسية المزج بين ثقافات طبخ مختلفة في صورة رائعة. لقد وجدت آثار المطبخ اليوناني والمطبخ الإيبيري والمطبخ الفرنسي. ولكم أن تتصوروا مدى غنى وتنوع المطبخ المغربي بوجود مكونات أخرى كالمطبخ الأمازيغي والعربي والإيبيري.
الجميع في أيامنا هذه يريد إتباع نظام تغذية صحي يعتمد على الخضر والفواكه والقليل من البروتينات الحيوانية. في جهة الشرق لطالما كان عندنا هذا الوعي، خاصة بنواحي بركان الغنية بمواردها الفلاحية التي وفرها المستوطنون الفرنسيون. عاش هؤلاء المستوطنون والمغاربة يهودا ومسلمين مع بعضهم البعض في أمن وأمان، حتى أن حوادث السرقة مثلا كانت نادرة للغاية.
أكثر من ذلك، كانت غالبية سكان بعض مناطق جهة الشرق من اليهود ؛ والمثال على ذلك مدينة دبدو التي عاش فيها خمسمائة ألف يهودي جنبا إلى جنب مع مائتي مسلم مدة تقارب قرنين من الزمن. وقد لاحظت من خلال بحثي أن اليهود كانوا يستقرون في غالب الأحيان بمدن معزولة وصغيرة كدبدو، فحاولت إيجاد تفسير لهذا المعطى التاريخي.
التفسير الذي حصلت عليه هو أن اليهود كانوا يبحثون عن الطمأنينة والآمان بعيدا عن المدن الكبرى وآفاتها، حيث كانوا يزاولون غالبا حرفا بسيطة والفلاحة غالبا. ولقد قام بعض اليهود باستغلال ضيعات فلاحية كبيرة بمختلف مناطق جهة الشرق جنبا إلى جنب ضيعات في ملكية مسلمين. كان هناك تبادل ثقافي كبير بين كل مكونات هذا المجتمع المحلي. وحتى بعد الهجرة، ظل يهود جهة الشرق متشبثين بتراثهم لأنهم قوم محافظون يعطون للتقاليد والعادات أهمية كبيرة. التقاليد هنا لا نقصد بها الدين بقدر ما نقصد بها مجموع العادات والممارسات، خاصة الغذائية، التي تجد أصولها وجدورها في مغربيتهم. لقد مثل هؤلاء التقاليد المغربية على أحسن وجه. وهم لا يفوتون أي فرصة للعودة إلى الأصل.
نستخلص مما ذكرته أن المطبخ هو بحق لغة تخاطب القلب حيث يحرص كل يهودي على تكلمها وتلقينها لأبنائه وأحفاده وإن لم تطأ أقدامهم أرض المغرب. لي أقارب صغار بالولايات المتحدة الأمريكية يعرفون الكثير من الأشياء عن المطبخ التقليدي المغربي رغم أنهم لم يزوروا المغرب من قبل ؛ وهذا أمر رائع حقا. لا بد أن نواصل تمرير ونقل هذا التراث عبر الأجيال، لأن أقرب طريق للتواصل مع أي إنسان هو دون شك بطنه.

في الختام، ما أراه مهما حقا هو ارتفاع مستوى الوعي بالمغرب، وهذا يسعدني. وأنا هنا أتذكر صديقي القديم الأستاذ أحمد أركون الذي تسأل بأعلى صوت لماذا يبتر المغاربة جزء مهما من تراثهم وتاريخهم. اليوم يبذل الباحثون والمؤرخون مجهودا كبيرا في الإطلاع على النصوص وإعادة قراءة التاريخ من منطلقات سليمة قبل الحديث عن المكون اليهودي الذي أغنى الحضارة المغربية كغيرها من الحضارات الأخرى التي عاش فيها اليهود. كان اليهود المغاربة خير سفراء للمغرب وكانوا أول من استقبل المهاجرين المسلمين. آمل حقا أن تظل هذه القناة التواصلية البديعة قائمة وأن نحيي الذكريات من خلالها أيضا. وفي هذا الصدد، أود الإشارة إلى أنني أشتغل حاليا مع الإيراني حميد فرجان لإنجاز فيلم يناقش مسألة الآثار والعودة للأصل. كما نتطرق في الفيلم للثقافة اليهودية، لأنه كما يقول الثقافة اليهودية والهوية المغربية لا تتلشيان أبدأ.

نور الدين بوصفيحة

استمعنا جميعا لجملة من النقاط المهمة حول الثقافية اليهودية المغربية وفن الطبخ والأدب. والآن نفتح باب النقاش أمام الحضور الكريم قصد إبداء آرائهم وإغناء النقاش.

مداخلة

أولا، أستحضر روح صديقنا العزيز الأستاذ إدمون عمران المالح الذي كان يرفض عبارة «اليهود المغاربة» ويقول : «*نحن مغاربة يهود. نحن مغاربة قبل أن نكون يهودا أو مسلمين أو مسيحيين وأي شيء آخر*».
أما تشبيه السيدة «ڭولدبورك» أحياء الملاح بـ «ڭيتوات» أوروبا فهو تشبيه لا يصح بتاتا. يُحِيل مصلح «ڭيتو» على التجربة المريرة التي عاشها يهود أوروبا الشرقية والوسطى ؛ أما الملاح، رغم كل ما قد نوجه له من نقد، فقد بني للمرة الأولى في عهد المرينيين بهدف حماية اليهود وضمان أمنهم.
من ناحية أخرى، اعتبرت السيدة ڭولدبورك الرابطة الإسرائيلية العالمية قاطرة جرت وراءها الحداثة، وأنا أتفق معها. لكن يجب أن لا نقف عند «ويل للمصلين...» لأن الرابطة كانت أيضا وسيلة عزز من خلالها المستعمر نفوذه بالمغرب ؛ لست الوحيد الذي يقول هذا الكلام. وتكفيني هنا إحالة الأستاذة على إدمون عمران المالح الذي أكد في كتابه الصادر بالجزائر سنة 1900 أن الرابطة كانت إحدى أدوات تغلغل فرنسا داخل المغرب بطريقة ناعمة وسلسة.

لقد طبقت فرنسا سياسة فرق تسد بين مكونات الشعب المغربي، والرابطة مظهر من مظاهر هذه السياسة. ومن ناحية أخرى، حاولت الأستاذة تبرير هجرة اليهود من المغرب فقدمت تفسيرات تعود كلها إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية ومصدرها كلها ذاكرة بعض الأفراد.
لكن كلنا نعلم أن الذاكرة لا تعدو أن تكون قطعا صغيرة من التاريخ. أنا بدوري جمعت مذكرات كتبها يهود من الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا والمغرب، فهل يعني هذا أنني جمعت تاريخ هؤلاء ؛ قطعا لا، لم أفعل. عندما نناقش هذا الموضوع نشير للأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، لكننا غالبا ما نغفل بعدا آخر قديم وجد مهم هو آلة الدعاية الصهيونية القوية التي بدأت عملها بعيد المؤتمر الصهيوني المنعقد بمدينة بازل السويسرية سنة 1897.
أنا هنا لا أتكلم من فراغ أو من منظور متحيز فالحقائق والأرقام تشهد لي. لقد حل بالمغرب عدد من الصهاينة بغرض بث دعاياتهم التي عرفت طفرة كبيرة بعد وعد بلفور سنة 1917. ومن باب الإنصاف، نقول أن الحركة الصهيونية قوبلت بالرفض من الرابطة والمقيم العام الفرنسي ليوطي، الذي علم قبيل مغادرته المغرب أن خلية صهيونية تشكلت بالدار البيضاء بقيادة بولوني يحمل جواز سفر بريطاني يدعى جونتان تيكس. في الحقيقة لدينا الكثير لنقوله حول هذا الموضوع، لكن نكتفي بهذا القدر حتى لا نطيل على الحضور الكريم.

مونيك ڭولدبورك

أود فقط أن أذكركم أنه في سنة 1948، قُتل ثمانية وأربعون يهوديًا في جهة الشرق، وبالضبط في وجدة وجرادة، وذلك في رد فعل على قيام دولة إسرائيل. كما أذكركم أيضا بالأحداث العنيفة التي استهدفت اليهود بعدد من الدول العربية. وأما في ما يتعلق بالصهيونية فيجب أن لا نقوم بشيطنتها دون موجب حق.
أنا في الحقيقة لا أريد أن أقول كلام قد يثير حفيظتك، لكن الواقع هو أن الصهيونية سعت وتسعى إلى حفظ تاريخ الأقلية اليهودية الممتد لألفي سنة. لقد عانى اليهود الويلات ببلدان أوروبا الشرقية كبولونيا وروسيا ولم يعد ممكن السكوت على هذا الوضع المزري. وأما في فرنسا ما بعد سنة 1880، فقد دفع إعلان «دريفوس» المعادي للسامية اليهود إلى الهجرة نحو الولايات المتحدة أو فلسطين. الصهيونية تعني فيما تعنيه العودة إلى جبل صهيون هناك بأورشليم. وأنا أدعو المختصين إلى البحث عن الأرشيف ولو كان بإسرائيل ودراسته بحياد وتعمق لعل هذا يقرب وجهات النظر.

نور الدين بوصفيحة

أتفق مع ما قاله الأستاذ بخصوص إدمون عمران المالح ؛ فقد كان يناقش الثقافة الشعبية المغربية ككل واحد لا يميز فيه بين ثقافة يهودية وعربية وأمازيغية... أعود بالكلمة مرة أخرى إلى الحضور الكريم.

مداخلة

أنا بدوري صدمني تشبيه أحياء الملاح بـ «ڭيتوات» أوروبا. شخصيا، لو عشت في تلك الفترة لكنت سكنت بالملاح لأنه لم يكن حيا كباقي الأحياء بل حيا راقيا قريبا من القصر الملكي. اليهود المغاربة دائما كانوا مقربين من الأسرة الملكية : لقد كانوا محميين ومارسوا التجارة وامتلكوا الأموال الطائلة والمعادن النفيسة واشتغلوا كسفراء ومترجمين، فهل هكذا كانت «ڭيتوات» أوروبا.
أريد أيضا مناقشة السؤال الذي طرحه السيد بيضا حول مبررات اليهود لمغادرة المغرب. وأنا أقول لك سيدتي أن اليهود غادروا المغرب لأنهم ببساطة أرادوا ذلك وليس لانقلاب الصخيرات أي علاقة بالموضوع. لقد كانوا مغاربة أكثر من المسلمين لأن وجودهم هنا سابق لوجود المسلمين. اليهود إذا غادروا بقرار منهم أو من جهات خارج المغرب.

عبد القادر الرتناني

كنت أشرف على مائدة مستديرة في الجوار وبالي معكم هنا ؛ لا أعرف إن كان صديقي عبد الرحمان رشيق قد تكلم أم ليس بعد لأنني أتمنى أن أطرح عليه بعض الأسئلة... في انتظار ذلك أتوجه بسؤالي إلى السيدة ڭولدبورك بخصوص مصطلح «الڭيتو» ؛ اشتغلت منذ خمسة عشر شهرا على موضوع المدينة القديمة بالدار البيضاء ؛ ومن هذا المنطلق أود التعليق على هذه النقطة. إلى حدود سنة 1948، لم تعرف المدينة القديمة البالغة مساحتها خمسة وأربعون هكتارا والمليئة بالمعابد اليهودية أكثر من المساجد اعتداء واحد على اليهود. هذا يكفيني شخصيا.

مداخلة

ما رأيكم في طرد الدولة المغربية إبراهيم السرفاتي واعتباره برازيليا لا مغربيا، هلا فسرتم لي هذا فأنا لا أفهمه بصراحة. سبق لي أن قرأت كتابا حول رجل يتوفر على جواز سفر مغربي وفرنسي وفينيزويلي، فاستغربت للأمر. لكنني عرفت لاحقا أنه بعد خسارة المغرب حربه ضد إسبانيا، وتحديدا سنة 1856، قرر يهود مغاربة الهجرة إلى أمريكا اللاتينية. عوامل أخرى ساهمت في هجرة اليهود هي المجاعة والجفاف والقحط والأمراض التي ضربت المغرب سنة 1942 حتى أن المؤن القليلة المتوفرة كانت بالكاد تسد رمق الجنود على الجبهات. لدي سؤال لك سيدة ڭولدبورك يخص لائحة المشروبات في كتابك إن وجدت : هل تتضمن هذا اللائحة المشروب الروحي الشعبي «ماحيا».

السيد حموتي

أكتفي بالقول أن اليهود ببلدهم بين أهلهم ولا أزيد على ذلك. والدليل على قولي، أن زائر وجدة «ودبدو» ومناطق أخرى يلاحظ الاهتمام الكبير بآثار المكون اليهودي، كالمقابر التي تحظى باهتمام ورعاية لا تحظى بها مقابر المسلمين. عندنا مجموعة من الآثار التاريخية بوجدة ودبدو كمدرسة دبدو الشهيرة. حيث أن غالبية تلاميذ هذه المدرسة آنذاك كانوا يهودا مغاربة، ولم يكونوا فرنسيين أو مغاربة مسلمين. أما بخصوص دور فن الطبخ في خلق العلاقات الطبية ولم الشمل، فأنا أتفق معك تماما السيدة «ڭولدبورك». يبقى أن نؤكد أن مجتمعنا في تلك الحقبة مر بفترات صعبة أيضا. الخلاصة هي أن اليهود المغاربة يحنون إلى أصلهم وهم مرحب بهم كل الترحيب.

مداخلة

قرأت كتابا قدم لي كهدية من وكالة جهة الشرق حول تاريخ اليهود بهذه الجهة، وقد كان مفيدا للغاية.

لقد اشتريت منه نسختين طلبهما بعض الأصدقاء من الولايات المتحدة الأمريكية ؛ وهذا يدل على غنى محتواه. عندما قرأته، أول ما فعلت هو زيارة الأماكن التي تحدث عنها مدة ثلاثة أيام ؛ فمررت بسيارتي على دبدو وفجيج ووجدة والعديد من المناطق الأخرى. لقد كانت هذه التجربة رائعة حقا.
بعد ذلك، أتيحت لي فرصة الاشتغال مع فريق المركز الجهوي للسياحة على مشروع خلق مسار سياحي ثقافي موضوعه تاريخ المكون اليهودي بجهة الشرق. لدينا اليوم بوجدة عدد من وكالات أسفار تروج لهذا النوع من الرحلات.
وفي الحقيقة، لا أخفيكم سرا أني أجد صعوبة في فهم بعض الأمور؛ ومن ذلك يوجد بوجدة ضريح يزوره المسلمون واليهود والمسيحيون. أنا لا أعرف من الراقد هناك وأطالب المؤرخين بالكشف عن هويته الحقيقة. الأمر ذاته ينطبق على المئذنة والجامع الكبير المتوفر على النافورات الثلاث التي ترمز للأديان السماوية. هذه بعض الحيثيات التي قد لا نعرف ماهيتها والشروط التاريخية التي أنتجتها، لكن المهم أنها ذات دلالات إنسانية جميلة أولها التعايش.

عمار عبو

تابعت باهتمام كبير نقاش مكونات المجتمع المغربي عن «الڭيتوات» وأشياء أخرى. وسوف أتحدث انطلاقا من وثائق ومخطوطات الأرشيف الفرنسي حول جهة الشرق بين سنتي 1930 و1935. أول نقطة هي الدعاية الصهيونية التي كانت نشيطة إبان تلك الفترة بين اليهود المغاربة. حيث كان من خصائص أحياء الملاح بمدن جهة الشرق أنها تقع دائما بين دار المخزن والجامع الأكبر بالمدينة. وكلكم تعلمون ما يعنيه هذا الكلام. في نفس السياق، أحيلكم على رد جماعة فجيج ذات الأغلبية اليهودية آنذاك على السلطات الفرنسية لما أرادت تطبيق القانون الفرنسي على يهود فجيج : قالوا لهم إن هؤلاء اليهود مواطنون مغاربة يطبق عليهم القانون المغربي لا قانون فرنسا.
هذا في الحقيقة يغنينا عن أي كلام آخر. لم يكن أحد يعتبر اليهود مجتمعا منفصلا لوحده ولم يكن اليهودي أجنبيا، فكانت النتيجة هي تحقيق العيش المشترك وحسن الجوار. قالت السيدة «ماكي كاكون» إن اليهود استقروا بدبدو لكونها مدينة بعيدة معزولة وآمنة ؛ ربما يكون هذا الكلام صحيحا لكنه لا يقول كل شيء ؛ لقد اختار اليهود هذه المدينة ومثيلاتها كسجلماسة وتيميمون لأن طرق تجارة مهمة كانت تمر منها. خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر كانت بعض التجمعات السكانية مكونة من اليهود فقط. هذه حقائق لا يجب غض الطرف عنها وادعاء أن المغاربة يهودا ومسلمين لم يحققوا العيش المشترك وأن اليهود عاشوا داخل «ڭيتوات». القول بذلك ما هو إلا محاولة فاشلة لتبرير هجرة اليهود سنة 1948 بعد بروباغندا صهيونية قوية انتشرت بمدن المغرب كافة.

السيد رشيق

اشتغلنا على موضوع اليهود بالمدينة القديمة للدار البيضاء ؛ وتبين لنا من خلال شهادات - هذه الشهادات ليست التاريخ لكنها شي منه - مغاربة يهود ومسلمين أن الملاح لم يوجد يوما لأن غالبية سكان المدينة كانوا يهودا.
لقد كانت دور العبادة الكثيرة متعايشة تماما كمرتاديها الذين سكنوا نفس الأحياء والمنازل وتقاسموا الأتراح قبل الأفراح.
عندما نتكلم عن هجرة اليهود لابد من توخي الحذر ؛ فمن الخطأ القول أن اليهود هم من قرر الرحيل عن طيب خاطر وبإرادة حرة لأن غالبيتهم لم تفعل. لم يكن بإمكان الحركة الصهيونية العالمية ترحيل اليهود من المغرب دون علم وزارة الداخلية وموافقتها. ويمكن الإطلاع في هذا الباب على العديد من الأفلام الوثائقية التي تطرقت لهذا الجانب من هجرة اليهود.

مداخلة

أريد فقط الإشادة باليهود المغاربة في الجانب الموسيقى. لقد نقلوا لنا الموسيقى الأندلسية مبعث فخرنا جميعا. في عهد الدولة الموحدية، لم يكن مسموحا باللعب على الآلات الموسيقية، لكن الوضع تغير بوصول اليهود.

محمد امباركي

عندما نناقش المواضيع الحساسة، توجد دائما طرق مختلفة للحديث والتحليل لأن لكل لحظة تاريخية حيثياتها الخاصة. لقد فكرنا نحن بوكالة جهة الشرق في مسألة التراث اليهودي بالجهة، ورأينا أن مساهمتنا في إبرازه والمحافظة عليه ستكون بنشر كتب تتحدث عنه وذلك في إطار إستراتيجية تواصلية جهوية تتبناها الوكالة. كل هذا العمل قد بدأ بملاحظة شخصية فقط خلال عملي على حفظ وصيانة إرث مدينة دبدو.

في الحقيقة، المدينة هي عبارة عن ملاح كبير سكنته في فترة معينة غالبية يهودية. وقد استطعنا بعد سنوات من العمل وضع برنامج لإعادة تأهيل المدينة القديمة وصيانة بناياتها. لكن للأسف، حال تغيير الحكومة دون تنزيل هذا البرنامج على أرض الواقع... بعد خمس عشرة سنة من ذلك التاريخ ساء وضع المدينة أكثر فأكثر. دفعنا هذا الوضع إلى التفكير في عمل نثمن به المنطقة ونعطيها قيمتها التي تستحق ؛ لقد فكرنا في عمل ننقذ به ما يمكن إنقاذه.

اعتبرنا أنه من المفيد البحث في تاريخ المنطقة وثقافتها. ومن هذا المنطلق بدأنا العمل على مشروع فكرته الأساسية هي الإنصات : ربما لا تتمتع المدينة بتاريخ مميز، لكنها أنجبت أناس متميزين لديهم الكثير لمشاركته مع باقي أطياف المجتمع المغربي. تاريخ المنطقة يهودي بامتياز وقد عزمنا على دراسته وفهمه وإلقاء المزيد من الضوء عليه لأننا بذلك نميز الحقائق عن غيرها، حتى إذا تناقشنا كانت الأمور واضحة ولم نرم مخاطبينا بأي ادعاء كان وأي حجة كانت ولم ندخل بتاتا في أي نقاش عقيم.

اكتفينا في مرحلة أولى من هذا المشروع بدراسة ذاكرة يهود جهة الشرق دون الحديث عن تاريخهم هناك بصورة عامة، مع أن ذلك إشكال في حد ذاته. ركزنا على الذاكرة لأننا أردنا إشراك الأجيال الصاعدة من أبناء المغاربة بكل أطيافهم داخل المغرب وخارجه بمدى إيماننا الراسخ بإمكانية تحقيق التعايش المشترك مع الآخر سواء أكان مسلما أو يهوديا أو مسيحيا... ومن هذا المنطلق قررنا الحديث عن تفاصيل الحياة اليومية البسيطة التي تبين بالملموس حالة التعايش التي عرفتها المنطقة، لكن هذا الاختيار أثار حفيظة بعض المؤرخين الذي لا يعتبرون الذاكرة أداة علمية في دراسة التاريخ.

لكننا انطلقنا من فكرة أن الحديث عن الذاكرة يولد الاهتمام لدى الناس، وهذا أمر مهم للغاية. الكتاب الأول الذي نشرناه حقق مداخيل فاقت مائة مليون درهم تمت تعبئتها في مشروع بناء مركز ثقافي وترميم المدينة القديمة وفك العزلة بتعبيد وتوسيع وتقوية الطرق. هذا الكتاب أبان لنا جميعا أن الثقافة قادرة على المساهمة في تنمية العقول والبنية التحتية أيضا.
بدأ العمل على مشروع دار الثقافة قبيل نشر الكتاب الثاني. وحرصا منا على تجسيد روح التعايش بين المسلمين واليهود كلفنا مهندسا يهوديا وآخر مسلم بالإشراف على المشروع. المهندس اليهودي هو «آمي كاكون» المشرف على بناء متحف الثقافة اليهودية بالدار البيضاء. لما عرضت عليه المشروع أبدى حماس واهتماما كبيرين. قال لي أنه يريد زيارة دبدو حتى يستلهم منها أفكاره في المشروع. وكذلك كان ؛ لكن للأسف خطفه الموت من بيننا. لقد واصلنا العمل وأنجزنا مشروع دار الثقافة التي ستساهم من دون شك في حفظ ذاكرة المدينة وتقريبها من السكان والزوار.
دبدو كما سبق لي أن قلت أنجبت أشخاصا مميزين. من هؤلاء طبيب باريسي معروف حاليا هو السيد كوهن. في يوم من الأيام قال كوهن لأبيه : «*أبي أريد زيارة دبدو*» وهو يعرف أنها مسقط رأسه، فرفض والده وجعله يقسم على أن يزورها. لكن رغبة كوهن في اكتشاف جذوره كانت أقوى من أي قسم، فانطلق في رحلته وعاش تجربة وثقها بالصور والفيديوهات.
لما عاد إلى فرنسا قال لأبيه : «*أعتذر منك أبي لأني لم أستطع الوفاء بوعدي لك ؛ لقد زرت دبدو وصورتها. لقد التقيت المعلم محمد وزرت المنزل حيث ولدت. الناس هناك مازالوا يتذكرونك والدمع يفيض من أعينهم. أما بقال الحي فقد وضع القليل من التراب في كيس أوصاني أن أعطيك إياه.*» في تلك اللحظة قال الأب لابنه وقد جرت دموعه سخية : «*لهذا يا بني لم أرد العودة يوما، فأنا أشعر بالعار. لقد غادرنا لما اشتدت الأزمات ؛ لقد تملكنا الخوف فآثرنا النجاة بأنفسنا. رحلنا يا بني ولم يتسن لنا توديع الأصدقاء والأحبة. لهذا أريد أن أمحي تلك الذكريات وأن أقطع علاقتي بكل ما قد يعيدها إلى الحياة*». لكنه بعد مدة عاد رفقة زوجته ؛ عاد وجدد العهد بذاكرته، حيث زار أماكن عديدة كالمعابد اليهودية، بما فيها معبد وجدة الذي تبرعت به الطائفة اليهودية للبلدية قصد تحويله إلى دار للثقافة.
الخيط الناظم بين الكتاب الأول والكتاب الثاني هو السيدة ماكي كاكون مؤلفة الكتاب الثاني وزوجة المهندس آمي كاكون التي عشقت مدينة دبدو وأرادت المساهمة في حفظ الذاكرة بمشاركتنا إرثا مهما في فن الطبخ حصلت عليه من صديقتها بيرث بن يونس التي ورثته من والديها.
في الختام، نؤكد أن مدينة دبدو عرفت تطورا ملحوظا بفضل المشروع الثقافي الذي أطلقناه. مبادرتنا شيدت صرح ثقافيا مميزا وأعطت سكان دبدو مزيدا من الثقة في النفس. حاليا يتم بناء مدرسة داخلية للتلاميذ. كما أن المدينة باتت تستقبل زوار أكثر وباتت لديها بنية إيواء سياحية محترمة... دبدو هي مثال بديع على العلاقة الممتازة بين الثقافة والتنمية التي أشار إليها صاحب الجلالة نصره الله في خطابه حول التراث اللامادي الواجب علينا جميعا المحافظة عليه.

عبد القادر الرتناني

أتيحت لنا مرة فرصة الحديث عن المغرب في معرض جنيف للكتاب والتي تنحدر أصول مديره من فجيج. قام هذا الرجل بتعبئة كل اليهود المغاربة بالمدينة وقد حضر الكثير منهم بحثا عن رائحة المغرب. بعد العرض تلقينا الكثير من الأسئلة في جو مليء بمشاعر جميلة وقوية، حتى أن أحد السائلين عجز عن إتمام سؤاله من شدة التأثر والانفعال العاطفي.
في الختام تلقينا إشادات الحضور، ومن هؤلاء سيدتان قالتا «*بارك الله فيكم، كتاب كالذي قدمتما اليوم لا يكتبه إلا إنسان يهودي*» فأجبتها قائلا : «*أنا اسمي عبد القادر وصديقي اسمه محمد*». لقد كانت تجربة رائعة بينت لي أن اليهود المغاربة يسكنهم حب المغرب على الدوام.

ماكي كاكون

هذا الكتاب الذي نقدمه بين أيديكم لم يكن نتاج مصادفة. التقيت السيدة بيرث بن يونس أول مرة قبل حوالي أربعين سنة عند هجرتها من تلمسان إلى بركان في العقد الثاني من القرن العشرين.
حكت لي بيرث عن تاريخ جهة الشرق وتفاصيل حياتها. كانت تقول لي : «كنيتي ابن يونس ؛ ووجدة فيها ولي صالح يدعى ابن يونس، ربما يكون قريبي ؛ من يدري ربما». حكت لي بيرث قصتها وسلمتني دفتر الوصفات. فهل هذا كله صدفة ؟ لا أظن ذلك.

مونيك ڭولدبورك

لقد حاولت أن أقدم في مداخلتي ملخصا سريعا عن هجرة اليهود وأسبابها. ما قدمته ليس مجرد شهادة مصدرها الذاكرة، فأي شخص يستطيع فعل ذلك. آمل أن يُقر لي السيدات والسادة المتدخلون والحضور الكريم بأصالة عملي والمجهود المبذول في إنجازه حتى لو لم أكن مؤرخة : قدمت في هذه المداخلة شهادات عززتها بالبحث النظري والمراجع. أما عدم حديثتي عن حالة العيش المشترك التي حققها يهود ومسلمو المغرب فمرده أنني اعتبرت ذلك أمرا بديهيا لا نحتاج الحديث عنه وتأكيده. أرى أن علينا الإشادة بكل الجهود المبذولة ؛ وأتمنى أنني لم أنقل صورة سوداوية أو غير صحيحة دون قصد. هدفي الوحيد كان تسليط الضوء على نقطة مازالت تسبب لنا جميعا ألما هي أسباب وظروف مغادرة اليهود بلدهم الأم. اليوم في وسائل التواصل الاجتماعي بات متاحا للجميع التعبير عن رأيه ؛ لم نعد خاضعين لسلطة الأكاديمية عند التعبير عن رأينا. الخلاصة التي خرجت بها شخصيا هي أننا مطالبون بالعمل سوية - مؤرخين وعلماء اجتماع - للبحث عن عناصر تاريخية وتراثية تقربنا من بعض.

منسق الورشات

أنا حقا سعيد بما أنتجته هذه المائدة المستديرة من نقاش وتبادل للأفكار. من خلال استماعي للمتدخلين تأكد لي أن بعض الجراح لم تندمل بعد ؛ جراح في الروح والذاكرة والقلب. أنا أيضا شكلت لي هذه الجراح دافعا لتأليف رواية وجدتني أتحدث فيها عن الإسلام واليهودية والمسيحية في آخر المطاف. تدور أحداث القصة بالمغرب وبطلها الضابط الفرنسي «شارل دوفوكو» الذي دخل المغرب متنكرا رفقة شخص مغربي بنية جمع المعلومات والتجسس بغرض فهم المجتمع المغربي وبالتالي تسهيل استعماره. لم يغفل شارل دوفوكو أي تفصيلة صغيرة حول المغرب. والمثير أنه اختار التنكر في زي يهودي عربي لأن اليهود على عكس المسيحيين في تلك الفترة كانت لهم حرية التنقل دون قيود. قرأت ما كتبه شارل دوفوكو حول المغرب وما عبر عنه من كره لليهود في رسائله إلى أخته. لقد استعملت محتوى هذه الرسائل بطريقتي الخاصة كروائي وأنتجت مؤلفا ضمنته آمالي وأحلامي ورغباتي.

بوعزة بنعاشر

شدد المتدخلون على ضرورة دراسة التاريخ وإعادة كتابته بشكل منهجي يحترم قواعد وأدوات البحث العلمي. لابد من بدل هذا المجهود للحفاظ على موروثنا وتاريخنا، خاصة ما يهم حفظ الذاكرة والموروث الشفهي اللامادي. وقد أكد عدد من المتدخلين على إمكانية إطلاق مشاريع متنوعة في هذا الباب. من بين المشاريع الممكنة في نظري خلق شراكة وتعاون بين مؤسسة أرشيف المغرب والجامعة العبرية بالقدس في إطار ما هو علمي صرف، بعيدا عن السياسة والعلاقات الرسمي ؛ ربما يجيبنا الأستاذ جامع بيدا رئيس مؤسسة أرشيف المغرب بهذا الخصوص. نُشرت أول «كابالا» (قبالة) سنة 1600 بمدينة مانشستر ؛ وكانت بالعبرية. هذا يدل على أن ذاكرتنا التاريخية الشفهية والمكتوبة تقودنا إلى نفس النتيجة : إنها تجمعنا وتلقي الضوء على المشترك الجميل. نحن نتشارك أشياء كثيرة.

نحن نشعر بحرارة العلاقة كلما تجمعنا وناقشنا تاريخنا بمؤتمرات تنظم في واشنطن وأماكن بعيدة، وفي كل مرة كنت أسأل نفسي لماذا لا ننظم لقاءات مماثلة نجمع فيها المفكر والتشكيلي والمسرحي والكاتب الدرامي... هنا بوجدة.

السيد بيضا

نعم هناك ما يمكن فعله بخصوص هذا التراث العريق. أصدرنا في مؤسسة أرشيف المغرب كتابا في مجلدين حول التراث اليهودي المغربي. وجمع هذا العمل مغاربة وإسرائيليين وفرنسيين وأمريكيين وجنسيات أخرى. ونحن لا ننوي التوقف عند هذا الحد.

أستغل هذا الفرصة للإجابة على سؤال آخر طرح من قبل. نحن فعلا عاجزون عن دراسة وتحليل مواضيع كالذي نناقشه اليوم نظرا لشح المواد والأرشيف، وليس لأسباب سياسية كما قد يتصور البعض. وأنا هنا أتكلم عن أرشيف استثنائي بكل ما في الكلمة من معنى ولا أتكلم عن بعض المنشورات هنا وهناك. أرشيف تاريخ المغرب، بما فيه التاريخ اليهودي، هو ملكنا جميعا دون استثناء. للأسف، مر هذا الأرشيف من نفس الطريق التي سلكها مواطنونا اليهود في طريق هجرتهم خارج المغرب. ونحن في مؤسسة أرشيف المغرب لا ندخر جهدا في الحصول على نسخ منه.

في هذا الإطار، وقعنا عقد شراكة وتعاون مع مؤسسة يهودية بباريس مكنتنا من استرجاع وثائق غاية في الأهمية عن اليهود المغاربة.

حاليا، نتفاوض مع الرابطة الإسرائيلية العالمية ؛ ونتوقع التوصل إلى اتفاق قبل نهاية سنة 2017. في الحقيقة، واجهنا بعض المقاومة والرفض عندما بدأنا هذا المشروع سنة 2013. لكن لحسن الحظ التقينا عائلات تتمتع بروح المبادرة ولديها استعداد لمشاركة تفاصيل حياتها الخاصة. لقد زودونا بأرشيفهم الخاص في أقراص مضغوطة. اليوم بات بإمكاننا تجاوز الكثير من الأبواب المغلقة بفضل التكنولوجيا. من بين العائلات التي ساهمت في هذا المجهود عائلة كوركوس وعائلة حاييم الزعفراني.

وسنحصل قريبا جدا، ربما بمناسبة حلول بعثة فرنسية مهمة بالمغرب، على أرشيف منعنا من الإطلاع عليه منذ 2013. نتكلم هنا عن آلاف المستندات المتعلقة باليهود المغاربة والمغاربيين والتي تمت رقمنتها بمتحف بواشنطن وكذا في مؤسسة الأرشيف الدبلوماسي. في نفس السياق، يفترض أن نتوصل في منتصف شهر نونبر القادم بأرشيف كبير سيضخ ولا شك روح جديدة في البحث والتحليل والفهم المتعلق بجزء مهم في تاريخنا وحضارتنا المغربية العريقة.

رئيس الجلسة : خالد الزكري
المشاركون : أمينة عاشور، بيوس ديالو (موريتانيا)، عبد النبي دشين
فضاء : محمد عابد الجابري
التاريخ : يوم الأحد 24 شتنبر 2017
الساعة : 11 : 15 - 12 : 45

موجز مداخلات المائدة المستديرة

نظم مجموعة من الكتاب والمثقفين هذه المائدة المستديرة لمناقشة منهجية كتابة رواية أو قصة قصيرة، مما يعني النصوص الداعمة للقصص والتي تعتبر قصيرة أو طويلة وفقاً للكتاب والقراء والناشرين والنقاد الأدبيين.

إذا تناولت النسختان التحريريتان مواقف اجتماعية رومانسية، فكرية، سياسية وغيرها، وأن الرواية أو القصة لها بعد مكاني أو زماني، عدد الأحداث، مستوى التفاصيل وعدد الشخصيات، بذلك سيكون هناك اختلاف يميز الشكلين التعبيريين عن بعضهما.

يؤكد هؤلاء الكتاب والمثقفين على أن الرواية والقصة تتطلبان إتقانًا جيدًا لعناصرها من البداية إلى النهاية، لأن الشخصيات هي التي سترسم ملامح الرواية للقارئ. واحدة من خصوصيات القصة بالنسبة للقارئ، بلا شك، انتظار تغير وطفرة أحداث القصة وهو ما يعطي لمسة مدهشة للرواية أو القصة.

من الضروري أيضًا جعل اللغة وسيلة لتثبيت ما يريد المؤلف توضيحه وإيصاله وذلك من أجل بناء حبكة رائعة ومثيرة حتى اللحظة المتوقعة من النهاية.
في الرواية، لدى الكاتب أيضا إمكانية وضع عدة توجهات رئيسية وأخرى ثانوية. يمكن إجراء الملاحظة نفسها على عدد الشخصيات.
يعتقد جميع المشاركين أنه لا توجد وصفات للكتابة، بغض النظر عن اللغة، فتعتبر الحياة اليومية والمجتمع أرضًا خصبة لجميع الكتاب والمبدعين للاستفادة من القصص والمعلومات التي تصبح موضوعًا وجوهرًا لكتاباتهم.

يجب على الكاتب أن يختار الصور العقلية، التي يريد أن يرسمها في خيال القارئ ويجعلها ملموسة ومتجانسة مع ظروف ظهورها للتأثير على عقل القارئ، الذي لازال متأثرا بالعواطف التي أدرجها الكاتب في نصه. لا يهمل الأسلوب : بل يعتني به ويختار الكلمات والمصطلحات المناسبة.
يؤكد معظم الكتاب على أن اختيارات اللغة والوقت حاسم ومهم لخلق عالم خيالي والتماس الصور الوهمية والصور المرسومة والجاهزة مسبقًا في عقل وثقافة القارئ.

خالد الزكري

تتعلق هذه المائدة المستديرة بكيفية كتابة الرواية والقصة. هذا ليس عملاً تقنياً، بل هو تأمل في كيفية كتابة الرواية والقصة. أظن أنه ليس هناك وصفة سحرية لذلك. ولمناقشة هذا الموضوع، معنا كاتبين باللغة الفرنسية وكاتبين باللغة العربية : بيوس ديالو، الروائي الموريتاني، الشاعر أيضا ورجل الثقافة، والكاتب العربي عبد النبي دشين، والفلسطيني زياد خداش، وأمينة عاشور، التي قامت مؤخرا بحوار جيد جدا مع عبد الفتاح حول مساره الفكري، وهي وسيطة ثقافية نشيطة للغاية في الأوساط الثقافية، وخاصة الفرنكوفونية.

بشكل عام، القصة القصيرة لها نفس قصير في حين أن الرواية تتطلب نفسا طويلا. سوف نستدعي كلتا اللغتين. أبدأ بأمينة عاشور، للبدء بالخارج قبل الدخول تدريجيا نحو انعكاس العاطفة على الكتابة.

انطلاقا من مع هذا الطموح، لا توجد وصفة لكتابة القصة القصيرة أو الرواية. يبدأ بعض المؤلفين بالعثور على العنوان ومن تم الانطلاق في كتابة القصة. في حين يبدأ آخرون برسم قراءة للقصة وما إلى ذلك. يمكننا أولاً التمييز بين كتابة الرواية وكتابة القصة القصيرة : أمينة، كيف يمكنك التعرف على الاختلافات بين الاثنين ؟

أمينة عاشور

شكرا على تركيزك على عدم وجود وصفة سحرية للكتابة. ومن المعروف أن القصة القصيرة لا تتطلب الكثير من التعابير والشخصيات. وبالطبع، فإن النص القصير ليس رواية، لأن الرواية هي أساسا نص طويل للغاية.

عادة، نعترف أيضًا بأن هناك، في القصة القصيرة، نهاية دائما تدهشنا ؛ إضافة إلى أن كل شيء يعتمد على نوع القصص القصيرة خيالية كانت أم واقعية ؟ أنا شخصياً أحب قصص القرن التاسع عشر، فلوبيرت وموباسان. في جملة واحدة، يصفون الشخص ووضعه الاجتماعي. وفي جملة واحدة نعرف كل شيء بالضبط : إنه أمر لا يصدق هذا الإيجاز في القصة القصيرة كل كلمة مهمة جدا، كل شيء مدروس حقا... وبالنسبة للرواية، يجب أن نستحضر فكرتها أولا.

كل شخص منا لديه ما يقوله في هذا الموضوع، فكل واحد منا يحمل كتابا داخله. لو كنت أملك وصفة لكتابة الرواية، لكنت أنهيت روايتي ! لقد تعثرت بعض الوقت، وما زلت لا أستطيع الانتهاء من ذلك، ولكن على أي حال : أخبرني ما تقرأ، أخبرك ما ستكتب...

كان لدينا نقاش طويل مع صديقي موحى سواك حول كتابة الرواية. أنا معتدلة لأنني أقرأ كثيرا، وأقدم الكثير من المؤلفين، والكثير من الكتب، لكن ليس لدي أي وصفة للكتابة. إذا لم أستطع أن أقول كيف أكتب رواية، فأنا أعرف على الأقل ما لا يعجبني في الرواية. أنا لا أحب التصورات الجاهزة والأفكار النمطية فعلى سبيل المثال، حالياً، وللأسف عندما نفتح رواية مغربية، ما زلنا نجد الحمام، المسيد، الشوافة، إلخ. ليس من الضروري أن نشرح كل شيء.

أنا لا أحب التعامل مع القارئ على أنه شخص لا يفهم، بل المطلوب هو الاقتراح. في الحوار مثلا : يجب أن تعرف كيف تدير دفة الحديث. فلا داعي لقول : «*قال*» «*يقول*» في كل مرة، نحن نعلم أنه يتكلم، يمكننا أن نعرف متى يغضب، أو شيء من هذا القبيل.

وحتى في الحوار، هناك ثقل في بعض الأحيان. إضافة إلى أنه يجب على كل شخصية أن تتحدث للتعبير عن ذاتها، فلا يستطيع شخصان مختلفان التحدث بنفس الطريقة.

خالد الزكري

شكرا لإصرارك على مسألة الاستقبال كذلك. في الواقع، ما لا يعجبك في كتابة الروايات هو الصور النمطية. يمكننا تقديم هذه الفكرة للمناقشة، حيث يمكن للكاتب الذي يتقن علاقته بالكتابة استخدام هذه الصور النمطية وإعادة صياغتها، وبهذه الطريقة، يمكن أن يحيي الكتابة، أو على الأقل المساهمة في إعادة إحيائها. بما أننا في المعرض المغاربي للكتاب، دعونا نرى كيف أن كاتبًا موريتانيًا - سوف نعود إلى الصور النمطية في الحكاية الشفهية - السيد بيوس ديالو، يكتب رواياته. وهو أيضا شاعر لكننا سنركز على الرواية. كيف يتم إعداد ورشة للكتابة ؟ وكيف تبدأ في كتابة رواية ما ؟

بيوس ديالو

لا توجد وصفات للكتابة. الكتابة هي أولاً وقبل كل شيء مسألة نفسية، أن يكون لديك إلهام، ثم أن تدرك لمن نتوجه بالكتابة. هناك طرق مختلفة للتعامل مع الموضوع. يمكن أن يبدأ الموضوع من أي شيء. تخرج إلى الشارع، يتم الاعتداء عليك ؛ أو كنت في الحمام. اليوم مع الهاتف الخلوي تحسنت الأمور قليلا. فمن قبل كانت الهواتف المثبتة على الحائط تخلق مشاكل عديدة، فكثيرا ما وقعت حوادث موت في الحمام أو حوادث في المطبخ أو في مكان آخر، حين نسمع رنين الهاتف ونسارع للرد، فتتعثر أرجلنا بالكرسي فنقع... هل تتخيلون المشهد ؟ إذا توجد طريقتان للكتابة : إما أن تأخذ وقتك لمراقبة وتدوين الملاحظات، أو تقرر الكتابة دون أي اتجاه معين لمعرفة المدى الذي يمكن أن تذهب إليه. أنا على سبيل المثال، أكتب رواية وأعتمد على أحداث حقيقية ومعظم شخصياتي موجودة، بدءا من بيوس، وهو ليس اسمي، اسمي هو موسى - وأتطرق أيضا لمشكلة التعايش ومشاكل السود وغيرهم، كنت أرغب في الإستثمار في مجال الفلاحة كنت أفكر كثيرا في الأمر، وبكل بساطة، أقول إنه لا يمكن أن تكون هناك سعادة، أن نعيش معاً، إذا لم يكن هناك تضامن، إذا لم نفهم بعضنا البعض. وهكذا في رواية «فانتا» بالفرنسية والتي هي اختصار «للقوة المسلحة للعرب السود». هذا يعني أنه في مجال الرواية يمكن للكاتب أن يبدع انطلاقا من خياله، وأن يحاول أن يكتب يوميا وأن يسجل رؤوس أقلام. شخصيا، أكتب كثيرا في وسائل النقل العمومية، في الميترو، في الحافلة، في الطائرة. أكتب دائما ملاحظات وفي كل مكان. الأمر يعود لكم، لا توجد وصفات خاصة، يعني الكل مرتبط بشخصيتك، بمزاجك، بإحساسك، وبنفسك أساسا.

قبل كل شيء، حاول ألا تقحم الجانب الأخلاقي في شخصياتك، لأنك إذا قمت بذلك، فإنك بالفعل هذا يؤدي إلى الصراع. اترك شخصيتك حرة، كما لو كنت وسط عائلة : لديك أشخاص سوف يتناقضون معك، والبعض الآخر الذي سيحبك أو يكرهك. إذا كان لديك شخصية جامدة، فإنها ستمنعك من التقدم.

في روايتي القادمة، أعطي الكلمة للمرأة. أنا أحب الكتابة في الزمن الحاضر، بل هو اختيار للكتابة. البعض الآخر يكتب في الماضي. يمكن أن يتكلم الحاضر على الكون بشكل أفضل وهو معقد لأنه، عندما تصف شخصية، تستحضر ذاكرة هذه الشخصية التي تصفها. والذاكرة طبعا، في الماضي. على سبيل المثال، يتدخل وضوح الحوار أو خدعة الحوار : فالحوار شيء محدد ويجب أن تعرف كيف تضع شخصياتك في حلبة الصراع وتراقبها عن كثب. بعد ذلك، ستقدم أفضل شخصية جديدة في عالمك الروائي. تعودنا دائما، عندما نكتب أن نستخدم الماضي : لأنه فيه قيمة عند القارئ. فعندما تكتب قصة إن لم تأخذ وقتك الكافي، فإنك ستشوه قصتك، وهذا مميت. لا تتدخل أبدًا، حتى مع ابنك، مع ابنتك، خذ قاموسك، وعندما تقرأ كتابًا، ترى كلمة لا تعرفها، ضعها في جملة واحدة، حتى لو لم تفهمها.

هذه هي الطريقة التي تكتب بها القصة والرواية، وهي مختلفة تمامًا. أنا أحب الجمل القصيرة. عندما تكون الجملة طويلة جدا، كما قالت أمينة، لا تعتقد أن الكاتب يعرف الكثير، أو أن مستواه رائع، يبقى ذلك اختيار الكاتب (العمل بالصور : القميص الأزرق، الشمس، الزهور...) خذ كل الدروس الوصفية، استمع إلى النشرة الجوية، والشخص الذي يقدمه استمع له كذلك.

خالد الزكري

شكرا على هذه «الوصفات»، يعتبر الحاضر بمثابة رابط شبه حميمي، يكاد يكون مباشرا لولا الزمن الذي يبعد السرد عن القارئ. ونمر إذا للحديث عن القصة القصيرة مع الناقد المغربي عبد النبي دشين، صدرت له مجموعة قصصية تحت عنوان «رائحة الورس»، نحن نعرف أن لغة الإبداع لها علاقة وطيدة بتاريخية الأجناس الأدبية التي يكتب فيها الكاتب. بالنسبة للأدب العربي هناك المقامة، هناك الخبر كالكتابات القصيرة، وفي الأدب العربي وبالخصوص في الأدب المغربي، هناك بعض الكتاب يتحدثون عن القصة القصيرة جدا، أود أولا أن أعرف علاقة عبد النبي مع هذا المفهوم : القصة القصيرة جدا، ثانيا كيف قمت بكتابة «رائحة الورس» ونحن نعرف أنه على عكس الرواية، القصة القصيرة تحتاج إلى زمن قصير وكذا إلى اختزال عدد الشخصيات داخل الرواية.

عبد النبي دشين

أولا أنا مسرور أن أكون معكم، وأن أتقاسم معكم هذه اللحظة الإبداعية، لأن الحديث عن الإبداع هو بالضرورة إبداع، أحيي كل الحضور، والإخوة المبدعين الحاضرين معنا. كما قلت، إننا بالفعل في لحظة رفيعة جدا، أود بالخصوص تحية الأستاذ خالد على إدارته لهذه الجلسة، السؤال المطروح مباشرة، «حاولت أن تبحث عن علاقة الكاتب بكتابة القصة، وأشرت في معرض تدخلك إلى مسألة القصة القصيرة جدا»، إذا قبل ذلك، وفي الإطار العام لمحور هذه الجلسة، وعلاقة المبدع بالكتابة، هذا السؤال سنقاربه بمدخل آخر حيث أنه بالضرورة كل إنسان كاتب، إذا كان هذا الأمر بهذه البداهة، لماذا لا يكتب كل الناس ؟ بمعنى لماذا لا يمكن أن نكون كلنا مبدعين، هل المبدع يمتلك حساسية خاصة تميزه عن الآخرين أم أن هناك أشياء أخرى ؟ طبعا كل هذه التساؤلات هي مشروعة في إطار السؤال الواقع، لا يمكن أن نكتب لنتصالح مع الواقع، لحظة الكتابة مثل شرارة تنطلق في لحظة توتر. أن أكون صريحا مع الواقع، سأدخل في النسق، المسافة مع الواقع هي التي تجعلني أكتب، بمعنى الكاتب يرى ما لا يراه الآخرون، لأنه يمتلك عينا ثالثة هي انتقاء التفاصيل، أشياء مسكوت عليها، الأشياء الصامتة، الأشياء الهامشية، لا يمكن لمن لا تثيره الدهشة أن يكتب، والحديث عن شرط النوعية عن مستوى الأجناس في القصة القصيرة جدا، هذه التجربة الآن في الكتابة، وأنا شخصيا لم أجربها، ولكن أحاول أن أقراها لأن فيها نفس شاعري، وهي تذكرنا بتجربة الهايكو على مستوى القصيدة عند الأسيويين ولكن تجربة الهايكو تستند على خلفية فلسفية وحضارية وجماعية، لا يعني أن نختزل وأن نكتب خاطرة فتصير قصة قصيرة جدا، إذا معنى ذلك أن القصة القصيرة نفسها هي نوع من التكثيف لعوالم ولشخوص ولأزمنة القصة. كيف نكتب عن مصير كائن ما في لحظة معينة، بمعنى أن القصة القصيرة لا تكتب التفاصيل، هي تقوم بعملية تصفية التفاصيل وتلتقط مدخلا واحدا هو الذي سيكون عالما لحياتي الشخصية.

المستوى الثالث في هذا الموضوع هو علاقة القراءة بالكتابة نفسها، وهذا الذي سيعود بي للمدخل الأول الذي انطلقت منه، لا يمكن أن نتصور كاتبا خارج القراءة، لأنه في النهاية ما هي القراءة ؛ أنا عندما أقرأ هذا الكتاب، أقرأ بشغف كأنني أنا الذي كتبته، كاتبه كتبه بالفعل وأنا كتبته بالقوة، وهذا يفسر لماذا نميل إلى بعض النصوص والعزوف عن نصوص أخرى، إذا بالضرورة القراءة هي استثمار لفعل الكتابة، لماذا تثيرني كتب معينة دون أخرى ؟ لأنني أجد فيها ذاتي، كم من كتاب لو كنا نحن من كتبه، إذا هذا العشق واللحظة الفارقة بين الكتابة والقراءة هي الأساس طبعا الذي سيكون مدخل الحوار، أنا أضع نقاط فقط لإنعاش فعل المناقشة الآن، أعطي فقط رؤوس أقلام التي يمكن أن تفيدنا في بلورة هذا الموضوع.

دائما في إطار العلاقة بين القراءة والكتابة، نتذكر النصيحة القديمة وهي نصيحة لكل الشعوب ليس للعرب فقط، ولكن نحن نتحدث عن العلاقة بين العربية عندما سأل شخص كيف يصير شاعرا، تتذكرون قصة خلف الأحمر عندما حفظ ألف بيت ثم نسيه، إذا المسألة العددية مهمة ولكن ليست مهمة بشكل كبير.

ما معنى أن نحفظ ألف بيت ونتساه، عندما نقرأ ونحفظ لا ننسى. في هذه اللحظة نتذكر الصورة التالية : بأن المطر يخزن في المياه الجوفية، نعتقد أن الفرشة المائية لا تختزن ذلك الماء ولكن في لحظة ما نجد ذلك الماء، نفس الشيء كل ما نقرأه ونخزنه ينبثق في لحظة معينة، ليكون مؤشرا لملاحظتنا لهذا الحدث لنكتبه، لنتجاوزه، بمعنى أن كل مدخراتنا هي بمثابة مادة خام للكتابة، زيادة على ذاتنا ومشاعرنا وأحاسيسنا، وحساسيتنا في الواقع، وهذه الحساسية التي سميتها رحلة التوتر مع الواقع.

خالد الزكري

نرى أن المؤلفين يملكون طريقتهم لكتابة قصة قصيرة بالإضافة إلى الروايات. تقول أمينة إنه يجب تجنب الملل فقط، إلخ. في الواقع، ما يميز الكتابة عن الرواية والقصة القصيرة هي، أولاً، مسألة الوقت. في القصة القصيرة، لا بد من تقليص وقت الكتابة، وبالتالي فإن وقت كتابة القصة القصيرة ليس هو نفسه بالنسبة للرواية، إذ ذلك وقتا أطول، وبالتالي يكون وقت الكتابة أبطأ.

بالنسبة لمسألة عدد الشخصيات في الرواية، يجب ألا يكون لديك أكثر من شخصية أو ثلاث شخصيات في الرواية إلى جانب الشخصيات الخيالية. وفي القصة القصيرة، لا يمكننا أن نخلط بين الشخصيات، وفي الوقت نفسه، لا يمكن للرواية أن تكشف الأحداث، وغالبا، أصف ما أقوم به بالحذف : نحاول القفز على الكثير من الأحداث ونذهب إلى الأساسي، لأنه لدينا صفحات قليلة ويجب أن نقول أو على الأقل أن نحكي. من الأفضل التفاعل مع الجمهور. قد نتحدث أيضا عن أدب السرد الجديد بمعنى الرواية الأمازيغية، لأن هناك شيئا خاصا يجري في المغرب، يكتب باللغة الأمازيغية.

يمكن ملاحظة أن الرواية باللغة الأمازيغية هي أكثر «قروية» من اللغة العربية أو الفرنسية. أولا، هناك قضية الارتباط القوي بالمجال. وعلى عكس مؤلفي اللغتين العربية والفرنسية، اللذين يشتغلون في إطار آداب مرتبطة بأماكن متعددة، وبتجربة تاريخية كبيرة.

ولذا، لا بد أن تخترع الكتابة باللغة الأمازيغية لغتها السردية، لأنه ليس من السهل كتابة رواية وخلق الشخصيات في لغة كانت شعرية بالأساس، لغة تحتاج إلى استيعاب النسيج اللساني للمجتمع للتعبير عنه بطريقة معينة. كيف يبتكر كتّاب اللغة الأمازيغية لغتهم الروائية ليقولوا المغرب اليوم أو المغرب الكبير اليوم ؟ حان الوقت إذا لإتاحة الفرصة للأسئلة والتعليقات.

سناء

أود أن أطرح سؤال على الأستاذ دشين، المغرب الآن يعتبر مختبر للقصة القصيرة، أشكال متعددة من الممارسات لهذا النوع، ما الذي يحصل، لماذا القصة القصيرة والقصيرة جدا بالضبط ؟ هل هناك عزوف عن قراءة القصة أم أن هناك خصوصية للإبداع المغربي ؟

مداخلة

الرواية والقصة القصيرة هي محاولات حديثة في الأدب الأمازيغي. الشعر في الأساس كان شفويا، والقصة أيضا. اليوم، نشهد ظهور الحركة الثقافية الأمازيغية وكذلك النخب التي تشكلت في المدارس العامة، والمدرسة الحديثة، وكذلك النخب الأخرى في مجال الأدب العربي. أما بالنسبة للرواية، معنا كاتب باللغة الأمازيغية سيشرحها بشكل جيد. لكن في الروايات التي تكتب اليوم باللغة الأمازيغية، لا يزال هناك حضور قوي لموضوعات التقليد الشفوي، ويبرز موضوع رئيسي، وهو الهوية.

لدي سؤالين وجيهين : هل تعتقد أن الرواية تحترم بالضرورة الأنماط السردية التقليدية ؟ هل في مرحلة أو أخرى، خلال العملية الأدبية، تشعر بالحاجة إلى أن تعيد القراءة ؟

مداخلة

أدرس الأدب الإفريقي بالفرنسية والأدب الشفوي منذ أربعين عامًا. لم أصل أبدا إلى الكتابة. هذا ما أسميه عقدة الشخصية العظيمة التي تريد الكتابة ولكن لا يمكن لها أن تتجاوز الجملة الأولى. كيف نتخلص من هذه العقدة ؟

الأستاذ عبد الرزاق

لدي سؤال في أسلوب الكتابة في اللغة العربية، هل من الممكن أن نكتب باللغة الدارجة أم نستطيع أن نكتب باللغة العربية ونقارنها ببعض الكلمات بالدارجة ؟ هل هذا أسلوب شائع ؟ وهل هذا الأسلوب فطري أو يجب صقله عبر القراءة ؟ شخصيا، شكلت القراءة مصدر إلهام لي. ولعل المتداول هو أنه من بين كل الكتاب الفرنسيين، يعتبر فلوبير الأكثر براعة في مجال الكتابة.

مداخلة

أود تقديم الشكر وتهنئة الكتاب الذين يقدمون لنا بعض النصائح. لقد كنت أعمل في وجدة لبعض الوقت وكنت من بين المتقدمين لورشة العمل هذه. التقيت رئيس هذا المعرض. طلبت منه أن أسجل بورشة العمل هذه لتعلم الكتابة. قد تكون هذه حاجة شخصية، أو ربما لمشاركة جمهور كامل من المسؤولين والطلاب والأساتذة... عندما يطلب مني عمل، يمكنني كتابة بضع صفحات بطريقة غير مألوفة، ولكن لكتابة رواية... هذا ليس واضحا في حياتنا اليومية : في بعض الأحيان لا يوجد وقت لكتابة الكثير عن حياتنا اليومية، لكني أستعير من مدرسي الأدب الإنجليزي صيغة «خمس دقائق من الكتابة يوميا» لذلك، يمكنك دائماً العثور على خمس دقائق للكتابة. علاوة على ذلك، حتى الوزراء لا يزال لديهم الوقت للكتابة، وحتى صديقي السيد بوكوس، رغم كل مسؤولياته، ما زال يكتب. لذلك ليست مسألة وقت : إنه شيء آخر أو بعبارة أخرى، لسنا دائما في حالة سلام، ولكننا نجبر أنفسنا على الذهاب إلى ما هو أبعد من العقدة التي أثارها صديقنا أستاذ الأدب الإفريقي.

أمينة عاشور

أبدأ بمسألة أستاذي السابق السيد بوكوس، صحيح، عندما يرغب المرء في معرفة كيفية كتابة الأخبار والرواية، في كل مرة يعود فيها المرء إلى ما يُقبل عادة. الآن، ما نحبه نحن القراء هو عندما يبرز شخص ما، ويخرج عن العادي والمتداول، ويجد طريقة جديدة للكتابة بلغة جديدة. هناك، أوافق على السؤال الذي طرحته عن أسلوب الكتابة. أعتقد أنه لا ينبغي أن تكون لدينا عقدة، لأننا لن نتقدم أبداً في الكتابة. يجب أن تستلهم من الكبار، بالطبع، لأن عليك أن تقرأ الكتابة، ولكن لابتكار لغتك الخاصة، لخلق أسلوبك الخاص، لغة في اللغة. على سبيل المثال، باتريك شاموازو : نحن نرى هذه اللغة الملونة، نشعر في كتاباته، ونرى أنه لديه لغته الخاصة، وأسلوبه الخاص، وهذا هو المثير للاهتمام في اللغة. لذا، تجاوز عقدة الكبار، وإلا لن يكتب أحد بعد الآن، لأننا سنقول أن كل شيء قد قيل. لكن لا : يمكننا قول الشيء نفسه بطرق مختلفة. ثم أعتقد أن الأدب أيضًا يلبي حاجة معينة. يجب أن تكون لديك الرغبة في الكتابة وعندما يكون لديك هذه الرغبة، يعتمد الأمر على السبب. وفي بعض الأحيان تكون قد تذكرت شيئًا، أو لتخليد حدث ما، من أجل وظيفة علاجية، شهادة... وأخيرا، أعتقد أن كل شخص لديه ما يقوله.

عبد النبي دشين

طرحت الأستاذة سناء مشكلا ملحوظا بالفعل، لنتساءل لماذا هذا الحضور المثير والقوي للقصة القصيرة جدا، طبعا أنا أظن أن هذا السؤال دقيق لأنه تساؤل أكثر منه سؤال.

وهي أجابت عندما طرحت هذا التساؤل، بمعنى أن هذا الحضور القوي هل هو استسهال لهذا النص ؟ أو أن هناك طريقة جديدة أو لأن التحولات الآن صارت تفرض نوعا من النصوص التي تتميز بالكثافة والدقة والإيجاز، لأن هذا ينطلق أيضا من السياق التكنولوجي وثورة المعلومات التي عرفناها ؟ بمعنى أن الآن ما عدنا نتحدث عن الأعمال الخالدة والطويلة ؛ نريد أن نعطي بأقل عدد من الكلمات.

إذا هذا النوع من الاختصار مهم جدا. ولكن هذه الإمكانية لا تتأتى كما هو الحال في السينما، علاقة الفيلم القصير بالضبط، فهو يحتاج إلى اللغة، عبد الرحمان منيب كان يقول أن كتابة القصة القصيرة مثل الطلقة بالرصاص إما أن تصيب أو أن تخطيء، وهنا تكمن الصعوبة. فعندما نكتب رواية نجد مساحة، نأخذ بعض التغيرات وبعض التحويرات، أما القصة القصيرة فهي دفعة واحدة بمعنى يجب أن تعرف كيف تصيب، نوع من الإتقان، نوع من الحرفية.

الأستاذ بوكوس أيضا في تساؤله عن العلاقة ، طبعا التي طرحها الأستاذ خليل في الكتابة بالأمازيغية، ولكن الأستاذ بوكوس عرض موضوع مهم وهو حداثة هذا النص، القصة والرواية، باعتبار المجتمعات العربية مجتمعات شفهية، بمعنى أن هذا التراكم لم يفرز بعد إمكانية امتلاك نوع من الخصوصية في الكتابة، ولذلك كنا نقرأ وبأذاننا نستمع، هذا البعد الشفوي حاضر، وهو الذي سيعطيني مدخلا للإجابة على تساؤل الأخ مجيد، الذي تساءل عن الكتابة بالدارجة أو تضمين الدارجة. يمكن الإجابة من خلال مستويين، أولا عند تضمين الدارجة فلا يمكن أن نتحدث عن الكتابة بالدارجة.

طبعا في الشعر والزجل نكتب، ولكن عندما نحكي لا يمكن أن نحكي نصا بالدارجة لأننا سننتقل إلى سجل آخر في الكتابة. إذا ما طرحته في السؤال الثاني هو المقبول، لماذا، لأنه نحن نكتب ونسرد شخصية من المفروض أن تكون الكلمة الدارجة، بمعنى تتحدث فرضيا عن ذاتها، وليست أبدا هي صوت الكاتب، فهناك نوع من الكتاب هم من يجعلون من الشخصيات أبواق لتمرير أصواتهم، بمعنى لكي نعطي للشخصيات هذا النوع من المنطق في الواقع، ومنطق في الصيرورة السردية نجعلها تتكلم في بعض الكلمات، وأيضا حتى في بعض الكلمات بالدارجة لها وقع على مستوى التلقي.

فمثلا لا يمكن أن نكتب كلمة (الحكرة) لا يمكن أن تجد لها بديلا، ستجد بديلا ولكن محايدا، أيضا طرح الأستاذ مجيد مسألة الانضباط للمعايير. بالعكس، الكتابة التجريبية الآن تقوي أركان المعيار، إذ تعتبر نوعا من التهشيم لبنية ومعمارية النص، بمعنى أن الكتابة على مستوى السرد الخطي انتهى الآن. إذا هناك تداخل وتكسير لنمطية السرد، لماذا، لأن ما يقع في الواقع لا يقع بنفس الإيقاع، إذا هذا التهشيم لكل ما في الواقع، كل منظومة القيم تهشمت، العوائق تهشمت، إذا بمعنى ذلك أن تكتب عن واقع مثل هذا، لن تكتب عنه إلا ببنية مهشمة مفككة، فيصير نوع من التوازي بين تفكيك الواقع وتفكيك الكتابة....قد يكون النص كلمة واحدة، قد تسمع كلمة في الشارع، فتسكنك، تتفاعل معها، وبالنسبة لورشة الكتابة، وأيضا مسألة الوقت صحيح، لأن الكتابة هي في كل وقت، هذا التصور الرومانسي للكاتب سيكون له وقت معين. هذا التصور انتهى،

إذا في كل لحظة تكتب، تلتقي وتخزن، ما تحتاجه هو خلق وقت لإخراج هذه العناصر، تحدثت عن انطلاق الشرارة، إذا في كل لحظة تنطلق الشرارة، بمشهد معين استفزك، وأنت تقرأ رواية، صورة معينة، شخصية معينة، هذه شرارة أيضا. ولكن بالنسبة لأستاذ عبد الرزاق، كل ما طرحته هو هذا التوتر، أن تعيش لحظة التوتر، من هنا المدخل، عندما لا تتصالح مع الواقع وقت ذلك تعرف انك في الاتجاه الصحيح، يجب أن تستثمر هذا التوتر استثمارا إيجابيا خلاقا وإبداعيا.

خالد الزكري

السيد ديالو، ما يميز الأدب الصحراوي، هو إدخال لغة الحياة اليومية، وبالتالي نسيج الكتابة السردية، هي التي تطرح هذه المشكلة.

لكن أعتقد أن المشكلة بالنسبة للكتاب العرب هي كيفية إدخال اللهجة في الكتابة باللغة العربية الفصحى لأنها مسألة تلقي واستقبال. وفي الشرق العربي، على سبيل المثال، قضية اللهجة تطرح مشكلة التلقي لأن القارئ لا يفهم هذه المفردات والمصطلحات، سواء كانت مصرية أو إيرانية...
يجب على الكاتب معرفة كيفية إدخال اللهجة المغربية بطريقة متسقة مع اللغة العربية الفصحى. البعض قد نجح وآخرون لا. كيف يمكن جعل اللهجة المغربية في متناول القراء من غير العرب المغاربة ؟ هناك كلمات مشتركة بين المتحدثين في العالم العربي والتي يمكن أن نجدها من خلال نطق اللغة نفسها ؛ لذلك يمكن للمرء أن يستخدم في بعض الأحيان اللهجة المغربية ويجعلها مفهومة من خلال اختيار المفردات، واختيار بناء جمل مفهومة أيضا من قبل القراء الآخرين. وغالباً ما يرفض الناشرون مخطوطات باللغة العربية يكتبها المغاربة أو الجزائريون الذين لديهم نفس المشكلة والتونسيون أقل من ذلك بقليل، تحديداً بسبب هذا الإفراط في صياغة النص باللهجة. لا أعرف كيف يفعل كتاب الصحراء الكبرى ذلك. وأنا أعلم أنهم يقدمون بنيات لغوية ولكن دائما في إطار اللغة الفرنسية.

بيوس ديالو

سأتفضل بالإجابة على سؤال الأستاذ نجيب. لأجل ذلك من الضروري أن نستحضر أن الكتابة لا تخضع لقواعد محددة. فأنا أكتب لساعات طوال بدون انقطاع ؛ مثلا من الثامنة صباحا إلى منتصف النهار. لهذا يمكن القول أنه يمكنك أن تكتب في أي وقت. حاول ألا تكتب رغما عنك، لأن القيام بذلك يحد من خصوبة تفكيرك وخيالك، هذا أول ما ينبغي التفكير فيه. بعدها، يستحسن الابتعاد قدر الإمكان عن كتابة سيرتك الذاتية، إذا لم تكن لديك الرغبة في القيام بذلك. إذ يمكنك كتابة أي شيء آخر لا يتعلق بالضرورة بحياتك، على سبيل المثال : «*أنا امرأة*»، ومن ثمة، أكتب عن شخصية لا تعبر تماما عما أمثله حقا. أعتمد من أجل القيام بذلك على تصور مغاير أو رؤية مختلفة. إنها إحدى المغالطات التي يسقط فيها العديد من الأشخاص اليوم، أي أنهم يظنونا نكتب بالضبط عن ذواتنا. هذا ليس صحيحا البتة، فنحن نكتب من خلال تصور معين. مثلا في الشارع قد ترون شخصا ما وتقولون في قرارة أنفسكم بأننا متناقضون.
بالنسبة للمسألة الثانية، التي تتعلق بما ذكره الأستاذ من قبل : فكرة أنه إذا لم تفكر جيداً، ستصعب عليك الكتابة، تسقط في أخطاء نحوية ولغتك ستصبح ركيكة. لست متفقا بتاتا مع هذا الطرح، فالكتابة أحاسيس وليست قواعد، والدليل على ذلك هو وجود كتاب أطباء، علماء ورياضيون... لا تهمهم قواعد النحو بقدر ما يهمهم الإبداع والإلهام. بدون شك سيقول أستاذ اللغة الفرنسية أن الجملة الصحيحة تتكون من فعل وفاعل ومفعول به، وأن اللغة تتكون من مرادفات عدة للكلمة الواحدة، وإذا أراد الكاتب الابتعاد عن قواعد اللغة، لن يبدع، ماذا يعني هذا ؟

هذا يعني إن فكرنا اليوم في الكتابة بالأمازيغية، السوسية أو غيرها من اللهجات الأخرى، سنجد صعوبة كبيرة في نقل ذلك إلى اللغات الأجنبية، كالفرنسية والإنجليزية، بحيث سيكون نصنا مغايرا تماما للنص الأصلي. اللغة تتبع معايير ومقاييس أخرى، فإذا كان وصفكم أمازيغيا، اكتبوا بالأمازيغية وإذا كان فرنسيا، عبروا بالفرنسية. الأصعب هو التعبير كتابة عن عبارات لا يمكن كتابتها.

في غالب الأحيان، يضع البعض في نصوصهم علامات أو كلمات تشير إلى مجموعة من التوضيحات في آخر الكتاب أو على الهوامش، إلا أن ذلك من شأنه أن يؤثر على تركيز القارئ. في رأيي، إما أن توضع هاته التوضيحات في آخر الكتاب أو أن تكتب في إطار خاص بها، مما سيجعل الرجوع إليها سهلا. هذا للأسف ما يقوم به الكثير، فيتسبب في عرقلة عملية استيعاب القارئ للأحداث.

أعتقد أنه عندما نقرأ كتابا أو جريدة، نجري حوارا مع النص، ونقول مثلا أن شخصا معينا وضع اللون الأزرق هنا وعندما نمعن النظر، لا نرى ذلك اللون. فالمطالعة سفر وحلم يقظة، طريقة فهمكم وتحليلكم للأشياء، لما يحيط بكم. الكل يساهم في ذلك الاستيعاب : المحيط، النص، الضجيج، مدى انسجامكم مع النص، كل شيء. حاولوا قراءة كتاب في وجدة ثم في الدار البيضاء، لن ينتابكم أبدا نفس الشعور. هذا يعني أنه لا يجب أن ترغموا أنفسكم على كتابة شيء ما، فقط لأجل الكتابة. وفي حالة الإقدام على الكتابة، عبروا بكل الكلمات، أقصد تلك الكلمات الخاصة بكم.

يمكنكم أيضا البحث عن شخص لإعادة قراءة نصوصكم مرة ثانية. في يومنا هذا، أصبحنا نعيش وسط أشخاص لا يفقهون في الأدب شيئا، ومع ذلك يمتنعون عن الاعتراف بذلك. هناك من يكتب فقط لأنه أكثر شعبية وسط أبناء جيله، بيد أن أسلوبه ليس في مستوى تطلعات الآخرين. يستغل ثقة قرائه وسذاجتهم في بعض الأحيان وهذا أمر صار شائعا.

لا أقول بالطبع أن الجميع يتبع هذا المنوال، لأن ذلك ليس صحيحا. غالبا ما يتعلق الأمر بالكتابة الدرامية أو بالمقالات الفلسفية. هذه كلها أمور حقيقية وعندما أحدثكم عنها، أنطلق من الواقع المعيش. لهذا، لا تنسوا أبدا أن مستوى تألقكم رهين برأسمال الثقة الذي يمنحكم إياه قراؤكم.

خالد الزكري

شكرا على تطرقك خلال حديثك لمجموعة من النقاط. قد لا أتفق معك في بعض الأمور، إلا عندما أشرت لأستاذ الفرنسية على أساس أن علاقته باللغة هي علاقة قواعد ودروس، أي أنه ليس بكاتب، ولا يفقه في الأدب شيئا. وكما قالت أمينة، إنه شخص لديه معرفة فقط في النحو والأساليب البلاغية، ولا علاقة له بالأدب، حيث أن الأدب يقود إلى اكتشاف عوالم مختلفة من الضغوطات والابتعاد عن القواعد وخصوصا فقدان التركيز في عدة أحيان. تحدث أحدهم يوما عن فلوبير، فقال بأن تفكيره معقد جدا، لأنه كان أول من استعمل كلمة اليوم، التي تعبر عن الزمن الحاضر، بجانب فعل أعربه في الماضي. هذا بالضبط ما يعنيه الأستاذ الذي يطلب من تلامذته جمل مكونة من الفعل، الفاعل والمفعول به.

أترون ؟ إنه لغوي وليس بكاتب. أشرت خلال مداخلتك لإشكالية مهمة : نلاحظ أن مجموعة من الكتاب المغاربة وكتاب إفريقيا جنوب الصحراء يميزون بين التعبير الكتابي وكتابة رواية أو قصة قصيرة. في هذه الحالة، يتدخل الأستاذ، لأن التعبير كتابي لا ينبغي أن تضم أحداثه تطورات زمنية أو قراءة تاريخية، كيفما كان نوعها، بحيث أن كل هاته الخاصيات هي بالضبط ما يتصف به الأسلوب الأدبي.

سناء

أود أن أعرف كيف لنا أن نعيش مع الكتاب أو نلتقي بهم، إلخ. هناك من يطلب مني أن أكتب روايات، إلا أنه ليس بوسعي القيام بذلك بصفة مستمرة. لست مضطرة للقيام بذلك. أتساءل حينها، كيف يمكنني أن أصبح كاتبة ؟

أطرح كذلك سؤالي على مسامع محمد نضالي الذي لطالما قال لي : «*أنا أيضا* يمكن *أن أصبح يوما كاتبا*». كان أستاذا لمادة اللغة الفرنسية، استفاق يوما على أمل تحقيق حلمه المتمثل في أن يصبح كاتبا. قرر بعدها الانعزال وانكب على المطالعة بنهم شديد لمدة خمس سنوات. كان دائما يقول بحزم وإصرار : «*سأصبح كاتبا بعد خمس سنوات*». اليوم، هو أحد أكبر كتاب المغرب.

مداخلة

لترجمة كتابات من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية مثلا، يجب السير في طريق وعرة من التركيبات النحوية الخاصة بلغة الانطلاق واللغة الأم، بالإضافة إلى المشكل الثقافي الذي يطرح نفسه بشدة.
نذكر على سبيل المثال كلمة «شمس» التي لا تعني فقط كوكب من الكواكب بل النظام الشمسي بأكمله... في السنغال، إذا كانت لديك ميولات أدبية، ينصحك الجميع بدراسة السينما، على أساس أنها شعبة ثانوية، لا يأبه بها الجميع... من الضروري الاشتغال على اللغة والأسلوب، لأن هذا الأخير غالبا ما يكون شخصيا، خاص بالكاتب. هذا ما يسمى بالأسلوب الأدبي.

مداخلة

يوم أمس، شاهدت برنامجا تلفزيا وتساءلت : هل يمكنني أن أصبح كاتبا ؟ قرأت قبل 50 سنة كتابا، مازلت أتذكر عنوانه، لكني نسيت إسم صاحبه. إنه كتاب «حرب الأزرار» ، الذي يعبر بالضبط عن الحرب التي نعيشها اليوم. إنه حقا كتاب شيق ومفيد، بحيث أنني لم أستطع، بعدما قرأته، نسيانه وعشت وسط الكلمات التي تزين كل صفحاته لغاية آخر فقرة. كان يضم كذلك قصة مصورة نالت إعجابي كثيرا. خصوصا أنه من خلال هذا الجنس الأدبي الجديد تعلمت الشيء الكثير واكتسبت كلمات فرنسية جديدة.

مداخلة

أنا هنا بصفتي زبون وليس مريض. تعلمت منك الشيء الكثير والآن سأحاول تلخيص كل ذلك. بالنسبة للقصة القصيرة، يجب أن نلتزم الإيجاز والدقة، من دون الغوص في تفسيرات معمقة. هذا بالضبط ما ذكره السيد ديالو. إنه وضعي الحالي الذي أود التخلص منه. إن هذا الخوف وهذا الرهاب يؤرقني. فأنا أهاب كابوس النحو وقواعد الصرف. أعلم أنه من يقرأ كثيرا يصبح كاتبا ناجحا وأنا أقرأ. أقرأ الشعر المعاصر، إلا أنني لم أتمكن بعد من إخراج ما ينتابني من أحاسيس للوجود. لقد رسمت خط بدايتي، أعلم الآن أين سأكتب، غير أنني مازلت بحاجة ماسة إلى الشعلة التي يتميز بها كل كاتب شارك في هذا المعرض، لمد يد العون لكل من هم في حالة ضعف. أما الباقي، فهو مسألة جهد شخصي.

مداخلة

سؤالي هو : كيف يمكن لي أن أكتب قصة قصيرة ؟ عندما تكون لدي فكرة، أعبر عنها، غير أنني أحس أن ذلك ليس كافيا، بحيث أود كتابة المزيد. عندما أقرأ كتابا، أرى أن صاحبه عبر عن عدة أشياء، من خلال فكرة واحدة فقط. لهذا، هل هناك وصفة سحرية لتحقيق ذلك ؟ أعرف أنه سبق وقلت أنه لا وجود لوصفات، إذا أود فقط أن تشارك معنا أفكار جديدة تجعلنا نصنع كتابا كبير الحجم.

مداخلة

أود أن أبدأ تساؤلاتي : أمة تقرأ أو لا تقرأ ؟ العديد من الأبحاث أكدت على أن الشعوب العربية تقرأ بمعدل ستة دقائق سنويا .السؤال المطروح، كيف يمكن للنخبة المثقفة تحفيز الأطفال والشباب على القراءة وتشجيعهم على الإبداع والكتابة، لكي يصبحوا مفخرة الوطن.

السؤال الثاني، لماذا نرى نفس الوجوه المعروفة في مختلف التظاهرات الثقافية دون الاكتراث باستضافة الكفاءات الشابة والوجوه الجديدة التي تطمح للنجاح، فكما لاحظتم حضور فئة الشباب كانت قليلة جدا، فنحن نتكلم عن الكتاب، والعنوان الرئيسي هو الشباب والقراءة، هناك اقتراح، حبذا لو تواضع المثقفون للنزول من أبراجهم العاجية للاحتكاك بفئة الشباب ليكونوا لهم قدوة وللإجابة عن تساؤلاتهم عبر مختلف المواقع الاجتماعية، لتوجيههم نحو مستقبل زاهر أكثر تفاؤلا، مستقبل يعتمد أساسا على شباب مثقف ومنفتح على ثقافات العالم.
تساؤل آخر، ألا يمكن اعتبار الرواية القصيرة كأحد الحلول الناجعة لتربية الناشئة وغرس القيم الأخلاقية التي صرنا نفقدها في مجتمعاتنا المعاصرة ؟

خالد الزكري

يلاحظ هذا الشاب غياب الكتاب الشباب، إذ لا وجود لهم اليوم في الساحة الأدبية. هذه ملاحظة سبق أن أثيرت. لماذا إذا لا يقوم المفكرون بتوعية الشباب وتقريبهم من واقع الأدب، خصوصا عبر وسائل التواصل الاجتماعي ؟ ما سبب هذه القطيعة ؟
يحتاج الشباب إلى التنوير من قبل المفكرين ذوي تجربة ومراس، كما يمكن لهؤلاء الشباب أن يقوموا بدورهم بتنوير المفكرين. هذا سؤال وجيه، يندرج ضمن محاور هذا اللقاء. لك الكلمة أمينة.

أمينة عاشور

لماذا لا يشارك كل من الكتاب والمفكرين أدبهم مع الشباب ؟ سأطرح السؤال بصيغة أخرى : لماذا لا يشارك الشباب في جل الأنشطة الثقافية ؟ ينظم المعهد الفرنسي بالرباط العديد من الأنشطة باستمرار، وأنا من يقوم شخصيا بتثبيت الإعلانات على جدران الكليات، إلا أن حضورهم قليل جدا. هذا أيضا عمل يتطلب تكثيف الجهود : يجب أن نهتم بالثقافة، لن نبحث عن الناس ونطلب منهم الحضور لأنشطة ثقافية.
نادية السالمي تقوم بمجهودات جبارة في هذا الإطار، مثلا عند إطلاق برنامج : «القراءة للجميع»، قامت بتنظيم ورشات القراءة والكتابة، كما هو الحال بالنسبة لزملاء آخرين. لذا، أظن أنه في مجال التواصل مازالت الهوة كبيرة، أو ربما لم يتم إخبار الشباب بكل الأنشطة بالشكل المطلوب. على الأقل، أتحدث عن مدينة الرباط بحكم درايتي بما يجري فيها، على مستوى المجال الثقافي.
فيما يتعلق بمسألة عدم القدرة على الكتابة، أعتقد أن تنظيم مثل هذه المعارض يعني بالضبط أن الكتابة موهبة لا يجب أبدا إحاطة قواعدها بالقدسية، والسيد نضالي خير دليل على ذلك. عندما يحكي كيف تخلى عن قدسية الكتابة، ينتابنا إحساس رائع. فيقول : «*لقد قرأت كتاب كامي المعنون بالغريب*» وبما أن هذا الأخير حاز على جائزة نوبل للآداب، قرر إزالة قدسية الكتابة والشروع في ممارستها.
هل لهذا الشاب موهبة كبيرة في كتابة القصة القصيرة ؟ البعض من الكتاب يستطيعون إبداع قصص قصيرة، جميلة ولا تخلوا من دروس وعبر، إلا أننا لسنا مضطرين لمحاكاتهم. في المقابل، البعض الآخر يكتب أشياء طويلة جدا. لذا، أن يلهمك أحدهم فهو أمر جيد، غير أن فكرة تقليد الكتاب لا أراها بتاتا مناسبة. ينبغي البحث عما نحب، عن الطريق الخاصة بنا.

بيوس ديالو

أحاول، بصفتي مديرا مسؤولا عن القراءة والكتاب، تحبيب المطالعة للشباب وتقريب الكُتَّاب إلى القراء الشباب. هذا عمل مهم. وفي المقابل، أقوم بتنظيم مهرجان الكتاب والقراءة. بالإضافة إلى الكم الهائل من ورشات القراءة التي ننظمها كل سنة مع ضيوفنا من الكُتَّاب. قبل وصولهم، نطلع على إصداراتهم وبرامجهم الثقافية، لكي نشرك الشباب باستمرار في ورشات المطالعة هذه.

كل شهر، نقوم بتقديم كاتب معين. إضافة إلى تنظيمنا لنهائيات مهرجان يستطيع من خلاله المشاركون من الشباب الحصول على تسجيل سنوي مجاني في مراكزنا الثقافية الفرنسية، سواء المتواجدة بالمغرب أو بفرنسا. يستفيد الشباب كذلك من برمجة ثقافية متنوعة، خصوصا في عطلة نهاية الأسبوع، عند تنظيمنا لورشات ثقافية.

لهذا، أظن أنه ينبغي على الشباب الاطلاع على المعلومات والاستفسار، ثم المزيد من القراءة. فلا وجود لوصفات سحرية تمكن من الكتابة. الرغبة، الإرادة ثم عدم التقيد بقفص البنيات النحوية والتركيبية للغة. ستكتب وفي آخر المطاف، ستجد الصيغ المناسبة لذلك، سواء تعلق الأمر باللغة الفرنسية أو الانجليزية.

عندما تكتب كتابا، فبمجرد نشره لا يبقى في ملكيتك الخاصة، لذا، فمن الضروري القيام بواجبك هذا على أكمل وجه، ثم إن الشهرة أو الشعبية التي ترافق الكاتب، لا تعتمد في الحقيقة عليه، بل على الشباب. يجب وضع كل الثقة في الطاقات الشابة، تلك الطاقات التي تشكل مستقبل اليوم. فالطفل مثلا قد يعلم شخصا يافعا أشياء عديدة. وفي يومنا هذا، نجد أن الأطفال هم أكثر الناس قدرة على تعليم الكبار، خصوصا فيما يخص بعض الأمور التقنية المحضة...

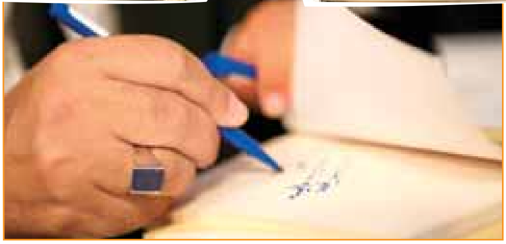

برنـامــج الأنـشـطة
الـيـومـي

الجمعة 22 شتنبر 2017

00:11 - 30:09

الشباب المغاربي : العيش هنا أو الحلم بالهناك ؟
إدريس اليزمي،
نعيمة ياحي،
جامع بيدا،
العربي امرابط،
الصديق معنينو،
نزار بن سعد
رئيس الجلسة :
محمد امباركي

شباب المغرب الكبير : بحث منجز بشراكة مع الاتحاد الأوربي
زكريا القادري،
سكينة بوراوي
(تونس)،
نصرالدين حمودة
(الجزائر)
رئيس الجلسة :
نورالدين بوصفيحة

الهجرة، أسطورة العودة
عادل الجزولي،
فتحي بن سلامة
(تونس - فرنسا)،
جليل بناني
رئيس الجلسة :
إدريس جعيدان

الكتابة ضد الجدران
زياد خداش،
منير سرحاني،
عيسى مخلوف،
ماحي بينبين،
الحسين الطنجاوي،
عبدالرحمان بوعلي
رئيس الجلسة :
منير سرحاني

30:12 - 15:11

الهجرة والكتابة
واسيني الأعرج (الجزائر)،
حسونة المصباحي (تونس)،
نعيمة لهبيل التجموعتي،
عبد الله ولد محمدي
(موريتانيا)
رئيس الجلسة :
محمد الأشعري

الكتابة والإبداع في السنغال
مريمة نْضووي (السنغال)،
بوريس بوبكار ديوب،
بوعزة بنعاشر،
جون بيير إيلون مباصي
(الكامرون)
رئيس الجلسة :
عمر الصاغي

كتابات أمازيغية (المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية)
أحمد بوكوس،
فاطمة بوخريص،
إدريس أزدود
رئيس الجلسة :
بلقاسم الجطاري

تجربة الحدود، بين الحقيقة والخيال
ادريس كسيكس،
منير سرحاني،
عبدالله بيضا
علي بنمخلوف
رئيس الجلسة :
زهرالدين الطيبي

30:16 - 00:15

مغرب اليوم
محمد ندالي،
يوسف أمين العلمي،
محمد الناجي،
موحى سواك،
جليل بناني،
ادريس الكراوي،
رشيد خالص
رئيس الجلسة :
عبدالله الترابي

أدب الشباب المغاربي : واقع الحال، الرهانات والآفاق
نادية السالمي،
رؤوف الكرّاي (تونس)،
دليلة نجم (الجزائر)
رئيس الجلسة :
حسن إد ابراهيم

قراءات قصصية
نعيمة لهبيل،
أنيس الرافعي،
عبد النبي دشين،
لطيفة باقا،
محمد المرابطي،
بديعة بنمراح،
زياد خداش،
سامح دوريش
رئيسة الجلسة :
السعدية سلايلي

مناقشة : أن تكون مهاجرا في المغرب
جليل بناني،
جان بول كافاليري
(UNHCR)،
بوعزة بنعاشر،
عبد الفتاح لؤي (فلسطين)،
خالد شيات،
ادريس جعيدان،
خالد مني،
رئيسة الجلسة :
نادية صلاح

الجمعة 22 شتنبر 2017 (تتمة)

00:18 - 45:16

الشباب والهجرة نحو اسبانيا : وجهات نظر - مؤسسة الثقافات الثلاث (اسبانيا) كارمن فيرنانديز طفورا (اسبانيا)، خوسي مانويل سيرفيرا (اسبانيا)، انطونيو شافيز روندون (اسبانيا)، العربي الحسن، مومن الصوفي، كريمة بوعلال، عزيز أمحجور، معاذ جامعي **رئيس الجلسة :** مولاي احمد الكمون	**قراءات شعرية 1** أيمن حسن، عبد السلام بِوحْجَر، الحسين القِمَري، محمد لَقاح، خليل الهاشمي الإدريسي، حسن الوزاني، مهدي التماني (ليبيا)، أحمد عصيد **رئيس الجلسة :** سامح درويش		

السبت 23 شتنبر 2017

00:11 - 30:09

	النشر المشترك المغاربي ليلى الشاوني، جاد حب الله، هيثم فاضل، عبدو حميد، عبد الجليل ناظم، مونية المصمودي (تونس)، أحمد بودرمين (الجزائر)، محمد رشيد الشرايبي، هشام العلمي الوالي، عبيد النوري (تونس)، علي عوين (ليبيا) **رئيس الجلسة :** عبد القادر الرتناني	**في معنى أن تكون إفريقيا اليوم** يحيى أبو الفرح، أحمد عصيد، إبراهيم الحيسن، محمد الصغير جنجار، أمادو (السنغال)، **رئيس الجلسة :** جون بيير إيلون مباصي (الكامرون)	**تجارب في الكتابة النسائية** دنيا الشدادي، ماريا كْسوس، صونيا التراب، **رئيسة الجلسة :** لمياء برادة بيركة

السبت 23 شتنبر 2017 (تتمة)

45:12 - 15:11

وساطة أدب الشباب : تنشيط القراءة - قراءة المتعة، الحكاية - الاستغلال الديداكتيكي لألبوم الشباب روزالبا باليرميتي (فرنسا)، إيفلين ريشار (فرنسا) **رئيسة الجلسة :** أمينة الهاشمي العلوي	**«الجائزة العالمية للرواية العربية»** فْلور مُنْتَنارو (انجلترا)، نُجوم الغانْم (الإمارات العربية المتحدة)، زهور كُرام، محمد الأشعري، واسيني الأعرج (الجزائر)، شكري المبخوت (تونس)، نسيمة الراوي، عبد السميع بنصابر **رئيس الجلسة :** ياسين عدنان	**الخصوصيات الثقافية : عامل من عوامل التنمية ؟** محمد الطوزي، عبد السلام الشدادي، عبد الرحمان رشيق، عبد الله ساعف، فتح الله ولعلو **رئيس الجلسة :** ادريس العيساوي	**تكريم لفاطمة المرنيسي وآسيا جبار** عائشة بلعربي، حورية عبد الواحد، ربيعة جلطي (الجزائر)، ليلى مروان (الجزائر)، حبيب بن صالحة (تونس) **رئيسة الجلسة :** سناء غواتي

30:16 - 00:15

تكريم لمحمد أركون ومحمد عابد الجابري : مقاربات الجمع حسن نجمي، فرانسوا ليفوني (فرنسا)، محمد بنعمر، سعيد تونا **رئيس الجلسة :** محمد بشير زناكي			**العيش معاً** أحمد فريد المريني، محمد الصغير جنجار، **رئيس الجلسة :** مصطفى بن الشيخ

30:18 - 00:17

الثقافات والهجرة مجلس الجالية المغربية بالخارج نورالدين عالم، الأستاذ أبو بكر، الأستاذ ميمون الداودي، الأستاذ عزيز حارو، الأستاذ عبد اللطيف معروفي، **رئيس الجلسة :** عبد القادر الرتناني		**مكانة الرسم التوضيحي في أدب الشباب : ماذا عن الرسم التوضيحي للشباب المغاربي ؟** رؤوف الكرّاي (تونس)، سمر محفوظ البراج، منى يقظان، وليد الطاهر، نادية السالمي **رئيسة الجلسة :** أمينة الهاشمي العلوي	**دور المثقف** محمد دوزي، ياسين عدنان، ادريس كسيكس، بيوس ديالو **رئيس الجلسة :** بوعزة بنعاشر

الأحد 24 شتنبر 2017

00:11- 30:09

	ورشة تكوين محاضرة حكواتية، رهانات الحكايات التقليدية في عصر الحداثة : نجيمة طايطاي، مليكة حَلباوي	**تمثيلية المغرب في المعارض الدولية للكتاب** عبد القادر الرتناني، رشيد خالص **رئيسة الجلسة** : أمينة مديب	**«ذاكرات يهود شرق المغرب»** عبد القادر الرتناني، مونيك ݣولدبورك (فرنسا) بوعزة بنعاشر **رئيس الجلسة** : نور الدين بوصفيحة

45:12 - 15:11

قراءات شعرية 2 محمد بنطلحة، محمد علي الرباوي، سامح درويش، عبد الرحمان بوعلي، جمال أزرغيد، عائشة المغربي (ليبيا)، محمد الوكيرة **رئيس الجلسة** : عبد القادر الغُزالي	**ورشات الكتابة** : **كيف نكتب رواية أو قصة قصيرة** أمينة عاشور، بْيوس دْيالو (موريتانيا) عبد النبي دشين **رئيس الجلسة** : خالد الزْكري		**تقديم الكتاب الجميل «الشرق المغربي، قرون من فن الطبخ اليهودي»** ماكي كاكون، مونيك ݣولدبورك، عبد القادر الرتناني، بوعزة بنعاشر **رئيس الجلسة** : نور الدين بوصفيحة

آداب مغاربية

LETTRES DU MAGHREB

الـدورة الأولـى

وجدة، من 21 إلى 24 شتمبر 2017

تـقـريـر حول الأنـشـطـة

الشباب هو الأمل

أسدل الستار على فعاليات «آداب مغاربية» في جو من البهجة والسرور على أمل أن يتجدد اللقاء في الدورة المقبلة من السنة القادمة. ويبدو بالأهمية بمكان، في الوقت الراهن، إجراء تقييم أولي لهذا المعرض المغاربي الرائع، بغية جمع المعطيات قصد دراستها وتثمينها. أي باختصار، كل الوسائل التي من شأنها التشجيع على المشاركة في الدورات المقبلة، التي ستكون بطبيعة الحال أفضل من الدورة الافتتاحية التي اختتمت اليوم فعالياتها.

إن الشعار الذي تم اختياره للمعرض سنة 2017، «لنعبر عن الشباب، لنكتب الأمل»، ينسجم مع أولى الاهتمامات التي عبر عنها جلالة الملك محمد السادس، نصره الله، خلال كلمته الافتتاحية للجلسة البرلمانية الخريفية يوم 13 أكتوبر الماضي. فإذا كان الشباب في نفس الوقت ثروة ورهان حقيقي أمام المجتمع، فذلك يرجع بالأساس في المغرب - وعلى نطاق أوسع في المنطقة المغاربية بل وحتى بالنسبة للقارة بأكملها - إلى ندرة نماذج التنمية التي تستهدف الشباب، علاوة على ضعف الملاءمة بين تكوينهم ومتطلبات سوق الشغل. وفي المقابل، نجد نماذج أخرى خارجية مغرية، لكن محملة أحيانا بنوايا «الغزو والهيمنة» ومدعومة بوسائل إعلام قوية، والتي قد تعد بعالم أفضل يتوافق فيه الماضي والمستقبل، الأمر أشبه ما يكون بخدعة سحرية.
لذا فإن إعادة الاعتبار لشبابنا وإدماجهم كجزء قوي من ثقافتنا، يتطلب نوعاً من التحديث الثقافي الذي من شأنه استعادة الشعور بالفخر والاعتزاز بالانتماء للمنطقة المغاربية، ولعل هذا ما سيساهم في تحرر الشباب من قيود الحدود لاسيما أن هذا الإحساس نابع من إدراك حقيقي. ولعل معرفة هذا التراث الثقافي المهم المتراكم على مر السنين من قبل مجتمعاتنا، والذي يشكل ذلك «الحس العام» الذي يتقاسمه جميع المغاربيين، والعمل على تثمين هذا التراث، ولاسيما الإنتاجات الجديدة. وبما أن بلداننا غنية بالابتكارات والأعمال الحديثة، فلماذا نترك إذا للآخرين فرصة الحكم عليها وتوزيعها ؟

معرض «آداب مغاربية» يعد مبادرة تهدف إلى استرجاع الهوية الثقافية لمجالنا الترابي، لاسيما أن الثقافة الوطنية الأصيلة تعتبر في الوقت الراهن شرطا أساسيا لإنجاح قاطرة التنمية بالبلاد، وللإشارة، هذا المعرض، وكل الأنشطة المنبثقة عنه، موجه إلى ما يقارب مائة مليون شخص في المنطقة المغاربية. ولقد رأى هذا المعرض النور عند الملتقى الجغرافي والتاريخي للعديد من التيارات الاقتصادية والحضارية، من الشرق والغرب وكذا من الجنوب والشمال، بمدينة وجدة، وهي مدينة مغاربية سمتها التعايش والتسامح. هذا العمق التاريخي والثقافي، وهذه الثقافة التقليدية الجهوية للتواصل تفسر كلها بجلاء حماس المؤسسات المحلية والإقليمية للمشاركة والانخراط لإنجاح هذه المبادرات.
علاوة على ذلك، فإن الانخراط الفكري في إطار مفهوم «المغرب الثقافي الكبير»، والذي يستمد قوته من الأواصر القائمة بين بلدان المنطقة وكذا علاقاتها مع باقي بلدان القارة السمراء، يجسد أحد أهم أبعاد استراتيجيات المملكة المغربية، في عهدها الجديد، التي ما فتئت تقترحها على بلدان الجوار. في هذا الصدد، فقد شكلت الرعاية السامية لصاحب الجلالة الملك محمد السادس، حفظه الله، لهذا الحدث إشارة قوية تعبر عن دعم الدولة لهذا المعرض.

معرض «آداب مغاربية» هو بمثابة احتفال واحتفاء بالثقافة، وفضاء ما انفك يسحر ويفتن العديد من الزوار المدعوين لإكتشاف الإبداع المغاربي وعمق الحضارة التاريخية في إنتاجاتنا المكتوبة، وهو أيضا عملية تواصل مهمة، يتوقف نجاحها على مدى السهر على إتقانها باحترافية. إذ يتيح هذا التقرير لجميع الفاعلين فرصة تقييم مدى أهمية الهيكلة المتوفرة ومستوى الصعوبات التي كان من اللازم التغلب عليها لإخراج هذا المعرض في أحسن حلة وأفضل تدبير.
في هذا الإطار، عمدت وكالة جهة الشرق على إحداث «بنية» متخصصة وعملت بجهد لإيجاد شركاء وفاعلين في مجال الخدمات بغية تقديم المعرض في أبهى حلة. وقد استغرق الأمر عدة أشهر من التحضير وتعبئة جميع الفاعلين. ومن أجل تحسين أدائنا خلال الدورات المقبلة، انطلقت منذ الآن عمليات التعبئة للتحضير للدورة الثانية سنة 2018. وأود بهذه المناسبة أن أوجه الدعوة لكل القراء بغية إثراء الصفحات الموالية بتأملاتهم وأفكارهم من أجل الإسهام في الإعداد لمعرض الكتاب «آداب مغاربية».

محمد امباركي
رئيس معرض «آداب مغاربية»
المدير العام لوكالة جهة الشرق

معرض الكتاب :
تنظيم احترافي وتغطية إعلامية مهمة

في خضم تبلور فكرة معرض الكتاب «آداب مغاربية» تم التفكير في تصميمه ليصبح «علامة مسجلة». إذ يحمل في طياته رسائل للجمهور المغربي تبرز أهمية موقع جهة الشرق وخاصة عاصمتها، مدينة وجدة باعتبارها القلب النابض وبؤرة استقطاب مهم في منطقة المغرب الكبير.

وقد أعلن هذا المعرض عن ميلاد حدث سنوي إضافي بمدينة وجدة، يعزز بعدها الدولي، حيث تمت تعبئة وسائل إعلام مهمة على شبكة الإنترنت وكذا الإذاعات والقنوات التلفزية والصحافة المكتوبة من أجل التعريف به على نطاق واسع. كما سيتم الترويج له عبر الإعلانات الإشهارية واللافتات والمقالات، لكي تبلغ شهرته أقصى الحدود الممكنة.
كما يعتبر معرض «آداب مغاربية» مناسبة هامة لتثمين مكتسبات المدينة والجهة ككل. إذ علاوة على تعبئة وسائل الإعلام الجهوية، ستتم زخرفة المدينة بألوان هذا الحدث الكبير وستتزين شوارعها بالأضواء وألوان اللافتات على مستوى الفضاءات التي ستشهد تنظيم هذا الحدث. من جانب آخر، سيتم استقبال المشاركين والسهر على راحتهم وتوجيههم بمجرد وصولهم سواء القادمين عبر النقل الجوي أو البري (الطريق الوطنية أو الطريق السيار أو القطار).

سيصبح معرض «آداب مغاربية» علامة مسجلة معروضة في كافة الأماكن المعنية بالحدث، كما ستطبع هذه العلامة في ملصقات المعدات المقدمة للمشاركين، وكذا في اللافتات وفي المواد الإعلامية سواء الفردية أو الجماعية.
كما يتيح هذا المعرض الفرصة للناشرين والشركاء للقاء الجمهور والمشاركين في إطار «عرض احترافي مهني». لأجل ذلك، تم توزيع دليل المشاركين، الذي يقدم كل المعلومات العملية الضرورية وكذا النظام الداخلي للمعرض، بالإضافة إلى مواصفات منصات العرض.
وتجدر الإشارة إلى أن المتابعة المباشرة للمعرض ستكون متوفرة بشكل مستمر طوال فترة تنظيمه، علاوة على تسجيل كامل للندوات وورشات العمل، والتي سيتم تفريغ محتواها كتابة حيث ستنشر على الموقع الإلكتروني الرسمي والشبكات الاجتماعية فايسبوك وتويتر وإنستغرام.

الموقع الإلكتروني الرسمي لمعرض «آداب مغاربية»
www.lettresdumaghreb.com

2400 متر مربع لسرادق 40 متر على 60 متر

4 قاعات الندوات

6 أجنحة معدلة

32 أجنحة مجهزة

1 مقهى أدبي

1 مركز الأعمال

1 منصة الإعلام

1 فضاء المغرب الصحراوي

04
فضاءات
الأطفال

01
فضاء
أڭورا

01
مكتبة
الشباب

5
مراسيم التكريم

تكريم عبد الرحمان زناتي
عميد الرسامين لجهة الشرق

تكريم فلور منتنارو
الجائزة العالمية
للرواية العربية

تكريم أمينة أوفقير
تأطير جوق الأطفال

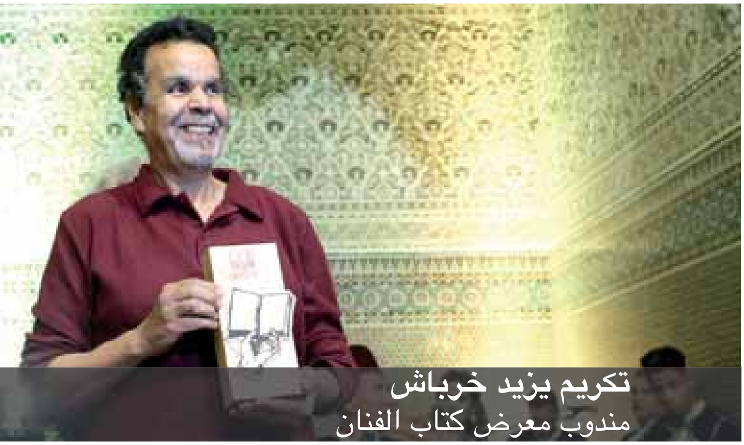

تكريم يزيد خرباش
مندوب معرض كتاب الفنان

**وشاح حريري تم إهداؤه
من طرف السيد برادة
تكريماً لنساء «آداب مغاربية»**

LETTRES DU

DU LIVRE

DU LIVRE

SALON MAGHRÉBIN
DU LIVRE
المعرض المغاربي
للكتاب

28

توقيع

3 ندوات صحفية

42 صحافي وصحافية

MAGHREB

MAGHREB

MAGHREB

MAGHREB

1

حفل موسيقي

1

عرض فيلم

7

فرق فولكلورية

1

حصة رقص

01 معرض للفن المعاصر

36 فنانين عارضين

43000+

زائـر

200+

مفكـر

مكتبات الشباب

الناشرين المغاربيين

المؤسسات
الجهوية
والوطنية

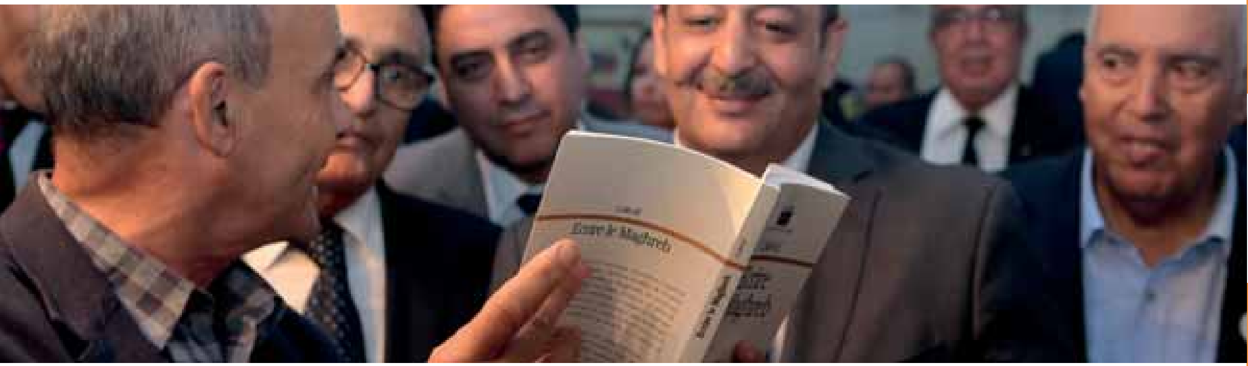

7 مشغلي كاميرا الفيديو

5 مصورين رسمين

1 أستوديو لتجهيز
أفلام فيديو عالية الجودة

20000+

إشارة إعجاب على مواقع التواصل الاجتماعي

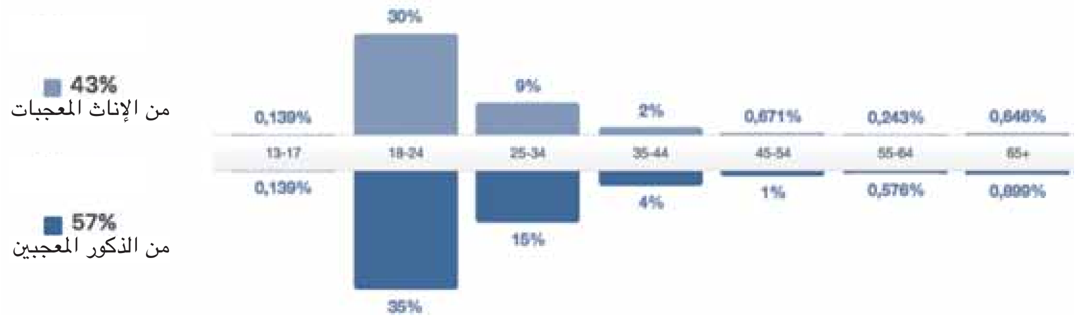

1

موقع إنترنت حديث المواصفات

115 +

مقال صحفي

1 حافلة

7 سيارات للشخصيات المهمة

6 حافلات صغيرة

13 سيارة

الشـــركـاء

وكالة جهة الشرق

مجلس جهة الشرق

ولاية جهة الشرق

الوزارة المكلفة بالمغاربة المقيمين بالخارج وشؤون الهجرة

وزارة الثقافة والاتصال

الاتحاد المهني للناشرين بالمغرب

المعهد الفرنسي بوجدة

الجماعة الحضرية وجدة

جامعة محمد الأول، وجدة

المندوبان

مصطفى كبير عمي

حسن نجمي

فريق وكالة الشرق

- أمطاط حسن
- بياب عبد العزيز
- بلحسين جواد
- بن حليمة هدى
- بنموسى جلال الدين
- بيطاري عبد القادر
- بوعالي لحسن
- بوخاري محمد
- شوقيري نورالدين
- دردوش الجيلالي
- العجرودي فردوس
- البليدي محمد علي
- الجفالي سميرة
- الوهابي حسن
- الكبير حنو
- حميمو سهام
- جوات حنان
- جليلي نعيمة
- كروم محمد
- لعريبي أمينة
- مودن عبد الرحيم
- الناوي مريم
- رابح عبد المجيد
- سليسلي مجدولين
- سياجي بشرى
- يحيى كريم
- الزروالي سناء
- دينار رضوان
- ماهر سعيدة

كافة الأفكار الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي أصحابها،
ولا تعبر بتاتا عن وجهة نظر وكالة جهة الشرق

وكالة جهة الشرق
إصدارات oriental.ma / شتنبر 2018